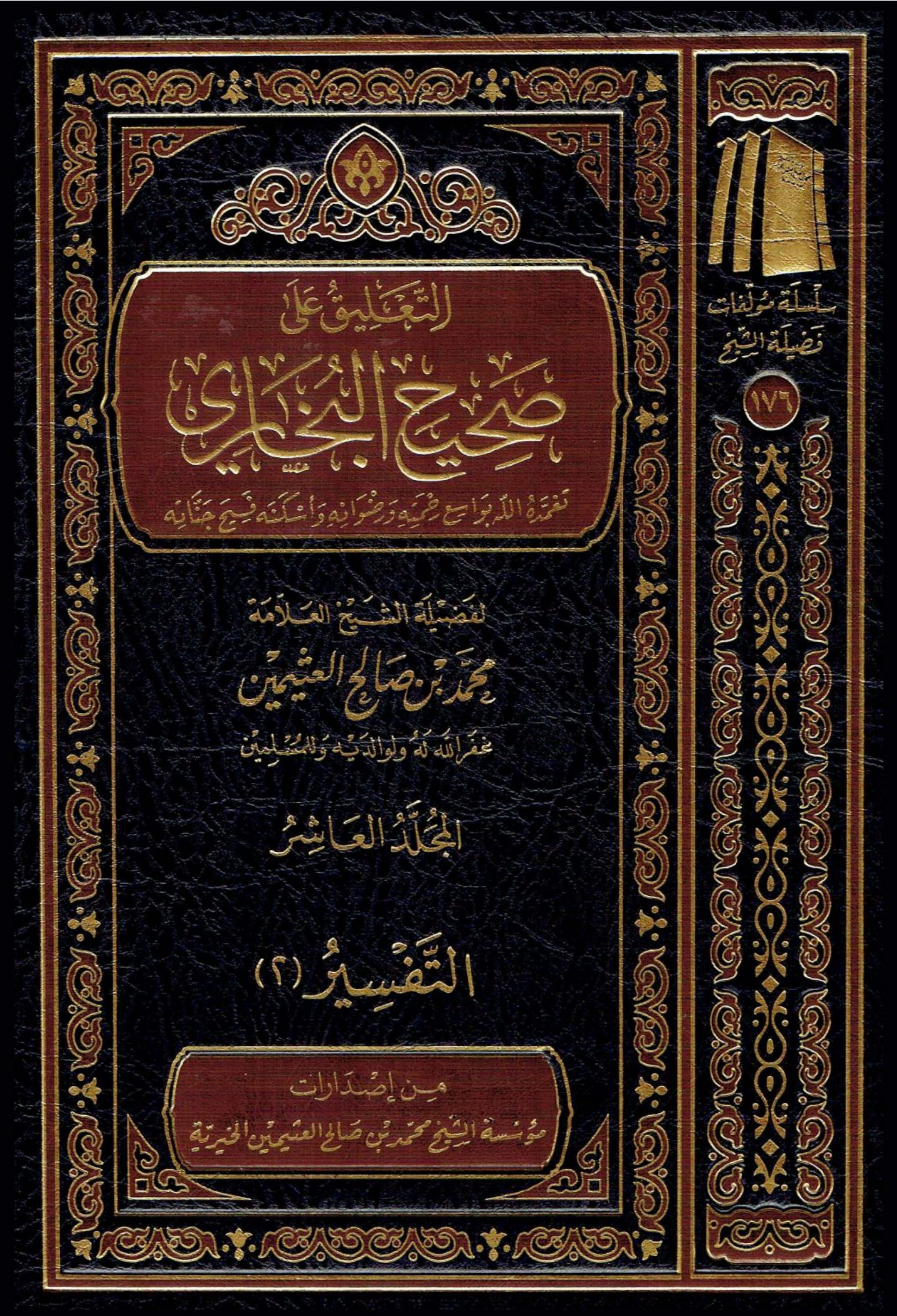
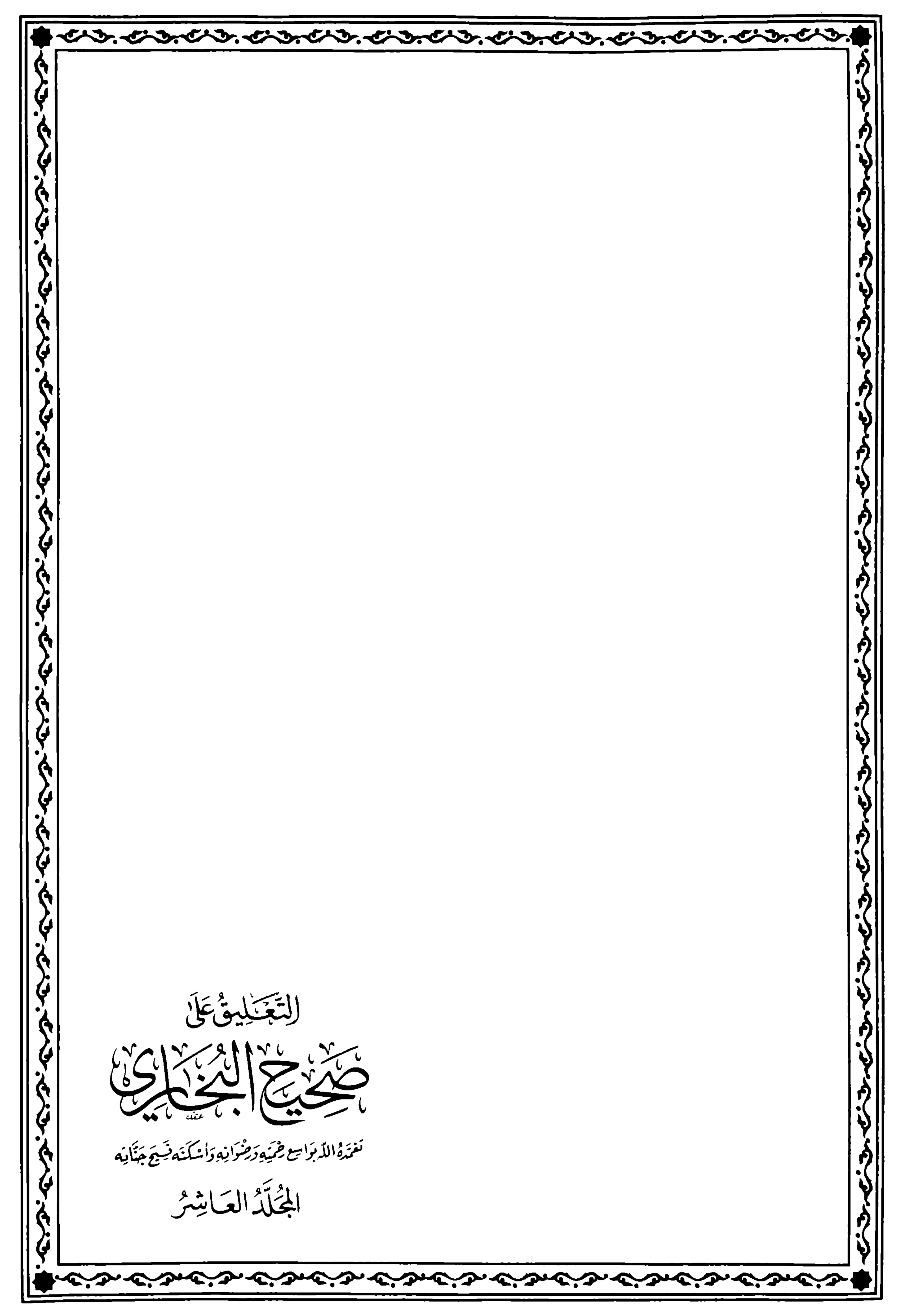


التعليق على
صحيح البخاري
تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته
لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين
المجلد العاشر
التفسير (٢)
من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ
١٧٦

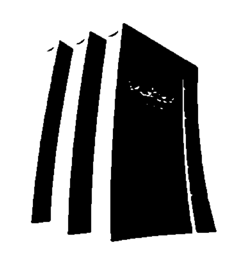

التعليق على
صحيح البخاري
رحمه الله
تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته
المجلد العاشر

ⓒ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية ، ١٤٣٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين ، محمد بن صالح
التعليق على صحيح البخاري . / محمد بن صالح العثيمين ط ١ -
القصيم ، ١٤٣٩ هـ / ١٦ مج .
٩٧٦ص ؛ ١٧×٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين ؛ ١٧٦)
ردمك : ٩-٤٦-٨٢٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٨-٥٦-٨٢٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج ١٠)
١- الحديث الصحيح. ٢- الحديث - شرح . أ . العنوان
ديوي ١ . ٢٣٥ ٢٠٠٥ / ١٤٣٩

رقم الإيداع: ٢٠٠٥ / ١٤٣٩
ردمك: ٩-٤٦-٨٢٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٨-٥٦-٨٢٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج١٠)

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص . ب : ١٩٢٩
هاتف : ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ : ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوّال المبيعات : ٠٥٠٠٧٣٣٧٦٦
www.binothaimeen.net
info@binothaimeen.com



الموزع المعتمد و الحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرَّة الدولية للطباعة و التوزيع
١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة .
هاتف و فاكس : ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول : ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٧٦)

التعليق على صحيح البخاري

تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

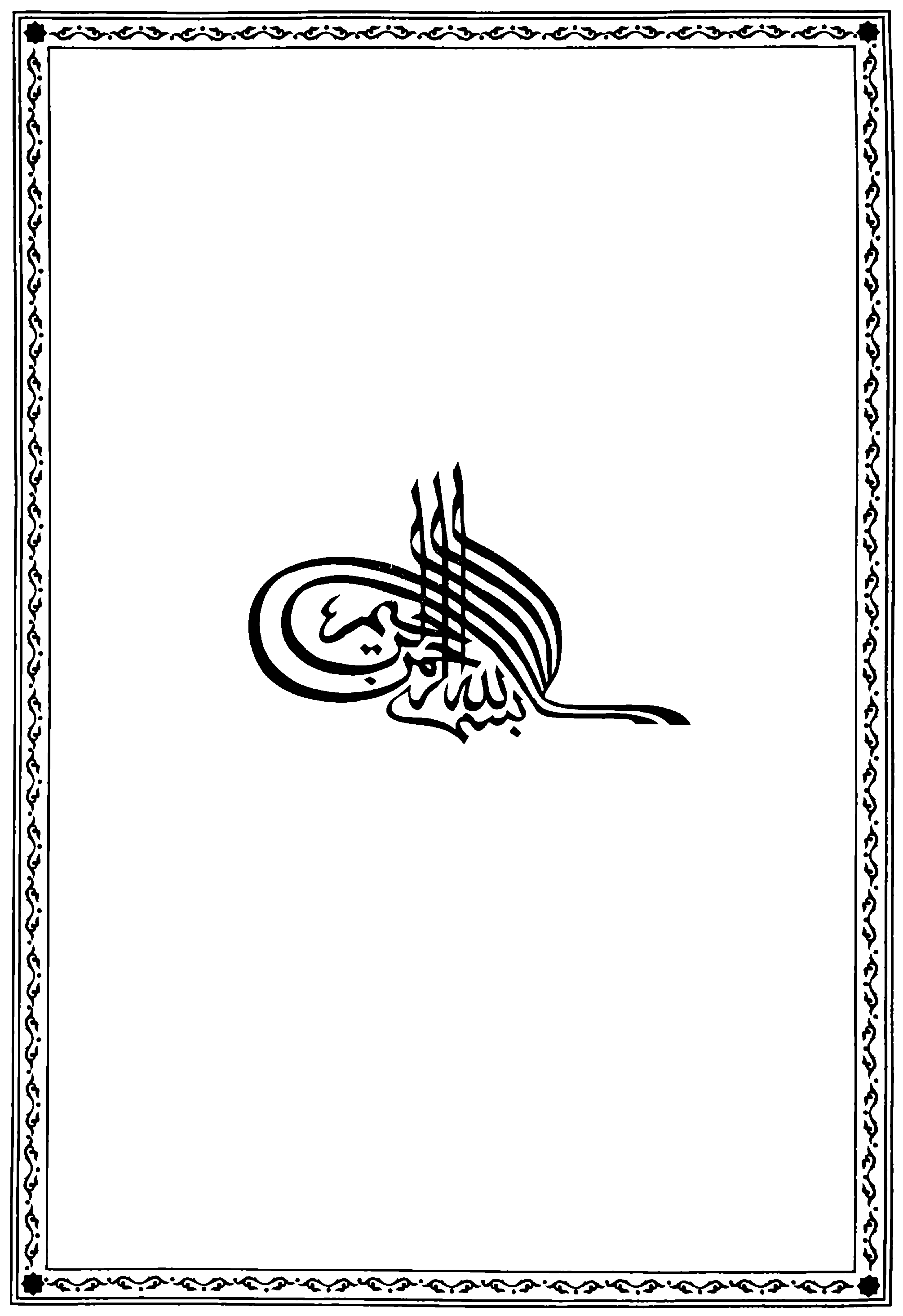
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

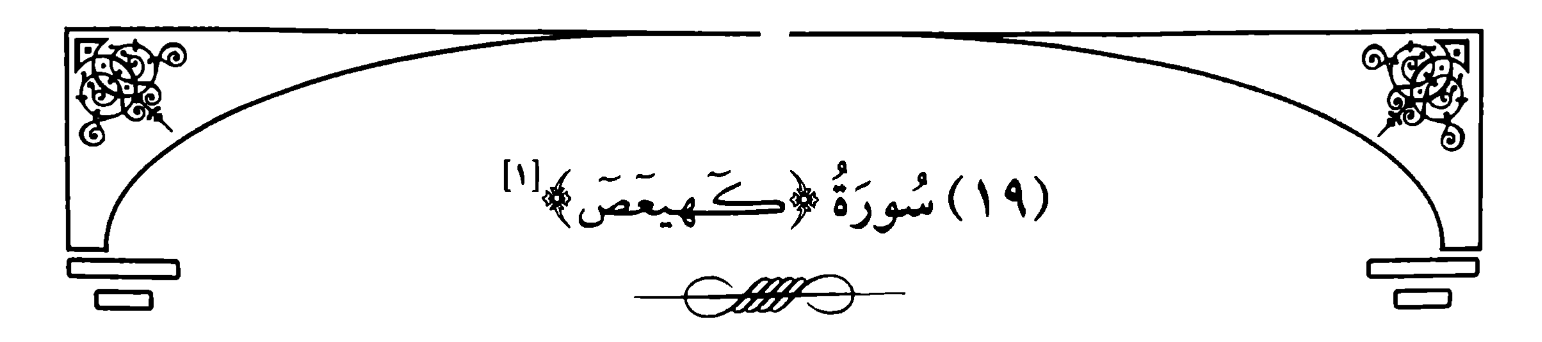
المجلد العاشر

التفسير (٢)

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


بسم الله الرحمن الرحيم



(١٩) سُورَةُ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[١]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ اللهُ يَقُولُهُ، وَهُمُ الْيَوْمَ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ.

﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ الْكُفَّارُ يَوْمَئِذٍ أَسْمَعُ شَيْءٍ وَأَبْصَرُهُ[٢].

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ هي أطولُ الآيات التي فيها الحروف الهجائية، وقد سَبَقَ أن هذه الحروف الهجائية حروفٌ ليس لها معنًى في حدِّ ذاتها؛ وذلك لأن القرآن نزل باللغة العربية، واللغة العربية لا تقتضي أن يكون لهذه الحروف معنًى.

لكن بعض أهل العلم قال: إن لها مَغْزًى، وهو أن هذا القرآن الذي أعْجَزَ البشر لم يأتِ بجديد في الحروف والكلمات، بل هو من هذه الحروف التي يُرَكِّب الناسُ كلامَهم منها، وأيَّدوا قولَهُم هذا بأنك لا تكاد تجد سورةً مبدوءةً بهذه الحروف الهجائيَّة إلا وجدت بعدها ذِكْرَ القرآن أو ذِكْرَ ما هو من خصائص القرآن، كالإخبار عمَّا سَبَقَ ومضى.

[٢] وقع في بعض النسخ: «قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَبْصِرْ بِهِمْ وَأَسْمِعْ» وكأن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فسَّرها بغير اعتبار الترتيب، وإلا فلا تُوجَد قراءةٌ على هذا الترتيب.

ومعنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم يوم القيامة، فهذه صيغةٌ من صيغ التعجُّب، والتعجُّب له صيغتان:

﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ لَأَشْتِمَنَّكَ[١].

﴿وَرِءْيًا﴾ مَنْظَرًا[٢].

وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ تُزْعِجُهُمْ إِلَى المَعَاصِي إِزْعَاجًا[٣].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِدًّا﴾ عِوَجًا[٤].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وِرْدًا﴾ عِطَاشًا[٥].

= الصيغة الأولى: «مَا أَفْعَله».

والصيغة الثانية: «أَفْعِلْ به».

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾ يعني: في الدنيا ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ضلال بيِّن، أمَّا في الآخرة فإنهم يسمعون ويُبْصِرون؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢].

[١] على هذا التفسير يكون من باب الرجم بالقول، ولكن الظاهر أن المراد به: لأرجمنَّك بالحِجارة، أمَّا مُجَرَّد الشتم فليس فيه ذاك الوعيد الذي يُخاف منه.

[٢] «رِءْيًا» من: الرُّؤْية، اسم مصدر؛ ولهذا قال: «مَنْظَرًا».

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي: تزعجهم إزعاجًا إلى المعاصي، وكأنما تسوقهم بشدَّة وعُنْف.

[٤] يعني بذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ أي: عِوَجًا، فالذين يدَّعُون أن الله عَزَّوَجَلَّ اتَّخذ ولدًا جاؤوا شيئًا إدًّا بلا شَكٍّ.

[٥] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أي: عِطاشًا، وكانوا

﴿أَثَٰثًا﴾ مَالًا.

﴿إِدًّا﴾ قَوْلًا عَظِيمًا.

﴿رِكْزًا﴾ صَوْتًا.

﴿غَيًّا﴾ خُسْرَانًا[١].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ فَلْيَدَعْهُ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: بُكِيًّا: جَمَاعَةُ بَاكٍ[٢].

﴿صِلِيًّا﴾ صَلِيَ يَصْلَى.

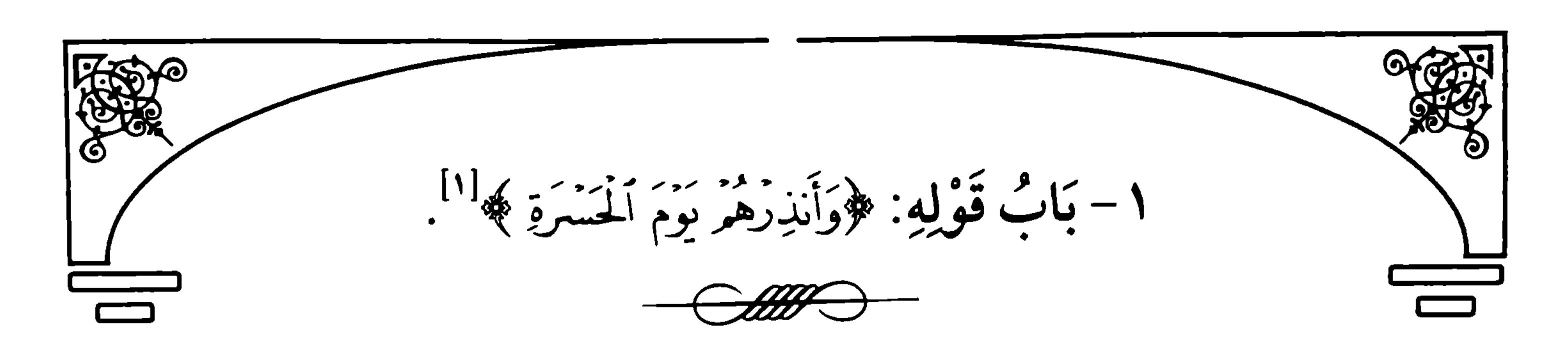
﴿نَدِيًّا﴾ وَالنَّادِي وَاحِدٌ: مَجْلِسًا.

= يعطشون، فتُمَثَّل لهم النار كأنها سرابٌ، والسراب هو الذي يحسبه الظَّمْآن ماءً، فيتساقطون فيها، فإذا هي نار جهنم، نسأل اللهَ العافيةَ.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي: خسرانًا.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ قال: «جَمَاعَةُ بَاكٍ» أي: جمع باكٍ، وجمع «باك»: بُكِيٌّ، وبُكَاةٌ.





١- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾[١].

٤٧٣٠- حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ: حَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ: حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِالمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ! فَيَشْرَئِبُّونَ، وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ! فَيَشْرَئِبُّونَ، وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ! خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ! خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٢].

---

[١] قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ أي: أَنْذِر الناس ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ يعني: يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:١٦٧] والحسرة هو الندم وشدَّة التأسُّف والأسف والحزن.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ يعني: الآن في وقت الإنذار، أي: أَنْذِرْهم فإنهم في غفلةٍ، وليس قوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ مُتعلِّقًا بقوله: ﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ لأنه إذا قُضِيَ الأمْرُ يكونون في انتباه وتيقُّظ، لكنهم الآن في غفلة.

[٢] قول النبيِّ ﷺ: «يُؤْتَى بِالمَوْتِ، فَيُذْبَحُ» الموت معنًى من المعاني، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يجعله جسمًا يُرى، ولا صحة لِمَن توهَّم أن المراد: يُؤْتَى بمَلَكِ الموت؛ فإن المَلَكَ

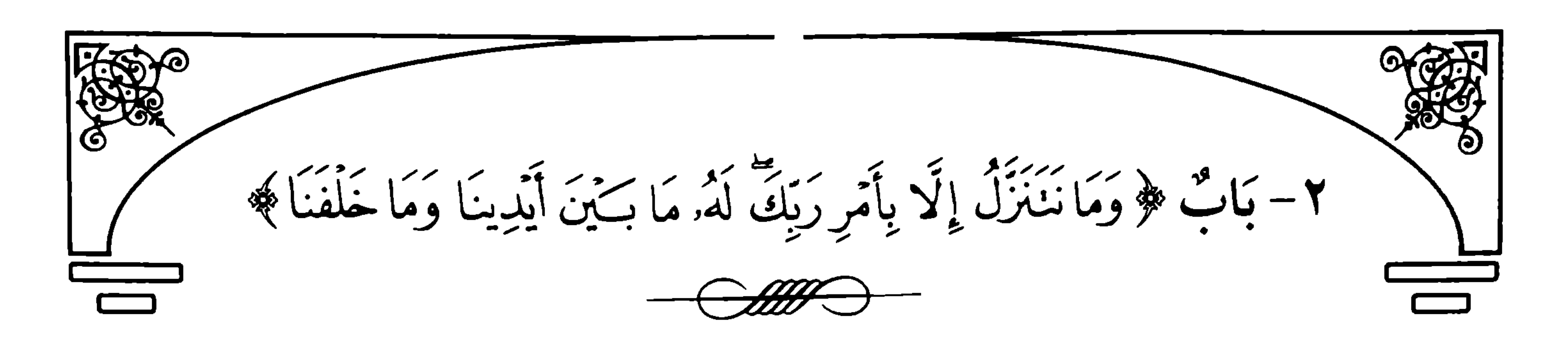
....

= مَلَكٌ عظيمٌ، لا يُمكن أن يُذْبَح، والحديثُ صريحٌ بأنه يُؤْتَى بالموت، ولا إشكالَ فيه، إلا أنه كيف يكون الموت كبشًا؟ فيُقال: إن الله تعالى على كل شيء قدير، ولا نعلم ما هي الحكمةُ في ذلك؟ فالله أعلم، لكنه يأتي على هذا الوجه.

ويُنادَى أهلُ الجنة وأهل النار، ويُقال: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، كلهم يعرفونه، بمعنى: أنه يُلْقَى في قلوبهم أن هذا هو الموت، فيُقال: «**يَا أَهْلَ الجَنَّةِ! خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ! خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ**» أي: فلا مَوْتَ لكم، فيزداد أهل الجنة سرورًا إلى سرورهم، وفرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار غمًّا إلى غمِّهم؛ لأنهم ييأسون من الموت ومن الحياة.

وقوله: «فَيَشْرَئِبُّونَ» أي: يتطلَّعون إلى هذا المنادي الذي ناداهم، والظاهر -والله أعلم- أنه مَلَكٌ من الملائكة، يأمره الله تعالى، فيُنادي.





٢- بَابٌ ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾

٤٧٣١- حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي، عَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِجِبْرِيلَ: «**مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟**» فَنَزَلَتْ: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾[١].

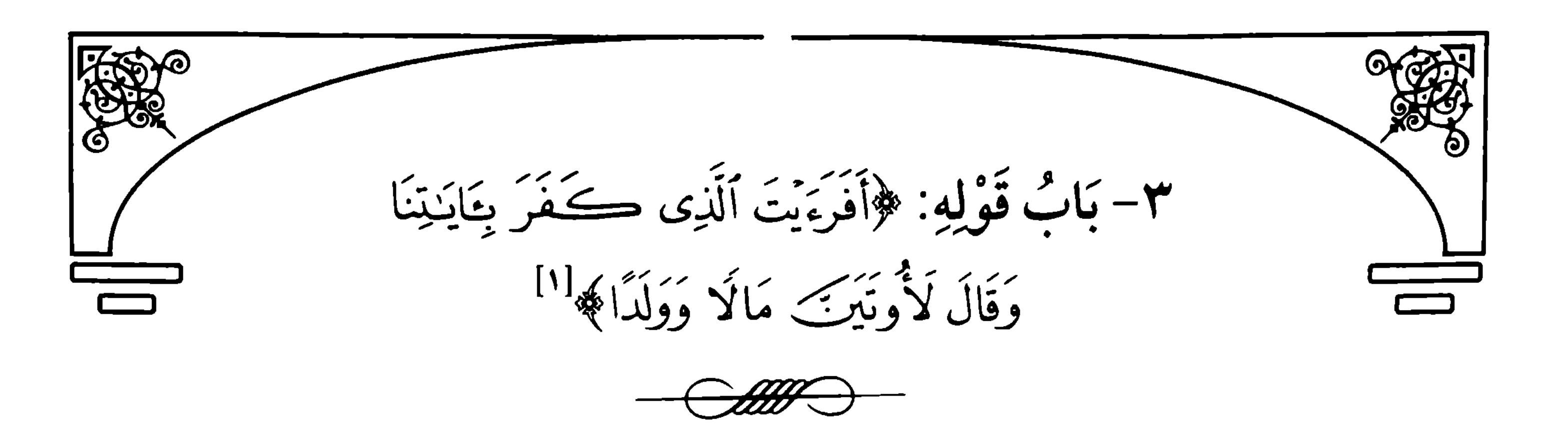
---

[١] هذا الحديث يُبَيِّن سببَ نزول الآية.

وفيه: دليلٌ على اشتياق الرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لزيارة جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وأنه يودُّ أن يزوره دائمًا؛ لأن في زيارته خيرًا وبركةً، ولكن جبريل وغيره لا يُمكن أن يفعل شيئًا إلا بأمْرِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾ يعني: من السماء ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ إلا بأمر الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ أي: مستقبلنا ﴿وَمَا خَلْفَنَا ﴾ أي: ما وراءنا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾.

ورُبَّما يُؤْخَذ من هذا الحديث: أنه ينبغي للإنسان أن يدْعُوَ مَنْ ينتفع بهم، وكان السلف من هديهم أن أحدهم إذا لاقى أخاه يقول: اجلس بنا نُؤمن ساعةً، فيجلسون ويتذاكرون؛ ليزداد إيمانُهم.





٣- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[١]

٤٧٣٢ - حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَمِعْتُ خَبَّابًا، قَالَ: جِئْتُ العَاصَ بْنَ وَائِلٍ السَّهْمِيَّ أَتَقَاضَاهُ حَقًّا لِي عِنْدَهُ، فَقَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَقُلْتُ: لَا حَتَّى تَمُوتَ، ثُمَّ تُبْعَثَ، قَالَ: وَإِنِّي لَمَيِّتٌ، ثُمَّ مَبْعُوثٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّ لِي هُنَاكَ مَالًا وَوَلَدًا، فَأَقْضِيكَهُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

---

[١] قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الخطابُ للرسول ﷺ، أو لكل مَن يتأتَّى خطابه، و«أرأيت» بمعنى: أخبرني ما شأنُهُ؟ وماذا يكون؟ ومع ذلك تمنَّى على الله الأمانيَّ، فقال: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ أي: لأُعْطَيَنَّ في المستقبل، وهذا كقول صاحب الجنتيْنِ حينما قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦].

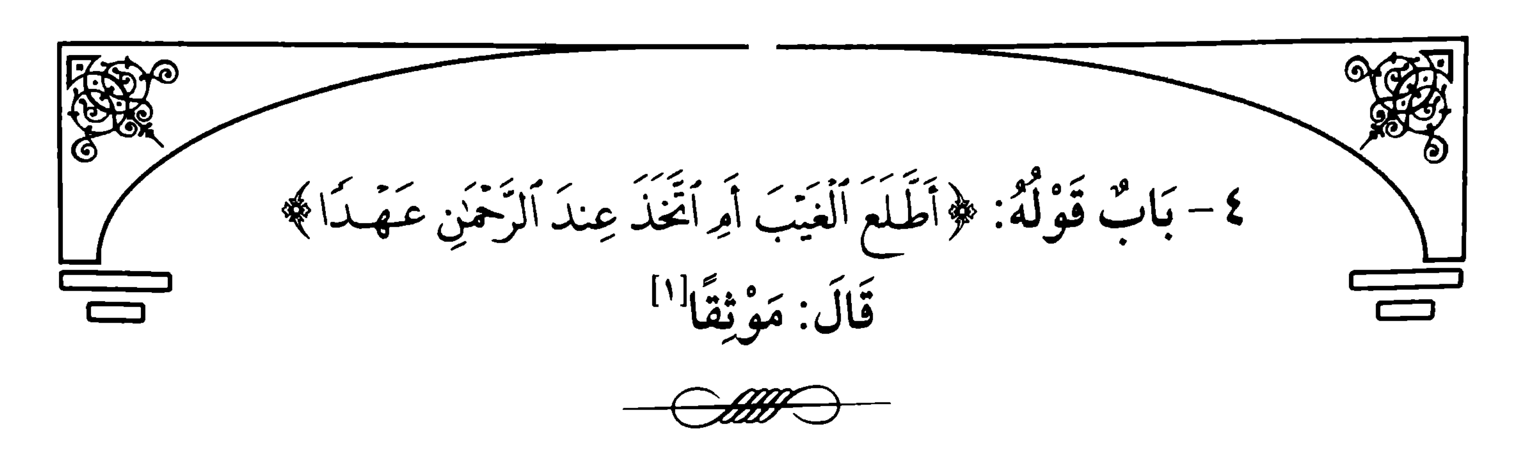
ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ وهذا هو تقرير قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ يعني: هل اطَّلع الغيبَ، وعرف أنه يُؤتَى مالًا وولدًا ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ فإمَّا أن يكون عنده علمٌ ذاتيٌّ بأنه سيُؤْتَى مالًا وولدًا، وإمَّا أن يكون قد اتَّخذ عهدًا عند الله أن يُؤْتِيَهُ مالًا وولدًا، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ يعني: لا هذا ولا هذا ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾.

رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ وَشُعْبَةُ وَحَفْصٌ وَأَبُو مُعَاوِيَةَ وَوَكِيعٌ، عَنِ الأَعْمَشِ[١].

---

[١] لَمَّا ساق الحديث من رواية سُفيانَ بن عُيَيْنَةَ، عن الأعمش، ذكر أن هؤلاء تابعوه؛ تَقْوِيَةً له.





٤- بَابُ قَوْلُهُ: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قَالَ: مَوْثِقًا[١]

٤٧٣٣- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ: أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ خَبَّابٍ، قَالَ: كُنْتُ قَيْنًا بِمَكَّةَ، فَعَمِلْتُ لِلْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ سَيْفًا، فَجِئْتُ أَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، قُلْتُ: لَا أَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى يُمِيتَكَ اللهُ، ثُمَّ يُحْيِيَكَ، قَالَ: إِذَا أَمَاتَنِي اللهُ ثُمَّ بَعَثَنِي وَلِي مَالٌ وَوَلَدٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قَالَ: مَوْثِقًا.

لَمْ يَقُلِ الأَشْجَعِيُّ عَنْ سُفْيَانَ: سَيْفًا، وَلَا مَوْثِقًا[٢].

---

[١] هذا تفسيرٌ للعهد.

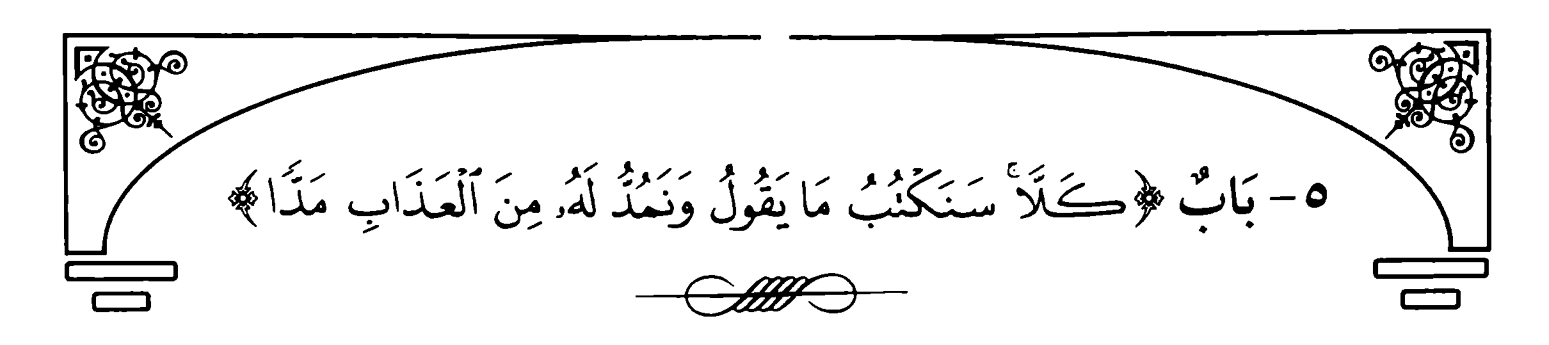
[٢] قوله: «كُنْتُ قَيْنًا» القَيْنُ هو الحدَّاد، كما قال العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الإِذْخِر: «فإنه لبيوتهم وقَيْنِهم»(١) يعني: الحدَّادينَ.

ويُجْمَع «قَيْن» على «أَقْيَان» وقد يُقال: «قُيُون» وجمع التكسير لا قياسَ له.



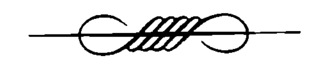
---

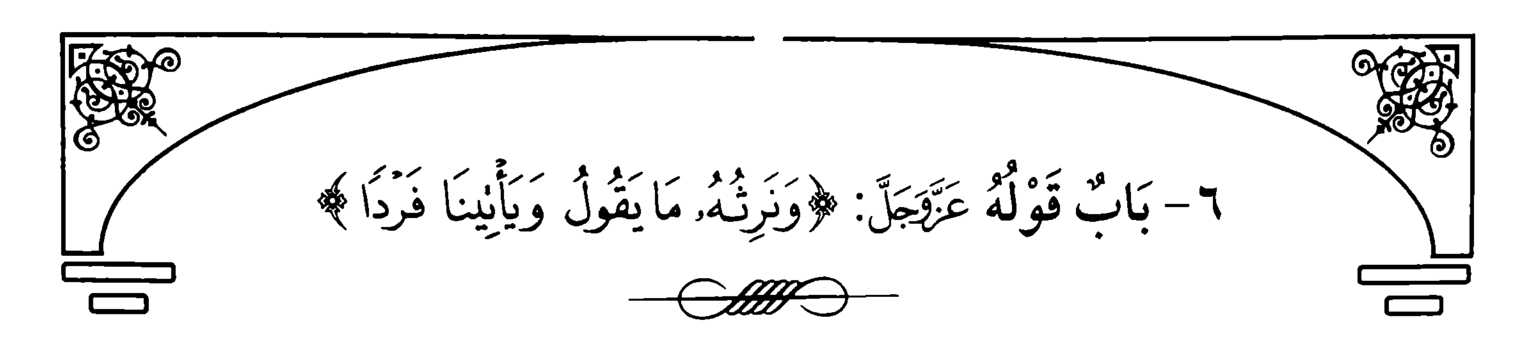
(١) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب لا يحل القتال بمكة، رقم (١٨٣٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها، رقم (١٣٥٣/ ٤٤٥).



٥- بَابُ ﴿كَلَّا سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾

٤٧٣٤- حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ خَالِدٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سُلَيْمَانَ، سَمِعْتُ أَبَا الضُّحَى يُحَدِّثُ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ خَبَّابٍ، قَالَ: كُنْتُ قَيْنًا فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ لِي دَيْنٌ عَلَى العَاصِ بْنِ وَائِلٍ، قَالَ: فَأَتَاهُ يَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ: وَاللهِ لَا أَكْفُرُ حَتَّى يُمِيتَكَ اللهُ ثُمَّ يَبْعَثَكَ، قَالَ: فَذَرْنِي حَتَّى أَمُوتَ، ثُمَّ أُبْعَثَ، فَسَوْفَ أُوتَى مَالًا وَوَلَدًا، فَأَقْضِيكَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا﴾.





٦- بَابُ قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ هَدْمًا.

٤٧٣٥- حَدَّثَنَا يَحْيَى: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ خَبَّابٍ، قَالَ: كُنْتُ رَجُلًا قَيْنًا، وَكَانَ لِي عَلَى العَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ لِي: لَا أَقْضِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، قَالَ: قُلْتُ: لَنْ أَكْفُرَ بِهِ حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ، قَالَ: وَإِنِّي لَمَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ؟! فَسَوْفَ أَقْضِيكَ إِذَا رَجَعْتُ إِلَى مَالٍ وَوَلَدٍ، قَالَ: فَنَزَلَتْ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[1].

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي: يبقى بعده، ويدعه، ويتركه ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ كما قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ، وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ**»(١).

وهنا مسألة: هل يجوزُ للإنسان أن يُخبر عن حاله فيما سبق كقوله هنا: «**كُنْتُ رَجُلًا قَيْنًا**»؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، رقم (٦٥١٤)، ومسلم: كتاب الزهد، رقم (٢٩٦٠/ ٥).

....

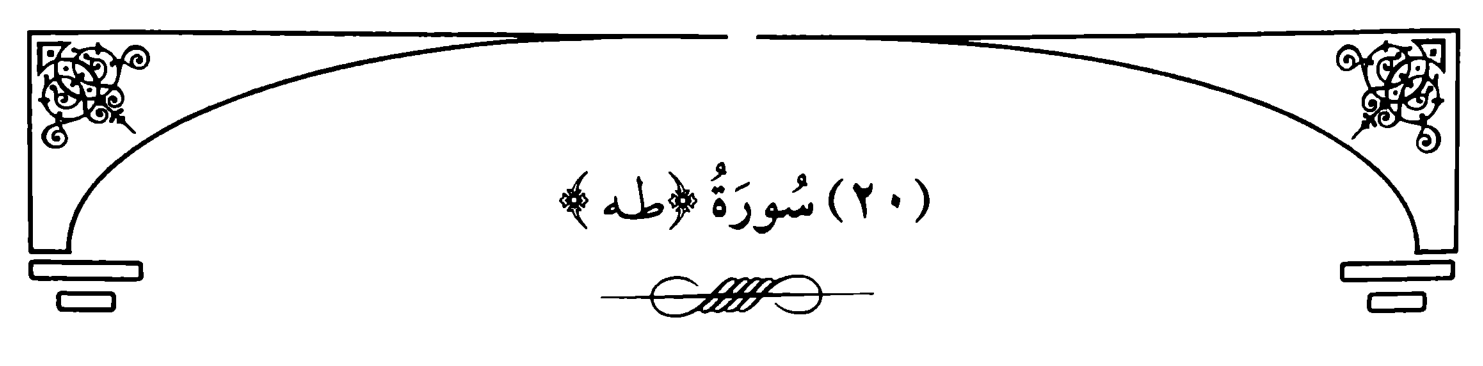
= الجواب: نعم، إذا كان صدقًا فلا شيءَ فيه، كقول الرجل: كنتُ ضالًّا في الأول، فهداني الله، وهو من باب التحدُّثِ بنعمة الله إذا لم يكن افتخارًا.

فائدة: إذا قال قائل: ما حكم التسمِّي باسم: العاصي؟

قلنا: غيَّر الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ اسم العاصي إلى: مُطيعٍ[1]، فينبغي أن يُغَيَّر إلى: مُطيعٍ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد، باب لا يقتل قرشي صبرًا، رقم (١٧٨٢/ ٨٩).



(٢٠) سُورَةُ ﴿طه﴾

قَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ: بِالنَّبَطِيَّةِ ﴿طه﴾ يَا رَجُلُ[١].

---

[١] قوله: «بِالنَّبَطِيَّةِ: ﴿طه﴾ يَا رَجُلُ» الصواب أن ﴿طه﴾ في اللغة العربية ليس لها معنى؛ لأن ﴿طه﴾ عبارة عن حرفين هجائيين، والحروف الهجائية إذا لم تُرَكَّب حتى تكون كلمةً فإنه لا معنى لها في اللغة العربية، ونحن نعلم أن القرآن نزل بلسان عربيٍّ مُبين؛ ولهذا قال مُجاهدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الحروف -وهو أعلم التابعين بالتفسير- قال: إنها حروف هجائية لا معنى لها(١).

ولكن لها مَغْزًى، وهو أن هذا القرآن الذي أعجزكم -معشرَ العرب- لم يأتِ بحروف جديدة، وإنما جاء بالحروف التي أنتم تتكلَّمون بها، ومع ذلك فقد أعْجَزَكم، وعجزتم أن تأتوا بمثله؛ ولهذا يتحدَّاهم الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود:١٣] فعجَزُوا، وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس:٣٨] فعجَزُوا أيضًا، وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٣-٣٤] و«حديث» هنا نكِرَةٌ في سياق الإثبات، فتشمل كُلَّ حديث، فأيُّ حديث يأتون به، فإنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله، بل قال الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨] ومع ذلك فإن هذا القرآن إنما كان بالحروف التي أنتم تُكَوِّنون منها كلامكم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١/ ٢٠٩). ت. التركي.

يُقَالُ: كُلُّ مَا لَمْ يَنْطِقْ بِحَرْفٍ أَوْ فِيهِ تَمْتَمَةٌ أَوْ فَأْفَأَةٌ فَهِيَ عُقْدَةٌ[١].

= ويدلُّ لهذا أنك لا تكاد تجد سورةً مُفتتحةً بهذه الحروف الهجائية إلا وبعدها ذكرُ القرآن، وقد أشار إلى هذا المعنى الزمخشريُّ في تفسيره، وأيَّده شيخُ الإسلام ابن تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ(١)، وهو معنًى صحيحٌ.

وأمَّا مَن قال: إن ﴿طه﴾ اسم للرسول ﷺ فقد قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: إن هذا من قول العامَّة، وإنه لا أصلَ له؛ لأن «طه» لا معنى لها، وأسماءُ الرسول ﷺ كلُّها أوصافٌ لها معنى محمود(٢).

فإن قال قائل: يرد على هذا أننا نجد في القرآن كلمات ليست عربيَّةً، مثل: «إستبرق» ومع ذلك أُريد بها معنًى!

قلنا: لكن هذه حروف هجائية لا يظهر عليها إعراب ولا حركات، أمَّا «إستبرق» فقد عُرِّبت، وصاروا يُدْخِلون عليها حركات الإعراب، ويعرفون معناها من قبل أن ينزل القرآن.

[١] يُشير إلى قول الله تعالى عن موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ وهل هذه العُقْدَة هي عدم النطق بالحرف، أو هي عدم البيان والفصاحة؟

نقول: الظاهر المعنى الأول؛ لقوله: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾؛ لأن القول يُفْقَه وإن لم يكن بليغًا، لكن هذا يدلُّ على أن في لسانه عُقدةً، والعُقْدَة إمَّا ألَّا ينطق بكل الحروف،

(١) يُنْظَر: الكشاف (١/ ١٥)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢٤٨).
(٢) تحفة الودود، (ص:٢١٦) ت. الهلالي.

قَالَ مُجَاهِدٌ: (أَلْقَى) صَنَعَ.

﴿أَزْرِي﴾ ظَهْرِي[١].

﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ يُهْلِكَكُمْ[٢].

= وإمَّا أن يكون فيه فَأْفأةٌ، أو تَمْتمةٌ، أو وَأْوأةٌ، والفأفأةُ: أن يُكَرِّر الفاءَ، والتمتمةُ: أن يُكَرِّر التاءَ، والوَأْوأةُ: أن يُكَرِّر الواوَ، وعلى هذا فَقِسْ.

وما ذُكِرَ في الإسرائيليَّات من أن سبب هذه العُقْدَة أن فرعون أتاه بجمرة وبتمرة، وذلك بمشورة من زوجته آسية التي هي من الصالحات؛ لأنه أراد أن يَقْتُلَ موسى خائفًا منه، فقالت: هذا لا يعرف، ولا تمييزَ عنده، وأْتِ له بجمرة وبتمرة، واجعلهما أمامه، وانظر ماذا يأخذ؟ فأتى له بجَمْرَة وتمرة، فأخذ الجَمْرَة، ووضعها في لسانه، فتأثَّر بهذه الجَمْرة، هكذا ذكرت الرواية الإسرائيليَّة، وهذا ليس بصحيح؛ لأن الجَمْرَة أولُ ما تُباشر يدَه، فإذا باشَرَتْ يدَهُ وأحسَّ بها فسوف يرميها.

فإن قال قائل: وهل حُلَّت هذه العُقْدَة؟

قلنا: الله أعلم، هو دعا الله عَزَّوَجَلَّ بهذا، وقد قال الله له في آخر الجواب: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ و﴿سُؤْلَكَ﴾ مُفْرَد مضافٌ يعمُّ كلَّ ما سأل.

[١] هذا في قوله تعالى: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ أي: قَوِّني، ومنه سُمِّي الوزيرُ؛ لأنه يُقَوِّي مَن اسْتَوْزَره.

[٢] قوله: ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ في قراءة بفتح الياء والحاء[١].

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة بفتح الياء والحاء، وقرأ حفص وحمزة والكسائي بضم الياء وكسر الحاء، يُنْظَر: التبصرة في القراءات السبع، (ص:٥٩٢).

﴿ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ تَأْنِيثُ الأَمْثَلِ، يَقُولُ: بِدِينِكُمْ، يُقَالُ: خُذِ الْمُثْلَى، خُذِ الأَمْثَلَ[١].

﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗا﴾ يُقَالُ: هَلْ أَتَيْتَ الصَّفَّ الْيَوْمَ؟ يَعْنِي: الْمُصَلَّى الَّذِي يُصَلَّى فِيهِ[٢].

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ أي: بدينكم، ولكننا نقول بدل: «بدينكم» نقول: بملَّتكم أو بطريقتكم، و﴿ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ بمعنى: الحُسْنى، وهي تأنيث: «أمثل».

وهذا من باب التحذير لموسى وهارون عليهما الصَّلاة والسَّلام، ولكن الصواب أنهما يذهبان بطريقتهم العَوْجاء إلى الطريقة المُثْلَى المستقيمة.

[٢] كلمة ﴿صَفّٗا﴾ تُطْلَق على الصفِّ، وتُطْلَق على القوم الصُّفُوف؛ فإن الصف مصدرٌ قد يُراد به اسم الفاعل، أي: ائتوا مصطفِّين؛ لأنه أهيبُ في قلوب العدوِّ.

وقد يُقال: المعنى: ائتوا مكان الصفِّ، بمعنى: مكان المجتمع الذي تصفون فيه وتجتمعون؛ ولهذا قال المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَلْ أَتَيْتَ الصَّفَّ الْيَوْمَ؟ يَعْنِي: الْمُصَلَّى الَّذِي يُصَلَّى فِيهِ» أي: مكان الصف، ويكون قوله: ﴿صَفّٗا﴾ مفعولَ ﴿ٱئۡتُواْ﴾.

والمعنى الأول أقربُ إلى ظاهر اللفظ، وأوضح من المعنى الذي ذهب إليه البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وعلى كل تقدير فإن موسى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تحدَّاهم هذا التحدِّيَ، قال: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ أي: كلَّ ما عندكم من كَيْدٍ، وبعد ذلك ﴿ٱئۡتُواْ صَفّٗا﴾ والصف يُقَوِّي بعضُهُ بعضًا، ويشدُّ بعضه أَزْرَ بعض، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ﴾ خَوْفًا، فَذَهَبَتِ الوَاوُ مِنْ ﴿خِيفَةً﴾ لِكَسْرَةِ الخَاءِ[١].

= سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤]؛ ولهذا كان النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا رتَّب أصحابه في الحرب يصفُّهم صفوفًا.

ثم قال: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ وقد استعلى في النهاية موسى ﷺ، فكان هـذا الفألُ الذي تفاءل به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان ذلك حقًّا، وتحقَّـق بأن أفلح هو على هؤلاء.

[١] كلمة «خِيفَة» أصلها: «خِوْفَة»؛ لأنها من: «خَاف يَخَاف» والألِفُ في «يخاف» أصلها واوٌ، بدليل المصدر: «خَوْفًا» فـ: «خاف» أصلها: «خَوِفَ» و«يخاف» أصلها: «يَخْوَف» و«خيفة» أصلها: «خِوْفَة» فهي «فِعْلَة» اسم هيئةٍ، لا اسم مرَّة، كما قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَ«فَعْلَـةٌ» لِـمَرَّةٍ كَـ: «جَلْسَـهْ» وَ«فِعْلَةٌ» لِـهَيْئَةٍ كَـ: «جِلْسَـهْ»(١)

ومرادنا بالهيئة: كلُّ ما دلَّ على معنًى مُعَيَّن، لا على مـرَّةٍ، مثل: «وثبتُ وِثْبَةَ الأسد» «جلست جِلْسَة الخائف» وليس المراد بالهيئة: هيئة الجسم.

فإذن: «خِيفَة» بمعنى: خيفة عظيمة ملأت نفسَهُ خوفًا، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ أيَّده ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهذا القول وحيٌ أوحاه الله عَزَّوَجَلَّ إلى موسى ﷺ، قال: لا تخف، وطَمْأَنَهُ، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وأرشده بعد ذلك، فقال: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ ووعده بقوله: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ وبيَّن تحقيق هذا الوعد بقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

(١) شرح ابن عقيل (٣/ ١٣٢).

﴿فِي جُذُوعِ﴾ أَيْ: عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ[١].

﴿خَطْبُكَ﴾ بَالُكَ[٢].

﴿مِسَاسَ﴾ مَصْدَرُ مَاسَّهُ مِسَاسًا[٣].

---

[١] أفادنا المؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن «في» هنا بمعنى: على، ومنه على أحد التفسيرين: قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] أي: مَن على السماء؛ وذلك لأنهم لا يُصَلَّبون داخل الجِذْع، ولكن يُصَلَّبون عليه، إلا أنه لقوة إلصاقهم به صاروا كأنهم في جوفه، وهذا يدلُّ على أنه يتوعَّدهم بأن يشدَّهم شدًّا قويًّا على الجذوع حتى كأنهم في أجْوَافها.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ وقوله: «بَالُكَ» يصح أن يكون تفسيرًا لـ: ﴿خَطْبُكَ﴾ لكن الأَوْلَى أن تُفسَّر بـ: شأن، أي: ما شأْنُكَ؟ كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر:٥٧] أي: ما شأْنُكم؟ وما حالُكم؟ وما أشبه هذا.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه:٩٧] فهذا الرجل السامريُّ فعل فعلته القبيحة؛ ليكون زعيمًا متبوعًا، لكنه عُوقِبَ بنقيض قصْدِهِ ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾ أي: طول حياتك ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ فكل مَن دنا منه يقول: أَبْعِد عنِّي، لا تمسَّني، وهذا أشدُّ من الأجرب؛ لأنه هو بنفسه يقول: «لا مساس» أي: لا مُماسَّة بيني وبينك، أَبْعِد عنِّي وأُبْعِد عنك، وهذا مرضٌ نفسيٌّ، لكنه عُقوبة من الله عَزَّوَجَلَّ.

....

وهكذا كل إنسان مُبْطِل الغالب أن يُعاقَب بنقيض قَصْدِهِ، حتى إن العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ رتَّبوا على ذلك أحكامًا فقهيَّةً: أن الإنسان إذا أراد شيئًا فإنه يُعاقَب بنقيض قَصْدِهِ، حتى قالوا: إن الرجل إذا قتل مُوَرِّثَهُ فإنه لا يَرِثُ منه ولو خَطَأً، وقالوا: إن الموصى له إذا قَتَلَ الموصيَ بطَلَت الوصية، فلو أوْصى لشخص بمئةٍ، قال: إذا متُّ فأعطوا فلانًا مئة ريال، فجاء المُوصَى له، فقَتَلَه ولو خطأً، فإن الوصية تَبْطُلُ، ولا يُعْطَى شيئًا، كلُّ ذلك معاملةً له بنقيض قَصْدِهِ.

وحَكَمَ عُمر بن الخطاب وجماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على مَن خَطَبَ امرأةً في عِدَّتها أن تَحْرُمَ عليه أبدًا[1] مُعاملةً له بنقيض قَصْدِهِ؛ لأنه لَمَّا تعجَّل وخطب قبل أوان الخِطْبة عُوقب بنقيض قَصْدِهِ، فهذا الرجل لَمَّا أراد أن يكون متبوعًا وزعيمًا كان نتيجة ذلك أنْ يتبرَّأ من الناس.

لكن لماذا يقول: لا مساس؟

نقول: الله أعلم، هل كان يخاف على مَن يأتيه، أو كان هو يكره أن يَقْرَبَ الناسُ منه؟

وهذا الأمرُ ممَّا يَبْتَلِي الله به بعض الناس، يكون رجلًا انطوائيًّا انزوائيًّا لا يحبُّ المُخالطةَ مع الناس، ولا يُحِبُّ أن يقربوا حوله، وخير الناس مَن يُخالط الناس، فينتفع منهم، وينتفعون منه، والذي يُخالط الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ من الذي لا يُخالطهم

(١) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٢١٠).

= ولا يصبرُ على أذاهم[١].

فإن قال قائل: وأيها أسلم: العُزْلَة أم الخُلْطَة؟

نقول: قد يكون في العُزْلَة خطأٌ؛ حيث يترك الإنسان ما يجب عليه من إرشاد الناس، وأمْرِهِم بالمعروف ونهْيِهِم عن المنكر، وقد يكون في الخُلطة مصلحةٌ عظيمةٌ، كإرشاد الناس.

نعم، إذا فَسَدَ الزمانُ، ولم يتمكَّن الإنسان من نفع الناس، ولا من الانتفاع منهم فقد يُقال: إن العُزْلة خيرٌ وأفضل، لكن بشرط: ألَّا تُؤَدِّي هذه العُزْلة إلى ترك واجب الجماعة أو الجُمُعة أو ما أشبه ذلك ممَّا يجب فيه الاجتماع مع الناس.

فإن قال قائل: وكيف نُجيب عن قول النبيِّ ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعِ العَوَامَّ**»[٢]؟

نقول: هو ما قال: اعتزل، وإنما المعنى: لا تُتعب نفسَكَ مع الناس، وتنسَ نفسك، ولا يلْزَمُ من كون الإنسان يعتني بنفسه أن يَنْعَزِلَ عن الناس.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٣٢)، من حديث ابن عمر، ولفظه: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أعظم أجرا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم».

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: كتاب التفسير، باب سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾، رقم (٤٠١٤).

﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ لَنَذْرِيَنَّهُ[1].

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ وهذا الإله هو العِجْل، فقد صنع السامريُّ من حُلِيِّ آل فِرْعونَ شيئًا على صورة العِجْل، وجَعَل له جَوْفًا، وجعل له فتحةً من الدُّبُر، يدخل منها الهواء، ثم يتجوَّل في الداخل، ثم يخرج من الفم بصورة خُوار الثور، فقد قبضَ قبضةً من أثر الرسول، ونبذها، وحصل فيه شيءٌ من الأمور التي تكون خارقةً للعادة؛ ابتلاءً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وامتحانًا.

ثم قال لهم: هذا هو إلهكم، فاعبدوا هذا العجل، فعبَدَهُ بنو إسرائيل، وهذا من سَفاهتهم، هم صنعوه بأيديهم، ومع ذلك عَبَدُوهُ، وظنُّوا أن نبيَّهم قد ضلَّ وضاع، ولم يجد ربَّه ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ أي: نَسِيَ موسى المكان الذي سيجد ربه فيه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فبيَّن الله بُطلان أُلوهيته بأنه لا يتكلَّم.

وفي هذا: دليلٌ على أن الكلام من كمال الربِّ؛ لأنه أبطل أُلوهيَّتَهُ بكونه لا يتكلَّم، وبهذا نعرف أن الجهميَّة وأشباههم ممَّنْ نَفَوْا كلام الله قد وصفوا الله تعالى بالنقص.

فإن قال قائلٌ: وهل كل بني إسرائيل عبدوا العِجْلَ؟

قلنا: ظاهر كلام هارون عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ ظاهر هذا: أنهم كلهم عبدوا العِجْل، والله أعلم، وأمَّا السبعون الذين اختارهم موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فهؤلاء كانوا معه، ولم يعبدوا العِجْل؛ لأنهم كانوا غير موجودين.

﴿قَاعًا﴾ يَعْلُوهُ المَاءُ.

وَالصَّفْصَفُ: المُسْتَوِي مِنَ الأَرْضِ[١].

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا﴾ أي: فيذَرُ الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ وذكر المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن القاع هو الذي يعلوه الماء، ويكون فوقه مُستقرًّا عليه، وذلك أن الماء عادةً يتبع المنخفَض من الأرض، لكن إذا كان قاعًا مستويًا علَاه الماءُ جميعَهُ.

فهذه الأرض التي نُشاهد فيها الجبال الشاهقة والأودية المنخفضة كلها تكون ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ بأمر الله عَزَّوَجَلَّ بكلمة واحدة: «كن» فيكون، فلا يكون فيها شيء مُعْوَجٌّ، ولا مرتفع، ولا منخفض، بل هي على حد سواء، وهذا كلُّه ممَّا يدلُّ على قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم هذه الأرض التي نراها كُروِيةً تكون يوم القيامة مُسطَّحةً، تُمَدُّ كمدِّ الأديم، يعني: كمَدِّ الجِلْد، كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق:١-٥] وهذا يكون يوم القيامة، بدليل قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ فتبيَّن بهذا أن انشقاقها يكون يوم القيامة، وأن مدَّ الأرض يكون يوم القيامة.

وفي هذا: دليلٌ واضح على أن الأرض الآن غيرُ ممدودة، وهذا لا يُنافي قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:٢٠] فإنه قال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ ونحن لا ننظر من

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَوْزَارًا﴾ أَثْقَالًا ﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ وَهِيَ الْحُلِيُّ الَّتِي اسْتَعَارُوا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَهِيَ الأَثْقَالُ.

فَقَذَفْتُهَا: فَأَلْقَيْتُهَا.

﴿أَلْقَى﴾ صَنَعَ[١].

﴿فَنَسِىَ﴾ مُوسَاهُمْ، يَقُولُونَهُ: أَخْطَأَ الرَّبَّ[٢].

= الأرض إلا ما تُدْرِكـه أبصارُنا فقـط، وكل الذي تُدْرِكـه أبصارُنا من الأرض نجده مُسَطَّحًا، لكن ما وراء ذلك من مُنحنى الأرض فإن أبصارَنا لا تراه.

وبهذا نعرف أن مَن دفع بهذه الآية قول مَن يقول: إن الأرض كروية، فقد تشبَّث بما ليس بدليل له؛ لأن الله تعالى ما قال: إن الأرض كلَّها مُسَطَّحة، وإنما قال: إن ما ننظر إليه من الأرض هو المُسَطَّح.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ فهذا الذهب الذي استعاروه من القِبْط أَلْقَوْهُ وقذفُوه، فجمَّعَهُ السامريُّ، وصنع منه شيئًا على صورة عِجْل، له صوتٌ، وقال لهم: إن هذا إلهكم وإلهُ موسى، فوافقوا وقبلوا، وهذا ممَّا يدلُّ على سَفاهتهم وعدم تأنِّيهم في الأمور.

[٢] قوله: «مُوسَاهُمْ» هذا عَلَم مضافٌ، مثل قول الشاعر:

عَلَا زَيْدُنَا يَوْمَ النَّقَـا رَأْسَ زَيْـدِكُمْ(١)

(١) هذا صدر بيت منسوب لرجل من طيء، كما في زهر الآداب (٤/ ٢١٩)، وفيه: «يَوْمَ الحِمَى»، وعجز هذا البيت: «بِأَبْيَضَ مَشْحُوذِ الغِرَارِ يَمَانِي».

لاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا: «العِجْلُ»، ﴿هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨]: «حِسُّ الأَقْدَامِ»، ﴿حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٥]: «عَنْ حُجَّتِي»، ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه:١٢٥]: «فِي الدُّنْيَا» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿بِقَبَسٍ﴾ [طه:١٠]: «ضَلُّوا الطَّرِيقَ، وَكَانُوا شَاتِينَ، فَقَالَ: إِنْ لَمْ أَجِدْ عَلَيْهَا مَنْ يَهْدِي الطَّرِيقَ آتِكُمْ بِنَارٍ تُوقِدُونَ».

وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: ﴿أَمْثَلُهُمْ﴾ [طه:١٠٤]: «أَعْدَلُهُمْ طَرِيقَةً»، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]: «لاَ يُظْلَمُ فَيُهْضَمُ مِنْ حَسَنَاتِهِ»، ﴿عِوَجًا﴾: «وَادِيًا»، ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٧]: «رَابِيَةً».

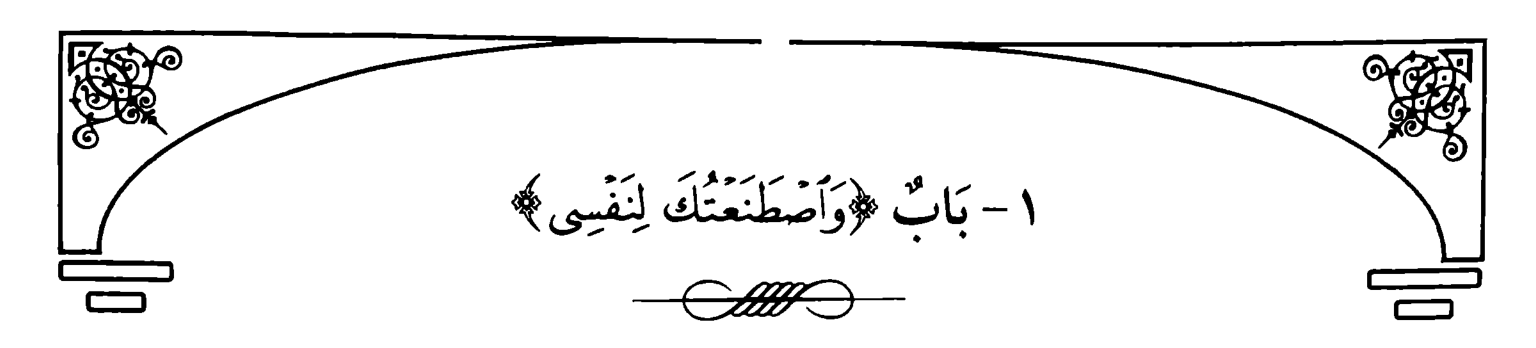
﴿سِيرَتَهَا﴾ [طه:٢١]: «حَالَتَهَا»، وَ﴿ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه:٥٤]: «التُّقَى»، ﴿ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤]: «الشَّقَاءُ»، ﴿هَوَىٰ﴾ [طه:٨١]: «شَقِيَ».

﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾: «المُبَارَكِ» ﴿طُوًى﴾ [طه:١٢]: «اسْمُ الوَادِي (بِمِلْكِنَا): «بِأَمْرِنَا» (مَكَانًا سِوًى): «مَنْصَفٌ بَيْنَهُمْ» ﴿يَبَسًا﴾ [طه:٧٧]: «يَابِسًا» ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ [طه:٤٠]: «مَوْعِدٍ»، ﴿يَفْرُطَ﴾ [طه:٤٥] «عُقُوبَةً»، ﴿لَا تَنِيَا﴾ [طه:٤٢] «تَضْعُفَا».

= وإلا فالأصل أن العَلَم أن لا يُضافُ، لكن قد يُضاف أحيانًا للبيان، فقوله: «عَلَا زَيْدُنَا» أي: رئيسُنا الذي اسمُه زَيْدٌ، وكذلك قوله: «رَأْسَ زَيْدِكُمْ» الذي هو زعيمكم.

وفي نسخة: «مُوسَى، هُمْ يَقُولُونَهُ» وهذه أحْسَنُ.





١ - بَابٌ ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِى﴾

٤٧٣٦ - حَدَّثَنَا الصَّلْتُ بْنُ مُحَمَّدٍ: حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ مَيْمُونٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ ابْنُ سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «الْتَقَى آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى لِآدَمَ: آنْتَ الَّذِي أَشْقَيْتَ النَّاسَ، وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الجَنَّةِ؟ قَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ، وَاصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَاةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَوَجَدْتَهَا كُتِبَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي؟ قَالَ: نَعَمْ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى».

اليَمُّ: البَحْرُ[١].

---

[١] قوله: «آنْتَ» الهمزة للاستفهام وحذف همزة الاستفهام جائزٌ في اللغة العربية، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ﴾ [الأنبياء:٢١] والتقدير: أهم يُنْشِرون؟

وهذا الحديث احتجَّ به الجبريَّةُ على مذهبهم، وهو القول بأن الإنسان مجبورٌ على عمله، ولا اختيار له، قالوا: لأن آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ احتجَّ بما كَتَبَ الله عليه، وحَكَم النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأن آدم حجَّ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أي: غَلَبه بالحُجَّةِ، وهذا دليلٌ على أن الإنسان مُجْبَرٌ على عمله.

وكذَّبه المعتزلة، وقالوا: هذا خبرٌ لا يصحُّ؛ لأنه يُبْطِلُ ما هو معلوم بالضرورة من الواقع من كون الإنسان يفعل الشيء باختيارِهِ، ويُلام على ما فَعَلَ من المعاصي

....

= والمعائب، فإذا كان مُخالِفًا لِمَا هو معلومٌ بالضرورة من الواقع فإنه يجب أن يكون كذبًا على الرسول ﷺ.

وهكذا شأن أُولي البِدَع في النصوص التي لا تُوافق مذْهَبَهم، يلجؤون فيها إلى أحد أمرين: إمَّا إلى ردِّها وتكْذِيبها، وهي أَوَّلُ مرحلة، فإن عجَزُوا عن ذلك لجؤوا إلى الأمر الثاني، وهو تحريفها الذي يُسَمُّونَهُ: التأويلَ، وهو في الحقيقة: تحريفٌ.

ولكن أهل السُّنَّة والجماعة -الذين يؤمنون بقضاء الله وقَدَره، ويُؤمنون بإرادة الإنسان واختياره- أجابوا عن هـذا الحديث بأحـد جوابيْنِ -مـع اعتقادهم صحتَهُ وثبوتَهُ عن رسول الله ﷺ؛ لأنه أخرجَهُ الإمامان البخاريُّ ومسلمٌ رَحِمَهُمَااللَّهُ وغيرُهما، وتلقَّته الأُمَّة بالقبول-:

الأول: أن آدمَ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ لم يحـتجَّ بالقَدَر على فِعْلِهِ، ولكنه احتجَّ بالقدَر على المصيبة التي أصابته بفِعْلِهِ، وهو حين فَعَل ما فَعَل لم يعلم أنه يُصابُ بهذه المصيبة، ويُخْرَج من الجنة، كما أن الإنسان قد يفعلُ المعصية ولا يدري ما عُقوبَتُها.

وكان من حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ أن عاقبه بإخراجِهِ من الجنة، فيكون احتجاجُهُ بالقدَر هنا ليس على فعله، ولكن على المُصيبة التي حصلتْ بفعله، ولم يكن يُقَدِّر لها حسابًا حينما فَعَلَ الفِعْل، فهو من باب الاحتجاج بالقدَر على المصائـب، لا على المعائـب، والاحتجاج بالقدَر على المصائب أمرٌ جائزٌ، وإن كان الإنسان قد يكـون هو السببَ فيها؛ لأن الإنسان قد لا يعلم العاقبةَ والنتيجة، فيكون معذورًا من هذه الناحية.

قالوا: ويُؤَيِّد ذلك أن موسى عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ أعلمُ وأبرُّ من أن يلوم أباه على ذنب

....

= تاب منه؛ فإن التائب من الذنب لا يُلام عليه، وما لام أحدًا على ذنب فَعَلَهُ بعد التوبة منه، وإلا عُدَّ عاقًّا مُخالفًا لِمَا يقتضيه الشَّرْعُ.

وهل يُمكن لموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -وهو من أُولي العزْم، بل من أفضلهم- أن يلوم أباه على أمرٍ قد تاب منه، وقال الله تعالى بعد توبته عليه: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]؟! هذا من أبعد ما يكونُ، وهذا المسلك سلَكَهُ شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]، وهو واضحٌ جدًّا.

وأمَّا الجواب الثاني فهو ما أشار إليه ابنُ القيِّم في كتاب (شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل)[2] وهو كتاب واسعٌ جدًّا في هذا الباب، قال: إن الاحتجاج بالقَدَر على المعصية بعد فِعْلها والتوبة منها لا حَرَجَ فيه، وإنما يُلام الإنسان على احتجاجه بالقدر في حال استمراره في المعصية، وأمَّا بعد أن تاب، ثم يقول: هذا أمْرٌ قد قُدِّر وكُتِبَ عليَّ، وفَرَط منِّي، وهو أمرٌ لا اختيار فيه الآن؛ لأنه قد وقَعَ؛ فهذا لا بأسَ به.

واستدلَّ لذلك بأن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخَلَ على عليِّ بن أبي طالب وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: «أَلَا تُصَلُّونَ؟» وكانا نائمَيْنِ، فقال عليُّ بن أبي طالب: يا رسول الله! إن أنفسنا بيد الله، ولو شاء أن يُوقِظَنا لأيقظنا -هذا الكلام أو معناه- فخرج النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو يضرب على فَخِذِهِ، ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[3] فهنا احتجَّ

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٨٥٧).

(٢) شفاء العليل، (ص:٣١).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، رقم (٧٤٦٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الحث على صلاة الليل، رقم (٧٧٥/ ٢٠٦).

....

= بالقدَر بعد انقضائه، لا على استمرارِهِ على أن يبقى في التفريـط والإهمال وعدَمِ قيام الليل.

وكأنَّ الوجهَ الأوَّلَ أجودُ وأسدُّ؛ ولهذا قال: «أَشْقَيْتَ النَّاسَ، وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الجَنَّةِ» أي: كُنتَ سببًا في شقائهم بسبب هذا الفعل الذي فعلتَ.

وعلى كُلِّ حال: فإن الواجب على طالب العلم إذا وردت النصوصُ المتشابهاتُ أن يَرُدَّها إلى النصوص المُحْكَمات؛ حتى تكون النصوصُ كلُّها مُحْكَمةً، وحتى لا تتناقض شريعةُ الله عَزَّوَجَلَّ، وما يَتَّبِعُ المتشابهَ إلا مَنْ في قلبه زَيْغٌ، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران:٧].

وفي هذا الحديث من الفوائد:

١- جوازُ المناظرة في العلم؛ لأن آدم وموسى عليهما الصَّلاة والسَّلام تناظرا في هذه المسألة وتحاجَّا.

٢- أنه يجوز للإنسان -بل يجبُ عليه- أن يُبيِّن الغالبَ من الخصميْنِ ولو كانا من ذوي الشأن الرفيع، فلا يقول: أنا لا أقول: فُلانٌ غَلَبَ فلانًا؛ لأن فلانًا المغلوبَ له شأنٌ ورِفْعَةٌ، بل الواجب أن يُبيِّن الحقَّ، ويُبيِّن الغالب من المغلوب ولو كان المغلوب ذا شأن ورِفْعَة؛ ولهذا موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أُولي العَزْم من الرُّسُل، وهم أفضلُ من الأنبياء، وآدمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نبيٌّ، ومع ذلك لَمَّا كان موسى مخصومًا قال النبيُّ ﷺ:

....

= «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى» فلو أن تلميذًا ومُعَلِّمَهُ تحاجَّا في مسألة، وغلب التلميذُ، فيُمكن أن نقول: إن التلميذ غَلَبَ المعلِّمَ، فإن استَحْيَا المعلِّم فليس بجيِّد؛ لأن الله لا يستحيي من الحقِّ، فالحقُّ يجب أن يُبيَّن، والمحقوق كذلك يجب أن يُبيَّن.

٣- ثبوت كتاب القدَر، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد كَتَبَ الأقدار قبل كل شيء، وقد ذكر أهل العلم أن مراتب الإيمان بالقدَر أربعٌ: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخَلْق، وأنشدوا في ذلك بيتًا:

عِلْـمٌ، كِتَابَـةُ مَوْلَانَـا، مَشِـيئَتُهُ ... وَخَلْقُهُ، وَهْوَ إِيجَـادٌ وَتَكْـوِينُ

وفسَّر الخَلْق بقوله: «وَهْوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينُ» فهذه المراتب يُؤمِنُ بها أهل السُّنَّة والجماعة، وهي ثابتةٌ، ويدلُّ عليها آياتٌ من القرآن، وأحاديثُ من السُّنَّة عن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فإن قال قائل: إذا كان كل شيء مكتوبًا ففيمَ العمل؟

فالجواب: كما قال النبيُّ ﷺ جوابًا مختصرًا جامعًا مانعًا، قال: «اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ»(١) وفي لفظ: «فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»(٢) وهذا جوابٌ سهلٌ، ولا يُورد إشكالًا على الإنسان، فنقول: تُؤمن بأن الله كَتَبَ كلَّ شيءٍ، ولكن اعملْ، والله عَزَّوَجَلَّ سيُيَسِّر لك ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾، رقم (٤٩٤٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي، رقم (٢٦٤٧/ ٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾، رقم (٤٩٤٩)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي، رقم (٢٦٤٧/ ٧).

= وأمَّا الجِدال في هذا الأمر فإنَّهُ باطلٌ، وقد أبطل الله حُجَّةَ المجادلين في ذلك في قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨] وهذه كلمةُ حقٍّ، لكن يُراد بها باطلٌ، فإنهم يُريدون من هذه الكلمة الاستمرارَ على شِرْكهم، ودفعَ الحُجَّة عليهم، وإلا فهم لا يُريدون الحقَّ، ولو قالوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، ولا حرَّمنا من شيء، ولكن ذلك وقع بمشيئة الله، ونحن نستغفرُ الله، ونتوب إليه، ونُوَحِّد الله عَزَّوَجَلَّ، ونلتزمُ أحكامَهُ الشرعية، فلا نُحِلُّ إلا ما أحلَّ، ولا نُحَرِّم إلا ما حرَّم، لقلنا لهم: هذا كلامٌ صحيحٌ، وتُشْكَرون عليه.

فإن قال قائل: ومتى التقى آدم وموسى عليهما الصَّلاة والسَّلام؟

فالجواب: أن مثل هذه الأمور الغيبية ينبغي ألَّا يسأل الإنسانُ عنها، بل نُؤمِنُ بأنهما الْتَقيا، لكن متى؟ ما لنا ولهذا؟! الذي أخبرنا بأنهما الْتَقيا أصدقُ الخَلْق؛ ولهذا لو كان هذا من العلم المطلوب لوفَّق اللهُ الصحابةَ للسؤال عنه، ولقالوا: يا رسول الله! متى الْتَقيا؟ وهم يعلمون أن هناك زمنًا بعيدًا بين آدم وموسى عليهما الصَّلاة والسَّلام، ومع ذلك لم يسألوا رسولَ الله ﷺ عن ذلك.

فمثل هذه الأمور الغيبيَّة ينبغي للإنسان أن يَكُفَّ عنها؛ حتى لا يَرِدَ على قلبه الشبهاتُ، وأنا أعتقد -والعلم عند الله- أنه لو كان علمُ هذا ممَّا يحتاج الناس إليه لبيَّنه الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أو قيَّض اللهُ مَن يسأل الرسولَ ﷺ؛ حتى يُبيِّنَ، ولهذا نظائرُ كثيرةٌ يذكرها الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُطْلَقةً، ثم يُلْقِي اللهُ تعالى على ألسنة الصحابة السؤال عنها حتى يَرِدَ فيها التفصيلُ والبيانُ.

....

= ولا يَبْعُد أن نقول: إنهما الْتَقَيا بأرواحهما بعد موْتِ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كما أن الرسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الْتَقَى بآدم وبالأنبياء والرسل في ليلة الإسراء والمعراج.

٤- من فوائد الحديث: إثبات أن الله عَزَّوَجَلَّ أنْزَل التوراة على موسى ﷺ؛ لقوله: «وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَاةَ» وهل التوراةُ كلامُ الله عَزَّوَجَلَّ، أو نقول: إنها كتابة الله؟

الجواب: أمَّا الدليلُ على أنها كِتابة الله فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف:١٤٥] ومن قول أهل السُّنَّة والجماعة: أن الله كَتَبَ التوراة بيده، وورد في ذلك حديثٌ[(١)].

لكن هل نقول: إنها كلام الله، ونقول: إن الدليل على ذلك قولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٤]؟

الجواب: لا، لا دليلَ في هذا، لكن أهل السُّنَّة والجماعة يقولون: القرآنُ والتوراةُ والإنجيلُ والزَّبورُ كلام الله غيرُ مخلوقٍ، وهذا معروفٌ عند السلف. لكن هل هناك دليلٌ يطمئن إليه الإنسان؟ أو نقول: إن التوراة مُنَزَّلةٌ من عند الله عَزَّوَجَلَّ، لكن هل هي كتابة أو كلام؟ تحتاج المسألة إلى مراجعة بيِّنة؛ حتى يكونَ الإنسانُ على أمْرٍ ثابتٍ[(٢)].

وأيًّا كان فإنها كلامُ الله، حتى الكتابة تُنْسَبُ إلى الكاتب على أنها كلامه، وقد رتَّب العلماء على ذلك أحكامًا كثيرةً، فقالوا: لو كتب الإنسان طلاق زوجته بما يَبِين

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، رقم (٢٦٥٢/ ١٣).
(٢) يُنْظَر: شرح عقيدة أهل السنة والجماعة لفضيلة شيخنا رحمه الله تعالى (ص٣٣٠).

....

= فإنها تُطَلَّقُ، ولو كتب وثيقةً بإقراره بدَيْنٍ أو بوقْفِ بيته فهو كقوله، وهكذا، ولا شَكَّ أن التعبير عمَّا في الجنان يكون باليد وذلك بالكتابة، ويكون باللسان أيضًا وذلك بالنطق.

وهنا فائدة: هل يصح التفريق بين التوراة والألواح؟

الجواب: التفريقُ بينهما ليس بظاهر؛ لأن المعروف عند السلف أن الله كتب التوراة بيده.

لكن لماذا حُفِظَ القرآنُ من التحريف ولم تُحْفَظ التوراةُ؟

والجواب عن ذلك أن نقول: إن الكُتُب السابقة ليست آخِرَ الكُتُب حتى تُحْفَظ، وسيأتي كتابٌ من الله يُبَيِّن التحريفَ والخطأَ الذي فيها؛ فلهذا لم تُحْفَظ من ذلك، لكن القرآن لَمَّا كان آخِرَ كتاب ينزل، وليس هناك كتابٌ ينزل بعده يُبَيِّن ما فيه من التحريف، حُفِظَ، وقد أشْرَنا إلى هذا في كتابنا (عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة)[1].

٥- من فوائد الحديث: أن الجنة التي أُخرج منها آدم هي جنَّةُ الخُلْد؛ لأن «أل» للعهد في قوله: «وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الجَنَّةِ» وهذا أحد القولين في المسألة، وهو الصحيح، وقد أشار إليه ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ميميَّته المشهورة؛ حيث قال:

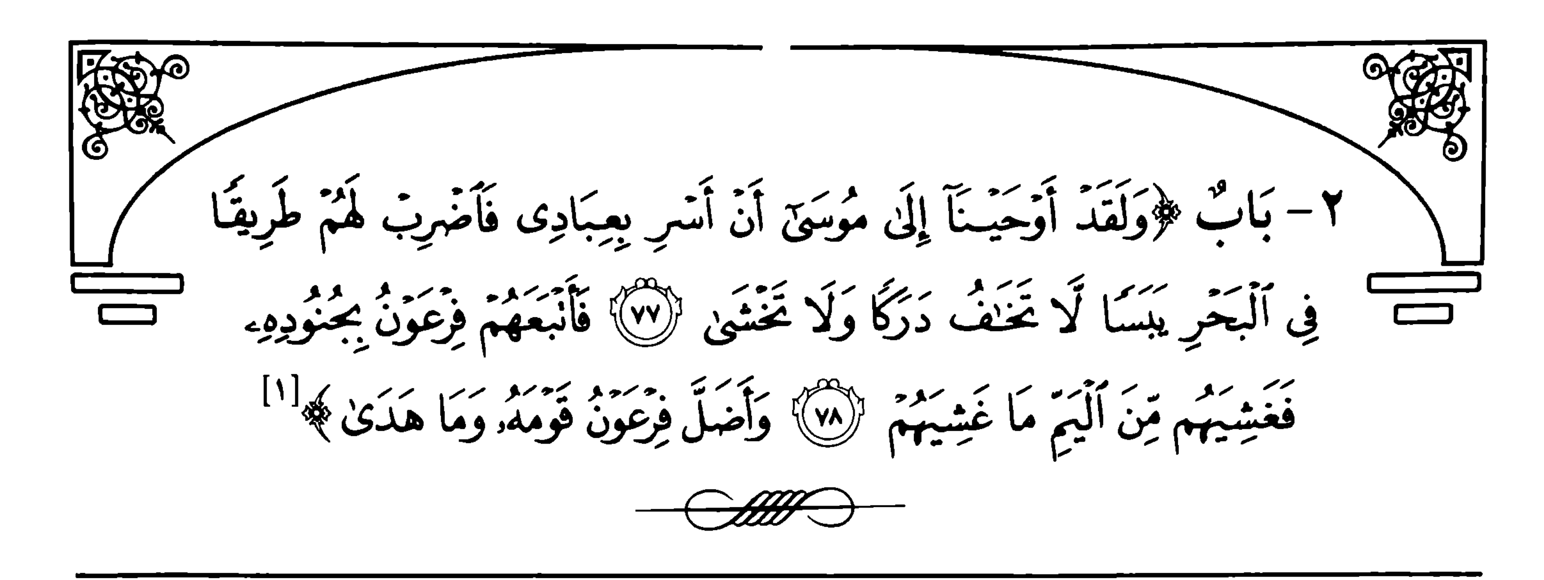
فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا مَنَازِلُكَ الأُولَى وَفِيهَا المُخَيَّمُ[2]

فقوله: «مَنَازِلُكَ الأُولَى» يعني: باعتبار آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أوَّل مَنْ أُسْكِنَ في الجنة.

---

(١) يُنْظَر: شرح عقيدة أهل السنة والجماعة لفضيلة شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص:٣٣٥).

(٢) يُنْظَر: التعليق على ميمية ابن القيم للشيخ رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ (ص:٦٥).



٢- بَابٌ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾[١]

[١] وقع في بعض النسخ هنا: «وأوحينا» ولكن صواب الآية: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ أي: وحْيَ رسالةٍ، وليس وحْيَ إلهامٍ، والوحْيُ ينقسم إلى قسمين: وحْيُ إلهام، ووحْيُ تشريع، فإن أُضيف إلى الرُّسُل فهو وحيُ تشريعٍ، وإلى غيرهم فهو وحْيُ إلهام، فقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل:٦٨] هذا وحْيُ إلهام، وكذلك قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧] هذا وحْيُ إلهام أيضًا، وأمَّا قوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ فهو وحْيُ تشريع.

وقوله: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ يعني: المؤمنين من بني إسرائيل، والإسراء: هو السير ليلًا؛ ولهذا قالوا في قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان:٢٣] قالوا: إن ﴿لَيْلًا﴾ من باب التأكيد.

وقوله: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أي: يكون في الحال يابسًا؛ ولهذا لَمَّا أَمَرَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ أن يضرب البحر ضَرَب البحر، فانفلق، فكان كلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم، وانفلق اثني عَشَرَ طريقًا على عدد أسباط بني إسرائيل.

....

= وفي الحال يَبِس هذا القاع الذي كان مغمورًا بالماء، وكان من العادة أن يكون طينًا زَلَقًا وَحلًا، لكنه صار طَرِيقًا يَبَسًا بأمْرِ الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا من آيات الله العظيمة الدالَّة على وجوده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعلى قُدْرته، وعلى أن الأمْرَ له، لا للطبيعة؛ إذ إن مثل هذا لا تقتضيه الطبيعة، ولا تقدِرُ عليه، جبالٌ من الماء تبْقَى لا تسيل، مع أن الماء جوهرٌ سيَّال، حتى إنه ورد في بعض الروايات: أن الله جعل بينهم فتحاتٍ كالنوافذ مع هذه الجبال، ينظر بعضُهم بعضًا، وما ذلك على الله بعزيز، ثم في لحظة واحدة صار هذا يَبَسًا، يمشي الناس عليه[1].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ الدَّرَك هو اللحاق، وذلك أن المسافة كانت طويلةً، فقال له: لا تخاف حين مَشْيِك، ولا تخشى أيضًا من دَرَكِه في المستقبل.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ أي: تَبِعَهم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الأعراف:١٧٥] أي: تَبِعَه، والباءُ في ﴿بِجُنُودِهِۦ﴾ للاستيعاب والمصاحبة، أي: مصطحبًا جميع جُنْدِه.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ ﴿مَا﴾ هنا اسم موصولٌ فاعلٌ، أي: الذي غشيهم، لكن قد يقول قائل: هذا مثل أن تقول: أكَلَ ما أكَلَ، أو شَرِبَ ما شَرِبَ، فهو تحصيل حاصل!

نقول: لكن هذا الإبهام: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ يدلُّ على أن هذا الذي غشيهم أمرٌ عظيمٌ جدًّا، أي: غشيهم ما غشيهم حتى هلكوا عن آخِرِهم، فيكون

---

(١) يُنْظَر: تفسير الطبري (١/ ٦٦١) ت. التركي.

٤٧٣٧ - حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: حَدَّثَنَا رَوْحٌ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ: حَدَّثَنَا أَبُو بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ، وَاليَهُودُ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَسَأَلَهُمْ، فَقَالُوا: هَذَا اليَوْمُ الَّذِي ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْهُمْ، فَصُومُوهُ»[١].

= المقصود بهذا الإبهام: التعظيم والتفخيم، أي: غَشِيَهم أمرٌ عظيمٌ حتى أبادهم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ قد يقول قائل: ما الفائدة من قوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ مع أن الضلال هو عدم الهداية؟

والجواب: أن الفائدة من هذا أمران:

الأمر الأول: أن فرعون كان يقول لقومه: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩] فنَفَى اللهُ عنه ما ادَّعاه فرعون لنفسه.

الأمر الثاني: أنه إذا قيل: «أضلَّه وما هدى» صار أبلغَ؛ لأن الضلال قد يُنْفَى مع نوعٍ من الهداية باعتبار الأكثر، فإذا قال: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ صار دالًّا على أن هذا الضلال ليس فيه هدايةٌ بوجهٍ من الوجوه.

وقيادته لقومه في الدنيا قادهم إلى الهلاك، والعياذ بالله، وفي الآخرة قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨] وهو من أئمَّة الضلال، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص:٤١] وفي بني إسرائيل قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

[١] قول النبيِّ ﷺ: «نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْهُمْ» أي: من اليهود؛ وذلك لأننا

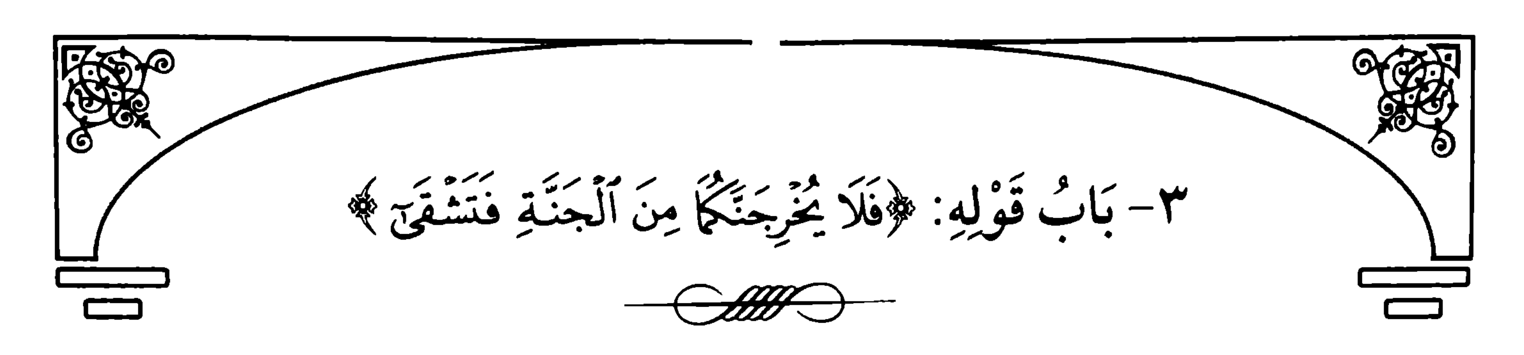
....

= نؤمن به، وهم لا يُؤمنون به، ولو ادَّعوا أنهم مؤمنون به فإنهم كاذبون؛ لأن مَن كذَّب رسولًا من الرُّسُل فقد كذَّب جميع الرُّسُل، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥] مع أنهم ما كذَّبوا إلا واحدًا، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء:١٥٠-١٥١] حتى لو قالوا: نحن نُؤْمِنُ بموسى دون عيسى، أو بعيسى دون محمد، فهم كافرون به.

وكل مؤمن فهو أَوْلَى بالأنبياء من غير المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨] وكذلك لو قال قائل: أنحن أَوْلَى بعليٍّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أم الرافضة الذين يدَّعون أنهم شيعته؟

نقول: نحن أَوْلَى به منهم؛ لأننا نحن نُنَزِّلُه مَنْزِلَتَهُ التي أنزله الله إيَّاها، وهم يكفرون بمنزلته، وينزلونه فوق منزلته؛ ولهذا أمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه بإحراقهم؛ لأن زعيمَهُم عبدَ الله بنَ سبإ -الذي كان يهوديًّا، وادَّعى الإسلام، ليُفسد على المسلمين دينهم، كما أفسد بولس دينَ النصارى- جاء إلى عليٍّ بن أبي طالب، وقال له: أنت الإلهُ حقًّا! فلم يتحمَّل عليُّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هذا، ورأى أن هذا أمرٌ مُنْكَرٌ عظيمٌ، فأمر بالأخاديد، فخُدَّت، وأُضرمت فيها النيرانُ، ثم أمَرَ بإحراقهم، فأُحرقوا.

وهذا دليلٌ على أن أَوْلَى الناس بعليٍّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هم الذين يُنزلونه مَنْزِلَتَهُ، ولا يتجاوزون به حدَّهُ.

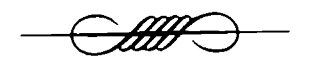


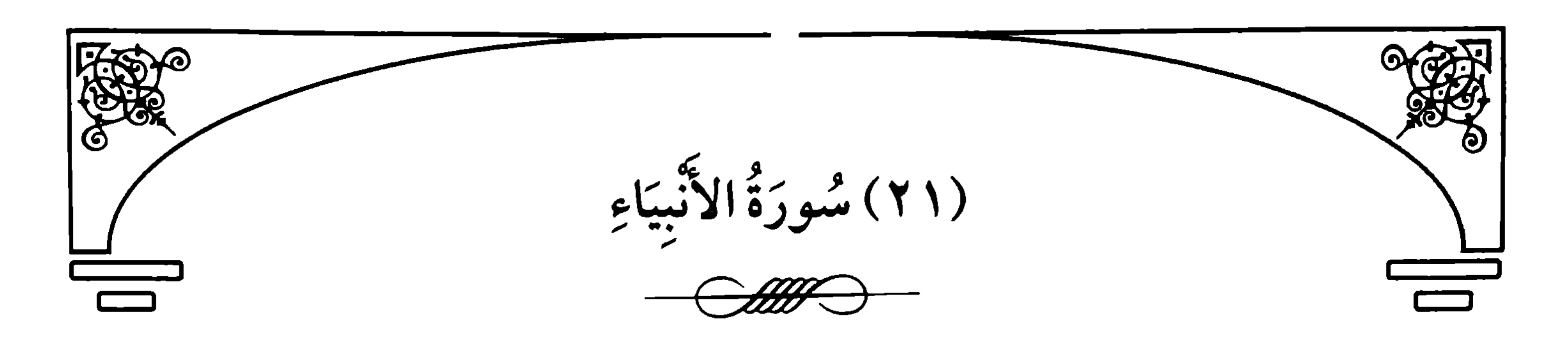
٣- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾

٤٧٣٨ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ: حَدَّثَنَا أَيُّوبُ بْنُ النَّجَّارِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «حَاجَّ مُوسَى آدَمَ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنَ الجَنَّةِ بِذَنْبِكَ، وَأَشْقَيْتَهُمْ؟» قَالَ: «قَالَ آدَمُ: يَا مُوسَى! أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي، أَوْ قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي؟!» قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»[١].

---

[١] قوله: «بِرِسَالَتِهِ» وقع في نسخة: «بِرِسَالَاتِهِ».





(٢١) سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ

٤٧٣٩ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ: حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالكَهْفُ وَمَرْيَمُ وَ﴿طه﴾ وَالأَنْبِيَاءُ هُنَّ مِنَ العِتَاقِ الأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي[١].

---

[١] عبد الله في السند هو ابنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: «بَنِي إِسْرَائِيلَ» هي سورة الإسراء، ومن العجائب أن بعض جُهَّال العرب أنكروا هذا الاسم، وقالوا: لا يُمكن أن نُسَمِّي هذه السورةَ: سورة بني إسرائيل؛ لأن إسرائيل عَدُوَّةٌ لنا، فلا يُمكن أن نُسَمِّيَها بتسميتها، فيُقال لهم: أَبْقُوا الأمور على ما هي عليه، وإذا كان فيكم قوة معنويَّة وماديَّة فعليكم باليهود الموجودين الآن.

وأمَّا أن تُنكروا شيئًا أثبته السلف، وسمَّوا هذه السورة بهذا الاسم؛ كراهةً لأن يُضاف شيءٌ من القرآن إلى بني إسرائيل، فهذا ليس بصواب.

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هُنَّ مِنَ العِتَاقِ الأُوَلِ» أي: من أوائل ما نَزَلَ.

وقوله: «وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي» أي: من قديم ما حفظتُ من القرآن؛ لأن التِّلاد بمعنى: القديم، ومنه قول الفرضيين في الغرقى والهدمى عند مَن يرى التوريث بينهم، قالوا: «وَرِثَ كُلُّ واحد من الآخر من تِلَاد ماله».

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿جُذَاذًا﴾ قَطَّعَهُنَّ[١].

وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿فِي فَلَكٍ﴾ مِثْلِ فَلْكَةِ المِغْزَلِ ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يَدُورُونَ[٢].

لكن لماذا قال: «وَالكَهْفُ» بالرفع، مع أن الواو عطف؟

نقول: لأن التقدير: «سورة بني إسرائيل» و«الكَهْفُ» عطف على «سورة» لا على «بني إسرائيل».

[١] هذا في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ أي: هـذه الأصنام ﴿جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي: للأصنام، فإنه لم يُكَسِّرْهُ ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ فإذا رجعوا يقول لهم: هذا هو الذي كسَّرهم؛ لأنه هو الكبير، والكبير لا يُحِبُّ أن يُشارِكَهُ أحدٌ في خصائصه، فهو تنبيهٌ لهم على أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُمكن أن يُشَرَّكَ معه أحدٌ في عِبادته، كما أن كبير هذه الأصنام غضب وكسَّرها؛ لتكون العبادةُ له وحده.

[٢] هذا في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ قال: «مِثْلِ فَلْكَةِ المِغْزَلِ» والمِغْزَل هو الذي يُغْزَل به الصوف والقطن، يكون له دائرةٌ، إذا حَرَّكت العُودَ الذي في هذه الدائرة تحرَّكت ودارت جميعًا.

ومعنى: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ قال: «يَدُورُونَ» وفي الحقيقة هو بمعنى: يدورون، لكنه أخصُّ من الدوران؛ لأن هذه المخلوقات الفلكيَّة تَسْبَحُ في الفضاء.

وذَكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية الليل والنهار، والشمس والقمر، فالليلُ آيته القمرُ، والنهار آيته الشمسُ، فذكر عَزَّوَجَلَّ الزمانين، وهما الليل والنهار، وذكر الآيتين في هذين الزمنين، وهما الشمس والقمر، وهي تدور في فَلَكٍ، لكنها تدور سابحةً في الهواء.

....

= وبهذا يتبيَّن لنا أن ما ذُكِرَ عن علماء الفَلَكِ الأَقْدَمين من أن القمر في السماء الدنيا، وأن الشمس في السماء الرابعة، ورتَّبوها كما في هذا البيت:

زُحَلٌ شَرَى مِرِّيخَهُ مِنْ شَمْسِهِ فَتَزَاهَـرَتْ بِعُطَـارِدَ الأَقْـمَارُ

يعني: أن زُحَلَ في السماء السابعة، وشرى -يعني به: المشتري- في السماء السادسة، ومريخه -وهو المريخ- في السماء الخامسة، وشمسه في السماء الرابعة، فتزاهرت -يعني به: الزُّهْرَة- في الثالثة، وعُطارد في الثانية، والأقمار في السماء الدنيا، يقولونها هكذا مُرَتَّبَةً، ولا يبعد أن تكون هي مرتبةً في العُلُوِّ، لكنها ليست سمواتٍ، بل السموات فوق هذا.

وأقرب هذه الكواكب إلى الأرض هو القمر، والدليل على ذلك: أن القمر شاهدناهُ نحن بأعيننا يكسف النجوم، كما أن القطعة من الغَمامة تكسف القمرَ، فكذلك القمرُ يكسف النجوم، ومعنى ذلك أنه بيننا وبين النجم.

وقد شاهدناه في ليلة سبعٍ وعشرين من شهر رمضان، شاهدناه يُساير نجمةً مضيئةً جدًّا، ثم اختفت به، وهذا يعني أنه تحتها، ولو لم يكن تحتها ما كَسَفَها، ولكن نقول: إن هذه الأفلاك في جوِّها.

والمهم أن قول الفَلَكيِّينَ السابق ليس له دليلٌ من القرآن ولا من السُّنَّة، فهو رأيهم، لكن الأمرُ الآن وَقَع بخلاف ذلك؛ لأنهم وصلوا إلى القمر، ولكن لا يعني وُصولهم إلى القمر أنه يُمكن أن يعيشوا فيه كما نعيش على الأرض، فإن هذا -فيما أظنُّ- أمرٌ مستحيلٌ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال في الأرض: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿نَفَشَتْ﴾ رَعَتْ لَيْلًا[١].

= ﴿نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥] ومعلومٌ أن تقديم المعمول: ﴿مِنْهَا﴾ ﴿وَفِيهَا﴾ ﴿وَمِنْهَا﴾ يدلُّ على الحصر، وقال الله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:٢٥] والذين صعدوا إلى القمر ما صعدوا هكذا كما نحن جالسون، بل صعدوا وقد ملؤوا جيوبَهُم من الهواء، ولولا ذلك لهلكوا، وإذا كان الأمرُ هكذا فلا يُمكن أن يكون هناك عِيشةٌ على سطح القمر كما هي عِيشَةٌ على الأرض، أمَّا الوصول إلى القمر فلا مانع من أن نُصَدِّقَ به.

[١] هذا في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ والذي حكم به سليمانُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: أن صاحب الغنم يُعطيها صاحب الحرث يستغلُّها حتى يعود حرْثُهُ كما كان.

ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَمَّا قال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ قال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾؛ حتى لا يَظُنَّ أحدٌ بنقص داود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا ما يُسَمَّى في علم البلاغة بالاحتراس.

وعلى هذا فإذا رعت الغنم في الزرع ليلًا فهل يضمن صاحبُ الغنم أم لا؟

الجواب: نعم، يضمن صاحبُ الغنم؛ لأن على أهل الغنم حِفظَها في الليل، وعلى أهل المزارع حِفْظَها في النهار، ووجه ذلك: أن الغنم في النهار تمشي وترْعَى، فكان على أهل المزارع أن يحفظوها، أمَّا في الليل فإن الغنم عادةً تبيت في مراحها، وأهل المزارع ينامون أيضًا عن حراسة مزارعهم، فإذا رعت الغنم في المزارع ليلًا وجَبَ على صاحبها

﴿يُصْحَبُونَ﴾ يُمْنَعُونَ[١].

= أن يَضْمَنَ لصاحب الزرع ما أتلَفَتْهُ هذه البهائم، إمَّا بالمال، وإمَّا بالاستغلال إذا لم يكن عند صاحب الغنم مال يدفَعُه، فإنه يُعيطها صاحبَ المزرعة يستغلُّها بقدر ما أتْلَفَت من زرعه، ثم يردها على صاحبها.

أمَّا إذا كان في النهار فإنه لا ضمان على صاحب الغنم؛ لأن على أهل المزارع أن يحفظوا مزارِعَهم، إلا أن بعض الفقهاء قيَّد ذلك، قال: بشرط: ألَّا يُرسلها بقرب ما تُتلفه عادةً، فإن أرسلها بقُرب ما تُتلفه عادةً صار عليه الضمان؛ لأن النبيَّ ﷺ يقول: «كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ»(١) فإذا رعاها حول المزارع فمن المعلوم أن البهائم عادةً إذا رأت الزَّرع الأخْضَرَ تأوي إليه، وتَرْتَعُ فيه، وهذا قيدٌ لا بأس به، قد تشهد له قواعدُ الشريعة العامَّةُ.

فإن قال قائل: وهل مثل هذا الإبل إذا كانت تمشي في الطرقات ليلًا؟

فالجواب: نعم، يجب على أهلها أن يحفظوها، وأمَّا الضمان فيُنْظَر بحسب التقدير، وأظنه قد صدر في هذا فتوى من «هيئة كبار العلماء» بأنها هَدَر؛ لأن صاحبَها هو المفرِّط؛ حيث يرعاها حول الطريق أو يهملها، على أنه قد يكون صاحب السيارة هو المُتسبِّب، مثل: ألَّا يرفع النور حتى يرى من بعيد، أو أن يُسرع إسراعًا بحيث لا يتمكَّن من ضبط سيَّارته.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ فلا يُمكن أن يكون لهم آلهةٌ تمنعهم من دون الله،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩/ ١٠٧).

﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قَالَ: دِينُكُمْ دِينٌ وَاحِدٌ[١].

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿حَصَبُ﴾ حَطَبُ بِالْحَبَشِيَّةِ[٢].

= ولا يُمكن أن يستطيعوا نصر أنفسهم، ولا أن يُمْنَعوا من قضاء الله تعالى وقَدَره ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد:١١].

[١] الأُمَّة هنا بمعنى: الدِّين والملَّة، وهي تُطْلَق في القرآن على عدَّة معانٍ:

الأول: الجماعة، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل:٩٢] وقوله: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص:٢٣].

الثاني: الزمن، قال الله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥] أي: بعد زَمَن.

الثالث: الإمام والقدوة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل:١٢٠].

الرابع: الدِّين والملَّة، ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢] وقوله في هذه الآية: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء:٩٢].

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ فذكر هنا أن ﴿حَصَبُ﴾ بمعنى: حطب، وقيل: ﴿حَصَبُ﴾ بمعنى: محصوبٍ، مثل: صَمَد بمعنى: مصمودٍ إليه، والمعنى: أنهم يُحْصَبون في نار جهنم هم وآلهتُهم، وهذا أبلغُ في الإذلال أن يكونوا بمنزلة الحجارة التي يُحْرَق بها.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يعني: لو كانت هذه الآلهة تنفعهم؛ فإنها تمنعهم من النار.

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿أَحَسُّوا﴾ تَوَقَّعُوا، مِنْ: أَحْسَسْتُ[١].

﴿خَامِدِينَ﴾ هَامِدِينَ.

وَالحَصِيدُ: مُسْتَأْصَلٌ، يَقَعُ عَلَى الوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالجَمِيعِ[٢].

ولمَّا أورد ابن زِبَعْرَى على الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قال: هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ تشمل حتى عيسى الذي يُعْبَد من دون الله، فهل يكون حَصَبَ جهنم؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾(١).

وفي قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ دليلٌ على أن الشمس والقمر والنجوم والأشجار والأحجار التي تُعْبَد من دون الله كلها تُحْصَبُ في جهنم؛ لأنه يُقال يوم القيامة: لِتتبع كلُّ أُمَّةٍ ما كانت تعبد، فتتبع هذه الأمم معبوديها، فتُوصلهم إلى جهنم، والعياذ بالله.

[١] هذا في قول الله تعالى في أول السورة: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ [الأنبياء:١٢].

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ أي: مُستأصَلين، و«حصيد» بمعنى: محْصود.

وقوله: «يَقَعُ عَلَى الوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالجَمِيعِ» يعني بذلك كلمة «حصيد» كأنَّ قائلًا قال: كيف قال: ﴿حَصِيدًا﴾ وهو جمع؟ فقال: إنه يُطْلَقُ على الواحد والاثنين والجماعة.

---

(١) عزاه ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ -عند تفسير الآية- إلى الحافظ ابن مردويه رَحِمَهُ اللَّهُ.

لَا يَسْتَحْسِرُونَ: لَا يُعْيُونَ، وَمِنْهُ: ﴿حَسِيرٌ﴾ وَحَسَرْتُ بَعِيرِي[١].

عَمِيقٌ: بَعِيدٌ[٢].

نُكِّسُوا: رُدُّوا[٣].

﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ الدُّرُوعُ[٤].

---

[١] هذا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ بمعنى: لا يُعْيون، أي: لا يتعبون؛ لأن الإعياء بمعنى: التعب، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ﴾ أي: لم يتعب ﴿بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف:٣٣].

[٢] هذه الكلمة ليست في سورة الأنبياء، وإنما هو سَبْق قَلَم من البخاريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

[٣] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ والقراءة المشهورة: ﴿نُكِسُواْ﴾ ولعلها قراءة سَبْعِيَّةٌ(١).

[٤] قال الله عَزَّوَجَلَّ في داود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء:٨٠] و﴿لَبُوسٍ﴾ بمعنى: لباس، وهي صنعة الدُّرُوع، وقد قال الله له: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [سبأ:١١] فداود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علَّمنا لباس الدُّروع، ونوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علَّمنا صَنْعة السُّفُن، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٣] ولم يقل: وحملناه على السفينة؛ لأن في ذلك فائدةً، وهي بيان مواد السفينة من أين صُنِعَت؟ وأنها من الألواح والدُّسُر، وهي المسامير.

---

(١) لم يقرأ بها أحد من السبعة من طريق الشاطبية، ويُنْظَر: معجم القراءات (٦/ ٣٥).

تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ: اخْتَلَفُوا[١].

الحَسِيسُ وَالحِسُّ وَالجَرْسُ وَالهَمْسُ وَاحِدٌ، وَهُوَ مِنَ الصَّوْتِ الخَفِيِّ[٢].

﴿ءَاذَنَّكَ﴾ أَعْلَمْنَاكَ.

﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ إِذَا أَعْلَمْتَهُ، فَأَنْتَ وَهُوَ ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ لَمْ تَغْدِرْ[٣].

---

[١] يعني قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ أي: اختلفوا، والأمر إذا تقطَّع بين الناس تمزَّق وحصَلَ الخلاف، وإذا حصل الخلاف صارت الفوضى والفشل، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

[٢] المراد: الصوت الخَفِيُّ نسبيًّا، كما يُقال: «جَرَس النحل» وهو صوتها وهي تبني.

ويُشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: صوْتها وهي تلتهب وتأكُل الناسَ، كرأس الشاة إذا وضعْناه في النار نسمع له حسيسًا وصوتًا، فهؤلاء الذين سبقَت لهم الحسنى لا يسمعون حسِيسَها، وهذا يدلُّ على أن الله تعالى حجبَهُ عنهم مع تباعد ما بين الجنة والنار؛ لأن هذه في أسفل السافلين، وهذه في أعلى علِّيين، وإلا فلا شَكَّ أن النار لها صوتٌ عظيمٌ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٠] وقال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود:١٠٦] لكن الذين سبقَت لهم الحُسْنى لا يسمعونها، نسأل اللهَ أن يجعَلَنا منهم.

[٣] الكلمةُ الأولى ليست في سورة الأنبياء، ولكن الثانية، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنبياء:١٠٩] وكأنه استشهد بالآية التي قدَّمها ﴿ءَاذَنَّكَ﴾

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ تُفْهَمُونَ[١].

﴿ٱرْتَضَىٰ﴾ رَضِيَ[٢].

= على الآية التي بعدها، يعني: أن قوله: ﴿ءَاذَنَّكَ﴾ بمعنى: أعلَمْنَاك، وكذلك: ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ أي: أعلمْتُكم.

وقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: جعلت الأمْرَ بيني وبينكم ظاهرًا بيِّنًا، فلم أغْدِرْ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال:٥٨] أي: انبذ إليهم عهدهم حتى تكون أنت وهم سواءً في عدم العهد بينكما.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: لأجل أن تفهموا ما نزل بكم؛ لأنه إذا كان الإنسان مستعدًّا للسؤال كان فاهمًا.

وذكر القَسْطَلَّانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنًى آخرَ، وهو: ارجعوا إلى نعمتكم ومساكنكم؛ لعلكم تُسْأَلون عمَّا جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتُجيبوا السائل عن عِلْمٍ ومشاهدةٍ(١)، والقائل بهذا يُريد أن تكون ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾ على بابها، وأنها من السؤال، والمعنى في القولين متلازمٌ؛ لأنهم إذا فهموا ما نزل بهم فإنهم إذا توقَّعوا السؤال وسُئِلُوا أجابوا.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ فالذين اتَّخذوا للرحمن

(١) إرشاد الساري (٧/ ٢٤١).

﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ الأَصْنَامُ[١].

السِّجِلُّ: الصَّحِيفَةُ[٢].

= ولدًا هم اليهود اتَّخذُوا عُزَيْرًا، والنصارى اتَّخذُوا المسيحَ، والمشركون اتَّخذوا الملائكة، قالوا: إنهم بناتُ الله، ثم عبدوا هؤلاء الذين اتُّخذوا أبناءً لله، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ وأنتم -يا عابديها- لستم مرضيِّين عند الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يشفعون لكم، وهذا أحدُ شروط الشفاعة الثلاثة: رِضَى الله عَزَّوَجَلَّ عن المشفوع له.

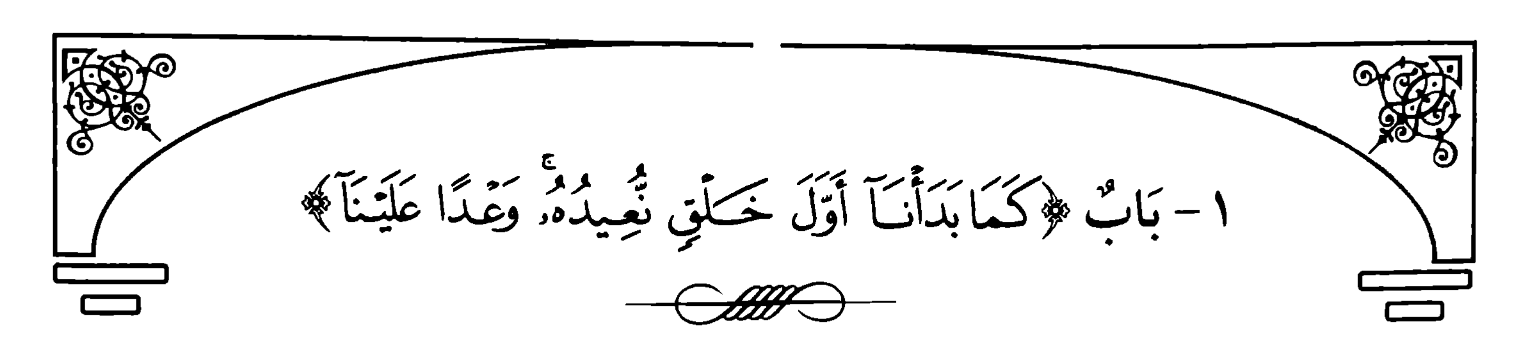
الشرط الثاني: رضاهُ عن الشافع.

الشرط الثالث: إذْنُهُ في الشفاعة.

[١] قال إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي: ما هذه الأصنام التي تعبدونها؟ وسُمِّيت تماثيلَ؛ لأنها وُضِعَت على تمثال مُعَيَّن يُعْبَدُ من دون الله.

[٢] يُشير إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤] أي: كما تُطْوَى الصحيفةُ التي فيها الكتاب، وهذا يدلُّ على كمال قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أن هذه السمواتِ العظيمةَ يطويها الله عَزَّوَجَلَّ كما يطوي الكاتبُ صحيفةَ الكتاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].





١- بَابٌ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾

٤٧٤٠- حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ النُّعْمَانِ -شَيْخٌ مِنَ النَّخَعِ- عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ثُمَّ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ.

أَلَا إِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ! أَصْحَابِي! فَيُقَالُ: لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿شَهِيدٌ﴾ فَيُقَالُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ»[١].

---

[١] قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ» كان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَخْطُبُ في الأمور الهامَّةِ، وخُطَبُهُ نوعان:

الأول: خُطَبٌ راتبةٌ، كخُطْبة الجُمُعة، وخُطْبة العيد، وخُطْبة الاستسقاء، وخُطْبة الكسوف عند كثير من أهل العلم.

الثاني: خُطَبٌ عارضةٌ، وهي التي يكون لها سببٌ، فيخطب صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم.

....

= وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللهِ» يعني: يوم القيامة، ثم ذكر الحال: «حُفَاةً» لا نعالَ عليكم «عُرَاةً» لا ثيابَ عليكم «غُرْلًا» غير مختونين، وورد في بعض الأحاديث «بُهْمًا»[1] أي: ليس معكم أموالٌ، هكذا يُحْشَرُ الناس.

ثم استشهد الرسولُ ﷺ بآية من القرآن، وهي قولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ وهل يُريد الله عَزَّوَجَلَّ بهذا أن يستدلَّ بالابتداء على الإعادة، أو أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْتزَمَ أن يُعيد الخَلْق كما بدأه بغير كِسْوَةٍ ولا نِعالٍ كاملَ الأطراف، أو الأمران جميعًا؟

نقول: الأمران جميعًا، أي: أننا قادرون على ذلك، كما أننا قد بدأنا الخَلْق فإننا نُعيدُهُ، وكما أننا بدأنا الخَلْقَ هكذا، يخرج الإنسان من بطْنِ أُمِّه حافيًا عاريًا أَغْرَل أَبْهَم، فيخرج من بطن الأرض كما يخرج من بطْنِ أُمِّهِ.

وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ هذا ممَّا أَلْزَمَهُ الله عَزَّوَجَلَّ نَفْسَه، ولله تعالى أن يُلْزِم نفسه بما شاء، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤] فلله عَزَّوَجَلَّ أن يُلْزِم نفسَهُ بما شاء، لكن ليس لنا نحن أن نُلْزِم اللهَ بشيء.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ هذه الجملة مرتبطة بما قبلها ارتباطَ تأكيدٍ، يعني: أننا سنفعل، وجاءت بصيغة اسم الفاعل؛ لتحقُّق الوُقوع.

ويُستفاد من هذه الجُمَل في هذا الحديث:

١- أن الناس يُحْشَرون يوم القيامة على هذا الوصف.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٩٥).

....

= ٢- استشهاد الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بدون أن يقول: «لقوله تعالى» فيجوز للإنسان المُسْتَشْهِد بالقُرآن أن يُدْمِجَهُ في أثناء كلامه، ولا يُعْتَبُ عليه في هذا.

وإن كان بعضُ الناس يقول: إن الرجل إذا استشهد بشيءٍ من القرآن فإنه لابُدَّ أن يقول: قال الله تعالى، أو: لقوله تعالى، أو ما أشبه ذلك، فنقول: هذا ليس بلازم؛ لأن القرآنَ لفظُهُ مفهومٌ ومعلومٌ عند عامَّة المسلمين، فإذا قرأه الإنسانُ في أثناء كلامه بدون أن يقول: لقوله تعالى، أو: قال الله تعالى، أو: لأن الله يقول، فلا حَرَجَ عليه.

٣- ثبوتُ القياس؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ فقاس الله عَزَّوَجَلَّ الإعادة على الابتداء، مع أن الإعادة أهونُ من الابتداء.

٤- أن لله عَزَّوَجَلَّ أن يُوجب على نفسه ما شاء؛ لقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾.

٥- تأكيدُ الكلام، وإن كان الكلام من أصدق المُتكلِّمين؛ لقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ واللهُ عَزَّوَجَلَّ كلامُهُ حقٌّ بدون أن يُؤَكَّد، لكنه يُؤَكِّدُهُ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ رحمةً بالعباد حتى يزدادوا طُمأنينةً وثقةً بوعد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال النبيُّ ﷺ: «**ثُمَّ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ**» عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ وذلك لأنه إمامُ الحُنَفاء، واللباس نوعان:

الأول: لِباسُ عَمَلٍ، وهو لِباسُ التقوى.

والثاني: لِباسُ سِتْرِ سَوْءَةٍ، وهو اللباسُ المعروف.

فإذا كان هو إمامَ الحنفاء صار أوَّلَ مَن يُكْسَى يوم القيامة، لكن ماذا يُكْسَى؟

....

= نقول: ليس لنا علمٌ بذلك، إنما نقول هكذا كما قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكما سَبَقَ أن الأمور الغيبيَّة يجب علينا أن نُؤْمِنَ بها، ولا نَسْأَلَ عن كيفيتها، بل السؤال عن كيفيتها من باب التنطُّع في دين الله، ومن باب سُؤال ما لا يحتاج إليه، كما يسأل بعض الناس يقولون: إذا كان مَلَك الموت يَقْبِضُ الأرواحَ، ونشاهد ملايين يموتون في لحظة واحدة في أثناء الحروب في أماكن متباعدة، فكيف يقبضها؟

والجواب أن نقول: الله أعلم، نحن نُؤْمِنُ بأنه يَقْبِضُ الأرواحَ، أمَّا أن نسأل: كيف يَقْبِضُ؟ فهذا ليس إلينا؛ لأنه أمرٌ غيبيٌّ، والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أحرصُ منَّا على العلم، ولَمَّا نزلت الآية في ذلك لم يسألوا الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقد شبَّه بعضُ السلف هذه المسألة بطشت -أو بطَسْت- من طعام فيه أنواعٌ من الأطعمة بين يدي إنسانٍ يأْكُل، فيستطيع أن يأخذ من عدَّة أنواع بيد واحدةٍ، فقال: إن الأرض كلَّها أمام مَلَكِ الموت مثل الطَّسْت أمام الآكِل[1].

ولكن هذا على سبيل التقريب، والأمرُ أعظمُ من ذلك، وإذا كان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ له ستُّ مئة جَناحٍ قد سدَّ الأُفُق فإنَّنا لا نستطيع أن نعرف كيف مَلَكُ الموت كِبَرُهُ وقُدْرَتُهُ؟

ولعلنا نذكر هنا أنه لَمَّا قال سليمانُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل:٣٨-٣٩] وكان له وقتٌ معروفٌ مُحَدَّدٌ يقوم فيه، ولكن ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ

(١) هو قول مجاهد، انظر: تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٠٩)، وتفسير الطبري (٩/ ٢٩٢).

....

= قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠] فرآه عنده مُباشرةً، جاءت به الملائكة، فانظر القُدْرة العظيمة! ونحن نعلم يقينًا أن الرجل الذي قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ما فكَّر فيه إلا بعد أن عَرَضَ سليمانُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ فلا يُمكن أن نقول: لعلَّه سَبَقَ أن دعا الله عَزَّوَجَلَّ، ثم جاءت به الملائكةُ، وهذا دليلٌ على أن أحوال الملائكة لا تُقاسُ بأحوال البَشَرِ، فالله على كل شيء قديرٌ.

وأنا أنصح كُلَّ إنسان في أمور الغيب ألَّا يتعرَّض لأكثر ممَّا جاءتْ عليه؛ لأن هذا شيءٌ فوْقَ طاقتنا، فإن تعرَّض له الإنسانُ دخل عليه الشيطان، ووَسْوَس له، وقال: كيف كذا؟ وكيف كذا؟

ثم قال صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: «**أَلَا إِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ! أَصْحَابِي! فَيُقَالُ: لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**» فهو لا يعلم بهم، ويموتون على الرِّدَّة؛ ولهذا قال: «**إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ**».

وقد استدلَّ الرافضةُ -قبَّحهم الله وأذلَّهم وأخْزاهم- بهذا الحديث على أن الصحابة كلَّهم ارتدُّوا بعد موت الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلا آلَ البيت ونفرًا قليلًا من حاشيتهم، ومن جملة هؤلاء: أبو بكر وعُمر وعثمان والعَشَرَة المُبَشَّرونَ بالجنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ما عدا عليَّ بن أبي طالب وآلَ البيت؛ ولهذا يتشاءمون من لفظ العَشَرَة تشاؤمًا عظيمًا، ويرتاحون للتسعة؛ لأنهم يزعمون أن آلَ البيت تسعةٌ، ولا أدري كيفيتها عندهم، لكن قال لهم شيخ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: كيف ترتاحون للتسعة، والله يقول:

....

= ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨]؟! لو أراد أحدٌ أن يتشاءم لتشاءم بالتسعة لا بالعشرة[١].

وعلى كل حال: فهذا الحديث من الأحاديث المُتشابهة، وقد أخذَهُ الرافضةُ ذريعةً لباطلهم، ولكن نقول: إن الرسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بيَّن وقال: «**لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ**» والذي يُقاتل المرتدِّينَ لا يُقال: إنه مرتدٌّ، بل هو حربٌ للمرتدين، وليس مُرْتَدًّا، وحاشاهُ من ذلك!

وإذا جوَّزنا أن يكون أبو بكر وعمر وعثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ مرتدِّين فليس بممتنع أن يكون عليُّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أيضًا مُرتدًّا؛ وذلك لأن كل فَضِيلةٍ لعليٍّ بن أبي طالب فيما يتعلَّق بالآخِرَة فهي موجودةٌ لأبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فالوعدُ بالجنة لهم جميعًا، بل إن الرسولَ ﷺ لـمَّا صعد أُحُدًا، وصعد أبو بكر وعمر وعثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ارتجَّ بهم الجبلُ، فقال: «**اثْبُتْ أُحُدُ؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ**»[٢] والصِّدِّيقُ والشهيدُ لا يُمكن أن يرتدَّ على عَقِبِهِ بعد موت الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأنه بشهادة الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن هذا صدِّيقٌ، وأن هذين شهيدانِ.

والمهم أن مثل هذا الحديث يُعْتَبر من النصوص المتشابهة التي يتَّبِعُها مَن في قلبه زَيْغٌ، فكما أن في القرآن آياتٍ متشابهةً وآياتٍ مُحْكَماتٍ، ففي السُّنَّة كذلك أحاديثُ متشابهةٌ وأحاديثُ مُحْكَمةٌ، والذين في قلوبهم زَيْغٌ يتَّبعون ما تشابَهَ من هذا ومن هذا،

---

(١) منهاج السنة النبوية (١/ ٣٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا**»، رقم (٣٦٧٥).

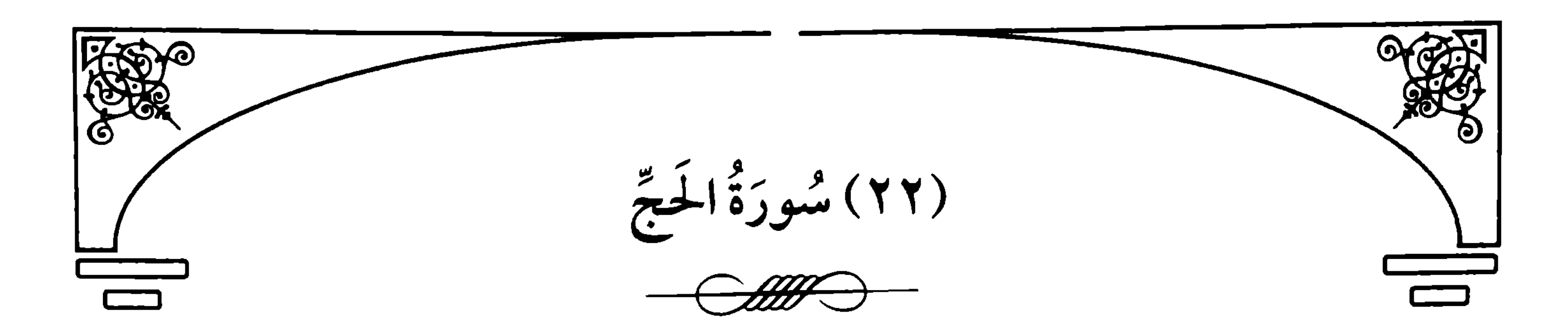
....

= ويضربون كتابَ الله وسُنَّة رسوله ﷺ بعضَها ببعض؛ لأجل أن يتوصَّلوا إلى باطِلِهم، ولكن الأمر ظاهرٌ، والحمد لله.

فإن قال قائل: وكيف يحتجُّ الرافضة بهذا الحديث وهو في صحيح البخاريِّ؟

نقول: لأن كُلَّ حديث يُناسب بِدْعَتَهم يحتجُّون به وإن كان راويه أضعفَ خَلْق الله، وهم يعترفون بصحيح البخاريِّ، إلا إن كانوا يكذبون علينا، ولقد ناقشناهم، وقالوا: صحيحا البخاريِّ ومسلمٍ أحاديثُهما صحيحةٌ، وقالوا: إن الكافي فيه أحاديثُ ضعيفةٌ.





(٢٢) سُورَةُ الحَجِّ

وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ المُطْمَئِنِّينَ[١].

وَيُقَالُ: أُمْنِيَّتُهُ قِرَاءَتُهُ ﴿إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ يَقْرَؤُونَ، وَلَا يَكْتُبُونَ[٢].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ إِذَا حَدَّثَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ، فَيُبْطِلُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ، وَيُحْكِمُ آيَاتِهِ.

---

[١] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ وهو من: أَخْبَت إذا وقع في الخَبْت، والخَبْت هو المكان الذي ليس حوله أحدٌ، والمعنى: المطمئنِّين في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى ذِكْرِه.

ولم يذكر المُبَشَّرَ به؛ ليشمل ذلك ما ينالونه في الدنيا وفي الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس:٦٤].

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢] ويرى بعضُ أهل العلم أن المراد بالتمنِّي تمني القلب، أي: أن الشيطان قد يُلْقِي في قلبه وساوسَ غيرَ محمودة، كما يُلْقِي في قلب غيره.

وقال بعض العلماء -وهو أصحُّ- إن المراد بالأمنية: القراءةُ؛ لأن «تمنَّى» تأتي بمعنى: قرأ، ومنه قول الشاعر في أمير المؤمنين عُثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

....

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرَهُ لَاقَى حِمَامَ المَوَارِدِ[(١)]

فتمنَّى بمعنى: قرأ.

ومنه ما استشهد به المؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] أي: إلا قراءةً، ولا يفهمون معناهُ، ولا حِكَمَهُ، ولا أسرارَهُ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: يُلقي كلماتٍ يقولها الشيطانُ فيها إغواءٌ لبني آدم، فيسمعها مَن يسمعها، فيغترُّ بها؛ لأنه قال: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ ولم يقل: قرأ الرسولُ أو النبيُّ ما يُلْقِيهِ الشيطانُ، حتى نقول: إن النبيَّ معصومٌ من أن يتكلَّم بخطإٍ، ولكن الشيطان يُدْخِلُ في كلام الرسول وفي قراءته شيئًا من الباطل، وهذا الإلقاءُ يكون بصوت مسموع.

ويحتمل أن تكون الآية أعمَّ من ذلك، فتشمل ما يُلقِيهِ الشيطانُ في قلوب أهل الباطل من تحريف الكلم عن مواضعه، وتفسير كلام الله بما لا يُريد اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

ولكن الله تعالى يُبيِّن هذا بإظهار الباطل على أيدي العلماء، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ويُبْطِله ويُزيلُهُ ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ببيان الحقِّ.

والحِكْمة من هذا الإلقاء: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

---

(١) ذكره بلا نسبة ابن هشام في السيرة (٢/ ١٨٦)، والزجاجي في أماليه (ص:٢٠)، ونسبه أبو حيان إلى حسان كما في «البحر المحيط» (٦/ ٣٥٣).

....

= ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وعرفوا الحقَّ من الباطل ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وأنه لا يُمكن أن يَشْتَمِلَ على باطلٍ؛ لأن الحقَّ حقٌّ ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تطمئنُّ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: ممَّا أَلْقَى الشيطانُ على الرغم من أن الله عَزَّوَجَلَّ نَسَخَهُ، وأَحْكَم آياتِهِ، وبيَّن الحقَّ ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾.

وأمَّا مسألة الغرانيق، وأن الشيطان أَلْقى: «تلك الغرانيق العُلا، وإن شفاعتَهُنَّ لتُرتجى»[1] فالظاهر أنها قصة باطلةٌ، ومن العلماء مَن أقرَّها، وقال: إن هذا لا يُنافي العِصْمَةَ؛ لأن الرسولَ ﷺ ليس هو الذي قالها، وإنما الذي قالها الشيطانُ، فضَلَّ بها مَن ضلَّ من الناس.

ومنهم مَن قال: إن الآثار الواردة فيها ضعيفةٌ، فلا يُمكن أن يُفَسَّر بها كلامُ الله، ويدلُّ لهذا: أن الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ ولا يُمكن أن نُفَسِّر الآيةَ بالغرانيق، والرُّسُلُ السابقون لا يعرفون عن اللات والعُزَّى وما أشْبَهها، وعلى هذا فيَبْقَى القرآنُ مُبْهمًا كما أَبْهَمَهُ الله عَزَّوَجَلَّ.

ونحن إذا فسَّرنا القرآن بظاهره فإنكار أن يكون الشيطان أَلْقَى في أُمْنِيَّتِهِ هذا لا يجوزُ، كما بالَغَ بعضُهم، وقال: لا يُمكن أن يُلقي الشيطانُ في قراءة الرسول أو النبيِّ.

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (٥٠٩٦)، والمعجم الكبير للطبراني (١٢/ ٥٣) (١٢٤٥٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَيُقَالُ: «أُمْنِيَّتُهُ قِرَاءَتُهُ»، ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]: «يَقْرَءُونَ وَلَا يَكْتُبُونَ».

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَشِيدٌ بِالقَصَّةِ: جِصٌّ[١].

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿يَسْطُونَ﴾ يَفْرُطُونَ، مِنَ السَّطْوَةِ، وَيُقَالُ: ﴿يَسْطُونَ﴾ يَبْطِشُونَ[٢].

فإذا قيل: ما الذي أُلقي؟

نقول: لا شَكَّ أن الذي أُلقي باطلٌ، بدليل قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وأمَّا قوله: «﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ يَقْرَؤُونَ، وَلَا يَكْتُبُونَ» ففي هذا نظرٌ، والصواب: أن المعنى: يقرؤون ولا يفهمون المعنى.

[١] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ يُحذِّر عَزَّوَجَلَّ هؤلاء المُكذِّبين للرسول صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، ويقول: إننا أهلَكْنا أُممًا كثيرةً، ولهم مزارعُ وبساتينُ، وقصورٌ مَشِيدَةٌ بالجِصِّ، أي: مَطْلِيَّةٌ به؛ تَقْوِيَةً، وتبييضًا لها، والقَصَّةُ: نوع من الجِصِّ.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج:٧٢] وذكر البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المعنى: «يَفْرُطُونَ» أي: يفرطون عليهم بالضرب والقتل وما أشبه ذلك، وذكر قولًا آخر: «يَبْطِشُونَ» والمعنى واحدٌ أو متقاربٌ، أي: أنهم لكراهتهم للحق، ولِمَا يُتْلَى عليهم يكادون يَبْطِشُونَ بهؤلاء، نسأل اللهَ العافيةَ.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أُلْهِمُوا إِلَى القُـرْآنِ ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ الإِسْلَامِ[١].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿بِسَبَبٍ﴾ بِحَبْلٍ إِلَى سَقْفِ البَيْتِ[٢].

---

[١] الصواب أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أعمُّ من القرآن، وأنه يشمل كلَّ ما طاب من القول من القرآن، والذِّكر، وقراءة العِلْمِ، والأمْرِ بالمعروف والنَّهْيِ عن المُنْكَرِ، ولِينِ الجانب، والمُخاطبة لِمَن يُلَيِّنُ لهم القول، وكذلك يشمل الثناءَ على الله بالصفات الكاملة، مثل: «التحيات لله، والصلوات، والطيبات»(١).

وقوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: صراط الله عَزَّوَجَلَّ، وقال: ﴿صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بمعنى: المحمودِ؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ يُحْمَدُ على هذا الصراط الذي سَنَّه لعباده، وأظْهَره لهم، وهو الإسلام في كل زمانٍ، حتى في الأُمَم السابقة ما دامت رسالةُ الرسول قائمةً فهو الإسلامُ.

لكن لماذا جاء بالفعل: ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ مبنيًّا لِمَا لم يُسَمَّ فاعِلُه؟

نقول: لأن الهداية إلى الطَّيِّبِ من القول تعمُّ هدايةَ الله عَزَّوَجَلَّ، وهدايةَ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فإن الرسولَ يهدي إلى الطَّيِّبِ من القول.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ وهذا من باب التحدِّي، والآية تشمل معنيَيْنِ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ مُسْتَكْبِرًا[١].

﴿تَذْهَلُ﴾ تُشْغَلُ[٢].

الأول: أن الإنسان الذي يظن أن الله لا ينصرُ الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فليمتْ غَيْظًا بأن يُعَلِّقَ المشنقة في السقف، وإذا فعل ذلك فلينظرْ هل ينتصر الرسولُ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم أو لا ينتصر؟ ويُسَمَّى الآن: الشنقَ، والظاهر أن الشنقَ فيما سبق: أن تُرْبَطَ رِجْلُهُ بجَمَلٍ، ورِجْلُهُ الأُخْرى بجَمَلٍ آخَـرَ، وتُضْرَبَ الجِمالُ، فتتفرَّق يمينًا ويسارًا، وينشنق.

المعنى الثاني للآية: إن كان صادقًا فليطلب المَدَدَ من السماء بالنصر، ويكون قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ من باب التهكُّم، أي: إن كان صادقًا فلْيَقْطَعِ النصرَ عن محمَّدٍ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم.

وقوله: «إِلَى سَقْفِ البَيْتِ» وجه ذلك: أن كلَّ ما علا فهو سماءٌ، ومعلومٌ أنه لو كان المراد: السماء الدنيا فإنه لا يستطيع أن يصل إليها بالحَبْل.

[١] هذا التفسير من باب ذكر السبب الحامل على ثَنْيِ العِطْفِ.

والعِطْفُ هو الجانب، أي: أنه إذا تُليت عليه آيات الله ثَنَى عِطْفَهُ مستكبرًا عنها.

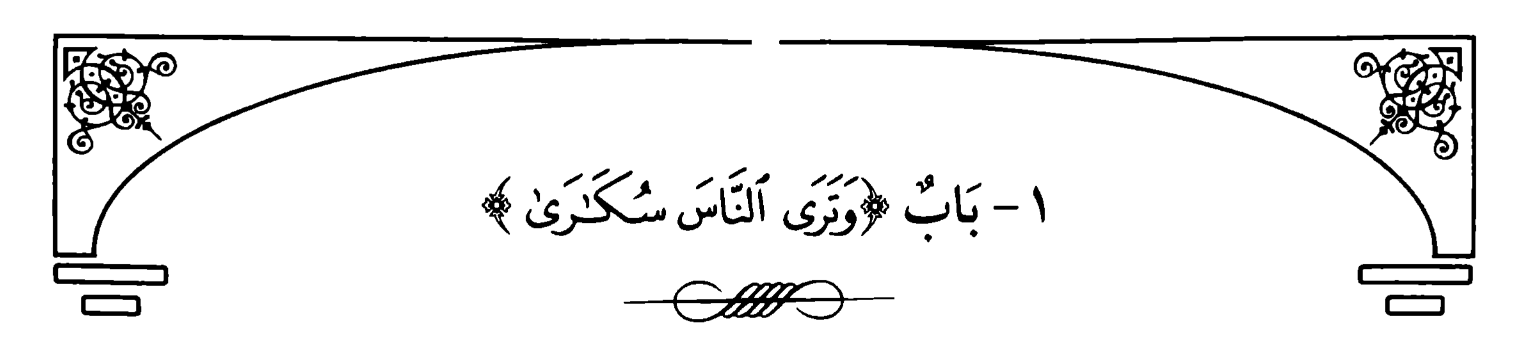
[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج:٢] فذهب بعضُ أهل العلم إلى أن هذا قبل قيام الساعة، وأن هذا يكون في الزلزلة التي تكون قبل الساعة، بدليل أنه قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾.

....

= وذهب بعض العلماء إلى أن هذا بعد قيام الساعة، وأن المعنى: أنه لو كان ثَمَّت امرأةٌ تُرْضِعُ، وقد الْتَقَم صبيُّها ثدْيَها، لذهلت عنه، ولو كان ثَمَّت امرأةٌ حاملٌ لأسقطت، وهذا هو الأقربُ؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:١-٤] وتحديث الأخبار إنما يكون بعد قيام الساعة(١).



(١) يُنْظَر: التعليق على أول الباب (٤٦) من كتاب الرقاق، من صحيح البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



١ - بَابُ ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾

٤٧٤١ - حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ: حَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ: حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ: يَا آدَمُ! يَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: يَا رَبِّ! وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ -أُرَاهُ قَالَ- تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الحَامِلُ حَمْلَهَا، وَيَشِيبُ الوَلِيدُ ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾» فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا.

وَقَالَ أَبُو أُسَامَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ: ﴿تَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ وَقَالَ: «مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ».

وَقَالَ جَرِيرٌ وَعِيسَى بْنُ يُونُسَ وَأَبُو مُعَاوِيَةَ: (سَكْرَى وَمَا هُمْ بِسَكْرَى)[١].

---

[١] قوله: «مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ» التقدير: أَخْرِج تِسْعَ مئةٍ وتسعةً وتسعينَ.

....

= ولكن قوله: «مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ» فيه إشكالٌ في إعرابه، ووجْهُ الإشكال: أن مقتضى القواعد العربية أن يقول: «من يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ تِسعُ مئةٍ وتِسْعَةٌ وتسعونَ»؛ لأنها مُبْتَدأٌ مُؤَخَّرٌ، و«منْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ» جارٌّ ومجرورٌ خبرٌ مُقَدَّمٌ، كما قال في الثانية: «وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ» فـ: «وَاحِدٌ» مُبتدأٌ مُؤَخَّرٌ، و«مِنْكُمْ» خَبَرٌ مُقَدَّم.

وإذا ورَدَ مثل هذا فإمَّا أن يكون هذا من تصرُّف الرُّواة، وإمَّا أن يكون مُقَدَّرًا له ما يُناسب المقام، فيكون التقدير: يُخْرِج من يَأْجُوجَ ومَأْجُوج تِسْعَ مئةٍ وتسعةٍ وتسعينَ، ثم استأنف، وقال: «وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ» فتكون الجملةُ الثانيةُ مُسْتأنفةً.

هذا إذا كان الكلام من كلام الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقد حُفِظَ عنه ﷺ بهذه الصيغة، وأمَّا إذا كان من تصرُّف الرُّواة فإن هذا قد يكون بعد تغيُّر اللسان وحصل ما حصل من الاختلاف.

ومن فوائد هذا الحديث:

١- فيه دليلٌ لمذهب أهل السُّنَّة والجماعة من أن كلام الله عَزَّوَجَلَّ بصوتٍ؛ لقوله: «فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ» وقد ورَدَ: «فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ»[1] لأنه قال: «يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ: يَا آدَمُ!» فالقائلُ هو الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾، رقم (٤٧٤١)، وفي كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، رقم (٧٤٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النار»، رقم (٢٢٢/ ٣٧٩)، وليس في رواية مسلم ذكر الشاهد.

....

وفيه تأكيد النِّداء، وأنه بصَوْت، فقوله: «بِصَوْتٍ» هذا من باب التأكيد؛ لأن النِّداء لا يكون إلا بصوت، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢] فالنِّداء يكون للبعيد، والمناجاةُ تكون للقريب.

٢- أن جميع البشر ذُرِّيَّةٌ لآدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لقوله: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ».

٣- أن يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ من بني آدم؛ لأن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ».

٤- أن ما ذُكِرَ من أن هؤلاء القوم فيهم مَن يفترش إحْدَى أُذُنيه، ويلتحِفُ الأُخْرى، وفيهم الطول المُفْرِط، وفيهم القِصَرُ المُفْرِط، بل يقول العامة: حتى إن العَشَرَة يُرْدِفُ بعضُهم بعضًا على الصاع، ويقولون: ما أَبْعَد قَعْرَ البئر! وما أشبه ذلك - أن هذا كلَّه ليس بصحيحٍ، بل يأجوجُ ومأجوجُ من ذريَّة آدم، وهم موجودونَ منذ زَمَنٍ؛ لأن ذا القرْنَيْن لَمَّا بلغ بين السَّدَّيْنِ ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف:٩٣-٩٤] فهم -إذن- موجودونَ، وهم مفسدون في الأرض، ومن طبيعتهم الشرُّ والفسادُ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ فسدَّ هذا السدَّ العظيمَ الذي إذا أرادَ الله عَزَّوَجَلَّ أن يبعثهم إلى الناس ويُؤذوهم فإنه يزولُ هذا السدُّ.

وأمَّا يأجوجُ ومأجوجُ الذين يأتون بعد نزول عيسى ابن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

....

= -وهم ذُرِّيَّة هؤلاء- فإنهم لم يُبْعَثوا حتى الآن، كما ثبت في الحديث الصحيح حديثِ النَّوَّاس بن سَمْعانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في (صحيح مسلم) أن الله يُوحي إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ** -يعني: يأجوجَ ومأجوجَ- **فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ**» فيذهب عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع مَن معه مِن المؤمنين إلى الطور حتى يُحْصَروا فيه، ويكون الطعامُ لديهم قليلًا، حتى إن النبيَّ ﷺ قال: «**حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِئَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ**».

فإذا طال الحصارُ رَغِبَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومَن معه إلى الله، ودَعَوْهُ، فيُرسل الله تعالى على يأجوجَ ومأجوجَ النَّغَف في رِقابهم -وهي دُودةٌ تخرجُ في الرقبة، وتأكُلُها- حتى يموتوا مِيتَةَ رَجُلٍ واحد[1].

وقوله: «**لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ**» يعني: من كثرتهم وما معهم من قُوَّةٍ، فإن هؤلاء يكتسحون الأرض كلَّها، حتى إنهم يقولون: قاتلنا أهل الأرض، فلنُقاتلْ أهل السماء، فيُصَوِّبون سِهامهم إلى السماء، فترجعُ عليهم مُخضبةً بدم، وحينئذٍ يغترُّون غُرورًا كبيرًا أنهم قتَلوا أهلَ السماء[2].

٥- من فوائد الحديث: شدَّة مَخافة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الله؛ لأنه لَمَّا ذكر بَعْثَ النار، وقال: «**مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ**» يعني: وواحد في الجنة، شقَّ ذلك

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، رقم (٢٩٣٧/ ١١٠).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب سورة الكهف، رقم (٣١٥٣)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب فتنة الدجال، رقم (٤٠٨٠)، وأحمد (٢/ ٥١١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه ابن ماجه في الموضع السابق، رقم (٤٠٧٩)، وأحمد (٣/ ٧٧) عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

= عليهم حتى تغيَّرت وجوهُهُم، وفي رواية أُخرى: فقالوا: يا رسول الله! أيُّنا ذلك الواحد؟ يعني: الذي ينجو، ولكن الرسول ﷺ بيَّن أن منَّا واحدًا، ومن يأجوج ومأجوج تِسْعَ مئةٍ وتسعةً وتسعينَ[1].

وقد ذكر شيخُنا عبد الرحمن بن سعديٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المراد بيأجوج ومأجوج في هذا الحديث: كلُّ الكُفَّار؛ لأن كلَّ الكفار بعثٌ للنار، فأخذ العموم من الحكم والعقوبة، فما دام أن بَعْثَ النار من بني آدم هم يأجوج ومأجوج، فمعنى ذلك: أن كلَّ كافرٍ فإنه داخل في يأجوجَ ومأجوجَ في هذا الحديث.

وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أن يأجوجَ ومأجوجَ وصفٌ بالمشتقِّ والمعْنَى، وأنه من أجيج النار؛ لأنهم مختلطون، وأمْرُهم فوضويٌّ، ليس عندهم نظامٌ[2].

وهذا الحديث يُسْنِدُهُ ويُعَضِّدُهُ؛ لأن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بيَّن أن ذُرِّيَّة آدم منهم واحد من أهل الجنة، وتسع مئة وتسعة وتسعون من أهل النار، فهؤلاء الكفَّار إمَّا من هؤلاء وإمَّا من هؤلاء، فكونهم من أهل الجنة لا يمكن مع موتهم على الكُفْر، فيبقى أن يكونوا داخلين في يأجوجَ ومأجوجَ في هذا الحديث بالذات.

أمَّا فيما يتعلَّق بيأجوجَ ومأجوجَ الذين سيُبْعَثون في آخِرِ الزمان فهم لا شَكَّ أنهم كفرةٌ وفجرةٌ، وأن عندهم غُرورًا بأنفسهم وقوةً وسيطرةً، وأنهم مفسدون في الأرض، وكذلك السابقون الذين بَلَغَهم ذو القرنيْنِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾، رقم (٦٥٣٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: «يَقُولُ اللهُ لآدَمَ»، رقم (٢٢٢/ ٣٧٩).

(٢) انظر كتابه: فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج، (ص٦٩) وما بعدها.

....

= **فإن قال قائلٌ**: وهل الذين بلغهم ذو القرنين بقوا إلى الآن؟

نقول: لم يرد أنهم يبقون، وكون الأمر يُنْسَبُ إلى يأجوجَ ومأجوجَ؛ لأنهم هم القبيلة؛ ولهذا يُخاطِبُ اللهُ بني إسرائيل في عهد الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بما جرى لآبائهم، وإلا فذُرِّيَّتُهم باقيةٌ كغيرهم من بني آدم.

٦- يُستفاد من هذا الحديث: كثرة أُمَّة محمَّدٍ ﷺ، وأن المؤمنين منهم يُمَثِّلون نصفَ بني آدم؛ لقوله: «**وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ ... ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ ... شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ**» وشطرُ أهل الجنة أي: نصفهم، وقد ورَدَ في حديثٍ في السُّنَن أن الجنة مئةٌ وعشرونَ صفًّا، منها ثمانون من هذه الأُمَّة[1]، فإذا صحَّ الحديثُ صار المؤمنون من هذه الأمة ثُلُثي أهل الجنَّة.

ولا شَكَّ أن أكثر الأنبياء أَتْبَاعًا محمَّدٌ ﷺ، وإذا كان أكثرُهم أتباعًا لَزِمَ أن تكونَ أُمَّتُهُ في الجنة كثيرينَ جدًّا.

٧- أنه إذا حصل للإنسان ما يُعجبه ويسرُّه فإنه يُكَبِّرُ، فيقول: «الله أكبر» أي: اللهُ أعظمُ شَأْنًا وأجلُّ ممَّا سمعت وممَّا أعجبني، وهذا خلاف ما يفعله بعضُ الناس، إذا سمعوا ما يُعجبهم صفَّقوا كأنهم الدِّيكةُ، وهذا ليس بمشروعٍ، وإنما يُشْرَع التكبيرُ.

وإذا كان الشيءُ ممَّا يُنكَرُ فإنه يُشْرَع التسبيحُ: سبحان الله! سبحان الله! كما قال الأعرابيُّ الذي جاء إلى الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قال: إننا نستشفع بك على الله، فجعل

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في كم صف أهل الجنة؟، رقم (٢٥٤٦)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ، رقم (٤٢٨٩)، وأحمد (٥/ ٣٤٧).

....

= النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُسَبِّحُ حتى عُرِفَ ذلك في وجوه أصحابه[1]؛ تنزيهًا لله عَزَّوَجَلَّ من هذا النقص الذي نسبه إليه، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالتكبير له مَحَلٌّ، والتسبيح له مَحَلٌّ، وقد قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا قال: كنت جُنُبًا، فكرهتُ أن أُجالسك على غير طهارة، قال: «**سُبْحَانَ اللهِ! إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَنْجُسُ**»[2] يعني: تنزيهًا لله عَزَّوَجَلَّ أن يكون المُؤْمِنَ نَجِسًا.

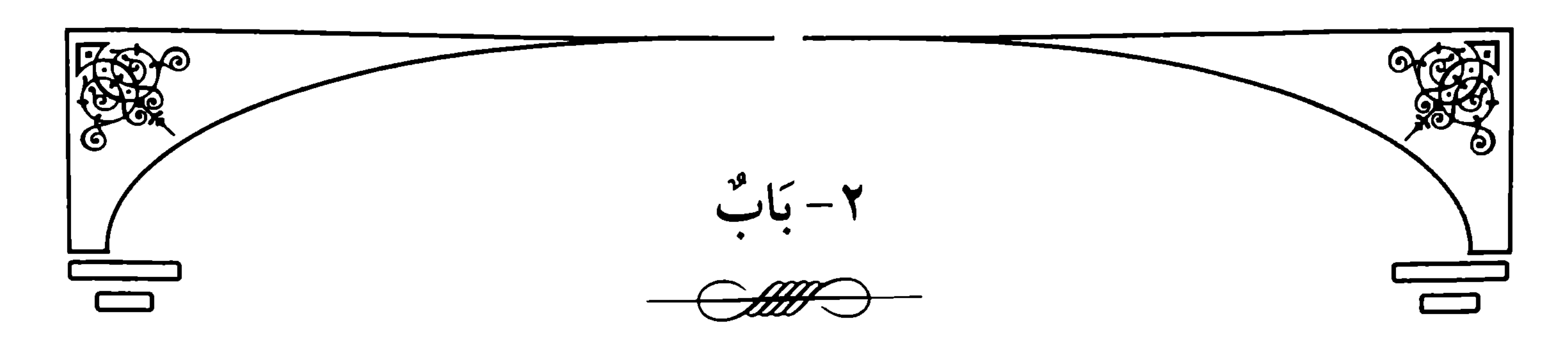
٨- أن الناس في يوم القيامة تضيع عقُولُهم، حتى ترى الناس سُكارى، أي: أن أحوالهم كحال السكارى ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ أي: ما هناك خَمْرٌ شرِبُوها حتى سَكِرُوا منها ﴿وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فممَّا رأوْهُ من الأهوال العظيمة أصبحوا كأنهم سُكارَى.

ففي هذا: دليلٌ على عِظَم ذلك اليوم، وأنه يجبُ علينا أن نستعدَّ له ما استطعنا؛ لأن هذا اليوم كائنٌ لا محالةَ ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج:٧] ونحن في أكثر أوقاتنا نَنْسَى هذا اليوم، وكأننا ما خُلِقنا إلا لهذه الدنيا، حتى إن الإنسان منَّا لا يَرْقُبُ إلا ما يُصلحه في دنياهُ، كأنه خُلِقَ لها، مع أن ما يسعى إليه من أمْرِ الدنيا مخلوقٌ له، لكنه عَكَسَ القضيَّةَ، وجعل نفسه مخلوقًا لهذه الدنيا، فجعل الوسيلة غايةً، والغاية وسيلةً، وهذا من قَلْب الحقائق، فعلينا أن نستعدَّ لهذا اليوم. نسأل الله أن يُعينَنا وإيَّاكم على ما فيه من الأهوال، وأن يجعلنا وإيَّاكم من السعداء فيه.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في الجهمية، رقم (٤٧٢٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الغسل، باب عرق الجنب، رقم (٢٨٣)، ومسلم: كتاب الحيض، باب الدليل على أن المسلم لا ينجس، رقم (٣٧١/ ١١٥).



٢- بَابٌ

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ شَكٍّ ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾

أَتْرَفْنَاهُمْ: وَسَّعْنَاهُمْ[١].

---

[١] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ «من» هنا للتبعيض، أي: بعضُ الناس ﴿مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ أي: يتعبَّد له، لكن ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي: على طَرَفٍ، ومَن كان على طرفٍ فهو غيرُ مستقرٍّ كما ينبغي؛ لأنه على طرف يُوشِكُ أن يَسْقُطَ ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ والمراد بالخير هنا: ما لا يكون سببًا لفتنته، سواء كان ذلك الخير سُكوتًا عن البحث في الشرائع وعدم التشكيك فيها، أو كان ذلك الخير نِعْمَةً دُنْيَوِيَّةً اطمأنَّ فيها واستراح، فإذا أصابَهُ خيرٌ ولم يأتِهِ مَن يُشَكِّكه في دينه، ولم يحصل له فتنةٌ تصدُّهُ عن دينه اطمأنَّ ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ وهذا التعبير أشدُّ؛ لأن الانقلاب نفسُهُ عيبٌ ووصْمَة، فإذا كان على الوجه صار أشدَّ وأعظمَ.

والفتنة هنا إمَّا أن تكون زوالَ نعمة، كان غنيًّا في الأصل، ثم افتقر، فجَزِعَ وارتدَّ، والعياذ بالله، أو تكون مُصِيبَةً حصلتْ له في بدنه أو في أهله، وكان بالأول مُطمئنًّا، فلمَّا حصلت له هذه الفتنة سَخِطَ وجَزِعَ وكَرِهَ قضاء الله، فارتدَّ، أو تكون الفتنةُ فتنةً في الدِّين، كان بالأول يقرأ الكُتُب، ثم جاءه مَن يُشَكِّكه في دِينه، أو قرأ بعض الكُتُب

....

= المُضَلِّلَةَ المُنْحَرِفةَ، فانحرف، أو أصابته فتنةُ شهوات ولذائذَ، كان بالأول في بلده بعيدًا عن هذه السفاسف والأخلاق الرديئة، ثم قُيِّض له أن سافَر إلى بلد آخَرَ مثلًا، وحصل له هذا الانحرافُ، والعياذ بالله.

والمهم أنَّ من الناس مَن لا يكون الإيمان راسخًا في قلبه، ولا يكون ثابتًا في وسط الإيمان، ولكنه على طَرَفٍ منه، إن بقي على ما هو لم يأتِهِ ما يُزَعْزِعُهُ بَقِيَ على ما هو عليه، واطمأنَّ، وإن أصابته فتنةٌ فإنه ينقلبُ على وجْهِهِ.

قال الله تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾ فالكافرُ المرتدُّ على عَقِبِهِ مهما كانت الدنيا مواتيةً له فهو خاسرها، حتى لو نُعِّمَ في القصور والمراكب والزوجات والسراري والخَدَم والأولاد والأموال فإنه خاسرٌ لهذه الدنيا؛ لأنه لم ينتفع بها، وأكبر ما ينتفع به من الدنيا ما يأكله ويشربه، وآخِرُ أمْرِهِ أن يخرج أذًى ونتنًا، هذا ما يُحَصِّلُ من الدنيا، فإذا لم يستفد منها في آخِرَتِهِ فقد خَسِرَها.

وأمَّا خُسرانه الآخرةَ فواضحٌ؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: البيِّن الظاهر، وهذه الجملة جملةٌ اسميَّة تدلُّ على الثبوت والاستقرار، ثم هي مُؤَكَّدةٌ بضمير الفصل: «هو» فالذي لم يستفد من دنياه ولا من آخرته فلا شَكَّ أن هذه هي الخسارةُ العظيمة البيِّنةُ.

وهل يُؤْخَذ من هذا: أن الدنيا لا تُذَمُّ لذاتها؟

الجواب: نعم؛ لأن المؤمن فيها رابحٌ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ والمراد

٤٧٤٢- حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ الحَارِثِ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَبِي بُكَيْرٍ: حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي حَصِينٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍ﴾ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يَقْدَمُ المَدِينَةَ، فَإِنْ وَلَدَتِ امْرَأَتُهُ غُلَامًا وَنُتِجَتْ خَيْلُهُ قَالَ: هَذَا دِينٌ صَالِحٌ،..........

= بالدنيا المذمومة: الدنيا التي تُلْهِي عن الآخِرَة، أمَّا الدنيا التي تنفع فنعم المالُ الصالحُ للرجل الصالح.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ أي: أنه لو ترك عبادة هذا المعبود وأغضبَهُ لم يضرَّه أبدًا، ولو تعبَّد له لم ينفعه أبدًا، فهو لا يضرُّه ولا ينفعُه.

وقيل: المعنى: لا يَجْلِبُ له نفعًا، ولا يَدْفَعُ عنه ضررًا، ولكن ظاهر الآية الأول.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ نقول في هذه الجملة كما قلنا في الجملة السابقة: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ يعني: هذا هو الضلال البعيد عن الهُدَى، والضلال إذا بَعُد عن الهُدَى بَعُدت الهدايةُ، بخلاف ما إذا كان قريبًا.

وأضرب لذلك مَثَلًا بخط مستقيم يسير عليه الإنسان، فخرج بانحراف، فما دام قريبًا من الخط المستقيم فإنه يُرْجَى له أن يَرْجِعَ، لكن إذا بَعُد وهو منحرفٌ فإنه كلما بَعُد صار أشدَّ وأعظمَ؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾.

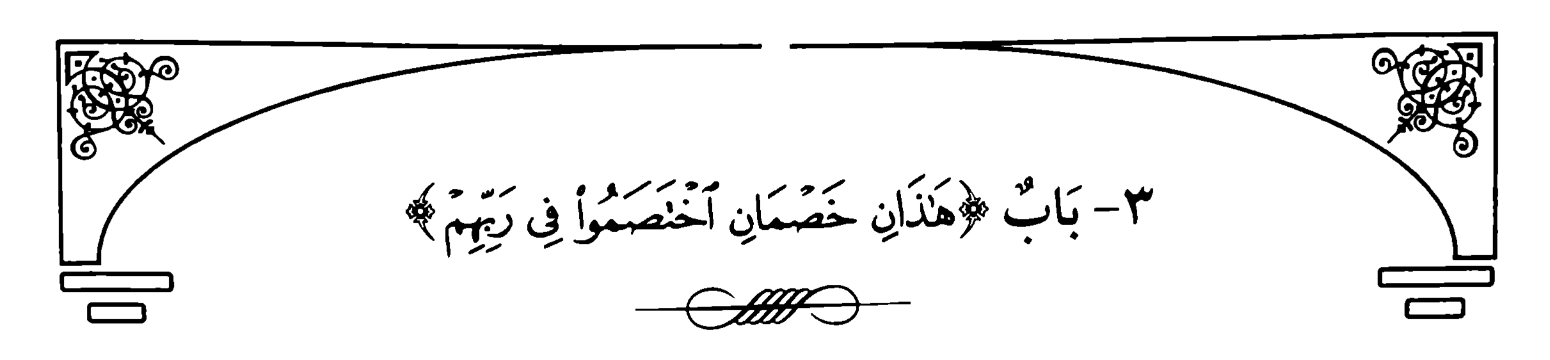
ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ يعني: لو قُدِّر أنَّ هذا يملك شيئًا فإن ضَرَرَهُ أقربُ من نفعه، لكنه لا يضرُّ ولا يَنْفَعُ.

وَإِنْ لَمْ تَلِدِ امْرَأَتُهُ وَلَمْ تُنْتَجْ خَيْلُهُ قَالَ: هَذَا دِينُ سُوءٍ[١].

[١] هذا من الناس الذين يعبدون الله على حرفٍ، فإذا وُفِّق وأصابَهُ خيرٌ اطمأنَّ، وقال: هذا الدينُ الصالحُ، وإن أصابه سوءٌ تشاءَمَ ورجَع عن دِينه، وقال: هذا دِينُ سُوءٍ.

وقوله: «وَلَمْ تُنْتَجْ خَيْلُهُ» هذا من الأفعال المُلازمة للبناء للمفعـول، وإن كان بمعنى الفاعل، فلا يُمكن أن يأتي «نَتَجَ» أبدًا، بل يُقال: «نُتِجَت دابتُهُ» بمعنى: ولَدَت، وعلى هذا نُعْرِب «خَيْلُهُ» فاعلًا، مع أن الفعل مبنيٌّ للمجهول بصيغته، وهذا في عدَّة أفعال، فمنه قولهم: «عُنِي بكذا» و«عُنِيت بالشيء» وما أشبه ذلك، فهي مبنيَّةٌ للمجهول دائمًا، وقد ألَّف فيها بعض النحويين كُتُبًا، مثل: «إتحاف الفاضل بالفعل المبنيِّ لغير الفاعل».





٣- بَابٌ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾

٤٧٤٣- حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ: أَخْبَرَنَا أَبُو هَاشِمٍ، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ كَانَ يُقْسِمُ قَسَمًا: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ نَزَلَتْ فِي حَمْزَةَ وَصَاحِبَيْهِ، وَعُتْبَةَ وَصَاحِبَيْهِ، يَوْمَ بَرَزُوا فِي يَوْمِ بَدْرٍ.

رَوَاهُ سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي هَاشِمٍ.

وَقَالَ عُثْمَانُ، عَنْ جَرِيرٍ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي هَاشِمٍ، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ قَوْلَهُ.

٤٧٤٤- حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ: حَدَّثَنَا مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مِجْلَزٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْثُو بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ، قَالَ قَيْسٌ: وَفِيهِمْ نَزَلَتْ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ بَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ: عَلِيٌّ، وَحَمْزَةُ، وَعُبَيْدَةُ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَالوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ[١].

---

[١] الثلاثة الأُوَل من المسلمين، والثلاثة الأُخَرُ من المشركين، وإنما اختير هؤلاء للمبارزة؛ لأنهم يُعْتَبرون من أفضل الصحابة نَسَبًا وأشْرَفِهِمْ، كما أن الذين بارزوهم من قُرَيش كانوا كذلك، فهم من كُبرائهم وعُظمائهم.

ومن الأسباب أيضًا في أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما اختار أبا بكر ولا عُمر

....

= ولا غيرهما رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وإنما اختار أقْرَب الناس إليه؛ ليُبيِّن أنه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ كان يُريد نُصْرة الإسلام من حيث هو.

وهذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ واضحةٌ في أن أحد الخصمين يُثْبِت ربَّه ويُؤمن به وينقاد له، وأمَّا الثاني فإنه بالعكس، لا يُؤمِنُ بالله، بل يكْفُر به؛ ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ وأمَّا الثاني فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وإذا كانت الآية نزلت في عليٍّ بن أبي طالب وحمزة وعُبيدة فلا يعني ذلك أنها لا تشمل غيرهم؛ لأن العِبْرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، على أن أهل العلم بالتفسير يقولون: إن الصحابيَّ إذا قال: «نزلت الآيةُ في كذا» فليس صريحًا في أن هذا هو سبب النزول، بل يحتمل أنه أراد أنها تشمل هذا الشيءَ، أي: أنها نزلت في هؤلاء وأمثالهم، بخلاف ما إذا قال: «كان كذا، فنزلت الآيةُ» فهذا واضحٌ في أن المذكور كان سببَ النزول، أو إذا قال مثلًا: «سببُ النزول كذا وكذا» فهذا صريحٌ في أن هذه الحادثة هي سبب النزول، وعلى هذا فالألفاظ ثلاثة:

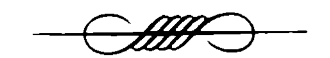
الأول: أن يُصَرِّح بسبب النزول، فيقول: «كان سبب نُزولها أن فلانًا قال كذا وكذا».

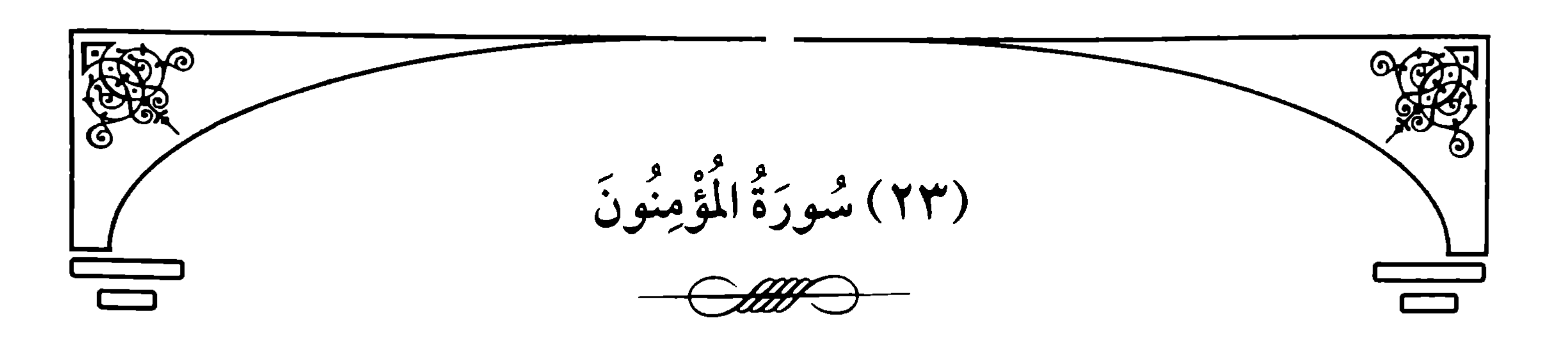
....

= الثاني: أن يقول: «كان كذا، فنزلت الآيةُ».

وهاتان الصيغتان صريحتان في أن هذا سببٌ لنزول الآية.

الثالث: أن يقول: «نزلت الآيةُ في كذا وكذا» فهذه ليست بصريحة في أن هذه القصة -مثلًا- كانت سببًا لنزول الآية؛ إذ يحتمل أن المراد: نزلت في هؤلاء وأمثالهم، فيكون شرحًا وتفسيرًا، لا بيانًا لسبب النزول.





(٢٣) سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ سَبْعَ سَمَوَاتٍ[١].

---

[١] يعني قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون:١٧] وسُمِّيت طرائقَ؛ لأن بعضَها فوق بعض، فهي سَبْعُ سموات متطابقة، وبينها فجواتٌ، وقد ورد في الحديث أن بين كل سماءٍ والأُخْرى خمسُ مئة عام(١)، وورد أيضًا في حديث العباس بن عبد المُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن بين كل سماءٍ والأُخْرى ثلاثةً وسبعين عامًا(٢)، وجمع العلماء بينهما بأن ذلك بناءً على اختلاف المسيرة، فإن من السير ما هو بطيءٌ، ومنه ما هو سريعٌ.

ويدلُّ أيضًا على أنها سبع سموات وبينها فجواتٌ حديثُ المعراجِ الصحيحُ، أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يَعْرُجُ بالنبيِّ ﷺ من سماءٍ إلى سماءٍ(٣)؛ ولهذا قال: «سَبْعَ سَمَوَاتٍ» كما قال تعالى في سورة نوح: ﴿سَبْعَ سَمَوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ وهي سبعٌ بنص القرآن.

أمَّا الأرضون فهي سبع أيضًا، لكنها ليست صريحةً في القرآن، وقد صرَّحت

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب سورة الحديد، رقم (٣٢٩٨)، وأحمد (٢/ ٣٧٠).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في الجهمية، رقم (٤٧٢٣)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب سورة الحاقة، رقم (٣٣٢٠)، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٩٣)، وأحمد (١/ ٢٠٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب المعراج، رقم (٣٨٨٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم (١٦٢/ ٢٥٩).

﴿لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ سَبقَتْ لَهُمُ السَّعَادَةُ[١].

قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ: خَائِفِينَ[٢].

= بذلك السُّنَّةُ، أمَّا في القرآن فأظهر آية فيها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] أي: مثلهن في العدد؛ إذ إن المُماثلة في الصفة لا تُمكن.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ وأتى بالجملة الاسميَّة؛ للدلالة على أن هذا وصفهم، وقدَّم المعمول: ﴿لَهَا﴾ على عامله -وهو ﴿سَٰبِقُونَ﴾- للدلالة على أنهم لا يَسْبِقُونَ إلى ما لا خير فيه، بل ينحصر سَبْقُهُم بالخيرات.

وقوله: «سَبقَتْ لَهُمُ السَّعَادَةُ» هذا تفسيرٌ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] وأتى بها المؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ شاهدًا فقط، وإلا فليست في هذه السورة.

[٢] هذا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠] وقوله: ﴿مَآ ءَاتَوا۟﴾ أي: ما أَعْطَوْا، وهو شاملٌ لإتيان المال، ولإتيان الأعمال، والعمل قد يُطْلَقُ عليه الإيتاء، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت:٧] أي: لا يُعْطُونَ زكاة النفس على القول الراجح.

وعلى هذا فقوله: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ أي: من الأعمال والأموال، ومع هذا فليسوا على طُمأْنِينَةٍ من عملهم؛ ولهذا يُؤْتُونَهُ ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي: خائفة يخشون ألَّا يُتَقَبَّلَ منهم، لا سُوءَ ظَنٍّ بالله، ولكن احتقارًا لأعمالهم، وخوفًا من التقصير.

ويُقال: إن السلف كانوا يصومون رمضان، فيسألون الله ستة أشهر أن يُبَلِّغهم رمضان، ثم يسألون الله ستة أشهر أن يتقبَّله منهم، فالإنسانُ يجب أن يكون خائفًا وَجِلًا، لا سُوءَ ظنٍّ بالله، ولكنه سوءُ ظنٍّ بنفسه.

وهذا بخلاف الذين إذا آتَوْا ما آتَوْا فَخَرُوا بأنفسهم، وجزموا بأن القبول حاصلٌ، واعتمدوا على ما عملوا، ونَسُوا أن للأمور شروطًا لابُدَّ من تصحيحها.

فإن قال قائل: لكن لماذا هؤلاء ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؟

فالجواب: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ وهذه الجملة تعليلية لفظًا ومعنًى؛ لأنها لو كانت تعليليةً معنًى لقال: «إنهم إلى ربهم راجعون» فلما قال: ﴿أَنَّهُمْ﴾ عُلِمَ على أنها على تقدير اللام، أي: لأنهم؛ لأن «أنَّ» لا تُفْتَح في ابتداء الكلام، إنما تُفتَح إذا أُوِّلتْ بمصدرٍ، وحينئذٍ نقول: الجملة هنا تعليليَّةٌ لفظًا ومعنًى.

فإن قال قائل: إذا كان حال هؤلاء ما تقدَّم فكيف نُوَجِّهُ قولنا: هذه الصلاة صحيحة؟

نقول: المراد: صحيحةٌ على حسب الرسم الظاهريِّ، كما أن القاضيَ يحكم للإنسان بالحكم إذا كان ألْحَنَ بحُجَّتِهِ من الآخَر، وإن كان الأمرُ بخلافه، ونحن نقول: هذا صلاتُهُ صحيحةٌ يعني: على حسب الرسم الظاهريِّ، بمعنى: أنه أتى بأركانها وشروطها وواجباتها، أمَّا هل قَبِلَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ؟ فظاهر الأمر أنها مقبولةٌ إن شاء الله، لكن الجَزْم بها صَعْبٌ؛ ولهذا قال بعض السلف: لو أعلم أن الله تقبَّل منِّي ولو عملًا

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ بَعِيدٌ بَعِيدٌ[١].

﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ المَلَائِكَةَ[٢].

= واحدًا لفرحتُ بذلك؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧](١).

لكن ما الضابط في قبول العمل؟

نقول: بحسب الرسم الظاهر لنا أنه إذا تمَّت الشروط وانتفت الموانع قُبِلَ، وإذا عَمِلَ الإنسانُ العَمَلَ فليُحْسِنِ الظنَّ بالله عَزَّوَجَلَّ، فإنه ما وفَّقك في العمل إلا ليَمُنَّ عليك بالقبول، لكن لابُدَّ أن يكون معه خوفٌ ووَجَلٌ.

[١] هذا تفسير لهاتين الكلمتين بالمعنى، وإلا فهما اسمُ فِعْلٍ ماضٍ، بمعنى: بَعُدَ، واللام زائدة، و«ما» فاعلٌ، والتقدير: هيهات هيهات ما تُوعدون، أي: بَعُدَ ما تُوعدون.

وكرَّروا ذلك توكيدًا، وإلا فإن «هَيْهَات» قد تأتي مُفْرَدةً، فيُقال مثلًا: «هذا الرجل أراد أن يَسْمُوَ، وهَيْهَات» أي: بَعُد له أن يَسْمُوَ.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ قال: «المَلَائِكَةَ» والظاهر أنه أعم من الملائكة، فالمراد بـ: ﴿ٱلْعَآدِّينَ﴾ الذين يعتنون بعَدِّ الأشياء وإحصائها.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص:٤٥٢) - زيادات نعيم بن حماد، ت. الأعظمي عن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: لأن أكون أعلم أن الله تقبَّل منِّي مثقال حبَّة من خردل أحب إليَّ من الدنيا وما فيها؛ لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ لَعَادِلُونَ[١].

﴿كَٰلِحُونَ﴾ عَابِسُونَ[٢].

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ الوَلَدُ، وَالنُّطْفَةُ: السُّلَالَةُ[٣].

وَالجِنَّةُ وَالجُنُونُ وَاحِدٌ[٤].

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الناكب هنا بمعنى العادل عنه، وليس المراد: العادل ضد الجائر، ومعنى الآية: مائلون عن الحق وعن الصراط؛ لأن المؤمن مستقيمٌ على صراط الله بخلاف غير المؤمن.

[٢] هذا في قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ وخصَّ الوُجوه؛ لإقامة الذلِّ؛ ولأنها من أشدِّ ما يكون تألُّـمًا بالنار، لكن إذلالًا لهم تَلْفَحُ وجوهَهُم النارُ، فيكونون كالحينَ عابسينَ.

[٣] المؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يُرتِّب الآيات، بل يأتي من أول السورة وآخرها ووسطها، فهذه الكلمة في أوَّل السورة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ وسُلَالة الشيء: خالِصُهُ، وآدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خُلِقَ من خالص الطين، من حمإٍ مسنونٍ، ومن صلصال كالفَخَّار.

[٤] هذا في قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

وَالغُثَاءُ: الزَّبَدُ، وَمَا ارْتَفَعَ عَنِ المَاءِ، وَمَا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ[١].

﴿يَجْـَٔرُونَ﴾ يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ كَمَا تَجْأَرُ البَقَرَةُ[٢].

= ويُقال: جِنَّة، وجَنَّة، وجُنَّة، وكلُّها موجودة في القرآن، فأمَّا الجُنَّة فهي الوقاية، كما في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ [المجادلة:١٦] أي: شيئًا يتَّقون به.

وأمَّا الجَنَّة فهي البستانُ الكثيرُ الأشجارِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ﴾ [الكهف:٣٢] أو دارُ النعيم التي أعدَّها الله لأوليائه، كما في قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢].

وأمَّا الجِنَّة فتُطْلَق على الجِنِّ، وعلى الجنون، فقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٦] أي: من الجِنِّ، وقوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ أي: جُنونٌ كما قال المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال: «الزَّبَدُ، وَمَا ارْتَفَعَ عَنِ المَاءِ، وَمَا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ» لكن أيُّها أليق بالآية الكريمة؟

الجواب: ما لا يُنْتَفعُ به، وعلى هذا فقوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗ﴾ أي: جعلناهم جُثَثًا هامدةً لا انتفاع بها.

وأمَّا قول الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ»(١) فالمراد به: ما يطفو على الماء، مثل: الزَّبَد، والعِيدَان، وما أشبهها.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾ وتأمَّل

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، رقم (٤٢٩٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٨).

....

= هذا مع قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء:١٦] يتبيَّن لك أن للتَّرَف عواقبَ وخيمةً، وأن غالب الانحراف إنما يأتي من التَّرَف، وأن الذي ينبغي للإنسان أن يتباعد عن التَّرَف ما أمكنَهُ، ولستُ أقولُ: لا تتمتَّعوا بنِعَم الله، بل تمتَّعوا بها، لكن لا تجعلوها أكْبَر همِّكم، بحيث يجعل الإنسانُ نفسه كالمخلوق لهذا الأمْرِ، كما هي حالُ كثيرٍ من الناس اليوم؛ فإن الناس اليوم عندما يتحدَّثون تجده يتحدَّث عن المال وكثرته، وعن التَّرَف والإرفاه والترفيه، والمنتزهاتُ، والألعاب التي أقلُّ ما فيها أن تُلهي الناس عمَّا هو أنفعُ منها، ورُبَّما تُلهيهم عن الأمور الواجبة، وما أشبه ذلك، لكن لا تجد إلا النادرَ مَن يتحدَّثُ بنعمة الإسلام في بلادنا هذه.

والقلبُ إذا انشغل باللهو فَسَدَ وصُدَّ عن الله عَزَّوَجَلَّ، وعن الإقبال عليه، وصُدَّ عن ذِكْرِ الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذه الأشياء في ظنِّي أنها خُطَط من خُطَط الأعداء من اليهود والنصارى، يفتحون على الشعوب باب الإرفاه حتى يَنْسُوا ما خُلِقُوا له، ويشتغلوا بما خُلِقَ لهم عمَّا خُلِقُوا له، ويكون أكبرُ همِّهم أن يُحقِّقوا هذه الأمورَ، وقد قيل: إن في التَّرَف التَّلَف، ومصداقُ هذا في الآية: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾.

وهذا لا يَخْفى في التاريخ الماضي وفي التاريخ الحاضر، فعادٌ أمدَّهم الله تعالى بأموالٍ وبنينَ، وأنعم عليهم نِعَمًا عظيمةً، وأعطاهم قوَّةً، حتى قالوا: مَن أشدُّ منَّا قوةً؟ فأهلكهم الله عَزَّوَجَلَّ بالريح العقيم، تحمل الواحدَ منهم إلى جوِّ السماء، ثم تُنكسه على

....

= رأسه حتى كانوا على أرضهم كأعجاز النخل الخاوية، كل واحدٍ منهم مُنْكَبٌّ مائلٌ هالكٌ، مع أنهم أُعطوا من القوة والمال ما لم يُعْطَ أحدٌ منهم في عصرهم وفيما بعدهم فيما نعلم.

وفي عصرنا الحاضر نُشاهد بلادًا كانت تُعْتَبر زهرة الدنيا في الملذَّات والنعيم وما إلى ذلك، وأصبحت الآن لا يأمَنُ الإنسانُ فيها على نفسه أن يخرج، وإذا خرج فعنده احتمالٌ قويٌّ ألَّا يرْجِعَ إلى بيته، وسالت أسواقُها من دماء أهلها، ولكن قلوبنا قاسيةٌ، لا نَنْتَبِهُ لهذه الإرشادات: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ ما كأننا خُلِقْنا إلا لأجل أن نُرَفِّه أبدَاننا، ونُصْلِحَ منازلَنا ومركوباتِنَا، مع أن هذه وسائل خلقَها الله لنا؛ لنصل بها إلى الآخرة.

ويدلُّك على هذا أنك لا تجد أحدًا يبْقَى في هذا التَّرَف، بل لابُدَّ من أحد أمرين: إمَّا أن يتلف هو أو يتلف تَرَفُهُ، ورُبَّما يُحْرَمُ هذه النِّعمةَ، بحيث يُشاهدها رأيَ العيْنِ، ولا يستطيعُ أن يستمتع بها، بأن يُصاب بأمراض، فيُقال له: لا يُمْكِنُ أن تتناول هذا النوع من الطعام، وهذا النوع من الطعام، حتى يُصْبِحَ لا يعيشُ إلا على الماء وكِسْرَة خُبْز.

والمهم أن هذه الآية مثل غيرها من الآيات التي تُحَذِّر من التَّرَف، ونسأل الله أن يحْمِيَنا من ذلك.

لكن لماذا خصَّ المُتْرَفين بالعذاب في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾؟

نقول: لعلَّه عبَّر بذلك؛ لأنهم هم السببُ في العذاب، أو يُقال: إن المراد العذابُ

﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ رَجعَ عَلَى عَقِبَيْهِ[١].

﴿سَٰمِرًا﴾ مِنَ السَّمَرِ، وَالجَمِيعُ: السُّمَّارُ، وَالسَّامِرُ هَا هُنَا فِي مَوْضِعِ الجَمْعِ[٢].

﴿تُسۡحَرُونَ﴾ تَعْمَوْنَ مِنَ السِّحْرِ[٣].

= الخاصُّ بكل واحد منهم، فإن بعض المُتْرَفين قد يُعَذَّبُ هو نفسه، وعلى هذا يكون قوله: ﴿إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾ يعود على المُتْرَفين.

[١] العَقِبُ: هو العرقوبُ، ورجع على العَقِبِ أي: على ورائِهِ، وهذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ﴾.

[٢] السَّمَر هو السهر في الليل، وهذا في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهۡجُرُونَ﴾ أي: تهجرون القرآن، وتُعرضون عنه، ولا تلتفتون إليه، لكنكم تُقْبِلون على لذائذكم.

ولو أنك طبَّقت هذه الحال على حال كثير من الناس اليوم لوجَدْتَ الأمرَ كذلك، فإنهم يسهرون على ما لا فائدة فيه، بل على ما فيه مضرَّةٌ، وأمَّا القرآن فهم عنه مُعرضون.

وهل يدخل في هذا ما يُسَمَّى بالسامريِّ، وهو نوعٌ من الغناء، يكون بطبول وبألحانٍ معروفةٍ؟

الجواب: نعم، تدْخُل في هذا.

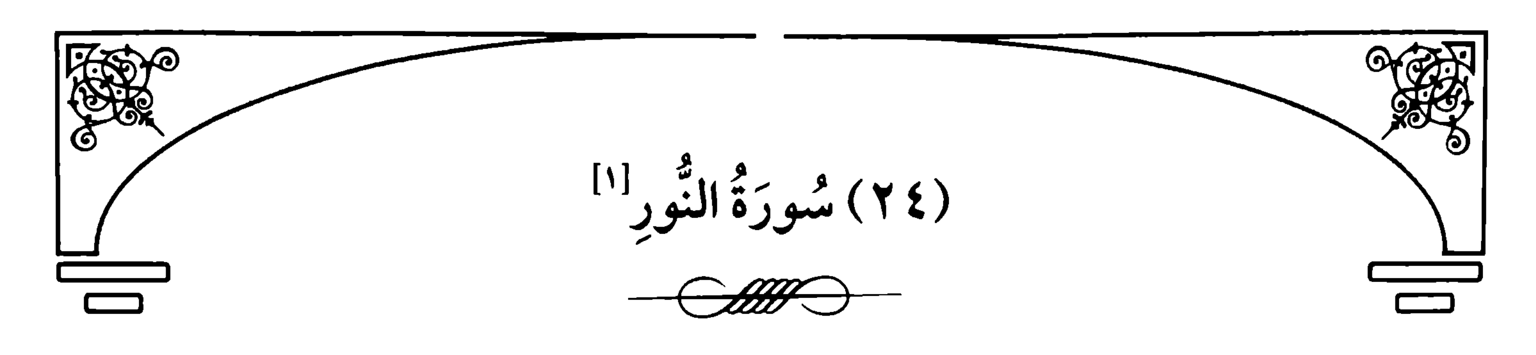
[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ يعني: كيف لا تُبْصِرون هذا الشيءَ؟ وكيف تُقِرُّون بأن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ربُّ السموات والأرض الذي بيده ملكوت

....

= كل شيء، وهو يُجير ولا يُجار عليه، ثم بعد ذلك تَدْعُونَ معه إلهًا؟! فالذي بيده ملكوتُ كلِّ شيء يجبُ أن يكون هو الذي يُدْعَى ويُرجى ويُسْأَلُ.

ولهذا يستدلُّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ استدلالَ إلزامٍ لهـؤلاء الكفار بتوحيد الرُّبوبيَّةِ على توحيد الأُلوهِيَّةِ، فإذا كنتم تعتقدون أن الله هو الخالق الرازق المُدَبِّرُ لجميع الأمور، وأنه وحده مُنفردٌ بذلك، فلماذا تعبدون معه غيره؟!





(٢٤) سُورَةُ النُّورِ[١]

﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ مِنْ بَيْنِ أَضْعَافِ السَّحَابِ[٢].

---

[١] سورة النور سُمِّيت بهذا الاسم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وإذا تأمَّلت السورةَ ووجدت ذِكْرَ النور فيها، وأن الله نورُ السموات والأرض، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ تبـيَّن لك أن العِفَّةَ من أسباب نُور القَلْب، وأن ضدَّها -وهو الفجورُ- من أسباب ظُلْمَة القَلْبِ؛ ولذلك كان تأثير الزِّنى -سواء كان بالعين، أو بالرِّجـل، أو باليد، أو باللسان، أو بالفرج- على القلب وعلى نُور القلب أعظمَ من غيْرِهِ، وتأثيرُ العفَّةِ في نـور القَلْب أبلغَ؛ ولهذا سُمِّيت هذه السـورةُ بهذا الاسم.

[٢] الضمير في ﴿خِلَٰلِهِۦ﴾ يعـود على السَّحاب، وقوله: ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ المـراد: التخلُّل منه، فالله تعالى يُزْجِي سَحابًا يسوقُهُ بقُدْرتِهِ وإرادته إلى حيثُ شاء عَزَّوَجَلَّ.

ولا تظنَّ أن السحاب يمشي في الهواء، وإن كان الهواء قد يكون سببًا كما في الحديث الصحيح في قصة الدَّجَّال أنه يمشي في الأرض كالغَيْث استدبَرَتْهُ الريح(١)، لكن الأصل كلَّه هو إرادةُ الله عَزَّوَجَلَّ، يسوقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حيث شاء، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان:٥٠].

وقصَّة صاحب الحديقة التي أخبَرَنا بها رسولُ الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ظاهرةٌ في أنَّ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، رقم (٢٩٣٧/ ١١٠).

﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ وَهُوَ الضِّيَاءُ[١].

= الله عَزَّوَجَلَّ يسوقُ السحابَ إلى الأرض بإرادته(١)، ولا نُنْكِرُ أن يكون للأشياء أسبابٌ طبيعيَّةٌ، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي خلق هذه الأسباب؛ لتكون مُؤَدِّيَةً إلى ما تُؤَدِّي إليه، فخالِقُ السبب وخالِقُ المُسَبَّب هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكون الأشياء مربوطةً بأسبابها ومنوطةً بها يدلُّ على حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حكيمٌ، قد أحْكَم ما صنع وأتْقَنَهُ حتى جعله مُنتظمًا مربوطًا بأسبابه.

وقوله: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ هذا خطابٌ لكل مَن يصلح خطابُهُ، والوَدْق هو حبَّاتُ المطر.

[١] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ وهذا يدلُّ على أن بَرْقَ البَرَد أشدُّ من غيره، يكاد يَذْهَبُ بالأبصار.

ولقد كنا نقول: كيف يكون بين السماء والأرض جبالُ بَرَدٍ؟ ولكن تبيَّن أن هذا ممكنٌ، وأنا أذكر أنَّني سافرت إلى الظهران في الطائرة، وكان ذلك في وقت حارٍّ نوعًا ما، فقال المُضيف: إننا الآن في منطقة البرودة فيها خمس وعشرون تحت الصفر، مع أن في الأسفل حرارةً بعض الشيء، وخمسة وعشرون تحت الصفر يتجمَّد فيها الماء، بل يتجمَّد بدون ذلك.

وانظر إلى حكمة الله عَزَّوَجَلَّ، ما ظنُّك لو نزلت هذه الجبال على الأرض بحالها

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب فضل الإنفاق على المساكين، رقم (٢٩٨٤/ ٤٥).

﴿مُذۡعِنِينَ﴾ يُقَالُ لِلْمُسْتَخْذِي: مُذْعِنٌ[١].

= وجسمها الكبير لكانت تُهلك مَن نزلت عليه، وتثقب الأرض، وتفتح فيها فتحاتٍ عظيمةً، لكن الله عَزَّوَجَلَّ يُنزلها بحسب ما يريد، فأحيانًا تكون صغيرةً، وأحيانًا تكون كبيرةً، ورُبَّما تصل إلى قريب من بيضة الدجاجة، ورُبَّما تكون أكبرَ.

والحاصل: أننا لا نستغرب أن الله عَزَّوَجَلَّ يجعل هذه الجبال فوق.

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ المراد بالسماء هنا: ما علا، وليس المراد به: السماء الدنيا؛ لأنه من المتيقَّن بدلالة الكتاب والواقع: أنه إنما ينزل من دون السماء بكثير، والدليل على هذا من القرآن قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة:١٦٤] والمراد بالسماء هنا: السماء الدنيا.

والدليل من الأمر الواقع: أنك تصعد فوق السحاب في الطائرة، ويكون السحاب الذي تحتك يُمطر، وكذلك يقع مثل هذا في الجبال الرفيعة، حتى قيل: إنه في بعض البُلدان تكون بعض البيوت أعلى من السحاب، فدلَّ هذا على أن المراد بالسماء أي: ما علا؛ ولهذا قال أهل اللغة: كلُّ ما علاك فهو سماءٌ.

[١] هذا في قول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ﴾ فالحق إمَّا عليهم، وإمَّا لهم، وإمَّا لا يدرون عنه، فإن كان عليهم أعرضوا، وإن كان لا يُدْرَى عنه إذا فريقٌ منهم مُعرضون، وإن كان لهم يأتوا إليه كلُّهم مُذْعِنِينَ.

وقوله: ﴿مُذۡعِنِينَ﴾ أي: مُنقادين خاضعين لا يستكبرون، والمُسْتخذي هو ما نقول

....

= عنه في اللغة العامية: «المِسْتَاخِذ» وهو الذي يُعْتَبر خاضعًا مُذعنًا، كما يُقال: قد وضع السلاح، ليس فيه قوَّةٌ ولا مُجادلةٌ ولا شيء، بل هو مُستسلمٌ.

وهؤلاء الذين ذكرهم الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية كالذين قال الله فيهم: ﴿إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:٢-٣] فهؤلاء إن كان الحقُّ لهم قَبِلُوه، وإن كان عليهم ردُّوه، وإن كانوا لا يعلمون ما يُصيبهم إذا فريقٌ منهم مُعرضون.

ولقد سلك فريق من المُبْتَدعة هذا المَسْلك، فصار الحديث إذا جاء مُؤَيِّدًا لبِدْعَتِهم قالوا: هذا هو الحديث الذي هو من أصحِّ الأحاديث، حتى لو كان إسنادُهُ مُخَرَّقًا قالوا: هذا أصحُّ من: مالك، عن نافع، عن ابن عمر، ولكن إذا جاء مُخالفًا قالوا: هذا حديثٌ باطلٌ يردُّه العَقْل.

مثال ذلك: إذا جاءت أحاديث تُثْبِت مشيئةَ الله لفعل العبد قالت القدرِيَّة: هذا غيرُ صحيحٍ ولو كانت في الصحيحيْنِ، قالوا: لأنها خبرُ آحاد لا تُفيد إلا الظنَّ، وما نحن عليه عِلْمٌ عقليٌّ يُفيد القطعَ واليقينَ، وإن جاءت آيةٌ لا يستطيعون إنكارها حرَّفوها، فهؤلاء إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريقٌ منهم مُعرضون، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مُذْعِنِينَ.

والواجب أنْ يكون الإنسان مُنقادًا لحكم الله ورسوله ﷺ، سواء كان له أم عليه؛ ولهذا العلماء الأئمة الأجلَّاء لا يَخْشَوْنَ إذا رجعوا عن قولهم الأول أن يقول الناس: ما هؤلاء المتناقضون؟! ولهذا تجد الرجل يكون عنده عدَّة أقوالٍ في مسألة واحدة، وهاهو الإمام الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ له مذهبان: جديدٌ، وقديمٌ، والإمام أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ له في

....

= مسائلَ كثيرةٍ روايتان أو أكثرُ، وتعدُّد الأقوال في المسألة عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكثر من غيره؛ وذلك لأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان عنده سعةُ اطِّلاع في الآثار، وكلما تبيَّن له أثرٌ أخذ به ورجع عن الأول، وهو يُعَظِّم الآثارَ الواردةَ عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ فلذلك تجد له في بعض المسائل عدَّة رواياتٍ تصل إلى خمس روايات، وكلُّ هذا يدلُّ على أن هؤلاء العلماء الأجلَّاء إذا تبيَّن لهم الحقُّ أخذوا به ولو خالفوا قولَهُم الأول، ولا يقولون: نخشى أن نرجع، فتسقطَ هيبتُنا عند الناس، أو لا يكونَ لقولنا قيمةٌ، أو ما أشبه ذلك، بل لا يَخْشَوْنَ إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

وهاهو النبيُّ ﷺ تأتي الآيات بأشياء رُبَّما يظنُّ الظانُّ أنه إذا قالها أو بلَّغها الناس أن هذا يحطُّ من قَدْرِهِ، ولكنه في الواقع يزيدُ من قَدْرِهِ، ويزيد من تصديقه، يقول الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧] وهذا كلام عظيمٌ جدًّا، لكنَّ الرسولَ ﷺ ليس له إلا أن يُبَلِّغ ما أُنْزِلَ إليه من ربه، سواء كان له أم عليه.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم:١] وانظر كيف قدَّم اللَّوْمَ: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾؛ لأنه قد لا يكون هناك مصلحةٌ عامَّةٌ، لكن في المصالح العامة قدَّم العَفْوَ، أو أتى بصيغة اللَّوْمِ لا على وجه المُخاطبة، فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣] فبدأ بالعَفْوِ قبلَ أنْ يَلُومَ؛ لأنه يراعي المصلحة العامَّة هنا.

أَشْتَاتًا وَشَتَّى وَشَتَاتٌ وَشَتٌّ وَاحِدٌ[١].

= وكذلك في: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُراعي المصلحة العامَّة، فلم يقل له: عَبَسْتَ وتولَّيتَ، أو لِمَ عَبَسْتَ وتولَّيْتَ؟ كما قال: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾.

والحاصل: أن الواجب على الإنسان أن يُذْعِن لحكم الله ورسوله، سواء كان له أو عليه، ولا يخشى في الله لومةَ لائمٍ، وأن يقول الناس: ما هذا الرجل؟! كُلَّ يوم يخرج لنا بدليل جديد، اتركوه، ليس عنده علم! لأنهم إذا قالوا هكذا فما يضرُّه أبدًا، فإن كان الله قد جعل لك القبول فلو اجتمع مَن بأقطارها ما صدُّوا هذا القبول، وإن كان الله لم يجعل لك قبولًا لو تكون من أحرص الناس على عدم التزَحْزُح عن أقوالك فإنه لا ينفعك، ومعلومٌ أن الإنسان إذا اتَّقى الله عَزَّوَجَلَّ وراقبَهُ حتى وصل إلى درجة يُحبُّه الله فإنه ينال خيرًا كثيرًا، ويُدافع اللهُ عنه.

والمهم أن الواجب على كل مؤمن أن يكون مُتَّبِعًا للدليل أينما كان، ولا يخشى في الله لومة لائم، ولا حَرَجَ أن يقول: كنتُ أقول بكذا، ورجعتُ! حتى من الناحية العقليَّة أو الاجتماعيَّة هذا يزيد الناسَ ثقةً بقوله، ويقولون: لو لا أنه على حقٍّ فيما قال ما ثبت عليه؛ ولهذا إذا تبيَّن له الحقُّ رجَعَ، والإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ دائمًا يقول: كنتُ أقول بكذا، ولكنِّي أجبن عنه، أو أرجع عنه، أو تبيَّن لي، أو ما أشبه ذلك.

والمهم أننا -نحن طلبةَ العلم- يجب علينا في هذه الأمور أكثر ممَّا يجب على غيرنا، وإن كان الواجب على كل مؤمن أن يكون مُتَّبِعًا لِما يقتضيه الدليلُ، لكنَّ طالبَ العلم أشدُّ وأَوْلَى بالاتِّباع.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور:٦١] أي: مُتفرِّقين، كل واحد وحده، أخذنا هذا من قوله: ﴿جَمِيعًا﴾

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا﴾ بَيَّنَّاهَا[1].

= وهذا مِمَّا يُفَسَّر فيه الشيءُ بمقابله، فإن في القرآن كلماتٍ يُعْرَف تفسيرُها من ذكر ما يُقابلها، كقوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١] فـ: ﴿ثُبَاتٍ﴾ بمعنى: فُرادى؛ لأنه ذكر المقابل: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾.

وهل هذه القاعدة مُطَّردة؟

نقول: نعم، إذا لم يكن هناك مُقابل إلا واحد.

فإن قال قائل: ألا يَرِد المثنى إذا فسَّرنا ﴿أَشْتَاتًا﴾ بدلالة كلمة: ﴿جَمِيعًا﴾؟

نقول: لا؛ لأن الاثنين جمعٌ.

[١] هذا التفسير لا أعرف هل يصحُّ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أو لا؟ لأن الإنزال غيرُ التبيين، لكن لا شَكَّ أن الله عَزَّوَجَلَّ بيَّن القرآن، إلا أن الإنزال غيرُ التبيين، بدليل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ﴾ [النور:٤٦] فلو كان الإنزال بمعنى التبيين لكان المعنى: لقد بيَّنَّا آياتٍ بيِّنات، وهذا لا يستقيمُ، فالإنزال يدلُّ على أن هذه السورة من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وأنها كلامُهُ؛ لأن القرآن كلامٌ، فإذا أضاف الله إنزالَهُ إلى نفسه دلَّ على أنه كلامُهُ[1].

---

(١) قال ابن حجر: قوله: وقال ابن عباس ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا﴾: بيناها. قال عياض: كذا في النسخ، والصواب: ﴿أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا﴾: بيناها، فبيناها تفسير: فرضناها، ويدل عليه قوله بعد هذا: ويقال في فرضناها: أنزلنا فيها فرائض مختلفة. فإنه يدل على أنه تقدم له تفسير آخر.
فتح الباري (٨/ ٤٤٧)، وانظر: تفسير الطبري (١٧/ ١٣٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٥١٦) (١٤٠٨١)

وَقَالَ غَيْرُهُ: سُمِّيَ القُرْآنُ لِجَمَاعَةِ السُّوَرِ، وَسُمِّيَتِ السُّورَةُ؛ لِأَنَّهَا مَقْطُوعَةٌ مِنَ الأُخْرَى، فَلَمَّا قُرِنَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ سُمِّيَ: قُرْآنًا[١].

وَقَالَ سَعْدُ بْنُ عِيَاضٍ الثُّمَالِيُّ: المِشْكَاةُ: الكُوَّةُ بِلِسَانِ الحَبَشَةِ[٢].

= ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي: فرضنا العمل بما فيها ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ وهذا يدلُّ على أن الإنزال ليس هو التبيين، بل هو شيءٌ سوى التبيين ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لأجل أن تذكَّرُوا، أي: تتَّعظوا وتقوموا بما أوجب الله عليكم.

[١] هذا المعنى عجيبٌ، وهو أن السورة سُمِّيت سورةً من التسوير؛ لأنها مُحاطةٌ من أولها إلى آخرها، فكأن عليها سُورًا، فإذا قُرِنَ بعضها إلى بعض سُمِّيت: قُرآنًا، كأنه أَخَذَه من القَرْن، وهذا معنًى لا تكاد تجده في أصول التفسير؛ إذ أكثرُ ما يقولون: إنه من الجَمْع؛ لاجتماع كلماته بعضها إلى بعض، أو من القراءة للتلاوة، ولكنَّ هذا المعنى صحيحٌ.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥] والمِشكاةُ هي الكوَّة، وهي الفتحةُ في الجِدار، يُوضَع فيها السراجُ والأواني الصغيرة، وما أشبه ذلك.

والنور في المِشكاةِ يكون أقوى؛ لأنه ينعكس، ليس وراءه فضاءٌ يضيع معه الضياء، ولكنه مُحاط، فينعكس النورُ، ويكون أقوى.

وهنا مسألة: بعض المصابيح تُعَلَّق في المساجد، ويُكْتَب عليها: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فما حكم هذا؟

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ تَأْلِيفَ بَعْضِهِ إِلَى بَعْضٍ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فَإِذَا جَمَعْنَاهُ وَأَلَّفْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، أَيْ: مَا جُمِعَ فِيهِ، فَاعْمَلْ بِمَا أَمَرَكَ، وَانْتَهِ عَمَّا نَهَاكَ اللهُ.

وَيُقَالُ: لَيْسَ لِشِعْرِهِ قُرْآنٌ، أَيْ: تَأْلِيفٌ[١].

الجواب: هذا لا ينبغي؛ لأنه رُبَّما يحمل الإنسان هذا المعنى على هذه المشكاة، وهذا من التعظيم الذي لا أصلَ له، يُريدون التبرك وما أشبه ذلك، وهذا خطأٌ.

لكن هل تُكسر هذه المصابيح؟

الجواب: لا، ولكن يُنْصَح أهل المسجد.

وقوله: «بِلِسَانِ الحَبَشَةِ» نستفيد منه: أن في القرآن ما ليس بعربيٍّ، ولكن هذا باعتبار الأصل، فإذا دخلت الكلمةُ غيرُ العربية في كلام العرب صارت مُعَرَّبةً، وأصلُ العرب الذين هم ولد إسماعيل ﷺ عَرَبٌ مُستعربةٌ، والعربُ العاربةُ القحطانيُّون قبلهم، ولكن مع كونهم عَربًا مُستعربةً كانوا أفضلَ من العرب الأصليِّينَ.

[١] هذا استطرادٌ من المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ القارئُ هو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقرأ، والرسولُ ﷺ يسمع، فيتَّبعه، لكن لَمَّا كان جبريل رسولًا من عند الله عَزَّوَجَلَّ أضاف الله قراءتَهُ إليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:١٠]؛ لأن الرسولَ ﷺ يُبايع بشريعة الله، فيكون كأنَّ اللهَ هو الذي بايَعَ(١).

---

(١) انظر: شرح القواعد المثلى لفضيلة شيخنا رحمه الله تعالى (ص:٤٤١-٤٤٣).

وَسُمِّيَ: الفُرْقَانَ؛ لِأَنَّهُ يُفرِّقُ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ[١].

وَيُقَالُ لِلْمَرْأَةِ: مَا قَرَأَتْ بِسَلًا قَطُّ، أَيْ: لَمْ تَجْمَعْ فِي بَطْنِهَا وَلَدًا.

وَيُقَالُ فِي: (فَرَّضْنَاهَا) أَنْزَلْنَا فِيهَا فَرَائِضَ مُخْتَلِفَةً، وَمَنْ قَرَأَ: (فَرَضْنَاهَا) يَقُولُ: فَرَضْنَا عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ بَعْدَكُمْ[٢].

= وقوله: «فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، أَيْ: مَا جُمِعَ فِيهِ» كأن المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ يُريد أن يستشهد بأن القرآن يأتي بمعنى الجمع والتأليف، أي: جَمْع بعضِهِ إلى بعضٍ، وتأليفِ بعضِهِ إلى بعضٍ.

[١] قوله: «وَسُمِّيَ الفُرْقَانَ» إذا قال قائلٌ: أين نائب الفاعل هنا؟

فالجواب: هو الضمير المستتر.

وما ذكره في سبب تسميته الفُرقانَ وجهٌ، وهناك وجهٌ آخَرُ، وهو أنه يُفَرِّق بين أولياء الله وأعداء الله.

والفَرْق بين الحق والباطل يدخل فيه الفَرْق بين الحلال والحرام، والصحيح والفاسد، والضارِّ والنافع، والصدق والكذب، فكلُّ هذا داخلٌ في قوله: «يُفَرِّقُ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ» وكذلك يُفَرِّق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وبين ما يستحقُّونه من الجزاء، فكلُّ هذا داخلٌ في التفريق.

ولعلَّه يشمل التفريق بين المختلفات؛ فإن الشريعة لا تجمع بين مُختلِفَين، ولا تُفرِّق بين مُجْتمعَيْن ومُتَماثلَيْن.

[٢] قوله: (فَرَضْنَاهَا) أي: فرضنا عليكم العمل بما فيها؛ تصديقًا في الأخبار،

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾ لَمْ يَدْرُوا؛ لِمَا بِهِمْ مِنَ الصِّغَرِ[١].

= وتنفيذًا في الأحكام، و(فَرَّضْنَاهَا) بالتشديد(١) أي: جعلنا فيها فرائض مختلفةً، وهو كذلك؛ لأنَّ فيها حدودَ القذف والزنى والاستئذان وغير ذلك كثير، ففيها فرائضُ مُتعدِّدةٌ، فلهذا جاءت بلفظ: «فَرَّض» والتضعيف يدلُّ على التكرار.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور:٣١].

وفي قوله: ﴿ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ﴾ إشكالٌ نحويٌّ؛ لأنه قال: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالجمع، ولم يقل: الطفل الذي، فما هو الجواب عن هذا الإشكال؟

نقول: ﴿ٱلطِّفْلِ﴾ هنا باعتبار الجنس، وإذا كان باعتبار الجنس صحَّ أن يُجمع وصْفُهُ، فيُقال: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: لا يعرفون ما يتعلَّق بالنساء من الشهوة الجنسيَّة، وأمَّا إذا كانوا يعرفون فإنهم كالكبار ولو كانوا أطفالًا، وليست العلَّة الطفولةَ؛ لأنه لو كانت العلَّة الطفولةَ لقال الله عَزَّوَجَلَّ: «أو الطفل» فقط، فلما قال: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ عُلِمَ أنه لابُدَّ من الطفولة، ومن كونِه لا يدري ما يتعلَّق بالنساء.

---

(١) قرأها بالتشديد ابن كثير وأبو عمرو، وقرأها باقي السبعة بالتخفيف، التبصرة (ص:٦٠٨).

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: ﴿أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ مَنْ لَيْسَ لَهُ أَرَبٌ.

وَقَالَ طَاوُسٌ: هُوَ الأَحْمَقُ الَّذِي لَا حَاجَةَ لَهُ فِي النِّسَاءِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا يُهِمُّهُ إِلَّا بَطْنُهُ، وَلَا يُخَافُ عَلَى النِّسَاءِ[١].

= **وقد يقول قائل**: إن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ صفة كاشفة لا مفهومَ لها، ولكننا نقول: بلى، لها مفهومٌ؛ لأن العلة من وجوب سَتْر العورة خوفُ الفتنة، ومَن ظَهَرُوا على عورات النساء فالفتنة منهم مُتوقَّعةٌ ولو كانوا أطفالًا.

وبناءً على ذلك فإن الأطفال يختلفون في هذا اختلافًا كثيرًا بحسب نموِّهم الجسمي، وما يكون تابعًا له من القوى، وبحسب بيئتهم، فقد يكون الإنسان في بيئة يتكلَّمون كثيرًا فيما يتعلَّق بالنساء، أو يكون مع شباب يتكلَّمون في هذا كثيرًا، فتنمو فيه هذه الغريزةُ، وقد لا يكون قد عاش إلا بين نسائه، فهذا لا ينمو فيه هذا الشيء إلا بعد كِبَرِه.

فإن قال قائل: إذا كان كذلك فلماذا لم يكتفِ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ ولا حاجة أن يقول: ﴿ٱلطِّفْلِ﴾؟

قلنا: لأن الغالب أن الذين لم يظهروا على عورات النساء أن ذلك لطفولتهم، وقد يكون هذا لجنونه مثلًا، وقد يكون من غير أولي الإربة، كما في نفس الآية.

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ أي: الذين يكونون في البيوت، وليس لهم إرْبَةٌ في النساء ولا حاجةٌ إطلاقًا.

وقول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَا يُهِمُّهُ إِلَّا بَطْنُهُ» أي: ما يُريد إلا الأكْلَ والشُّرْبَ، والثيابَ الجميلة، والمركوبَ الجميل، أمَّا مسألة النساء فلا تُهِمُّه، وهذا قد يكون غريزةً

....

= في الإنسان، بمعنى: أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يخلق فيه شهوة الجنس، وقد يكون لكِبَره أو لآفةٍ حلَّت فيه.

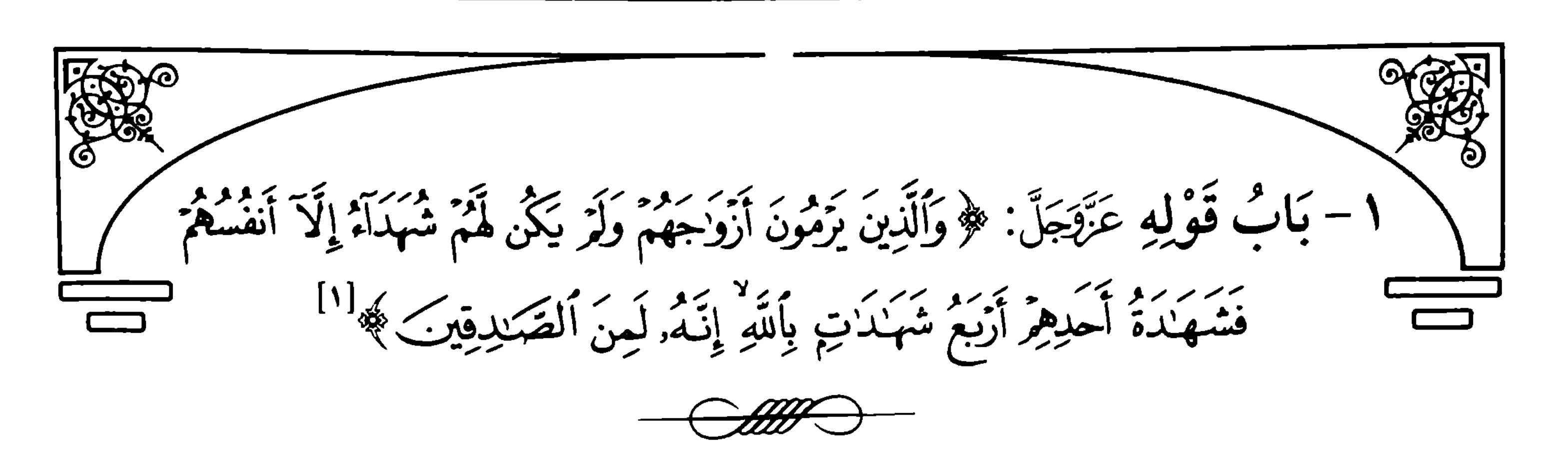
والمهم: أن الإنسان الذي لا إرْبَةَ له حكمُـهُ حُكْمُ الطفل الذي لم يظـهر على عورات النساء.

فإن قال قائل: وهل يُمكن أن يتظاهر الرجل أنه لا إرْبَة له في النساء؟

نقول: لا، بل يُعْلَم هذا؛ ولهذا الرجل الذي كان يدخل على البيوت في المدينة في عهد الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ويتحدَّث، لَمَّا وصف ابنة مَلِك الطائف -أظن- قال: إنها تُقْبِلُ بأربَعٍ، وتُدْبِرُ بثمانٍ، مَنَعَه الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من الدخول على النساء(١).



(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب ما ينهى من دخول المتشبهين بالنساء، رقم (٥٢٣٥)، مسلم: كتاب السلام، باب منع المخنث من الدخول على النساء، رقم (٢١٨٠/ ٣٢).



١ - بَابُ قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[١]

٤٧٤٥ - حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ: حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ: أَنَّ عُوَيْمِرًا أَتَى عَاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ، وَكَانَ سَيِّدَ بَنِي عَجْلَانَ، فَقَالَ: كَيْفَ تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ سَلْ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَأَتَى عَاصِمٌ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَسَائِلَ، فَسَأَلَهُ عُوَيْمِرٌ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَرِهَ المَسَائِلَ وَعَابَهَا، قَالَ عُوَيْمِرٌ: وَاللهِ لَا أَنْتَهِي حَتَّى أَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ.

فَجَاءَ عُوَيْمِرٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! رَجُلٌ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟..............................

---

[١] هؤلاء يرمون أزواجَهُم، فطُلِبَت منهم الشهادة، فقالوا: ما عندنا شهادةٌ، ولكن نحن نشهد؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ وهذه الآية نزلت بعد قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فنزلت هذه الآية بعد ذلك، وجُعِلَ للزوج الذي يرمي زوجته حكمٌ خاصٌّ؛ لأن رَمْيَ الزوج زوجتَهُ بالزنى أمرٌ بعيدٌ جدًّا، ولا يُمكن أن يكون هذا إلا وهو مُتأكِّد، وأن الأمر واقعٌ، فأنزل الله هذه الآية، وهي فَرَجٌ للأزواج.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَدْ أَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ» فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْمُلَاعَنَةِ بِمَا سَمَّى اللهُ فِي كِتَابِهِ، فَلَاعَنَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنْ حَبَسْتُهَا فَقَدْ ظَلَمْتُهَا، فَطَلَّقَهَا، فَكَانَتْ سُنَّةً لِمَنْ كَانَ بَعْدَهُمَا فِي الْمُتَلَاعِنَيْنِ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «انْظُرُوا، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَسْحَمَ، أَدْعَجَ الْعَيْنَيْنِ، عَظِيمَ الْأَلْيَتَيْنِ، خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ، فَلَا أَحْسِبُ عُوَيْمِرًا إِلَّا قَدْ صَدَقَ عَلَيْهَا، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أُحَيْمِرَ، كَأَنَّهُ وَحَرَةٌ، فَلَا أَحْسِبُ عُوَيْمِرًا إِلَّا قَدْ كَذَبَ عَلَيْهَا» فَجَاءَتْ بِهِ عَلَى النَّعْتِ الَّذِي نَعَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ تَصْدِيقِ عُوَيْمِرٍ، فَكَانَ بَعْدُ يُنْسَبُ إِلَى أُمِّهِ[١].

---

[١] هنا مسألة: إذا وجد الرجل رجلًا على امرأته فكيف يصنع؟

الجواب: يأتي بالسيف مسلولًا، ويَقُدُّه نصفيْنِ، وقد وقعت هذه في عهد عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حيثُ وجد رجل رجلًا على امرأته، فأخذ السيف، وقدَّه نصفين، وجاء أولياؤه يُخاصمونه عند عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: واللهِ يا أمير المؤمنين، إن كان بين فَخِذي امرأتي رجل فأنا قد قددتُه! يُريد: أنه ما ضرب إلا ما كان على فَخِذ امرأته، فقال عُمَر: ما تقولون؟ قالوا: لا نقول شيئًا، فأخذ عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السيف، وهزَّهُ، وقال: إن عادوا فعُدْ(١).

وهذا كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ ليس من باب دفع الصائل؛ لأن مفسدته حصلت، أمَّا دفع الصائل فيكون قبل أن تُوجَد المفسدةُ، أمَّا إذا وُجِدَت فلا وجه للدفاع، بل هذا من باب عُقوبة المعتدي(٢).

---

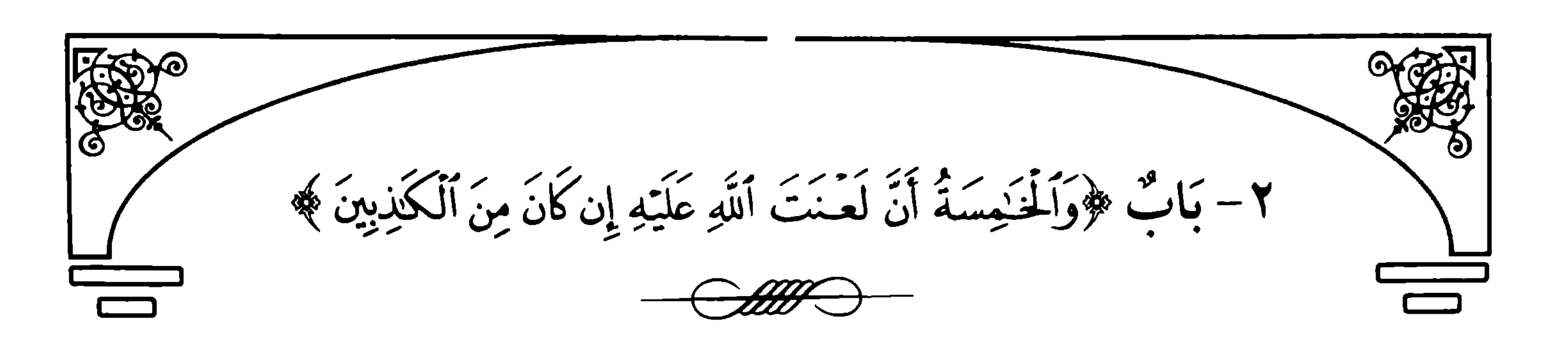
(١) أخرجه بمعناه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٢١).
(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٨٠).

....

= ونظير ذلك: الناظر في خَصَاص الباب، فهذا لا ننهاه بالقـول مثلًا، بل نأتي بخازوق، ونخزق عينَهُ؛ لأن هناك فرقًا بين المُدافعة والعُقوبة.

وأمَّا المرأة فلا يقتلها؛ لأنها قد تكون مُكْرَهةً.



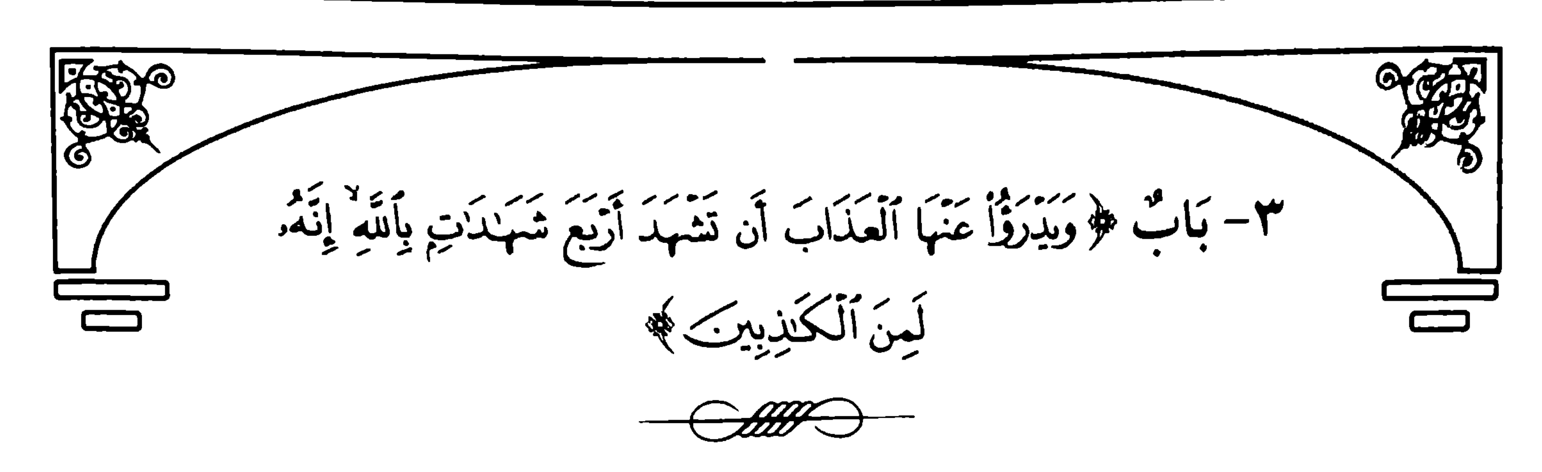


٢- بَابٌ ﴿وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾

٤٧٤٦- حَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ أَبُو الرَّبِيعِ: حَدَّثَنَا فُلَيْحٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْت رَجُلًا رَأَى مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أَمْ كَيْفَ يَفْعَلُ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمَا مَا ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ التَّلَاعُنِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَدْ قُضِيَ فِيكَ وَفِي امْرَأَتِكَ**» قَالَ: فَتَلَاعَنَا -وَأَنَا شَاهِدٌ- عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَفَارَقَهَا، فَكَانَتْ سُنَّةً أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ الْمُتَلَاعِنَيْنِ.

وَكَانَتْ حَامِلًا، فَأَنْكَرَ حَمْلَهَا، وَكَانَ ابْنُهَا يُدْعَى إِلَيْهَا، ثُمَّ جَرَتِ السُّنَّةُ فِي الْمِيرَاثِ: أَنْ يَرِثَهَا، وَتَرِثَ مِنْهُ مَا فَرَضَ اللهُ لَهَا.





٣- بَابٌ ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

٤٧٤٧- حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حَسَّانَ: حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِشَرِيكِ ابْنِ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْبَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ**» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيِّنَةَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**الْبَيِّنَةَ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ**» فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلَيُنْزِلَنَّ اللهُ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَجَاءَ هِلَالٌ، فَشَهِدَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟**» ثُمَّ قَامَتْ، فَشَهِدَتْ، فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَ الْخَامِسَةِ وَقَّفُوهَا، وَقَالُوا: إِنَّهَا مُوجِبَةٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَلَكَّأَتْ وَنَكَصَتْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ، فَمَضَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَبْصِرُوهَا، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ، سَابِغَ الْأَلْيَتَيْنِ، خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشَرِيكِ ابْنِ سَحْمَاءَ**» فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ**»[١].

---

[١] قول النبيِّ ﷺ: «**الْبَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ**» بنصب «الْبَيِّنَةَ» والتقدير: أَحْضِر الْبَيِّنَة.

....

أمَّا «البينة» من حيث الإعراب -لا من حيث الروايةُ- فيجوز فيها وجهان:

الوجه الأول: «البَيِّنَةَ» أي: أَحْضِر البَيِّنَةَ.

الوجه الثاني: «البَيِّنَةُ» بالرفع، فتكون مبتدأً خبرُهُ محذوفٌ، والتقدير: البَيِّنَة عليك، أو عليك البَيِّنَة.

وأمَّا «حَدٌّ» فإن قلنا: «البَيِّنَةُ» بالرفع فـ: «حَدٌّ» معطوفة على «البَيِّنَةُ» ولا إشكالَ فيها، وتكون «أَوْ» هنا للتنويع، أي: البينة إن أتيت بها فذاك، أو حدٌّ في ظهرك.

أمَّا إذا كانت «البَيِّنَةَ» بالنصب فإن «حَدٌّ» مُبْتَدأ، خَبَرُهُ محذوفٌ أيضًا، ولا حاجةَ إلى أن نُقَدِّر شرطًا أو غيره، والتقدير: أحضر البَيِّنَةَ، أو عليك حدٌّ في ظهرك، ولا إشكالَ.

وأمَّا قوله: «**البَيِّنَةَ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ**» فيعني: وإلا تُحْضِرْ فعليك حدٌّ.

وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ**» يعني: وأمَّا الرسولُ ﷺ فلا يعلم.

وهاتان القصتان مختلفتان، ولا شَكَّ أن سبب النزول قضيةُ هِلال بن أُمَيَّة، لا عُوَيْمِرٍ؛ لأن قول الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**البَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ**» يدلُّ على أن الآية لم تنزل؛ ولهذا راجعَ النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حتى نزلت، وأمَّا قضية عُوَيْمِرٍ فقد قال الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**قَدْ أَنْزَلَ اللهُ القُرْآنَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ**» وهذا يدلُّ على أنه قد سَبَقَ النزولُ.

....

= وأمَّا قوله في الرواية الثانية: «فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمَا مَا ذُكِرَ فِي القُرْآنِ مِنَ التَّلَاعُنِ» فإن كانت محفوظةً في عُوَيْمِرٍ فلا يمتنع أن يكون لنزول الآية سببانِ.

والغريب أن وصْفَ الجنين مُنْطَبِقٌ في هذين الحديثَيْنِ، وكأن الفاعل بهذه وبهذه واحدٌ، والله أعلم؛ لأن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جعل هذه الأوصاف للطفل إذا كان من الرجل الذي قُذِفَت به، وعلى هذا فلا يبعد أن يكون هذا الرجل حصل منه فعلٌ في هذه، وفي هذه.

وفي هذا الحديث: ما يدلُّ على أن هِلالَ بن أُمَيَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صادقٌ فيما رماها به، والدليلُ: أن المرأة نَكَصَتْ ووقَفَتْ وتردَّدَتْ، لكن أخذَتْها الحميَّةُ، وقالت: «لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ اليَوْمِ»؛ لأنها لو أقرَّت بالزِّنى صار هذا فضيحةً على قومها، لكنها أبتْ أن ترجع -عفا اللهُ عنها- خوفًا من أن تفضح قومَهَا بما حصل، وهذا واضحٌ.

ثم قرينةٌ أُخرى، وهي: أن الولد جاء على النعت المكروه، ولكنَّ الرسولَ ﷺ لم يعتبر هذه القرينة مع وجود الحُكْم الشرعيِّ، وإلا فإن هنا أربعَ قرائنَ، كل واحدة منها قوية:

الأُولى: أنه يبعد أن الزوج يقذِفُ زوجته بشخص من المسلمين إلا وهو صادقٌ؛ لأنه يبعد أن يَجْنِيَ عليها وهي فراشُهُ، وعلى رجل من المسلمين أيضًا.

القرينة الثانية: أن الرجل أصرَّ وتمسَّك، وعَلِمَ أن الله سيجعل له فرَجًا، لَمَّا قال النبيُّ ﷺ: «البَيِّنَةَ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ» قال: «وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ» وكونه يجزم بهذا اليمين، وينتظر فَرَجَ الله عَزَّوَجَلَّ يدلُّ على أنه صادقٌ.

القرينة الثالثة: أنها تلكَّأَتْ ونَكَصَتْ، وقالت: «لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ».

القرينة الرابعة: أن الولد جاء على الوصف الذي يُطابق مَن رُمِيَت به.

فهذه قرائنُ أربعٌ، لكن الحكم الشرعي مُقَدَّمٌ عليها؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ» يعني بذلك: اللِّعان، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور:٦] إلى آخر الآيات، وقال عَزَّوَجَلَّ فيها: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النور:٨] والعذاب المدروءُ عنها بشهادتها: هو الرجم إن كانت مُحْصَنةً، أو الجَلْد والتغريبُ إن كانت غير مُحْصَنة، مثل: أن يَعْقِدَ الإنسانُ على امرأة، وتَزْنِيَ قبل أن يدخل بها، ثم يرميها بالزِّنى.

والمُحْصَن: هو الذي جامَعَ زوجةً في نكاح صحيح، وهما بالغان عاقلانِ حُرَّانِ.

وعلى هذا فإذا زنى الزوج أو الزوجة قبل الدخول فهل يكون عليه الرجم؟

الجواب: لا، إلا إذا كانت المرأة قد تزوَّجت من قبلُ، وجامَعَها زوجُهَا الأول، فيكون عليها الرجم، وكذلك الرجل مثلها.

ثم اختلف العلماء: هل يُلاعن من أجل نَفْيِ الولد، أو لابُدَّ أن يُلاعن برمْيِهَا بالزِّنى؟ والصحيح: أن له أن يُلاعِنَ لنَفْيِ الولد، فيقول: أنا لا أَتَّهمها بالزِّنى، أو أنها مُطيعة، بل رُبَّما كانت مُكْرَهةً، لكن هذا الولد ليس منِّي.

والخلاصة: أن ما ثبت بمقتضى الحُكْم الشرعيِّ فلا يُمكن أن يُنْقَض بالقرائن ولو قَوِيَت.

....

= وفي الحديث فوائدُ كثيرةٌ، منها:

١- القوة الصارمة في الحدود؛ لأن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تكلَّم بهذا الكلام: «البيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ».

٢- أن الإنسان إذا قذف امرأةً برجل فالحدُّ واحدٌ؛ لأن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يقل: «أو حدَّانِ في ظَهْرِكَ» مع أنه رماها بشريك ابن سَحْماءَ.

٣- أنه يجوز أن يُناقَش المفتي في فتواه، وأنه ليس له الحقُّ في أن يغضب؛ ولهذا قال هِلال بن أُمَيَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للرسول ﷺ: «يَا رَسُولَ اللهِ! إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ البَيِّنَةَ!» يعني: كيف هذا؟! وهذا كما قال سعدُ بن عُبادةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أرى لُكَعَ على أهلي، فأنطلق آتي بأربعة رجال؟! والله لأضربنَّه بالسيف غير مُصفح[1]. فهاهم الصحابة -وهم أشدُّ الناس أدبًا مع رسول الله ﷺ- يُراجعونه في الفتوى، وهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يَغْضَبُ.

٤- أن المفتيَ يجب عليه أن يُصِرَّ على ما دلَّ عليه الشرع مهما وُجِّهت إليه الاعتراضاتُ؛ لأن الرسولَ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم أبى إلا أن يحدَّه حدَّ القَذْفِ أو يأتِيَ بالبيِّنَةِ.

٥- جواز حلف الرجل بدون استحلاف؛ لأن هلالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقْسَم، قال: «وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب من رأى مع امرأته رجلًا فقتله، رقم (٦٨٤٦)، ومسلم: كتاب اللعان، رقم (١٤٩٩/ ١٧).

....

= ٦- قوة رجاء الرجل بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله: «**فَلَيُنْزِلَنَّ اللهُ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنَ الحَدِّ**».

٧- أن الحدود يكون الضربُ فيها على الظهر، وهذا في الغالب، ويجوز على الأليتيْنِ والفَخِذين والساقين، ولا يجوز على الرأس والوجه والصدر والمَقاتل.

٨- أنه ينبغي أن تكون الملاعَنة بحضرة أُناس؛ لأن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا شهد ذلك؛ ولأن القوم قالوا لها: «إِنَّهَا مُوجِبَةٌ».

٩- أنه ينبغي عند الخامسة أن يقول القاضي ما قاله النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيُوقَف الإنسانُ، ويُقال: اصبر، فإن الخامسة هي المُوجِبَة، يعني: الموجبةَ لِما ستدعو به على نفسك، وذلك أن الزوج يقول: «لعنةُ الله عليه إن كان من الكاذبين» وهي تقول: «أنَّ غَضَبَ الله عليها إن كان من الصادقين».

١٠- جواز العمل بالأمارات؛ لقول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ**»؛ بناءً على أن الأماراتِ التي ذكرها النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جاءت على ما قال.

١١- أن الشَّبَه قرينةٌ؛ لأن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جعل هذه الأوصافَ من القرينة على صدق الرجل، وأن زوجته هذه قد فعلت ما فعلت.

وله شاهدٌ آخرُ أيضًا في أن الشَّبَه قرينةٌ؛ وذلك أن مُجَزِّزًا المُدْلِجِيَّ دخل على أُسامةَ ابن زيد وأبيه زيدِ بن حارثةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهما قد تغطَّيا برداء، ولم يظهر إلا أقدامُهما،

....

= فقال مُجَزِّزٌ: إن هذه الأقدام بعضُها من بعض[1].

وكذلك في قصة غلام زَمْعَةَ؛ حيث رأى فيه الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شبهًا بيِّنًا بعُتْبة بن أبي وقَّاص، فقال لسَوْدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**احْتَجِبي مِنْهُ**»[2].

١٢- سوء التعصُّب للقبيلة وللقوم؛ لأن هذه المرأة لو أقرَّت لأقام النبيُّ ﷺ عليها الحدَّ بعد أن تَضَعَ وتُرْضِعَ الولدَ، ولا يبقى له حاجةٌ فيها، وما كان الرسولُ ﷺ يقول: إن جاءت به كذا وكذا فهو لفلان، ولسلمت من هذا الأمر، ونجت أيضًا من عذاب الآخرة، وهو غضبُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فإن قلت: إذا فعلت ذلك وهي كاذبة فقد استحقَّت الغَضَبَ، وهل هذا لازمٌ، فيغضب الله عليها، ولا يُدخلها جنَّته، أو أن هذا تحت المشيئة؟

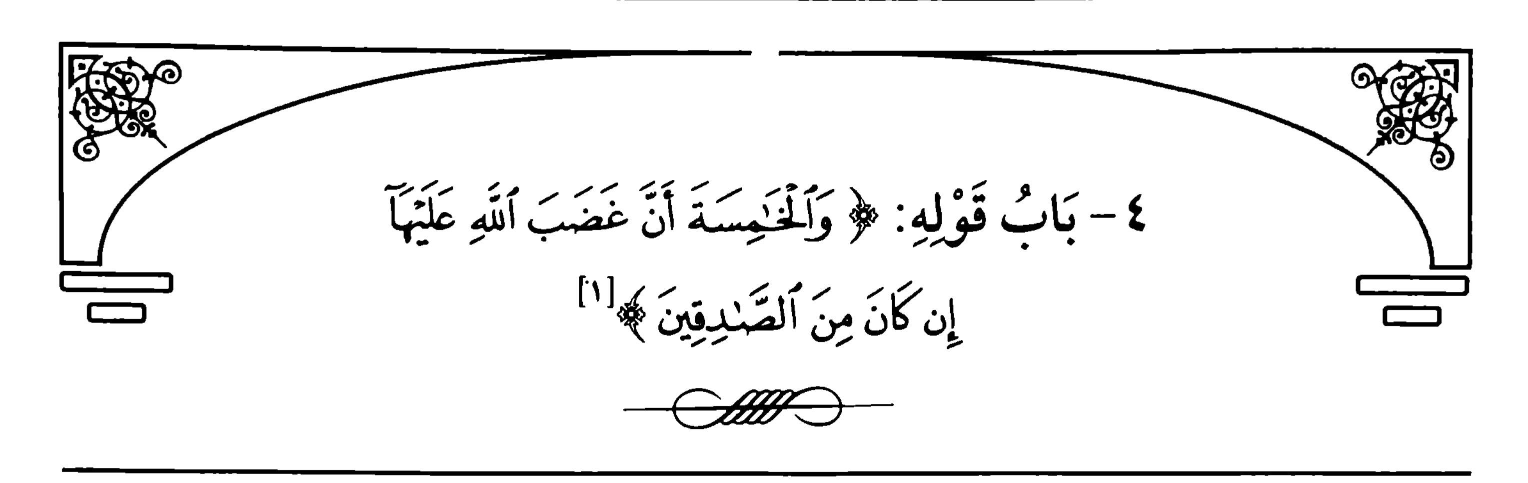
نقول: قد يُقال: إنه واجبٌ؛ لقوله: «**إِنَّهَا مُوجِبَةٌ**» وأن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] هذا عامٌّ، يُستثنى منه ما دلَّت الأدلَّةُ على أنه واجبٌ، ولابُدَّ منه، ويكون الغضب هنا مُوقَّتًا، بمعنى: أنه يغضب الله عَزَّوَجَلَّ عليها بقدر ما حصل منها، ثم بعد ذلك يُدخلها الجنة.

وفرقٌ بين أن نقول: إنه داخل تحت المشيئة، بمعنى: أنه يجوز أن يَعْفُوَ الله عنها نهائيًّا، أو نقول: إنها مُوجِبةٌ، فيغضب الله عليها في حينٍ دون آخَر.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب القائف، رقم (٦٧٧١)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب العمل بإلحاق القائف، رقم (١٤٥٩/ ٣٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب تفسير المشبهات، رقم (٢٠٥٣)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب الولد للفراش، رقم (١٤٥٧/ ٣٦).



٤- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[١]

[١] قول الله تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ﴾ قد يقول قائل: لماذا جاءت بالنصب مع أنها في حق الزوج بالرفع: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؟

نقول: أمَّا ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ﴾ بالنصب فهي معطوفة على منصوب: ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ﴾ وأمَّا ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ بالرفع فالظاهر أنها صفة لموصوف محذوف، يعني: وشهادتُه الخامسةُ أنَّ لعْنَةَ الله عليه، ولا تصحُّ أن تكون مبتدأً؛ لأن التقدير: والخامسة كَوْنُ لعنة الله عليه، واللعنةُ من الله، وليست منه هو.

فإن قال قائل: هنا قال: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾ وهناك قال: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فلماذا خصَّ الزوج باللعنة، والزوجة بالغضب؟

قلنا: هذا لوجهين:

الأول: أن الزوجة هي التي تعرف الحقيقة، بخلاف الزوج، فصار العقاب في حقِّها أكثرَ.

الوجه الثاني: أنه هو أقرب منها إلى الصواب؛ فلذلك خُفِّفت في حقه العقوبةُ، والدليل على أنه أقربُ إلى الصواب: ما ذكره في قصة هذه المرأة.

لكن كيف كانت اللعنة أخف من الغضب؟

نقول: لأن اللعنة طردٌ وإبعادٌ، والغضب يتضمَّن الطرْدَ والإبعادَ وزيادةً.

٤٧٤٨- حَدَّثَنَا مُقَدَّمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى: حَدَّثَنَا عَمِّي القَاسِمُ بْنُ يَحْيَى، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ -وَقَدْ سَمِعَ مِنْهُ- عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلًا رَمَى امْرَأَتَهُ، فَانْتَفَى مِنْ وَلَدِهَا فِي زَمَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَتَلَاعَنَا كَمَا قَالَ اللهُ، ثُمَّ قَضَى بِالوَلَدِ لِلْمَرْأَةِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ المُتَلَاعِنَيْنِ[١].

---

[١] هذا الولد الذي قُضِيَ به للمرأة يكون للمرأة، ويُدْعَى لأُمِّه، ولكن كيف ترثه أمُّه؟

نقول: في هذا خلاف بين أهل العلم، فمنهم مَن قال: إنها ترثه ميراثَ أُمٍّ فقط، أمَّا هو فيرثها ميراثَ ابن، فإذا هلك عنها وعن أبيها فلها الثُّلُث، والباقي لأبيها.

وقال بعض العلماء: بل ترثه ميراثَ فـرْضٍ وعَصْبٍ؛ لأنها في الحقيقة أمٌّ وأبٌ، فيكون لها الثُّلُث فرضًا، والباقي تعصيبًا.

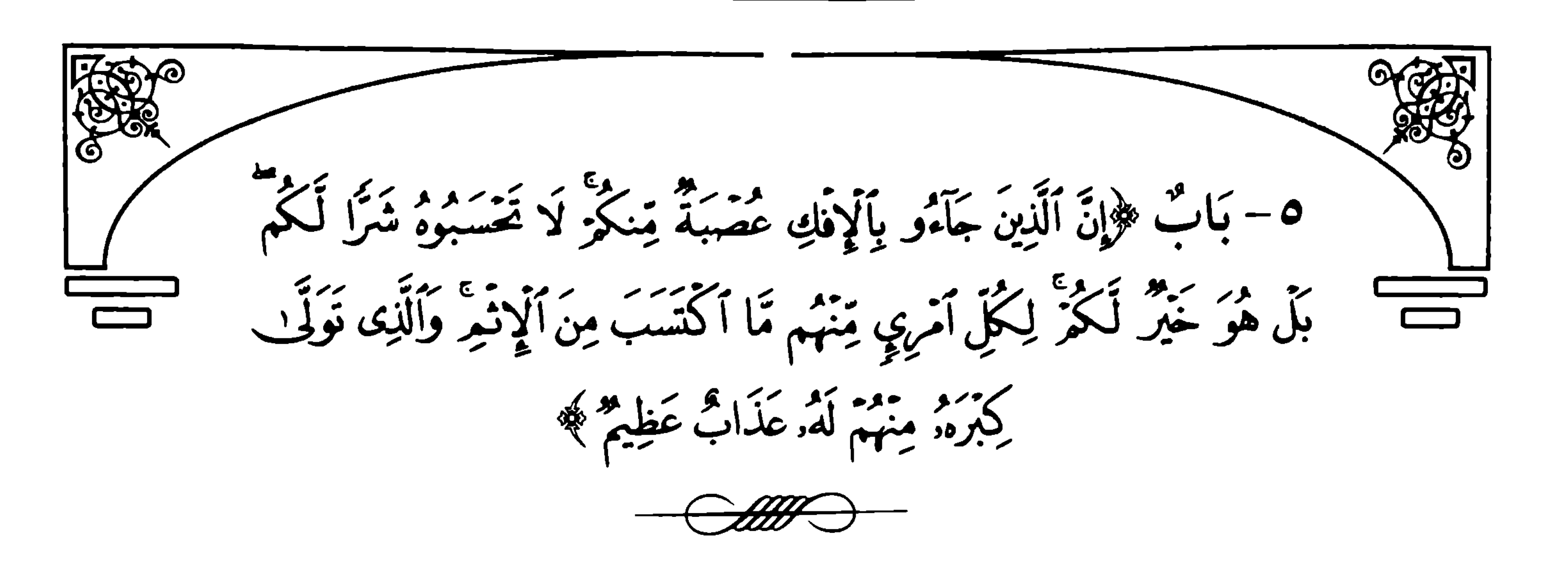
والمشهور من المذهبِ الأوَّلُ؛ حيث قالوا: «وولد الزِّنى والمنفيُّ بلِعانٍ عصبتُه عصبةُ أمِّـه»(١) وفي هذه الحال يرث أبو أُمِّـه منه، مع أنه من أصوله المُدْلِين بأُنْثـى، والقاعدة: أن الأصول المُدْلين بأُنْثى لا ميراثَ لهم مع وجود صاحب الفرض، وكذلك يرث أخواله إذا لم يكن له أبو أُمٍّ.

والصحيح: أنها هي عصبتُهُ، فإن عُدِمَت انتقل الحكم إلى مَن يَرِثُهُ.



---

(١) الإنصاف مع المقنع والشرح الكبير (١٨/ ٤٥).



أَفَّاكٌ: كَذَّابٌ[١].

---

[١] هذه ابتداء آيات الإفْك، وهي عشْرُ آيات، والإفك هو أن أم المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا اتَّهمها قومٌ من أهل النفاق بالفاحشة بصَفْوَان بن المُعَطِّل رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، وهؤلاء الذين اتَّهموها لا يهمُّهم أن يتَّهموا امرأةً من قُريش، لكن الذي يهمُّهم أن يُدَنِّسوا فراشَ رسولِ الله ﷺ؛ ولهذا سَعَوْا في وشاية هذا الأمرِ سَعْيًا عظيمًا، واغترَّ بهم ثلاثةٌ من أهل الإيمان، وهم: حسَّان بن ثابت، ومِسْطَحُ بن أُثاثَةَ، وحَمْنَةُ بنت جَحْشٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُم، فأقام النبيُّ عَلَيهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ على هؤلاء الثلاثة حدَّ القَذْفِ، ولم يُقمه على بقيَّة المنافقين الذين على رأسهم عبدُ الله بن أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ، لعنة الله عليه.

لكن لماذا لم يُقِمِ الرسولُ عَلَيهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عليه الحدَّ؟

الجواب: قيل: لأن الحد تطهيرٌ، وهذا منافقٌ لا يتطهَّر.

وقيل: لأن الرجل خبيثٌ وماكرٌ، وهو لا يقول بصريح التُّهمة، وأنه زنَى بها فُلانٌ مثلًا، ولكنه ينشر الحديث، ويقول مثلًا: ما سَمِعْتَ ما قيل في عائشة، وما أشبه ذلك.

وقيل: لأن الحدَّ حقٌّ للرسول عَلَيهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فله أن يُسْقِطه، وهذا أضعفُ.

والظاهر -والله أعلم- إمَّا المعنى الأول، وإمَّا المعنى الثاني.

٤٧٤٩- حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ﴾ قَالَتْ: عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ[١].

= قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أي: طائفةٌ منكم، وفي قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ إشارةٌ إلى قُبْحِ هذا الأمر؛ حيث وقع منهم، وهم الذين ينتسبون إلى الإسلام.

وقوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الخطاب هنا للمؤمنين كلِّهم؛ لأن هذا يتعلَّق بالمؤمنين كلِّهم، فعائشةُ أُمُّ المؤمنين، وزوجها أبو المؤمنين وإمامُهم ﷺ، فهو في الحقيقة دَنَسٌ لجميع الأمَّة؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ مع أن الإنسان في بادئ الأمر يظنُّ أنه شرٌّ، ولكنه خيرٌ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] ووجه ذلك: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ وانظر تمام العدل! ما جعل هؤلاء سواءً في الإثم، بل قال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ وهم يختلفون اختلافًا عظيمًا.

ثم قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وإنما عَظَّم عذابَهُ؛ لأنه تولَّى الأمْرَ وأشاعَهُ، والصحيح: أن عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ هو الذي تولَّى كِبْرَه منهم.

وهذه الجملة: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ جملة اسمية، خبرُها أيضًا جملةٌ اسميَّة، وهذا يدلُّ على أن هذا أمرٌ ثابتٌ، وعلى قُبح ما فَعَل؛ لأنه لو قال: «ولِمَن تَوَلَّى كِبْرَه منهم عذابٌ عظيمٌ» لكفى في بيان أن له عذابًا عظيمًا، لكن لَمَّا جاءت جملةٌ اسميَّةٌ مُصدَّرةٌ باسم، وكان خبرُها أيضًا جملةً اسميَّةً؛ صار هذا أشدَّ.

[١] هنا قالت: «عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ» بضم «ابْنُ» وبتنوين «أُبَيٍّ» وبهمزة

= الوصل بينهما، وهذا خلاف القاعدة؛ لأن المعروف أن «ابن» صفةٌ للذي تليه مُباشرةً، وأنه لا يُفْصَلُ بينهما بهمزة الوصل، وأن الاسم الذي قبلها لا يُنَوَّنُ، فتقول: «جاء زيدُ بنُ عليِّ بنِ محمدٍ» وهنا بالعكس: «عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ» فما توجيهه؟

والجواب أن نقول: إن عدم التنوين وكون الابن نعتًا للذي يليه وحذف همزة الوصل إنما تكون إذا كان ما بعد الأب هو الجدُّ، وهنا ما بعد الأب ليس هو الجدَّ، بل هي الأُمُّ، ولذلك كانت «ابن» بالرفع صفةً لـ: «عبد» وليست صفةً لـ: «أُبيٍّ» ولا تصلح أن تكون صفةً لـ: «أُبَيٍّ»؛ ولهذا يقولون في مثل هذا: يجب ثلاثة أمورٍ:

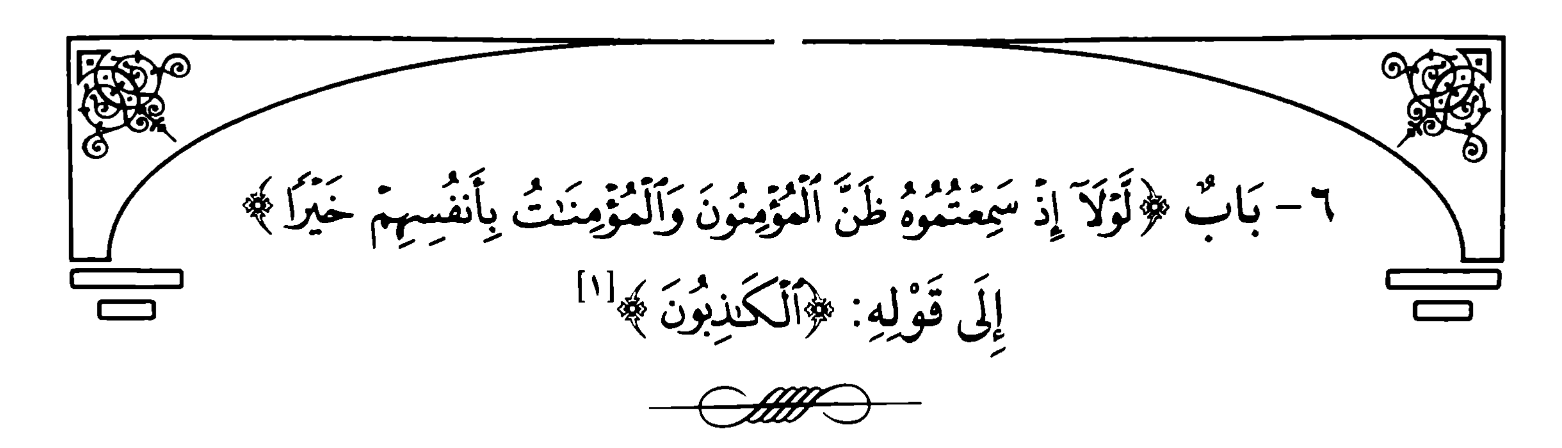
الأول: أن يُنَوَّن الاسمُ الأول.

والثاني: أن تُوضَع همزة الوصل.

والثالث: أن تكون «ابن» الثانية تبعًا للاسم الأول، لا للاسم الذي تليه.

ومثل ذلك: «عبدُ الله بنُ مالكٍ ابنُ بُحَيْنَةَ» تقول: «روى عبدُ الله بنُ مالكٍ ابنُ بُحَيْنَةَ» ولا تقل: «روى عبدُ الله بنُ مالكِ بنِ بُحَيْنة»؛ لأن «بُحَيْنَةَ» ليست أُمًّا لمالكٍ، بل هي أمٌّ لعبد الله.





٦- بَابُ ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[١]

٤٧٥٠- حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعَلْقَمَةُ بْنُ وَقَّاصٍ وَعُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ،.........................

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي: هلَّا جاؤوا عليه، فـ: «لولا» هنا تحضيضيَّةٌ.

وقوله: ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ «أربعة» تُستعمل للمُذكَّر، كما قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ [البقرة:١٣٣] وإذا كانت لمُذكَّر فقد استنبط العلماء منها: أن شهادة الزِّنى لابُدَّ فيها من أربعة رجالٍ، وأنه لو شهد به أربعون امرأةً لم تُقْبَلْ.

وقوله: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ «إذ» بمعنى: حين، يعني: ففي الحين الذي لم يأتوا فيه بالشهداء ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ وكأن «إذ» ظرفيَّة مُشْرَبة معنى الشَّرْط.

ولم يقل: «فأولئك هم الكاذبون» ولكن قال: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حُكْمِه وشَرْعه، وإن كان الأمْرُ قد يكون حقًّا بالنسبة لِمَا قاله الإنسانُ، فقد يرى الإنسانُ رجلًا يزْنِي رأيَ العين، ويُشاهده، ويشهد عندنا، فالواقع مُصَدِّق لشهادته، ولكنه عند الله كاذبٌ حتى يأتيَ بأربعة شهداء.

عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا، فَبَرَّأَهَا اللهُ مِمَّا قَالُوا، وَكُلٌّ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنَ الحَدِيثِ، وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ[١].

الَّذِي حَدَّثَنِي عُرْوَةُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَمَا نَزَلَ الحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي، وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ، وَقَفَلَ، وَدَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدِ انْقَطَعَ، فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، وَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي،..

[١] ابن شِهاب هو الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو من أوعية الحفظ، وذكر أن هؤلاء الأربعة كلَّهم حدَّثوه بهذا الحديث الواحد، وحَفِظَه، وجمع بين الروايات.

فإن قال قائل: ألا يُعَدُّ هذا قدحًا في الحديث؟

نقول: لا، لا يُعَدُّ قدحًا؛ لأنه يحتمل أن يكون بعضهم نسيَ بعضَ الشيء، أو بعضهم لم يُحَدِّث إلا بهذا، ولأنه لا يُوجَد هناك تخالف، ولو أنهم اختلفوا كان هذا قدحًا.

فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنتُ رَكِبْتُ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يُثْقِلْهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا تَأْكُلُ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ، وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ، وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي، فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي، فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ، فَأَدْلَجَ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي، فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَوَاللهِ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدَيْهَا، فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الإِفْكَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ[١].

---

[١] قولها: «**إِنَّمَا تَأْكُلُ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ**» أي: ما يتعلَّق به الإنسان ويكفيه.

وقولها: «**وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ**» كان هذا الرجل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قبيلة معروفة بأنها لا تستيقظ أبدًا حتى يستيقظ هو بنفسه، كما يُوجَد أُناسٌ كذلك، وكان هو من هؤلاء.

وقولها: «**فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ**» أي: بسببه، لَمَّا قال: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون» استيقظت «**فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي**» أي: غطَّيتُهُ.

وقولها: «**حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدَيْهَا**» لعل الصواب: «يَدِهَا»؛ لأن كونه يطأ على يديها بعيدٌ؛ إذ لا يتمكَّن من الوطء إلا على يد واحدة، ولو أراد أن يطأ على يديها استقبل رقَبَتها، فلم يصل إلى يديها.

وعلى كل حال فالمعنى: أنه وطئ على يديها حتى لا تَثُور حتى ركبت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

ثم إنه من عفَّته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وشدَّةِ احترامه وتعظيمه لفراش النبيِّ ﷺ لم يُكلِّم المرأة، وقال: اركبي، أو قال: هل تُريدين الركوب؟ أو ما الذي خلَّفكِ؟ أو ما أشبه ذلك، بل إن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ» أي: أنه لم يتكلَّم في نفسه ولم يقل شيئًا سوى الاسترجاع، قال: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون»؛ لأن هذه مصيبةٌ أن يجد أُمَّ المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في هذا المكان وحدها، ثم أناخ البعير، ووطئ على يده، وركبت هي بنفسها بدون أن يقول لها كلمةً، وهذا من حُسْن أَدَبه مع النبيِّ ﷺ.

وقولها: «**حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ**» الموغِر: هو الذي وقع في حرٍّ شديد، ومنه في لُغتنا العامية إذا اشتد الحرُّ قالوا: هذه (واغِرَة) أي: شديدة الحر، ونحر الظهيرة هو أولها أو مستواها.

وقولها: «**فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ**» هل المراد: هلك هلاكًا حسِّيًا أو هلاكًا معنويًا؟

نقول: المراد: هلاكًا معنويًا «وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الإِفْكَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ» وليس ذلك بغريب عليه؛ لأنه كان مُنافقًا يُظهر الإسلامَ، ويُبْطِن الكُفْرَ، والمنافق يتحيَّن

....

= الفُرص التي يُمكن أن يُؤْذِي بها المسلمين، فرأى هذه فرصةً عظيمةً أن تكون هذه الواقعة؛ ليتناول أُمَّ المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا هذا التناول الذي هو في الحقيقة تناولٌ للرسول صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم؛ لأنه يُدَنِّس بذلك فراشَهُ، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ [النور:٢٦] فهو لا يُريد إلا أن يكون الرسولَ ﷺ ديُّوثًا، نسأل اللهَ العافيةَ.

وفي هذه الجملة من الحديث فوائدُ، منها:

١- بيان عدل النبيِّ ﷺ، وأنه أكملُ الناس عدلًا، فإن بإمكانه أن يخرج بأيِّ زوجاته شاء، وفيما نعتقد أنه لو خرج بأيَّتهن شاء لم يكن في نفوس الأُخْرَيَات حرجٌ عليه، ولكنه من كمال عدْلِهِ كان ﷺ يُقْرِعُ بينهنَّ.

٢- أنه ينبغي للإنسان إذا سافَر أن يصطحب زوجته، والغريبُ أن هذه السُّنَّة يأخذ بها الكُفَّار دون المسلمين في غالب الأحيان، فتجد المسلمين يُسافرون مدَّة شهرٍ أو عشرينَ يومًا أو أكثر، ولا يُفكِّرُ الإنسان أن يأخذ زوجتَهُ معه، والكفَّار -فيما نسمع كثيرًا- إذا ذهب الواحد منهم وإذا زوجته معه في الغالب، وهذه سُنَّة نبويَّة؛ لأن في ذلك مصلحةً عظيمةً له ولزوجته، لا سِيَّما الإنسان الشاب، ولا سِيَّما الإنسان الذي يُسافر إلى بلاد فيها الفِتَن؛ فإن السفر بالزوجة في هذه الحال قد يكون مُتعيَّنًا.

٣- استعمال القُرْعَة، وأنها ليست من المَيْسر؛ وذلك لأن هؤلاء مُشتركون في الاستحقاق، وغاية ما فيها أن يُمَيِّز المستحقُّ ويُعَيِّن، ولا طريق لنا إلى تمييز المستحق مع تعذُّر الجمع إلا بالقُرْعة، ولكن كيف تكون القرعة؟

....

= نقول: تكون القرعة بحسب ما يصطلح عليه الناس، وبحسب ما يحصل به المقصود.

٤- أن الحجاب صار له مرحلتان:

الأولى: عدم الوجوب.

والمرحلة الثانية: الوجوب.

وهذا يُفيدك في بعض الأحاديث الواردة التي ظاهرُها عدم احتجاب النساء؛ إذ يُمكن أن يكون هذا قبل وجوب الحجاب، إلا إذا صُرِّح أنه بعدُ، كما في حديث الخثعميَّةِ في حَجَّةِ الوداع، فلا يُمكن الجوابُ عنه بهذا؛ لأنه صريحٌ في أنه بعد الحجاب.

٥- أن النساء في عهد النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُحْمَلن في الهوادج؛ لأن ذلك أَخْفى وأسترَ حتى تكون وحْدَها، وقد كان الناس يفعلونه لَمَّا كانوا يُسافرون على الإبل، وهي تُسَمَّى عندنا: (الكُوَاجة) والظاهر أن هذا الاسم تركيٌّ، ولا أظنه عربيًّا، وكانوا يجعلونه عن اليمين وعن اليسار، يكون مُسَطَّحًا مقدارُهُ متر في متر ورُبُع أو متر ونصف، كأنه حُجَيْرة صغيرةٌ، ويكون على البعير اثنتان.

أمَّا الذي يجعلونه في الوسط فإنهم يُسَمُّونه: (محملًا) ويُسَمَّى في بعض البلاد: (المِقْصَر)؛ لأنها تُقْصَر فيه ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٢].

٦- أنه ينبغي للإنسان عند قضاء حاجته أن يكون بعيدًا عن مكان الناس، ومكان اجتماعهم، كما فعلت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، مع أن القضية كانت في الليل؛ لأنهم

....

= كانوا يمشون في آخر الليل، كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اسْتَعِينُوا بِالغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**»[1] لكن كلما أَبْعَد الإنسان حتى لا يُسْمَع له صوتٌ ولا يُرى له شبحٌ فهو أحسنُ.

٧- أنه ينبغي للإنسان أن يحفظ ماله، وأن يعتني به، وأن يحرص عليه، ويهتمَّ به؛ لأن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا حين فقدَت العِقْد جعلت تلتمسه حتى ذهب عنها الرَّكبُ.

٨- ذكاء عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وعقلها؛ لأنها لَمَّا جاءت وفقدت القوم ما ذهبت تطلبهم هنا وهناك، مع أنه قد يبدو للإنسان أن الأحسن أن تلحقهم وتطلبهم، لكنها رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا جلست في مكانها، وعرَفَت أنهم سيفقدونها قطعًا، وإذا فقدوها فسيرجعون على إثرهم حتى يصلوا إلى مكانها، وهذا من فقهها وعقلها وذكائها رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

٩- شجاعة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا؛ لأنه غلبَتْها عينُهَا، ونامت، والجبانُ لا ينام في مثل هذه الحال، بل قد لا يضطجع ولا اضطجاعًا، لكنها رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا نامت، وهذا دليل على شجاعتها وثقتها.

١٠- وجوب تغطية الوجه؛ لقولها: «**فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي**» وقد ذَكَرَت أن هذا كان بعد نزول الحجاب، وهذا من فعلها رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا المُفَسِّر للآية، كأنها بذلك فسَّرت الحجابَ الذي أمر الله عَزَّوَجَلَّ به.

وهذا القول هو القول الراجح، بل المتعيِّنُ، أنه يجب على المرأة أن تستر وجْهَها؛ لأنه إذا سلَّمنا جدلًا أنه لا دليل على وجوب ستر الوجه بعينه فإن هذا هو مقتضى

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩).

....

= الحكمة التي جاءت بها الشريعة، فإذا قلنا: إنه يجب على المرأة أن تُغَطِّي رِجْلَها فإن وُجوبَ تغطية اليد من بابٍ أَوْلَى؛ لأن اليد أقرب إلى حصول الفتنة بها من الرِّجل، وإذا قلنا بوجوب سَتْر اليد فسَتْرُ الوجه من بابٍ أَوْلَى، هذا فضلًا عن أن يكون هناك أدلَّة واضحة تدلُّ على وجوب سَتْر الوجه.

ثم إن المفسدة التي نشأت من القول بعدم وجوب ستر الوجه مفسدةٌ لا يُنكرها أحدٌ، فإن الشعوب التي تبنَّت هذا القول لم تقتصر على كشف الوجه، بل انكشف الوجه والرأس والرقبة والنحر والعضد وكلُّ شيء إلا ما شاء الله، فلو قُدِّر أن النص لا يقتضيه فإن المعنى يقتضي القول بوجوب تغطية الوجه.

١١- أن الإنسان إذا رأى امرأةً فقدت رُفْقتها فإنه يُرْكِبُها معه، وهذا للضرورة؛ لأنه إن وَدَعَها وتركها فهو خطرٌ إمَّا على نفسها وإمَّا على عِرْضِها.

فإن قال قائل: وهل يفعل هذا إذا كان يخشى تهمةً؟

قلنا: نعم، ويُنجيه الله عَزَّوَجَلَّ، لكن إذا وصل إلى محلٍّ آمِنٍ ووصل إلى القوم فإنه يُنزلها قبل أن يدخل فيهم، ويَسْلَم من هذا، وأمَّا أن يدَعَها وهي في حاجة إلى ذلك فلا يُمكن.

وليس معنى هذا: أنه إذا رأى راعية إبل أو راعية غنم فإنه يُركبها؛ لأنها لا تخاف على نفسها.

١٢- جواز ركوب المرأة للجمل من غير هَوْدَج، ولا يُقال: إن هذا في هذا

فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ؟» ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَاكَ الَّذِي يَرِيبُنِي، وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَقَهْتُ، فَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ، وَهُوَ مُتَبَرَّزُنَا، وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ فِي التَّبَرُّزِ قِبَلَ الغَائِطِ، فَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ -وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ- فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي، وَقَدْ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ! فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ! أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟! قَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ! أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: وَمَا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي.

فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي، وَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، تَعْنِي: سَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ تِيكُمْ؟» فَقُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجِئْتُ أَبَوَيَّ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهْ! مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟..

= الحديث للضرورة؛ لأنها لابُدَّ أن تركب؛ إذ يُجاب عن ذلك بأنه يُمكن أن تمشي، فإذا دعت الضرورة إلى ركوبها -بأن تعبت- ركبت.

قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ! هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، وَلَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ، لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، حَتَّى أَصْبَحْتُ أَبْكِي[١].

---

[١] قولها: «**فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ**» هذا من حِكْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ أن هذه المرأة أصابها المرضُ بعد قدومهم المدينة حتى لا تُحِسَّ بشيء، وحتى يتبيَّن الذين صَدَقُوا من الذين كَذَبوا، والذين آمنوا من الذين نافقوا؛ لأن الحديثَ إذا شاع بين الناس، وقَبِلَه مَن قَبِلَه، ورَفَضه مَن رَفَضه، يتبيَّن بذلك الصادقُ من الكاذب، والمؤمنُ من المُنافق.

وذكرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها كانت لا تشعر بشيء إلا في حاجة واحدة، وهي أنها لا ترى اللُّطْف الذي كانت تراه من الرسولِ ﷺ، وانظر إلى قوله حين يُخاطبها يسألها عن حالها، يقول: «**كَيْفَ تِيكُمْ؟**» ولم يقل: كيف أنتِ؟ فإن «تِيكُمْ» إشارةٌ، والمشار إليه يُقال على سبيل الغَيْبة، أو على سبيل الحضور لكنه ليس كالصريح في الخطاب في قوله: كيف أنتِ؟ و«تِيكُمْ» إشارةٌ، والمخاطَبُ جمع مذكر، يعني: كيف أنتم؟ فكأن هذا الخطاب ليس كالخطاب المُفْرَد الشخصي في الدلالة على اللُّطف.

تقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ؟» ثُمَّ يَنْصَرِفُ**» يعني: ولا يجلس عندها، وهي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في بيتها.

وقول أُمِّ مِسْطَحٍ: «**تَعِسَ مِسْطَحٌ!**» أي: هَلَكَ وخَسِرَ، وسبحان الله الذي أَنْطَقَها بهذه الكلمة، وإلا فلا رابطة بين عثورها في مِرْطِهَا وبين قولها: «**تَعِسَ مِسْطَحٌ!**».

....

= ثم إن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا دافعت عن الرجل؛ لأنها ما علمت بما حصل، وقالت: «أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟!».

ويُستفاد من هذه الجملة من الحديث فوائد، منها:

١- أنه ينبغي للإنسان إذا دخل على أهله أن يُسَلِّم.

٢- أنه ينبغي للإنسان أن يكون لطيفًا مع أهله، يسألهم عن حالهم إذا مرضوا، حتى في الحال التي يكون في نفسه عليهم شيءٌ، فلا ينتصر لنفسه، بل يسأل عن حالهم، وقد ثَبَتَ عن النبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أنه قال: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**»[1].

٣- أنه ينبغي أن تُجَنَّبَ المساكنُ كلَّ ما فيه رائحةٌ كريهةٌ، وأن هذا كان معروفًا في أول هذه الأُمَّة، وذلك حين ذكرت اتِّخاذ الكُنُف، وأنها كانت قليلةً في بيوتهم.

٤- حال الناس في ذلك اليوم أن المرأة لا تخرج إلا ليلًا إلى ليل، وعلينا أن نذكر نعمةَ الله عَزَّوَجَلَّ في زمننا هذا؛ حيث كان الإنسان قد يُسِّر له كل شيء، متى شاء قضى حاجتَهُ، وإذا قضاها يجد عنده ما يُريد من الماء الكثير الساخن المُهَيَّأ بكل سهولة.

٥- أن شهادة بدر عند الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا لها مكانُها وشأنُها، ولمَّا استأذن عُمَرُ ابن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ الرسولَ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في أن يقتل حاطبَ بنَ أبي بَلْتَعة قال له:

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ، رقم (٣٨٩٥)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، رقم (١٩٧٧).

....

= «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[1].

٦- أن المشروع للمرأة ألَّا تخرج من بيتها إلا بإذن زوجِهَا، وذلك في استئذان عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من النبيِّ ﷺ أن تأتيَ أبويها.

٧- أنه ينبغي للإنسان أن يُهوِّن الأمرَ على المصاب؛ لأن أُمَّ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «يَا بُنَيَّةُ! هَوِّنِي عَلَيْكِ» وذكرت السبب، وأنه قلَّما تكون امرأةٌ وضيئةٌ -أي: حسنة- وعند رجل يُحِبُّها، ولها ضرائرُ إلا كَثَّرن عليها، تعني: إلا تكلَّمنَ فيها، وهي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لم تقل: إن ضرائرك تكلَّمنَ فيكِ، ولكن قالت: «قَلَّمَا كَانَتْ» وهذا من باب التعريض، وفي التعريض مندوحةٌ عن الكذب.

ثم قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «سُبْحَانَ اللهِ! وَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟» وهذه الجملة على تقدير الهمزة، وفي نسخة بالهمزة: «أَوَلَقَدْ».

٨- شدة رقة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وإن كان هذا أمرًا ليس بغريب أنها بقيت تبكي كُلَّ الليل، لا يرْقَأُ لها دمعٌ؛ وذلك لأن المصيبةَ ليست بالهيِّنة؛ لأسباب:

الأول: أنها صحابية عفيفة من أُمَّهات المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الثاني: أنها زوجة الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وهذه المصيبة التي رُمِيَت بها مصيبةٌ عظيمةٌ أثقلُ من الجَبَل؛ فلهذا جعلت تبكي.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب الجاسوس، رقم (٣٠٠٧)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل حاطب وأهل بدر، رقم (٢٤٩٤/ ١٦١).

فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ يَسْتَأْمِرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ مِنَ الوُدِّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَهْلَكَ، وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَإِنْ تَسْأَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: «أَيْ بَرِيرَةُ! هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟» قَالَتْ بَرِيرَةُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ، فَتَأْكُلُهُ[١].

---

[١] قوله: «**يَا رَسُولَ اللهِ! أَهْلَكَ**» بالنصب، أي: الْزَمْ أَهْلَكَ، وفي نسخة: «يَا رَسُولَ اللهِ! أَهْلُكَ» بالرفع.

وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَيْ بَرِيرَةُ!**» هذا مُنادى.

وقولها: «**إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا**» «إِنْ» بمعنى: ما، فهي نافيةٌ، أي: ما رأيتُ عليها أمْرًا.

وفي هذه الجملة من الحديث فوائد، منها:

١ - استشارة الفاضل للمفضول؛ لاستشارة النبيِّ ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأُسامةَ ابن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

٢ - أنه يجب على المستشار أن يقول الحقَّ مهما كان الأمر، فأسامةُ بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أشار على النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بإمساك أهله؛ لأنه لا يعلم فيهم إلا خيرًا، ولم يذهب يتكلَّم بما أُشيع وما حصل.

....

٣- غَيْرَة القريب على قريبه؛ لقول عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «النِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ»؛ لأنه رأى أن رسولَ الله ﷺ قد شقَّ عليه ذلك، فأراد أن يُهوِّنَ الأمرَ عليه، وليس ذلك لبُغْضِه لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولكن لرأفتِهِ بابن عمِّه رسولِ الله ﷺ.

٤- أن التزكية يُكتفى فيها بقول القائل: ما نعلم إلا خيرًا؛ وذلك لقوْلِ أُسامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا».

٥- أن حُب النبيِّ ﷺ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كان معلومًا؛ لقولها: «**فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ مِنَ الوُدِّ**» وكذلك قول أُمِّ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حيث قالت: «**لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا**».

٦- أن عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تردَّد في الأمر؛ لقوله: «**وَإِنْ تَسْأَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ**» فكأنه أراد البراءةَ من عُهْدة هذا الشيء، بأن يسأل الجارِيَة، والجارية هي بَرِيرَةُ، ويُشْكِل على هذا: أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا اشترتها بعد ذلك، وأعتَقَتْها، وكانت مُكاتَبةً، وذكر العلماء في هذا ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الأول: أن تسميتها بَرِيرَةَ وهْمٌ.

الاحتمال الثاني: أنها جارية أُخْرَى، لكن طابقَتْها في الاسم.

الاحتمال الثالث: أنها كانت تخدم عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قبل أن تشتَرِيَها وتُعتقها.

٧- أن الخادم والعتيق وما أشبه ذلك تُقْبَلُ شهادته لِمَن هو عنده، وعلى مَن هو عنده؛ لأن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وافق عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يقل: هذه مَوْلَاتها قد تشهد

فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَاسْتَعْذَرَ يَوْمَئِذٍ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ: «**يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ! مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي؟ فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي**» فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ، إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا، فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ،

= لها أو قد تشهد عليها؛ لأن المَوْلَى والخادم إن كان صاحبُهُ قد أساء إليه فرُبَّما يشهد عليه، وإن كان يُحسِنُ إليه فرُبَّما يشهد له، لكن مع ذلك إذا كان ظاهِرُهُ العدالة فإنه مقبولُ الشَّهادة.

وأمَّا الحديث الوارد في أنه لا تُقْبَلُ شهادة التابع -وهو الخادم- لأهل البيت[1] فهذا محمولٌ -إن صح- على مَن لم تظهر عدالته، فأمَّا مَن ظهرت عدالته فإنه تُقْبَل شهادته.

٨- تأكيد المَدحِ بما يُشْبِه الذمَّ؛ لقول الجارية: «إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ».

٩- جواز بيان العَيْبِ إذا كان المقصودُ به النصحَ وإبداءَ الرأي؛ لقولها: «**أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ، فَتَأْكُلُهُ**» وقد يُقال: إن فيه تهوينَ العيب الأشدِّ بالعيب الأخفِّ؛ لأن قضية الإفْكِ أعظمُ من كونها تنامُ عن العجين، وتأتي الداجن، وتأكله.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب القضاء، باب من تُرَدُّ شهادته، رقم (٣٦٠٠)، وأحمد (٢/ ١٨١).

وَهُوَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ، فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ -وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ- فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ! لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ، تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ، فَتَثَاوَرَ الحَيَّانِ: الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى المِنْبَرِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ[١].

---

[١] قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا**» هو صفوانُ بن المُعطِّل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: «**فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الأَنْصَارِيُّ**» ذِكْرُ سعد بن مُعاذ فيه إشكالٌ؛ لأن سعد بن مُعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مات بعد غزوة الخندق بقليلٍ، وهذه القصة بعد نزول آية الحجاب، وكان نزول آية الحجاب في السَّنَة السادسة من الهجرة.

وفي هذه الجملة من الحديث فوائدُ، منها:

١- جواز الخُطبة على المنبر في غير يوم الجمعة؛ لقولها: «**فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ: «يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ! مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي؟»**» يعني: إذا فعلتُ به شيئًا يستحقه بما بلغني عنه من أذاه فمن الذي يَعْذِرُني؟ والمعنى: مَن الذي يتبيَّن له أني مُصيبٌ، فيَعْذِرُني بما فعلتُ؟ والمراد بالاستفهام هنا: تقريرُ العُذْر، وأنه معذورٌ، وليس المراد: حقيقة الاستفهام، بمعنى: أنه يسأل مَنْ يَعْذِرُهُ.

٢- أن الزوجة تُسَمَّى: أهلًا؛ لقوله: «**قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي**» ويدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ

....

= تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر:٦٥] وفي قصة نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود:٤٠] وإن كان يشمل الزوجة ومَن معها.

٣- قبولُ التزكية في قول القائل: «مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا»؛ لقوله ﷺ: «**مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا**» ولكن هل هذه تزكيةٌ مطلقًا، أو فيمَن عاشَرَ الإنسان وصَاحَبَهُ؟

الجواب: هي فيمَن عاشَرَهُ وصاحبَهُ؛ فإن الإنسان إذا عاشَرَ الشخص وصاحبه وطالتْ مدَّةُ صُحبته له، ولم يرَ إلا خيرًا، كان ذلك دليلًا على زكائه، بخلاف مَن لاقى شخصًا في السوق، وتبيَّن له من ظاهر حاله أنه ذو خيرٍ، فإن هذا لا يكفي، فكم من أُناس يُشاهدهم الإنسان في السُّوق، ويظنُّ أنهم أهلُ خيْرٍ، ولكنهم أهلُ شَرٍّ.

٤- أن الأَوْلَى الإبهامُ فيما يكون فيه ضررٌ على الغير أو فضيحة له؛ لقوله: «**وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا**».

٥- الاحتراز في التزكية، مثل: أن تقول: «لا أعلمُ عليه إلا خيرًا» وما أشبه ذلك؛ لأنك لست مُلازمًا له دائمًا في كل مكان وزمان حتى تستطيع أن تَنْفِيَ، وإنما تنفي العلم، فتقول: «ما عَلِمْتُ إلا كذا».

٦- فضيلة سعد بن مُعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه بادَرَ، وقال: «**يَا رَسُولَ اللهِ! أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ، إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا، فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ**» لكن لماذا قال في الذي من الأوس: نضرب عُنُقَهُ، وفي الآخر قال: نفعل فيه أمْرَكَ؟

الجواب: لأنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان سيِّدَ الأوس، فله أن يفعل بهم ما يراه مُصْلِحًا،

....

= وأمَّا الخزرج فليس هو سيِّدَهم، إنما سيِّدُهم سعدُ بنُ عُبادةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ولهذا قال: «فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَهُوَ سَيِّدُ الخَـزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُـلًا صَالِحًا، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ» إلى آخر ما ذكر.

٧- أن الإنسان الفاضلَ قد يكون له هَفْوَةٌ بسبب ما معه من الغَيْرَةِ والحميَّة؛ فإن سعدَ بنَ عُبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان من فُضلاء الصحابة، لكن حصلتْ منه هذه الهَفْوَةُ، مع أن سعدَ بنَ مُعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يقل: نقتله، ولكن قال: «أَمَرْتَنَا، فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ» ولكن كأنَّ سعدَ بن عُبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غَضِبَ، حتى ظنَّ أنه قال هكذا أو أنه ظن أنه يُعَرِّضُ بالقتل، فتكلَّم بهذا الكلام.

ولهذا قال: «وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا» ففي هذا أن هذه الكلمة أصابته، وحطَّت من رفعته من قبل، وهو كذلك؛ لأن هذه الكلمة ليست بالهيِّنة، أن يقول أمامَ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لهذا الرجل الفاضل الذي بادر، فتقدَّم، وقال: «يَا رَسُولَ اللهِ! أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ» ثم يقول له: «كَذَبْتَ».

٨- أن مَنْ أغضبَ الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واعتدى عليه أنه يُقْتَلُ؛ لأنَّ الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أقرَّ سعد بن مُعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٩- أن مثل هذه المسائل قد تكون سببًا للشرِّ؛ ولهذا قام بعد ذلك أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وردَّ عليه، فقال: «كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ! لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ، تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ» فصارت هذه الكلمة من سعد بن عُبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صارت كلمةً أثارت فتنةً، لولا أن الرسولَ عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سكَّتهم بحِكْمته.

قَالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، قَالَتْ: فَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، وَلَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، يَظُنَّانِ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، قَالَتْ: فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي، وَأَنَا أَبْكِي، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي.

قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ! فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَى اللهِ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ».

قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ، قَالَ: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ: إِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ -وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ- لَا تُصَدِّقُونَنِي بِذَلِكَ، ....

---

١٠ - أن الرسول عليه الصلاة والسلام مع عِظَم هيبته فإنَّ الشيطان قد يؤزُّ بعض الناس أمامَهُ، ويقول ما لا ينبغي أن يُقال بحضرتِهِ ﷺ، بدليل هذه القصة.

وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ -وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ- لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللهِ مَا أَجِدُ لَكُمْ مَثَلًا إِلَّا قَوْلَ أَبِي يُوسُفَ، قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

قَالَتْ: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ، فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا.

قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ؛ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي يُنْزَلُ عَلَيْهِ.

قَالَتْ: فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ سُرِّيَ عَنْهُ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا: «يَا عَائِشَةُ! أَمَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فَقَدْ بَرَّأَكِ» فَقَالَتْ أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: لَا وَاللهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ﴾ الْعَشْرَ الْآيَاتِ كُلَّهَا.

فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ؛ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ، وَفَقْرِهِ- وَاللهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللهِ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا.

قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: «يَا زَيْنَبُ! مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ؟» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَعَصَمَهَا اللهُ بِالوَرَعِ، وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصْحَابِ الإِفْكِ[١].

---

[١] من فوائد هذا الحديث:

١- جواز إخبار الإنسان بما جرى عليه من الآلام والمصائب إذا لم يقصد بذلك التشكِّيَ إلى المخلوق؛ لقول عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ».

٢- جواز البكاء مع الشخص المصاب؛ لفعل المرأة الأنصاريَّةِ، لكن لو قال قائلٌ: هل اطَّلع عليها الرسولُ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ حتى نعلم أنه أقرَّها؟

فالجواب أن نقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ قد اطَّلع، ولو كان هذا ممنوعًا لبيَّنه اللهُ تعالى لرسوله ﷺ؛ حتى يَنْهَى عنه.

٣- حكمةُ الله عَزَّوَجَلَّ في تأخير الفَرَج عن الإنسان؛ لتأخُّر الوحْيِ؛ فإنه ﷺ بقي شهرًا لا يُوحَى إليه، كل هذا لتمحيص المؤمنين، وبيان صبرهم، لا من الرسولِ ﷺ، ولا من عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، ولا من غيرها، ولو شاء الله عَزَّوَجَلَّ لأنْزَلَ الوحيَ من أوَّل يوم.

٤- أنه في الأمور الهامَّة إذا أراد الإنسان أن يتكلَّم فيها فإنه يتشهَّد ويخطبُ؛ لقولها: «فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ».

....

٥- أن الإنسان مهما كَمُل عقلُهُ فإن كثرة الكلام قد تُؤَثِّر عليه؛ لأن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو على المنبر قال: «**مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا**» ثم في الأخير يقول لها: «**فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَى اللهِ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**».

٦- الوعدُ من الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنَّ الله سيُبَرِّئ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إذا كانت بريئةً؛ لقوله: «**فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ**» وهل هذا شاملٌ لكل أحد، بمعنى: هل كل بريءٍ من ذنب يُقيم الله تعالى البينة في الدنيا على أنه بريء؟

الجواب: لا، فقد يُبْتَلى ويُصاب بذَنْبِهِ، ويكون ذلك تكفيرًا له من سيِّئات عَمِلَها ولم يشعرْ بها.

٧- أن الإنسان إذا صَدَقَ في توبته فإنَّ الله يتوبُ عليه؛ لقوله: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَى اللهِ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**» ولكن هذا الاعتراف هل يكون اعترافًا عند المخلوق أو اعترافًا لله عَزَّوَجَلَّ؟

الجواب: اعترافًا لله عَزَّوَجَلَّ، أمَّا بالنسبة لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فإنه لَمَّا كان أمْرُها مُتَعلِّقًا بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صار اعترافُها بذلك أمامَهُ من حقِّه لو كان.

٨- ذكاء عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لأنها طلبت من أبيها أن يُجيبَ الرسولَ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، وهي بالغةٌ في الذكاء، مع كونها حديثةَ السِّنِّ، ولا تقرأ شيئًا من القُرْآن.

....

= ٩- تقديم الأب في المحاجَّة على الأُمِّ؛ لأن الرجل أقدرُ على المحاجَّة من المرأة، ووجهه: أنها طلبت من أبيها أوَّلًا، قالت: «أَجِبْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ» قال: «وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ» فقالت لأمِّها: «أَجِيبِي رَسُولَ اللهِ ﷺ».

١٠- أن قراءة القرآن تزيد الإنسانَ في محاجَّته وعقله؛ لأن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تعلَّلت بأمرين: أنها حديثةُ السِّنِّ، وأنها لم تقرأ كثيرًا من القرآن.

١١- أن الإنسان مهما كان في قوَّة الحُجَّة والبيان إذا كَثُر الحديثُ فإنه قد يَعْجِزُ عن الإقناع؛ لقولها: «**لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ -وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ- لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ**» وذلك لأنه استقرَّ في نفوسهم من كثرة الكلام، ولو قالت: إني بريئة ما صدَّقوها، وقالوا: هذه امرأةٌ تُدافع عن نفسها، فلا تُصَدَّقُ «وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ -وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ- لَتُصَدِّقُنِّي» ولكنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لن تعترف بأمْرٍ وهي بريئةٌ منه؛ ولهذا لم تعترف، لكنها بيَّنت لهم أن توجيه السؤال لها لا فائدةَ فيه؛ لأنها إمَّا أن تعترف بما ليس بواقع، وإمَّا أن تتبرَّأ منه، فلا تُصَدَّقُ، وإن اعترفت بما ليس بواقع صدَّقوها؛ بناءً على اعترافها مع ما شاع عند الناس من هذا الكلام.

١٢- تفويض الأمرِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقولها: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

١٣- جواز التمثُّل بالقرآن، وتنزيله على الحال الحاضرة؛ لأنها قالت: «**وَاللهِ مَا أَجِدُ لَكُمْ مَثَلًا إِلَّا قَوْلَ أَبِي يُوسُفَ**: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾».

وقوله: ﴿فَصَبْرٌ﴾ خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ، تقديره: فصبري صبرٌ جميلٌ.

١٤- عِظَم منزلة الرسول ﷺ عند الله عَزَّوَجَلَّ، وعِظَم أَهْلِهِ وعِرْضِهِ، وذلك أن الله أنزل في هذه القضية قرآنًا يُتْلَى إلى يوم القيامة، وقرآنًا عظيمًا بليغًا كما يظهر ذلك لِمَن قرأه.

١٥- أن الإنسان ينبغي له أن يعرف قَدْر نفسه؛ لقولها: «**وَاللهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى**».

١٦- ثِقَل ما يعتري الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عند نزول الوحْيِ، ووجهه: أنه كان يتحدَّر منه العرقُ في الأيام الشاتية الباردة.

١٧- العمل بالرؤيا الصادقة؛ لقولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا».

١٨- جوازُ الضحك عند السرور؛ لقولها: «**سُرِّيَ عَنْهُ وَهُوَ يَضْحَكُ**».

١٩- أنه يُبْدَأ في الكلام بالأهم فالأهم؛ لأن الرسولَ ﷺ قال لها مُباشرةً: «**أَمَّا اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **فَقَدْ بَرَّأَكِ**» وهذا هو أعظمُ بُشْرى لها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٢٠- كرَمُ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حيث كان يُنفق على مِسْطَحِ بن أُثاثَةَ لقرابته منه، فقد كان ابنَ خالته.

٢١- أنه ينبغي للإنسان أن يَحْنَثَ إذا كان الحِنْثُ خيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَٰكِينَ﴾ [النور:٢٢] فإن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَلَفَ أَلَّا يُنْفِقَ على مِسْطَحٍ، ولكن الله قال: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾.

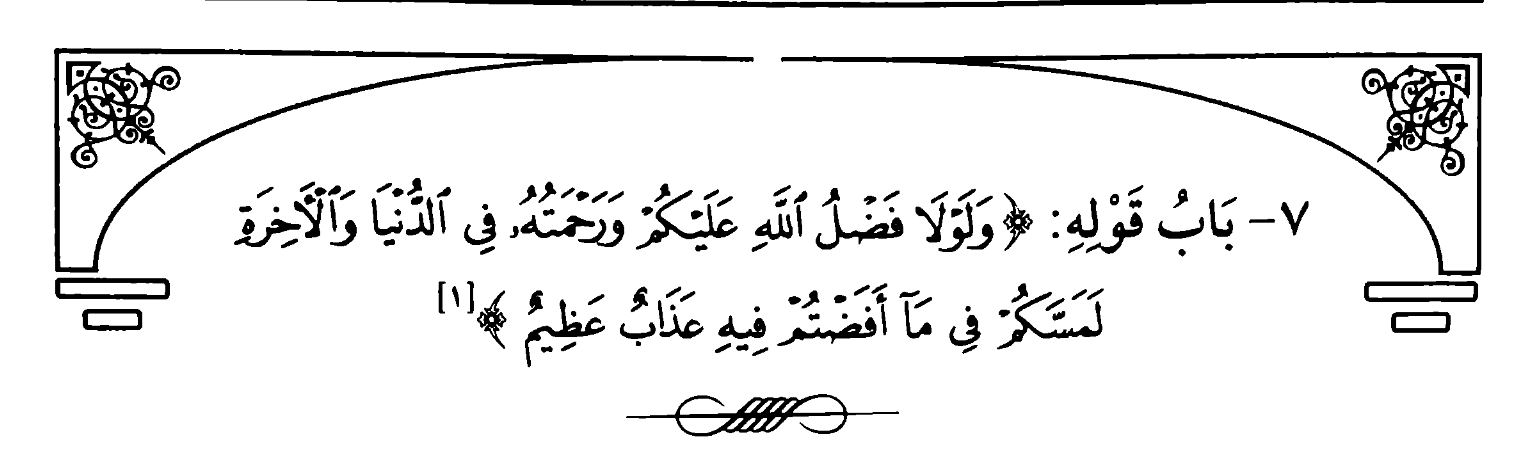
....

= فإذا قال قائل: هذا نهيٌ عن المستقبل، يعني: لا يحلف!

قلنا: إن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهم من ذلك أن الله تعالى يَكْرَهُ هذا الأمْرَ؛ لأن الله نَهَى عنه؛ ولهذا ردَّ النفقةَ.

٢٢- مَنْقَبَةٌ عظيمةٌ لزينبَ بنتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وذلك أنها حَمَتْ سمعها وبصرها من الكلام في عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مع أنها كانت ضرَّتها، والضرَّةُ في الغالب تُحِبُّ ضَرَرَ ضرَّتها، لكن مَنَعَها الورعُ والتقوى من أن تكلَّم بشيء لم تَرَه ولم تسمَعْهُ.





٧- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1]

[١] قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ﴾ بمعنى: أصابكم ﴿فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ أي: تكلَّمتم فيه كثيرًا، من: أفاض بالكلام إذا تكلَّم كثيرًا، ومنه: فيضان الوادي بالماء، إذا كَثُرت المياه فاضَ الوادي به.

و«لولا» في الآية شرطيَّة، وليست تحضيضيَّةً، بدليل الجواب: ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ وحَذْفُ الخبرِ هنا واجبٌ، وأمَّا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فإنها ليست خبرًا للمبتدأ، بل هي حال من ﴿فَضْلُ﴾.

ويُستفاد من الآية الكريمة: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فدلَّ هذا على ثبوت السبب، وتأثيرِهِ في المُسَبَّب، أو يُقال: إن وجه إثبات الأسباب قولُهُ: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ويكون ذِكْرُ الفضل والرحمة مانعًا، فيُستفاد منه: أن وجود الأسباب لا يقتضي وجودَ المُسبَّب إذا وُجِدَ المانع؛ فإن هذا الذي أفاضوا فيه يستحقُّون به العذاب العظيم، ولكن كان هناك مانعٌ، وهو فضل الله ورحمته.

إذن: فهذه الفائدة تشتمل على فائدتين:

الأولى: إثبات الأسباب.

الثانية: أن وجود الأسباب قد يَحُولُ بينه وبين المُسبَّبات وجودُ المانع، وهو فضلُ الله عليهم ورحمته.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ يَرْوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ.

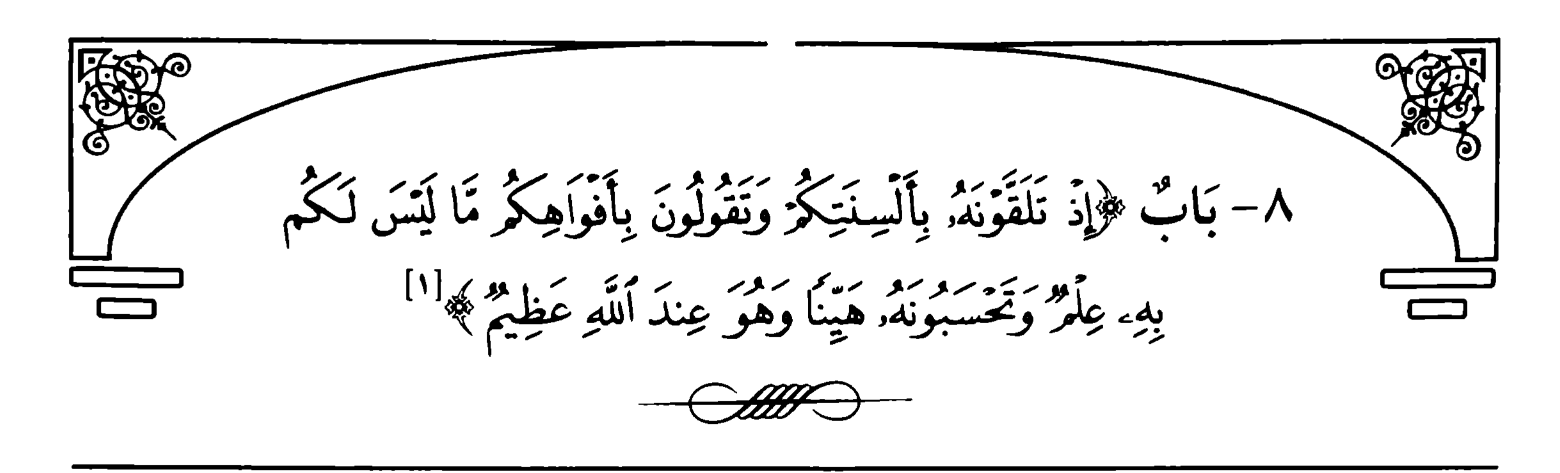
﴿تُفِيضُونَ﴾ تَقُولُونَ[١].

٤٧٥١ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ: أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ أُمِّ رُومَانَ أُمِّ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا رُمِيَتْ عَائِشَةُ خَرَّتْ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا.

---

[١] ليس في هذه السورة ذكر كلمة ﴿تُفِيضُونَ﴾ إنما فيها: ﴿أَفَضْتُمْ﴾ لكنها في آية أُخْرَى، قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [الأحقاف:٨] أي: بما تقولونه وتُكْثِرُون الحديثَ عنه.





٨- بَابُ ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[١]

[١] قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: يُلْقِيه بعضُكم إلى بعض باللسان، فهو مُجرَّد كلام سُمِعَ، وصار يتناقله الناسُ، وليس هناك حقيقةٌ له؛ ولهذا قال: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وأفواهكم جمع: فاهٍ، ويُغني عنه قوله: ﴿وَتَقُولُونَ﴾ لكن هذا من باب التوكيد، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام:٣٨].

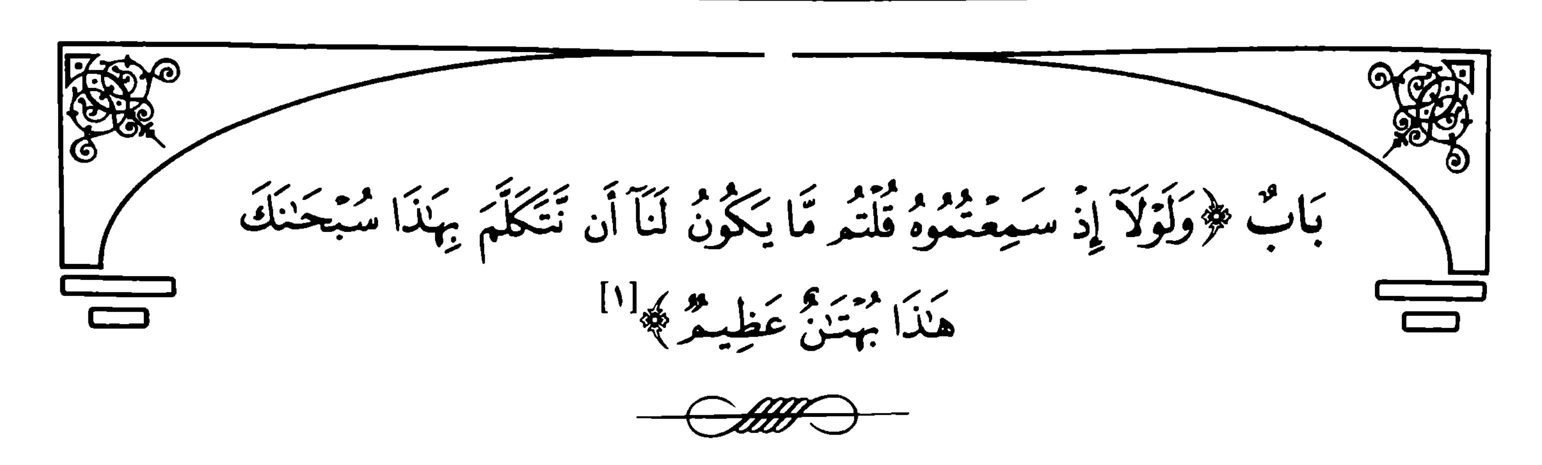
وقد يُقال: إنه ليس مُؤَكِّدًا، بل مُؤَسِّسٌ؛ لأن القول قد يكون بالنفس، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة:٨] ويُجاب عن ذلك بأن القول إذا كان المراد به القولَ في النفس فإنه يُقيَّدُ، ويُقال: «تقولون في أنفسكم» فالأصلُ أن القول بالفاه، ويكون قوله: ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾ مُؤَكِّدًا.

وهو دليلٌ على أنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يتحقَّقوا في الأمر، وإنما هي أقوالٌ، كما يُقال: سمعت الناس يقولون شيئًا، فقلتُه.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ أي: تظنُّون هذا الأمرَ هيِّنًا ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾؛ وذلك لأن هذا القَذْفَ عظيمٌ في المُحْصَنات، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فكيف إذا كان بأحصنِ النساءِ زوجةِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

٤٧٥٢- حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى: حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، أَنَّ ابْنَ جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ، قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: سَمِعْتُ عَائِشَةَ تَقْرَأُ: (إِذْ تَلِقُونَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ).





بَابٌ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾[١]

٤٧٥٣- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى: حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ عُمَرَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي حُسَيْنٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: اسْتَأْذَنَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَبْلَ مَوْتِهَا عَلَى عَائِشَةَ، وَهِيَ مَغْلُوبَةٌ، قَالَتْ: أَخْشَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ، فَقِيلَ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمِنْ وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ، قَالَتِ: ائْذَنُوا لَهُ، فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدِينَكِ؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ إِنِ اتَّقَيْتُ، قَالَ: فَأَنْتِ بِخَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللهُ، زَوْجَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَمْ يَنْكِحْ بِكْرًا غَيْرَكِ، وَنَزَلَ عُذْرُكِ مِنَ السَّمَاءِ، وَدَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ خِلَافَهُ، فَقَالَتْ: دَخَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَأَثْنَى عَلَيَّ، وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا.

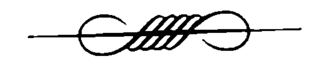
---

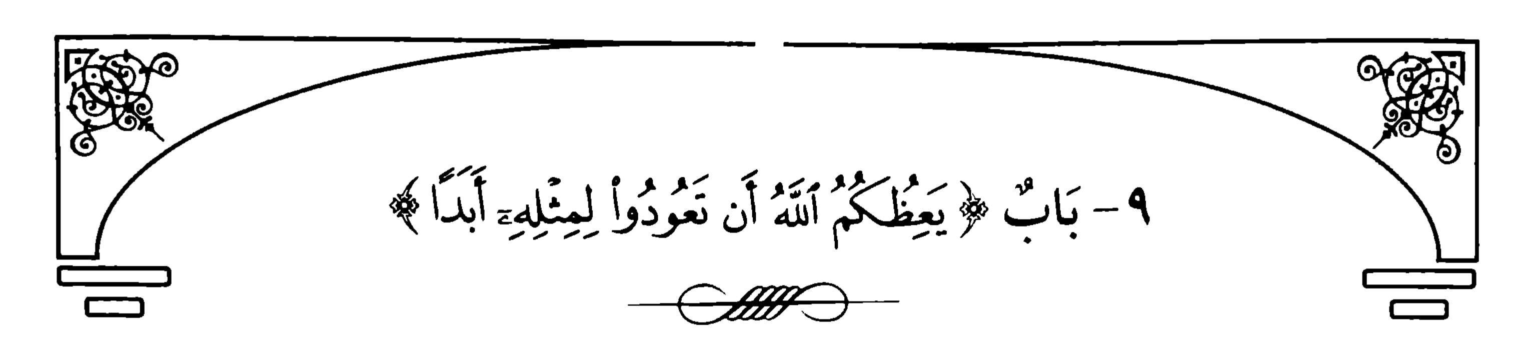
[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ «إذ» بمعنى: حين، فهي ظرفٌ، والمراد بـ: ﴿سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: ما قيل من الإفك ﴿قُلْتُم﴾ هذا جوابُ «لولا» ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ أي: أن هذا أمرٌ مستحيلٌ، ولا ينبغي لنا أبدًا أن نتكلَّم به.

ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ وما أعظمَ موقعَ هذه الجملة في هذا الموضع! يعني: نُنزِّهك أن يكون هذا واقعًا من فراش نبيِّك، فالتسبيح هنا في غاية ما يكون من الحُسْنِ!

وقوله: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: وقلتم: هذا بُهتانٌ عظيمٌ، والبُهتانُ هو الكذب، وكونه عظيمًا؛ لِما فيه من تدنيس عِرْض أُمِّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وفراشِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٤٧٥٤ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى: حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَهَّابِ بْنُ عَبْدِ الْمَجِيدِ: حَدَّثَنَا ابْنُ عَوْنٍ، عَنِ الْقَاسِمِ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى عَائِشَةَ نَحْوَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ: نِسْيًا مَنْسِيًّا.





٩- بَابُ ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾

٤٧٥٥- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: جَاءَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا، قُلْتُ: أَتَأْذَنِينَ لِهَذَا؟ قَالَتْ: أَوَلَيْسَ قَدْ أَصَابَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ؟! قَالَ سُفْيَانُ: تَعْنِي ذَهَابَ بَصَرِهِ، فَقَالَ:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ

قَالَتْ: لَكِنْ أَنْتَ[١].

---

[١] في هذا الحديث: دليلٌ على حِلْم عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأنها قد تجاوزت وعفَت، لا سِيَّما وأنها ترى أن الله عَزَّ وَجَلَّ قد عذَّبه بفَقْدِ البصر، وبإقامة الحدِّ عليه؛ لأن الرسول ﷺ أقام حدَّ القذف على ثلاثة، وهم المسلمون: حسان بن ثابت، ومِسْطَحٌ، وحَمْنَةُ، وأمَّا المنافقون الذين أشاعوا فإن منهم مَن لم يُصَرِّح، ولكن صار ينقل، يُقال: كذا، يُقال: كذا، ومنهم مَن ليس أهلًا للتطهير، فلم يُطَهِّره النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: «حَصَانٌ رَزَانٌ» الحَصَان: من الحصانة، وهي المُحْصَنة العفيفةُ، والرَّزَان: صفةٌ في العقل، يُقال: فلانٌ رزينٌ، أي: ثقيلٌ عاقلٌ متأنٍّ.

وقوله: «مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ» أي: لا تُتَّهم ولا تُرْمَى بها، بل هي بريئةٌ.

وقوله: «وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ» الغَرْثى: هي الخالية، والمراد: أنها لا تغتابُ أحدًا، فبطنها خالٍ من لحوم الناس، فوَصَفَها بأنها عفيفةٌ، وأنها سليمةٌ وأنها

....

= لا تُؤذي أحدًا، ولا تغتابه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقد قال حسَّانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمُ ... فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَامِلِي

وَإِنَّ الَّذِي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِلَائِطٍ ... بِهَا الدَّهْرَ، بَلْ قَوْلُ امْرِئٍ بِيَ مَاحِلِ[1]

فهل يُريد بذلك نَفْيَ أنه قَذَفَ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؟

الجواب: لا، بل هذا ثابتٌ، وأقام الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليه الحدَّ، ولكن يُريد أنه نادمٌ في هذا الشيء، وأنه يستحقُّ هذا.

وقوله: «لَكِنْ أَنْتَ» لم يُذْكَر الخبرُ، فيحتمل أن المعنى: لكن أنت قُلْتَ ما قُلْتَ، مع هذا القول الذي وصفْتَنِي به أني حَصَانٌ رَزَانٌ ما أُزَنُّ بريبة، ويحتمل أن المعنى: لكن أنت تُصْبِحُ غَرْثَى.

فإن قال قائل: كيف تقول عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حسان: «أَوَلَيْسَ قَدْ أَصَابَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ؟» مع أن الآية فيها: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ كما سبق من قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[2]؟

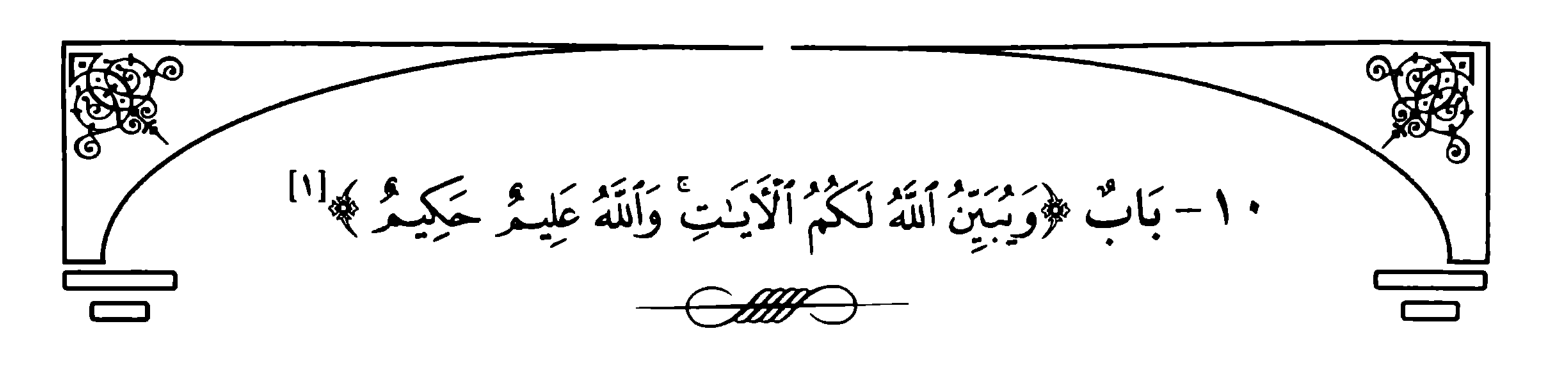
قلنا: قد يُجْمَع بينهما -إن كان محفوظًا أنه حسَّان- إمَّا بالرواية الثانية أنه منهم[3] أو يُقال: المراد بـ: ﴿تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ أنه أشدُّ مَن تولَّى هذا الأمْرَ من المسلمين.

---

(١) يُنْظَر: ديوان حسان، (ص:١٩١).

(٢) تقدم الحديث برقم (٤٧٤٩).

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ ١٣٥).



١٠ - بَابٌ ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1]

[١] قول الله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ هذا يدلُّ على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد بيَّن لعباده ويُبيِّن أيضًا، والآياتُ هي العلامات الدالَّة على وحدانيَّته وعظمته وحكمته ورحمته وغير ذلك، فالله تعالى لم يزل ولا يزال يُبيِّن الآياتِ التي تقوم بها الحُجَّة على العباد.

ومن فوائد هذه الآية: أنه لا شيءَ مُشْكِلٌ في الشرع، بل كلُّ الآيات الشرعية بيِّنةٌ واضحةٌ، ولكنَّ الوضوحَ والخفاء أمرانِ نسبيَّان، فقد يكون هذا الشيءُ خافيًا على شخص، ويكون واضحًا لشخص آخَر.

قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أمَّا العليم فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد علم كلَّ شيء جملةً وتفصيلًا، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج:٧٠] وهذا عِلْمٌ جُمليٌّ، وقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] وهذا عِلْمٌ تفصيليٌّ.

وأمَّا الحكيم فمأخوذٌ من الحُكْم والحِكْمة، والحُكْمُ نوعانِ: كونيٌّ وشرعيٌّ، والحكمةُ فيهما جميعًا.

والحِكْمة نوعان أيضًا: غائيَّة وصوريَّة، بمعنى: أن كون الشيء على هذه الصورة المُعيَّنة موافقٌ للحكمة، ثم الغايةُ الحميدةُ التي تترتَّب على هذا الشيء هي أيضًا من الحِكْمة.

٤٧٥٦- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ: أَنْبَأَنَا شُعْبَةُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: دَخَلَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ عَلَى عَائِشَةَ، فَشَبَّبَ، وَقَالَ:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ

قَالَتْ: لَسْتَ كَذَاكَ! قُلْتُ: تَدَعِينَ مِثْلَ هَذَا يَدْخُلُ عَلَيْكِ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾؟! فَقَالَتْ: وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ العَمَى؟! وَقَالَتْ: قَدْ كَانَ يَرُدُّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ[١].

---

[١] قولها: «لَسْتَ كَذَاكَ!» هذا ممَّا يُؤَيِّد أن المعنى في قولها فيما سبق: «لَكِنْ أَنْتَ» يعني: لم تَسْلَم منك الغوافِلُ، فلستَ مُصْبِحًا على هذا الوصف.

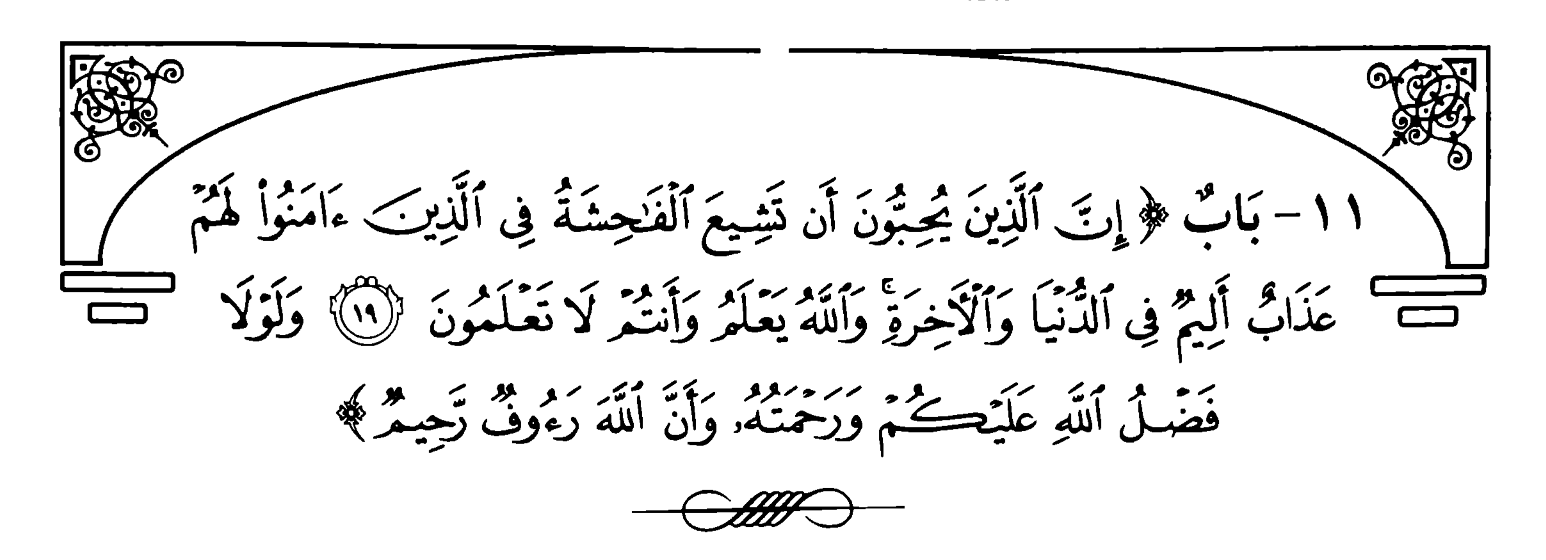
وقولها: «وَقَدْ كَانَ يَرُدُّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ» هذا هو الذي خفَّف عليها الأَمْرَ: أن حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يُناضل ويُدافع عن النبيِّ ﷺ، حتى إن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أحيانًا يقول: «اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ»(١) فيدعو الله تعالى أن يُؤَيِّدَهُ بجبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقوله: «فَشَبَّبَ» تفسيره قوله: «حَصَانٌ رَزَانٌ».



---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب هجاء المشركين، رقم (٦١٥٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٨٥/ ١٥١).



تَشِيعُ: تَظْهَرُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

---

[١] قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: تظهر وتنتشر، والفاحشة: كل ما يُسْتَفحشُ من قول أو فِعل، أمَّا من الفعل فظاهرٌ كالزِّنى ونكاح ذوات المحارم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢] وكاللِّوَاط، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف:٨٠].

وكذلك ما يُسْتَفْحَشُ من القول، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق:١] أي: بقولٍ مُنْكَرٍ مُسْتَفْحَشٍ.

فالذين يُحِبُّون أن تشيعَ الفاحشةُ في الذين آمنوا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مُؤْلِمٌ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهذا الوعيد من الله عَزَّوَجَلَّ لِمَن يُحِبُّ أن تشيعَ الفاحشةُ في المؤمنين، فكيف بمَن أشاعَها بنفسه؟!

....

= وفي هذا: دفاع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن المؤمنين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج:٣٨]؛ لأن مَن علم بهذا فسوف يتوقَّف عن إشاعة الفاحشة في المؤمنين.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ خبرُ المبتدإ محذوف هنا، وتقديره: موجودان، وكذلك جوابُ «لولا» محذوفٌ أيضًا، وتقديره: لعذَّبكم بما قلتم، وهو نظير قوله في الآية الثانية: ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة: أرَقُّ من الرحمة، فهي نوعٌ من أنواعها، والله تعالى موصوفٌ بهما: بأنه رؤوفٌ، وبأنه رحيمٌ، ولكن أهل التعطيل من الأشاعرة ونحوهم لا يُقِرُّون بالرحمة لله، ويُفَسِّرونها بإرادة الإحسان، أو بالإحسان نفسه، بمعنى: أنهم يُفَسِّرونها بالمفعولات، أو بإرادة المفعولات، وإنما لجؤوا إلى تفسيرها بالإرادة؛ لأنهم يُثبتون الإرادة، أو بالمفعولات؛ لأن المفعولات مُنْفَصلة عن الخالق عَزَّوَجَلَّ، وليست من صفاته، فهم يُفَسِّرونها تارةً بإرادة الإحسان، وتارةً بالإحسان.

والصواب: أن الرحمة غيرُ الإحسان، وأنها صفةٌ من صفات الله عَزَّوَجَلَّ الذاتيَّة التي لم يزل ولا يزال مُتَّصفًا بها، بل إنَّ رحمتَهُ سبقتْ غضبَهُ، وهم يدَّعون أن الرحمة رقَّةٌ تعتري الراحمَ ولينٌ حتى يرحم، والصواب خلاف ما قالوا؛ لوجهين:

الأول: أن هذا التفسير الذي فسَّروه إنما هو رحمةُ المخلوق، فأمَّا رحمة الخالق فإنها تليقُ به.

الثاني: أننا لا نُسَلِّم أن رحمة المخلوق تأتي من لينه وهدوئه مثلًا أو عدم عزمه وعدم قوَّته، بل أحيانًا تأتي مع كونه قادرًا وذا سلطان، فإن من الملوك والسلاطين مَن

....

= يرحمون الخلْق، ولا يجدون في صُدورهم ذلك اللِّين والرقَّة، لكن يرحمونهم لصفة في نفوسهم.

وعلى كل حال: فالوجهُ الأول من الجواب هو المُفْحِم.

وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ ﴿يَأْتَلِ﴾ أي: يحلف، من الألِيَّة، وهي الحَلِفُ، وهي مجزومةٌ بحذف الياء، وأصلها: «يأتلي» بالياء، وحُذِفَت الياء للجازم.

وقوله: ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ «أن» مصدرية، وحرفُ الجرِّ محذوفٌ، والتقدير: عن إتيانهم.

وقوله: ﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: أصحاب القُرْبى، والقُرْبى هي القرابة.

وقوله: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ جمع مسكين، وهم الفقراءُ الذين لا مالَ لهم، وسُمُّوا مساكين من السكون؛ لأن الفقر أَسْكَنهم؛ ولهذا تجد الفقيرَ دائمًا ذليلًا، لا يَقْدِرُ على أن يتكلَّم، ولا أن يُخاصم، ولا يُصَدَّر في المجالس.

وقوله: ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المهاجِرُ هو مَن هجر الشيء، ويُطْلَق على مَن هَجَرَ المعاصيَ؛ لقول الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**المُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**»[1] ويُطْلَق على المهاجر بَلَدَهُ، أي: الذي خرج من بلده (بلد الكُفْر) إلى بلد الإسلام، ولكن لابُدَّ من النية الخالصة؛ لقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ الضمير يعود على أُولي الفضل، واللام في قوله: ﴿وَلْيَعْفُواْ﴾

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم (١٠).

....

= لام الأمرِ؛ ولهذا سُكِّنت؛ لأن لام الأمر تُسَكَّنُ بعد ثلاثة حروف من حروف العطف: «الواو»، و«الفاء»، و«ثم» قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج:١٥].

أمَّا لام التعليل فإنه يجب أن تكون مكسورةً ولو اقترنت بها الواو والفاء و«ثم»؛ ولهذا يغلط كثير من القُرَّاء، يقول: «لِيكفروا بما آتيناهم ولْيتمتعوا» فيُسَكِّن اللامَ، وهذا خطأٌ، بل يكسرها، ويقول: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ إذا قال قائل: ما الفرق بين العفو والصفح؟

نقول: العَفْوُ هو عدم المؤاخذة، والصفح: الإعراض عن الإساءة بالكليَّة، بحيث يُوَلِّي مَن ظلمه وأخطأ عليه صَفْحَةَ عُنُقه، كأنَّ شيئًا لم يكن؛ لأن الإنسان قد يعفو ويتجاوز، ولا يُؤَاخِذ، لكن يبقى في نفسه حُسَيْكَةٌ، فإذا قيل: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ صار معنى هذا: كأنَّ شيئًا لم يكن، أي: أَعْرِض عن هذا نهائيًّا، وولِّه صَفْحَةَ عُنُقِكَ.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وهذا عرضٌ عظيمٌ، والجواب: بلى؛ ولهذا قال أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «بَلَى وَاللهِ يَا رَبَّنَا! إِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا» فردَّ النفقةَ على مِسْطَحٍ بعد أن كان حَلَفَ ألَّا يُنفق عليه.

ولا تظنَّ أن هذه خاصَّة في هذه القضية، بل كل إنسان يُقال له: «ألا تحب أن يغفر الله لك؟» فسيقول: بلى، فنقول: افعل الأسبابَ، فاستغفرِ اللهَ، وأَكْثِرْ من الأعمالِ الصالحةِ؛ لأنَّ الأعمال الصالحة يُذْهِبن السيئاتِ، أمَّا أنْ يقولَ: أنا أُحِبُّ أن يغفر الله لي ما اقترفتُه من الغِيبَةِ، وهو مستمرٌّ عليها، فهذا غيرُ صحيحٍ أنه يحبُّ ذلك.

٤٧٥٧- وَقَالَ أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُـرْوَةَ، قَالَ: أَخْـبَرَنِي أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: لَمَّا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِي الَّذِي ذُكِرَ، وَمَا عَلِمْتُ بِهِ، قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيَّ خَطِيبًا، فَتَشَهَّدَ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاسٍ أَبَنُوا أَهْلِي، وَايْمُ اللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبَنُوهُمْ بِمَنْ وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَطُّ، ....

وكذلك لو قيل لرجل: صلِّ يا فلان! فيقول: الله يهديني، ثم لا يُصَلِّي، فهذا لا يحبُّ الهدايةَ، ولكنه أراد أن يُحمِّل اللَّوْمَ ربَّهُ، فيكون مُشابهًا لِمَن قال الله فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل:٣٥] فكلُّ إنسان يقول ما لا يفعل، ولا يُصَدِّق قولَه فعلُه فهو كاذبٌ؛ ولهذا قال المنافقون: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فقال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١] وإن قالوا ذلك؛ لأن الشاهد بالحقِّ لابُدَّ أن تظهر عليه علاماتُهُ، ويقوم بالحق، فالذي يقول: أنا أحبُّ أن يغفر الله لي، نقول له: إذن افعل أسبابَ المغفرة.

وهذا كما لو قال رجل: أنا أُحِبُّ أن يرزقني الله ولدًا صالحًا، فيُقال له: تزوَّج! ثم لا يتزوَّجُ، وهو قادرٌ على الزواج، مُستطيع للباءة مادِّيًّا وجسميًّا، فهذا كاذب في قوله؛ لأن مَن قال بصِدْقٍ، وعنده قدرةٌ وعزيمةٌ، فلابُدَّ أن يَفْعَلَ.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الغفور: هو ذو المغفرة، والمغفرة: التجاوز عن الذنب مع السَّتْر، والرحيم: هو ذو الرحمة الواصلة إلى المرحوم، والله عَزَّوَجَلَّ يقرن بين المغفرة والرحمة كثيرًا؛ لأن بالمغفرة زوالَ المكروه، وبالرحمة حصولَ المطلوب.

وَلَا يَدْخُلُ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا حَاضِرٌ، وَلَا غِبْتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِي» فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: ائْذَنْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ نَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، وَقَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي الخَزْرَجِ، وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ مِنْ رَهْطِ ذَلِكَ الرَّجُلِ، فَقَالَ: كَذَبْتَ! أَمَا وَاللهِ أَنْ لَوْ كَانُوا مِنَ الأَوْسِ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ تُضْرَبَ أَعْنَاقُهُمْ! حَتَّى كَادَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ شَرٌّ فِي المَسْجِدِ، وَمَا عَلِمْتُ[1].

فَلَمَّا كَانَ مَسَاءُ ذَلِكَ اليَوْمِ خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي، وَمَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ، فَعَثَرَتْ، وَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ! فَقُلْتُ: أَيْ أُمِّ! تَسُبِّينَ ابْنَكِ؟! وَسَكَتَتْ، ثُمَّ عَثَرَتِ الثَّانِيَةَ، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ! فَقُلْتُ لَهَا: أَيْ أُمِّ! أَتَسُبِّينَ ابْنَكِ؟! فَسَكَتَتْ، ثُمَّ عَثَرَتِ الثَّالِثَةَ، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ! فَانْتَهَرْتُهَا، فَقَالَتْ: وَاللهِ مَا أَسُبُّهُ إِلَّا فِيكِ، فَقُلْتُ: فِي أَيِّ شَأْنِي؟ قَالَتْ: فَبَقَرَتْ لِي الحَدِيثَ، فَقُلْتُ: وَقَدْ كَانَ هَذَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ وَاللهِ، فَرَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي كَأَنَّ الَّذِي خَرَجْتُ لَهُ لَا أَجِدُ مِنْهُ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، وَوُعِكْتُ، فَقُلْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرْسِلْنِي إِلَى بَيْتِ أَبِي، فَأَرْسَلَ مَعِي الغُلَامَ، فَدَخَلْتُ الدَّارَ، فَوَجَدْتُ أُمَّ رُومَانَ فِي السُّفْلِ، وَأَبَا بَكْرٍ فَوْقَ البَيْتِ يَقْرَأُ، فَقَالَتْ أُمِّي: مَا جَاءَ بِكِ يَا بُنَيَّةُ؟ فَأَخْبَرْتُهَا، وَذَكَرْتُ لَهَا الحَدِيثَ، وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مِثْلَ مَا بَلَغَ مِنِّي، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ! خَفِّضِي عَلَيْكِ الشَّأْنَ، فَإِنَّهُ وَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا حَسَدْنَهَا،..................

---

[١] عروة -أبو هشام- هو أحد الفقهاء السبعة، رَحِمَهُمُاللَّهُ.

وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَبَنُوا أَهْلِي**» بمعنى: اتَّهموا.

وَقِيلَ فِيهَا، وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنهَا مَا بَلَغَ مِنِّي، قُلْتُ: وَقَدْ عَلِمَ بِهِ أَبِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قُلْتُ: وَرَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ، وَاسْتَعْبَرْتُ، وَبَكَيْتُ، فَسَمِعَ أَبُو بَكْرٍ صَوْتِي، وَهُوَ فَوْقَ البَيْتِ يَقْرَأُ، فَنَزَلَ، فَقَالَ لِأُمِّي: مَا شَأْنُهَا؟ قَالَتْ: بَلَغَهَا الَّذِي ذُكِرَ مِنْ شَأْنِهَا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، قَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكِ أَيْ بُنَيَّةُ إِلَّا رَجَعْتِ إِلَى بَيْتِكِ، فَرَجَعْتُ.

وَلَقَدْ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْتِي، فَسَأَلَ عَنِّي خَادِمَتِي، فَقَالَتْ: لَا وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا عَيْبًا، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ تَرْقُدُ حَتَّى تَدْخُلَ الشَّاةُ، فَتَأْكُلَ خَمِيرَهَا أَوْ عَجِينَهَا، وَانْتَهَرَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اصْدُقِي رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى أَسْقَطُوا لَهَا بِهِ، فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللهِ! وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا يَعْلَمُ الصَّائِغُ عَلَى تِبْرِ الذَّهَبِ الأَحْمَرِ.

وَبَلَغَ الأَمْرُ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي قِيلَ لَهُ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! وَاللهِ مَا كَشَفْتُ كَنَفَ أُنْثَى قَطُّ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُتِلَ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللهِ[١].

---

[١] قولها: «أَيْ أُمِّ!» «أي» حرف نداء، قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلِلْمُنَادَى النَّاءِ أَوْ كَالنَّاءِ «يَا» ... وَ«أَيْ» وَ«آ» كَذَا «أَيَا» ثُمَّ «هَيَا»

وَالهَمْزُ لِلدَّانِي، وَ«وَا» لِمَنْ نُدِبْ ... أَوْ «أَيَا» ....(١)

وقوله: «وَبَلَغَ الأَمْرُ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي قِيلَ لَهُ» هو صفوانُ بن المُعَطِّل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) تمام البيت: «وَغَيْرُ «وَا» لَدَى اللَّبْسِ اجْتُنِبْ»، ويُنْظَر: شرح ابن عقيل (٣/ ٢٥٥).

قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، فَلَمْ يَزَالا حَتَّى دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَدْ صَلَّى العَصْرَ، ثُمَّ دَخَلَ، وَقَدِ اكْتَنَفَنِي أَبَوَايَ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ! إِنْ كُنْتِ قَارَفْتِ سُوءًا أَوْ ظَلَمْتِ فَتُوبِي إِلَى اللهِ، فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادِهِ**».

قَالَتْ: وَقَدْ جَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَهِيَ جَالِسَةٌ بِالبَابِ، فَقُلْتُ: أَلَا تَسْتَحْيِ مِنْ هَذِهِ المَرْأَةِ أَنْ تَذْكُرَ شَيْئًا؟! فَوَعَظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَالْتَفَتُّ إِلَى أَبِي، فَقُلْتُ لَهُ: أَجِبْهُ، قَالَ: فَمَاذَا أَقُولُ؟ فَالْتَفَتُّ إِلَى أُمِّي، فَقُلْتُ: أَجِيبِيهِ، فَقَالَتْ: أَقُولُ مَاذَا؟ فَلَمَّا لَمْ يُجِيبَاهُ تَشَهَّدْتُ، فَحَمِدْتُ اللهَ، وَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَّا بَعْدُ فَوَاللهِ لَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي لَمْ أَفْعَلْ -وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ يَشْهَدُ إِنِّي لَصَادِقَةٌ- مَا ذَاكَ بِنَافِعِي عِنْدَكُمْ، لَقَدْ تَكَلَّمْتُمْ بِهِ وَأُشْرِبَتْهُ قُلُوبُكُمْ، وَإِنْ قُلْتُ: إِنِّي قَدْ فَعَلْتُ -وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ- لَتَقُولُنَّ: قَدْ بَاءَتْ بِهِ عَلَى نَفْسِهَا، وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا -وَالْتَمَسْتُ اسْمَ يَعْقُوبَ، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ- إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

وَأُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ سَاعَتِهِ، فَسَكَتْنَا، فَرُفِعَ عَنْهُ، وَإِنِّي لَأَتَبَيَّنُ السُّرُورَ فِي وَجْهِهِ، وَهُوَ يَمْسَحُ جَبِينَهُ، وَيَقُولُ: «**أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ! فَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتَكِ**» قَالَتْ: وَكُنْتُ أَشَدَّ مَا كُنْتُ غَضَبًا، فَقَالَ لِي أَبَوَايَ: قُومِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: لَا وَاللهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُهُ، وَلَا أَحْمَدُكُمَا، وَلَكِنْ أَحْمَدُ اللهَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي، لَقَدْ سَمِعْتُمُوهُ، فَمَا أَنْكَرْتُمُوهُ، وَلَا غَيَّرْتُمُوهُ.

وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: أَمَّا زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ فَعَصَمَهَا اللهُ بِدِينِهَا، فَلَمْ تَقُلْ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا أُخْتُهَا حَمْنَةُ فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مِسْطَحٌ وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَالْمُنَافِقُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ وَيَجْمَعُهُ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ هُوَ وَحَمْنَةُ، قَالَتْ: فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ لَا يَنْفَعَ مِسْطَحًا بِنَافِعَةٍ أَبَدًا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، يَعْنِي: أَبَا بَكْرٍ ﴿وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ﴾ يَعْنِي: مِسْطَحًا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حَتَّى قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللهِ يَا رَبَّنَا! إِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا، وَعَادَ لَهُ بِمَا كَانَ يَصْنَعُ[١].

---

[١] قولها: «أَلَا تَسْتَحْيِي مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَذْكُرَ شَيْئًا؟!» الضمير في «أَنْ تَذْكُرَ» هل يعودُ على المرأة، أو على الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

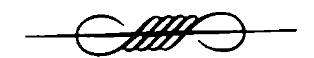
الجواب: يعودُ على المرأة، أي: ألا تستحيي أن تذكر المرأة شيئًا في امرأتك التي هي فراشُكَ؟!

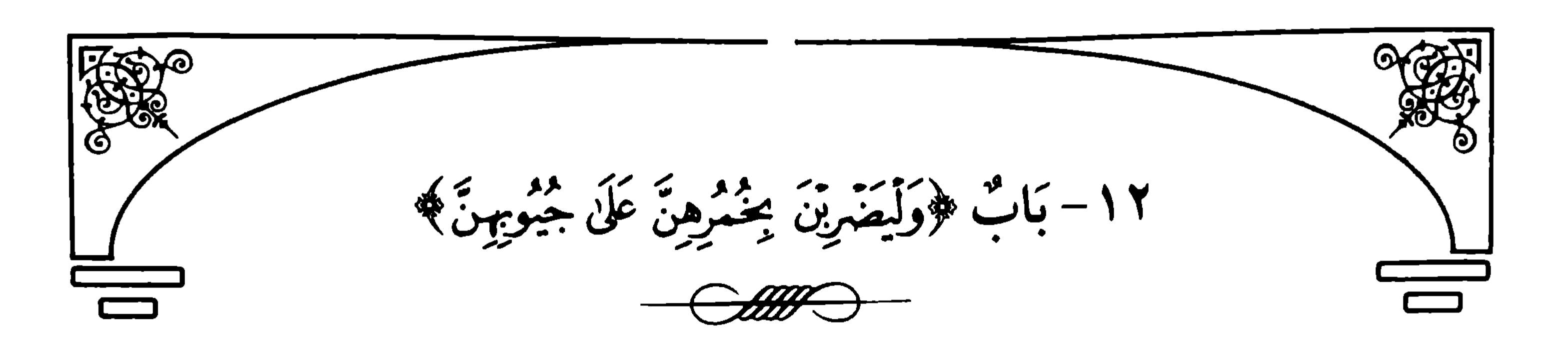
وقولها: «وَالْتَمَسْتُ اسْمَ يَعْقُوبَ، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ» تعني: أنها نَسِيَتِ الاسم، ونحن نقول قريبًا من هذا، إذا نَسِيَ الواحد قال: دوَّرت هذه الكلمة، أو دوَّرت المعنى، وأمَّا قولهم: «خانني التعبير» فالمراد: أنه أراد أن يُعبِّر بفصاحةٍ وعَجَزَ.

وقولها: «لَقَدْ سَمِعْتُمُوهُ فَمَا أَنْكَرْتُمُوهُ، وَلَا غَيَّرْتُمُوهُ» هذه المسألة مشكلةٌ؛ لأن تغييرَهُم وإنكارَهُم دفع دعوى عليهم، ولو كانت على الغير كان يمكن الإنسان أن يُدافع، لكن إذا كانت على أحد من قبيلته أو أهله فإنه لو قال وأنكر ما استطاع؛ لأن الناس يقولون: إنما يدفع عن نفسه، فلا يُصدِّقونه.

....

= ولكن نحن نعلم عِلْمَ اليقين أن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لو تكلَّم بشيء ما تكلَّم أحدٌ، لكن هذا أمرٌ أراده الله عَزَّوَجَلَّ، والنبيُّ ﷺ بَشَرٌ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] ولو أن المسألة حُلَّت من أول الأمرِ، ونهى الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يتكلَّم أحدٌ بشيء، ما حَصَلَ أن ينزل فيها عشرُ آياتٍ من القرآن تُتْلَى إلى يوم القيامة في كل مِحْراب، وعلى كل منبرٍ، ولكن الله جَلَّوَعَلَا حَكِيمٌ.





١٢- بَابٌ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾

٤٧٥٨- وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ شَبِيبٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ يُونُسَ، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: يَرْحَمُ اللهُ نِسَاءَ المُهَاجِرَاتِ الأُوَلَ، لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ، فَاخْتَمَرْنَ بِهِ[١].

٤٧٥٩- حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ نَافِعٍ، عَنِ الحَسَنِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ تَقُولُ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أَخَذْنَ أُزْرَهُنَّ، فَشَقَّقْنَهَا مِنْ قِبَلِ الحَوَاشِي، فَاخْتَمَرْنَ بِهَا[٢].

---

[١] قول البخاريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ عن شيخه: «وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ شَبِيبٍ» هذا صفتُهُ صفة تعليقٍ، لكن لَمَّا كان شيخًا له فإنه يُحْمَل على السماع؛ لأن البخاريَّ رَحِمَهُ اللَّهُ ليس من المُدَلِّسين حتى نقول: إنه لا يُحْمَل على السماع إلا ما صرَّح بالتحديث فيه.

[٢] قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ اللام هنا لام الأمْرِ، والفعل ليس مجزومًا بها، ولكنه مَبْنِيٌّ على السكون؛ لاتِّصاله بنون النسوة.

وقوله: ﴿بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أي: بحيث يكون الخمار نازلًا من الرأس على الوجه على الجيب؛ لأجل أن يستر الوجهَ والنَّحْرَ سترًا كاملًا.

وقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ هذا الاستثناء اختلف فيه

....

= المُفَسِّرون، فمنهم مَن قال: المراد: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ من الوجه والكفين، ومنهم مَن يقول: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: اللباس الذي جرت العادة بظهوره.

وإذا نظرنا إلى القولين وجدنا أن القول الثاني أصحُّ؛ لوجهين:

الأول: أن الوجه واليد لا يُسَمَّيان: زينةً، وإنما الذي يُسَمَّى زينةً هو اللباس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف:٣١] ولقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ [الأعراف:٣٢] ولقوله: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف:٤٦] فالزينة: ما يتزيَّنُ به الشيء ويتجمَّل به، وحينئذٍ يكون خارجًا عنه.

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ لو كان المراد به: الوجه واليدين لقال: «إلا ما أَظْهَرْنَ» وإلا لم يكن هناك فَرْقٌ بين الرأس والوجه، فإن الرأس بارزٌ ظاهرٌ.

فالصواب بلا شَكٍّ: أن المراد بقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: من الزينة المعتادة التي جرت العادة بظهورها، كما فسَّره بذلك ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنه الرداء والجلباب ونحوها[1].

وقوله: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ هل المراد بالزينة هنا: الزينة الأُولى أو غيرُها؟

---

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٧/ ٢٥٦). ت. التركي.

....

الجواب: المراد غيرُها، بدليل: أنه في الأول عمَّم: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعني: لأيِّ أحدٍ ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ثم قال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فهذه زينةٌ غيرُ الأُولى، وهي الزينة التي جرت العادة بإخفائها عن عامَّة الناس، مثل: ثياب التجمُّل المعتادة التي تكون في البيوت ولا تكون في الأسواق.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ يعني: الأزواج؛ لقوله تعالى عن امرأة إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود:٧٢].

وقوله: ﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ هذا يدلُّ على أن أبا الزوج كالأب مَحْرَمٌ من المحارم، وكذلك قوله: ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ فابن الزوج -سواء كان من زوجة قَبْلَها أو بعدها- مَحْرَمٌ لزوجة أبيه.

ولم يذكر في هذه الآية العم والخال، مع أن العم والخال من المحارم، بدليل قوله تعالى في سورة النساء: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء:٢٣] فبنات الأخ تكون أنت عمَّها، وبنات الأخت تكون خالَها، فهم من المحارم، لكن لماذا لم يذكرهم هنا؟

الجواب: قال بعض العلماء: لم يذكرهم؛ لأن هؤلاء حلالٌ لأبناء العم والخال، ويُخْشَى أن ينعتها لأبنائه؛ لأنه يراها، وابنه لا يراها، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ اختلف العلماء في المراد بالضمير هنا، فقال بعضهم: المراد بـ: ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ المؤمنات، كقوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ وبناءً على هذا الرأي لا يجوز للمرأة المؤمنة أن تُبْدِي زينتها لغير المؤمنة؛ لأنه قال: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾.

= وقال بعض أهـل العلم: المراد بـ: ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ النساء، فالإضافةُ هنا إضافةٌ إلى الجنس لا إلى النوع، يعنـي: النساء اللاتي من جنسهنَّ، وعلَّلوا ذلك بأنه لا فَرْقَ بين المؤمنة والكافرة فيما يتعلَّق بالرغبة في المرأة؛ لأن المسألة هنا حمايةٌ عن الزِّنى، ونظر المرأة إلى المرأة لا يختلف فيه الإيمان والكفر.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ يعني: العبيدَ، فيجوز للمرأة أن تُبدي زينتها لمملوكها، لكنها ليست حرامًا عليه، وليس هو مَحْرَمًا لها، فباب النظر أوسعُ من باب المحرميَّة، لكن إذا أخرجته عن ملكها جاز له أن يتزوَّج بها.

إذن: نأخذ من هذا قاعدةً، وهي: أنه ليس كل مَن جاز النظر إليها صارت مَحْرَمًا، لكن كلُّ مَن صارت مَحْرَمًا يجوز النظر إليها؛ لأن النظر أوسع من باب المحرميَّة؛ ولهذا يجوز للإنسان أن ينظر إلى المرأة عند الحاجـة، كالمرض، والإنقاذ من الغرق، بل إن الفقهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ توسَّعوا في ذلك، حتى قالوا: يجوز للإنسان أن ينظر إلى وجه المشهود عليها لو أراد أن يشهد على امرأة، وهذا هو الذي جعل بعض أهل العلم يُجوِّزون للمرأة أن تُصوِّر الصورة لإثبات شخصيتها؛ لأنه إذا جاز للإنسان أن ينظر إلى المرأة التي يشهد عليها لإثبات الشخصية فالتصوير أدنى تعلُّقًا من النظر إلى حقيقة المرأة، وإن كان التصوير أشدَّ فتنةً من جهة أُخرى؛ لأنه في التصوير تُحْمَل الصورة، ورُبَّما تُعْرَض للناس، وما أشبه هذا.

وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ التابعون هم الخَدَم، لكن اشترط الله فيهم ألَّا يكونوا من ذوي الإربة، أي: ليس لهم رغبةٌ في النكاح، إمَّا لأن طبيعتهم لا يُوجَد فيها الرغبة في النساء، أو لكِبَرِهم، أو لمرضهم، أو لغير ذلك.

....

وقوله: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ إذا قال قائل: لماذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وهو وصف لمُفْرَد؟

نقول: لأن ﴿ٱلطِّفْلِ﴾ اسم جنس يشمل الواحدَ والمُتعَدِّدَ، فهو بمعنى: الأطفال، والمُفْرَد يأتي بمعنى الجمع كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤] أي: اجعلنا أئمَّةً للمتقين.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: ليس له غرضٌ في عورة المرأة، وهو كِنايةٌ عن أنه لم تدبَّ فيه الشهوة بعدُ، فهو طفلٌ ما وعى إلى الآن، وهذا يختلف باختلاف الأطفال؛ لأن من الأطفال مَن لا ينظر إلى هذا الأمر؛ لكونه عاش في بيته، ولم يتَّصل بأحد يتحدَّث عن هذه الأمور، فهذا يتأخر تعلُّقه بالنساء، ومن الأطفال مَن يُجالس أُناسًا يتحدَّثون في هذه الأمور، فتَدِبُّ فيه الرغبة.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ المراد بالزينة هنا: ما تلبسه من الحليِّ، كالخِلْخَال، فهي ساترةٌ لها، لكن لا يجوز أن تَضْرِبَ برِجْلِها حتى يُعْلَم أنَّ عليها خِلْخالًا، لكن كيف يُعْلَم ذلك إذا ضربت برِجْلِها؟

نقول: بصوته، فإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ نهى أن تضرب المرأة بِرجْلِها؛ خوفًا من أن يُسْمَع الخلخالُ فما بالك بمَن تُخرج ذِراعَها المملوءة بالذهب؟! فإذا كان الأول مُحرَّمًا فهذا أشدُّ، وهو من بابٍ أَوْلَى؛ لأن الأول مستورٌ ومُغَطًّى، فقد حُرِمَ الإنسان فيه لذَّة النظر، وغاية ما هنالك الصوت، ويجوز أنها جعلت خلخالًا من التَّنَك، ووضعت فيه حصًى، وقام يقرقش، لكن هذا الذي يُرى على أذرعتهنَّ يتعلَّق به النظر، وإن كان له أصوات تعلَّق به السمع أيضًا.

= ثم أمرَ اللهُ تعالى بالتوبة الجماعية، فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى يُعين بعضُنا بعضًا على التوبة، ونكون كأننا جسدٌ واحدٌ نتوب إلى الله جميعًا.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ «لعل» هنا للتعليل، أي: لأجل الفلاح، والفلاح معناه: طول البقاء مع النجاة من المرهوب، والحصول على المطلوب، قال الشاعر:

لِكُلِّ أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ سَعَهْ ... وَالْمُسْيُ وَالصُّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَهْ[1]

أي: لا بقاءَ معه، بل لابُدَّ من الفناء، ويحتمل أن الشاعر يُريد بقوله: «لَا فَلَاحَ مَعَهُ» أي: لا نجاةَ من الموت، فيكون الاقتصار على تفسير الفلاح بأنه النجاة من المرهوب وحصول المطلوب أَوْلَى من أن نقولَ: إنه يُطْلَق على البقاء أيضًا.

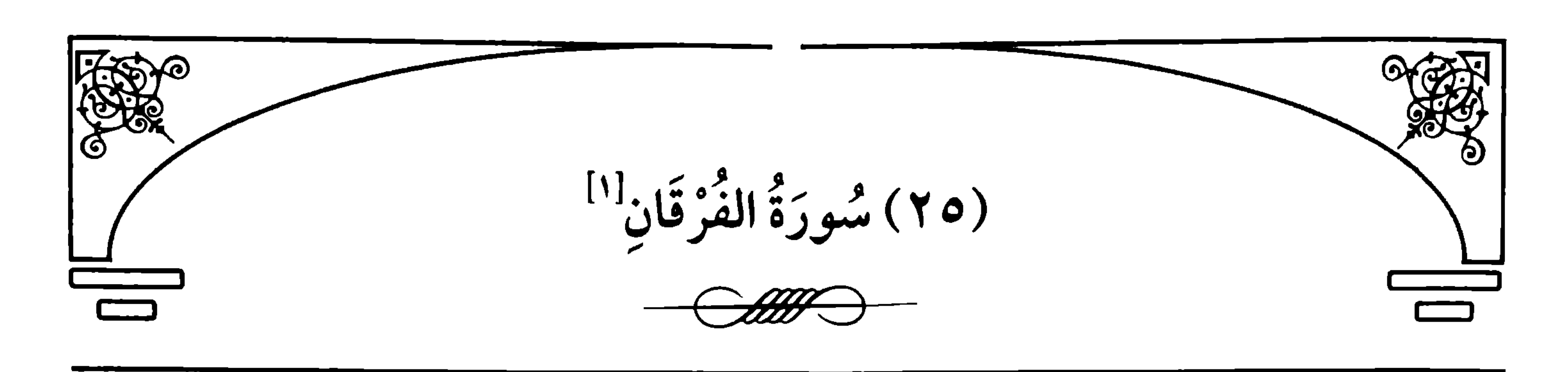
وفي الآية الكريمة فوائدُ عظيمةٌ، لكن ليس هذا موضعَ بسْطِها؛ لأن المُؤَلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ ما جاء بها[2].

وقوله في الحديث: «أُزْرَهُنَّ» على وزن «فُعْل» وفي نسخة: «أُزُرَهُنَّ» والقاعدة أن تكون بتسكين الزاي.



(١) البيت للأضبط بن قريع كما في «سمط اللآلي» (١/ ٣٢٦)، وصدره: «لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الهُمُومِ».

(٢) يُنْظَر: تفسير سورة النور لشيخنا رحمه الله تعالى.



(٢٥) سُورَةُ الفُرْقَانِ[١]

[١] الفُـرْقان: مصدر من الفَـرْق، مثل: الرُّجْحان، والشُّكْـران، والكُفْران، والغُفْران، وما أشبه ذلك.

والفُرْقان اسمٌ من أسماء القرآن العظيم، وسُمِّي: فرقانًا؛ لأن الله تعالى فَرَّق فيه بين الحقِّ والباطلِ، وبين المُحِق من المُبْطِل، والمُصْلِح من المُفْسِد، فكل ما يحتاج إلى تفريقٍ فإن الله تعالى بيَّن الفَرْق فيه في هذا القرآن، إمَّا نصًّا، أو إيماءً؛ ولهذا فالقرآن يُعْتَبر تِبْيانًا لكلِّ شيء؛ لأن من لازِمِ كونِهِ فُرقانًا أن يكونَ بيانًا؛ إذ إن ما لا بيانَ فيه لا فُرْقان فيه.

وفي القـرآن: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فالمـراد بالعبد: محمَّدٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، واللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ للتعليل، والمُعَلَّل قوله: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾.

وقوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ يحتمل أن يكون المراد بذلك: محمدًا ﷺ، فإن النبـيَّ ﷺ نذيرٌ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥].

ويحتمل أن يكون المراد بذلك: الفُرْقان، أي: ليكون الفُرْقان نذيرًا؛ فإنَّ القرآنَ نذيرٌ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَـرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:٥١].

وقوله: ﴿لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ المراد بهم: الجـنُّ والإنسُ، فإن الظاهر أن الرسـول ﷺ لم يُرْسَل إلى الملائكة، والمسألة فيها خلافٌ، لكن الظاهـر أنه لم يُرْسَل إليهم؛ لأنهم ليسوا من أهل الأرض، والأصل أنهم في السماء.

....

= وقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو الله عَزَّوَجَلَّ، فأنزل هـذا القرآن؛ ليَصْلُحَ به المُلْكُ.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَـدًا﴾ في الآية الأخرى: ﴿لَمْ يَـلِدْ﴾ [الإخلاص:٣] فليس له ولدٌ لا باعتبار التولُّد منه؛ لقوله: ﴿لَمْ يَـلِدْ وَلَـمْ يُولَـدْ﴾ ولا باعتبار التبنِّي؛ لقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَـدًا﴾؛ وذلك لأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ غنيٌّ عن العالمين، كما أشار إليه في قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:٦٨] والغنيُّ لا يحتاج إلى الولد؛ ليبقى النَّسْلُ.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ سـواء كانت مُشاركةَ مُحاصَّـة، أو كانت المشاركة مُجَزَّئةً، فاللهُ تعالى ليس له شريكٌ في المُلْك، لا بالحصص ولا بالتجزئة، لكن ما الفرقُ بينهما؟

الجواب: الشركة بالحصص أن تكون الحقيبة -مثلًا- بيني وبينك، وبالتجزئة أن تكون لك الحقيبة، ولي الكتاب مثلًا، فليس لله تعالى شريك في المُلْك، بمعنى: ليس الله له السماء، ومَن سواه له الأرض، ولا أن السموات والأرض بينه وبين غيره.

ولا فرْقَ في المُلْكِ بين ملك الذَّوات، وملك الأوصاف والتصرُّف، فلا أحـدَ شريكٌ لله تعالى في ذلك كلِّه.

وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ هذه الجـملة صار فيها مُعْتَرك بين أهـل السُّنَّة والجهميَّة؛ لأن الجهميَّة يقولون: إن هذه الآية تدلُّ على أن الله تعالى خَلَق القُـرآن، فالقـرآنُ شيءٌ، فيكـون الله تعالى قـد خَلَقَه، وأهـل السُّنَّة والجماعـة يقولون: إن القـرآن

....

= ليس بمخلوقٍ؛ لأن القرآنَ كلامٌ، والكلام صفة المُتكلِّم، فكما أن قُدْرَة الله وعزَّته وسمعه وبصره وغير ذلك من صفاته كلِّها غيرُ مخلوقة، فكذلك كلامُهُ غير مخلوق؛ لأنه صفةٌ من صفاته.

وأمَّا قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فالمراد: كل شيء ممَّا يتأتَّى خَلْقُه، بدليل قوله تعالى عن ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف:٢٥] ومعلومٌ أنها لم تُدَمِّر مساكِنَهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ وكذلك لم تُدَمِّر السموات، ولا الجبال، ولا الأشجار، إنما دمَّرت ما أُمرت بتدميره.

وقوله: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ الفاء تدلُّ على الترتيب، وهل التقدير سابقٌ على الخَلْق، أو الخَلْق سابقٌ عليه؟

نقول: إن كان المراد بالتقدير: تسوية الخَلْق على قدر مُعَيَّن بحسب ما تقتضيه حِكْمةُ الله فالتقديرُ بعد الخَلْق، وإن كان المراد بالتقدير: تقدير الوجود فهذا سابقٌ، ولكن على هذا يكون هناك إشكالٌ في الفاء التي قلنا: إنها تدلُّ على الترتيب، فكيف يُذْكَرُ السابق لاحقًا بالفاء؟

نقول: أجاب عنه العلماء بأن الترتيب نوعانِ: ترتيبٌ زمنيٌّ، وترتيب ذِكْرِيٌّ، وهذا من باب الترتيب الذِّكْرِي، وأنشدوا على ذلك قول الشاعر:

إِنَّ مَنْ سَادَ، ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ... ثُمَّ سَادَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ جَدُّهُ[1]

---

(١) البيت لأبي نواس، كما في «ديوانه» (ص:٤٦)، ولفظه:

«قُلْ لِمَنْ سَادَ، ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ... قَبْلَهُ، ثُمَّ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّه»

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ مَا تَسْفِي بِهِ الرِّيحُ[١].

﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ.

= ومعلومٌ أن الأب باعتبار الزمن قبل الابن، وأن الجد قبله وقبل الأب أيضًا، فيكون من باب الترتيب الذِّكْرِيِّ.

ومن هذا النوع: قوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس:١٩] لكن الآية التي في سورة الفُرقان عامَّة: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ وهذه خاصَّةٌ بالإنسان ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾.

وفي هاتين الآيتين فوائدُ كثيرةٌ تظهر للمتأمِّل.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ والضمير في ﴿مَا عَمِلُواْ﴾ يعود على المشركين.

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً﴾ الهباءُ هو ما يطير بالريح.

وقوله: ﴿مَّنثُورًا﴾ أي: متناثرًا لا ينضمُّ بعضه إلى بعض، فيضيع ويذهب.

وإنما جعله الله عَزَّوَجَلَّ كذلك؛ لأنه مَبْنِيٌّ على غير الإخلاص، وما بُنِيَ على غير الإخلاص فليس بمقبولٍ، وقد ثبَتَ في الصحيح من حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبيَّ ﷺ قال: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب تحريم الرياء، رقم (٢٩٨٥/ ٤٦).

﴿سَاكِنًا﴾ دائمًا.

﴿عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ طُلُوعُ الشَّمْسِ[١].

---

[١] يُشير المؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ وهذا الاستفهام يُراد به التعجيب، يعني: ألا تَعْجَبُ من قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وهو مع ذلك مُفيد للتقرير؛ لأن «لم» إذا دخلت عليها الهمزة صارت مُقَرِّرةً، مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] وما أَشْبَهَها.

وقوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ المدُّ هنا بمعنى: المد الذي هو السير، بدليل قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: دائمًا، وهذه إشارةٌ إلى الليل والنهار؛ لأن الظلَّ إذا امتدَّ وذهب يأتي النهار، وإذا انبسط فإنه يأتي الليل ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ لا يمتدُّ، كقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص:٧١] يعني: لو شاء؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ بيده كل شيء، لو شاء أن تبقى الدنيا بدون نهار بقيت، أو بدون ليل بقيت.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطْفٍ، و﴿جَعَلْنَا﴾ معطوفٌ على ﴿مَدَّ﴾ وليست على: ﴿لَجَعَلَهُ﴾ ولو كانت معطوفةً على ﴿لَجَعَلَهُ﴾ لاختلَّ المعنى؛ لأن المعنى يكون: لو شاء لجعلَهُ ساكنًا، ثم جعلنا الشمسَ عليه دليلًا، يعني: ولكننا لم نجعل الشمس عليه دليلًا، وهذا لا يصحُّ، ولكن المراد: كيف مدَّ الظلَّ، ثم جعلنا الشمسَ عليه دليلًا، وعلى هذا يكونُ قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ جملةً معترضةً بين المعطوف والمعطوف عليه.

وقوله: ﴿جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ أي: على هذا الظلِّ ﴿دَلِيلًا﴾؛ لأنه إذا جاءت الشمسُ ذهب الظلُّ، وإذا غابت جاء الظلُّ، فهي الدليلُ عليه، ولولا الشمسُ لم نعرف

﴿خِلْفَةً﴾ مَنْ فَاتَهُ مِنَ اللَّيْلِ عَمَلٌ أَدْرَكَهُ بِالنَّهَارِ، أَوْ فَاتَهُ بِالنَّهَارِ أَدْرَكَهُ بِاللَّيْلِ[١].

وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَمَا شَيْءٌ أَقَرَّ لِعَيْنِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَرَى حَبِيبَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ[٢].

= الظلَّ من عدمه، فهي الدليلُ عليه المُثْبِتُ له؛ ولهذا قال المؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ طُلُوعُ الشَّمْسِ».

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يخلف بعضُهُ بعضًا في الزمن، وكذلك في العمل، ففي الزمن إذا أتى الليل ذهب النهار، وإذا أتى النهار ذهب الليل، وكذلك في العمل، مَنْ فاتَهُ عملٌ في النهار على وجه يُعْذَرُ فيه قَضَاه في الليل، ومَن فاتَهُ عمل في الليل قَضَاه في النهار إذا كان معذورًا؛ ولذلك جاء في الحديث: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ»(١).

ولكنه قيَّد ذلك بقوله: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أمَّا مَن لم يُرد ذلك فإنه لا ينتفعُ بالليل ولا بالنهار، بل تذهب عليه الليالي والأيام فُرطًا سَبَهْلَلًا لا ينتفع منها بشيءٍ.

[٢] الصحيح في الآية العموم، أي: قُرَّة أعْيُنٍ في كل شيء: في طاعة الله، وفي أُمور الدنيا، فلا يحصل منهم نَكَدٌ ولا تعبٌ، وكم من إنسان حَصَلَ عليه النكدُ والتعبُ من زوجته وأولاده وذُرِّيَّته!

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب، رقم (٢٧٥٩/ ٣١).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ثُبُورًا﴾ وَيْلًا[١].

وقُرَّة العين هل هي من القَرِّ بمعنى: البَرْد، أو هي من القَرَار بمعنى: السكون؟

الجواب: في هذا قولان لأهل اللغة، فمنهم مَن قال: إنها من القَرِّ، وهو البرد؛ لأن العين إذا بَرَدَت فمعنى ذلك أنه انقطع عنها البكاءُ والحزنُ، ومنهم مَن قال: إنها من القرار؛ لأنها استقرَّت واطمأنَّت، فلا تنظر إلى أشياء سِوَى ما هي عليه الآن، والمعنيان لا يتنافيان، وإذا كانا لا يتنافيان، واللفظ صالحٌ لهما، فالقاعدة أن يكونَ شاملًا لهما.

وقوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ فيه شيءٌ من الإشكال، وهو أن المبتدأ جَمْعٌ، والخبر مُفْرَدٌ، ولم يقل: واجعلنا للمُتَّقين أئمَّةً، بل قال: ﴿إِمَامًا﴾ فقيل: إن المعنى: اجعل كلَّ واحد منَّا إمامًا للمتقين، وقيل: إنه وحَّدَ الإمامَ؛ لأن طريق المتقين واحدةٌ، وهي طريقُ الله عَزَّوَجَلَّ، فهم وإن كثرت أفرادُهم فطريقُهُم واحدٌ، فكأنهم رجلٌ واحدٌ، وكلا الوجهين صحيحٌ.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي: يدعون بالثُّبُور: يا ويلنا! يا ثُبورنا! وما أشبه ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾؛ لأنَّ الداعي بالثبور في الدنيا قد يكفيه دعوةٌ واحدةٌ، فيفزع الناسُ له، ويُغيثونه، وينقذونه، لكن هؤلاء لا ينفعهم؛ لأنَّ آخِرَ ما يُحاولون أن يسألوا الله عَزَّوَجَلَّ، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ فيقول الله عَزَّوَجَلَّ لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٧-١٠٨] وإلا فهم يسألون خَزَنَةَ جهنَّم: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فتُوبِّخهم الملائكة، ولا تقول: سندعو لكم، بل تقول:

وَقَالَ غَيْرُهُ: السَّعِيرُ مُذَكَّرٌ، وَالتَّسَعُّرُ وَالاضْطِرَامُ: التَّوَقُّدُ الشَّدِيدُ[١].

﴿تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ تُقْرَأُ عَلَيْهِ، مِنْ: أَمْلَيْتُ وَأَمْلَلْتُ[٢].

الرَّسُّ: المَعْدِنُ، جَمْعُهُ: رِسَاسٌ[٣].

= ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر:٤٩-٥٠].

ثم يسألون مَالِكًا، يقولون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] ومالكٌ هو خازنُ النار، فيقول لهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾.

ثم بعد هذا يَدْعُون الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فحينئذٍ يَيْأَسون من كل خيرٍ، ويستحقون أن يَدْعُوا بالثبور الكثير، كما قال تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ والسعير هو النار الكثيرة الاضطراب والاضطرام والتوقُّد؛ ولهذا إذا حصلت حريقٌ يقول العوام: سعيرةٌ؛ لأنها كثيرةُ التوقد والاضطرام، فهذا الذي أَعَدَّ اللهُ لِمَن كذَّب بالساعة.

وأمَّا التسعيرُ فهو تقدير قيمة السلعة.

[٢] كلتاهما لُغتان، فهنا قال: ﴿تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ ولم يقل: «تُمْلَل عليه» وقال في سورة البقرة: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:٢٨٢] ولم يقل: فلْيُمْلِ.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾

﴿مَا يَعْبَؤُا﴾ يُقَالُ: مَا عَبَأْتُ بِهِ شَيْئًا، لَا يُعْتَدُّ بِهِ[١].

﴿غَرَامًا﴾ هَلَاكًا[٢].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَعَتَوْ﴾ طَغَوْا، وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ عَتَتْ عَنِ الخُزَّانِ[٣].

= والرسُّ بئرٌ، وليست هي الرسَّ المعروفةَ في القصيم، وأصحاب الرسِّ هؤلاء يقولون: إنهم كذَّبوا نبيَّهم، وإنهم دفنوه في هذه البئر، فسُمُّوا: أصحابَ الرسِّ، أو أنها قُرًى على نَهرٍ تُسَمَّى الرسَّ، وكل هذه أقوالٌ اللهُ أعلم بها، ولا يبعد أنها من أخبار بني إسرائيل، أو غيرهم من المُؤَرِّخين.

[١] يعني قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان:٧٧] أي: لا يَعْتَدُّ بكم، ولا يُقيم لكم وزنًا، والخطاب للنبيِّ ﷺ، أي: قل لهم: لولا دعاؤكم ما اعتدَّ الله بكم ولا رآكم شيئًا، وهو حثٌّ لهم على أن يدْعُوا الله ويعبدوه، والآية عامَّةٌ للمشركين وغيرهم.

وقوله: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ يحتمل أن المراد: لولا عبادَتُكم، ويحتمل أن المراد: لولا طلبُكُم وسؤالُكُم.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ قال: «هَلَاكًا» وقيل: المعنى: لازمًا كمُلازمة الغريم لغريمه، وهذا أقربُ إلى اللفظ، والأوَّلُ له معنًى؛ لأنه من الغُرْم، وهو ما يكون بَدَلًا عن تالِفٍ.

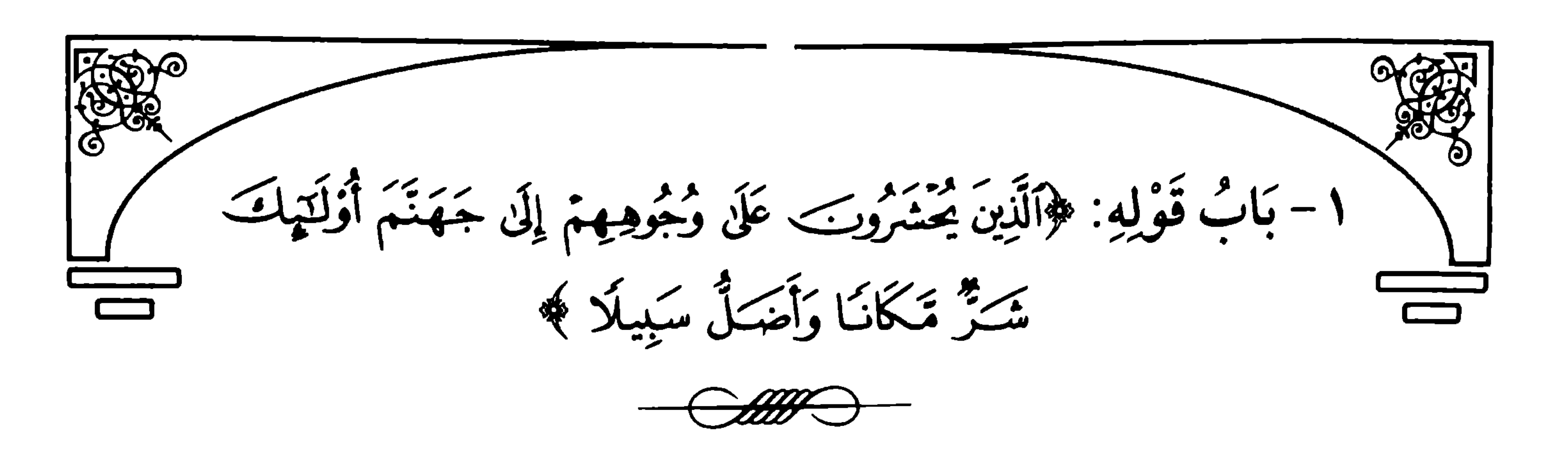
[٣] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: طَغَوْا طُغْيانًا كبيرًا، كما قال مُجاهدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ.

....

= وأمَّا تفسير ابن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ لقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦] أي: «عَتَتْ عَنِ الخَزَّانِ» فلا شَكَّ أنه تفسيرٌ ضعيفٌ جدًّا؛ لأن الرياح لا تكون إلا بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن المراد: عاتيةٌ على مَن أُرسلت عليه، هذا هو المعنى المُتعيِّنُ.

أمَّا الخَزَّان الذي أَمَره الله تعالى ووَكَّله بخِزَانة الرِّياح فلا يُمكن أن تَعْتُـوَ عليه وتَخْرُجَ عن تقدير الله عَزَّوَجَلَّ.





١ - بَابُ قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾

٤٧٦٠ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ البَغْدَادِيُّ: حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ قَتَادَةَ: حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ! يُحْشَرُ الكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «**أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟**» قَالَ قَتَادَةُ: بَلَى وَعِزَّةِ رَبِّنَا[١].

---

[١] كأنَّ هذا الرجل يسأل ويستفهم: كيف يمشي على وجهه؟ فبيَّن له الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن هذا ليس بأمر مُسْتَنكرٍ، فإن الذي أمشاهُ على رِجْليه في الدنيا قادرٌ على أن يُمْشِيَهُ يوم القيامة على وَجْهِهِ.

وفي هذا: دليلٌ على الاستدلال بعموم القُدْرة، وأن الشيءَ الذي تحارُ فيه العقول وتستبعده يُجاب عنه بعُموم القُدرة، ولكن بشرط: أن يكون هذا الأمْرُ ثابتًا في الكتاب والسُّنَّة، فإذا ثبت شيءٌ في الكتاب والسُّنَّة قلنا: إن الله على كلِّ شيء قديرٌ.

فلو قال قائل: كيف يكون الناس في مكان واحد، ومنهم مَن يُلْجِمه العَرَقُ، ومنهم مَن يكون إلى كعبيه، وهم في مكان واحد؟

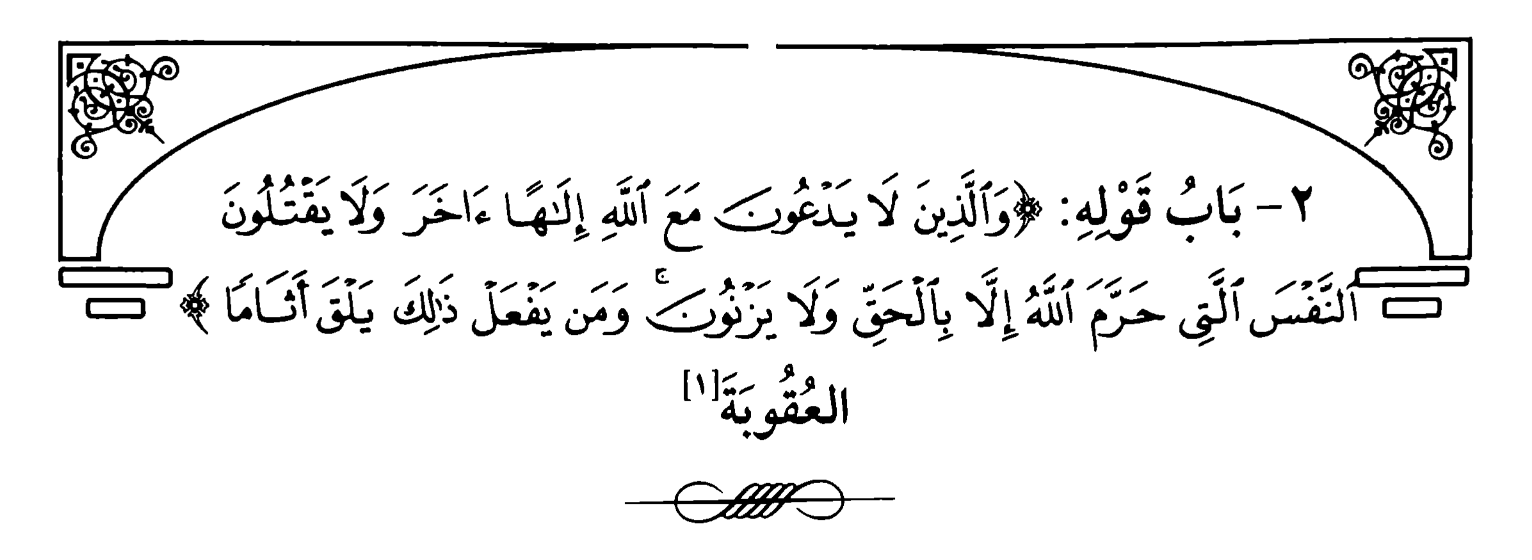
فالجواب أن نقول: إن الله على كل شيء قديرٌ، ولا مانِعَ من هذا، كما أن بعضهم يسعى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم، والآخرون في ظُلْمَة.

....

= فالنبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هنا لم يُجادل هذا الرجل، بل أتى بشيء ضَرَبه مَثَلًا مُقْنِعًا، فلا فَرْقَ بين أعلى الجسم وأسفل الجسم بالنسبة لقُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي هذا الحديث: قياسُ النظير على نظيره؛ لأن هذا شيء واحد بالنسبة لقُدْرة الله، وهو من باب قياس التمثيل.





٢- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ العُقُوبَةَ[١]

---

[١] قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ هذا من جملة أوصاف عِباد الرحمن الذين وصفهم الله بالعبودية مضافةً إلى اسمه: الرحمن؛ للدلالة على أن هذه العبوديَّة التي اتَّصفوا بها من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنهم يتعبَّدون لله؛ ابتغاءَ رحمتِهِ، ففي الإضافة فائدتان:

الفائدة الأولى: أن الوصف الذي اتَّصفوا به من آثار هذا الاسم الكريم، وهو الرحمن.

الفائدة الثانية: أنهم يتعبَّدون؛ ابتغاءَ رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقد ذكر الله من أوصافهم ما ذكر، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ وهذا يشمل دُعاءَ المسألة، ودُعاءَ العبادة.

فدعاء المسألة: أن يستغيثوا بغير الله، ويستنصروا به فيما لا يقدر عليه إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

ودعاء العبادة: أن يتقرَّبوا إليه بما لا يصحُّ التقرُّب به إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

واللفظ صالحٌ لهما؛ لأن الدعاء يأتي بمعنى: العبادة، وبمعنى: دعاء المسألة، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

= ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] فقال: ﴿ادْعُونِي﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾.

وقوله: ﴿إِلَٰهًا آخَرَ﴾ يُستفاد منه: أن المعبودات سوى الله تُسَمَّى: إلهًا، لكنَّ أُلوهيَّتها باطلةٌ، وبهذا يُمكن الجمعُ بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ [الأنبياء:٢٥] وقول الرسل لأقوامهم: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩]؛ إذ قد يبدو للإنسان التناقض بين الآيتين، ففي آيةٍ إثباتٌ لأُلوهِيَّةِ مَنْ سوى الله، وفي كلمة الإخلاص نَفْيٌ، فيُقال: إن محطَّ النَّفْيِ والإثبات مختلفٌ، فكل معبودٍ فهو مألوهٌ، سواء كان بحقٍّ أو بباطل، لكن إذا كان بحقٍّ فألوهيَّتُهُ ثابتةٌ حقًّا، وهو مُستحِقٌّ للعبادة، وإذا كانت بباطل فإنها منفيَّةٌ، فتُنْفَى؛ لأن مَن عُبِدَ ليس أهلًا لهذه العبادة، وإلا فهو إلهٌ؛ ولهذا قال الله تعالى في آية أُخْرى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [يوسف:٤٠] وقال تعالى في اللَّات والعُزَّى ومَنَاة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم:٢٣] وهنا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي: معبودًا آخَرَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أعظمَ الذنوب في حقِّه، ثم أعظم الذنوب في حقِّ عباده، وهو قَتْلُ النفس؛ ولهذا كان «أول ما يُقْضَى بين الناس في الدماء»[1]؛ لعِظَمها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم (٦٥٣٣)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب المجازاة بالدماء في الآخرة، وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، رقم (١٦٧٨)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

وقوله: ﴿ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ هي أربعة أنـواع: المسلم، والذِّمِّـي، والمعاهَد، والمستأمِن.

ويُستفاد من هذا: أن تحريم الأنفس عائدٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى هذا فلا فَرْق بين الصغير والكبير، والذَّكر والأُنْثى، والعاقل والمجنون.

وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلا بالحـقِّ الذي أباح الله تعالى فيه القَتْلَ، وتستحـقُّ النفسُ أن تُقْتَلَ به، مثل: الردَّة، والزِّنى بعد الإحصان، والتارك لدينه المُفارق للجماعة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي: لا يفعلون الفاحشة، والزِّنى: فِعْلُ الفاحشة في قُبُل أو دُبُر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ المشار إليه: ما سَبَقَ من الشِّرْكِ، وقَتْل النفس التي حرَّم الله، والزِّنَى، وجمع هذه الثلاثةَ؛ لأنها أعلى القمَّة في الشَّرِّ والفساد، فالشِّرْكُ في حقِّ الله، وقَتْلُ النَّفْس في الدِّماء، والزِّنى في الأعْراض.

وهنا قال: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ ولم يقل: «يَلْقَى» بالألِفِ، وذلك لأنها مجزومةٌ على أنها جوابُ الشرط.

لكن ما هو الآثامُ؟

نقول: فسَّر ذلك بقوله: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ ويُضاعَف عليه؛ لشدة عُدْوانه وإساءته.

وهنا قد يُورَد إشكالٌ: كيف يُضاعف له، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام:١٦٠] والمضاعفة إنما تكون للحسنات؟

= فيُقال: قوله: ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ بمعنى: أنه يُجازى على هذه الأعمال كلِّها: على الشِّرْك، وقتْلِ النَّفْس، والزِّنى، ولا يُقال: إنه يُعَذَّبُ على الشِّرْك فقط دون القَتْلِ والزِّنَى، بل على الجميع، فالتضعيفُ هنا باعتبار مُعاقبته على كُلِّ الأفعال.

وهذه الآية ممَّا يُسْتَدلُّ به على أن الكفَّار مُخاطبون بفروع الإسلام وشرائعه؛ ولهذا يُعاقَبون على زِناهم وعلى قَتْلِهِمُ النَّفْسَ التي حرَّم الله إلا بالحقِّ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ يجوزُ في الهاء الصِّلةُ والحذفُ، وهما قراءتان: ﴿فِيهِ مُهَانًا﴾ و﴿فِيهِۦ مُهَانًا﴾[1].

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍ﴾ أي: تاب من هذه الأمور الثلاثة: الشِّرْك، والقَتْل، والزِّنَى، فمن تاب تاب الله عليه، فإذا قال قائل: ما نوع هذا التبديل؟

نقول: هذا له وجهان:

الأول: أن أعمالهم التي كانت سيِّئةً في الأول تكونُ بعد توْبَتِهم وعمَلِهم أعمالًا صالحةً؛ لأن كلَّ سيئة تاب منها تكون بالتوبة حَسَنَةً؛ لأن التوبة حسنةٌ من الحسنات، ويكون هذا تبديلَ نوْعٍ بنوع، كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم:٤٨].

الوجه الثاني: أن الله عَزَّوَجَلَّ بَدَل أن كانوا قد شَغَلُوا أوقاتهم بالسيئات، فإذا مَنَّ الله عليهم بالتوبة والعمل الصالح صار شُغُلُ أوقاتهم بالحسناتِ.

---

(١) قرأ بصلة الهاء ابن كثير وحفص، وقرأ الباقون بحذفها، ينظر: التبصرة في القراءات السبع، (ص:٢٥٥).

....

وعلى الوجه الأول يكون التبديل تبديلَ جزاءٍ، وعلى الثاني يكون تبديلَ عَمَلٍ، والوجهان محتملان، ولكننا نجزم بأنه إذا تاب من كل عمل سيِّئٍ سابقٍ فإن هذه التوبةَ تجعلُ ذلك العمل عملًا صالحًا يُثاب على توبته منه، والتوبةُ عَمَلٌ صالحٌ، فإذا تاب من الزِّنى فالإثمُ الذي كان عليه في الزِّنى يكون أجرًا بالتوبة منه.

ثم قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ يعني: أن هذا هو التائب حقًّا أن يتوب ويعمل صالحًا، أمَّا إذا تاب ولم يقم بالعمل الصالح فإن توبتَهُ تكون قاصرةً، وتكون من هذا الذنب فقط، ولا يستحِقُّ الوصفَ المُطْلَق للتائبين، وقد سَبَقَ بحثُ هذا، وهو: هل يُشْتَرَط لصحة التوبة أن يُقلع الإنسانُ عن كل الذنوب، أو أنه تصحُّ التوبةُ من ذنبٍ مع الإصرار على غيره؟ وذكرنا أن الصواب الثاني، وإن كان الأول قيلَ به[1].

لكنْ مع ذلك فإنَّ هذا التائب لا يستحقُّ الوصف المُطْلَق في التائبين، وإنما يُقال: تائبٌ من كذا، تائبٌ من كذا، أمَّا الوصف المُطْلَق فهو كما قال الله عَزَّوَجَلَّ هنا: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي: هذا هو التوبةُ الحقيقيَّةُ: أن تتوبَ من الذُّنوب، وتعملَ العملَ الصالحَ.

واستُدِلَّ بهذه الآية على أنَّ للقاتل عمدًا توبةً؛ لأنه قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ وهذا هو الحقُّ بلا شَكٍّ، وأن القاتل كغيره من المُذْنِبين له توبةٌ، وإن لم يتب فهو تحت المشيئة، إن شاء الله تعالى عذَّبَهُ، وإن شاء غَفَرَ له.

---

(١) يُنْظَر: التعليق على باب التوبة، من كتاب الدعوات، من صحيح البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٤٧٦١- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ: حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ سُفْيَانَ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْصُورٌ وَسُلَيْمَانُ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: وَحَدَّثَنِي وَاصِلٌ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ أَوْ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللهِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**» قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**» قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**» قَالَ: وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[١].

---

[١] قوله: «**سَأَلْتُ أَوْ سُئِلَ**» الشكُّ هنا من الراوي، والظاهر أن الذي سأل هذا هو عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل النبيَّ ﷺ عن أحبِّ الأعمال إلى الله[(١)]، وعن أعظم الذُّنوب وأكبرها عند الله، ففي أحب الأعمال إلى الله قال له الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا**» قال: ثم أيٌّ؟ قال: «**بِرُّ الوَالِدَيْنِ**» قال: ثم أيٌّ؟ قال: «**الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**» قال: فلو اسْتَزَدْتُهُ لزادني[(٢)].

وقوله: «**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**» هذا هو أعظمُ الذنب؛ إذ كيف تجعل للذي خَلَقَك وأَوْجَدَك، ولم يُشاركه أحدٌ في إيجادك، كيف تجعلُ له نِدًّا تتقرَّب إليه كما تتقرَّب إلى الله، أو تستغيثُ به كما تستغيثُ بالله، أو رُبَّما تعتقد أنه أبلغُ في القُدْرة من الله عَزَّوَجَلَّ؟!

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٥/ ١٣٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله أفضل الأعمال، رقم (٨٥/ ١٣٩).

....

= وقوله: «وَهُوَ خَلَقَكَ» هذا إشارةٌ إلى أنه كان ينبغي عَقلًا -فَضْلًا عن الدِّين- أَلَّا تجعل له نِدًّا؛ لأنه لم يُشاركه أحدٌ في خَلْقِك، فلماذا تجعل له شريكًا في العبادة والدُّعاء، وهو الذي خَلَقَك؟! ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢] أي: تعلمون أن الله هو الذي خَلَقَكم، وخَلَق الذين من قَبْلِكم، وسخَّر لكم الأرضَ فِراشًا، والسماءَ بناءً، وأنزل من السماء ماءً، فأخْرَج به من الثمرات رِزْقًا لكم، تعلمون هذا كلَّه، وأنه من الله عَزَّوَجَلَّ، فكيف تجعلون لله أنْدادًا؟!

وجَعْلُ النِّدِّ لله يشمل النِّدَّ في الدعاء، والنِّدَّ في الخَلْق والنِّدَّ في الصِّفَة، فكلُّ هذا يُتصوَّر فيه النِّدُّ، فأمَّا النِّدُّ في العبادة فأن تُنْذِرَ لغير الله، أو تَسْجُدَ لغير الله، أو تَرْكَعَ لغير الله.

وأمَّا النِّدُّ في الدعاء فأن تَدْعُوَ غيرَ الله عَزَّوَجَلَّ لكشف الضُّرِّ، وجَلْب النفع، ولا يُسْتَثنى من ذلك: الرسولُ ولا الوليُّ.

وأمَّا النِّدُّ في الصفات فأن يجعل أوصاف الله تعالى كأوصاف خَلْقِهِ، فيُمَثِّل صفاتِ الله بصفات خَلْقِه، ويقول مثلًا: لله يدٌ كأيدينا، أو وجهٌ كوجوهنا، أو ما أشبه ذلك.

وقوله: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» الولدُ هنا يشمل الذَّكَر والأُنْثى، وفي هذا ثلاث جنايات:

....

= **الأولى**: القتل.

الثانية: قطيعة الرَّحم؛ لأنه قتَلَ ولدَهُ.

الثالثة: ضعفُ الاتِّكال على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه خَشِيَ أن يَطْعَمَ معه.

وهذا لا يفعله أحدٌ: أن يقتل ولدَهُ؛ خوفًا أن يُشارِكَهُ في طعامـه، ولكن هذا جرَى في بعض العرب، كانوا يقتلون أولادهم من إملاقٍ أو خشيةَ الإملاق؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في الآية: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١] فبدأ بِرِزْقِ الآباء؛ لأنه مُعْدِمونَ، وأمَّا في الخشية فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء:٣١] فبدأ بِرِزْقِ الأولاد؛ لأن الآباء أغنياء، لكنهم يَخْشَوْنَ الفقر، وهذا أعلى ما يكون من البشاعة: أن يَقْتُلَ الإنسان ابنَهُ؛ خوفًا من أن يأْكُلَ معه؛ لأن الحَنان والرِّقَّة والعَطْف تقتضي أن الوالد يُقَدِّمُ ولده، كما في حديث الجارية المسكينة التي تُصُدِّق عليها بتمرةٍ واحدةٍ، وكان معها ابنتان، فشقَّت التمرةَ نصفين، وأعطت كلَّ بنت نصفها، ولم تأكلْ مع حاجتها للأكل[1]، وهذا هو مقتضى الحَنان والعَطْف والرِّقَّة، لا مثل هذا الجفاء.

وقوله: «**أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**» أي: تفعل الزِّنى، ولفظ الحليلة رُبَّما يشمل الزوجةَ والسُّرِّيَّةَ.

وأتى هنا بصيغة المفاعلة: «**أَنْ تُزَانِيَ**» أي: تُعالِجها وتُحاولها حتى تُوافق معك، فيكون الزِّنى واقعًا منكما جميعًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب اتقوا النار، رقم (١٤١٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم (٢٦٢٩/ ١٤٧).

....

لكن لماذا خصَّه بحليلة الجار؟

الجواب: لأنه كان ينبغي للإنسان أن يكون أشدَّ الناس حمايةً لجاره وعِرْض جاره، فكيف إذا كان هو الذي يُفسد فراشَ جارِهِ؟! فإن هذا من أعْظَمِ الزِّنَى.

إذن: ذكر الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذا الحديث ثلاثة أشياء: الشِّرْك، والقَتْل، والزِّنى، ولكنه ذكر أعظمَ وأعْلى ما يكون منها.

وقوله: «**وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ** ﷺ» ظاهرُ هذا: أن قول الرسولِ ﷺ كان سابقًا على نزول الآية؛ لأن تصديقَ الشيءِ يكون بعد وُجودِهِ.

ويُستفاد من هذا: أن خبر الصادق لا بأسَ أن نقول: إنه عَضَّدَهُ دليلٌ آخرُ؛ لأن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صادقٌ حتى لو لم تنزل الآيةُ، لكن لا مانعَ أن يكونَ الصادقُ مُؤَيَّدًا بأدِلَّةٍ أُخْرى؛ لتطمئنَّ النفسُ، وهذا إبراهيمُ ﷺ يقول: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ مع أنه يُؤْمِنُ إيمانًا مثل الشمس بأن الله يُحيي الموتى ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة:٢٦٠] قال الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ**»(١).

وأوجبتْ هذه العبارةُ شكًّا لبعض الناس: كيف يشكُّ الرسولُ وإبراهيمُ عليهما الصَّلاة والسَّلام؟! فنقول: إن المعنى: لو كان إبراهيم شاكًّا لكنَّا أَوْلَى بالشكِّ منه، ونحن لم نشكَّ، فإبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يشكَّ أيضًا، هذا هو معنى الحديث.

---

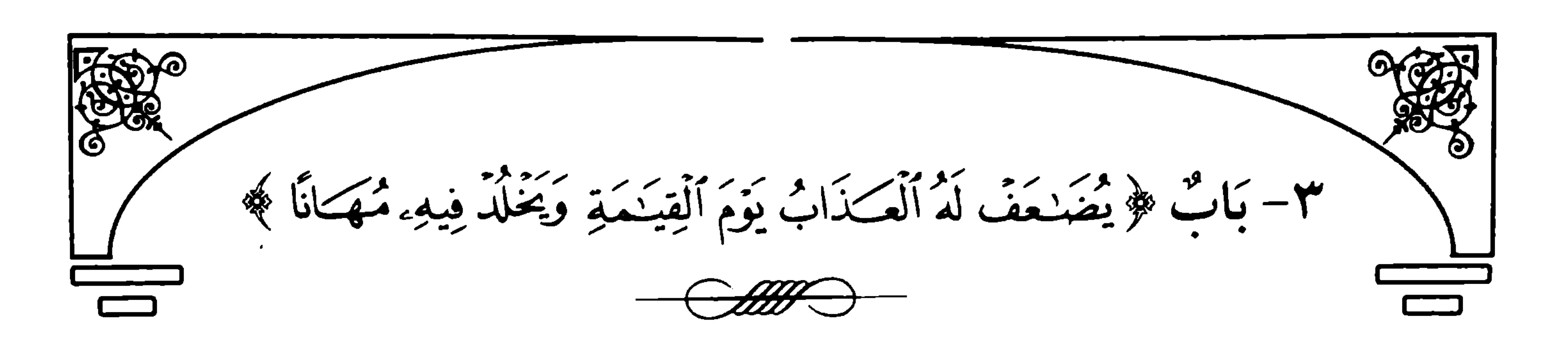
(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قول الله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، رقم (٤٥٣٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب، رقم (١٥١/ ٢٣٨).

٤٧٦٢- حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى: أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، أَنَّ ابْنَ جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ، قَالَ: أَخْبَرَنِي القَاسِمُ بْنُ أَبِي بَزَّةَ، أَنَّهُ سَأَلَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ: هَلْ لِمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فَقَالَ سَعِيدٌ: قَرَأْتُهَا عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ كَمَا قَرَأْتَهَا عَلَيَّ، فَقَالَ: هَذِهِ مَكِّيَّةٌ، نَسَخَتْهَا آيَةٌ مَدَنِيَّةٌ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ.

٤٧٦٣- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ: حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنِ المُغِيرَةِ بْنِ النُّعْمَانِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: اخْتَلَفَ أَهْلُ الكُوفَةِ فِي قَتْلِ المُؤْمِنِ، فَرَحَلْتُ فِيهِ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: نَزَلَتْ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ، وَلَمْ يَنْسَخْهَا شَيْءٌ.

٤٧٦٤- حَدَّثَنَا آدَمُ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ: حَدَّثَنَا مَنْصُورٌ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ قَالَ: لَا تَوْبَةَ لَهُ، وَعَنْ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ قَالَ: كَانَتْ هَذِهِ فِي الجَاهِلِيَّةِ.

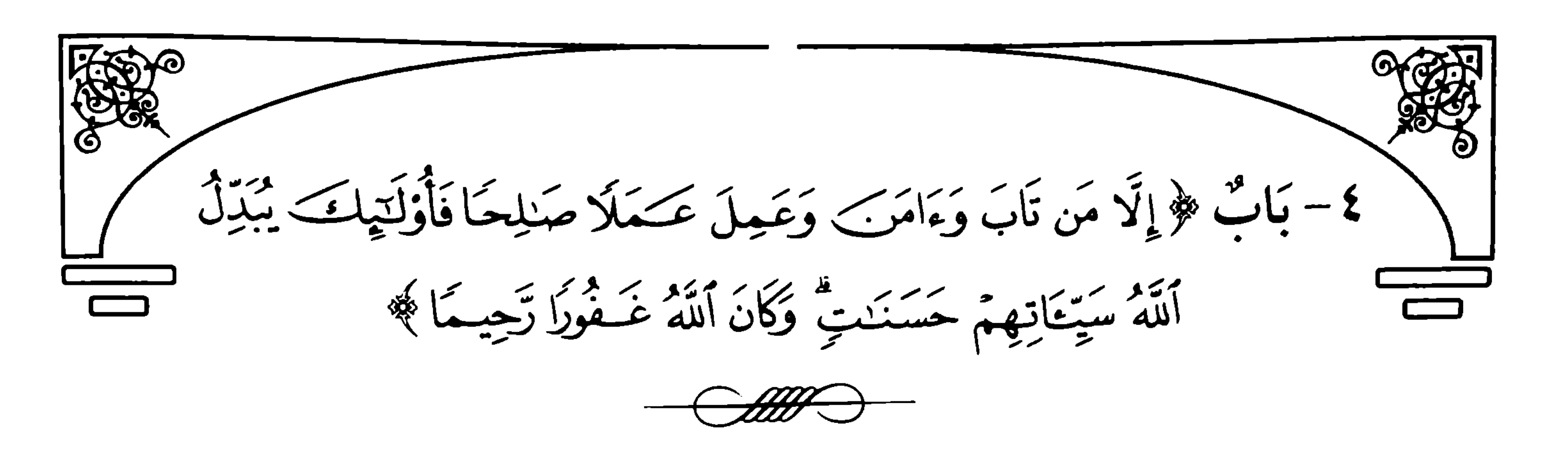




٣- بَابٌ ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾

٤٧٦٥- حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ حَفْصٍ: حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ أَبْزَى: سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ أَهْلُ مَكَّةَ: فَقَدْ عَدَلْنَا بِاللهِ، وَقَتَلْنَا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَتَيْنَا الفَوَاحِشَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.





٤ - بَابُ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

٤٧٦٦ - حَدَّثَنَا عَبْدَانُ: أَخْبَرَنَا أَبِي، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: أَمَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبْزَى أَنْ أَسْأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: لَمْ يَنْسَخْهَا شَيْءٌ، وَعَنْ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ[١].

---

[١] ذكَرْنا فيما سَبَقَ أن آية النساء فيها إشكالٌ من جهتين: من جهة الخلود، ومن جهة معارضتها لظاهر آية الفُرْقان، وذكَرْنا أن الجمع بينهما أن نقول: إن القتل سببٌ للخلود في النار، والإيمان مانعٌ من الخلود في النار، والأشياء لا تتمُّ إلا بوجود أسبابها، وانتفاء موانعها.

فإذا قال قائلٌ: إذا كان الأمْرُ كذلك لم يَبْقَ للآية فائدةٌ!

قلنا: بلى، وذلك من وجهين:

الأول: أنه رُبَّما يكون القتل سببًا للكُفْر، ويكون الخلودُ الذي رُتِّب عليه مُرَتَّبًا على ما يكون مُسَبَّبًا له، كما جاء في الحديث: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب قول الله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾، رقم (٦٨٦٢).

....

الوجه الثاني: أن نقول: هذا سببٌ، والمانع رُبَّما يتحقَّق، ورُبَّما لا يتحقَّق، فقد ينسلخُ الإيمان منه، ولا يتحقَّق المانعُ.

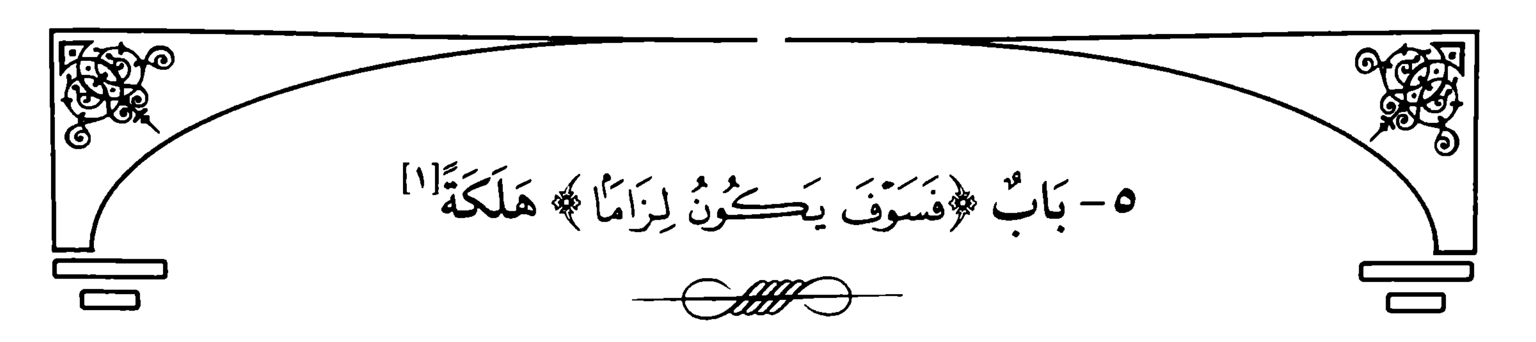
وأمَّا بالنسبة للجمع بينها وبين آية الفُرقان فالصوابُ: أن آية الفُرقان مُحْكَمة، وليست منسوخةً، وأن للقاتل توبةً، ولكن القاتل تعلَّق بقتله ثلاثةُ حُقوق: حقُّ الله، وحقُّ المقتول، وحقُّ أولياء المقتول.

فأمَّا حقُّ الله فلا ريب في أن التوبة تَجُبُّه وتَهْدِمُهُ؛ لقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣] والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ.

وأمَّا حقُّ أولياء المقتول فإن التخلُّص منه يُمكن بتسليم الإنسان نفسه إليهم، فإذا سلَّم إليهم نفسَهُ فهو محقوقٌ، سلَّم إلى صاحب الحق حقَّهُ، والمحقوقُ إذا سلَّم إلى صاحب الحق حقَّه تَبْرَأُ ذِمَّتُهُ.

وأمَّا بالنسبة للمقتول فإن إيصال الحقِّ إليه مُتعذِّر؛ لأنه قد مات، وحينئذٍ يبقى حقُّ المقتول في ذمَّة القاتل، فيُنْظَر: هل نقول: إن الرجل إذا حقَّق توبتَهُ فيما بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّ الله تعالى يتحمَّل عنه، ويُوفِي المقتولَ حقَّهُ من فضله وكَرَمِهِ، أو نقول: إنه يبقى حقُّ المقتول وإن صحَّت توبةُ القاتل؟ والذي يظهرُ لي من العمومات: أن حقَّ المقتول لا يسقطُ، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يتحمَّله عنه بفضلِهِ وكرمِهِ، وحيث أناب الإنسانُ وتاب إلى ربِّه توبةً نصوحًا، فهذا هو الجوابُ عن هذا الإشكالِ.





٥- بَابٌ ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ هَلَكَةً[١]

٤٧٦٧- حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ: حَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ: حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ: الدُّخَانُ، وَالقَمَرُ، وَالرُّومُ، وَالبَطْشَةُ، وَاللِّزَامُ ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[٢].

---

[١] هذا تفسير لقوله: ﴿لِزَامًا﴾ ويحتمل وجهًا آخَرَ، وهو أن يكون بمعنى: مُلازِمًا، أي: فقد كذَّبتم فسوف يكون هذا التكذيبُ مُلازمًا لكم، أي: مُلازمًا لكم عقوبتُه ودائمةً لا تنفكُّ عنكم، وهذا أقربُ إلى ظاهر اللفظ.

[٢] عبد الله الذي في السند هو ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكن ما الذي أعلمنا بأنه ابنُ مسعود؟

الجواب: تلميذُهُ؛ لأن المُبْهَم يُعْلَمُ تعيُّنه، إمَّا بتلاميذه، وإمَّا بمشايخِهِ.

وقوله: «خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ» أي: خمسٌ من الآيات الدالَّة على صِدْقِ الرسول ﷺ.

وقوله: «الدُّخَانُ» فسَّره ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنه الذي أصابَ قُرَيْشًا حين دعا عليهم الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالجَدْب والقَحْطِ، وقال: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ**» فأجدبتِ الأرضُ، وقحط المطرُ، وصاروا من شدَّة الجوع يرون السماء وكأنها بخارٌ أو دخانٌ(١)، كما أن الجوَّ في الغالب يَغْبَرُّ مع قلَّة الرطوبة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، رقم (٤٨٢١)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين، باب الدخان، رقم (٢٧٩٨/ ٣٩).

....

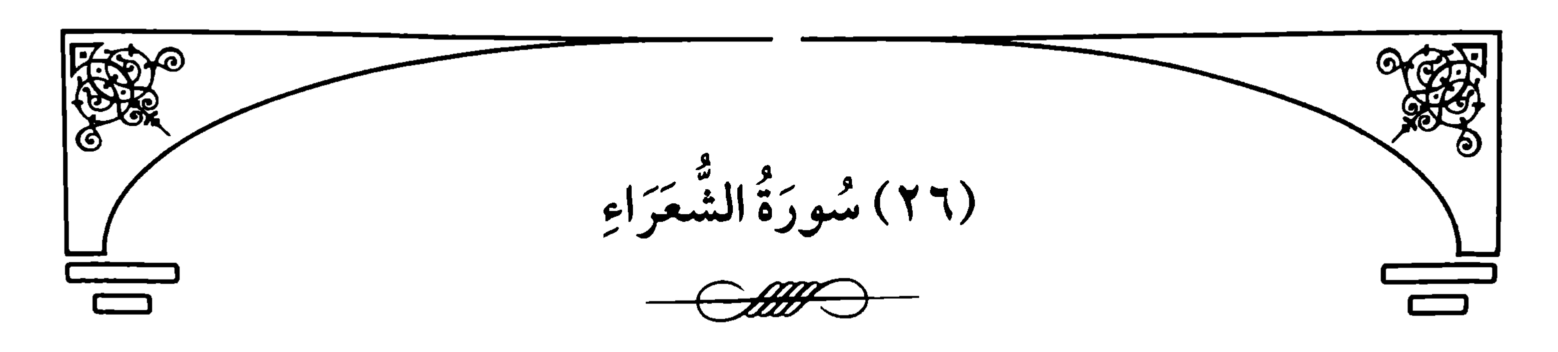
= وأمَّا قوله: «وَالقَمَرُ» فهو انشقاقُ القمر، فقد انشقَّ القمرُ في عهد الرسول ﷺ، وتواترتْ بذلك الأحاديثُ، وهو انشقاقٌ حسِّيٌّ، خلافًا لِمَن أنكره من الفلاسفة وأتباعهم، وقالوا: إن الأفلاك لا يُمكن فيها الانشقاقُ، فإن قولهم هذا باطلٌ مردودٌ؛ لأن الذي خَلَقَ الأفلاك عَزَّوَجَلَّ قادرٌ على انشقاقها، وقادرٌ على إتلافها في آخِرِ الزمان.

وقوله: «وَالرُّومُ» هذا حين بلَّغ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَوْلَ الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم:١-٤] وكان الناس لا يظنُّون هذا الأمرَ، فإن الفُرْسَ غلبتْ عليهم، وهي أقْوَى منهم، وما ظنُّوا أن الأمرَ سيعود إلى الرُّوم.

وقوله: «وَالبَطْشَةُ» هي: قتل صناديد قريش يوم بَدْرٍ ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان:١٦].

وأمَّا «اللِّزَامُ» فإنه العذابُ الذي يكون لهم، ولعلَّ ابنَ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أراد بذلك الذلَّ الذي أصاب المُكَذِّبين للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فإنَّ هذا الذلَّ لَازَمَهم، ولم يَقُم لهم بعدَهُ عِزٌّ.





(٢٦) سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تَعۡبَثُونَ﴾ تَبْنُونَ[١].

﴿هَضِيمٞ﴾ يَتَفَتَّتُ إِذَا مُسَّ[٢].

---

[١] هكذا قال مُجاهدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يُريد قوله تعالى: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾ أي: تبنون، ولا رَيْبَ أن هذا التفسير ضعيفٌ؛ لأن معنى الآية: أتبنون بكلِّ ريع آيةً تبنون، وهذا تكرار يُنَزَّهُ عنه القرآنُ، ولكن معنى ﴿تَعۡبَثُونَ﴾ أي: أنكم تفعلون ذلك بدون حاجة إليها، وإنما هو للعَبَث والتطاول والتفاخُر.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾ أي: هشٌّ، والذين يُحِبُّون التمر يقولون: إنه هضيمٌ، يريد: أن التمر يُهَضِّم.

وقال بعضهم: ﴿هَضِيمٞ﴾ أي: نضيدٌ، كأنه يَهْضِم بعضُهُ بعضًا بالضيـق، كما يكون في الشماريخ، إذا كان الثمرُ صالحًا فإنه يكون مُتراصًّا وكثيرًا في شماريخِهِ.

وقد ذكَرْنا أنه إذا صلحت الآيةُ للمعاني بدون تناقُضٍ فإنها تُحْمَلُ عليها جميعًا، فهو ﴿هَضِيمٞ﴾ بمعنى: نضيدٍ، أي: منضودٍ، كلُّ واحدة بجانب الأُخْرَى، وبمعنى: هشٍّ، إذا ضَغَطْتَ عليه يتفتَّتُ، وهذا ظاهرٌ.

أمَّا كونه ﴿هَضِيمٞ﴾ بمعنى: هاضم، أي: يهضِمُ الطعامَ، فهذا من حيث اللغةُ لا أعلمُ له أصلًا، لكن مع هذا إن ثبت أن معنى ﴿هَضِيمٞ﴾ في اللغة بمعنى: هاضم، وأنه من الناحية الطبية يُهَضِّمُ، فلا مانعَ من أن نجعلَهُ معنًى ثالثًا، وهو قولٌ قد قِيلَ به.

(مُسَحَّرِينَ) مَسْحُورِينَ[١].

وَالَّيْكَةُ وَالأَيْكَةُ جَمْعُ: أَيْكَةٍ، وَهِيَ جَمْعُ الشَّجَرِ[٢].

وهل يُمكن أن يكون ﴿هَضِيمٌ﴾ بمعنى مهضوم، أي: سهل الهضم؟

نقول: «فَعِيل» تأتي بمعنى: «مفعول» في اللغة العربية، وإذا كان يهضم غيره فهو من بابٍ أَوْلَى، فيَدْخُلُ في المعنى.

وأمَّا مَن قال: إن الهضيم بمعنى المُذَنَّب فيُقال: إن الطَّلْع يكون مُذَنَّبًا، ويكون كاملًا رَطْبًا.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أي: من المسحورين، وهكذا كل نبيٍّ قال له قومه هذا القولَ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢].

[٢] قوله: «وَالأَيْكَةُ» لا يستقيمُ؛ فكيف يكون «الأيكة» جمع «أيكة»؟! وإن كانت «فُلْك» جمع «فُلْك» تصلح للواحد والجمع، لكن الأقرب أن نقول: إن «الأيك» جمع أيْكَة، مثل: شَجَر جمع شَجَرة.

والأَيْكَةُ هي الشجرة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: (كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةَ) وهذه قراءةٌ، والقراءة الثانية: (كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ) بالكسر(١)، فتنصرف؛ لأن فيها «أل» والمراد بها: الشجرة.

---

(١) قرأ بالنصب نافع وابن كثير وابن عامر، وقرأ بالخفض ورش في رواية، وقرأ الباقون: «الأيكة»، يُنْظَر: كتاب السبعة لابن مجاهد، (ص:٣٨٦)، والحجة في القراءات السبع (٢/ ٣٢).

﴿يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ إِظْلَالُ العَذَابِ إِيَّاهُمْ[١].

﴿مَّوۡزُونٖ﴾ مَعْلُومٍ[٢].

﴿كَٱلطَّوۡدِ﴾ كَالجَبَلِ[٣].

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿لَشِرۡذِمَةٞ﴾ الشِّرْذِمَةُ: طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ[٤].

---

[١] قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ فقد أصابهم حَرٌّ شديدٌ عظيمٌ، فأرسل الله عَزَّوَجَلَّ سَحابًا، فلما رأوا الظِّلال اندفعوا كلُّهم تحت هذا الظلِّ، فصار هذا الظل نارًا أحْرَقَتْهم، وهذا معنى قوله: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾.

[٢] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ في سورة الحِجْر: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ فالظاهر أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقعتْ منه سهوًا.

[٣] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: كالجبل العظيم، وهذه في قصة موسى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

[٤] إذا قال قائل: إذا كانت الشِّرذمة هي الطائفة القليلة، فكيف قال عَزَّوَجَلَّ بعدها: ﴿قَلِيلُونَ﴾؟

نقول: إنه هوَّن أمرَها في الأول، ثم أضاف التقليلَ إليها ثانيًا، يعني: هي قليلةٌ من قليلٍ.

وقد يُقال: إن القليل بالنسبة للعدد، والشِّرْذِمَة بالنسبة للكيفية، يعني: أن هؤلاء شِرْذِمَةٌ ليسوا أهْلَ قوَّة ولا أهْلَ شَوْكَة، ومع ذلك فهم قليلون؛ لأنه قد يكونُ

﴿فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ الْمُصَلِّينَ[١].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ كَأَنَّكُمْ[٢].

الرِّيعُ: الأَيْفَاعُ مِنَ الأَرْضِ، وَجَمْعُهُ: رِيعَةٌ، وَأَرْيَاعٌ، وَاحِدُهُ: رِيعَةٌ[٣].

= العددُ قليلًا، لكنهم ليسوا شِرْذمةً، بل لهم شوكةٌ ومَنَعَةٌ وقوَّةٌ، فهو يَسْخَرُ من موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقومه، ويقول: إنهم شِرْذِمَةٌ قليلون.

[١] هذا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وليس المعنى: أنه يُصَلِّي فيهم، لكن ﴿فِي﴾ هنا بمعنى: مع، أي: في جُمْلتهم.

والمراد بالساجدين هنا: المُصَلِّين، وذكر السجود في هذه الآية؛ لأنه أقْرَبُ ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ، وهذه الآية في صلاة الليل، وصلاة الليل يكثُرُ فيها الدُّعاء، والدُّعاء محلُّهُ السجود، فلهذا عبَّر بالسجود عن الصلاة.

[٢] يحتمل أن يكون المعنى كما قال ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وحينئذٍ نستفيد لـ: «لعل» معنًى، وهو التشبيه، وهذا كقولنا: «لعلك فاهمٌ» أي: كأنَّكَ فاهمٌ، فهنا قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: كأنكم تخلدون، ولا تموتون.

ويحتمل أن «لعل» للتعليل، يعني: تتخذون مصانع قويَّةً؛ لأجل أن تخلدوا إليها، وتركنوا إليها، وتكون هي أكبرَ همِّكم.

[٣] الأيفاعُ هي المكان المرتفع، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ فكأنهم يختارون الأماكنَ المرتفعةَ، ويرفعون البناء أيضًا، ويُحْكِمونَهُ.

والذي أفهم من إطلاق العامة للرِّيع: أنها هي الثَّنِيَّة في الجبل.

﴿مَصَانِعَ﴾ كُلُّ بِنَاءٍ فَهُوَ مَصْنَعَةٌ[١].

فَرِهِينَ: مَرِحِينَ ﴿فَرِهِينَ﴾ بِمَعْنَاهُ، وَيُقَالُ: فَارِهِينَ حَاذِقِينَ.

﴿تَعْثَوْا﴾ هُوَ أَشَدُّ الفَسَادِ، وَعَاثَ يَعِيثُ عَيْثًا[٢].

الجِبِلَّةَ: الخَلْقُ، جُبِلَ: خُلِقَ، وَمِنْهُ: جُبُلًا وَجِبِلًا وَجُبْلًا، يَعْنِي: الخَلْقَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ[٣].

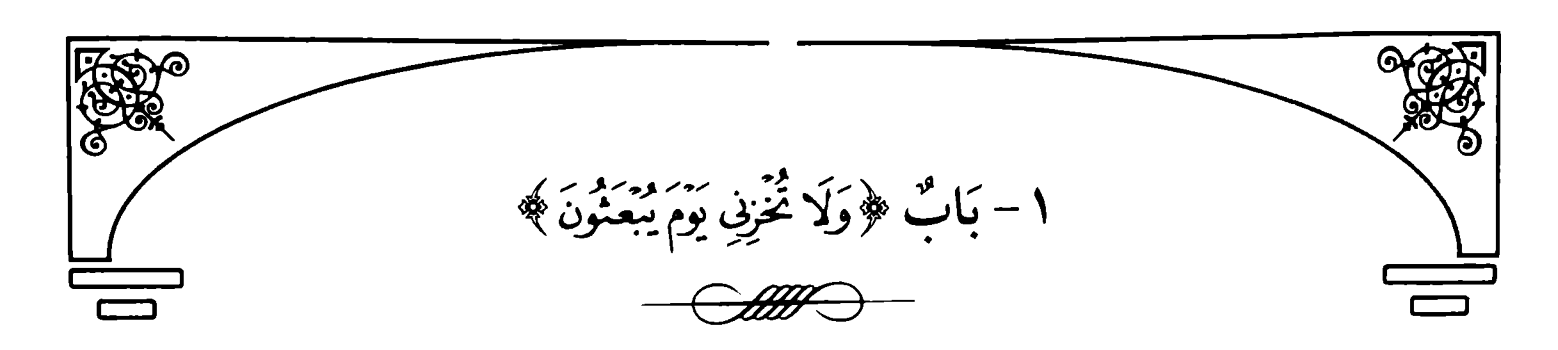
---

[١] المصانعُ هي البناء المُحْكَمُ، وهي عندنا بمعنى: مكان الصناعة.

[٢] إذا كان كذلك تكون الحالُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تكون مُؤَكِّدةً لعاملها.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: وخَلَقَ الجِبِلَّةَ الأولين، ويُقال: «جِبِلًّا» و«جُبُلًا» كما قال المؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ، ومنه قوله تعالى في سورة يس: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾.





١- بَابُ ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾

٤٧٦٨- وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَهْمَانَ، عَنِ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَرَى أَبَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ الْغَبَرَةُ وَالْقَتَرَةُ».

الْغَبَرَةُ هِيَ الْقَتَرَةُ[١].

٤٧٦٩- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ: حَدَّثَنَا أَخِي، عَنِ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ، عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَيَقُولُ اللهُ: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ»[٢].

---

[١] الصواب: أن القَتَرَةَ أبلغُ وأشدُّ من الغَبَرَةِ، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس:٤٠-٤١] وهي أبلغُ حتى عند العامَّة، فإنهم يرون أن القَتَرَ أبلغُ من الغَبَرَة، وقد ذكرنا في (أصول التفسير) لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن القرآن ليس فيه شيءٌ مُترادفٌ، ولو قلنا بهذا لكان معنى هذا أن القرآن فيه شيء مُكَرَّرٌ مترادفٌ، وهذا لا يُمْكِنُ.

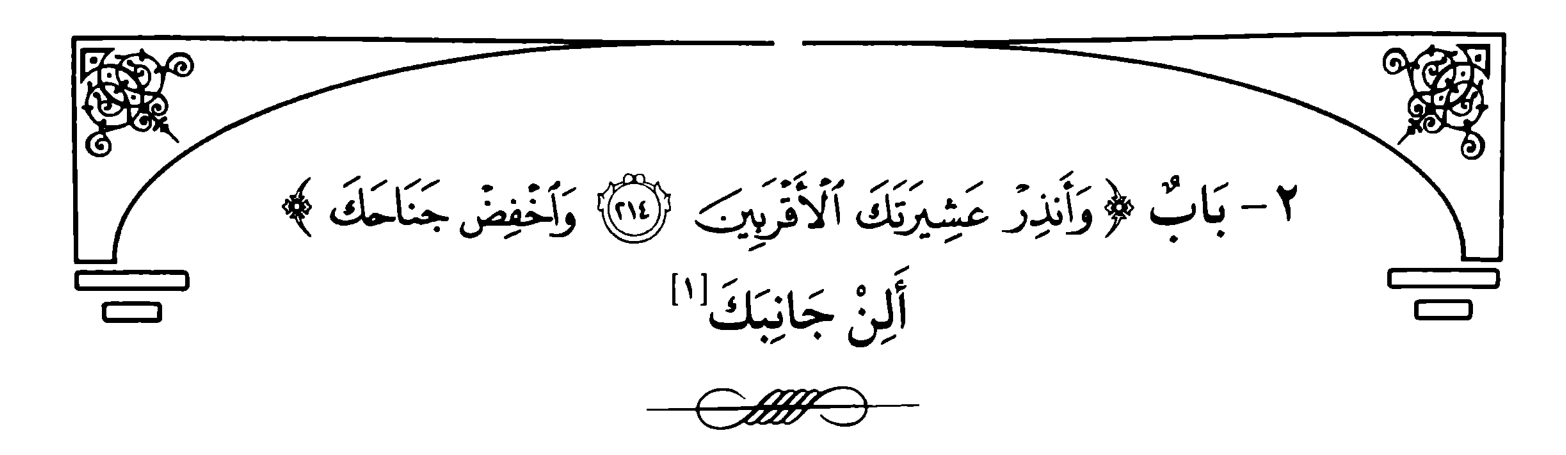
[٢] هذه الرِّواية بيَّنت اتِّصالَ الرِّواية، ولا إشكالَ في أن الحديث مُتَّصِلٌ، ولا يُعْتَبَرُ الطريق السابق من باب المزيد في مُتَّصل الأسانيد؛ لإمكان الجمع؛ إذ إنه يُمكن أنْ يُحدِّثَهُ أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مباشرةً، وأن يُحدِّثه أبوه عن أبي هُرَيْرَةَ.

....

= وقوله: «أَنْ لَا تُخْزِيَنِي» وجه النصب: أنَّ «أَنْ» مصدريةٌ، فتنصب الفعل، ووقع في نسخة: «تُخْزِنِي» والأُولَى هي الصواب.

وهنا قال الله عَزَّوَجَلَّ: «إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ» وإذا كان كذلك لم يكنْ هناك خِزْيٌ ولا ذُلٌّ لإبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأن هذا حُكْمُ الله عَزَّوَجَلَّ.





٢- بَابٌ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ أَلِنْ جَانِبَكَ[١]

٤٧٧٠- حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ: حَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: «يَا بَنِي فِهْرٍ! يَا بَنِي عَدِيٍّ!» لِبُطُونِ قُرَيْشٍ، حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا؛ لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟»

---

[١] هذه الآية ممَّا استدلَّ بها القائلون بأن في القرآن مجازًا؛ حيثُ قالوا: إن الرسولَ ﷺ ليس له جناحٌ، وإنما هو كناية عن خفض نفسه، ولِين جانِبِه، فعبَّر بهذا عن هذا، وقد سَبَقَ أنه ليس في القرآن مجازٌ، وليس في اللغة العربيَّة مجازٌ أيضًا، فكيف نُجيب عن هذا؟

نقول: نُجيب عن هذا بأن المفهومَ من مثل هذا التعبير في اللغة العربية أن المعنى: لا تترفَّع؛ لأن الطائرَ باعتباره يطيرُ يكون عاليًا، وهو إنما يطير بجناحِهِ، فمن باب المُبالغة في إِلَانة الجانب يُعبِّرونَ هذا التعبير: «اخْفِضْ جَناحَكَ» ويعرفون أن المراد: لا تتعالَ في نفسك، كما يتعالى الطيرُ، بل اخفضِ الجَناحَ، وما دامت اللفظةُ في مكانها قد عيَّنَتْ معْنَاها فهي حقيقةٌ.

قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ! أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟! فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[1].

---

[١] في هذا الحديث دليلٌ على فوائدَ، منها:

١- امتثالُ أمْرِ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حتى مع الشدَّة؛ لأن الأمْرَ في مثل هذه الحال في ابتداء الدعوة يكون صعبًا، ويخشى الإنسانُ على نفسه من السُّخرية والبطش وغير ذلك، ومع هذا لم يَثْنِه ذلك عن عزْمِهِ ﷺ، وامتثالِهِ لأمْرِ ربِّه.

٢- أن مكَّةَ في ذلك الوقت كانت قريبةً مجتمعةً؛ ولهذا سمعه الناسُ، ولا يُقال: لعلَّ هذا من آيات الله أن الله تعالى بلَّغ صوتَ نبيِّه ﷺ لجميع قُرَيْشٍ؛ لأنه من المعروف أن مكَّةَ كانت صغيرةً مُتقاربةً.

٣- خُبْثُ أبي لهب؛ فإنَّ الواجبَ عليه أن يكون من أنصاره، لا من أضداده؛ لأنه عمُّه، ولم يُجرِّبْ عليه كذِبٌ، فإذا كان الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يُجرَّبْ عليه الكذبُ كان الواجب على عمِّه أن يُدافِعَ عنه، ولكن لخُبْثِهِ وعُتُوِّه وتمرُّده فَعَلَ ما فَعَلَ؛ ولهذا أنْزَلَ الله تعالى سورةً كاملةً في بيان عُقوبته وخَسارته في الدنيا والآخِرَة، فقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخِرِ السورة؛ لأن هذه المعصيةَ وقعتْ منه، فصارت أكْبَرَ ممَّا لو وقعتْ من رَجُلٍ بعيدٍ عن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

٤- حُسْنُ عَرْضِ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في حديثه، وبلاغته؛ فإنه ضَرَبَ مَثَلًا سابقًا؛ ليُلْزِمَهم بما يقول بعدُ، كأنه أراد أن يُلزِمَهم بهذا المَثَل، فكما أنَّكم تُصدِّقونني في هذا فصَدِّقُوني في هذا.

٤٧٧١ - حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ: أَخبَرَنَا شُعَيبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبدِ الرَّحْمنِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ! لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا».

تَابَعَهُ أَصْبَغُ، عَنِ ابْنِ وَهْبٍ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ[١].

---

[١] هذا الحديث هل هو مُرْسَل أو مُتَّصل؟

الجواب: هو مُرْسَلُ صحابيٍّ؛ لأن أبا هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ما شَهِدَ هذا الأمرَ، ولكنه نُقِلَ له، على أن فيه احتمالًا بعيدًا أن يكون صادَفَ حضورَهُ إلى مكة، وسَمِعَ النبيَّ ﷺ يقول هذا، لكنَّهُ بعيدٌ.

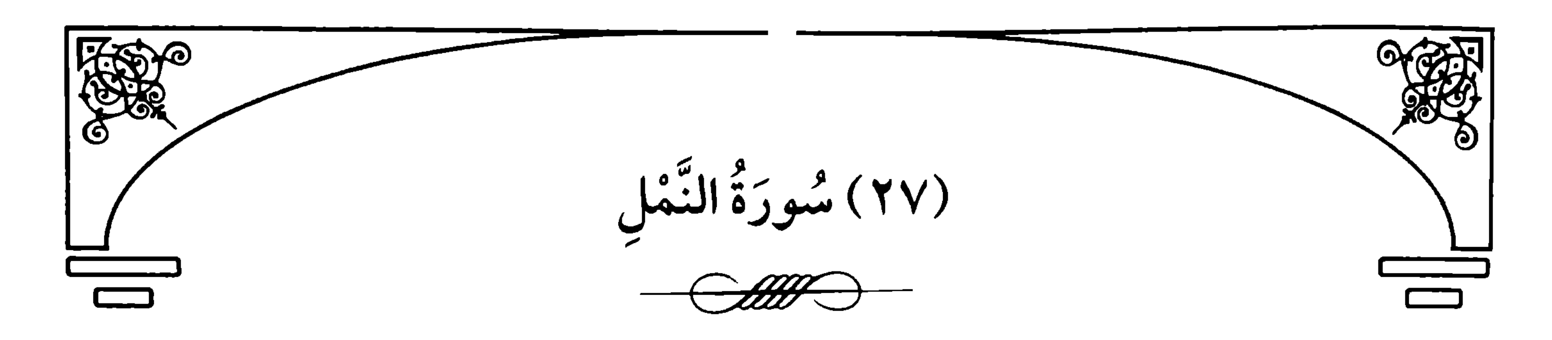
وقد سَبَقَ أن مُرْسَل الصحابيِّ حُجَّةٌ حتى لو علمنا يقينًا أنه لم يسمعه من الرسولِ ﷺ، كما لو روى محمَّدُ بنُ أبي بكر عن رسولِ الله ﷺ حديثًا، فإننا نجزمُ أنه ما سمع الرسولَ ﷺ، ولكنَّنا نحكم بأنه مُتَّصل، وأنه صحيحٌ.

وهنا إشكالٌ: كيف قال النبيُّ ﷺ: «وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا» مع أنَّ فاطمةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا كانت في ذلك الوقت صغيرةً؟ وكيف خوَّفها من عذاب الله؟!

....

= نقول: إن كانت لم تبلغ فالرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فعل ذلك؛ لأجل إظهار أنه لا يُريد التعصُّبَ؛ ولهذا دعا ابنتَهُ، وتبرَّأ من أنْ يَمْلِكَ لها من الله شيئًا وإن كانت صغيرةً، وقد يكونُ الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عنده علمٌ بأن هذه البنتَ ستكبر، وتبلغ سِنَّ التكليف.





(٢٧) سُورَةُ النَّمْلِ

الخَبْءُ: مَا خَبَأْتَ[١].

---

[١] يعنـي بذلك قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل:٢٥].

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ قيل: إن «أَلَّا» مُتعلِّقة بما قبلها، والتقدير: فهم لا يهتدون أنْ يسجدوا، وعلى هذا القول تكون «لا» زائدةً، فهي كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف:١٢] أي: ما منعك أنْ تَسْجُدَ؟

وقيل: إنَّ أصلها «أَلَا» والتقديرُ: ألا يا قومي! اسجدوا، فيجعلون «يا» في كلمة ﴿يَسْجُدُوا﴾ حرفَ نداءٍ.

لكن هذا القول بعيدٌ من اللفظ، والأوَّلُ أقْـرَبُ، يعني: هؤلاء لا يهتدون إلى الحقِّ الذي هو السجودُ لله عَزَّوَجَلَّ.

والخَبْءُ هو المُخْفَـى الذي لا يُعْلَم، ومنه في لغتنا: «خبَّأت هـذا الشيءَ» أي: أخفيتُهُ، ونحن نقول: «غَبَّيْتُه» فهل هي من باب تبديل الخاء غينا أو هي مأخـوذةٌ من مادَّةٍ أُخْرى كالغيب؟ هذا محتملٌ.

إذن: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ أي: ما اخْتبَأَ واخْتفَى، كالحبوب التي يُخرجها الله عَزَّوَجَلَّ من الأرض، والمعادن، ونحوها.

﴿لَا قِبَلَ﴾ لَا طَاقَةَ[١].

الصَّرْحُ: كُلُّ مِلَاطٍ اتُّخِذَ مِنَ القَوَارِيرِ، وَالصَّرْحُ: القَصْرُ، وَجَمَاعَتُهُ: صُرُوحٌ[٢].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾ سَرِيرٌ كَرِيمٌ: حُسْنُ الصَّنْعَةِ، وَغَلَاءُ الثَّمَنِ[٣].

= وأمَّا ما خَبأ في السماء فقيل: إنه المطرُ؛ لأنه لا يُعْلَمُ، ولا يُعْلَم متى نزوله؟ فهو مُخْتَبِئٌ، أو يُقال: إن الخبءَ يكونُ في الأرض، لكن عبَّر بهذا؛ لأنه يتكلَّم عن الثِّنتين جميعًا، كقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ [الأنعام:١٣٠] مع أنَّ الصحيحَ أنَّ الجنَّ ليس منهم رسولٌ.

[١] يعني: قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ [النمل:٣٧] أي: لا طاقَةَ لهم بها.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ [النمل:٤٤] وهذا الصَّرْحُ مِلَاط جعله أمامَها؛ لأجل أن يُبيِّن أنه أقْوَى منها، ولأجل أن يُبيِّن غباءَها، فهي لَمَّا رأتْ هذا الصَّرْح ظنَّت أنه لُجَّةٌ، أي: ماءٌ، فكشفت عن ساقيها؛ لئلا تتأثَّر ثيابُها بهذا الماء.

وأمَّا قول مَن قال: إن قدَمها كانت قدَمَ حِمارٍ، وإن سليمانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أراد أن يتبيَّنَ: هل هو كذلك أم لا؟ فهذه من الإسرائيليَّات المُكَذَّبة.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ولعلَّ المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُريد أن العرشَ هو السريرُ الكريمُ، الحَسَنُ الصنعة الغالي الثمن، والكريمُ من كلِّ شيءٍ هو أطيبُهُ

﴿يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ طائعين[١].

﴿رَدِفَ﴾ اقْتَرَبَ.

﴿جَامِدَةً﴾ قَائِمَةً[٢].

= وأجودُهُ، ومنه قولُهُ ﷺ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»(١).

وقد وُصِفَ هذا العَرْشُ هنا في الآية بأنه عظيمٌ سواء صحَّ أنه ذو عُلُوٍّ بثلاثين ذراعًا، وأن عَرْضَهُ ثلاثون ذراعًا، وطوله ثلاثون ذراعًا، أم لم يصحَّ، فالمهم أنه من أعظمِ العروش، ومع هذا جيءَ به إلى سليمانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قبلَ أن يرتدَّ إليه طرْفُهُ بقُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

[١] هذا في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي: طائعين مُستسلمين، وليس المراد: الإسلامَ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنها ما أسلمتْ إلا بعدُ، حين قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وكذلك نقول في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي: مستسلمين.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ وهذا يكون يوم القيامة، فإنها تكون هباءً، فتطيرُ، فإذا كان يوم القيامة فإنك تراها تحسبها جامدةً قائمةً لا تتحرَّك، ولكنَّها تمرُّ مرَّ السحاب.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين، رقم (١٩/ ٢٩).

....

= وليست هذه الآية كما يزعم بعض الناس: أنها في الجبال في الدنيا، وأن هذا فيه دليلٌ على أن الأرض تدورُ؛ لأن سياق الآية يأباهُ، فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ فليس في الآية دليلٌ لِما ذهبَ إليه هؤلاء.

وأمَّا مسألة دوران الأرض أو عدم دورانها فهي من المسائل التي لا يُمكن إنكارُها، ولا يُمكن إثباتُها، أمَّا إنكارُها فلعدم الدليل على الإنكار، وليس في القرآن ما يُبطل ذلك، وأمَّا إثباتُها فليس في القرآن نصٌّ صريحٌ على أنها تدور، وإن كان قد يُستفاد من قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥] أن فيها شيئًا من الحركة، وهذه الجبال تُرسيها حتى لا تضطربَ؛ لأن المَيَدان أخصُّ من مُطْلَق الحركة[١].

وعلى كل حالٍ: فهذه المسائل لم يتبيَّن لنا مصلحةٌ في بحث كونها تدور أو لا تدور، فإن تبيَّن لأحدٍ من الناس في ذلك مصلحةٌ في إثبات أنها تدور؛ ليُرتِّب على ذلك أشياء كنَصْب الصواريخ وما أشبهها؛ فليفعلْ.

أمَّا مسألة الاعتقاد فإننا في هذه المسألة نقول: الله أعلمُ بحالها، ولكنَّ الشيءَ الذي يجب أن نعتقده هو أن الشمس هي التي تدور على الأرض، ويكون باختلاف

---

(١) يُنْظَر ما تقدَّم في تفسير سورة النحل، (ص:١١٩).

﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ اجْعَلْنِي[١].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿نَكِّرُوا۟﴾ غَيِّرُوا[٢].

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ يَقُولُهُ سُلَيْمَانُ.

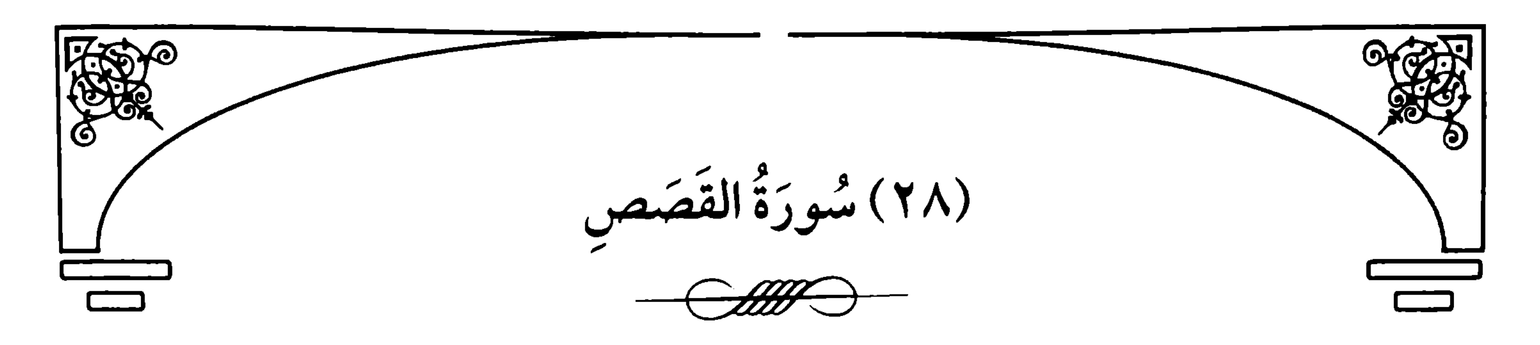
الصَّرْحُ: بِرْكَةُ مَاءٍ ضَرَبَ عَلَيْهَا سُلَيْمَانُ قَوَارِيرَ، أَلْبَسَهَا إِيَّاهُ.

= دورانها اختلافُ الليل والنهار؛ لأن هذا هو ظاهرُ القرآن، ولا يُمكن أن ندَعَ هذا الظاهر من كتاب الله وسُنَّة رسـوله ﷺ لمُجَرَّد آراء، فإنْ تبيَّنَ للعباد ذلك فإن الآية يُمكن أنْ تُؤَوَّلَ على معنًى آخَرَ يُطابق الواقعَ؛ لأنه لا يُوجَدُ شيءٌ في القرآن أو السُّنَّة الصحيحة عن النبيِّ ﷺ يُخالِفُ الواقعَ أبدًا.

[١] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل:١٩] وظاهر الصيغة أن ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ بمعنى: أَلْهِمني، وليست بمعنى: اجعلني، ولو قدَّرتها بمعنى: اجعلني صار المعنى: ربِّ اجعلنـي أن أشكر نعمتك، ولا يستقيم الكلام؛ لأن ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ تُؤَوَّلُ بمصدر، لكن إذا كان المعنى: ربِّ ألهمني أو أعنِّي أن أشكر كان هذا هو الصواب.

[٢] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل:٤١] أي: غيِّروا ملامحَهُ بأشياء؛ لننظر عن فِطْنَةِ هذه المرأة.





(٢٨) سُورَةُ القَصَصِ

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إِلَّا مُلْكَهُ، وَيُقَالُ: إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ[1].

---

[١] قول البخاريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِلَّا مُلْكَهُ» هذا من أعجبِ ما يكون؛ فإنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من السلف، وغريبٌ أن يقع منه هذا التأويل؛ لأن هذا تحريفٌ، وهو بعيد من الصواب، وأين الوجْهُ من المُلْكِ؟!

واعلم أن في الآية تفسيرين:

أحدهما: ما ذكره بقوله: «وَيُقَالُ: إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ» أي: أن كل شيء من الأعمال هالِكٌ وتالِفٌ، ولا ينفع صاحبَهُ، إلا ما أراد به وجْهَ الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦].

القول الثاني: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فكلُّ شيءٍ هالِكٌ إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه باقٍ، وهذا كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

ولا شَكَّ أن اللسان العربي يُعَبِّر بالوجه عن الذات؛ لأن الوجْهَ هو أشرف ما في الذات؛ فلذلك يُعَبَّر به عن الذات كلِّها.

....

وهناك قولٌ رابعٌ باطلٌ، يقولون: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: أن الله يفنى إلا وجْهُهُ، وهذا من أعظم ما يكون تنقُّصًا لله عَزَّوَجَلَّ، فهو قولٌ باطلٌ، ولا يصحُّ.

والصواب في تفسير الآية المُتعيِّنُ: أنه إمَّا أن يُراد بها ما ذكره المؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «**وَيُقَالُ: إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ**» أو أن المراد: إلا الله عَزَّوَجَلَّ نفسَهُ، مع إثبات الوَجْهِ، ولسنا نقول: إن المراد: إلا الله، ولا نُثْبِت الوجْهَ، بل هذا كما أننا نقول في قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤] أي: تجري ونحن نراها بأعيُننا، فنُفَسِّره بالرُّؤْية، لكن بالعين، فهذه كذلك أيضًا، وكذلك قوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس:٧١] المراد بذلك: ذاتُ الله عَزَّوَجَلَّ.

والحاصل: أن هذا التفسير من المؤلِّفِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفسيرٌ غريب جدًّا، وهو يدلُّ على أن الإنسان مهما كان فإنَّهُ محلُّ نقصٍ، وقد يفوتُهُ بعضُ الشيء.

ثم ههنا بحثٌ آخَرُ، وهو: هل الاستثناء في الآية مُتَّصل أو مُنْفَصل؟

الجواب: إن قلنا: إنه يصحُّ إطلاق الشيء على الله فهو مُتَّصلٌ؛ لأن المُسْتَثْنَى من جنس المُسْتَثْنَى منه، فقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ يعني: إلا هذا الشيء.

وإن قلنا بعدم جوازه فإن الاستثناء يكون مُنْقَطعًا إن كان المراد بالوجه: ذات الله عَزَّوَجَلَّ، أمَّا إذا كان المراد بالوجه: ما عُمِلَ لله فالاستثناء مُتَّصلٌ.

وحينئذٍ يكون الاستثناء مُتَّصلًا في حالين: إذا قلنا: إن الشيءَ يُطْلَقُ على الله، أو قلنا: إن قوله: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: ما أُريد به وجْهُهُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ الحُجَجُ [١].

= والصحيحُ: أن الله تعالى يُطْلَق عليه اسم الشيء، وقد ذكر البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك في كتاب التوحيد، قال: «فَسَمَّى اللهُ تَعَالَى نَفْسَهُ شَيْئًا» يعني في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:١٩] فأخبر عن نفسه بالشيء، فصار يصحُّ أن نقول: إن الله شيءٌ، لكننا نقوله خبرًا لا تسميةً، فلا يصحُّ أن نُسَمِّيَ اللهَ بالشيء، لكن نُخْبر عنه بالشيء(١).

فإن قال قائلٌ: ولكنَّ البخاريَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عرض صحيحَهُ على الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره(٢)، فكيف وقع هذا التفسير الغريب؟

نقول: رُبَّما كانت النسخة التي عرَضَها عليه كان البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقلها عن مَعْمَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣)، فتسامحوا حيث نقلها عن رجل من أهل اللغة، وأتى بقول آخَرَ صحيح في قوله: «**وَيُقَالُ: إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ**».

[١] قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

وفي هذه الآية: دليلٌ على أن المسؤول عنه أقوال الرسل، لا أقوال غيرهم، ففيها إبطال التقليد، وأن الإنسان إذا قلَّد، وسُئِلَ يوم القيامة، فإنه لا يُسْأَل، ويُقال: ماذا أجبت الإمام أبا حنيفة أو مالكًا أو سُفيان الثوريَّ، أو الشافعيَّ، أو أحمد، أو داود الظاهريَّ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، أو غيرهم؟ إنما يُسْأَل، فيُقال: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

---

(١) يُنْظَر: التعليق على الباب رقم (٢١) من كتاب التوحيد.
(٢) يُنْظَر: فهرسة ابن خير الإشبيلي، (ص:١٣٢).
(٣) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي، توفي سنة (٢١٠)، وهذا في كتابه مجاز القرآن (٢/ ١١٢).

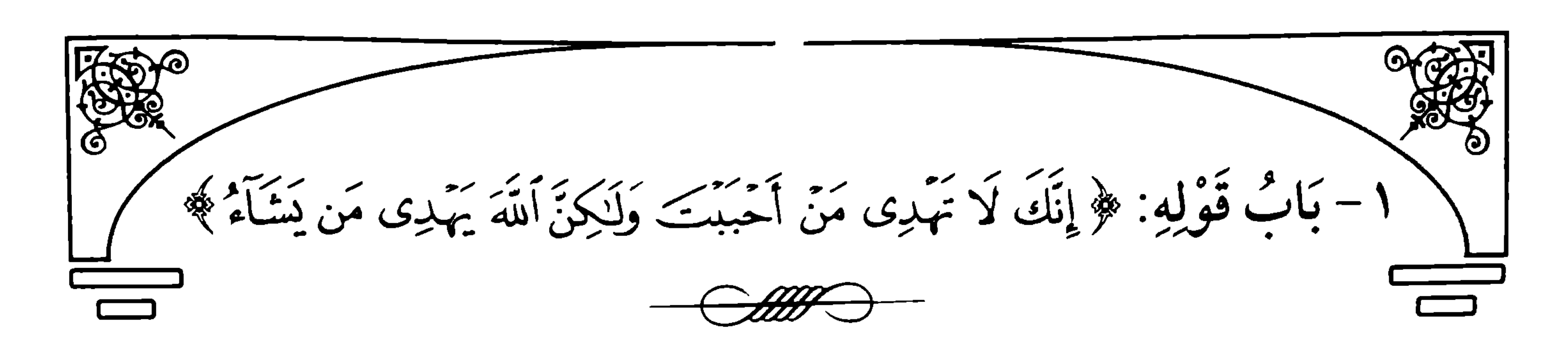
....

= ويُسْأَل أيضًا عن العبادة: ماذا كنتم تعبدون؟ وهذا هو السؤال عن «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» فإن أجاب الإنسان بالصواب نجا، وإن عَمِيَتْ عليه الأنباءُ -كما قال الله عَزَّوَجَلَّ- فإنه قد هلك؛ ولهذا قال: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

فإن قلت: هل يكون لي حُجَّة إذا قلَّدت عالِمًا في فتواه؛ لأني لا أعلم؟

فالجواب: نعم؛ لأنك مأمورٌ بذلك، قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].





١- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾

٤٧٧٢- حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ المُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ المُغِيرَةِ، فَقَالَ: «أَيْ عَمِّ! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟! فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدَانِهِ بِتِلْكَ المَقَالَةِ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[١].

---

[١] هذه الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ لا تُعارض قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]؛ لأن المرادَ بإثبات الهداية للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هدايةُ الدلالة والإرشاد، والمراد بالهداية المنفِيَّة عنه: هدايةُ التوفيق؛ فإنَّها بيد الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لا يعني: أنك تهدي مَن لا تُحِبُّ؛ لأنه إذا كان ينتفي عنه هدايةُ مَن يُحِبُّه فإن مَن لا يُحب هدايتهُ من بابِ أَوْلَى، ومع هذا فإنَّ

....

= الرسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يحبُّ الهدايةَ لكل أحد، لكنَّهُ لا يحبُّ كل أحد من الناس، والناس يختلفون، فليس يحبُّ غيرَ عمه كمحبته عمَّهُ.

ويُمكن أن يُقال: إن قوله: ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ عامٌّ أُريد به الخاصُّ، وهو أبو طالب.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ سبق أن ذكرنا قاعدةً، وهي: أن كل شيءٍ علَّقه اللهُ عَزَّوَجَلَّ بالمشيئة فإنه مُتضمِّن للحِكْمة؛ لأنَّ الله تعالى ليس له مشيئةٌ مُجرَّدةٌ، بل كل ما شاءه فإنه لحِكْمة، سواءٌ كان إيجادًا أو إعدامًا، فِفعْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس مُجرَّدَ مشيئةٍ، ولكنه مشيئةٌ بحِكْمة.

وفي الآية من تفويضِ الأمرِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وأن النبـيَّ ﷺ لا يملكُ لأحدٍ نفْعًا ولا ضرًّا ما هو ظاهرٌ.

وقول الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**» فيه إشارة إلى محبَّة النبيِّ ﷺ لعمِّه أبي طالب، وأنه يحبُّ أنْ يَغْفِرَ اللهُ له، وكأنه ﷺ حين قال: «**مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**» كأنه يتوقَّع أن الله عَزَّوَجَلَّ ينهاهُ عن الاستغفار لِمَن مات على الشِّرْكِ.

وفي هذا الحديث من الفوائد:

١ - خطورةُ جُلساء السوء؛ فإنَّ هؤلاء الجُلَساءَ قد يُغْرُون الإنسانَ مع محبَّتِهِ للخير، فالنبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ طلب من عمِّه أن يقول: «لا إلهَ إلا الله» ولكنَّ أبا جهل وعبدَ الله بنَ أبي أُميَّة قالا له: «أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟!» وهذه عُنْصريَّةٌ وعصبيَّةٌ، فكان الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يعرض عليه، ثم يُعيدان، ويعرض، ثم يُعيدان، وكان آخِرُ الأمرِ أنْ قال: «عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» وأبى أن يقول: «لا إلهَ إلا الله».

....

٢- أنه ينبغي تلقينُ المُحْتَضر، فيُؤْمَرُ بأنْ يقول: «لا إلهَ إلا الله» إن كان مُشْرِكًا؛ لأنه إن قالها كَسَبَ، وإن أَبَى فهو على كُفْرِهِ، ولكن هل يُلَقَّن المسلمُ مثل هذا التلقين، فيُؤْمَر، أو لا؟

نقول: ينبغي أن يُنْظَر إلى حال الميِّت، فإن كان معه ضجرٌ وتكلُّفٌ ومشقَّةٌ فإنَّه إذا أَمَرَهُ بذلك في مثل هذه الحال فرُبَّما يقول: لا، أو يكره في قلبِهِ مثلَ هذا التلقين؛ لأن الإنسانَ في تلك الحال قد يفقد عقلَهُ، ولا يُسَيْطِرُ عليه.

وأمَّا إذا كان مُطْمَئِنًّا -كما يُوجَد من بعض المحتضرين- فلا حَرَجَ في أن يُقال له: «قل: لا إلهَ إلا الله» قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إذا قالها مرَّةً فاسْكُتْ، ولا تُحَدِّثْهُ بشيءٍ، فإن تكلَّم بعدُ فأَعِد عليه التلقينَ؛ ليكونَ آخِرُ كلامه من الدنيا: «لا إلهَ إلا الله».

وقول الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**» أي: أجعلها حُجَّةً لي عند الله بأنك مِتَّ على التوحيد.

وفي قوله: «**أُحَاجُّ**» إشارةٌ إلى أن التوبة في هذه الحال قد لا تنفعُ، وإلا لقال: «إذا قُلْتَهَا نَجَوْتَ» ولكنَّهُ قال: «**أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**» فقد ينفعُ ذلك، وقد لا ينفعُ، وقد بيَّن اللهُ عَزَّوَجَلَّ في كتابه أن ذلك لا ينفعُ في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء:١٨] إلا أنه إذا كان معه صَحْوُه، ولم تصل الرُّوحُ الحلقومَ، فهذا قد ينفعه عند الله عَزَّوَجَلَّ.

٣- من فوائد الحديث: الإشارةُ إلى إثبات أسباب النزول؛ لقوله: «**فَأَنْزَلَ اللهُ**» فالقرآنُ كلامُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يتكلَّم به أحيانًا بلا سبب، وأحيانًا لسبب.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾ لَا يَرْفَعُهَا العُصْبَةُ مِنَ الرِّجَالِ.

﴿لَتَنُوٓأُ﴾ لَتُثْقِلُ[١].

﴿فَٰرِغًا﴾ إِلَّا مِنْ ذِكْرِ مُوسَى[٢].

٤- أن كلام الله عَزَّوَجَلَّ يتعلَّق بمشيئتِهِ؛ لأن هذه الآية نزلت بعد وقوع تلك الحادثة، وهو دليلٌ على أن كلام الله صفةٌ فِعْلِيَّةٌ تتعلَّق بمشيئتِهِ، خلافًا لِمَن قال: إن كلام الله عَزَّوَجَلَّ صفةٌ نفسيَّةٌ لا تتعلَّق بمشيئتِهِ، بل هي كعلمه موصوف به أزلًا وأبدًا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ أي: يمتنع غايةَ الامتناعِ، والمراد بالامتناع هنا: الامتناعُ الشرعيُّ، أي: لا يُمْكِنُ لِمُؤْمِنٍ حقًّا أن يستغفرَ للمُشْرِكِ أبدًا.

فيُؤْخَذ منه: أن الاستغفارَ للمشركين يُنافي كمالَ الإيمان، وهو مع كونِهِ مُنافيًا لكمال الإيمان اعتداءٌ في الدعاء؛ لأنه طلب من الله تعالى ما لا يُمْكِنُ شَرْعًا، ودعاء ما لا يُمْكِنُ شَرْعًا كدُعاءِ ما لا يُمْكِنُ قَدَرًا، وهو اعتداءٌ في الدُّعاء.

[١] قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ﴾ أي: كَنْزًا ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ أي: تثقل بالعُصْبة، وليسوا العُصْبَةَ الضعيفين، ولكن ﴿أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦] وهذه هي المفاتيح، فما بالُكَ بالأبواب؟! ستكون كثيرةً.

[٢] يعني: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص:١٠] يعني: من ذكر الناس، إلا من ذِكْرِ موسى، فإن قلْبَها مملوءٌ به.

ويحتمل أن معنى ﴿فَٰرِغًا﴾ أي: ليس فيه شيءٌ، فلا يتصوَّر شيئًا، ولا يُفَكِّر في شيءٍ؛ لِمَا دهَمَها من هذا الأمر، حين بَلَغَها أنَّ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقع في يد آلِ فرعون.

﴿ٱلْفَرِحِينَ﴾ المَرِحِينَ[١].

﴿قُصِّيهِ﴾ اتَّبِعِي أَثَرَهُ، وَقَدْ يَكُونُ: أَنْ يَقُصَّ الكَلَامَ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾[٢].

﴿عَن جُنُبٍ﴾ عَنْ بُعْدٍ، عَنْ جَنَابَةٍ وَاحِدٌ، وَعَنِ اجْتِنَابٍ أَيْضًا[٣].

= وهل هناكَ فرْقٌ بين الفؤاد والقلب؟

الجواب: لا، هو نفسه.

[١] المراد: الفَرَحُ الذي يُؤَدِّي إلى المَرَحِ والبَطَرِ والأَشَرِ، فيحملهم فرَحُهُم هذا على الغَفْلة واللَّهْوِ، فهذا هو الذي لا يُحِبُّه اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا الفَرَحُ الذي يكون سُرورًا، مع تحفُّظ الإنسان وعدم تعدِّيه، فهذا لا بأسَ به؛ فإن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يفرحُ، وكذلك الصحابة كانوا يفرحون، والله عَزَّوَجَلَّ أمَرَنا أنْ نَفْرَحَ بفضلِ الله ورحمتِهِ ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨].

[٢] ذكر البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن القَصَّ يكون على وجهيْنِ:

الأول: قصُّ كلامٍ، وهو حكاية القصَّة.

الثاني: قصُّ الأثرِ، وهو تتبُّع أثرِ الشيء، وكلاهما يُعَيِّنه السياق.

فقوله هنا: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص:١١] أي: تتبَّعي أثره، ويحتملُ أنَّ المراد: تتبَّعي خبَرَهُ، ثم أخبرينا به، فيكون من باب قصِّ الخبَرِ، وهو حكاية القصَّة.

[٣] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ [القصص:١١] أي: عن بُعْدٍ.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء:٣٦] فمعناه: الذي بجانبك

يَبْطِشُ وَيَبْطُشُ[١].

﴿يَأْتَمِرُونَ﴾ يَتَشَاوَرُونَ[٢].

العُدْوَانُ وَالعَدَاءُ وَالتَّعَدِّي وَاحِدٌ[٣].

﴿ءَانَسَ﴾ أَبْصَرَ.

الجِذْوَةُ: قِطْعَةٌ غَلِيظَةٌ مِنَ الخَشَبِ لَيْسَ فِيهَا لَهَبٌ، وَالشِّهَابُ فِيهِ لَهَبٌ[٤].

= القريب منك، ولكن إذا قيل: «نظر إليه عن جُنُبٍ» أو «قَدِمَ إليه من جُنُبٍ» فالمراد: من بعيدٍ، أمَّا الجَنْبُ فهو شيءٌ آخرُ غيرُ الجُنُب.

[١] يُريد أن المعنى واحدٌ، لكنها من بابين، فـ: «يَبْطِش» من باب: «ضَرَب» و«يَبْطُش» من باب: «نَصَر» وهذا في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ [القصص:١٩].

والبطشُ هو الأخذُ بشِدَّةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج:١٢] فقوله: «يَبْطِشُ به» أي: يأخذه بشدَّةٍ؛ حتى يقضِيَ عليه.

[٢] أي: أن كلَّ واحد منهم يطلب أمرَ الآخَرِ: ماذا تأمرني؟ ماذا أفعل؟ وهذا هو التشاوُرُ.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ [القصص:٢٨] أي: فلا اعتداءَ عليَّ، سواء قضيتُ العَشْرَ، أو قضيتُ الثمانيَ.

[٤] قول الله تعالى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ والجَذْوَةُ: هي الخشبة الغليظة من الحطب، وفيها نارٌ، لكن بدون لهبٍ، ونحن نُسَمِّيها: الجَمْرَ.

وَالحَيَّاتُ أَجْنَاسٌ: الجَانُّ، وَالأَفَاعِي، وَالأَسَاوِدُ[١].

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ أمَّا الحيَّات فلم تُذْكَرْ في سورة القَصَص، إنما ذُكِرَ فيها الجانُّ، فكأنَّ المؤلِّفَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ انتقل من ذِكْرِ الجانِّ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه:٢٠].

ثم اعلم أن الجانَّ غيرُ الحيَّات؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ وقال: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾.

و«الجانُّ» هذه المادة من الاستتار، ويبدو لي -والله أعلم- أن الجانَّ يتشكَّلون بشكل الحيَّات العظيمة الكبيرة.

وقد قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ في موضع آخَرَ: ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:١٠٧] والظاهر -والله أعلم- أنها حيَّة عاديَّةٌ مثلُ الحيَّات الأُخرى، لكن لعِظَمها كأنها جانٌّ، والجانُّ عظيم الحيَّات، والثعبانُ كذلك كبير الحيَّات، لكنَّ الجانَّ أكبرُ؛ ولهذا قال بعضهم: إنها جانٌّ في صلابتها وقوَّتها، وثعبانٌ باعتبار كِبَرِها، وحيَّةٌ باعتبار أنه اسمٌ شاملٌ.

وفي هذه الآية من قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ ما هو ظاهرٌ، فهذه عصًا من الخشب والعيدانِ تُوضَع في الأرض، فتنقلبُ حالًا ثعبانًا، وتُرْفَع، فتعود حالًا عصًا.

ولهذه العصا شؤونٌ عدَّة، منها: أنه ضَرَب بها البَحْرَ، فانفلق، وضَرَبَ بها الحَجَرَ، فتفجَّر ماءً، وألْقَاها في الأرض فإذا هي ثعبانٌ، ووضعها أمام حِبال السحرة، فالْتَقَمْتَهَا جميعًا، فهذه أربعُ آياتٍ في هذه العصا.

﴿رِدْءًا﴾ مُعِينًا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿يُصَدِّقُنِي﴾[١].

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿سَنَشُدُّ﴾ سَنُعِينُكَ، كُلَّمَا عَزَّزْتَ شَيْئًا فَقَدْ جَعَلْتَ لَهُ عَضُدًا.

مَقْبُوحِينَ: مُهْلَكِينَ[٢].

﴿وَصَّلْنَا﴾ بَيَّنَّاهُ وَأَتْمَمْنَاهُ[٣].

(يُجْبَى) يُجْلَبُ[٤].

وهل يُسَنُّ للإنسان اتِّخاذ العصا؟

الجواب: لا، لكن إنِ احتاج الإنسان إليه فهو طيِّبٌ، وإلا فلا.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص:٣٤] أي: مُعينًا يشهد لي بالصِّدْق؛ لأن العادة جرت أن الإنسان الفَرْدَ إذا انضمَّ إليه غيْرُه صار هذا أقوى لمكانته، فيكون مُساعدًا له.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: المُهْلَكين، وهو مأخوذٌ من القُبْح؛ لأن الهلاك قُبْح للإنسان.

[٣] يُشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ قال: «بَيَّنَّاهُ وَأَتْمَمْنَاهُ» يعني: وأنهيناه أيضًا، فاللهُ تعالى وصَّل لهم القوْلَ، أي: أنهاه إليهم على وجه التمام والبيان.

[٤] هذه في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ

﴿بَطِرَتْ﴾ أَشِرَتْ.

﴿فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ أُمُّ القُرَى: مَكَّةُ وَمَا حَوْلَهَا[١].

﴿تُكِنُّ﴾ تُخْفِي، أَكْنَنْتُ الشَّيْءَ: أَخْفَيْتُهُ، وَكَنَنْتُهُ: أَخْفَيْتُهُ وَأَظْهَرْتُهُ[٢].

= شَيْءٍ﴾ [القصص:٥٧] أي: يُجْلَب إليه، فبيَّن الله مِنَّته عليهم بهذا الحَرَم: أنه آمِنٌ، وأنَّ رزقَهُ مضمونٌ.

[١] سُمِّيت مكَّةُ بذلك؛ لأن جميع القرى تقصدها، فجميع المسلمين يقصدونها كلَّ يوم؛ فإنَّ استقبالها شرطٌ من شروط الصلاة، ويستقبلها المسلمون أيضًا كلَّ عام، فإنَّ حجَّها فرضٌ، وقد قيل: إنها هي أُمُّ الأرض، بمعنى: أنها محور الأرض، ووسط الأرض من الناحية الجغرافية، هكذا قرَّره بعض المتأخرين، وعلى هذا فتكون أُمَّ القُرْى حسًّا ومعنًى.

وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ إذا قال قائل: هل تلا الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ آياتِ الله على كل القُرَى؟

فالجواب: لا، هو بنفسه ما تلاها على كل القُرَى، لكن تلاها خلفاؤُهُ مِنْ بعده من الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ، حتى وصل إلى مشارق الأرض ومغاربها.

[٢] على هذا يكون هذا اللفظ من باب الأضداد؛ لأنه ذكر أن معناه: أخفيته وأظهرته، فهو صالحٌ للمعنى وضده، وكل كلمة تصلح للمعنى وضده فهي عند أهل العلم من الأضداد، لكن ﴿تُكِنُّ﴾ في الآية الكريمة يتعيَّن أن المراد بها: الإخفاءُ؛ لأنه قال: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ﴾ مِثْلُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ﴾.

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ يُوَسِّعُ عَلَيْهِ، وَيُضَيِّقُ عَلَيْهِ[١].

---

[١] اختلف النحويُّون في هذه الكلمة اختلافًا كثيرًا، فقال بعضهم: «وَيْ» بمعنى: أَعْجَب، فهي اسمُ فعلٍ مُضارع، و«كأَنَّهُ» الكاف للتعليل، فهي بمعنى اللام، أي: أَعْجَبُ؛ لأنه لا يُفْلِح الكافرون.

والمؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُريد أن يجعلها من باب التقرير، فقوله: ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بمعنى: ألم تر أنه لا يفلح الكافرون؛ لأنه شبَّهها بقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ﴾.

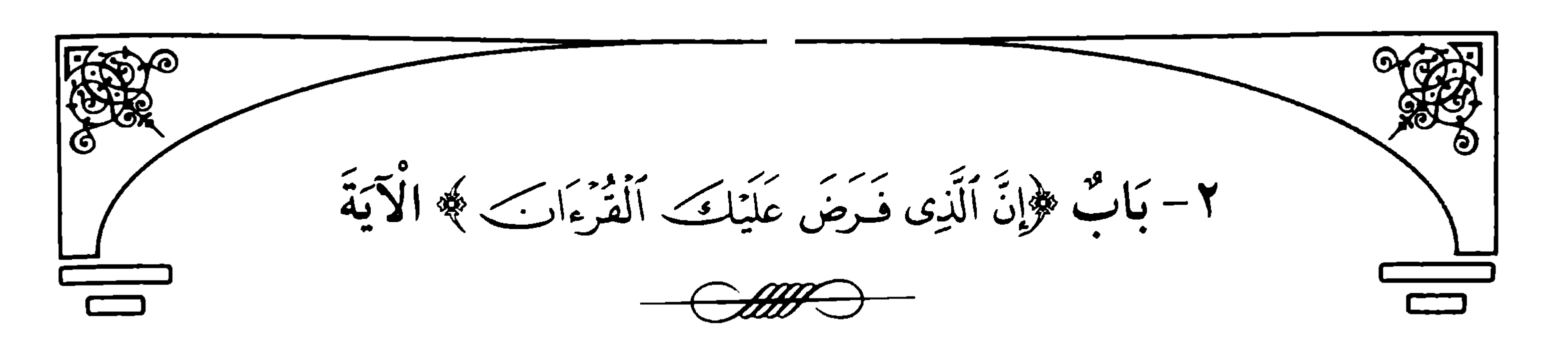
فإن قال قائل: وهل يستقيم ما ذُكِرَ أن هذا التركيب اختصارٌ لكلمات، مثل: ويْلَكَ اعْلَمْ أنَّ؟

فالجواب: يُمكن أن تكون هذه إشارةً، لكنه بعيد؛ لوجهيْنِ:

الأول: أن لفظ العلم غيرُ موجودٍ هنا.

والثاني: أنه ليس من عادة الكلام العربيِّ أن يُؤْخَذَ من كل كلمة أوَّلُها.





٢- بَابُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الْآيَةَ

٤٧٧٣- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ: أَخْبَرَنَا يَعْلَى: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ الْعُصْفُرِيُّ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قَالَ: إِلَى مَكَّةَ[١].

---

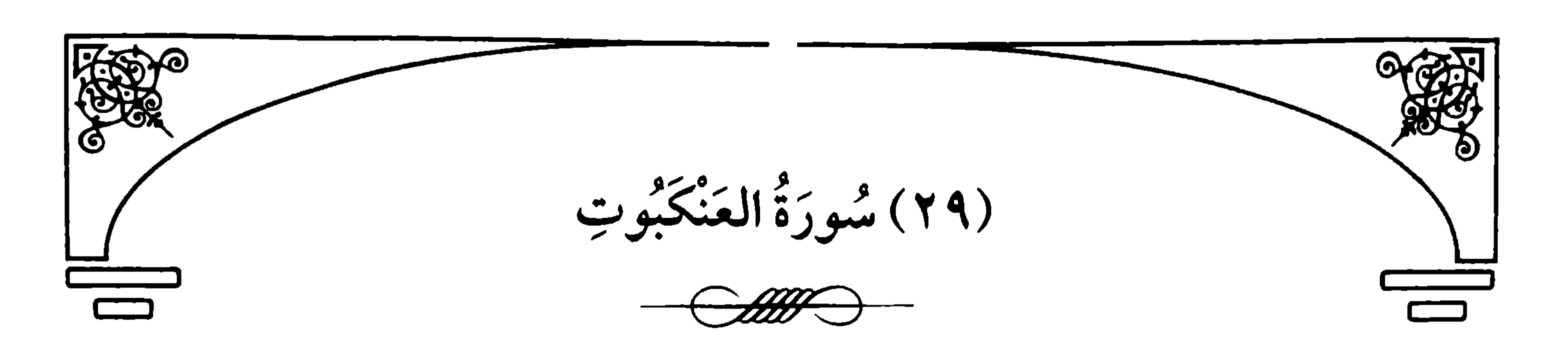
[١] قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ قيل: إن معناها: أنزل عليك القرآنَ، وإن الفرض بمعنى الإنزال، وقيل: المعنى: فرض عليك تلاوتَهُ وإبلاغَهُ والعملَ به، وهذا أصحُّ.

وقوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِلَى مَكَّةَ» فيكون في هذه الآية بُشرى للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأن الله تعالى سيُعيده إلى مكَّة، وأنه سيفتحها.

وقيل: معنى: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إلى اليوم الآخِر، ويكون في هذا إشارة إلى أن نزول القرآن ليس عَبَثًا، ولكنه لغاية، وتكون هذه الغاية هي البعث، وهذا أَقْرَبُ إلى الصواب.

وأمَّا مَن قال: المراد: الموت فقوله ضعيفٌ، وإن كان بالمعنى يعود إلى قول مَن يقول: إلى يوم القيامة؛ لأن كلمة ﴿مَعَادٍ﴾ من العَوْد، والموتُ ليس بعَوْد، إنما الحياة الآخِرَةُ هي العَوْدُ.





(٢٩) سُورَةُ العَنْكَبُوتِ

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ضَلَلَةً[١].

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾ وَالحَيُّ وَاحِدٌ.

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ عَلِمَ اللهُ ذَلِكَ، إِنَّمَا هِيَ بِمَنْزِلَةِ: فَلِيَمِيزَ اللهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[٢].

---

[١] قوله: «ضَلَلَةً» جمع ضالٍّ، وهذا في قول الله تعالى: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ والظاهر أن معنى قوله: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي: ذوي بصيرة في الأمر، وهو الحقُّ الذي جاءهم من الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧] وكأنَّ مُجاهدًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّرها بالمآلِ؛ لأن مَنْ خالف الحقَّ فهو ضالٌّ.

[٢] سبق الجواب عن مثل هذه الآية: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ وأن هذه لا تستلزم أن يكون عِلْمُ الله مُتجدِّدًا، ولكنَّ علمَ الله تعالى بما يحدث على قسمين:

القسم الأول: العلمُ السابقُ، وهو عِلْمٌ بأنه سيحدث، وهذا العِلْمُ لا يترتَّب عليه ثوابٌ ولا عقابٌ.

القسم الثاني: علمٌ لاحقٌ، وهو علم بأنه حَدَثَ، وهذا هو الذي يترتَّب عليه الثواب والعقاب، فيكون العلم هنا يُراعى فيه عَمَلُ العبد، بخلاف الأول، فإنه يُراعى فيه عِلْمُ الله عَزَّوَجَلَّ.

أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ: أَوْزَارًا مَعَ أَوْزَارِهِمْ[١].

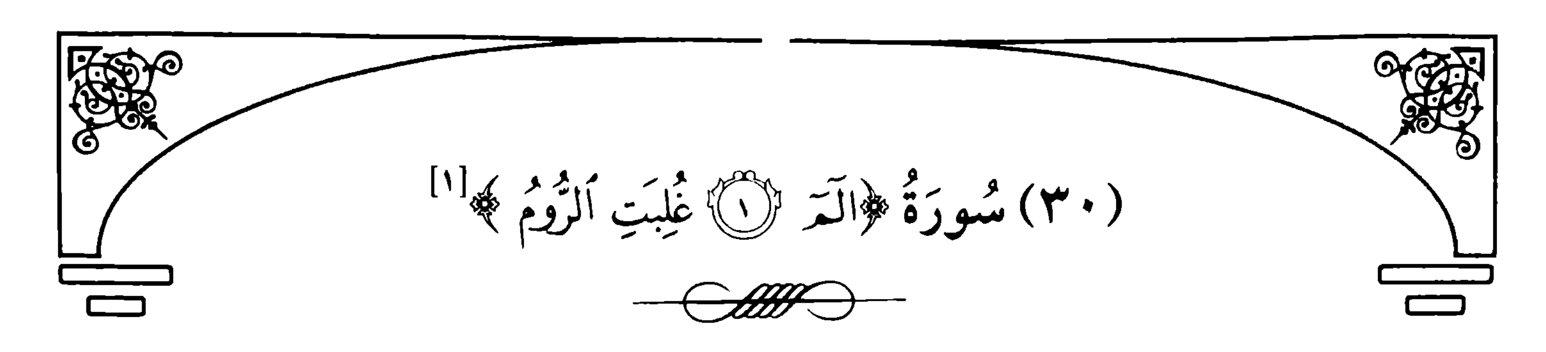
= وعلى هذا يكون المعنى: ليعلمنَّ علمًا يترتب عليه الثواب والعقاب، وحينئذٍ لا يبْقَى إشكالٌ في هذه الآية، ولا يُمكن أن نقول: إنها دالَّةٌ على تجدُّد العلم؛ لأن ذلك أمرٌ مستحيلٌ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

[١] قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: أنهم يقولون ذلك وهم كاذبون، وليسوا بحاملين، لكن يقولون ذلك غرورًا وخداعًا.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهذا باعتبار جزاء الله، أمَّا هم فإنهم لن يحملوا من أثقالهم شيئًا، ولن يَصْدُقوا بما وَعَدُوا.

وإنما حملوا أثقالًا مع أثقالهم؛ لأنهم دعوا إلى الضلالة، ومَن دعا إلى الضلالة فعليه وِزْرُهَا، ووِزْرُ مَنْ عَمِلَ بها.





(٣٠) سُورَةُ ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾[١]

﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مَنْ أَعْطَى يَبْتَغِي أَفْضَلَ، فَلَا أَجْرَ فِيهَا[٢].

---

[١] قول الله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ هذا من الحروف الهجائية التي تُبْتَدأ بها بعض السور، والصحيحُ: أنه ليس لها معنًى في حدِّ ذاتها؛ وذلك لأن الله أنزل هذا القرآن بلسان عربيٍّ مُبينٍ، وهذه الحروف الهجائية باعتبار اللسان العربيِّ المبينِ ليس لها معنًى في ذاتها، فتكون حُروفًا هجائيَّةً ليس لها معنًى في ذاتها، لكن لها مَغْزًى في غاياتها، وهو الإشارة إلى أن هذا القرآن الذي أعجزكم -معشرَ العرب- لم يأتِ بجديد بالنسبة لِمَا تُركِّبون منه كلامَكُم؛ فإنَّ الحروف التي تُركِّبون منها كلامَكُم هي الحروفُ التي جاء بها القرآن، ومع ذلك فقد أعْجَزَكم؛ ولهذا لا تكاد تجد سورةً مبدوءةً بهذه الحروف إلا وبعْدَها مُباشرةً التحدُّثُ عن القرآن.

[٢] يُشير إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ويُخاطب هنا الدافع للرِّبا؛ لأن ﴿ءَاتَيْتُم﴾ بمعنى: أعطيْتُم، وأيضًا إذا دفع الرِّبا فإن هذا يربو في أموال الآخذ، فيزيد.

وقوله: ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يزيدُ عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن هذا الرِّبا الذي يدخل على آخذه لا يزيد مالَهُ إلا فشلًا، وينزع بركته.

وقال بعض العلماء: الخطاب للمُرابين الآخذين، لا المُعْطِين، ويكون المعنى:

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يُنَعَّمُونَ[١].

﴿يَمْهَدُونَ﴾ يُسَوُّونَ المَضَاجِعَ[٢].

الوَدْقُ: المَطَرُ[٣].

= ما آتيتم من العقود تُريدون الرِّبا في أموال الناس، فإن ذلك لا يرْبُو عند الله، وما آتيتم من زكاة تُريدون وجْهَ الله فهذا هو الذي ينفعكم، فتكون الآيةُ دالَّةً على صنفين من الناس:

أحدهما: ظالمٌ للناس بأخذ أموالهم بغير حقٍّ (بالرِّبا).

والثاني: نافعٌ للناس، محسنٌ إليهم بدفع الزكاة.

فأمَّا من حيث اللفظُ فالقولُ الأوَّلُ أصحُّ، وأمَّا من حيث ترتيبُ المعنى فالقولُ الثاني أصحُّ، والآية صالحةٌ لهما جميعًا، لا يتنافيان، فتشمل هذا وهذا.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أي: يُنَعَّمون، والمراد بالروضة: الجنَّةِ، وقد سمَّاها الله تعالى: روضةً، وسمَّاها: رَوْضاتٍ، ولا تنافيَ بينهما، فهي روضة باعتبار الكُلِّ، ورَوْضات باعتبار توزِيعها على أهلها، فلكلٍّ منهم رَوْضةٌ، وهي باعتبار العموم رَوْضةٌ.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يُسَوُّون المضاجعَ، ومنه: المِهَاد الذي يُمْهَد به الصبيُّ.

[٣] قوله: «**الوَدْقُ**» بالرفع، ويجوز «الوَدْقَ» على سبيل الحكاية، وعلى هذا نقول في إعرابها: «الوَدْقَ» مبتدأٌ مرفوعٌ بضمَّةٍ مُقدَّرة على آخره، منعَ من ظهورها الحكاية و«المَطَرُ» خبرُ المبتدإ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ فِي الْآلِهَةِ، وَفِيهِ: ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أَنْ يَرِثُوكُمْ كَمَا يَرِثُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا[1].

---

[١] هذا مَثَل ضربه الله عَزَّوَجَلَّ لهؤلاء المشركين به، فقال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم:٢٨] يعني: هل لكم من هؤلاء المماليك من شركاء -و«مِنْ» هنا زائدةٌ للتوكيد، يعني: هل لكم شركاء- يُشاركونكم في أموالكم التي رزقناكم إيَّاها، تخافونهم في تصرُّفهم في المال؛ لكونهم شركاءَ لكم في المال، كما تخافون أنفسكم لو كان لكم شركاءُ؛ فإن الإنسان إذا كان له شريكٌ فإنه يخاف أن يتصرَّف الشريكُ من شريكه؟

والجواب: لا، فإذا لم يكن لكم ممَّا ملكت أيمانُكم شركاءُ فكيف تجعلون لله تعالى ممَّا مَلَكَ شركاءَ؟! إذا كنتم لا تَرْضَون أنتم لأنفسكم أن تجعلوا لكم شريكًا فيما أعطاكم الله؛ لأنهم مماليكُ لكم، فلا تَرْضَوْنَ أن يكونوا شركاءَ لكم، فكيف تجعلون لله تعالى شريكًا ممَّا مَلَكَ؟!

ولهذا أكذبُ قول يقوله القائلُ: قول قُريش: «لبيَّك لا شريكَ لك، إلا شريكًا هو لك، تملكُهُ وما مَلَكَ»(١) وسبحانَ الله! إذا كان له فكيف يكون شريكًا؟! لكن هذا من سَفَهِهِمْ، وإلا فهُم على جانبٍ كبير من الذكاء، لكن ليس عندهم عقلٌ، فالعقل المُرْشِدُ الذي يُؤَدِّي بصاحبه إلى حُسن التصرُّف مسلوبٌ عنهم، أمَّا الذكاء فهم أذكياءُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، رقم (١١٨٥)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ يَتَفَرَّقُونَ ﴿فَاصْدَعْ﴾[١].

وَقَالَ غَيْرُهُ: ضُعْفٌ وَضَعْفٌ لُغَتَانِ[٢].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿السُّوأَى﴾ الإِسَاءَةُ، جَزَاءُ المُسِيئِينَ[٣].

= وهذا المثل ظاهرٌ؛ ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: مثلَ هذا التفصيل والبيان نُبيِّنُ الآياتِ، لكن لذوي العقول، أمَّا مَن لا عَقْلَ له فإنه لا تتبيَّن له الآياتُ.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يتصدَّعون، والإبدالُ الذي حصل هنا هو قَلْبُ التاء صادًا؛ لاجتماعها مع حرف الصاد، فصارت ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يتفرَّقون، ومنه: تصدُّع الجبل والحَجَر، فإنه إذا تصدَّع تفرَّق بعضُهُ عن بعض.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم:٥٤] وفيها قراءتان سَبعِيَّتَانِ: ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾ و(مِنْ ضُعْفٍ)(١).

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الروم:١٠] وهنا نسأل: أين اسم «كان»؟

الجواب: فيها قولان:

القول الأول: أن ﴿السُّوأَىٰ﴾ هي الاسمُ، يعني: كانت السوأى عاقبةَ الذين كذَّبوا بآيات الله؛ لأن جزاء السيئة سيئةٌ مِثْلُها، فلما أساؤوا كان عاقِبَتُهم السُّوأى.

---

(١) قرأ بفتح الضاد حفص وحمزة والكسائي، وقرأ الباقون بضمها، يُنْظَر: التبصرة، (ص:٦٣٥).

٤٧٧٤- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنَا مَنْصُورٌ وَالأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ يُحَدِّثُ فِي كِنْدَةَ، فَقَالَ: يَجِيءُ دُخَانٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ بِأَسْمَاعِ المُنَافِقِينَ وَأَبْصَارِهِمْ، يَأْخُذُ المُؤْمِنَ كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ، فَفَزِعْنَا، فَأَتَيْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ، وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَغَضِبَ، فَجَلَسَ، فَقَالَ: مَنْ عَلِمَ فَلْيَقُلْ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلِ: اللهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ مِنَ العِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ: لَا أَعْلَمُ، فَإِنَّ اللهَ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ وَإِنَّ قُرَيْشًا أَبْطَؤُوا عَنِ الإِسْلَامِ، فَدَعَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ» فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا، وَأَكَلُوا المَيْتَةَ وَالعِظَامَ، وَيَرَى الرَّجُلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ، فَجَاءَهُ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! جِئْتَ تَأْمُرُنَا بِصِلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللهَ، فَقَرَأَ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَآئِدُونَ﴾ أَفَيُكْشَفُ عَنْهُمْ عَذَابُ الآخِرَةِ إِذَا جَاءَ؟! ثُمَّ عَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾

القول الثاني: أن الاسم هو «أَنْ» وما دخلتْ عليه، وأنَّ ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ مصدرٌ لـ: ﴿أَسَـٰٓـُٔوا۟﴾ أي: أن الذين فعلوا السيئات عُوقبوا بالتكذيب والذَّنْب، فكان هذا الذنب -ذنبُ التكذيب- عقوبةً لإساءتهم وعملهم السيِّئات، وهذا كما يقول العلماء: «بريدُ الكُفْرِ المعاصي».

وعلى كل حال: فهما متلازمان، والأقربُ أن ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ هي الاسم، و﴿عَـٰقِبَةَ﴾ خبرٌ مُقدَّم، يعني: كانت السوأى عاقبةَ الذين أساؤوا، و﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ بدلٌ من ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾.

يَوْمَ بَدْرٍ، وَ﴿لِزَامًا﴾ يَوْمَ بَدْرٍ ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ إِلَى: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ وَالرُّومُ قَدْ مَضَى[١].

---

[١] الشاهد من هذا الأثرِ: قوله: «﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ إِلَى: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ وَالرُّومُ قَدْ مَضَى» وفي الأثر من الفوائد:

١- أن الإنسان إذا سُئِلَ عمَّا لا يعلم يقول: اللهُ أعلمُ، ولا يقول ما لا يعلم؛ لأنَّ هذا من القول على الله بلا علم، وهو مُحَرَّمٌ.

وهذا بمعنى قول الإنسان: «الله أعلم»، لكن «لا أعلم» أحسنُ؛ لأن الرسولَ ﷺ لمَّا سأله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الساعة قال: «مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»(١) ولَمَّا ذكر اللهُ تعالى قول هؤلاء: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف:١٨٧] فهذا وهذا كله جائزٌ، ومعنى: «الله أعلم» أي: لا عِلْمَ لي بذلك.

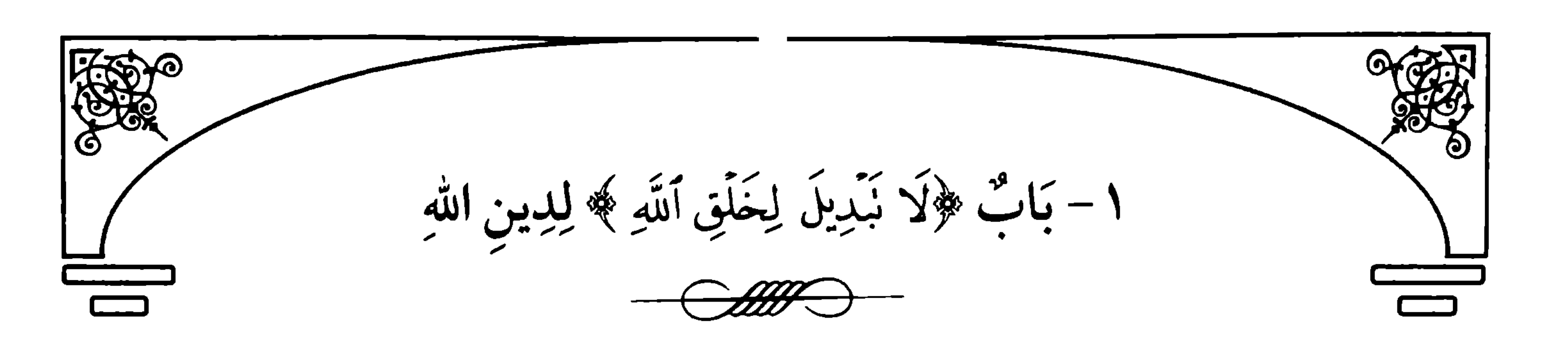
٢- أن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرى أن الدُّخان المذكورَ في قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ يرى أنه الأثر الذي كان بسبب القَحْطِ الذي أصاب قُريشًا، ويستدلُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لذلك بقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ فقال ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن عذاب الآخِرةِ لا يُكْشَفُ، ولكنَّ العذابَ الذي يُكْشَف ما كان في الدنيا.

ثم إن قريشًا عادوا، فبَطَشَ بهم البَطْشَةَ الكُبْرى، وهي يوم بدْرٍ.



---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٩/ ٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه مسلم في الموضع السابق، رقم (٨/ ١) عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



١- بَابٌ ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ لِدِينِ اللهِ

﴿خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: دِينُ الأَوَّلِينَ.

وَالفِطْرَةُ: الإِسْلَامُ[١].

٤٧٧٥- حَدَّثَنَا عَبْدَانُ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ: أَخْبَرَنَا يُونُسُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟»..................

---

[١] ذكر البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أن المراد بقول الله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ أي: دينه، ولكن هذا تفسيرٌ باللازم، فإن الدِّين غير الخَلْق، ولكنَّ الله تعالى فطَرَ الخَلْقَ على معرفته، والتوحيد، والإيمان به، وهذه الفطرةُ لا مُبَدِّل لها، لكنْ قد ورد عن النبيِّ ﷺ أنَّ «كل مولود يُولَدُ على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه، أو يُنَصِّرانه، أو يُمَجِّسانه»(١)، إلا أنَّ هذا لا يقتضي تبديلَ الفطرة الأصليَّةِ، وهي التوحيد والعبادة، فاللهُ تعالى فَطَر الخَلْقَ على ذلك، ولا يُمكن أن نُغَيِّرَ هذه الفطرةَ، لكنَّ هناك تأثيراتٍ تتغيَّر بها.

وقول المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالفِطْرَةُ: الإِسْلَامُ» يعني بذلك قوله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى: كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨/ ٢٢).

ثُمَّ يَقُولُ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[١].

---

[١] هذا المَثَلُ مَثَلٌ مطابق تمامًا، فقوله: «كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ» الجمعاءُ: هي المجتمعة الخَلْق الكاملِةُ، وقوله: «هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟» «من» هنا حرفُ جرٍّ زائدٌ، و«جَدْعَاءَ» مفعول «تُحِسُّونَ» والإحساس يُطْلَق على كل ما يُدْرَك بالحسِّ، فإذا قلت مثلًا للمرئي: ما حسِيتُهُ أي: ما رأيتُه، وللمسموع: ما حسِيتُهُ، أي: ما سمعته، وللملموس: ما حسِيتُهُ، أي: ما أحسسته باللَّمس.

والمعنى: هل تُحِسُّون في هذه التي خُلِقَت وخَرَجَتْ من بطن أمها هل تُحِسُّون فيها جَدْعَاء، وأصلُ الجَدْع هو قطعُ الأنف، والمراد هنا: ناقصةُ الخَلْق، كمقطوعة الأُذُن، أو العين، أو الأنف، أو الرِّجل، أو ما أشبه ذلك؟

والجواب: لا، لا نُحِسُّ، لكن قد يأْتِيها ما يجدعها، وهكذا الفطرةُ، يُخْلَقُ الإنسان فيها على السواء، ثم يأتيه ما يصرفُهُ عن هذه الفِطْرَةِ، والعياذ بالله.

ومن ثَمَّ حذَّر النبيُّ ﷺ من جليس السوء، وقال: إن مَثَله كنافخ الكِيرِ، إمَّا أنْ يَحْرِقَ ثِيابَكَ، وإمَّا أن تجد منه رائحةً كريهةً، ورغَّب في الجليس الصالح بأنه كحامل المِسْكِ، إمَّا أن يَبِيعَكَ، أو يُحْذِيَكَ، أو تجدَ منه رائحةً طيِّبةً(١).

والمراد بخَلْق الإنسان على الفِطْرة: أي: الخَلْق الباطني، لكن ضرب الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذا مثلًا؛ لأنه محسوسٌ، والأشياء المعنويَّةُ المعقولةُ تُوضَّحُ دائمًا بالأمثال المضروبة الحسِّيَّة.

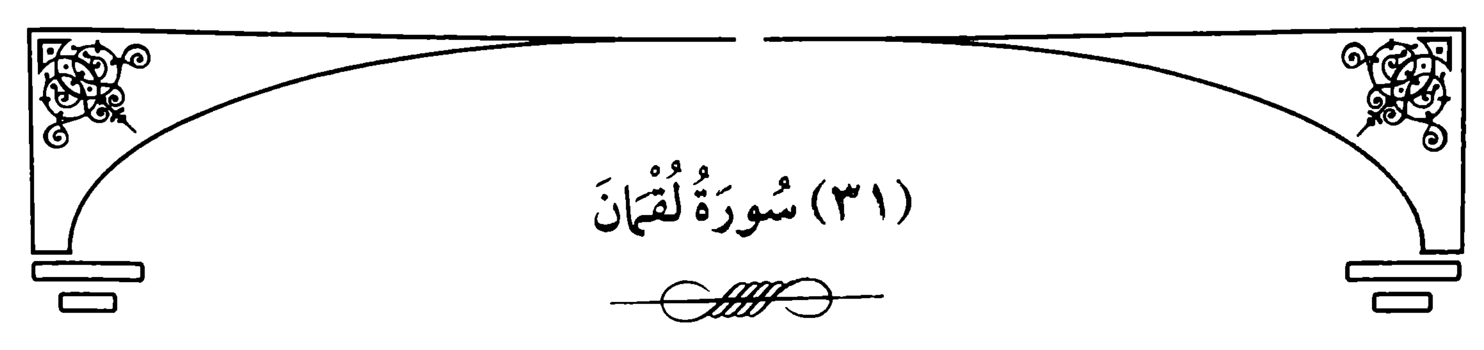
---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٢٦٢٨/ ١٤٦).

....

= وقوله: «كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ» «تُنْتَجُ» فعل مبنيٌّ للمجهول صورةً، ومعناه الفاعلُ، لكنَّهُ جاء في اللغة العربية على هذا الوضع، وفي هذا كُتَيِّبٌ عنوانه: «إتحافُ الفاضل بالفعل المبنيِّ لغير الفاعل» وهو للفاعل.





(٣١) سُورَةُ لُقْمَانَ

١- بَابٌ ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[١]

٤٧٧٦- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟»[٢].

---

[١] قول الله تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ يعمُّ كلَّ أنواع الشِّرْكِ.

وقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ هذا تعليلٌ للنَّهيِ؛ لأن أظلم الظلم أن تجعلَ لله تعالى نِدًّا وهو خلَقَك، فكيف تجعل شريكًا للذي خَلَقك وأعدَّك وأمدَّك؟! هذا هو الظلم حقيقةً، وتمام العَدْل أن تُوحِّد هذا الذي خَلَقك وأَوْجَدك وأعدَّك وأمدَّك.

[٢] هذا من تفسيرِ القرآن بالسُّنَّةِ، ثم استدلَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لذلك تقويةً لِما فسَّره به، فذكر أن قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي: بشِرْكٍ، وأمَّا لبسهم إيمانَهُم بالمعاصي فهؤلاء قد يكون لهم الأمنُ؛ فإن المعاصيَ لا تُنافي الإيمانَ وإن كانت تنافي كمالَهُ، لكنَّ الشِّرْكَ يُنافي الإيمانَ.

....

= وهل المراد: الشرك المُخْرِجُ عن المِلَّة، أو ما دون ذلك؟

نقول: المراد ما دون ذلك، وهو الشِّرْك الذي لا يُخْرِجُ من المِلَّة؛ لأنه إذا كان الشِّرْك مُخْرِجًا عن المِلَّة انتفى الإيمانُ، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ وهذا دليلٌ على أنَّ معهم إيمانًا، ولكنهم لم يخلطوه بالظُّلم.

فإن قال قائل: مَن أشْرَكَ عن جهلٍ فهل يدخل في هذه الآية؟

نقول: إذا كان قد بلغتْهُ الحُجَّةُ، وقيل له: إنك مُشْرِكٌ، لكنه تعصَّب، وقال: هذا الذي عليه آبائي وعلمائي وأوليائي، فإنه مُشْرِكٌ، يدخلُ في الآية، أمَّا إذا كان لا يدري عن شيء أبدًا، ولا عَرَضَ أحدٌ له بشيء، فإن هذا لم تقم عليه الحُجَّةُ، فلا يَكْفُرُ.

فإن قال قائل: إذا كان الإنسان يُؤْمِنُ بوجود الله، لكنه يتَّخذ أولياءَ من دونه، فهل يدخل في الآية؟

قلنا: هذا الإيمان لا ينْفَعُ؛ لأن الشِّرْك الأكبرَ لا إيمانَ معه؛ ولهذا نحكمُ على اليهود والنصارى بأنهم كفَّارٌ، وإن كانوا يقولون: إن الله تعالى هو الربُّ، وإنه هو المالك؛ لأن هذا لا ينفعُ، والله عَزَّوَجَلَّ إذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فلا يُريد إلا الإيمانَ الحقيقيَّ، وليس مُجَرَّدَ الإيمان بوجود الربِّ.

لكن هل تشمل الآية المُعَطِّلَ لصفات الله وأسمائِهِ؟

نقول: لا، فالمُمَثِّل مُشْرِكٌ، أمَّا المُعَطِّلُ فهو جاحدٌ، وليس بمُشْرِكٍ؛ لأنه قد يكون بتأويل، فإن بعض أولئك المُعَطِّلين لا يُكَذِّبون، وهناك فرْقٌ بين الإنكار وبين التعطيل

....

= المبنيِّ على التأويل -أو التحريف على الأصحِّ- فهذا الذي أوَّل أو عطَّل لو قال: إن الله لم يستوِ على العرش، وإنَّ هذا كَذِبٌ، قلنا: كَفَرْتَ؛ لأن هذا تكذيبٌ للقرآن، لكنْ إذا قال: نعم، هو استوى على العرش، لكن معنى استوى كذا، فإنه لا يكون كافرًا، إلا إذا كانت بدعَتُهُ تُؤَدِّي إلى الكُفْر.

وقد قال الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنهُمْ: «أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟!» أي: أننا كلنا ظالمون أنفسَنا بالمعاصي، ففهموا أن المراد: ظُلْمُ النفس الذي هو دون الشِّرْك، فيشمل المعاصيَ التي هي دون الشِّرْك، كما لو نظر الإنسان إلى امرأةٍ بشهوةٍ، أو غشَّ مُسلمًا، أو ما أشبه ذلك، فقال الرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ» وبيَّن أن المراد بالظلم: الشِّرْكُ، ثم استشهد لتفسيره بالآية.

وفي هذا: دليلٌ على الاستشهاد بالقرآن على تفسير القرآن، مثلَ أنْ يقولَ: معنى الآية كذا وكذا، ونظيرها كذا وكذا، أو يقولَ: هذه الآية يُفَسِّرها كذا وكذا، وهذه طريقةٌ علَّمنا إيَّاها رسولُ الله ﷺ؛ فإنَّهُ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ فسَّر القرآنَ، واستدلَّ لتفسيره بالقرآن.

وانظر كيف يُفَسِّر الرسولُ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ويستدلُّ لتفسيره؛ تعليمًا للأُمَّةِ، وزيادةً في الطُّمأنينَةِ، وتقويةً لِمَا فسَّرَهُ به، وإلا فلو قال الرسولُ ﷺ: «إنه ليس بذاك، وليس المراد بالظلم: المعاصي، ولكنَّهُ الشِّرْك» لقلنا: سَمِعْنا وأطَعْنا، لكن إذا أتى بدليلٍ من القرآن ازْدَدْنا بذلك طُمَأْنينَةً.

وهنا فائدةٌ: هل يُسْتَشْهَد بالشِّعر على معنى الآيات؟

....

= الجواب: هذه المسألة لها صورتان:

الأُولى: أن يُسْتَشْهَدَ بأشعار العرب السابقين على القرآن؛ للاستدلال بأن القُرْآنَ مُوافقٌ للغة العرب العرباء، فهذا صحيحٌ، والغالب أنهم لا يَسْتَشْهِدُونَ بأقوال مَنْ بعدَ نُزول القرآن.

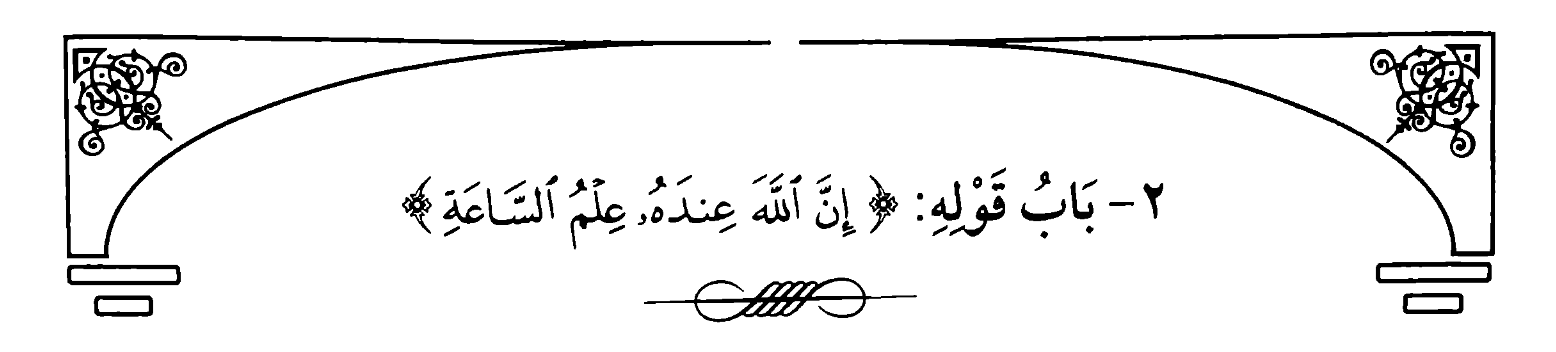
فإن ذَكَرَ شاهدًا بعد نُزول القرآنِ لم يصحَّ؛ لأنه إنما يُسْتَشْهَدُ بالأبيات السابقة على القرآن.

الصورة الثانية: أن يُريد أنْ يَسْتَشْهِدَ بالقرآن على أن هذا اللفظ الذي في الشِّعر عربيٌّ، أو يُريد أن يَسْتَشْهِدَ به على أن معنى البيت صحيحٌ، فهذا صحيحٌ، بل لو يَستَشْهِدُ بكلام من كلامنا نحن صحَّ ذلك.

وقوله: «أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ» إذا قال قائلٌ: كيف قال: «تَسْمَعُ» مع أن الحديث فيه: «وَقَالُوا» بالجَمْع؟

نقول: لأن «قالوا» قد يُراد بها: البعضُ، أي: قال بعضُهم، وقد يُراد بها: الكلُّ، فوجَّه الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الخطابَ إلى واحدٍ منهم.





٢- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾

٤٧٧٧- حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ، عَنْ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِي حَيَّانَ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالبَعْثِ الْآخِرِ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا الإِسْلَامُ؟ قَالَ: «الإِسْلَامُ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «الإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ المَرْأَةُ رَبَّتَهَا فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا كَانَ الحُفَاةُ العُرَاةُ رُؤُوسَ النَّاسِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾» ثُمَّ انْصَرَفَ الرَّجُلُ، فَقَالَ: «رُدُّوا عَلَيَّ» فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوا، فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ؛ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ»[١].

---

[١] هذا الحديث هو حديث جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين سأل النبيَّ ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأشراطها.

وقد رُوِيَ هذا الحديث من حديث عُمَرَ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رواهُ مسلمٌ بسياقٍ

....

= أتمَّ من هذا وأبْيَنَ[(١)]، ولعلَّ هذا من تصرُّف الرُّواة أو نحو ذلك، وإلا فالقصَّةُ واحدةٌ، وسياقه في (صحيح مسلم) من حديث عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْفَى وأتمُّ.

والشاهد من هذا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فإن هذه الآية في سُورة لقمانَ.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ يعني: لا عندَ غيره؛ لأن «عند» خبرٌ مُقَدَّمٌ يُفيد الحصرَ، فالساعة لا يعلمها أحدٌ، حتى أعلمُ الناس باللهِ وأعلمُ الملائكة بالله كلٌّ منهما لا يعلمُ؛ ولهذا قال له النبيُّ ﷺ: «**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»[(٢)] يعني: إذا كنتَ لا تعلمُ فأنا لا أعلمُ.

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أي: المطرَ الذي به إزالةُ الشدَّة؛ لأنه مِنْ: غاثه إذا أزالَ شدَّتَهُ.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: يعلمها قبل أن تكون مُخَلَّقةً، ويعلمها هل تكون أُنثى أو ذكَرًا؟ وهل تَخْرُجُ أو لا؟ وهل تعيش طويلًا في الدنيا أو لا تعيش؟ وهل تكون واسعةَ الرِّزْق أو ضيِّقةَ الرِّزْق؟ وهل هي سعيدةٌ أم شقيَّةٌ؟ فكلُّ هذه -مُتعلقات العِلْم- لا يعْلَمُها إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

أمَّا بعد أن تُخَلَّق فإن هذا يُعْلَم من قِبَل المَلَك الذي يُعَلِّمه اللهُ، ويُعْلَم الآن بواسطة أجهزة دقيقةٍ يعرفون بها هل هو ذَكَرٌ أو أُنْثى؟ وهذا لا يُنافي هذه الآية؛ لأن عِلْمَ ما في الأرحام يُراد به: العلمَ الشاملَ، وأمَّا علمُ أذكَرٌ هو أم أُنْثى؟ فهو علمٌ جزئيٌّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٨/ ١).
(٢) تقدم تخريجه (ص:٢٣٧).

٤٧٧٨- حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سُلَيْمَانَ، قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[١].

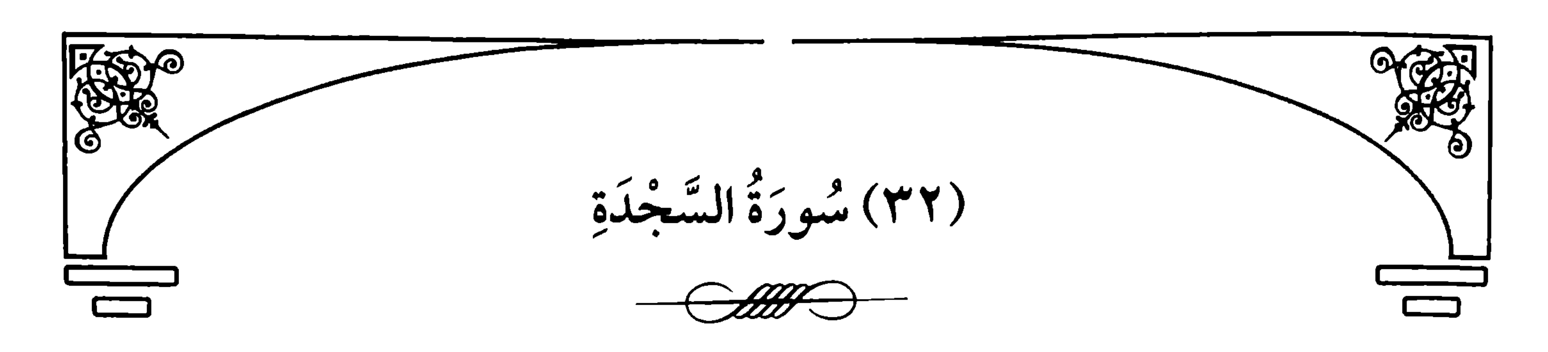
= وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ يشمل ما في أرحام بني آدم، وأرحام الحيوانات الأُخرى.

وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» الإحسانُ له مرتبتان:

المرتبةُ الأُولى الكاملةُ: أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تراهُ، وهذه عبادةُ الطلب، وهي في قوله: «كَأَنَّكَ تَرَاهُ» لأن مَن يرى الشيءَ يحرصُ على الوصولِ إليه.

المرتبةُ الثانيةُ: عبادةُ الهَرَب، فإذا لم تصل إلى الدرجة الأُولى فلتَعبُدِ اللهَ كأنه يراك -وهو يراك قطعًا- فتخافُ منه، وهذا هو الفَرْق بين الجملتَيْنِ.

[١] وجهُ كون هذه مفاتيحَ: أن كل واحد منها مُقَدِّمةٌ ومفتاحٌ لِمَا بعده، فعلمُ الساعة مفتاحُ اليوم الآخِر، وتنزيلُ الغَيْث مفتاحٌ للنبات، وعلمُ ما في الأرحام مفتاحُ حياة الأجنَّةِ، وما تدْرِي نفسٌ ماذا تكسب غدًا مفتاحُ العمل في المستقبل، وما تدري نفسٌ بأيِّ أرْضٍ تموتُ مفتاحُ الآخِـرَة بالنسبة لكلِّ إنسان بحسبه؛ ولهذا صارت مفاتيحَ الغَيْبِ.



(٣٢) سُورَةُ السَّجْدَةِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَّهِينٍ﴾ ضَعِيفٍ، نُطْفَةُ الرَّجُلِ[١].

﴿ضَلَلْنَا﴾ هَلَكْنَا[٢].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الجُرُزُ الَّتِي لَا تُمْطَرُ إِلَّا مَطَرًا لَا يُغْنِي عَنْهَا شَيْئًا[٣].

﴿يَهْدِ﴾ يُبَيِّنْ[٤].

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: ضعيف، وهو كذلك، فإن ماء الرَّجُل ضعيفٌ؛ ولهذا لا يسيلُ بسرعة كالماء الجاري القويِّ.

[٢] قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة:١٠] فـ: ﴿ضَلَلْنَا﴾ بمعنى: هلَكْنا وتلَفْنا وصِرْنا ترابًا، والاستفهامُ في قوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ و﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ الاستفهام للإنكار والتكذيب.

[٣] المراد بالجُرُز: الخالي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف:٨] أي: خاليًا، وهنا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أي: الخالية التي ليس فيها نباتٌ ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ [السجدة:٢٧] وهذا دليلٌ بيِّنٌ على قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على إحياء الموْتى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

[٤] قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي: يُبَيِّن لهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ [السجدة:٢٦] فهذه القرون الماضية السابقة التي أُهْلِكَتْ

....

= يجب أن يَعْتَبِرَ بها الإنسانُ فيما لو عصى ربَّه، فإن سُنَّة الله تعالى في خَلْقه واحدةٌ، ومآله مآل هؤلاء.

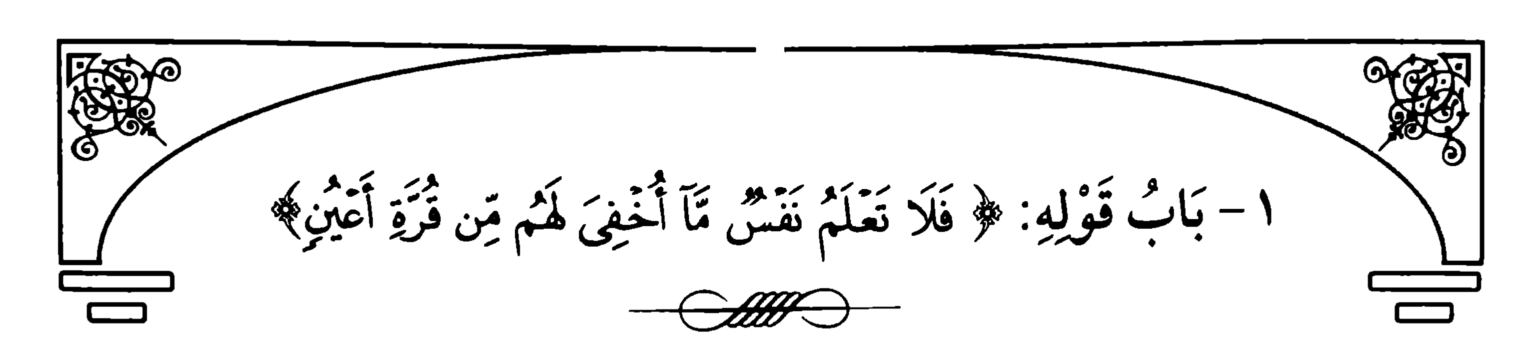
وفي هذا: إشارةٌ إلى أنه ينبغي للإنسان أن يعتبر بمَن سَبَقَ حتى يتَّخِذَ من ذلك عِبْرَةً.

وهل للإنسان أن يدْخُلَ مساكنَ الذينَ أُهلكوا؟

نقول: إذا دخَلَها الإنسان باكيًا مُعْتَبِرًا فلا بأسَ؛ قال الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ»[1].



(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، رقم (٣٣٨٠)، ومسلم: كتاب الزهد، باب النهي عن الدخول على أهل الحجر، رقم (٢٩٨٠/ ٣٨).



١- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾

٤٧٧٩- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

وَحَدَّثَنَا عَلِيٌّ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ اللهُ، مِثْلَهُ، قِيلَ لِسُفْيَانَ: رِوَايَةً؟ قَالَ: فَأَيُّ شَيْءٍ؟!

وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ: قَرَأَ أَبُو هُرَيْرَةَ: (قُرَّاتِ أَعْيُنٍ)[١].

---

[١] قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وذلك لأن عِلْمنا بها في الآخِرةِ علمٌ بالمعنى، لا بالحقيقةِ، فنحن نعلمُ معنى الرُّمَّان والفاكهة والنَّخل والفُرُش واللَّحم والطيرِ والعَسَل والخَمْر، وما أشْبَهَ ذلك، ولكنَّ حقيقةَ هذا الشيء لا نعلمه؛ لأنه شيءٌ فوق ما نتصوَّره وما نُدركه في هذه الدنيا، قال ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ليست في الجنة ممَّا في الدنيا شيءٌ إلا الأسماءُ فقط(١). أمَّا الحقائقُ فلا.

---

(١) أخرجه هناد بن السري في «الزهد» (١/ ٤٩).

٤٧٨٠ - حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ نَصْرٍ: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ: حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْرًا، مِنْ بَلْهِ مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[١].

= وبهذا نعرف أن أسماءَ الله وصفاتِهِ التي تُوافق في الاسم ما نحن مُتَّصفون به لا يلزمُ منها أن يكونَ اللهُ تعالى مُشابهًا لخَلْقِه فيها، فنحن نَعْرِفُ معنى العلم والسمع والبصر والحياة والرحمة، ولكن ليس ما ثَبَتَ لله عَزَّ وَجَلَّ من ذلك كالذي ثَبَتَ لنا؛ وذلك لأنه إذا كان ما في الجنَّة يُخالِفُ في الحقيقة ما في الدنيا فكذلك أسماءُ الله وصفاتُهُ تُخالف في الحقيقة أسماءَ بني آدم وصفاتِهم.

وفي هذا الحديث: الاستدلالُ بالقرآن على السُّنَّة؛ لأن أبا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ» فإن هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ تُوافِقُ الحديثَ القُدْسِيَّ: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

وأمَّا قراءة (قُرَّاتِ أَعْيُنٍ) فهذه قراءةٌ غيرُ سَبْعِيَّة(١).

[١] المعنى: أننا لا نعلم هذا الشيء، ولكن نعلم معناه الذي أُطلعنا عليه، وهو معنى الفاكهة والرُّمَّان وما أشبه ذلك، أمَّا حقيقتُهُ فلا نعلَمُها.

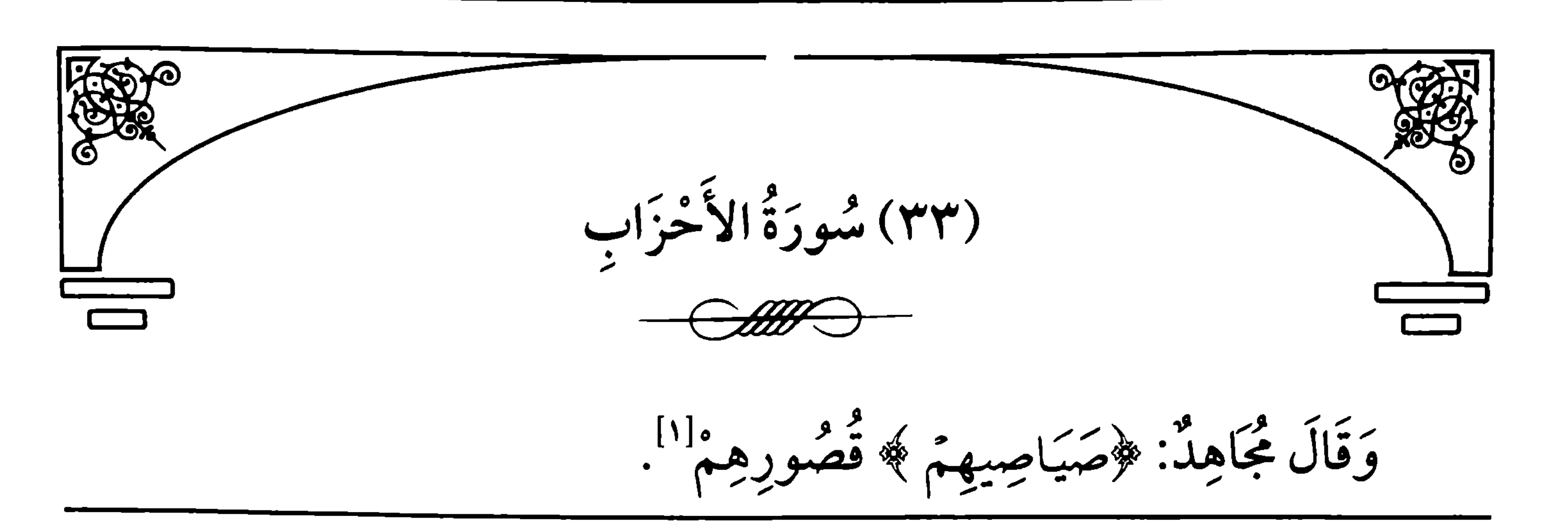
---

(١) يُنْظَر: معجم القراءات (٧/ ٢٣٠).

....

= وهذا الحديثُ تفسيرٌ للآية الكريمة: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.





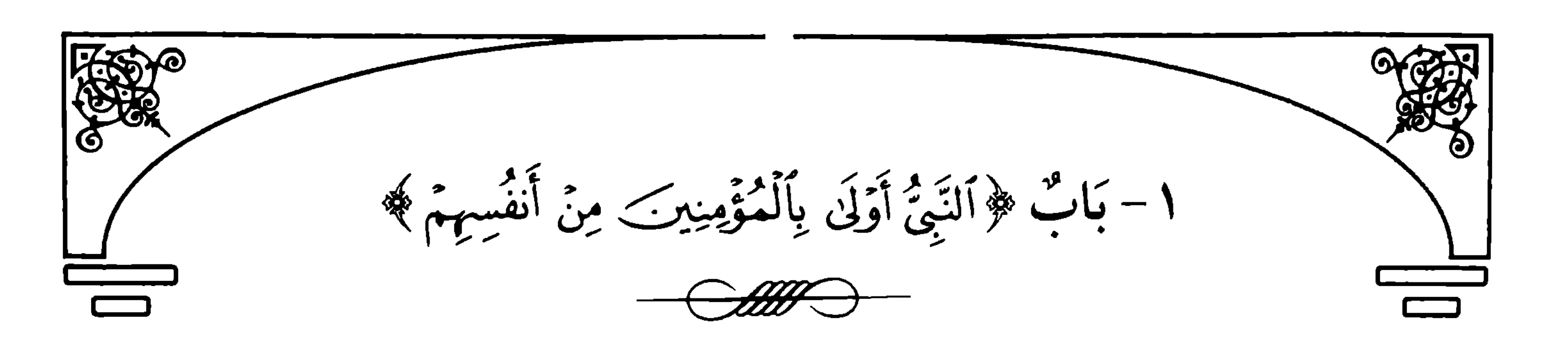
(٣٣) سُورَةُ الأَحْزَابِ



وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿صَيَاصِيهِمْ﴾ قُصُورِهِمْ[١].

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب:٢٦] أي: من قصورهم، وأصْلُها من: صياصي البقَر، وهي أحواشُهَا التي تُحْبَس فيها.



١ - بَابُ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾

٤٧٨١ - حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ هِلَالِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، فَإِنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي، فَأَنَا مَوْلَاهُ»[١].

---

[١] في هذا: دليلٌ على استدلال النبيِّ ﷺ بالقرآن؛ لقوله: «**اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ**» وهكذا لَمَّا أَخْبَرَ أنه ما من أحدٍ إلا وقد كُتِبَ مقعدُهُ من الجنة أو من النار قالوا: أفلا نَدَعُ العملَ، ونتَّكل على الكِتاب؟ قال: «**اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ١٠][(١)].

وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَإِنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي، فَأَنَا مَوْلَاهُ**» الضَّيَاعُ: هم الأهلُ والأولادُ الذين ليس لهم مَن يعولهم، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذلك بعد أن فتَحَ الله عليه، وكان بالأول إذا جِيء إليه بميِّتٍ، وعليه دَيْنٌ، سأل: «**هَلْ تَرَكَ لِدَيْنِهِ مِنْ قَضَاءٍ؟**» فإن قالوا: نعم صلَّى عليه، وإن قالوا: لا لم يُصَلِّ عليه، وقال: «**صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ**»

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾، رقم (٤٩٤٩)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي، رقم (٢٦٤٧/ ٦).

....

= فلما فَتَحَ اللهُ عليه صار ﷺ يلتزمُ قضاءَ الدَّيْن عن الميِّت إذا مات وهو مَدِينٌ[(١)].

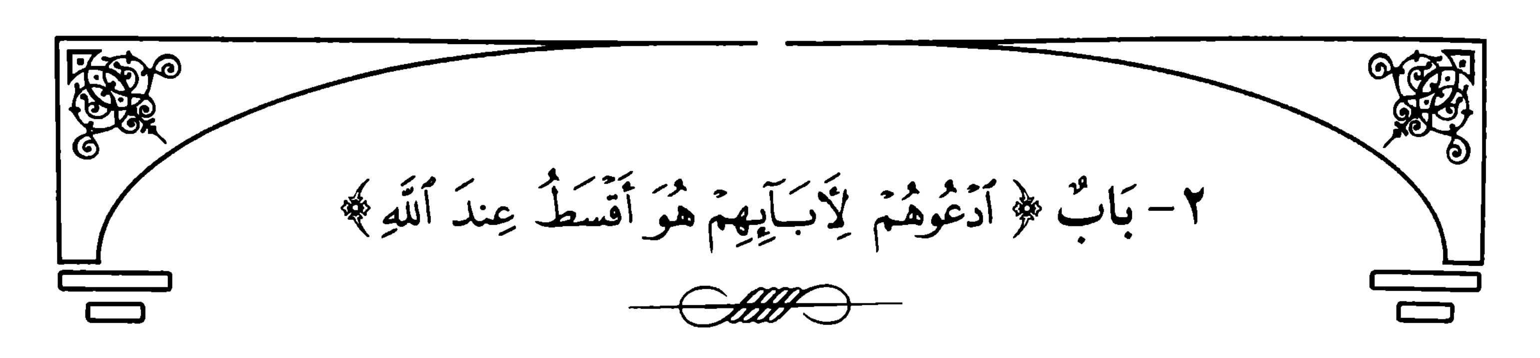
وهل هذا خاصٌّ بالنبيِّ ﷺ؟

الجواب: أمَّا الْتِزَامُهُ فهذا خاصٌّ بالنبيِّ ﷺ، وأمَّا وليُّ الأمرِ فإن كان بيت المال مُنتظمًا فإنه يُوفي منه، وهذا يتبع المصالحَ.

وقولنا: «فإن كان بيتُ المال مُنتظمًا» أي: يُصْرَفُ حيث كان وجْهُهُ، ويُجْبَى من حيثُ كان وجْهُهُ؛ لأن بيت المال أحيانًا يكون ضائعًا.



(١) أخرجه البخاري: كتاب النفقات، باب قول النبي ﷺ: «من ترك كلًّا أو ضياعًا فإليَّ»، رقم (٥٣٧١)، ومسلم: كتاب الفرائض، باب من ترك مالًا فلورثته، رقم (١٦١٩/ ١٤).



٢- بَابٌ ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾

٤٧٨٢- حَدَّثَنَا مُعَلَّى بْنُ أَسَدٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ الْمُخْتَارِ: حَدَّثَنَا مُوسَى ابْنُ عُقْبَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي سَالِمٌ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا كُنَّا نَدْعُوهُ إِلَّا زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ، حَتَّى نَزَلَ القُرْآنُ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[١].

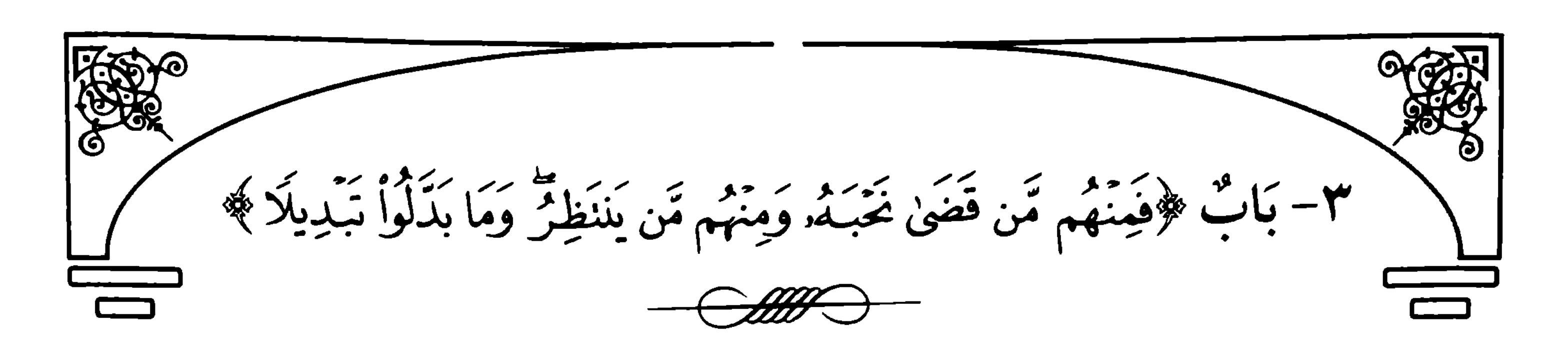
---

[١] هـذه الآية في قول الله تعالـى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب:٤] فهذه ثلاثةُ أُمور كلُّها يمتنع فيها التعدُّد.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ﴾ أي: الذين تَدْعُـونهم أبناءً ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ وكانوا في الجاهلية يتَّخذُ الإنسانُ منهم دَعِيًّا، يقول: هذا ابنه، حتى نزلت هذه الآية: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعْدَل وأقْوَم.

وكانوا يُسَمُّون زَيْدَ بن حَارثة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -وهو موْلَى النبيِّ ﷺ- زيْدَ بنَ مُحَمَّدٍ، حتى جاء الإسلامُ، فأبطل هذا التبنِّيَ.





٣- بَابُ ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾

﴿نَحْبَهُۥ﴾ عَهْدَهُ[١].

﴿أَقْطَارِهَا﴾ جَوَانِبُهَا.

﴿ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ لَأَعْطَوْهَا.

٤٧٨٣- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ ثُمَامَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: نُرَى هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[٢].

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ يعني: ووَفَوْا بما عاهَدُوا الله عليه ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ قال المؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَهْدَهُ» وقيل: ﴿مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي: مَن قضى أجلَهُ ومات ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾.

وكان مُصْعَبُ بنُ عُميرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي استُشهد في أُحُد ممَّن قضى نَحْبَهُ، وفيهم مَنِ انتظر، وما بدَّلوا تبديلًا.

[٢] كان أنسُ بن النَّضْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد أقسم ألَّا تُكسَر ثَنِيَّة الرُّبَيِّعِ، وكانت الرُّبَيِّعُ قد كسرت ثَنِيَّةَ امرأةٍ من الأنصار، فطالب أهلُها بالقِصاص، فعرضوا عليهم الدِّية، وأبوا إلا القِصاصَ، فاحتكموا إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمر النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن تُكْسَر ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ، فقال أنسُ بن النَّضْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَتُكْسَر ثنيَّةُ الرُّبَيِّعِ يا رسولَ الله؟! قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

٤٧٨٤ - حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي خَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ قَالَ: لَمَّا نَسَخْنَا الصُّحُفَ فِي المَصَاحِفِ فَقَدْتُ آيَةً مِنْ سُورَةِ الأَحْزَابِ، كُنْتُ كَثِيرًا أَسْمَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَؤُهَا، لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ إِلَّا مَعَ خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ الَّذِي جَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهَادَتَهُ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1].

= «كِتَابُ اللهِ القِصَاصُ» قال: واللهِ لا تُكْسَر ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ، قال ذلك ليس ردًّا لحُكْم النبيِّ ﷺ، ولكنَّهُ حُسْنُ ظنٍّ بالله عَزَّوَجَلَّ، ورجاءَ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يمنع، فهدى اللهُ أُولئك القومَ، ورَضُوا بالأَرْش، وقالوا: لا تُكْسَر ثَنِيَّتها، قال النبيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»(١).

فهذا الرجل أَقْسَمَ على الله رجاءً وحُسْنَ ظنٍّ بالله عَزَّوَجَلَّ، فأبرَّهُ الله، وإلا لكان من المُسْتَبْعَد أنَّ قومًا عُرِضَ عليهم الأَرْشُ، وأَبَوْا، حتى أَوْصَلوا الأَمْرَ إلى النبيِّ ﷺ، وحتى حصل من أنسِ بن النَّضْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الاستفهامُ الذي يُنْبِئ عن مشقَّةِ الأمرِ عليه، ومع ذلك كانوا مُصِرِّين حتى هداهُمُ اللهُ، وألانَ قُلوبَهُم.

[١] هذه الآية ليس في ثبوتها إشكالٌ؛ لوجهين:

الأول: أنَّ زَيْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «فَقَدْتُ آيَةً مِنْ سُورَةِ الأَحْزَابِ، كُنْتُ كَثِيرًا أَسْمَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَؤُهَا» فما دام زيدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد سمِعَها من النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقد ثَبَتَتْ بسماعه هو.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قول الله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾، رقم (٤٦١١)، ومسلم: كتاب القسامة، باب إثبات القصاص في الأسنان وما في معناها، رقم (١٦٧٥/ ٢٤).

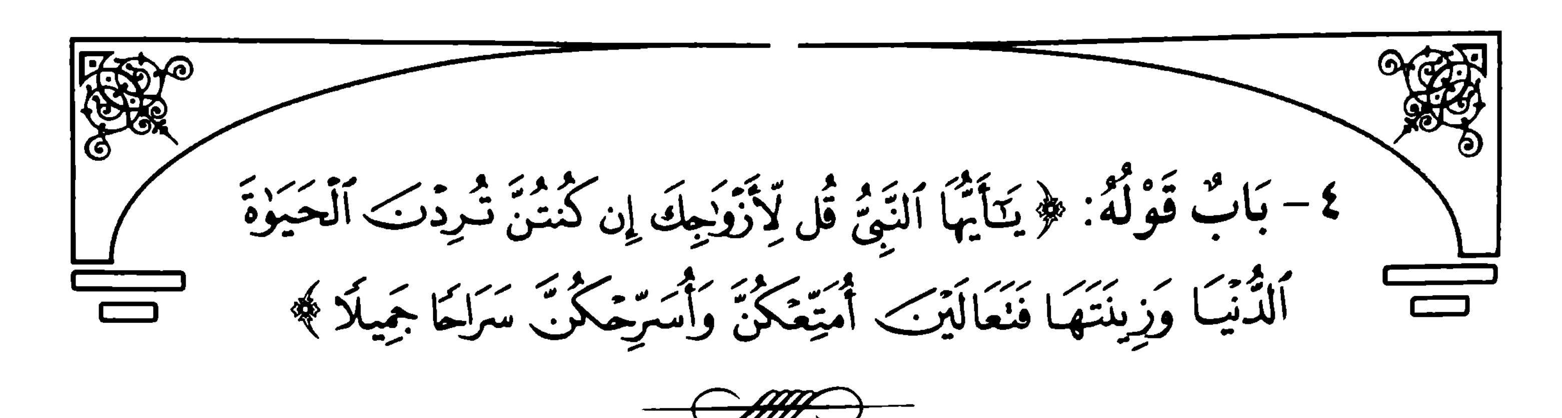
....

= الوجه الثاني: شهادة خُزَيْمةَ بن ثابتٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، وذَكَرَ هنا أن الرسولَ ﷺ جعلَ شهادتَهُ بشهادة رَجُلَيْن، وسبب ذلك: أن النبيَّ ﷺ ابتاعَ من رَجُلٍ فرَسًا، ثم اسْتَتْبَعَهُ، قال: اتبعني لأنقدَ لك الثمنَ، فبينما الرَّجُل خلْفَ النبيِّ ﷺ إذ لقيَهُ رجالٌ، فزادوا في قيمتِهِ، ولم يعلموا أنه قد باعَ على النبيِّ ﷺ، فلما انتهى إلى النبيِّ ﷺ قال الرجلُ البائعُ: هل لك في الزيادة؟ قد سِيمَتْ بكذا وكذا، قال: «أَلَيْسَ قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ؟» قال: ما بعتُك، وهل عندك أحدٌ يشهدُ؟ فقام خُزَيْمَةُ بنُ ثابتٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، فقال: أشهدُ يا رسولَ الله أنه باعَها عليك بكذا وكذا، بالثمن الذي عيَّنه النبيُّ ﷺ، فقال النبيُّ عَلَيهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «لِمَ تَشْهَدُ؟» يعني: ولم ترَ، فقال: يا رسولَ الله! نُصَدِّقك بخبرِ السماءِ، ولا نُصَدِّقك بخبرِ الأرْضِ.

وانظر هذا الانتباهَ منه رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، مع أن كلَّ واحد يجبُ عليه أن يشهدَ بأنَّ النبيَّ ﷺ صادقٌ، وأنه اشتراها بهذا، حتى نحن يجبُ علينا أن نَشْهَدَ، لكن قد تفوتُ الإنسانَ بعضُ الأمور، فجعل النبيُّ ﷺ شهادتَهُ بشهادة رَجُلَيْنِ[1].



(١) أخرجه أبو داود: كتاب القضاء، باب إذا علم الحاكم صدق شهادة الواحد، رقم (٣٦٠٧)، والنسائي: كتاب البيوع، باب التسهيل في ترك الإشهاد على البيع، رقم (٤٦٥١)، وأحمد (٥/ ٢١٥).



٤- بَابُ قَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾

وَقَالَ مَعْمَرٌ: التَّبَرُّجُ: أَنْ تُخْرِجَ مَحَاسِنَهَا.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ اسْتَنَّهَا: جَعَلَهَا.

٤٧٨٥- حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَاءَهَا حِينَ أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُخَيِّرَ أَزْوَاجَهُ، فَبَدَأَ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا، فَلَا عَلَيْكِ أَنْ لَا تَسْتَعْجِلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ» وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ، قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾» إِلَى تَمَامِ الْآيَتَيْنِ، فَقُلْتُ لَهُ: فَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟! فَإِنِّي أُرِيدُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ[1].

---

[١] أمرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم أن يُخَيِّرَ أزواجَهُ: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي: أُعطيكنَّ متاعًا بحسَبِ حاله عليه الصَّلاة والسَّلام ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أي: أَتْرُكْكُنَّ ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني: وإن بقيتنَّ مع الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام فإن الله تعالى يُعِدُّ ليس لكُنَّ، وإنما ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهذا إشارةٌ إلى أن بقاءهنَّ مع الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إحسانٌ.

....

= وتأمَّل كيف بدأ النبيُّ ﷺ بأحبِّ نسائه إليه؛ لأن هذا أبلغُ في امتثال أمْرِ ربِّه؛ لأنه لو بدأ بالأدون واختارتِ اللهَ ورسولَهُ، تبِعَتْها الأعْلى؛ لأن العادة أنها تستحيي أنَّ غيْرَها تُريد اللهَ ورسولَهُ، ثم تُريد هي الحياة الدنيا وزِينتَها، لكنْ بدأ بالأعْلى؛ لأن الإنسانَ لن ينالَ البرَّ حتى يُنْفِق ممَّا يُحب.

ثم إن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي أشبُّ نسائه، فبدأ بالأشبِّ، فكان في بداءَتِهِ بها دليلٌ على تقديم النبيِّ ﷺ ما يُحِبُّه اللهُ ويرضاه على ما تهواه نفسُهُ من وجهين:

الوجه الأول: أنها هي أحبُّ النساءِ إليه.

الوجه الثاني: أنها هي أشبُّ نسائِهِ، والشابَّة غالبًا ما تُريد الحياةَ الدنيا وزِينتَها.

ومع هذا فكانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عندها من العَقْل والدِّين ما يجْعلُها تقولُ هذا القولَ: «فَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِـرُ أَبَوَيَّ؟!»، وفي لفظ: «أَفِي هَذَا أَسْتَأْمِـرُ أَبَوَيَّ؟!»[1] يعنـي: أستشيرهما، والمعنى: أن هذا لا يحتاجُ إلى مشورةٍ؛ لأنَّ العاقلَ يختارُ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخِرَةَ.

ثم قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِنِّي أُرِيدُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ» وكان عُمُرُها إذ ذاك أرْبَعَةَ عَشَرَ عامًا تقريبًا؛ لأنه لـمَّا مات الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان لها ثمان عَشْرَةَ سَنَةً، والأحزابُ كانت في السَّنة الخامسة، فكانت صغيرةَ السِّنِّ، ومع هذا تقولُ هذا القولَ العظيمَ، وأنها تُريد اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخِرَةَ.

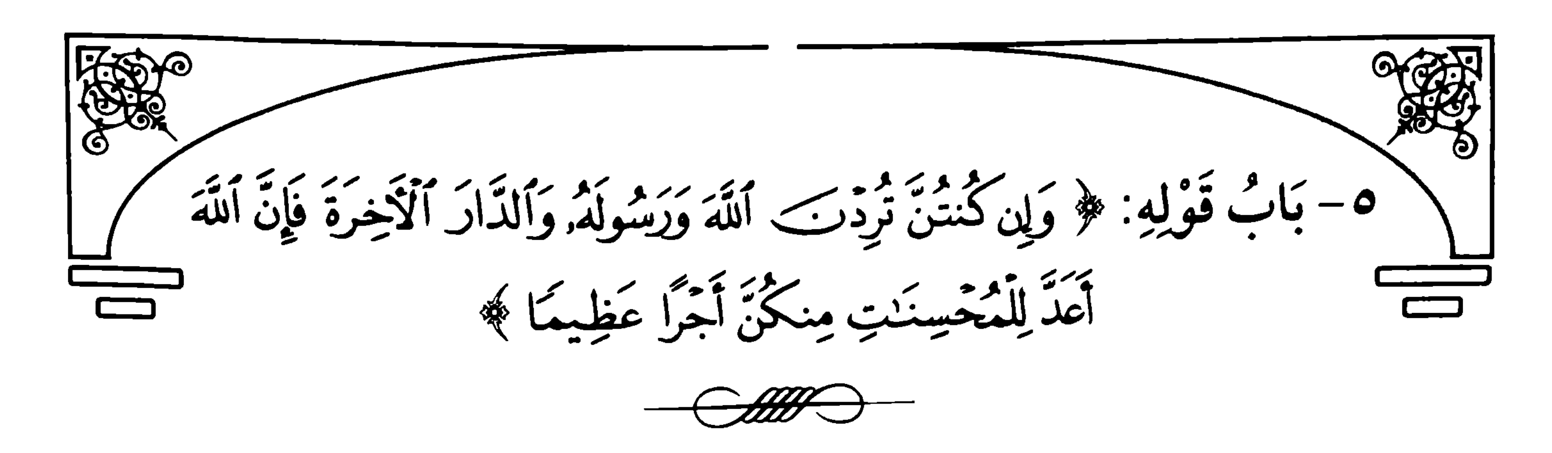
---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة، رقم (٢٤٦٨)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء، رقم (١٤٧٥/ ٣٥).

....

= وقد ذَكَرَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه أمَرَها أن تُشاوِرَ أبوَيْها؛ لأنه يعلمُ أنهما يُشيران عليها بالبقاء، والرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَشِيَ أن تُغْرِيَها الدنيا وزينتُها؛ لصغر سنِّها، ولأنها شابَّةٌ، فتقول: أُريد الحياة الدنيا وزِينتَها، فيفوتها هذا الأجرُ العظيمُ، وهو بذلك كان بارًّا بها.





٥- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ القُرْآنِ، وَالحِكْمَةُ: السُّنَّةُ.

٤٧٨٦- وَقَالَ اللَّيْثُ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: لَمَّا أُمِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَخْيِيرِ أَزْوَاجِهِ بَدَأَ بِي، فَقَالَ: «**إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا، فَلَا عَلَيْكِ أَنْ لَا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ**» قَالَتْ: وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ، قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ قَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إِلَى: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾» قَالَتْ: فَقُلْتُ: فَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟! فَإِنِّي أُرِيدُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ، قَالَتْ: ثُمَّ فَعَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ.

تَابَعَهُ مُوسَى بْنُ أَعْيَنَ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَأَبُو سُفْيَانَ المَعْمَرِيُّ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ[١].

---

[١] هذه الآياتُ في سياق زوجاتِ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومن ضمنها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا

....

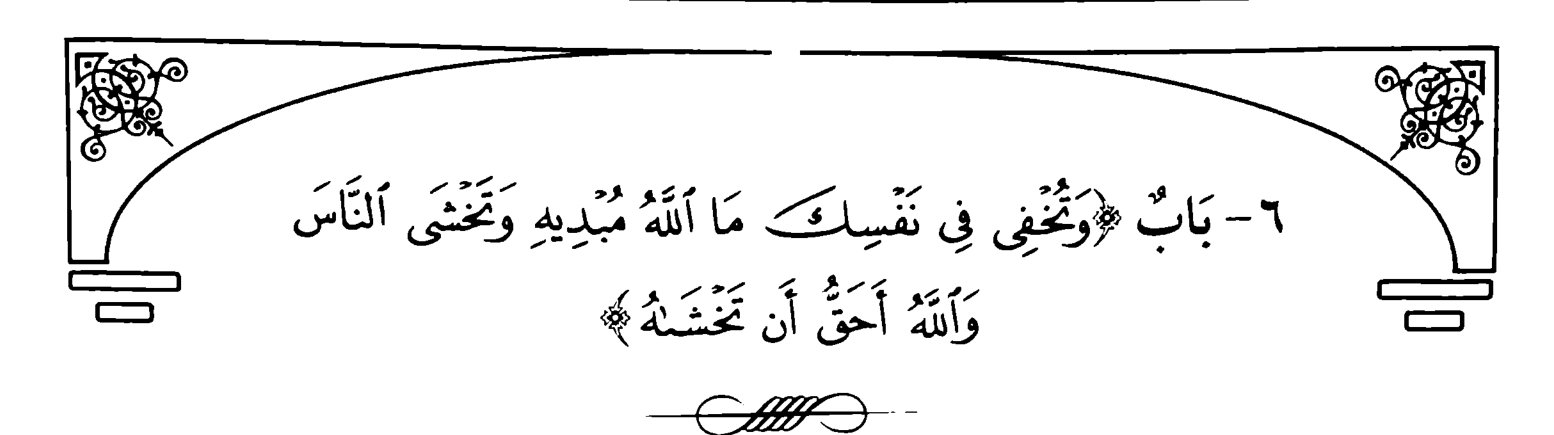
= يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ وهذا نصٌّ صريحٌ على أن زوجاتِ النبيِّ ﷺ من آلِ بيتِهِ؛ ولهذا قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ الصدقة تَحْرُمُ على زوجاتِ النبيِّ ﷺ كما تَحْرُمُ على قرابته؛ لقول النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّهَا -أي: الصدقة- لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ، وَلَا لِآلِ مُحَمَّدٍ»[1] قال: وزوجاتُهُ من آلِهِ[2]، وهو واضحٌ.

فإن قال قائلٌ: وموالي زوجاتِ النبيِّ ﷺ هل تَحْرُمُ عليهم الزكاةُ؟

فالجوابُ: لا؛ لأنهنَّ من آله غيرِ القرابة، ويحتمل أنْ تُمْنَعَ؛ لقولِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَوْلَى القَوْمِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ»[3].



(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب ترك استعمال آل النبي ﷺ على الصدقة، رقم (١٠٧٢/ ١٦٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٦١).
(٣) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب مولى القوم من أنفسهم، رقم (٦٧٦١).



٦- بَابٌ ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾

٤٧٨٧- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ: حَدَّثَنَا مُعَلَّى بْنُ مَنْصُورٍ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ: حَدَّثَنَا ثَابِتٌ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ[١].

---

[١] هذه الآية من أشدِّ الآيات على النبيِّ ﷺ، وممَّا يدلُّ على أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أدَّبه، فأحْسنَ تأديبَهُ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني بذلك: زيْدَ بنَ حارثةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان قد استشارَهُ في شأن زَيْنَبَ بنتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقال: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ وقد كان النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أخْشى الناس لله عَزَّوَجَلَّ، ومع ذلك قال اللهُ له: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾؛ لأنه خاف من أمرٍ يكونُ فيه مَعَرَّةٌ عليه فيما بعد.

ولكن الواجبُ على المرْءِ أن يخشى اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قبل كلِّ شيءٍ، وألَّا يلتفتَ إلى معرَّة الناس وعيْبِهم وقدْحِهم، فإن هذا القَدْح إذا اتَّقى الإنسانُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صار مدْحًا في المستقبل.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ والعلةُ: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

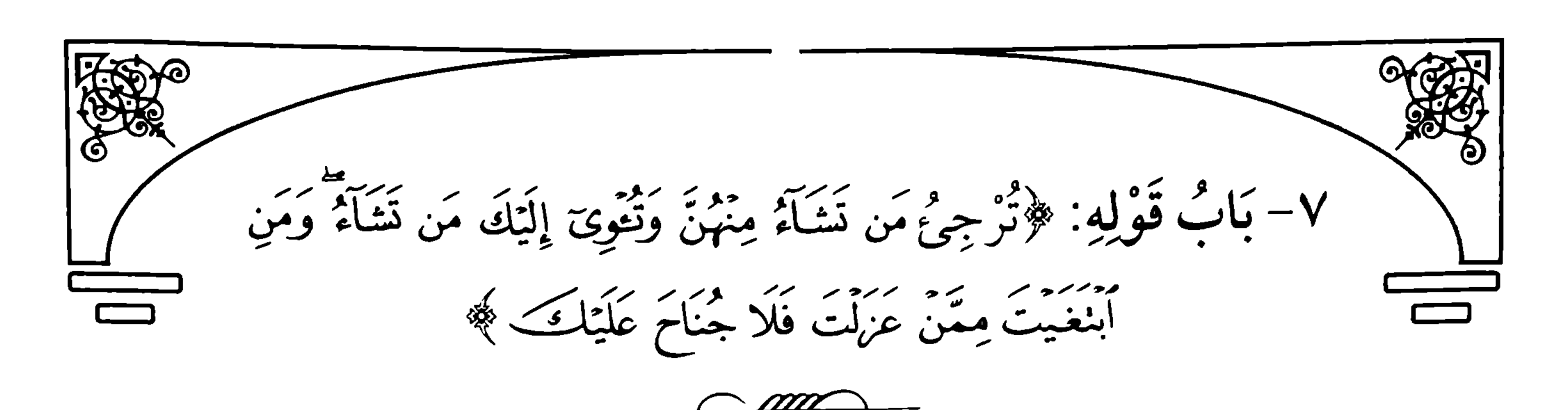
....

وهنا قال: ﴿فِىٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾ ولم يقل: «في أزواج أبنائهم» وبه يُعْرَفُ ضَعْفُ قول مَن يقولُ في قَوْل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ [النساء:٢٣]: إن هذا احترازٌ عن ابن التبنِّي، فإنَّ هذا ضعيفٌ؛ لأن ابن التبنِّي لم يدخل في الأبناءِ؛ حتى يحتاجَ إلى إخراجِهِ بهذا القَيْدِ، والإخراجُ بالقَيْد إنما يُحتاجُ إليه إذا كان داخلًا في العموم، فيُخْرِجُهُ القَيْدُ.

فالصوابُ أن الآية: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ أنها احترازٌ من ابن الرَّضاع؛ فإنَّ حليلةَ ابن الرَّضاع لا تَحْـرُمُ على أبيه من الرَّضاع على القول الراجحِ، وهو اختيارُ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]، وهو بذلك خالَفَ الأئمَّةَ الأربعةَ القائلين بأنَّ الرَّضاع في باب الصِّهْر كالنسب في باب الصِّهْر، ولكنَّ الراجحَ ما اختارَهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أن الرَّضاع لا يُؤَثِّر في تحريم المُصاهَرَة.



(١) الفروع (٨/ ٢٣٦).



قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (تُرْجِئُ) تُؤَخِّرُ (أَرْجِئْهُ) أَخِّرْهُ.

٤٧٨٨- حَدَّثَنَا زَكَرِيَّاءُ بْنُ يَحْيَى: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، قَالَ: هِشَامٌ حَدَّثَنَا، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، قَالَتْ: كُنْتُ أَغَارُ عَلَى اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَقُولُ: أَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا؟! فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿تُرْجِئُ مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قُلْتُ: مَا أُرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ[١].

---

[١] قول الله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ يعني: اللاتي يَهَبْنَ أنفُسَهُنَّ له، إن شاء أخَّرهنَّ، وإن شاء قَبِلهنَّ، والنكاحُ بالهِبَةِ لا يصحُّ إلا للنبيِّ ﷺ فقط، ولا يصحُّ لغيره؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُٱللَّهُ: إنه إذا اشترط الرجل أنْ لا مهر عليه فإنَّ النكاحَ لا يصحُّ؛ لأن هذا من خصائص النبيِّ ﷺ(١)، والمشهورُ من المذهب: أنه يَصِحُّ، ولها مهرُ المِثْلِ(٢).

إذن: قول الله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي: بقبول الهِبَةِ ورفْضِها، وهذا هو الذي يُؤَيِّده هذا الحديثُ.

---

(١) الإنصاف مع المقنع والشرح الكبير (٢٠/ ٤٢٣).
(٢) منتهى الإرادات (٢/ ٩٩-١١٠).

....

القول الثاني: بالقَسْم وعدم القَسْم، ويُؤَيِّده حديثُ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الآتي.

القول الثالث: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي: بالطلاق وعدم الطلاق، وهذا لا وجْهَ له، وإن كان ابن حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أن الآية تحتمله[1]، لكن فيه بُعْدٌ.

ومع ذلك فإن الرسولَ ﷺ كان يقسم مع أنه خُيِّر، حتى في مرض موْتِهِ كان ﷺ يقول: «أَيْنَ أَنَا غَدًا؟ أَيْنَ أَنَا غَدًا؟» حتى أَذِنَّ له في أن يُمَرَّضَ عند عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[2].

فإذا قال قائلٌ: لماذا كانت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تغارُ على اللَّاتي يَهَبْنَ أنفسَهُنَّ؟

قلنا: هذا لسببين:

الأول: أنها لا تُريدُ زوجةً جديدةً.

الثاني: أن هِبَتَهُنَّ أنفسَهُنَّ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دليلٌ على نُبلهنَّ وعلوِّ همَّتهنَّ، وأنها عاقلةٌ؛ حيثُ اختارت أن تَهَبَ نفسَهَا -وهي أعزُّ شيء إليها- إلى رسولِ الله ﷺ.

ومع ذلك فإن النبيَّ ﷺ ذات يوم وهَبَتْ له امرأةٌ نفسَها، فقالت: يا رسولَ الله! جئتُ أهبُ نفسي لك، فصعَّد فيها النظر وصوَّبه، أي: بدأ ينظر إلى بدَنِها من فوق ومن تحت، ولكنه لم يقل شيئًا، فجلستِ المرأة، فعُلِمَ أن النبيَّ ﷺ لم يُرِدْها، فقام رجلٌ

---

(١) فتح الباري (٨/ ٥٢٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم (٤٤٥٠)، وأخرج بعضه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٢٤٤٣/ ٨٤)، وفي كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر، رقم (٤١٨/ ٩٢).

٤٧٨٩ - حَدَّثَنَا حِبَّانُ بْنُ مُوسَى: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ: أَخْبَرَنَا عَاصِمٌ الأَحْوَلُ، عَنْ مُعَاذَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَسْتَأْذِنُ فِي يَوْمِ الْمَرْأَةِ مِنَّا بَعْدَ أَنْ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿تُرْجِئُ مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ فَقُلْتُ لَهَا: مَا كُنْتِ تَقُولِينَ؟ قَالَتْ: كُنْتُ أَقُولُ لَهُ: إِنْ كَانَ ذَاكَ إِلَيَّ فَإِنِّي لَا أُرِيدُ -يَا رَسُولَ اللهِ- أَنْ أُوثِرَ عَلَيْكَ أَحَدًا.

تَابَعَهُ عَبَّادُ بْنُ عَبَّادٍ: سَمِعَ عَاصِمًا.

= من القومِ، فقال: يا رسولَ الله! زوِّجْنيها إنْ لم يكن لك بها حاجةٌ.

وانظرْ هذا الطلبَ المقرونَ بهذا الاحتراز، فهو من حُسْنِ أَدَبِه، فسأله النبيُّ ﷺ: «**وَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُصْدِقُهَا؟**» قال: نعم، معي إزاري، قال: «**مَا تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ؟! إِنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ لَبِسَتْهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ مِنْهُ شَيْءٌ**» فذهب الرجل يلتمسُ، فلم يجد، قال: «**انْظُرْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ**» فلم يجد شيئًا، فقال: «**هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ؟**» قال: نعم، قال: «**زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ**» فزوَّجه إيَّاها على أن يُعَلِّمها شيئًا من القرآن[1].

وقولُ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَا أُرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ» أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ لنبيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ التخييرَ بين أن يُؤَخِّرَ وأن يُؤْوِيَ، ومَن ابْتَغى ممَّن عزلهنَّ وأرجأهنَّ فلا جُناحَ عليه في ذلك، فخيَّره اللهُ تعالى بين أُمورٍ ثلاثة: أن يُؤْوِيَها، وأن يُرْجِئَها، وأنْ يَعْتزِلَها، ولا يُريدها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب تزويج المعسر، رقم (٥٠٨٧)، وفي باب إذا كان الولي هو الخاطب، رقم (٥١٣٢)، ومسلم: كتاب النكاح، باب الصداق، رقم (١٤٢٥/ ٧٦).

٨- بَابُ قَوْلُهُ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾

يُقَالُ: إِنَاهُ: إِدْرَاكُهُ، أَنَى يَأْنِي أَنَاةً، فَهُوَ آنٍ[١].

---

[١] قول الله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ هذا أعمُّ من أن يكون الآذنُ النبيَّ ﷺ.

وقوله: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ أي: إدراكَهُ ونضجَهُ، يعني: يُؤْذَن لكم إلى طعام مُهيَّأ؛ حتى لا تُطيلوا المُكْثَ ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ هذا استدراكٌ من قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا﴾.

وظاهر الآية الكريمة: أنه إذا دُعِيَ الإنسان دخَلَ بدون استئذانٍ، فإذا دعوتُك إلى بيتي، وقلت: تأتيني في الساعة الفلانيَّة، وأتيتَ، فادْخُلْ، ولكن قد يُقال: إن هذا مُقيَّدٌ بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ [النور:٢٧].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ يعني: ولا تتأخَّروا مستأنسين لحديث، لكن لماذا؟

....

= الجواب: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ وإذا كان لا يُؤذيه فلا بأسَ بالبقاء، وعلى هذا فنقول: إذا انتهى الإنسانُ من الطعام في دعوةٍ فلينصرفْ، إلا إذا عَلِمَ من صاحبِ البيت أنه يحبُّ أنْ يَتَأَخَّرَ، فإذا علم ذلك فلا بأسَ، وإلا فإن الأفضلَ أن يَنْصَرِفَ.

وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ دليلٌ على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ موصوف بالحياء في غير الحق، أمَّا في الحقِّ فإن الله تعالى لا يستحيي من الحقِّ؛ ولهذا تجد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه يُكَنِّي عمَّا يُسْتَحيَى منه بما يدلُّ عليه، كقوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النساء:٤٣] وقوله: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٧] وما أشبه ذلك، فيُكَنِّي عمَّا يُسْتَحيَى من ذكره بما يدلُّ عليه.

والحياءُ من الله عَزَّوَجَلَّ كسائر صفاته، أي: أنه يُوصَفُ به، ويُقال: إنه حياءٌ يليقُ بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾ الضميرُ يعودُ على أزواج الرسول ﷺ، والمرجعُ معلومٌ من السياق وإن لم يَسْبِقْ له ذِكْرٌ ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ وهذا التعبير: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ أبلغُ من قوله: «وراء حجاب»؛ لأن «مِن» فيها شيءٌ من التباعد، أي: اجعلوا بينكم وبينهنَّ حجابًا، واسألوهنَّ من ورائِهِ، ولا تقربوا منه، لكن لماذا؟

الجواب: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ وعُلِمَ منه: أن ترك الحجاب مُوجبٌ لنجاسة القلب؛ لأنه إذا كان وجودُ الحجاب أبلغَ في التطهير كان عدمُ الحجاب أقربَ إلى التلوُّث والنجاسة.

....

ومن هذه الآية نستدلُّ على وجوب احتجاب المرأة عن الرَّجُل؛ لأنه مهما بلغت عفَّة الرَّجُل فإنه إذا رأى المرأة فلابُدَّ أن يتحرَّك منه ما هو ساكنٌ، وكذلك هي تشعر بنفسها بما يشعر هو بنفسه؛ لأن الأرواحَ جنودٌ مُجَنَّدةٌ، فكما أن الإنسان إذا رأى مَن يحبُّه يعرف أنه يحبُّه بما يشعر بذلك في نفسه، فكذلك المرأةُ مع الرجل إذا دبَّ فيه ما هو ساكنٌ فإنه يدبُّ فيها أيضًا ما هو ساكنٌ، فيحصل بذلك من الشرِّ والفتنة ما لا تُحْمَد عقباهُ.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ هذه الصيغة تدلُّ على أن ذلك ممتنعٌ غايةَ الامتناع، لكن شَرْعًا؛ لأن الإيذاءَ للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد حَصَلَ قَدَرًا، لكنه ممنوعٌ شرعًا، والدليلُ على حصوله قَدَرًا قوله تعالى في هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧] لكنْ شَرْعًا لا يحلُّ لنا أبدًا أن نُؤْذِيَ رسولَ الله ﷺ.

وفي هذا الزمن لا يُمكن أن نُؤْذِيَه شخصيًّا، لكنَّ مخالفَتَهُ ومخالفةَ سُنَّته إيذاءٌ له؛ لأن هذه الشريعة يتأذَّى رسولُ الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بمخالفتها، ويَفْرَحُ بموافقتها، بل قد بَذَلَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ماله ونفسه لإقامة هذه الشريعة، وجاهَدَ دونها، فمُخالفَتُها يُؤْذِي الرسولَ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، فإذا كان لا يُمكننا الآن أن نُؤْذِيَهُ شخصيًّا فإنَّ الإنسان قد يُؤْذِيهِ في هذا الزمن بمخالفة شريعته، كما نقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:٣] أي: إن مُبْغِضَك هو الأبترُ، وكذلك مُبْغِض شريعته هو الأبترُ.

﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ إِذَا وَصَفْتَ صِفَةَ الْمُؤَنَّثِ قُلْتَ: قَرِيبَةٌ، وَإِذَا جَعَلْتَهُ ظَرْفًا وَبَدَلًا، وَلَمْ تُرِدِ الصِّفَةَ، نَزَعْتَ الهَاءَ مِنَ المُؤَنَّثِ، وَكَذَلِكَ لَفْظُهَا فِي الوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالجَمِيعِ لِلذَّكَرِ وَالأُنْثَى[١].

= ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ حمايةً للرسول ﷺ، وصيانةً، وشرفًا له، حرَّم الله علينا أن نَنْكِحَ أزواجَهُ من بعده أبدًا، يعني: ولو بعد انتهاء مُدَّة العِدَّة، فلا تُنْكَحُ أزواجُهُ من بعده أبدًا؛ احترامًا لفراشِهِ ﷺ، ولأنه ﷺ هو أشدُّ الناس غَيْرةً، قال النبيُّ ﷺ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟! وَاللهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي»(١) وكان سعدُ بن عُبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معروفًا بالغَيْرَةِ، حتى إنه إذا طلَّق امرأةً من النساءِ لم يكن لأحد أن يتزوَّجها؛ لأنهم يعرفون غَيْرَتَهُ، فلا يتزوَّجون النساءَ من بعده(٢).

ثم قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ المشارُ إليه: ما تقدَّم من الإيذاء، ومِن تزوُّج أزواجه من بعده.

وانظر إلى حماية الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله ﷺ، فهنا قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ وقال في قصَّة الإفْكِ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥] كلُّ هذا حمايةٌ لفراش آل النبيِّ الطاهر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

[١] يعني: أن كلمة «قريب» يستوي فيها القليلُ والكثيرُ، والواحد والمتعدِّد، والذَّكر والأُنثى، لكن إذا أردت صفةَ المُؤَنَّث تقول: قريبة، وإذا لم تُرِد الصفة فإنك

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «لَا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ»، رقم (٧٤١٦)، ومسلم: كتاب اللعان، رقم (١٤٩٩/ ١٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٣٨).

٤٧٩٠ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ: حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! يَدْخُلُ عَلَيْكَ البَرُّ وَالفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ بِالحِجَابِ، فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ الحِجَابِ.

٤٧٩١ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الرَّقَاشِيُّ: حَدَّثَنَا مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: حَدَّثَنَا أَبُو مِجْلَزٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ دَعَا القَوْمَ، فَطَعِمُوا، ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ،

= تنزعها، فتقول: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى:١٧].

وفي هذا: دليلٌ على أن المُحَدِّثين يبحثون في النحوِ، ولا يعزفون عنه، ولا يَدَعُونه، خلافًا لبعض الإخوة الذين لا يعرفون النحو، ويعزفون عنه، ويقولون: لا تضيعوا علينا أوقاتنا بالكلام في النحو والإعراب: قام زيد، وذهب زيد، وضربت زيدًا، وأكرمت زيدًا، كيف يكون «زيد» في وقت واحد مضروبًا ومُكْرَمًا ومُعَزَّزًا ومُذَلًّا؟ وكلُّ شيء يقع عليه، فأحيانًا يكون فاعلًا، وأحيانًا مفعولًا، وأحيانًا مجرورًا، وأحيانًا مضافًا، ولكن نقول: لا يُمكن إدراكُ المعاني على وجه التحديد والضبط إلا بإدراك النحو، ونحن لا نُغالي كما قال الشاعر:

إِنَّ الكَلَامَ بِلَا نَحْوٍ يُماثِلُهُ ... نَبْحُ الكِلَابِ وَأَصْوَاتُ السَّنَانِيرِ

فلا نُبالغ هذه المُبالغَةَ، ولا نقول: إن البحثَ فيه إضاعةٌ للوقت، ولكن نقول: خُذْ منه ما يُعينك على فَهْم كتابِ الله وسُنَّة رسولِهِ ﷺ، والقاعدة عندي: إذا اختلف النحويونَ في مسألة فخُذْ بالأسهل، فتتبُّع الرُّخَص في النحو لا يُوجِب الفِسْقَ.

وَإِذَا هُوَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ، فَلَمْ يَقُومُوا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ، فَلَمَّا قَامَ قَامَ مَنْ قَامَ، وَقَعَدَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَدْخُلَ، فَإِذَا القَوْمُ جُلُوسٌ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا، فَانْطَلَقْتُ، فَجِئْتُ، فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدِ انْطَلَقُوا، فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ، فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ، فَأَلْقَى الحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الْآيَةَ[١].

٤٧٩٢- حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِهَذِهِ الْآيَةِ آيَةِ الحِجَابِ،........

---

[١] في هذا الحديث من شدَّة حياءِ النبيِّ ﷺ ما هو ظاهرٌ، فقد كَرِهَ أن يدْخُلَ على أهله والناس حضورٌ في البيت، وهذا من الأدبِ: أن الإنسانَ يبتعد عن مثل هذه الأمور: أن يدخُلَ على أهله دخولَ المبيت عندهم، والناسُ حضورٌ، بل ينْبَغِي أن يحتاطَ ويتأخَّرَ حتى يَخْرُجَ الناسُ.

وفيه أيضًا دليلٌ: على أنه لا بأسَ أن الإنسان إذا قرا الضيفَ، وأتمَّ قِرَاه، أن يُرِيَهُ أنه يحبُّ أن يقومَ، فالرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يتهيَّأ للقيام؛ لأجل أن يقوموا، ولكنَّهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما فهموا ما أرادَ النبيُّ ﷺ، فإن لم ينفعْ فقد استعملَ بعض الناس أن يُطْفِئَ السراجَ إذا كان في الليل، فهل يَصْلُحُ هذا؟

نقول: نعم؛ لأن هذا كلَّه قد يكونُ أهونَ من قول الإنسان لهم: اخْرُجوا، وأنا أذْكُر أنَّ بعضَ الناس فعل هذا، لَمَّا رآهم لم يخرجوا قام، فأطْفَأ السراجَ، وكان فيهم نوعٌ من المُناهضة لفعله، فقاموا، فأخذوا الكبريتَ، وأشعلوا النارَ، فلمَّا رآهم على هذه الحال جاء، وأخذ السراجَ كلَّهُ.

لَمَّا أُهْدِيَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَتْ مَعَهُ فِي البَيْتِ، صَنَعَ طَعَامًا، وَدَعَا القَوْمَ، فَقَعَدُوا يَتَحَدَّثُونَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُجُ، ثُمَّ يَرْجِعُ، وَهُمْ قُعُودٌ يَتَحَدَّثُونَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ فَضُرِبَ الحِجَابُ، وَقَامَ القَوْمُ[١].

٤٧٩٣- حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَارِثِ: حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ صُهَيْبٍ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بُنِيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ بِخُبْزٍ وَلَحْمٍ، فَأُرْسِلْتُ عَلَى الطَّعَامِ دَاعِيًا، فَيَجِيءُ قَوْمٌ، فَيَأْكُلُونَ، وَيَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ، فَيَأْكُلُونَ، وَيَخْرُجُونَ، فَدَعَوْتُ حَتَّى مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُو، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ! مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ، قَالَ: «فَارْفَعُوا طَعَامَكُمْ» وَبَقِيَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ يَتَحَدَّثُونَ فِي البَيْتِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، فَانْطَلَقَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ وَرَحْمَةُ اللهِ» فَقَالَتْ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ بَارَكَ اللهُ لَكَ؟ فَتَقَرَّى حُجَرَ نِسَائِهِ كُلِّهِنَّ، يَقُولُ لَهُنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ، وَيَقُلْنَ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ، فَإِذَا ثَلَاثَةٌ مِنْ رَهْطٍ فِي البَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الحَيَاءِ، فَخَرَجَ مُنْطَلِقًا نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَمَا أَدْرِي: آخْبَرْتُهُ، أَوْ أُخْبِرَ أَنَّ القَوْمَ خَرَجُوا؟........

---

[١] قوله: «فَضُرِبَ الحِجَابُ» أي: وُضِعَ الحجابُ، وكان الأمرُ مكشوفًا قبلَ أن يُوضَع الحجابُ.

فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أُسْكُفَّةِ البَابِ دَاخِلَةً وَأُخْرَى خَارِجَةً أَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الحِجَابِ[١].

٤٧٩٤- حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ بَكْرٍ السَّهْمِيُّ: حَدَّثَنَا حُمَيْدٌ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: أَوْلَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ بَنَى بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، فَأَشْبَعَ النَّاسَ خُبْزًا وَلَحْمًا، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى حُجَرِ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ صَبِيحَةَ بِنَائِهِ، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِنَّ، وَيُسَلِّمْنَ عَلَيْهِ، وَيَدْعُو لَهُنَّ، وَيَدْعُونَ لَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى بَيْتِهِ رَأَى رَجُلَيْنِ جَرَى بِهِمَا الحَدِيثُ، فَلَمَّا رَآهُمَا رَجَعَ عَنْ بَيْتِهِ،

---

[١] **في هذا الحديث دليلٌ على فوائدَ، منها:**

١- أن الرجل إذا سلَّم على جماعة حقيقةً أو حُكمًا قال: «السلامُ عليكم» وأنه إذا رُدَّ عليه يُقال: «عليك السلامُ»؛ لأن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ وَرَحْمَةُ اللهِ**» فقالوا: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ» وهذا دليلٌ على أنه يجوزُ أن تتغايرَ الصيغتان: الردُّ والإجابةُ على حسب المُسَلَّم عليهم.

فإن قال قائلٌ: إذا سلَّم على واحدٍ فأيهما أَوْلَى: الإفرادُ أم الجَمْعُ؟

قلنا: ظاهر السُّنَّة أن الإفرادَ أَوْلَى؛ لأن المسيءَ في صلاته لَمَّا جاء سلَّم على الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: السلامُ عليكَ، فقال: «**وَعَلَيْكَ السَّلَامُ**»(١).

٢- دعاء المرأة لزوجها بالبركةِ في الزوجة الجديدة؛ لأن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ بَارَكَ اللهُ لَكَ؟» وكذلك بقيَّةُ زوجاتِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليك السلام، رقم (٦٢٥١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧/ ٤٥).

فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلَانِ نَبِيَّ اللهِ ﷺ رَجَعَ عَنْ بَيْتِهِ وَثَبَا مُسْرِعَيْنِ، فَمَا أَدْرِي: أَنَا أَخْبَرْتُهُ بِخُرُوجِهِمَا، أَمْ أُخْبِرَ؟ فَرَجَعَ حَتَّى دَخَلَ البَيْتَ، وَأَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الحِجَابِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ: أَخْبَرَنَا يَحْيَى: حَدَّثَنِي حُمَيْدٌ، سَمِعَ أَنَسًا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ[١].

٤٧٩٥- حَدَّثَنِي زَكَرِيَّاءُ بْنُ يَحْيَى: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: خَرَجَتْ سَوْدَةُ بَعْدَمَا ضُرِبَ الحِجَابُ لِحَاجَتِهَا، وَكَانَتِ امْرَأَةً جَسِيمَةً لَا تَخْفَى عَلَى مَنْ يَعْرِفُهَا، فَرَآهَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، فَقَالَ: يَا سَوْدَةُ! أَمَا وَاللهِ مَا تَخْفَيْنَ عَلَيْنَا، فَانْظُرِي كَيْفَ تَخْرُجِينَ، قَالَتْ: فَانْكَفَأَتْ رَاجِعَةً، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِي، وَإِنَّهُ لَيَتَعَشَّى، وَفِي يَدِهِ عَرْقٌ، فَدَخَلَتْ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي، فَقَالَ لِي عُمَرُ: كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ: فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ، ثُمَّ رُفِعَ عَنْهُ وَإِنَّ العَرْقَ فِي يَدِهِ مَا وَضَعَهُ، فَقَالَ: «**إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ**»[٢].

---

[١] قوله: «**السَّهْمِيُّ**» يعني: من بني سهم.

[٢] **في هذا الحديث دليلٌ على فوائدَ، منها:**

١- جوازُ خُروج المرأة من بيت زوْجِها للحاجة، أمَّا لغير الحاجَة فلا ينبغي أنْ تَخْرُجَ؛ وذلك لعمومِ قول الرسولِ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: «**بُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ**»(١)

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء خروج النساء إلى المسجد، رقم (٥٦٧)، وأحمد (٢/ ٧٧).

....

= ولقول الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب:٣٣] فبقاءُ المرأة في بيْتِها خيرٌ لها من الخُروج، اللهم إلا إذا دعت الحاجةُ، سواءٌ كانت الحاجةُ لها، أو للناس إليها، كالمُدَرِّسة والمُعَلِّمة، وما أشْبَهَ ذلك.

وهل بقاؤُها في البيت عند عدَم الحاجة على سبيل الوُجوب؟

نقول: لا، هذا على سبيل الاستحباب، إلا إذا كان الزمنُ زَمَنَ فتنةٍ، فهنا يجبُ ألَّا تَخْرُجَ إلا لحاجةٍ.

فإن قال قائلٌ: لكن قوله: «إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ» يدلُّ على أنه لا يجوزُ الخروجُ إلا لحاجةٍ؟

قلنا: لكنه ليس بصريحٍ.

٢- أنه كلما اخْتَفى النساءُ عن الرجال فهو خيرٌ وأفضلُ وأَوْلَى، فيُرَدُّ به على دعاة السُّفور والتبرُّج الذين يُريدون من أُمَّةِ الإسلام أن يكونوا كأُمَّةِ الكُفْر في اختلاط النساء بالرجال، وتبرُّجهنَّ، وعدم احتشامهنَّ، ويدَّعون بذلك أنهم حرَّروا المرأةَ وأكرموها، ولكنهم أهانوها في الواقع، وأذهبوا حياءَها الذي جُبِلَت عليه، كما أنهم أيضًا خالفوا بذلك شريعةَ الله؛ فإنَّ الشريعةَ بكلِّ مواردها ومصادرها تدلُّ على أن بُعْدَ النساء عن الرجال خيرٌ، حتى في أماكن العبادة، قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «خَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، رقم (٤٤٠/ ١٣٢).

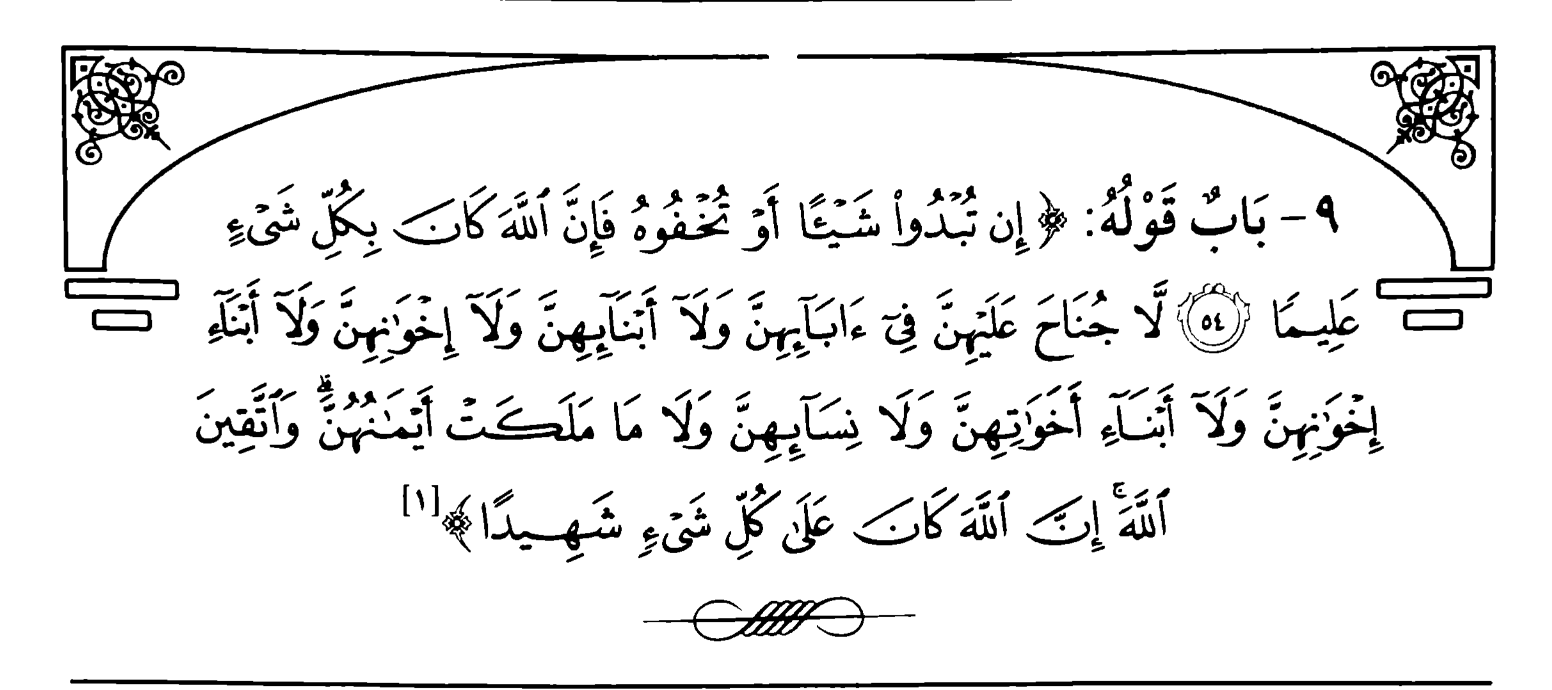
....

= وبهذا نعرف أنَّ الأُمَّةَ الإسلاميَّة على خطرٍ عظيمٍ تُجاه دعوة هؤلاء القوم الذين يُريدون من نساء المسلمين أن يكنَّ كنساء الكافرين في التبرُّج، والاختلاط، وعدم الحياء، ورفع جِلْبَاب الأمْرِ الذي فُطِرَت عليه المرأةُ؛ ولهذا يُضْرَب الحياءُ بالمرأة، فيُقال: «أشدُّ حَياءً منَ العذراءِ في خِدْرها»؛ لأن هذا أمرٌ معروفٌ.

وعلى الذي يُريد من هذه الأُمَّةِ أن ترجع إلى ما كان عليه الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأصحابه أن يُبَيِّن -ما استطاع- بُطْلَان هذه الدعوةَ، وأنها دعوةٌ فاسدةٌ باطلةٌ، وأن الداعيَ إليها لا يُريد بالأُمَّةِ خيرًا، وأنَّ عاقِبَتها وخيمةٌ، حتى لا يغترَّ مَنْ يغترُّ بمثل هذه الدَّعوات، ولو سألت مَن جَرَوْا يَلْهَثون وراء الغرْب في عاداتهم وتقاليدهم ماذا حصل عليهم من النَّكَبات؟ لرأيت أفئِدَتَهُم ممتلئةً منَ الحسرةِ، يُريدون أن يرجعوا إلى ما مضى، ولكن أنَّى لهم التناوشُ من مكان بعيدٍ؟!

والغربُ الآن قد بلغوا الغايةَ في سفور الأخْلاق وفسادِهَا، فهم يودُّون بكلِّ قُواهم أن يرجعوا إلى ما كان عليه المسلمون من تستُّر المرأة وبُعْدِها عن الرِّجال، لكن لا يُمكن، فقد اتَّسع الخَرْقُ على الراقع، فهؤلاء الذين يُريدون الآن أن يخرقوا سِيَاج حشمة نسائنا وحيائهنَّ؛ حتى يَكُنَّ مثلَ نساء الغرب إني أقول: واللهِ ما هم بناصحين، لا لنا، ولا للإسلام، ولا لهذه الدولة التي تُنادي بالإسلام، ونسأل اللهَ تعالى أن يَرُدَّ كيْدَهُم في نحورهم، وأن يُسَلِّمَ المسلمينَ من شرِّهم.





[١] قول الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ هذا أعمُّ من قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [النساء:١٤٩]؛ لأن هذا يعمُّ الخيرَ وغيرَهُ.

وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يعني: ولا يَخْفَى عليه ما أبديتموه أو أخفيتموه، سواءٌ كان إخفاءً مُطْلَقًا، وهو الذي يُحدِّث به الإنسانُ نفسَهُ، أو إخْفَاءً نسبيًّا، كالذي يُحدِّث به صاحبَهُ وصديقَهُ، ولا يعلم به أحدٌ سواهما، فإنَّ الله كان بكلِّ شيء عليمًا، يعني: فيكون عالِمًا به.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: على النساء ﴿فِي آبَائِهِنَّ﴾ أي: في عدم التحجُّب ﴿وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ﴾ وهم الذين يَكُنَّ لهم عمَّاتٍ ﴿وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ وهم الذين يَكُنَّ لهم خالاتٍ.

وقوله: ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ قيل: إن الإضافة هنا للجنس، أي: ولا في النساء اللاتي من جِنْسِهِنَّ، وقيل: إن الإضافة للوصْفِ، فإن كانت للوصْفِ فإنَّ المراد بنسائهن: المؤمناتُ، يعني: ولا نساء المؤمنات اللاتي مثلهنَّ في الإيمان والوصف، ويختلف الحُكْمُ باختلاف القولين.

....

فعلى القول بأنها إضافة وصْفٍ يجوزُ للمرأة أن تَكْشِفَ للمؤمنة، ولا يجوزُ أن تَكْشِفَ للكافرة، وعلى القول الآخَرِ يجوز أن تَكْشِفَ للمرأة، سواءٌ كانت مؤمنةً أو كافرةً، وهذا القول هو الصحيحُ؛ لأن تعلُّق المرأة بالمرأة لا فرْقَ فيه بين المؤمنة والكافرة.

لكن هنا إشكالٌ، وهو: أن العمَّ والخالَ من المحارم، ومع ذلك لم يُذْكَروا، كما لم يُذْكَروا في سُورة النور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ [النور:٣١] ولكن ذُكِرُوا في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ [النور:٦١] فما هو السِّرُّ في عدم الذِّكْر هنا؟

الجواب: قال بعضُ أهل العلم: لأنه لَـمَّا كان أبناءُ الأعمام وأبناءُ الأخوال يحِلُّ لهم أن يتزوَّجوا ببنات العمِّ والخال لم يُذْكَرُ الأعمامُ والأخوالُ؛ لأن العمَّ والخالَ قد ينظرون إليها نَظَرَ تمتُّعٍ، أو نظرًا آخرَ من أجل أن يَصِفَها لابْنِهِ، بمعنى: أنه قد ينظرُ إليها نظرَ نكاحٍ، لا لنفسه، ولكنْ لابنه.

هكذا ذكر العلماء، وفيه نظرٌ، والظاهر -والله أعلم- أن السببَ في ذلك أن العمَّ والخالَ ليس كمَنْ ذُكِرَ في بُعْدِهِ عمَّا يتعلَّق بالتمتُّع بالمرأة، وهذا أمرٌ مُشاهَدٌ، فإن بُعْدَ الإنسان في نظره لأُخْتِهِ عمَّا يتعلَّق بالشهوة الجنسيَّة أعظمُ وأعظمُ من بُعْد نظرِ الخالِ والعمِّ، ولا سِيَّما إنْ كان لهم أبناء، فإنه يُخْشَى من هذا، وعلى هذا فالحكمةُ هي أن الخالَ والعمَّ قد ينظرُ للمرأة نظرًا غيرَ نظر الأخِ.

....

= وعلى كل حالٍ فإننا نقول: اللهُ أعلم بذلك، إنما العلماء مُجْمعون على أنَّهم من المحارِمِ الذين يجوزُ للمرأة أنْ تَكْشِفَ لهم، قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ [النساء:٢٣] وبناتُ الأخِ يكون الإنسان عمًّا لهنَّ، وبناتُ الأختِ يكون خالًا لهنَّ، وكلُّ مَن يَحْرُمُ نكاحُهَا على التأبيد فهو مَحْرَمٌ لها، لكنَّ السؤالَ عن الحِكْمة في عَدَمِ ذِكْرِهم.

فإن قال قائلٌ: ولعلَّهم لم يُذْكَروا؛ لأنهم يدخلونَ في عُموم قول النبيِّ ﷺ: «أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ؟»[1].

نقول: لا؛ لأن الأخَ أعظمُ وأقربُ؛ فإنَّ العمَّ أخو أبيك، والأخُ أخوك أنتَ، ولو دَخَلَ العمُّ لم يدخلِ الخالُ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ مِلْكُ اليمين ليس مُحَرَّمًا على التأبيدِ؛ لأنه مُحَرَّمٌ على المرأة ما دام مِلْكًا لها، وبعد إعتاقِهِ يجوزُ أن يتزوجَ، وهي إذا أعتقَتْهُ لا يحِلُّ لها أن تَكْشِفَ له، فإذن: لماذا جاز لها أن تَكْشِفَ له؟

الجواب: قالوا: لدعاء الحاجة والضرورة إلى ذلك؛ لأنه مملوكُهَا، وعندها في البيت، ويخدُمُهَا، وتُرسله؛ فمن أجل هذا جازَ لها أن تَكْشِفَ له كما تَكْشِفُ لمَحْرَمِهَا، مع أنه ليس مَحْرَمًا لها، فلو سافَرَ بها ما جاز، لكن هذا لأجل الحاجة.

واستنبط منه بعضُ العلماء: أن المرأة التي في البيت، وعندها أخو زوْجِها يدْخُلُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، رقم (٩٨٣/ ١١).

....

= ويخرجُ، وعنده أهْلُهُ، فإنه يجوز لها أن تَكْشِفَ الوجهَ واليديْنِ والرِّجْلَيْنِ، ولكنَّ هذا ليس بصحيح؛ لأن الرسولَ ﷺ يقول: «الحَمْوُ المَوْتُ»[1] فيجب الحَذَرُ منه.

ولكن رُبَّما نقول بالتسامح في مسألة الكفَّين والقدميْنِ؛ لأن التحرُّزَ في ذلك صعبٌ جدًّا؛ إذ إنه لو كان عندها في البيت أخو زوْجِهَا أو ما أشبه ذلك، وقلنا: إنه يجب أن تَسْتُرَ كفَّيها وقدَمَيْهَا، لَزِمَ من هذا أن تَلْبَسَ القُفَّازين والجَوْرَبَيْنِ ما دامت في البيت، وعند هذا الرجل، وهي بحاجة أن تمرَّ لتأْتِيَ بالطعام، وتذهبَ به، وتُنَظِّفَ البيت، وتطبخَ، فهي تمرُّ ذاهبةً وجائيةً من عند هذا الرجل، فيشقُّ عليها؛ ولهذا اختارَ صاحبُ الإنصافِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من علماء الحنابلة -والحنابلةُ يَرَوْنَ أنه يجبُ سترُ الوجْهِ والكفَّين والقدَمَيْنِ عن غير المحارم- أنَّ المرأةَ في مثل هذه الحال يحِلُّ لها أن تَكْشِفَ ما دعت الحاجةُ إلى خُروجه وبُروزه[2]، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨] وقصة فاطمة شاهدةٌ بذلك[3].

وأمَّا الخَلْوَةُ فظاهرُ الأحاديث: المنعُ من ذلك؛ لقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ»[4].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة..، رقم (٥٢٣٢)، ومسلم: كتاب السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية، رقم (٢١٧٢/ ٢٠).

(٢) الإنصاف مع المقنع والشرح الكبير (٢٠/ ٣٩).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب اللباس، باب في العبد ينظر إلى شعر مولاته، رقم (٤١٠٦) من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، رقم (٥٢٣٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم، رقم (١٣٤١/ ٤٢٤).

٤٧٩٦- حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتِ: اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ أَفْلَحُ أَخُو أَبِي القُعَيْسِ بَعْدَمَا أُنْزِلَ الحِجَابُ، فَقُلْتُ: لَا آذَنُ لَهُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ فِيهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَإِنَّ أَخَاهُ أَبَا القُعَيْسِ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي، وَلَكِنْ أَرْضَعَتْنِي امْرَأَةُ أَبِي القُعَيْسِ، فَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ أَفْلَحَ أَخَا أَبِي القُعَيْسِ اسْتَأْذَنَ، فَأَبَيْتُ أَنْ آذَنَ لَهُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَمَا مَنَعَكِ أَنْ تَأْذَنِي؟! عَمُّكِ**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي، وَلَكِنْ أَرْضَعَتْنِي امْرَأَةُ أَبِي القُعَيْسِ، فَقَالَ: «**ائْذَنِي لَهُ؛ فَإِنَّهُ عَمُّكِ، تَرِبَتْ يَمِينُكِ!**».

قَالَ عُرْوَةُ: فَلِذَلِكَ كَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: حَرِّمُوا مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا تُحَرِّمُونَ مِنَ النَّسَبِ[١].

= وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ الجملةُ الأخيرةُ تعليلٌ لِمَا قبلَها، يعني: اتَّقِينَ اللهَ؛ فإنَّ الله لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أفعالكنَّ؛ لأنه شهيدٌ.

[١] هذا الذي قالته عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا جاء به الحديثُ مرفوعًا عن النبيِّ ﷺ: «**يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، رقم (٢٦٤٥)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب تحريم ابنة الأخ...، رقم (١٤٤٧/ ١٣) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
وأخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، رقم (٢٦٤٦)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب تحريم الرضاعة من ماء الفحل، رقم (١٤٤٥/ ٩) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

....

= وقوله ﷺ: «إِنَّهُ عَمُّكِ» وجهُ ذلك: أنه أخو زوْجِ المرأة التي أرضَعَتْها، والمرأةُ التي أرضَعَتْها أرضَعَتْها وهي تحت أبي القُعَيْس، وعائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أَشْكَلَ عليها الأمْرُ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء:٢٣] والرجلُ لم يُرْضِعْ.

وفي هذا الحديث: نصٌّ صريحٌ على أن التحريم يتعلَّق بالفَحْل أيضًا، كما يتعلَّق بالمرأةِ، فتعلُّق اللَّبَن بالمُرْضِعَةِ وزوْجِها كتعلُّق النسبِ، فأخو زوْجِها يكون عمًّا للرضيع، وعمُّ زوْجِهَا يكون عمًّا للرضيع؛ لأن عمَّ الإنسان عمٌّ له ولذرِّيَّتِهِ إلى يوم القيامة، وخالَ الإنسانِ خالٌ له ولذرِّيَّته إلى يوم القيامة.

فإن قال قائل: وابنُ زَوْجِ المُرْضِعَةِ كيف يكون؟

قلنا: يكون أخا الرضيعِ من الأبِ؛ لأن الزوجة إذا أرْضَعَتْ إنسانًا صار زوْجُها أبًا له، فإذا كان له أولادٌ من غيرها صار الأولادُ إخوةً له من الأبِ؛ لأنه جَمَعَ بينَهُ وبينهم أبٌ واحدٌ، فيكونون إخوةً له من الأب.

وكذلك أولادُ المُرْضِعة من زوجٍ آخر يكونُونَ إخوةً له من الأُمِّ؛ لأنه جَمَعَ بينه وبينهم أُمٌّ، فيكونون إخوةً لهم من الأُمِّ.

ومسائل الرَّضاع يغلط فيها -حتى من بعض العلماء-، وتُشْكِلُ عليهم؛ لأنها متداخلةٌ، ولكن إذا عرفْنا الضابطَ في ذلك استرحنا، فنقول: الرَّضاع يتعلَّق بثلاثة فقط:

(١) المُرْضِعة.

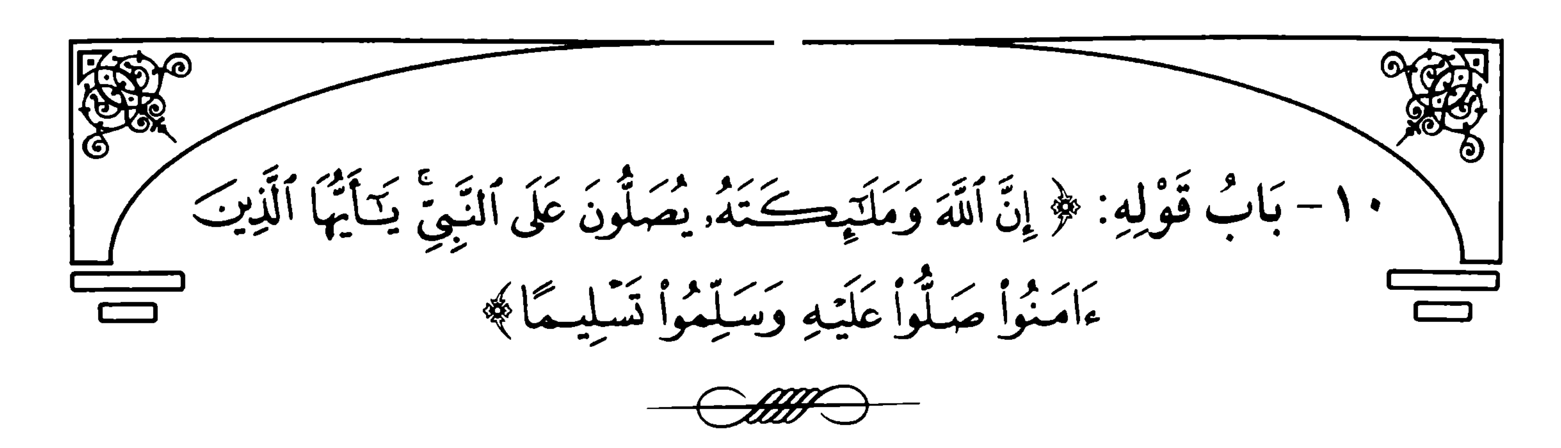
(٢) صاحبُ اللَّبَن، وهو الزوجُ، أو السَّيِّدُ إذا كانت أَمَةً.

(٣) الرضيعُ.

....

= ثم إن المُرْضعة وصاحبَ اللَّبَنِ ينتشرُ التحريمُ إلى أُصولِهم وفُروعهم، وأمَّا المرْتَضِعُ فإلى فُروعه فقط دونَ أُصولِهِ، بمعنى: أنَّ آباء الرضيع وإخْوتَهُ لا يتعلَّق بهم حُكْمُ الرضاع؛ ولهذا يجوزُ لأبي الرَّضيع أن يتزوَّج مَن أرْضَعَتِ ابنَهُ، مع أنها أمُّ ابنه، ويجوز لأبي الرضيع أن يتزوَّجَ أُخْتَ ابنه من الرَّضاع؛ لأنها أجنبيَّةٌ منه؛ إذْ إن الرَّضاع لا ينتشرُ إلا إلى المُرتضع وذرِّيَّته فقط.




١٠ - بَابُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾

قَالَ أَبُو العَالِيَةِ: صَلَاةُ اللهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ المَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ المَلَائِكَةِ: الدُّعَاءُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿يُصَلُّونَ﴾ يُبَرِّكُونَ[١].

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ في استفتاحِ أمْرِ المؤمنين بالصلاة والسلام على رسولِ الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذه الجُمْلة المُؤَكَّدة بـ: «إنَّ» دليلٌ على عِنايةِ الله عَزَّوَجَلَّ بالصلاة والسلام على نبيِّه محمَّدٍ ﷺ؛ ولهذا وَرَدَ منْ فضلِ الصلاة على النبيِّ ﷺ ما يجعلُ المُؤْمِنَ حريصًا عليها دائمًا، حتى إن المشهورَ من مذهب الحنابلة: أن الصلاةَ على النبيِّ ﷺ رُكْنٌ في كُلِّ صلاةٍ، وأنه لا تتمُّ صلاةٌ إلا بالصلاة على النبيِّ ﷺ(١).

وهي واجبةٌ كلما ذُكِرَ اسمُهُ، فإنه يَجِبُ على مَن سَمِعَهُ أن يُصَلِّيَ عليه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ أي: يُثْنُون عليه، ويذكرونه بصفات المحامد والكمالات التي تليقُ به، على أنه عبدٌ ورسولٌ، لا على أنه مُدَبِّرٌ وربٌّ، عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ سبَقَ أن الإيمان في اللغة: التصديقُ، وفي الشرع: التصديقُ المستلزمُ للقبُول والإذْعان.

---

(١) منتهى الإرادات (١/ ٦٣).

....

وقوله: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ أي: قولوا: اللَّهُمَّ صلِّ عليه.

وقوله: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ أكَّد التسليم بالمصدر، أي: سلِّموا تسليمًا كاملًا لا نَقْصَ فيه.

والفَرْقُ بين الصلاة والسلام: أن الصلاةَ دعاءٌ بالخير، والسلامَ دعاءٌ بزوال الشَّرِّ، أي: السلامة من الآفات والنقائص والعيوب.

وقولُ أبي العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صَلَاةُ اللهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ المَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ المَلَائِكَةِ: الدُّعَاءُ» وكذلك صلاةُ الآدميِّينَ الدعاءُ؛ لأن معنى: «صلَّى فلانٌ على الرسولِ» أي: دعا له بأن يُثْنِيَ عليه في الملأ الأعلى.

وقول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في ﴿يُصَلُّونَ﴾ قال: «يُبَرِّكُونَ» هذا فيه نظرٌ، والصوابُ ما قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن صلاةَ الله على نبيِّه ثناؤُهُ عليه عند الملائكة، ولا يصحُّ أن نَجْعَلَ الصلاة بمعنى التبريك؛ لأنَّها وردت في السُّنَّة مُغايِرَةً للصلاة، قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيما علَّم أُمَّته: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ... اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّد»[1] وهذا يدلُّ على أن التبريكَ غيرُ الصلاة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٦٣٥٧)، وفي باب هل يصلى على غير النبي ﷺ؟، رقم (٦٣٦٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٤٠٦/ ٦٦) (٤٠٧/ ٦٩) عن كعب وأبي حميد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٦٣٥٨) عن أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه مسلم في الموضع السابق، رقم (٤٠٥/ ٦٥) عن أبي مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ لَنُسَلِّطَنَّكَ[١].

٤٧٩٧- حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ: حَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا مِسْعَرٌ، عَنِ الحَكَمِ، عَنِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ، فَكَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكَ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**».

٤٧٩٨- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ الهَادِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ خَبَّابٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذَا التَّسْلِيمُ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**».

= ومن هنا نأخذ أن المفضولَ قد يكونُ أصوبَ من الفاضل، فتفسيرُ أبي العالية رَحِمَهُ اللَّهُ للصلاة على النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أصوبُ من تفسير ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وإن كان الأثرُ المرويُّ عن ابن عباس منقطعًا؛ لأنه مُعَلَّقٌ، لكنَّ البخاريَّ رَحِمَهُ اللَّهُ إذا علَّق الشيءَ جازمًا به فهو عنده صحيحٌ.

[١] هذا في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنُسلِّطنَّك عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قَالَ أَبُو صَالِحٍ، عَنِ اللَّيْثِ: «عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»[١].

حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَمْزَةَ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي حَازِمٍ وَالدَّرَاوَرْدِيُّ، عَنْ يَزِيدَ، وَقَالَ: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ»[٢].

---

[١] هنا اختلف الرُّواةُ في صيغة الصلاة على النبيِّ ﷺ، فأمَّا في حديث كعب بن عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فالنَّسَق فيه واحدٌ، وعلى كلِّ حال فقدْ سَبَـقَ أنَّ العباداتِ الواردةَ على وُجوهٍ متنوِّعةٍ ينبغي للإنسان أن يَفْعَلَ هذا تارةً، وهذا تارةً؛ ليفعلِ السُّنَّةَ كلَّها على جميع الوُجوهِ.

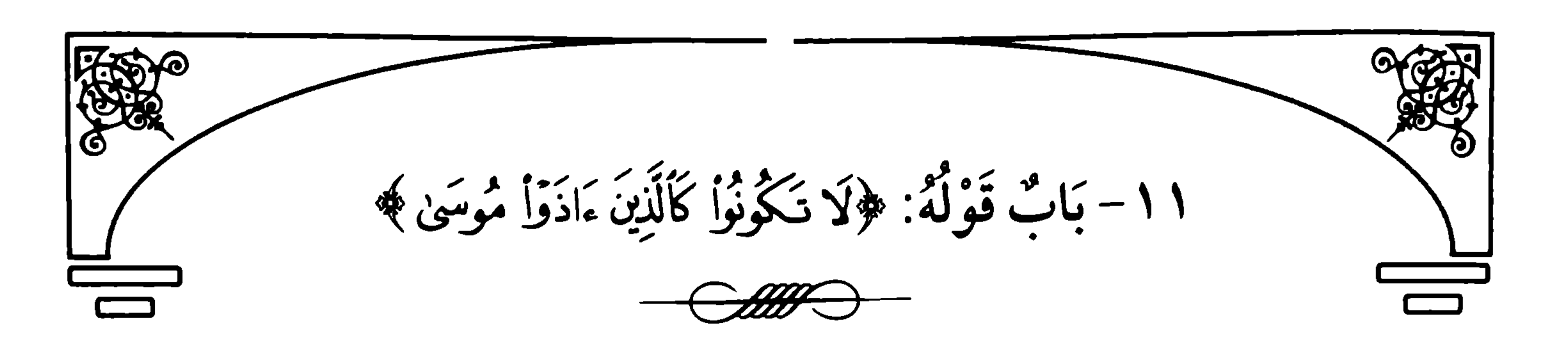
[٢] في هذا الجمعُ بين «إبراهيم» و«آل إبراهيم» في قوله: «كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ» وقد ذكرنا في (قواعد ابن رجب) أنه لم يثبت الجمعُ بين إبراهيم وآل إبراهيم(١)، ولعلَّه أخذه نقلًا عن شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ(٢)، وتبيَّن هناك أنه قد ثَبَتَ الجمعُ بينهما في (صحيح البخاريِّ) وقلنا: لعل شيخَ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ لم يطَّلع على هذه النسخة التي فيها الجمعُ بينهما.



---

(١) انظر: (١/ ٨٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٥٦).



١١- بَابٌ قَوْلُهُ: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾

٤٧٩٩- حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: أَخْبَرَنَا رَوْحُ بْنُ عُبَادَةَ: حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنِ الحَسَنِ وَمُحَمَّدٍ وَخِلَاسٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾»[١].

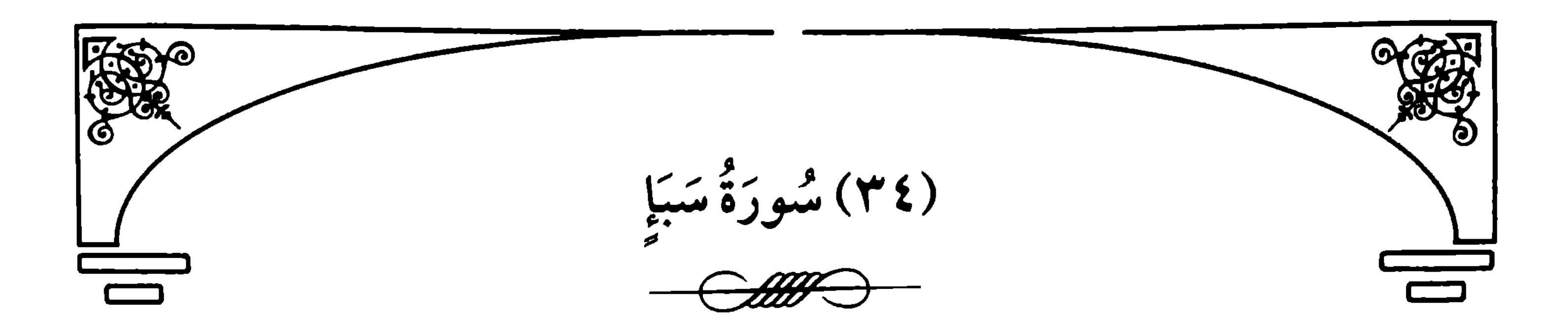
---

[١] هذا السياق مختصرٌ جدًّا؛ وذلك أنَّ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان رجلًا حييًّا، وكان لا يغتسل عُرْيانًا عند بني إسرائيل، وكانت بنو إسرائيل يغتسلون عُراةً ينظر بعضُهم إلى بعض، فقال بعضُهم لبعض: إن موسى كان آدَرَ، لماذا لا يغتسلُ كما يغتسلون عُرْيانًا أمام الناس؟! والآدرُ: كبيرُ الخُصْيَة، فبينا هو يومًا يغتسلُ قد وضع ثوبه على حَجَرٍ، هرَبَ الحجرُ بثوبِهِ، فلَحِقَهُ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يقول: ثوبي حَجَرُ! ثوبي حَجَرُ! ولكنَّ الحَجَرَ ظلَّ يسعى بهذا الثوب حتى وصل إلى بني إسرائيل، فشاهدوا موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليس به بَأْسٌ، ثم وقف الحَجَرُ، فأخذ موسى ثوبَهُ، وجعل يضربُ الحَجَرَ(١).

فهذا الحديثُ الذي ساقه المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا مختصرٌ جدًّا، لكنَّ هذا هو قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ وإيذاؤُهم إيَّاه تعييرُهم إيَّاه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الغسل، باب من اغتسل عريانًا، رقم (٢٧٨)، ومسلم: كتاب الحيض، باب جواز الاغتسال عريانًا في الخلوة، رقم (٣٣٩/ ٧٥).



(٣٤) سُورَةُ سَبَإٍ

يُقَالُ: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مُسَابِقِينَ.

﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ بِفَائِتِينَ.

مُعَاجِزِيَّ: مُسَابِقِيَّ[١].

﴿سَبَقُوٓاْ﴾ فَاتُوا.

﴿لَا يُعۡجِزُونَ﴾ لَا يَفُوتُونَ[٢].

﴿يَسۡبِقُونَا﴾ يُعْجِزُونَا[٣].

---

[١] قوله: «مُعَاجِزِيَّ: مُسَابِقِيَّ» لا معنى لها، ووقع بدلَها في نسخة: «﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مُغَالِبِينَ» وهذه أقربُ؛ لأنه سبق أن معنى ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: طالبي عجزَنا، وهذا هو المغالب؛ لأن المغالب يطلبُ عَجْزَ صاحبه حتى يَغْلِبَهُ.

[٢] هذه الكلمة في سُورة أُخْرى غيرِ سورة سبإٍ، قال الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ﴾ أي: لا يفوتوننا بسَبْقِهم، وجاءَ بها المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا؛ استشهادًا لقوله.

[٣] كلمة ﴿يَسۡبِقُونَا﴾ في سورة العنكبوت: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ بِفَائِتِينَ، وَمَعْنَى ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مُغَالِبِينَ، يُرِيدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يُظْهِرَ عَجْزَ صَاحِبِهِ.

مِعْشَارٌ: عُشْرٌ[١].

يُقَالُ: الأُكُلُ: الثَّمَرُ[٢].

﴿بَٰعِدۡ﴾ وَبَعِّدْ وَاحِدٌ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَا يَعۡزُبُ﴾ لَا يَغِيبُ.

﴿سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ السُّدُّ: مَاءٌ أَحْمَرُ أَرْسَلَهُ اللهُ فِي السُّدِّ، فَشَقَّهُ، وَهَدَمَهُ، وَحَفَرَ الوَادِيَ، فَارْتَفَعَتَا عَنِ الجَنْبَتَيْنِ، وَغَابَ عَنْهُمَا المَاءُ، فَيَبِسَتَا، وَلَمْ يَكُنِ المَاءُ الأَحْمَرُ مِنَ السُّدِّ، وَلَكِنَّهُ كَانَ عَذَابًا أَرْسَلَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ شَاءَ.

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ شُرَحْبِيلَ: العَرِمُ المُسَنَّاةُ بِلَحْنِ أَهْلِ اليَمَنِ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: العَرِمُ الوَادِي[٣].

السَّابِغَاتُ: الدُّرُوعُ[٤].

---

[١] يعني بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ [سبأ:٤٥] أي: عُشْرَه.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿ذَوَاتَىۡ أُكُلٍ خَمۡطٍ وَأَثۡلٍ﴾ [سبأ:١٦].

[٣] قوله: «بِلَحْنِ أَهْلِ اليَمَنِ» أي: بلُغَة أهل اليمن.

[٤] يعني قول الله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ:١١] أي: دُروعًا، والسابغة:

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: (يُجَازَى) يُعَاقَبُ.

﴿أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ بِطَاعَةِ اللهِ.

﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ وَاحِدٌ وَاثْنَيْنِ.

﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ الرَّدُّ مِنَ الْآخِرَةِ إِلَى الدُّنْيَا.

﴿وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنْ مَالٍ أَوْ وَلَدٍ أَوْ زَهْرَةٍ.

﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾ بِأَمْثَالِهِمْ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ كَالجَوْبَةِ مِنَ الأَرْضِ[١].

الخَمْطُ: الأَرَاكُ.

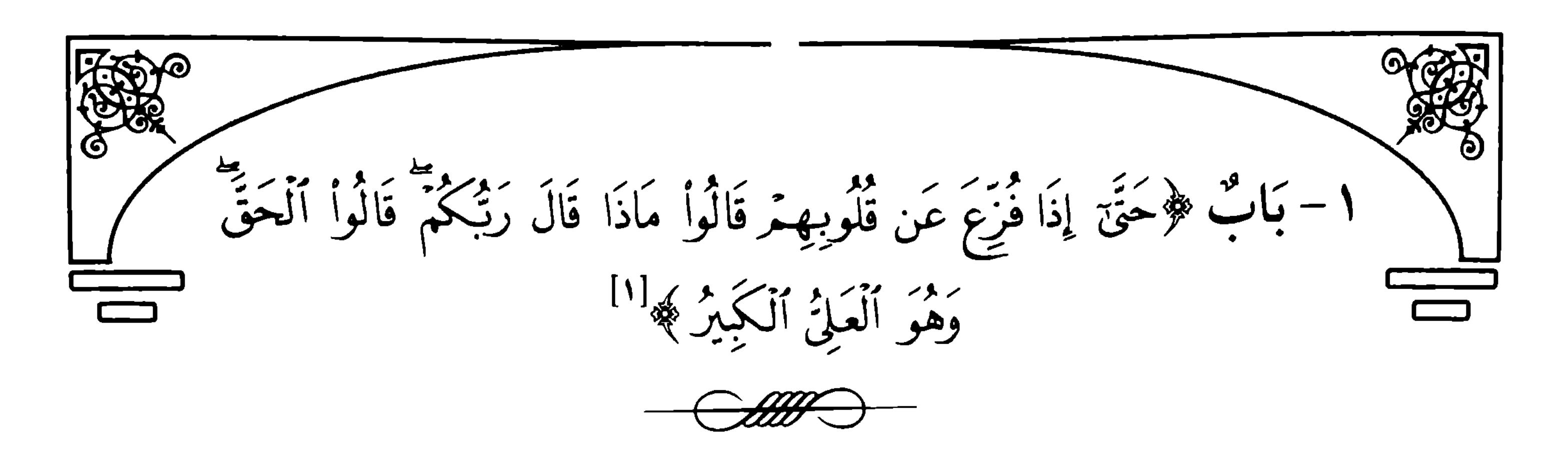
وَالأَثْلُ: الطَّرْفَاءُ[٢].

العَرِمُ: الشَّدِيدُ.

= التامّة الواسعةُ، واسعةُ المَلْبَسِ، ضيِّقةُ الدروز أي: أن حلْقاتِها ضَيِّقَةٌ؛ لئلا تَمْضِيَ منها السهامُ، لكنَّها واسعةٌ حتى لا تَشُقَّ على مَن لَبِسَها.

[١] الجَوْبَةُ من الأرض هي البِرْكَة، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣].

[٢] **الصحيحُ**: أن الأثْلَ غير الطَّرْفاء، فإن الطَّرْفاء لا تطولُ، ولا تكون قويَّةً ولا متينةَ العُود، بل هي ضعيفةٌ ومُتشعِّبةٌ، لها أغصانٌ، بخلاف الأثْلِ؛ ولهذا يُقال: «الطَّرفاء والأثْلُ» والعطفُ يقتضي المُغايَرَةَ، وهما معروفتانِ عند الناس الآن.



١- بَابٌ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾[١]

٤٨٠٠- حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنَا عَمْرٌو، قَالَ: سَمِعْتُ عِكْرِمَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: إِنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ -وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ- فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟.......................

---

[١] هذا آخِرُ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: أُزيل عنها الفزَعُ ﴿قَالُواْ﴾ أي: قال بعضُهم لبعض ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ أي: قال القولَ الحقَّ، فـ: ﴿ٱلۡحَقَّۖ﴾ هنا صفةٌ لمصدر محذوفٍ، والتقديرُ: القولَ الحقَّ، وهو الصِّدْق في الخبر، والعَدْل في الأحكام.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ أي: بذاته وصفاته سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ الذي له الكبرياءُ في السموات والأرض.

فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ»[١].

---

[١] قول النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ» أي: كأنَّ وحْيَ الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا قد يُشْكِل على بعض الناس؛ حيثُ إنه يقتضي تشبيهَ صوتِ الله عَزَّوَجَلَّ بالسلسلة على الصفوان، فيُقال: إن هذا تشبيهٌ في أصل الشيء، وليس في حقيقتِهِ؛ لأن السلسلةَ على صفوانٍ لها صوتٌ مُرعبٌ مزعجٌ، فهو يُشبه السلسلةَ على الصفوان في الإزعاجِ، لا في القَدْر والحقيقةِ؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس كمثله شيءٌ، وهو السميع البصير.

وقوله: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ «ذا» هنا اسمٌ موصولٌ؛ لأنها وقعت بعد «ما» الاستفهاميَّة، وقد قال ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمِثْلُ «مَا»: «ذَا» بَعْدَ «مَا» اسْتِفْهَامِ ... أَوْ «مَنْ» إِذَا لَمْ تُلْغَ فِي الكَلَامِ

وقوله: «فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ» أي: بسبب تلك الكلمة.

وكانت الجنُّ يُرْدِفُ بعضُها بعضًا حتى يصلوا إلى السماء، فيستمعون ما يحدثُ من السماء، ثم ينقلون هذه الكلمة واحدًا إلى الآخر حتى تصلَ إلى الكاهن.

ثم الكاهنُ يستغلُّ ما سَمِعَ، لكنه يزيدُ عليه، فإذا وقَعَ الأمرُ مُوافقًا لِمَا سُمِعَ من السماء موَّهَ على الناس أنه يعلم الغيْبَ، ثم صار كلما سُئِلَ عن شيءٍ قال كذا وكذا، وهو كاذبٌ، فيكذب معها مئة كَذْبَةٍ، وليس بلازم أن تكون هذه الكذبات مُقارنةً للخبر الأول، فقد يكون الخبرُ الأوَّلُ مُجَرَّدًا، ولكنه إذا وقع مُوافقًا لِمَا أخبر به فحينئذٍ يُضيف إليه كذباتٍ، يقول: سيكون كذا وكذا في يوم كذا وكذا، وهذا من الكهانة المُحَرَّمة؛ لأن الشياطين لا تخضعُ لهؤلاء وتأتي بخبر السماء إليهم إلا بشِرْكٍ في الغالب.

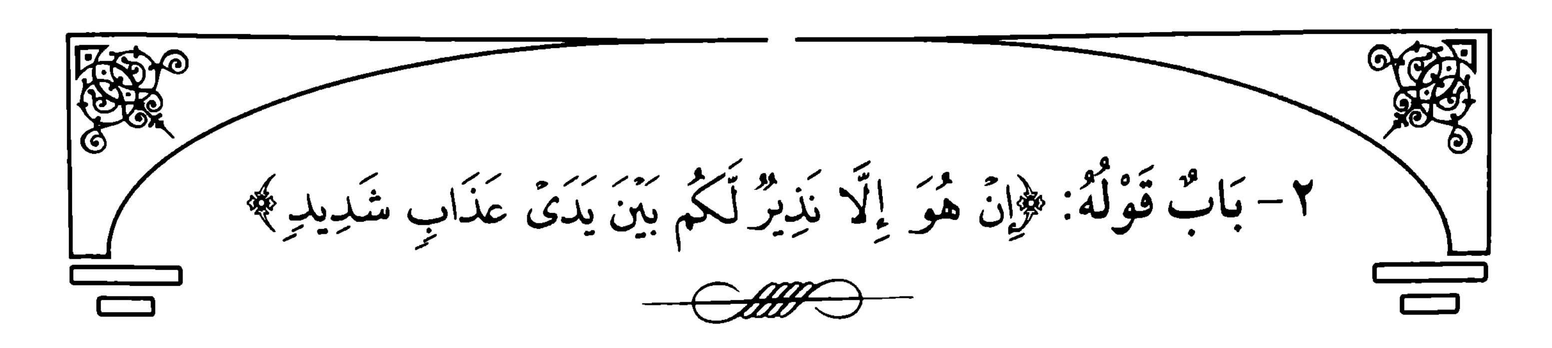
....

= ومن هذا: ما يُوجَد في بعض الصُّحف؛ حيث يكتبون كل يوم له طالعٌ، يقول مثلًا: مَن وُلِدَ في هذا اليوم يكون سعيدًا، يكون شقيًّا، يُرْزَق، يتزوَّج، يشتري بيتًا، يشتري سيَّارةً، وما أشبه ذلك، وكلُّ هذا من الرجم بالغَيْبِ الذي يجبُ علينا أن نُكَذِّبه وُجُوبًا، ولا نَشُكَّ في كَذِبِهِ؛ لأن هؤلاء يقولون ما لا يعلمون.

فإن قال قائل: وهل استراق السمعُ لا يزالُ موجودًا؟

قلنا: أمَّا في عهد الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقدِ انقطعَ، لكن بعده قد يكونُ رَجَعَ، فاللهُ أعلمُ.





٢- بَابُ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

٤٨٠١- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ خَازِمٍ: حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّفَا ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: «يَا صَبَاحَاهْ!» فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ، قَالُوا: مَا لَكَ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ العَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ، أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ! أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟! فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾[1].

---

[١] كان أبو لهب عمًّا لرسول الله ﷺ، لكنْ لم ينفَعْهُ قُرْبُه من الرسولِ ﷺ؛ لأنه كان عَدُوًّا لله ولرسوله؛ ولهذا لَمَّا قال الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَا صَبَاحَاهْ!» وهذه كلمةٌ يَسْتَصْرِخُ بها النذيرُ عند العرب، يقول: يا صباحاه! يعني: أنني صبَّحني العدُوُّ، فهرع الناس واجتمعوا إليه، وقالوا: ما لَكَ؟ وهذا يدلُّ على أن مكَّةَ في ذلك الوقت كانت صغيرةً مُتقاربةً يُسْمَعُ الصوتُ فيها من قُرْبٍ.

فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لهم: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ العَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ، أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي؟» قالوا: بلى؛ لأنهم لم يُجَرِّبوا على النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الكَذِبَ، بل كانوا يُسَمُّونه: الصادقَ الأمينَ، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» يعني: ليس هناك عدُوٌّ، لكنِّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ منَ الله عَزَّ وَجَلَّ إن كذَّبتم، فقال أبو لَهَبٍ: تبًّا لك -أي: هلاكًا لك- ألهذا جَمَعْتَنَا؟! يُريد أن هذا

....

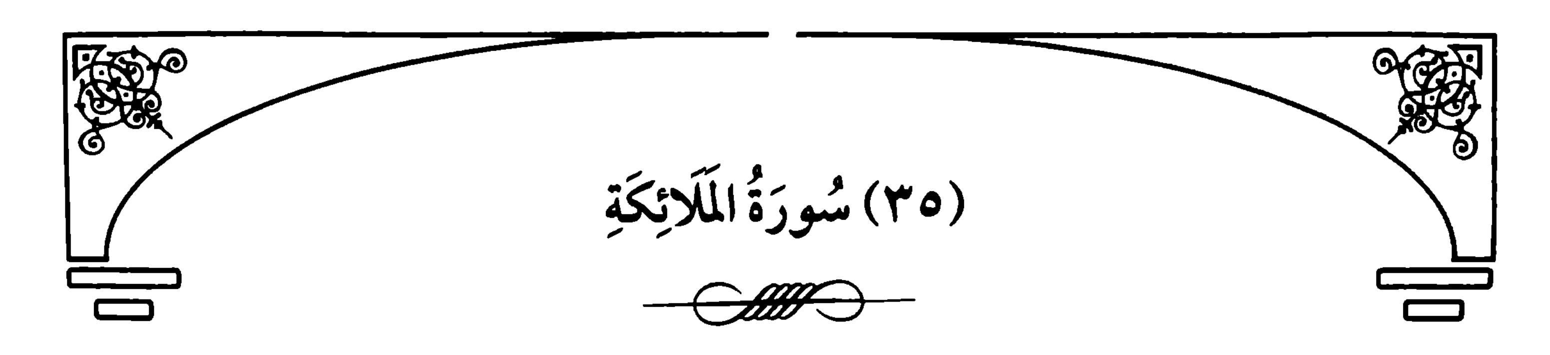
= شيءٌ حقيرٌ، لا يستحقُّ أن يُجْمَع الناسُ له؛ ولهذا أتى باسم الإشارة للقريب؛ تَحْقِيرًا لهذا الذي دعا إليه النبيُّ ﷺ.

والجوابُ أن نقول لأبي لهب -عليه لَهَبُ جهنَّم-: نعم، لهذا جَمَعكم، وهذا أعظمُ شيءٍ يَجْمَعُكُم له، هو أعظمُ من عَدُوٍّ يأتي، ويجوسُ خِلال الدِّيار، وينهبُ الأموالَ، ويُفسد الثِّمارَ؛ لأنه عذابُ الآخِرَةِ، وعذابُ الآخِرَةِ أشدُّ وأشقُّ.

فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ في أبي لهب سورةً كاملةً تُتْلَى إلى يوم القيامة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ والسين في ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ للتنفيس والقُرْب، يعني: سيصلى عن قُرْبٍ، وما بينه وبينها إلا الموتُ، ثم يُعَذَّب.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ وهذا تحقيرٌ وتعييرٌ لها وتصغيرٌ لشأنها، يعني: أنها امرأةٌ ليست ذاتَ شَرَفٍ، إنما هي تحمل الحطبَ ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ وانظر التناسبَ! كأنَّما تحمل الحطبَ لتُوقِدَ النارَ على أبي لَهَبٍ، وهذا تناسبٌ غريبٌ.

والحاصلُ: أن هذا الرجل أنزلَ الله عَزَّوَجَلَّ فيه سورةً كاملةً، ولم يُذْكَر أحدٌ باسمه من هذه الأُمَّة إلا رَجُلانِ: أحدُهما من أُمَّة الإجابة، والثاني من أُمَّة الدَّعوة، فالذي من أُمَّة الإجابة: زيدُ بنُ حارثةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو مولًى من الموالي، والذي من أُمَّة الدَّعْوة: أبو لَهَبٍ، واسمُهُ في قُرَيْشٍ: عبدُ العُزَّى، وكُنْيَتُهُ أبو لهب، مطابقةٌ لِمَا سيصلاه من نارٍ.



(٣٥) سُورَةُ المَلَائِكَةِ

قَالَ مُجَاهِدٌ: القِطْمِيرُ: لِفَافَةُ النَّوَاةِ.

﴿مُثْقَلَةٌ﴾ مُثَقَّلَةٌ.

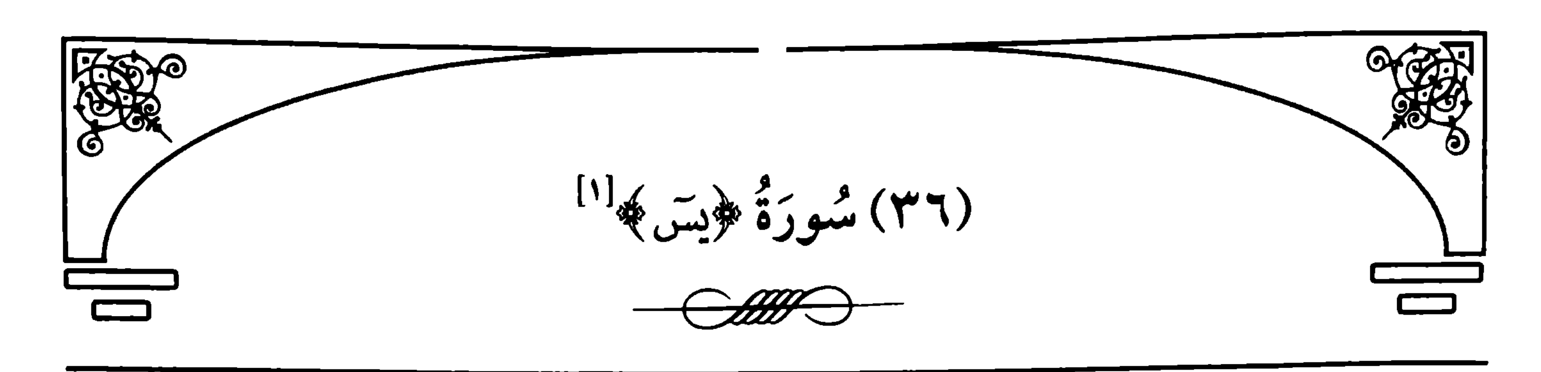
وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿الْحَرُورُ﴾ بِالنَّهَارِ مَعَ الشَّمْسِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الحَرُورُ بِاللَّيْلِ، وَالسَّمُومُ بِالنَّهَارِ.

﴿وَغَرَابِيبُ﴾ أَشَدُّ سَوَادٍ، الغِرْبِيبُ: الشَّدِيدُ السَّوَادِ[١].

---

[١] قول الله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي: شديدةُ السواد.





(٣٦) سُورَةُ ﴿يسٓ﴾[1]

[١] اشْتُهِرَ عند العامَّة أن ﴿يسٓ﴾ من أسماءِ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولكنَّ هذا ليس بصواب، كما اشْتُهِرَ عند بعض العلماء أن ﴿طه﴾ من أسماءِ الرسولِ ﷺ، وليس كذلك أيضًا.

وحُجَّةُ هؤلاء: أن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ﴾ وقال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ﴾ وكلاهما خطابٌ، ولكن هذا ليس بصواب؛ لأن الحروف الهجائية التي ابتُدِئت بها السور ليس لها معنًى إطلاقًا، لكنْ لها مَغْزًى، وهو أن هذا القرآن الذي أعجزَ العربَ لم يكن إلا من الحروف التي يُرَكِّبون منها كلامَهُم، فما أتى بشيءٍ جديدٍ حتى يقولوا: هذه حروفٌ جديدةٌ لا نَقْدِرُ أن نتكلَّم بمثلها، بل هي الحروفُ التي كانوا يُرَكِّبون منها كلامَهُم.

ولهذا لا تكاد تجد سورةً مبدوءةً بهذه الحروف الهجائيَّة إلا وبعدها التحدُّث عن القرآن، ويدلُّ على أنه ليس لها معنًى: أن القرآن نزلَ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، وهذه الحروف الهجائية -باللسان العربيِّ- ليس لها معنًى.

وأيضًا نقول: إذا كنت على هذه القاعدة، وقلت: إنه إذا أتى الخطابُ للرسولِ ﷺ بعد هذه الحروف الهجائية كانت تلك الحروف من أسمائِهِ ﷺ، فقل: إن من أسمائِهِ ﴿الٓمٓصٓ﴾؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف:١-٢] وقل: من أسمائِهِ أيضًا ﴿الٓر﴾؛ لقوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١] وما أشبه ذلك، ولا قائلَ به.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ شَدَّدْنَا[١].

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ كَانَ حَسْرَةً عَلَيْهِمُ اسْتِهْزَاؤُهُمْ بِالرُّسُلِ[٢].

﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ لَا يَسْتُرُ ضَوْءُ أَحَدِهِمَا ضَوْءَ الْآخَرِ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُمَا ذَلِكَ.

﴿سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ يَتَطَالَبَانِ حَثِيثَيْنِ[٣].

---

[١] وقيل: قوَّينا، وهذا أصحُّ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس:١٤] أي: قوَّينا بثالث.

[٢] قيل: إن «يا» هنا للتنبيه، وقيل: إنها للنداء، كأنه يقول: يا حَسْرَةً على العباد احْضُري.

والحَسْرَةُ والتحسُّر بمعنًى، أي: الندمُ الشديد مع الحُرْقَة على ما مضى.

[٣] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس:٤٠] وسَبَقَ أن قلنا: إن كلمة «لا ينبغي» في القرآن الكريم أو في السُّنَّة معناها: الممتنع، فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ﴾ أي: يمتنعُ ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ أي: لا تأتي في الوقت الذي يكون فيه سلطانُ القمر، وهو الليل.

وقوله: «لَا يَسْتُرُ ضَوْءُ أَحَدِهِمَا ضَوْءَ الْآخَرِ» هذا قريبٌ ممَّا قلنا؛ لأن الشمسَ لو خرجت في الليل لسترتْ ضَوْءَ القَمَر.

ثم قال: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: أنَّ الليلَ لا يسبقُ النهارَ؛ لقوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤] ولا يُمكن أنْ يَسْبِقَهُ؛ لأنَّ الشيءَ كله مُنظَّمٌ مُرَتَّبٌ.

﴿نَسْلَخُ﴾ نُخْرِجُ أَحَدَهُمَا مِنَ الْآخَرِ، وَيَجْرِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا[١].

ولا يَرِدُ على هـذا قوله تعالـى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [لقمان:٢٩]؛ لأن هذا الإيلاجَ ليس معناه: أن هذا يمحو الآخَرَ، ولكن يدخل عليه، ثم بعد ذلك يدخل عليه الآخَرُ.

[١] قول المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَيَجْرِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا» أي: من الشمس والقمر، فكلُّ واحد من الشمس والقمر يجري -أي: يسيرُ- في فَلَكه الذي جُعِلَ له، لا يتأخَّر عنه، ولا يتقدَّم، ولا يعلو، ولا ينزل، ولا ينحرف يمينًا ولا شمالًا.

ويُستفاد من هذه الآية الكريمة: أن الشمس والقمر يدورانِ، وهو كذلك، فإن الشمس والقمر يدوران على الأرض، وباختلاف دوران الشمس يكون الليل والنهار، فإذا طلعت الشمس على الأرض صار النهار، وإذا غَرَبَتْ صار الليل، هذا هو الذي يدلُّ عليه كلامُ الله عَزَّوَجَلَّ، وهو المتعيِّنُ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الخالقُ، والخالقُ أعلمُ بما خلَقَ، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] واللهُ عَزَّوَجَلَّ في القرآن يقول: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧] فهذه أربعةُ أفعالٍ -﴿طَلَعَت﴾ ﴿غَرَبَت﴾ ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ أي: تميلُ ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾- وكلُّها أُضيفت إلى الشمس، وإذا أُضيفَ الفِعْلُ إلى الشيء فهو قائمٌ به، إلا أن يقومَ دليلٌ على خلاف ذلك.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص:٣٢] أي: توارت الشمسُ.

وقال النبيُّ ﷺ لأبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين غَرَبَتِ الشمسُ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»

﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ مِنَ الأَنْعامِ[١].

= قال: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ، قال: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ، فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ، فَلَا يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ، فَلَا يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(١).

فقال: «تَذْهَبُ» و«تَسْجُدَ» و«تَسْتَأْذِنَ» و«ارْجِعِي» «جِئْتِ» وكلُّ هذه الأفعال تُضافُ إلى الشمسِ، فلا يُمكن أن نحيدَ عن هذا قِيدَ أُنْمُلَةٍ -بل ولا شَعَرَةٍ- حتى يأتينا دليلٌ نلمسه بأيدينا بأن الليل والنهار يكون بدوران الأرض حوْلَ الشمسِ؛ لأَنَّنا نعلمُ أن الذي تكلَّم بهذا هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وهو الخالِقُ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يتكلَّم لعباده إلا بما هو بيانٌ وإظهارٌ وإيضاحٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء:١٧٦] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ [النساء:٢٦].

فكلُّ شيء جاء في كتاب الله واجب علينا الأخذُ بظاهره، حتى يقومَ دليلٌ على خلاف ذلك الظاهر، وإلى الآن لم يقم عندي دليلٌ يُخالف هذا الظاهرَ، فالواجبُ علينا أن نأخُذَ به، وألَّا نَعْتَبِرَ ما يقولُ هؤلاء، ونقول: إن كلامكم هذا تخرُّص فيما نرى، وإن كان عندهم قد يكون أمرًا يقينيًّا مقطوعًا به كما يزعمون، وأن الليل والنهار يكون بدوران الأرض حوْلَ الشمس، أو بدورانها حوْلَ نفسها، وهذا أيضًا ليس بصحيحٍ، بل الصواب هو ما دلَّ عليه القرآنُ.

[١] هذا في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١﴾

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٩/ ٢٥٠).

(فَكِهُونَ) مُعْجَبُونَ[١].

﴿جُندٌ مُّحۡضَرُونَ﴾ عِنْدَ الحِسَابِ[٢].

= وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ أي: من الأنعام ﴿مَا يَرۡكَبُونَ﴾ والمُماثَلة هنا ليست من كلِّ وجهٍ، ولكن من حيثُ الركوبُ والانتفاعُ.

[١] هذا في قول اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَكِهُونَ﴾ أي: مُعْجَبون، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ [المطففين:٣١] لكنَّ القراءةَ المشهورةَ في المصحف: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ﴾(١) قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَقَدْ رَوَيْنَا أَنَّ شُغْلَهُمُ الَّذِي ... قَدْ جَاءَ فِي ﴿يسٓ﴾ دُونَ بَيَانِ

شُغْلُ العَرُوسِ بِعُرْسِهِ مِنْ بَعْدِ مَا ... عَبَثَتْ بِهِ الأَيَّامُ طُولَ زَمَانِ(٢)

وأن المراد بالشُّغل هنا: هو تمتُّع الإنسان من أهل الجنة بالحورِ العينِ، جعلني اللهُ وإيَّاكم منهم.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ وهذا الذي ذهب إليه المؤلِّف -رحمهُ اللهُ تعالَى- هو أحدُ الأقوال في المسألة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨] ويُقال يوم القيامة: لِتَتْبَعْ كلُّ أُمَّةٍ ما تعبدُ؛ فيتبع كلٌّ منهم ما كان يعبدُهُ، ثم يُلْقَوْنَ جميعًا في النار، نسألُ اللهَ العافيةَ.

(١) يُنْظَر: معجم القراءات (٧/ ٥٠٣).

(٢) متن القصيدة النونية، البيت رقم (٥٣٢٩-٥٣٣٠)، وفيه: «الأَشْوَاقُ» بدل: «الأَيَّامُ».

وَيُذْكَرُ عَنْ عِكْرِمَةَ: ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ المُوقَرُ[١].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿طَٰٓئِرُكُم﴾ مَصَائِبُكُمْ[٢].

= والقول الثاني: أن هذه الأصنام لا تستطيعُ نصرَ عابديها ﴿وَهُمْ﴾ أي: عابِدُوها ﴿لَهُمْ﴾ أي: للأصنام ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: يُدافعون عنها كالجنود؛ ولهذا إذا سُبَّت الآلهةُ سبُّوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨].

[١] قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ فالمشحونُ هو المُوقَرُ، أي: المُحمَّلُ المملوءُ، ومنه ما في قصة يُونُس عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات:١٤٠-١٤١] وذلك أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَكِبَ في هذا الفُلْك، وكان الفُلْكُ مشحونًا، وخاف الراكبون أن يغرقوا جميعًا، فقالوا: سنجعل مُساهمةً -أي: قُرْعَةً- مَن خرجت عليه القرعةُ نزَّلْناه في البحر، وهذا التصرُّف سليمٌ؛ لأن غَرق البعض وسلامةَ البعض أحسنُ وأَوْلَى من أن يَغْرِقَ الجميعُ، لكن ماذا يعملون؟ هل يُسقطون الصغارَ، أو يُسقطون الشيوخَ؟ إن أسقطوا الشيوخ قيل: الكبارُ عندهم من التدبير والحِنْكة والتجارب ما ليس عند الشباب، فلا يُمكن أن يُفرَّط بهم، وإن أسقطوا الصغار قيل: الشبابُ الصغارُ هم رجالُ المستقبل، فليس لهم -إذن- إلا القُرْعَةُ.

لكن قال العلماء: يجب أولًا أن يُنْزَلَ المتاعُ -وهو المال- ثم البهائمُ، ثم الآدميّون بالقُرْعَةِ.

[٢] وقيل: عَملكم، وهذا الكلامُ يقوله أصحاب القرية الذين أُرْسِلَ إليهم

﴿يَنسِلُونَ﴾ يخرُجونَ[١].

﴿مَّرْقَدِنَا﴾ مخرَجنا[٢].

﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ حفِظْناهُ[٣].

= الرُّسُل ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: شُؤْمُكم وعَمَلُكم الذي تكون به المصائبُ معكم، أمَّا نحن فإنا مُرْسَلون من الله عَزَّوَجَلَّ.

وهكذا قال آلُ فرعون ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف:١٣١] ولكن كل هؤلاء نقول لهم: طائِرُكُم معكم.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ والنافخ في الصُّور هو إسرافيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يأمُرُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يَنْفُخَ فيه النفخة الأُولَى، فيفزع الناسُ، ثم يصعقون، ثم يبْقَى الناسُ أربعين، ثم يَنْفُخُ فيه أُخْرَى، فإذا هم قيامٌ ينظرون.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ جمع جَدَث، وهو القبرُ.

وقوله: ﴿يَنسِلُونَ﴾ قال: «يَخْرُجُونَ» لكن كأنَّ النَّسلانَ أخصُّ من الخروج، فكأنه خروجٌ باندفاع وسرعة.

[٢] المراد به: مكانُ الخروج؛ لأن القبرَ مكانٌ للرُّقاد وللخروج.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ قال المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: «حَفِظْنَاهُ» وقال غيْرُهُ: ضبطناهُ، وهو مأخوذٌ من الحصى، والعربُ عادةً تحفظ العدد بالحصى، قال الشاعر:

مَكَانَتُهُمْ وَمَكَانُهُمْ وَاحِدٌ[١].

= وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلْكَاثِرِ (١)

والكاثرُ هو الذي يكون أكثرَ من غيره، وكان العربُ لا يكتبون، لكن إذا جاءهم قومٌ قال: عُدُّوا، فإذا قيل: عددناهم مئتين أخذ مئتي حصاةٍ، وحفِظَها في كيسٍ، فإذا قيل له بعدَ مُدَّة: كم عدد القوم الذين أغاروا عليكم؟ فك الكيسَ، وعدَّ الحَصى؛ لأنه لا تُوجد كتابةٌ؛ فلهذا جاءت كلمةُ «أحْصَى» من الحَصَى، أي: أَحْصَاهُ وضبطَهُ بعَدَدِهِ بالحَصَى.

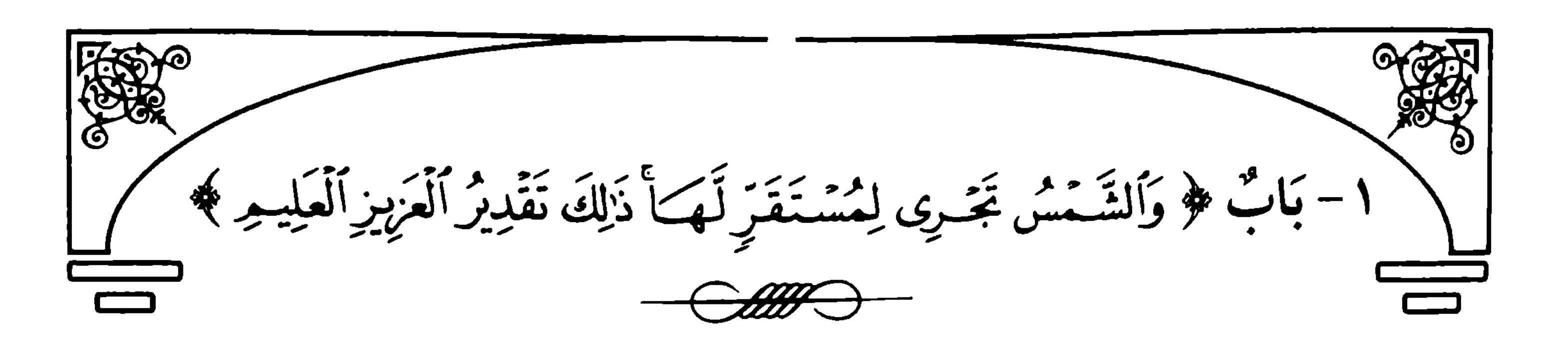
وقوله: ﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في كِتاب، وسُمِّي الكتابُ: إمامًا؛ لأنه مرجعٌ فإمام الصلاة مثلًا إمام؛ لأنه مرجعٌ للمأمومين يقتدون به، وإمامُ الحكم كذلك مرجعٌ يرجع الناس له، والكتاب يُقال له: إمامٌ، فالإمامُ هنا بمعنى: الكتاب.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ أي: يطمسُ الله على أعيُنهم، فلا يُبصرونَ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: أبقيْناهم في مكانهم ومسخْناهم في مكانهم ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾؛ وذلك لأنهم ممسوخون على مكانهم.



---

(١) البيت للأعشى، كما في ديوان الأعشى الكبير، (ص:١٤٣).



١- بَابٌ ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾

٤٨٠٢- حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ: حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي المَسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ! أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟**» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾».

٤٨٠٣- حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ: حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قَالَ: «**مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ العَرْشِ**»[١].

---

[١] هنا بيَّن الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما هو المستقرُّ في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾؟ وأنه تحت العَرْش.

فإن قال قائلٌ: نحن نُشاهد أن الشمسَ تسيرُ دائمًا، ولا تتوقَّف؛ لتسجد، فكيف ذلك؟

فالجواب أن يُقال: أولًا: نحن علينا أن نُثبت ما جاء في الكتاب والسُّنَّة، وليس لنا أن نقول: كيف؟ ولا لِمَ؟ لأنك إذا قلت: كيف؟ ولِمَ؟ فمعنى هذا الاعتراض، والإنسانُ عليه أن يُسَلِّم.

....

وهذه أمـورٌ عظيمةٌ فوق مدرك عُقولنا، فالواجـبُ أن نقول: سَمِعْنا وآمنَّا وأطَعْنا.

فنقول: إنها إذا غربتْ تسجدُ تحـت العَرْش، والإنسانُ ما أحـاط بكلِّ ذرَّةٍ في السموات والأرض، بل يخْفَى عليه شيءٌ كثيرٌ من نفسه، فهاهي الروحُ التي هي مادَّةُ الحياة، والتي بفَقْدِهَا نموتُ، ما استطاع الناسُ إلى اليوم أن يعرفوا حقيقةَ هذه الرُّوح، وكيف تدخل في الجسم، فيَحْيَى؟ وكيف تخرجُ منه، فيموت؟ وكيف تخرجُ منه هذا الخروج الجزئيَّ في المنام؟ وكيف ترجع إليه في اليقظة؟ وكيف تخرج منه عند الإغماء ذلك الخروج الذي هو أثقلُ؟ وكلُّ هذا لا نُدْرِكُهُ.

كما أن هناك الآن أمـراضًا حادثةً على الجسم ما استطاعـوا أن يُشَخِّصـوها، وما استطاعوا أن يقيسوا جِسْمًا صحيحًا بهذا الجسم العليل؛ حتى يعرفوا كيف كان هذا الجسمُ مريضًا بهذا الدَّاء؟

ومع ذلك نذهبُ لنقول: كيـف تسجد الشمس تحـت العرش، وهي تسيرُ دائمًا؟!

ثانيًا: نقول: إن سُجودَها قد يكون سجودًا لا يلزمُ منه الوقوف، أمَّا سجودُنا نحن فيستلزم منه الوقوف، وهو سجودٌ على كيفيَّة مُعَيَّنة اللهُ أعلم بها.

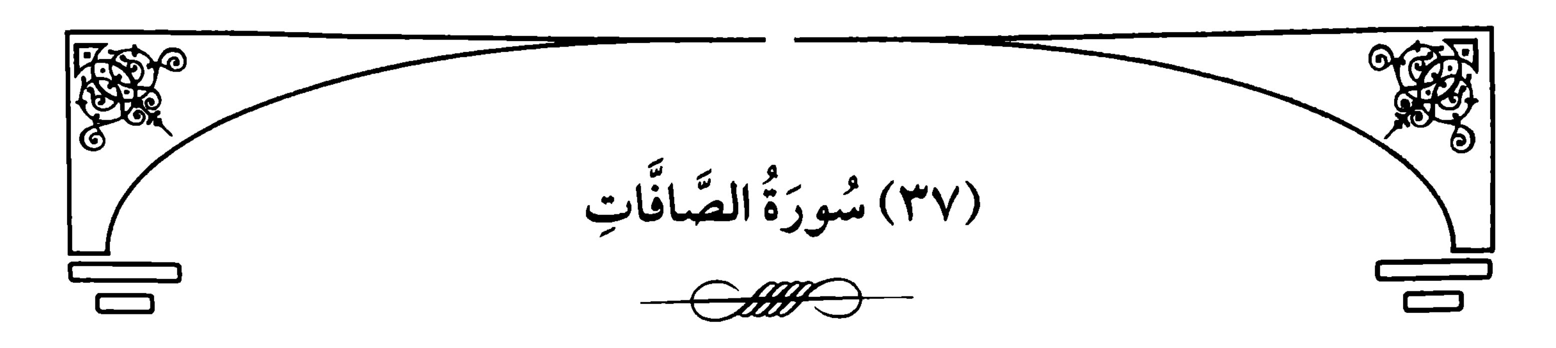
والحاصلُ: أن أهمَّ شيء بالنسبة للمؤمن أن يُؤْمِنَ أولًا، ولا يسألَ عن الأسباب، ولا عن الكيفيَّة؛ لأنَّنا أعجزُ من أن نُدْرِكَ مثل هذه الأمورِ، ولَمَّا سألوا النبيَّ ﷺ عن الرُّوح قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ

....

= إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1] [الإسراء:٨٥] يعنـي: لا نِصْفَ العِلْمِ، ولا ثُلُثَهُ، ولا رُبُعَـهُ، ما أُوتِيتُمْ إلا قليلًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قول الله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾، رقم (٤٧٢١)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح، رقم (٢٧٩٤/ ٣٢).



(٣٧) سُورَةُ الصَّافَّاتِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ يُرْمَوْنَ.

﴿وَاصِبٌ﴾ دَائِمٌ[١].

لَازِبٌ: لَازِمٌ[٢].

---

[١] قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ليس في سورة الصافات، وإنما في سورة سبإ، لكن جاء به المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ استطرادًا، أمَّا قوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ فهذه في سورة الصافات.

قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: أن الشياطين لا يستمعون ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي: بالشُّهب ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا﴾ أي: إذلالًا وإهانةً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: دائمٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل:٥٢] أي: دائمًا.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي: لازم، وليس بمعنى: واجبٍ، ولكن المراد: الذي يلزمُ ما عَلَقَ به، أي: يعلق باليد؛ وذلك لأنَّ الطين كلَّما أبطأ صار أشدَّ لزوقًا باليد.

وقد ذكر اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنه خَلَقَ الإنسان من تراب، ومن طين، ومن حمإٍ مسنون، ومن صلصال كالفخار.

﴿تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ يَعْنِي: الحَقَّ، الكُفَّارُ تَقُولُهُ لِلشَّيْطَانِ[١].

﴿غَوْلٌ﴾ وَجَعُ بَطْنٍ.

﴿يُنزَفُونَ﴾ لَا تَذْهَبُ عُقُولُهُمْ[٢].

﴿قَرِينٌ﴾ شَيْطَانٌ.

﴿يُهْرَعُونَ﴾ كَهَيْئَةِ الهَرْوَلَةِ.

﴿يَزِفُّونَ﴾ النَّسَلَانُ فِي المَشْيِ.

---

[١] قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ يعني: عن الحقِّ، ولكن قيل: إن المراد بقوله: ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: عن القوة، أي: تأخذوننا بالقوة؛ حتى نتَّبِعَكم، وهذا أقربُ، و«عن» هنا للمجاوزة، كما يُقال: «رميتُ السهمَ عن القُوس».

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات:٤٧] أي: وجعُ بطنٍ، يُريد بذلك الخمرَ في الجنَّة.

وقيل: إن الغَوْلَ هو السَّكَر، لكن المؤلِّفَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «﴿يُنزَفُونَ﴾ **لَا تَذْهَبُ عُقُولُهُمْ**» وهذا هو السَّكَر.

وقيل: الغَوْلُ هو الصداعُ.

والحاصل: أنه كما قال الله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان:٢١] أي: طاهرًا نزيهًا من الآفات، بخلاف الشراب في الدنيا، فإن فيه الآفاتِ.

﴿وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ: المَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ، وَأُمَّهَاتُهُمْ بَنَاتُ سَرَوَاتِ الجِنِّ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ سَتُحْضَرُ لِلْحِسَابِ[1].

---

[١] قوله «قَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ: المَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ» هذا كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف:١٩].

وقوله: «وَأُمَّهَاتُهُمْ بَنَاتُ سَرَوَاتِ الجِنِّ» أي: أسياد الجنِّ وشرفائهم، فجعلوا لله زوجةً، وجعلوا لله ولدًا، وكلُّ هذا من أعظمِ المُنْكَراتِ وأعظمِ السَّبِّ والقَدْحِ في اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وبهذا نعرف فِرْيَة أولئك النَّصارى الذين يقولون: إن الله اتَّخذ ولدًا، وهو عيسى ابن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإن هذا من أعظمِ السَّبِّ لله عَزَّوَجَلَّ، ومع ذلك فإننا نُشاهدهم ونراهم في بُيوتنا وبين أيدينا وأظْهُرِنا، وأعتقد لو أن أحدًا سبَّ أُمَّك أو أباك ما رَضِيتَ أن يكون عندك في بيتك، والذي يسبُّ الخالقَ عَزَّوَجَلَّ -والنقصُ في حقه مستحيلٌ، بخلاف النقص في أبيك وأمك، فإنه ممكنٌ- كيف ترْضَى أن يكون عندك وفي بيتك؟! وقد ثَبَتَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أَخْرِجُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ العَرَبِ»(١) وقال: «لَأُخْرِجَنَّ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ العَرَبِ، حَتَّى لَا أَدَعَ إِلَّا مُسْلِمًا»(٢).

هذا هو وجهُ قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات:١٥٨] وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ فيُشير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُبيِّنًا أن الجنَّ يعلمون إنهم

---

(١) أخرجه البيهقي في «معرفة السنن» (١٣/ ٣٨٦).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، رقم (١٧٦٧/ ٦٣).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ المَلَائِكَةُ[١].

﴿صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ سَوَاءِ الجَحِيمِ وَوَسَطِ الجَحِيمِ[٢].

﴿لَشَوْبًا﴾ يُخْلَطُ طَعَامُهُمْ، وَيُسَاطُ بِالحَمِيمِ[٣].

﴿مَّدْحُورًا﴾ مَطْرُودًا[٤].

﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ اللُّؤْلُؤُ المَكْنُونُ[٥].

= مُحْضَرون، يعني: للحساب يوم القيامة، وسوف يُحاسَبونَ على ما قالوه، ويُعاقَبون عليه بالعَدْلِ.

[١] قد ثبت عن النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال: «**أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ المَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟**»(١).

[٢] يعني قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: وسَطِهَا، وسواؤها: هو الوَسَط.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ يعني: شجرة الزقوم ﴿لَشَوْبًا﴾ أي: لَخَلْطًا ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وهو الماء الحارُّ الشديد الحرارة.

[٤] هذه الكلمة في سورة الأعراف، لكن ورد في سورة الصافات ﴿دُحُورًا﴾ أي: طردًا.

[٥] يعني بذلك الحورَ، قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة، رقم (٤٣٠/ ١١٩).

الأَسْبَابُ: السَّمَاءُ.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ يُذْكَرُ بِخَيْرٍ[١].

وَيُقَالُ: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يَسْخَرُونَ[٢].

﴿بَعْلًا﴾ رَبًّا[٣].

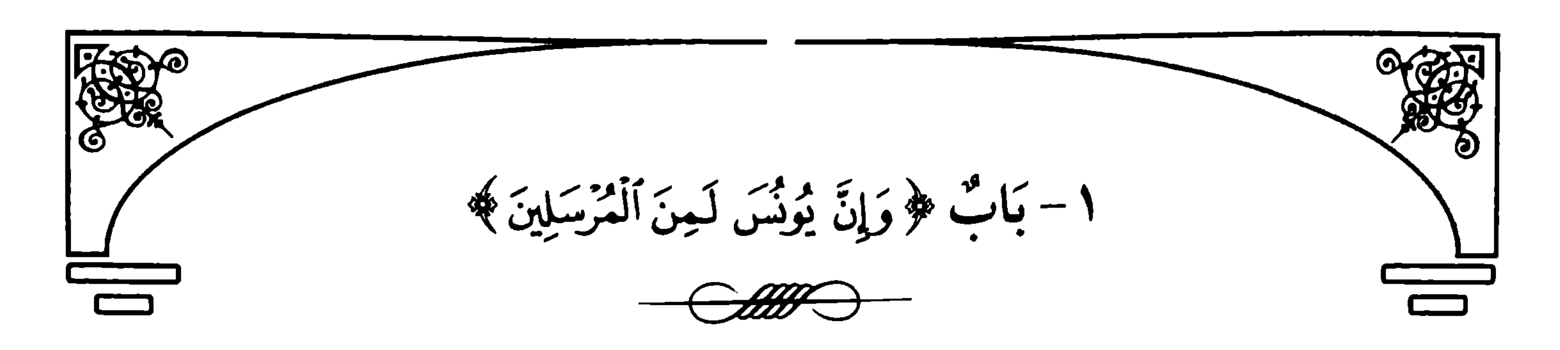
---

[١] يعني: أبقينا له ذِكْرًا حميدًا في الآخرين؛ ولهذا قال: «يُذْكَرُ بِخَيْرٍ».

[٢] لكن كلمة ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ فيها شيءٌ من المبالغة بدليل زيادة الحروف فيها.

[٣] يعني قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ [الصافات:١٢٥] وقيل: إنه اسمٌ لهذا الصنم، وهذا هو الأقربُ: أن البَعْلَ عَلَمٌ لهذا الصنم الذي كانوا يعبدونَهُ.





١ - بَابٌ ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

٤٨٠٤ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[١].

---

[١] إنما قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذلك؛ لأن القائلَ قد يُفْهَم من قوله أنه يُريد بذلك تحقيرَ يُونُسَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأن يُونُسَ كما ذكر اللهُ عنه في عدَّة الآيات ذهب مُغاضبًا لقومه قبلَ أن يُؤْمَر بالخروج؛ ولهذا نَهى اللهُ نبيَّه محمدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يكون مثلَهُ، قال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: ممتلئٌ غيظًا ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم:٤٨-٥٠].

وقد بيَّن اللهُ تعالى هذه النعمة بقوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤] وهذا مصداقُ قولِ النبيِّ ﷺ: «**تَعَرَّفْ إِلَيْهِ** -يعني: إلى الله- **فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**»(١).

والحاصلُ: أن الإنسان الذي يقول مثل هذا الكلام قد يُفْهَم من قوله هذا ازدراءُ يُونُسَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واحتقارُهُ بسبب ما وصفهُ الله به؛ فلهذا قال النبيُّ ﷺ: «**مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**».

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٠٧).

٤٨٠٥- حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ هِلَالِ بْنِ عَلِيٍّ (مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ) عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ»[١].

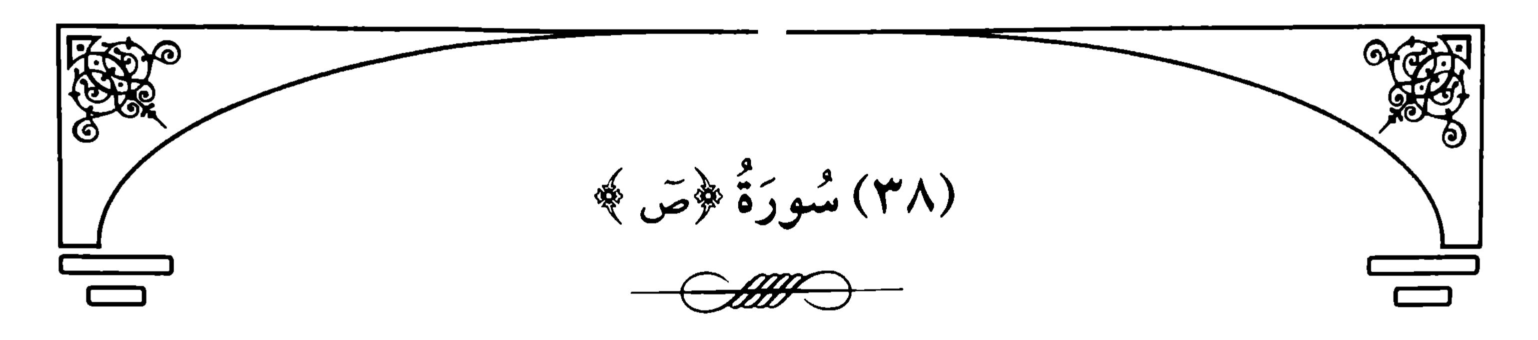
= ولكن قد ثَبَتَ أن النبيَّ ﷺ أفضلُ الأنبياء وخيْرُهم، فيكون معنى هذا الحديث: لا ينْبَغِي لأحدٍ أن يكونَ خيرًا منِ ابن متَّى باعتبار قوْلِهِ وافتخارِهِ، كما يدلُّ عليه الحديثُ الآتي.

[١] يعني: مَن قال هذا على سبيل الاحتقار والازْدِرَاء.

وقال بعض العلماء: إن هذا الحديث الذي حدَّث به النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان قبل أن يعلمَ أنه أفضلُ الأنبياء، وأمَّا بعد أن عَلِمَ فإنه إذا قال: «أنا خيرٌ منه» فهو صادقٌ.

وقيل: إن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال هذا على سبيل التواضع، وأنه قد عَلِمَ أنه خيرٌ منه.





(٣٨) سُورَةُ ﴿صٓ﴾

٤٨٠٦ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ: حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنِ العَوَّامِ، قَالَ: سَأَلْتُ مُجَاهِدًا عَنِ السَّجْدَةِ فِي ﴿صٓ﴾ قَالَ: سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَسْجُدُ فِيهَا[١].

٤٨٠٧ - حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ الطَّنَافِسِيُّ، عَنِ العَوَّامِ، قَالَ: سَأَلْتُ مُجَاهِدًا عَنْ سَجْدَةٍ فِي ﴿صٓ﴾ فَقَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ: مِنْ أَيْنَ سَجَدْتَ؟ فَقَالَ: أَوَ مَا تَقْرَأُ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾؟! فَكَانَ دَاوُدُ مِمَّنْ أُمِرَ نَبِيُّكُمْ ﷺ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ، فَسَجَدَهَا دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسَجَدَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ.

﴿عُجَابٌ﴾ عَجِيبٌ[٢].

---

[١] استدلَّ ابنُ عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا على مشروعية السجدة في سورة ﴿صٓ﴾ بأن داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَجَدَ، وأنَّ داودَ من جملةِ مَنْ قال الله تعالى فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ فسجدَ ابنُ عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ لأن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أمرَنا بالاقتداء بهؤلاء.

وفي هذا: دليلٌ على أن شَرْعَ مَن قبلَنا شرعٌ لنا، ما لم يَرِدْ شرْعُنا بخلافه، فإنْ وَرَدَ شرْعُنا بخلافه فالمُعْتَبَرُ شرْعُنا.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي: شيءٌ

القِطُّ: الصَّحِيفَةُ، هُوَ هَا هُنَا صَحِيفَةُ الحَسَنَاتِ[١].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ مُعَازِّينَ[٢].

﴿ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ مِلَّةُ قُرَيْشٍ.

الِاخْتِلَاقُ: الكَذِبُ[٣].

= عجيبٌ بالغٌ في الإعجاب، ولكن نقول: الشيءُ العُجَابُ أن تجعلوا أنتم الإله آلهةً مُتعدِّدةً، وأمَّا مَن جعلَهُ إلهًا واحدًا فليس هذا بشيء عُجابٍ، بل هذا هو الحقُّ المطابقُ للواقع.

[١] وقيل: إن القِطَّ هو النصيبُ، وهذا هو الأصحُّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: نَصِيبَنا ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ وهذا يقولونه استعجالًا للعذاب، والعياذ بالله، كقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢] وكقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج:٤٧] فهم يقولون مثل هذا القول ويستعجلون بالعذاب؛ تحدِّيًا للرُّسُل، وتكْذِيبًا لهم.

[٢] هذا في قوْلِ الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي: يَعْتَزُّون بأنفسهم وبآرائهم، ويُشاقُّون الرسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ [ص:٧] أي: ملَّة قُرَيْشٍ، ولكن يُقالُ لهم: إذا جدَّد اللهُ لكم الرسالةَ فهذا ممكنٌ، وليكن لم تسمعوها من قبلُ، لكنَّ اللهَ مَنَّ عليكم بهذا الرسول، فالواجبُ اتِّباعُهُ.

وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي: إلا كَذِبٌ لا حقيقةَ له.

الأَسْبَابُ: طُرُقُ السَّمَاءِ فِي أَبْوَابِهَا[١].

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾ يَعْنِي قُرَيْشًا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ القُرُونُ المَاضِيَةُ[٢].

﴿فَوَاقٍ﴾ رُجُوعٍ.

﴿قِطَّنَا﴾ عَذَابَنَا.

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أَحَطْنَا بِهِمْ[٣].

---

[١] قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ و﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى: بل وهمزةِ الاستفهام، أي: بل ألهم مُلْكُ السموات والأرض؟ والاستفهام هنا للنَّفْيِ، يعني: ليس لهم ذلك، فإن كان لهم ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي: الأسباب التي يتوصَّلون بها إلى السماء، ولكنَّهُم إذا فعلوا ذلك فسيُهْزَمون؛ ولهذا قال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾ يعني: لو وصلوا إلى السماء هُزِمُوا وعَجَزُوا، ولم يتمكَّنوا، وإذا كانت الشياطينُ لا تتمكَّن من استراق السمع، ويُرْسَلُ عليهم الشُّهُب، فكذلكَ هؤلاء من بابٍ أَوْلَى.

[٢] سُمُّوا: أحزابًا؛ لأنهم يجتمعون ويتحزَّبون في عداوة الرُّسُل؛ ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ و﴿إِن﴾ هنا بمعنى: ما، يعني: ما كل واحد من هؤلاء الأحزاب إلا كذَّب الرُّسُلَ ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾.

[٣] هذا فيه نظرٌ؛ لأن ﴿سِخْرِيًّا﴾ بمعنى: نُسَخِّره ونُلجئُهُ، وهي من التسخير، قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:٣٢]

﴿أَتْرَابٌ﴾ أَمْثَالٌ[١].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الأَيْدُ: القُوَّةُ فِي العِبَادَةِ، الأَبْصَارُ: البَصَرُ فِي أَمْرِ اللهِ[٢].

﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ مِنْ ذِكْرِ.

طَفِقَ مَسْحًا: يَمْسَحُ أَعْرَافَ الخَيْلِ، وَعَرَاقِيبَهَا[٣].

= وأمَّا «سِخْرِيًّا» فمن السُّخْرية(١)، قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [المؤمنون:١١٠] أي: هُزُؤًا وسُخْريةً.

[١] قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَمْثَالٌ» أي: على سنٍّ واحدةٍ، يعني: أن زوجاتِهم في الجنة على سنٍّ واحدةٍ، لا تتميَّز إحْدَاها عن الأُخْرى في ذلك.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ فـ: ﴿ٱلْأَيْدِي﴾ بمعنى القُوَّة في عِبادة الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ بمعنى: البصيرة في أمْرِ الله، فوصَفَهُم بأنهم يعبدون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوَّة، وأنَّ هذه العبادةَ على بصيرةٍ، وليست عن جَهْلٍ.

[٣] هذه في قصة سُليمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين صار يستعرضُ الخيلَ حتى غابتِ الشمسُ، ولم يُصَلِّ العصرَ، فغضب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لله من نفسه، وأمَر بهذه الخيلِ، فطَفِقَ يمسحُ سُوقَها وأعناقَها، أي: يعقرها ويذبحها، فأتْلَفَها على نفسه من باب التعزيرِ، هذا ما فسَّره به أهلُ العلم.

---

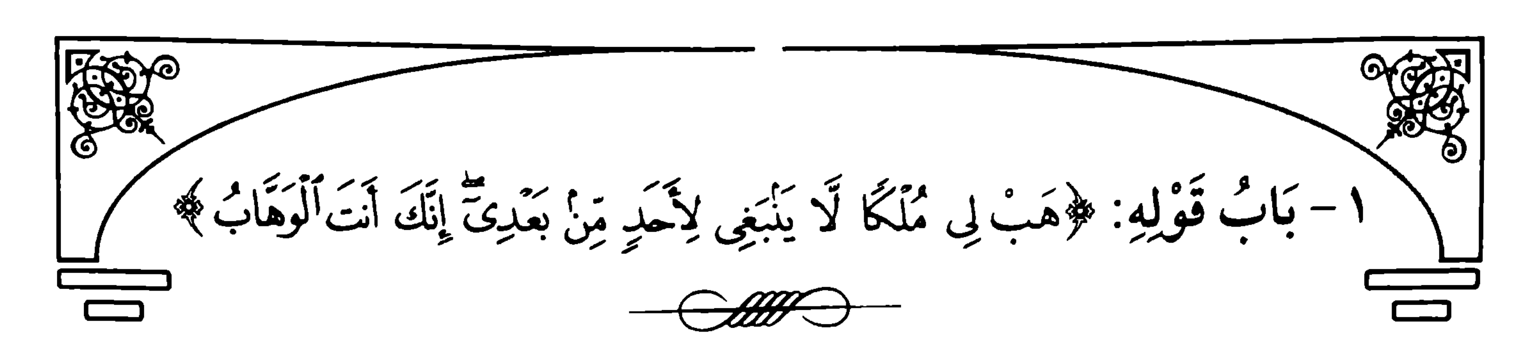
(١) قرأ بضم السين حمزة والكسائي، وقرأ الباقون بكسرها، يُنْظَر: التبصرة في القراءات السبع، (ص:٦٠٧).

﴿ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ الوَثَاقِ.

= وقيل: إنه طَفِقَ مسحًا بالسوق والأعناق، أي: صار يمسحُ عراقيبَها وأعرافَها، وهو الشعرُ الذي على أعناقها، من باب تنظيفها وإزالة الأوْساخ عنها، لكن هذا لا يتناسبُ مع سياق الآية؛ لأن قوله: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ يعني: ألهَاني هذا الخيرُ -الذي هو الخيلُ- عن ذكر الله حتى غابتِ الشمسُ.

وكأنَّ البخاريَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -والله أعلم- يميلُ إلى أن المراد: أنه صار يمسحُ أعرافَها وعراقيبَها لإزالة ما فيها من الأذى؛ لأنه ذكَر أنَّ قوله: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ بمعنى: من ذكر ربي، فجعل ﴿عَن﴾ بيانيَّةً، أي: أحببتُ حُبَّ الخيرِ من ذكر الله حتى توارت بالحجاب، وأنه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ اشتغلَ بالخيرِ الذي هو ذكر الله إلى أن غابت الشمسُ، ثم أمر بردِّها إليه، فطَفِقَ يمسحُ بها.





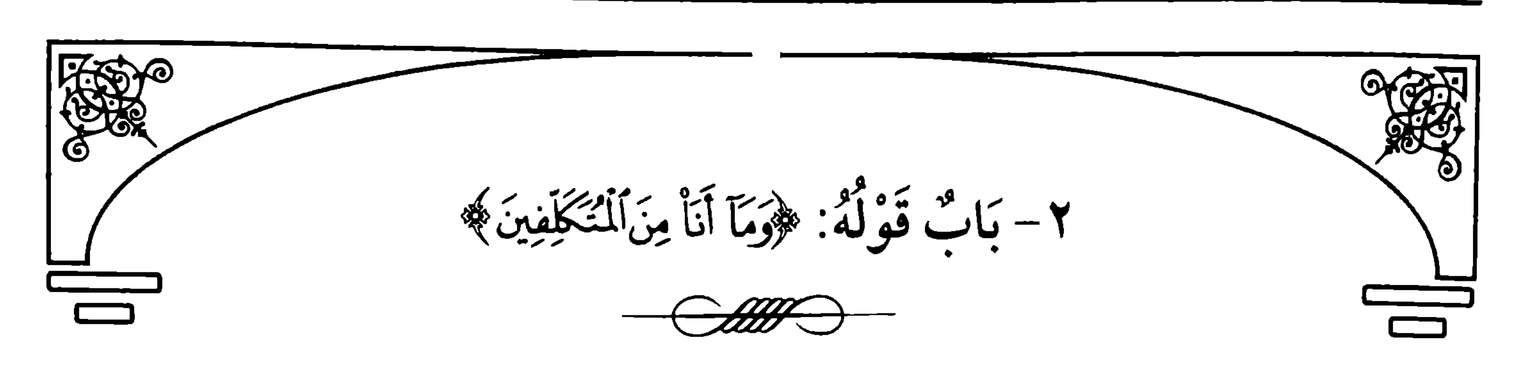
١- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿هَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾

٤٨٠٨- حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: أَخْبَرَنَا رَوْحٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ البَارِحَةَ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا، وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي» قَالَ رَوْحٌ: «فَرَدَّهُ خَاسِئًا»[١].

---

[١] قول النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ البَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ» وذلك بأن يُشَوِّشَ عليه، ويُلْقِيَ في نفسه ما يقطعه عن صلاته، فأراد النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يُمسكه ويربطَهُ في سارية من سواري المسجد، لكنَّهُ ذَكَرَ هذا الأمرَ، فتركه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ تواضُعًا منه؛ لأن سُليمانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ ومن جملة ذلك: أن الشياطين تُسَخَّرُ له.





٢- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾

٤٨٠٩- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! مَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلِ: اللهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ مِنَ العِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ: اللهُ أَعْلَمُ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ وَسَأُحَدِّثُكُمْ عَنِ الدُّخَانِ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَا قُرَيْشًا إِلَى الإِسْلَامِ، فَأَبْطَؤُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ» فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ، فَحَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَكَلُوا المَيْتَةَ وَالجُلُودَ، حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ يَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ دُخَانًا مِنَ الجُوعِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قَالَ: فَدَعَوْا: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ أَفَيُكْشَفُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ؟! قَالَ: فَكُشِفَ، ثُمَّ عَادُوا فِي كُفْرِهِمْ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[١].

---

[١] قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: ما أطلبكم أجرًا على تبليغي رسالةَ الله؛ فإنَّ الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إنما يُبلِّغ الشريعةَ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يطلبُ أجْرًا من الدنيا.

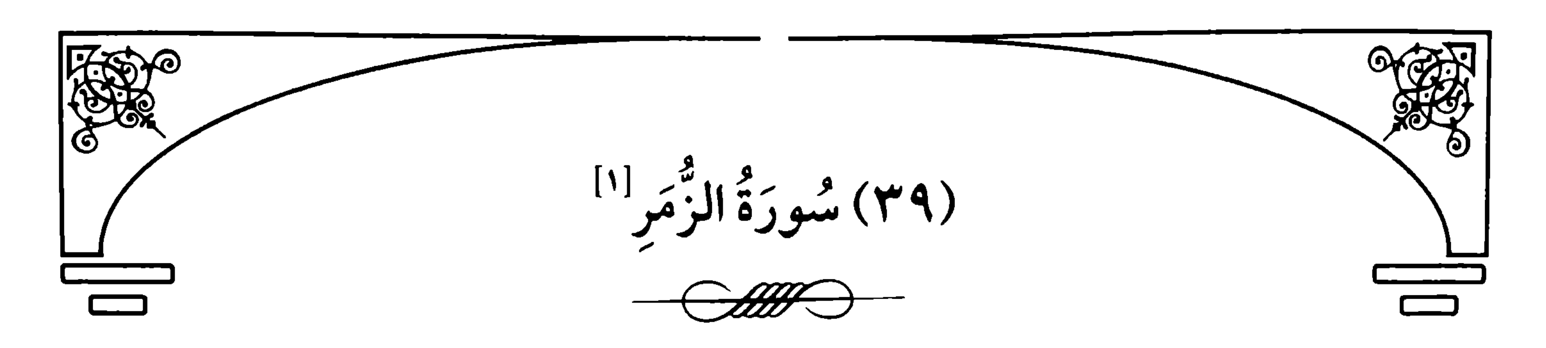
....

= وقوله: ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ حرفُ جرٍّ للتوكيد، و﴿أَجْرٍ﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ: ﴿أَسْـَٔلُكُمْ﴾ منصوبٌ بفتحة مُقدَّرةٍ على آخره، منع من ظهورها اشتغالُ المحلِّ بحركة حرفِ الجرِّ المؤكِّد.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: ما أنا ممَّن يتكلَّفون عِلْمَ ما ليس لهم به عِلْمٌ، بل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يقولُ إلا ما يُوحَى إليه، وكأن ابنَ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قدَّم هذه المُقَدِّمة بين ما سيُحَدِّثهم به؛ ليُبَيِّن لهم أن ما حدَّثهم به فهو ثابتٌ عن الرسولِ ﷺ.

وما ذهب إليه ابنُ مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من أن الدُّخانَ هو ما أصاب قريشًا في سنوات الجَدْبِ هو أحدُ القولين في الآية، وقيل: إن المراد بالدُّخان: الدخانُ الذي يأتي في آخِرِ الزمانِ، فيكون من علامات الساعة، وعلى هذا فيكون الخطابُ في قوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ ليس مُوَجَّهًا للرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وإنما هو مُوَجَّه لكل مَن يَتَأَتَّى منه الخطابُ، ولكنَّ السياقَ كما صاغه عبدُ الله بنُ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يُؤَيِّدُ ما ذَهَبَ إليه.





(٣٩) سُورَةُ الزُّمَرِ[١]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ ﴾ يُجَرُّ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[٢].

---

[١] الزُّمَر جَمْعُ زُمْرَةٍ، قال الله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الزمر:٧٣].

[٢] قولُ الله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ يعني: كمَنْ هو مُنَعَّم في الجنَّةِ؟ يعني: هل يستوي هذا وهذا؟

والجوابُ: لا، وهذا من باب الاستفهام الذي حُذِفَ فيه المقابلُ، وهو كثيرٌ في القرآن، كقوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٩] يعني: كمَن ليس كذلك؟

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ قال المؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُجَرُّ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ» ومعنى الآية معنًى عظيمٌ جدًّا؛ فإن الإنسان يتَّقي النار أو الأشياء المؤذية يتَّقيها عن وجهه بشيءٍ، إمَّا بورَق، أو بإناءٍ، أو ما أشبه ذلك، لكن هؤلاء ليس لهم ما يقيهم إلا الوجوه، والمعنى: أنه ليس لهم شيءٌ يقيهم من سوء العذاب، فكأنَّ هذا الذي أراد أن يُوَقِّيَ وجهه بشيء جعل وجهه نفسَهُ هو الذي يُتَّقى به هذا الشيءُ، وهذا من أكبر ما يكون من المُبالغة في عدم وجود ما يتَّقونَ به سوءَ العذاب عن وُجوههم.

﴿ذِى عِوَجٍ﴾ لَبْسٍ[١].

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ بِالأَوْثَانِ[٢].

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ صَالِحًا، مَثَلٌ لِآلِهَتِهِمُ البَاطِلِ، وَالإِلَهِ الحَقِّ[٣].

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾.

وأمَّا قول المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَبْسٍ» فهذا من معاني العِوَج: اللبسُ، وعدمُ البيانِ والتوضيحِ، لكنَّهُ في الحقيقة أعـمُّ ممَّا قال، فالمرادُ: غيرُ ذي عِـوَجٍ في أحكامه، وفي أخباره، بل هو مستقيمٌ في أحكامه؛ لأنها كلَّها عَدْلٌ، مستقيمٌ في أخباره؛ لأنها كلَّها صِدْقٌ.

وكذلك هو مستقيمٌ في بيانه، ليس فيه لَبْسٌ، ولا خوضٌ، ولا إلغازٌ، ولا أحاجيُّ، بل هو واضحٌ من أوضح ما يكون ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾.

[٢] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩] قـال: «صَالِحًا» أي: سالمًا خالصًا، فـ: ﴿سَلَمًا﴾ أي: خالصًا خاصًّا به.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦] وهذا الاستفهام معناه التقريرُ، أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ يُقَرِّر أنه كافٍ عبدَهُ، وإذا كان الله تعالى كافيًا عبدَهُ فإن الذين من دونه -أي: مَن سواه- لا يُمكن أن يُقاوموا هذه الكفايةَ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

خَوَّلْنَا: أَعْطَيْنَا[١].

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ القُرْآنُ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦ ﴾ المُؤْمِنُ يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَقُولُ: هَذَا الَّذِي أَعْطَيْتَنِي عَمِلْتُ بِمَا فِيهِ[٢].

وقال المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ قال: «بِالأَوْثَانِ» يعني: يقولون: إن أوثانَنا ستفعلُ فيك وستفعلُ، ولكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا ﴾ [الزمر:٤٩] أي: أعطَيْناه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤] أي: أعطَيْناكم.

[٢] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ هذا وصْفٌ لِمَن قال فصَدَقَ، ولِمَن صدَّقَ بالحقِّ؛ لأن منَ الناس مَن يقول فيصدقُ، ولكن لا يُصَدِّقُ بالحقِّ، ومنهم مَن يُصَدِّقُ بالحقِّ، ولكن يكون معه كَذِبٌ، فالمُتَّقي حقيقةً هو الذي جاء بالصِّدْق، وصدَّق به.

ولا شَكَّ أن أوَّل مَن ينطبق عليه هذا الوصف هو رسولُ الله ﷺ، فإنه جاء بالصِّدْق، وصدَّق به.

ولكن في الآية إشكالٌ نحويٌّ، وهو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ ولم يقل: ذلك هو المُتَّقي، فلماذا؟

نقول: لأن اسم الموصول ﴿ وَٱلَّذِى﴾ يُفيد العمومَ، فإذا كان يُفيد العمومَ دلَّ على الواحد فأكثرَ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ الرَّجُلُ الشَّكِسُ: العَسِرُ، لَا يَرْضَى بِالإِنْصَافِ.

(وَرَجُلًا سِلْمًا) وَيُقَالُ: (سَالِمًا) صَالِحًا[١].

﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾ نَفَرَتْ[٢].

﴿بِمَفَازَتِهِمۡ﴾ مِنَ الفَوْزِ[٣].

---

[١] يُشير إلى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي: مُتخاصمون مُتنازعون، وكلمةُ ﴿شُرَكَآءُ﴾ جمعٌ، أقلُّه ثلاثةٌ، فهذا العبدُ بين ثلاثة أسيادٍ ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: خالصًا له، لا يُشاركه فيه أحدٌ، فأيهما أحسنُ؟

الجواب: الثاني، وهذا مَثَلٌ للمشركين والمُوحِّدين.

وقوله: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ في قراءة: (سِلْمًا) وهي قراءة شاذَّة(١).

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ فهم ينفرون من الحقِّ، ويستبشرون بالباطل، والعياذُ بالله. وكل إنسان يشمئزُّ من الحقِّ وينفر منه ويكْرَهُه، ويرْضى بالباطل ويفرح به - ففيه شَبَهٌ من هؤلاء المشركين الذين إذا ذُكِرَ الله وحده اشمأزَّت قلوبُهم، وإذا ذُكِرَ الذين من دونه استبشروا وفرحوا.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ والمفازةُ: هي الأرض المَهْلَكَةُ، وسُمِّيت مَفازةً من باب التَّفاؤُل، كأنَّ

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بألف بعد السين وكسر اللام، وقرأ باقي السبعة بغير ألف مع فتح اللام، يُنْظَر: التبصرة في القراءات السبع، (ص:٦٥٩)، ومعجم القراءات (٨/ ١٥٥).

﴿حَافِّينَ﴾ أَطَافُوا بِهِ، مُطِيفِينَ بِحِفَافَيْهِ: بِجَوَانِبِهِ[١].

﴿مُتَشَابِهًا﴾ لَيْسَ مِنَ الاشْتِبَاهِ، وَلَكِنْ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي التَّصْدِيقِ[٢].

= الرجل فاز بالنجاة منها، ونظيرُ هذا قولهم في الكسير: «الجبيرُ» ومنه: الجبيرةُ التي تُشَدُّ على الكسرِ، فالعربُ دائمًا يقولون في مثل هذه الأمور ألفاظًا يُسَمُّونها بها تدلُّ على التَّفاؤُل.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر:٧٥] أي: مُطيفين به مُحْدِقين به، ووصَفَهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ بأنهم ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ تسبيحًا لله، أي: تنزِيهًا له عمَّا لا يليقُ بجلاله ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ القاضي هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، حتى إنه يُقْتَصُّ للشاة الجَلْحَاء من الشاة القَرْنَاء.

وقوله: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لم يُبيِّن القائلَ؛ ليُفيد العمومَ، يعني: كلُّ قال: الحمدُ لله ربِّ العالمين.

وهنا يتبيَّن لنا أن الله عَزَّوَجَلَّ موصوفٌ بصفات الكمال أَزَلًا وأبدًا؛ لأنه حَمِدَ نفسَهُ حين خَلق السموات والأرض، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١] وحَمِدَ نفسَهُ عند نهاية خَلْقِهِ، ونزول كلٍّ دارَهُ التي هي دارُ المستقرِّ؛ حيثُ قال هنا: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

[٢] لم يُراعِ المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الترتيبَ في الآيات، فتجده يأتي بآيةٍ في آخر السورة، وآيةٍ في وسطها، وكأنَّهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكتبُ من ذهنه.

ويُشير هنا إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣] فذكر

= رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ ليس مـن الاشتباهِ، ولكنَّهُ من المشابهـة، أي: أنه يُشْبِهُ بعضُه بعضًا، يعنـي: في التصديق من حيثُ الأخبارُ، فأخبارُهُ لا تتناقـض أبدًا، بل يُصَدِّقُ بعضُها بعضًا.

وكذلك مُتشابِهٌ في الأحكام؛ حيث إن كلَّ حُكْم منه لا يُناقض الآخَرَ، بل جميعُ أحكامِهِ إنما يُراد بها إصلاحُ الخَلْق، فكلُّها تدورُ على المصلحة الخالصة أو الرَّاجِحَةِ تأمُر بها وتحثُّ عليها، والمفسدة الراجحة أو الخالصة تَنْهَى عنها، فلا تجد أمرًا يأمرُ بما فيه المصلحة، ويأتي أمرٌ آخَرُ يأمر بما فيه المفسدة، بل كلُّ أوامره مُتَّفقةٌ على الأمر بما فيه المصلحةُ، وكل نواهيه مُتَّفقةٌ على النهي عمَّا فيه المفسدةُ، وهذا أيضًا تشابهٌ، فهو متشابِهٌ في الأحكام، متشابِهٌ في الأخبار، يُصَدِّقُ بعضُهُ بعضًا.

وكذلك هو متشابِهٌ في الحُسْن والبلاغة والفصاحة، فلا تجد بعضَهُ يَفْضُل بعضًا في ذلك؛ لأنه كلَّه من عند الله عَزَّوَجَلَّ.

أمَّا من حيثُ الفضلُ وما يكون موضوعًا للآيات فإنه يختلفُ، فأعظمُ آية في كتاب الله هي آية الكرسيِّ، وأفضلُ سُورة من كتاب الله سورةُ الفاتحة، فهو يتفاضلُ من هذه الناحية.

أمَّا من جهة المُتكلِّم به فإنه لا يتفاضلُ؛ لأنه كلامُ الله، وهو واحدٌ.

وهنا وُصِفَ القرآنُ بأنه متشابِهٌ، أي: يُشْبه بعضُه بعضًا في الكمال والجودة على الوجوه التي ذكرناها، وفي آية أُخْرى وصفَ الله عَزَّوَجَلَّ القرآن بأن منه آياتٍ مُحْكَماتٍ وأُخرَ مُتشابهاتٍ، وهذا يدلُّ على أن بعضَهُ مُحْكَم، وبعضَهُ مُتشابِهٌ، فكيف الجمعُ؟

....

= نقول: المُحْكَمُ في هـذه الآية هو ما اتَّضح معناه لكل أحـدٍ، بحيث لا يشتبِهُ، والمتشابِهُ ما خَفِيَ معناه إلا على الراسخين في العلم، فإنه يتبيَّن لهم، فيكونُ الاشتباهُ هنا أمرًا نسبيًّا، أي: مُشتَبِهٌ عند قومٍ، واضحٌ عند آخَرِينَ.

أو يُقال: إنه مُشْتَبِهٌ من حيثُ الحقيقةُ والكُنْهُ في الأمور الغيبيَّة، فمثلًا: نحنُ نعلم ما وَعَدَنا اللهُ به من النعيم في الجنَّة، ونعلم ما أَوْعَد به من العذابَ الأليم في النار، نعلم ذلك من حيث المعنى، لكن من حيثُ الحقيقةِ التي هو عليها لا نعلمها، فهو مُشتبِهٌ من هذه الناحية، وهذا وجهٌ آخر للتشابُهِ: أن يكونَ واضحَ المعنى مُشتَبِهَ الحقيقة والكُنْهِ الذي هو عليه؛ ولهذا قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: ليس في الدنيا ممَّا في الآخِرَةِ إلا الأسماءُ فقط[1]. وأمَّا الحقيقة فلا؛ ففي الجنة نخلٌ ورُمَّان وفاكهةٌ ولحمٌ، ولكن ليست حقيقتُهُ كحقيقة ما في الدنيا، بل يتَّفقان في الاسم فقط.

وعلى الوجه الأول -أنه متشابِهٌ على غير الراسخين في العلم- فهذا التشابُهُ يلجأ الزائغون فيه إلى الطَّعْن في القرآن، ويقولون: إنه متناقِضٌ، وإنه يُكَذِّبُ بعضُهُ بعضًا، أو ينقُضُ بعضُهُ بعضًا، لكنِ الراسخون في العلم بما عندهم من العلم يعرفون ذلك، ويعرفون كيف يجمعون بين هذه الآيات المتشابِهَةِ عند هؤلاء القوْم؟

وبناءً على هذين المعنيـين في التشابُهِ كان الوقـفُ على قوله تعالـى: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧] مُختَلَفًا فيه عند السلف، فمنهم مَن وقف على قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهذا بناءً على أن المراد بالتشابُهِ: التشابُهُ الحقيقيُّ، أي: اشتباه الحقيقة والكيفيَّة التي عليها؛ فإنَّ هذا لا يعلمُهُ إلا الله.

---

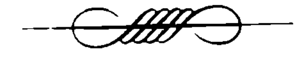
(١) تقدم تخريجه (ص: ٢٥٠).

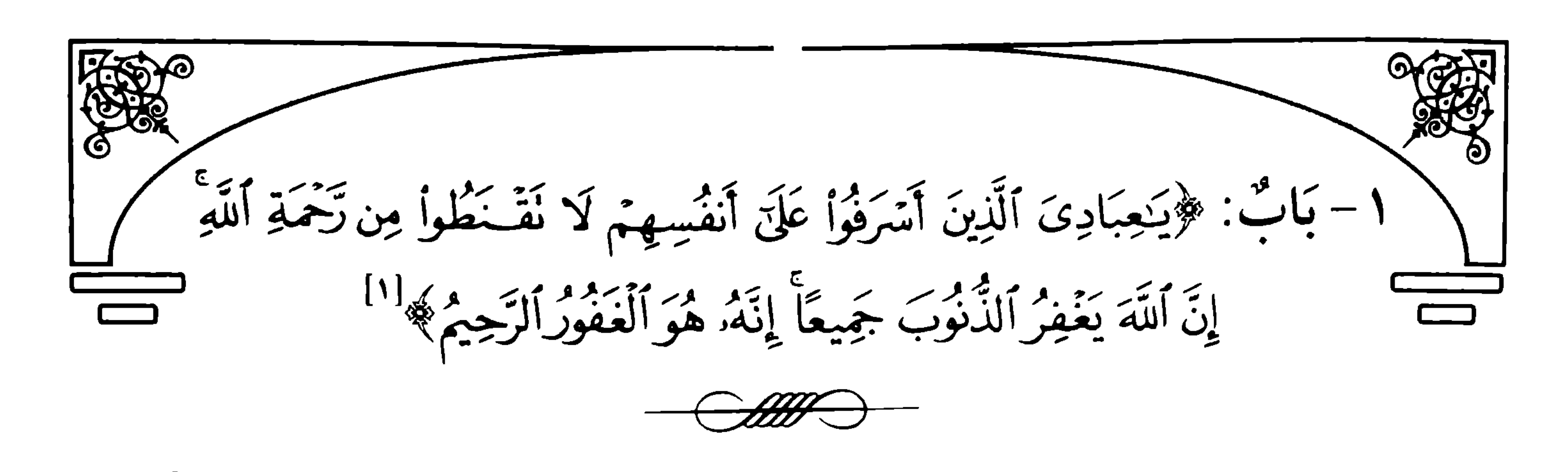
....

= ومنهم مَن وصَلَ، وقال: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ وهذا مبنـيٌّ على أن المرادَ بالتشابه: الاشتباهُ النسبيُّ الذي يخْفَى على قومٍ، ويتَّضح لآخرينَ.

وقد وصَفَ الله تعالى في آية ثالثة أن القرآن مُحْكَمٌ، كما في قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يس:١-٢] وكما في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود:١] فالإحكامُ هنا بمعنى الإتقان في لفظه ومعناه الخبريِّ والحكميِّ.

وحينئذٍ لا يكـون بين الآيات الثلاث تناقضٌ: آية وصَـفَ اللهُ فيها القرآن بأنه مُتشابِهٌ كلُّه، وآية بأنه مُحْكَمٌ كله، وآية بأن منه مُحْكَمًا ومنه مُتشابِهًا.





١ - بَابٌ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١]

[١] قول الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ هذا يشمل العبادَ بالمعنى العام، والعباد بالمعنى الخاصِّ، فيشمل المؤمنَ والكافرَ.

وقوله: ﴿أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: تجاوزوا الحدَّ؛ حيث خرجوا بها عن طاعة الله إلى معصيته.

وقوله: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ القنوط هو أشدُّ اليأس، أي: لا تيأسوا من الرحمة مهما عَظُمت الذنوبُ.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ المغفرةُ: هي سترُ الذنب، والتجاوزُ عنه، و﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ من ﴿ٱلذُّنُوبَ﴾ أي: مهما كانت هذه الذنوبُ من الكبائر والكثرة فإنَّ الله تعالى يغْفِرُها.

وعلَّل هذا الحكم -وهو المغفرة- بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ولكن هذه الآية نزلت في التائبين، أمَّا غير التائبين فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

وفي الآية هنا إشكالٌ، وهو أن الله عَزَّوَجَلَّ أمرَ نبيَّهُ ﷺ أن يقولَ: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾؟

والجواب أن نقولَ: كأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَمَّا قال: ﴿قُلْ﴾ أرسلَهُ يُخبِّر العبادَ بهذه الرسالة، كما لو أوْصَيْتَ شخصًا، فقلتَ: قل لفلانٍ: يحضر عندي، فذهَبَ هذا

٤٨١٠- حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى: أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، أَنَّ ابْنَ جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ، قَالَ يَعْلَى: إِنَّ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ أَخْبَرَهُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا وَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا وَأَكْثَرُوا، فَأَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ، فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ، لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً، فَنَزَلَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ وَنَزَلَتْ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[١].

= الشخص، وقال: يقول فلان: احضُرْ عندي، فلو نظرنا إلى ظاهر اللفظ: احْضُرْ عندي فالمراد: عند الرسول، لكن المراد: عند المُرْسِل، فهذه مثلُها.

[١] كأن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الجمع بين الآيتين يُوَضِّحُ أن الآية الثانية في التائبين؛ لأنَّ الأُولى في التائبين؛ حيث قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠] فتكون الآية الثانيةُ -آيةُ الزمر- في التائبين كذلك.

وقد سبقَ بيانُ شروط التوبة، وأنها خمسةُ شروط:

الأول: الإخلاصُ لله عَزَّ وَجَلَّ.

الثاني: الندمُ على المعصية.

الثالث: الإقلاعُ عن المعصية، ومنه: إيصال الحقوق إلى أهلها إذا كانت بينه وبين الآدميِّين.

....

= الرابع: العزمُ على ألَّا يعودَ، ولا يُشْتَرطُ ألَّا يَعُودَ.

الخامس: أن تكون التوبةُ في الوقت الذي تُقْبَلُ فيه التوبةُ، ووقتها بالنسبة للفرد: قبل حلول أجله، فإذا حلَّ الأجلُ لم تصحَّ التوبةُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء:١٨].

وأمَّا بالنسبة لعموم الناس فقبل خروج الشمس من مغربها؛ لأنها إذا خرجت من مغْرِبِها لا تُقْبَلُ التوبةُ، كما ثبت به الحديثُ عن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ[1].

لكن كيف نجمع بين أن الإنسان إذا تاب حين الغرغرة لا تُقْبَل توبتُهُ، وبين أن الإنسان إذا كان آخِرُ كلامه: «لا إله إلا الله» دخَلَ الجنة؟

نقول: المراد: إذا قال: «لا إلهَ إلا الله» وكان تلك الساعة عاقلًا قبل أن يصلَ إلى حال الموتى، أمَّا إذا كان قد حضر الموتُ فلا توبة، ورُبَّما إذا قال: «لا إلهَ إلا الله» رُبَّما تُقْبَلُ إذا كان معه وعْيُهُ.

فإن قال قائل: ما الفرقُ بين قولنا: يُشْتَرط العزمُ على ألَّا يعود، ولا يُشْتَرطُ ألَّا يَعُودَ؟

نقول: الفرقُ هو أننا إذا قلنا: يُشْتَرط ألَّا يَعُودَ فإنه إذا عاد إلى هذا تُنْتَقَضُ التوبةُ السابقةُ، أمَّا إذا قلنا: يُشْتَرطُ العَزْمُ على ألَّا يعودَ فإنه إذا عاد لا تُنْتَقَضُ التوبةُ الأُولى، لكن يحتاج إلى توبةٍ من الذنب الجديد.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت؟، رقم (٢٤٧٩)، وأحمد (٤/ ٩٩).

....

= ولنفرض أن الإنسان تاب من سرقة وشُرْب خمر وفعل فاحشةٍ، لكنه عاد إلى هذه الأشياء، فهل يُعاقَبُ على ما سبق قبل التوبة؟

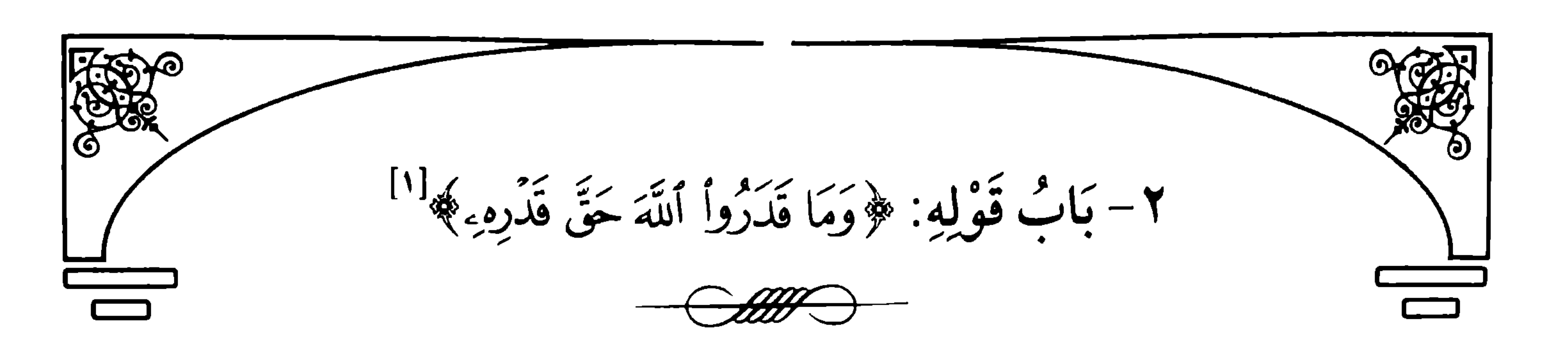
الجواب: إذا قلنا: إن الشرط ألَّا يعودَ فإنه يُعاقَبُ على ما سبق، وإذا قلنا: الشرط العَزْمُ على ألَّا يعودَ فإنه لا يُعاقَب.

وهنا إشكالٌ: كيف نُوَجِّه قولَ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هنا: «فَأَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ» مع قولِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣]؟

والجوابُ أن نقول: إن المنهيَّ عنه أن يُنادَى بهذا الاسم، أمَّا الإخبارُ فلا بأس، كما قال أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقد عصا أبا القاسم ﷺ(١).



(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن الخروج من المسجد إذا أذن المؤذن، رقم (٦٥٥/ ٢٥٨).



٢- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[١]

٤٨١١- حَدَّثَنَا آدَمُ: حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبِيدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ! فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢].

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي: ما عظَّموه حقَّ تعظيمه؛ حيث أشركوا به معه غيرَهُ؛ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فمَن أشْرَكَ مع الله مخلوقًا فإنه لم يَقْدُر اللهَ تعالى حقَّ قَدْرِهِ، ولو قَدَرَ اللهَ حقَّ قَدْرِهِ ما جعل المخلوقين نِدًّا له، وشركاءَ له.

[٢] قوله: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ» الحَبْرُ: هو العالِم الواسعُ العلم، قالوا: لأنه يُوافق «البحرَ» في الاشتقاق الأكبر «بحر-حبر» فالحروفُ واحدةٌ، والترتيبُ مختلفٌ، وهذا يُسَمَّى: الاشتقاقَ الأكبرَ، وأمَّا الأصغر فهو أن تتَّفق الحروف والترتيب.

وقوله: «عَلَى إِصْبَعٍ» فيها عشْرُ لُغاتٍ، وفي ذلك بيت يدلُّ على هذا(١):

---

(١) البيت من البسيط، وهو للعز القسطلاني كما في تاج العروس (٣١/ ٤١)، مادة (نمل).

....

= وَهَمْـــزَ «أُنْمُلَـــةٍ» ثَلِّـــثْ وَثَالِثَـــهُ التِّسْعُ فِي «إِصْبَعٍ» وَاخْتِمْ بِـ: «أُصْبُوعِ»

فقوله: «ثَلِّثْ» أي: بثلاث حركات، وقوله: «وَثَالِثَهُ» هو الميمُ، أي: يكون بثلاث حركات أيضًا، فتكون اللغات تِسْعًا؛ لأننا إذا جعلنا الهمزة بالفتح ففي الميم ثلاثُ حركات، وإذا كانت الهمزة بالضم يكون في الميم ثلاثُ حركات، وكذلك مع الكسر في الهمزة يكون في الميم ثلاثُ حركات، فالجميع تسعٌ؛ ولهذا قال: «التِّسْعُ فِي: إِصْبَعٍ» أي: في الهمزة والباء.

وقوله: «وَاخْتِمْ بِـ: أُصْبُوعِ» مثال ذلك: «إِصْبُوعي فيه جرحٌ» وفي لغة أهل السيارات يقولون في قطب البطارية: «إِصْبَاع» وهذه لغة عُرْفِيَّةٌ لا عربيَّةٌ.

وفي هذا الحديث: إثبات الأصابع لله عَزَّوَجَلَّ، وطريقُ أهل السُّنَّة والجماعة: أن يُثبتوا هذه الأصابعَ لله حقيقةً، لكنها لا تُشْبِهُ أصابعَ المخلوقين، فيُثْبتونها؛ لأن السُّنَّةَ جاءت بإثباتها، ويَنْفُون المماثلةَ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فإذا قلت: هل هذا معقولٌ أن يكون له أصابعُ، ولا تُشبه أصابعَ المخلوقين؟

فالجواب: نعم، هو معقولٌ، كما أن للدجاجة أصبعًا، لكنها ليست مثل أصابع الإنسان، وهكذا بقيَّة المخلوقات التي لها أصابعُ لا يُشبه بعضُها بعضًا، فكذلك أصابعُ الله عَزَّوَجَلَّ لا يُمكن أن تُشبه أصابعَ المخلوقين، فالأمرُ معقول أن يتَّفق الشيئان في الاسم، ويختلفا في الحقيقة والمُسَمَّى، وهذا جوابٌ سهلٌ كلٌّ يفهمه.

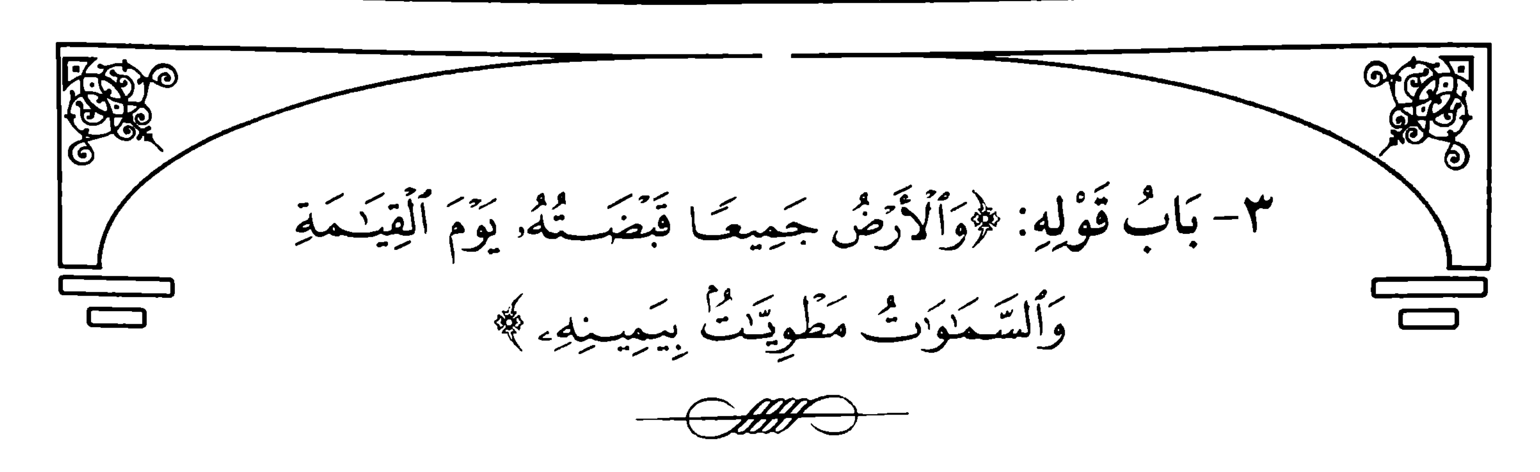
=

وأمَّا الأجوبة العقليَّة: فلأنه لَـمَّا كان عَزَّوَجَلَّ لا شبيهَ له في ذاته لم يكن له شبيهٌ في صفاته؛ ولأنه لا يُمكن أن يُشابِهَ حادثٌ مخلوقٌ الخالقَ الواجبَ الوجودِ؛ ولأنه لا يُمكن ليدٍ هذه قدرتُها أن تكون أيدي المخلوق الضعيفة مثلَها أبدًا.

وأمَّا مَن قال: إن هذه استعارة يُراد بها تصويرُ قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ، فنقول: إنك قلت على الله ما لا تعلمُ، وأنت مسؤول عن هذه الشهادة التي شهدت بها أن الله أراد بكلامه كذا وكذا، فالمسألة خطيرةٌ؛ لأن تفسيرَ القرآن معناه الشهادة على الله بأنه أراد كذا وكذا؛ ولهذا جاء في الحديث الوعيدُ على مَن قال في القرآن برأيه(١)، وكلُّ مَن حرَّف القرآنَ عن ظاهره فقد قال في القرآن برأيه بلا شَكٍّ؛ لأنه لو سلك المسلكَ الصحيحَ في الاستدلال بالقرآن لأبقاهُ على ظاهرِهِ.



(١) أخرجه الترمذي: كتاب التفسير، باب ما جاء في الذي يُفَسِّر القرآن برأيه، رقم (٢٩٥١)، وأحمد (١/ ٢٣٣).



٣- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾

٤٨١٢- حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي اللَّيْثُ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ مُسَافِرٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟»[١].

---

[١] هذا الحديثُ صريحٌ في أن الله عَزَّوَجَلَّ له يدٌ حقيقيَّةٌ، يقبِضُ بها ويطوي، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكنها لا تُشبه أيدي المخلوقين، ولا يُمكن لكلِّ ذي عقلٍ أن يظن أن مثل هذه الآيات دالَّةٌ على المُشابَهة، بل كلُّ آيات الصفات لا يمكن أن نقول: إنها دالَّة على المُشابَهة؛ لأن المُشابَهة وصفُ نقصٍ، وكلام الله عَزَّوَجَلَّ لا يدلُّ على أن الله مُتَّصفٌ بالنقص، فافهم هذا.

ولذلك لَمَّا ضلَّ أهلُ التعطيل، وظنُّوا أنها تدلُّ على المُماثلة أو المُشابَهة، ذهبوا يُحرِّفونها بناءً على هذا الفهم الخاطئ، فأخطؤوا من وجهين:

الأول: أنهم ظنُّوا أنها دالَّةٌ على التمثيل.

الثاني: أنهم حرَّفوها عن ظاهرها إلى معنًى هم عيَّنُوه بعقولهم، ومع هذا لم يتَّفقوا عليه، بل تجدهم مضطربين في هذه المعاني التي يُعَيِّنونها.

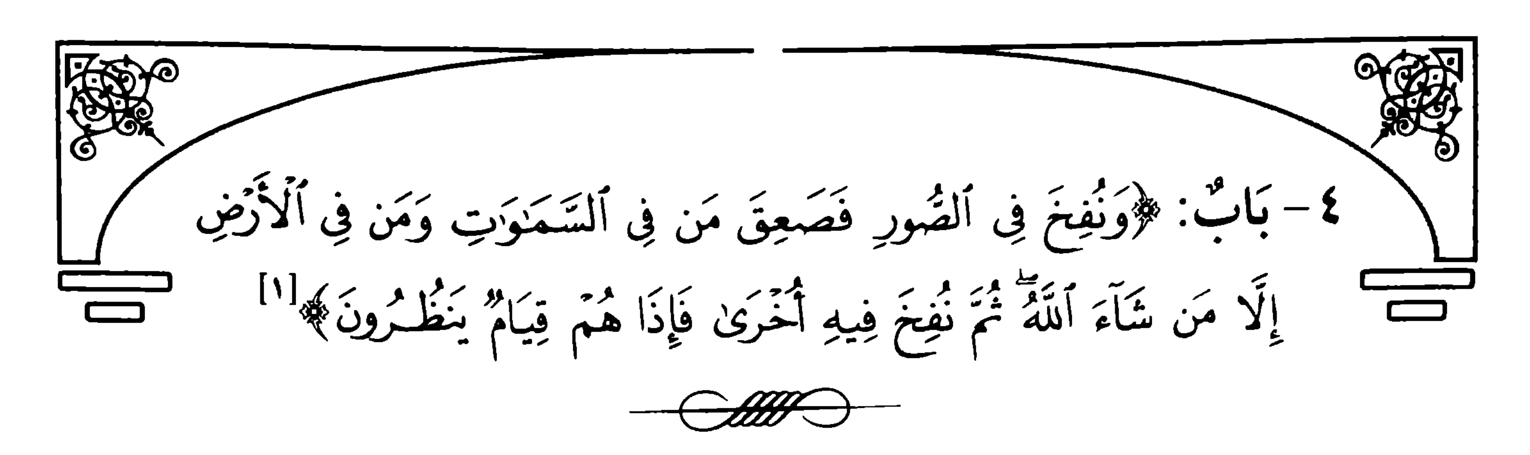
وهنا مسألة: هل للإنسان إذا ذكر هذا الحديث أن يُشيرَ بيده؟

....

= الجواب: الإشارةُ باليد فيما وردتْ فيه لا بأسَ به، ما لم يكنْ أمام عامَّة يفهمون من هذا التمثيلَ، فإن كان أمام العامَّة الذين يفهمون من هذا التمثيلَ فلا يَفْعَلُ.

وأمَّا ما لم ترد به الإشارةُ فلا يُشيرُ؛ لأن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا أراد أن يُشيرَ فيما يُشار فيه أشارَ، ومَا ترك فإنه يُتْرَكُ، فيُقْتَدى بالنبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيما فَعَلَ وفيما تَرَكَ، ما لم تكن الإشارةُ سببًا لاعتقاد التمثيل، كما لو كان أمام العامَّة، فإنك لو قلت: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ ووضعْتَ إبهامَكَ على عينك، والسَّبَّابَةَ على الأُذُن، لفَهِمَ العامَّة التمثيلَ، وفهموا إثبات الأُذُن لله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك لو مثَّلت لهم بهذه الآية فَهِمُوا التمثيل، والإنسانُ يجب عليه أن يتجنَّب كلَّ شيء يُفهم الباطلَ للعامَّة الذين لا يفهمون.





٤٨١٣ - حَدَّثَنِي الحَسَنُ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ خَلِيلٍ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحِيمِ، عَنْ زَكَرِيَّاءَ بْنِ أَبِي زَائِدَةَ، عَنْ عَامِرٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: **«إِنِّي أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ بَعْدَ النَّفْخَةِ الْآخِرَةِ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى مُتَعَلِّقٌ بِالعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي: أَكَذَلِكَ كَانَ، أَمْ بَعْدَ النَّفْخَةِ؟»**.

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ النافخُ هو إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد كان الرسولُ ﷺ يستفتح قيام الليل -في الركعتين المُطَوَّلتين، لا الركعتين الخفيفتين- فيقول: **«اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ»**(١) قال العلماء: إنه خصَّ هؤلاء الثلاثة؛ لأنهم هم ملائكةُ الإحياء، فجبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تحيَا به القلوبُ بما جاء به؛ لأنه كان ينزل بالوحْيِ، وإسرافيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تحيَا به الأبدانُ عند النفخ في الصور، وميكائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ مُوَكَّلٌ بالقطر والنبات، تحيَا الأرضُ بما كان مُوَكَّلًا به.

وعلى هذا نقول: إن الذي ينفخ في الصُّور هو إسرافيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أحد حملة العرش، كما ثَبَتَ به الحديثُ عن الرسول ﷺ(٢).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، رقم (٧٧٠/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦٩٧).

٤٨١٤ - حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا صَالِحٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، «**وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الإِنْسَانِ إِلَّا عَجْبَ ذَنَبِهِ، فِيهِ يُرَكَّبُ الخَلْقُ**»[١].

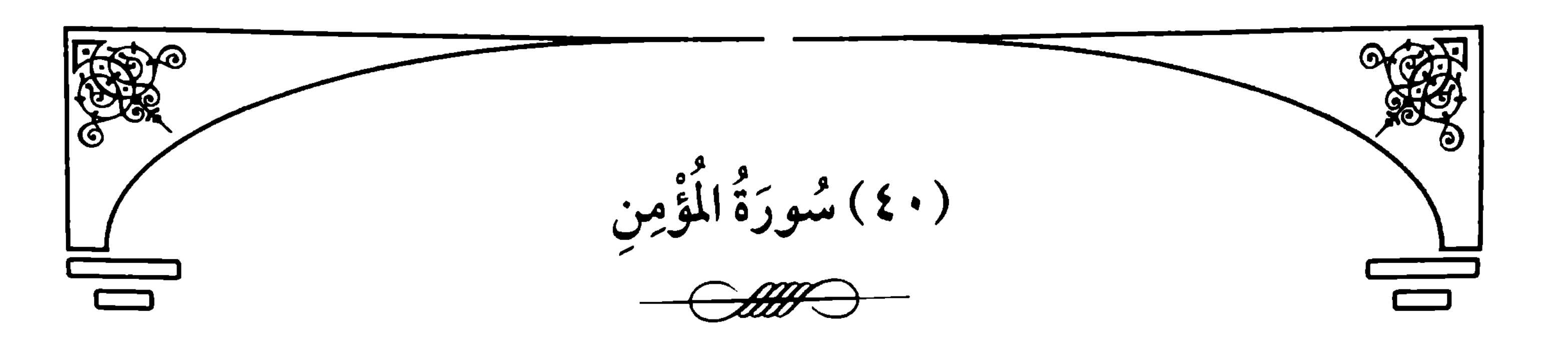
---

[١] قول النبيِّ ﷺ: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ» النفخةُ الأُولى: هي نفخة الصَّعْق، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

فإن قلتَ: هناك نفخة ثالثةٌ، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل:٨٧] فهذا نفخٌ يكون فيه الفَزَعُ، فكيف نجمعُ بينه وبين آية الزُّمَر؟

فالجواب: قال بعضُ العلماء: إن النفخاتِ ثلاثٌ: نفخةُ الفَزَع، ونفخةُ الصَّعْق، ونفخةُ البعثِ والإحياءِ، والصحيحُ: أنهما نفختانِ فقط، وأن النفخةَ الأُولى يكون فيها الفَزَعُ والصَّعْقُ جميعًا، فيفْزَعُونَ، ثم يُصْعقُونَ، كما في هذا الحديث.

وقول أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَبَيْتُ» أي: امتنعتُ عن تفسيرها بأنها أربعونَ سنةً، أو أربعونَ شهرًا، أو أربعونَ يومًا، ففيه: دليلٌ على أنه لا يجوزُ للإنسان أن يُفَسِّر شيئًا مُجْمَلًا في كتابِ الله أو سُنَّة رسوله ﷺ إلا بدليل، وهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يتبيَّنْ له ذلك: هل هو أربعونَ سنةً، أو أربعونَ شهرًا، أو أربعون يومًا؟



(٤٠) سُورَةُ الْمُؤْمِنِ

قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَيُقَالُ: ﴿حمٓ﴾ مَجَازُهَا مَجَازُ أَوَائِلِ السُّوَرِ، وَيُقَالُ: بَلْ هُوَ اسْمٌ؛ لِقَوْلِ شُرَيْحِ بْنِ أَبِي أَوْفَى الْعَبْسِيِّ:

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ[1]

---

[١] قول المؤلِّف رحمه الله تعالى: «سُورَةُ الْمُؤْمِنِ» يعني بذلك: سورة غافرٍ، وسُمِّيت بالمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ [غافر:٢٨].

وقوله: «مَجَازُهَا مَجَازُ أَوَائِلِ السُّوَرِ» ليس المراد بالمجاز هنا: المجاز الاصطلاحي عند البلاغيين، وهو ما يُراد به خلاف الحقيقة، ولكنَّ المرادَ: أن سبيلَها سبيلُ غيرِها من أوائل السور المبدوءة بحروف الهجاء، والصواب: أن هذه الحروف ليس لها معانٍ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر عن القرآن أنه نزل بلسان عربيٍّ مبينٍ، وهذه الحروف باعتبار اللسان العربيِّ ليس لها معنًى، وحينئذٍ فإن القرآن يدلُّ على أن هذه الحروف الهجائيَّة ليس لها معنًى، مثل: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿حمٓ﴾ ﴿نٓ﴾ ﴿قٓ﴾ وما أشبه ذلك، وهو المرويُّ عن مُجاهدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما نقله عنه ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير من أنها حروفٌ هجائيَّةٌ ليس لها معنًى(١).

---

(١) تقدم تخريجه (ص:١٧)، ويُنْظَر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٤٢-٢٤٨).

﴿ٱلطَّوْلِ﴾ التَّفَضُّلُ[١].

﴿دَاخِرِينَ﴾ خَاضِعِينَ[٢].

فإن قلت: كيف لا يكون لها معنًى، وهي كلام الله عَزَّوَجَلَّ؟ إذا قلتَ هذا فإن في كلام الله ما هو لغْوٌ!

فالجواب: أن لها مغزًى، وهو الإشارةُ إلى أن هذا القرآن الذي أعْجَزَ العربَ إنما جاء بالحروف التي يُرَكِّبون منها كلامَهم، ولم يأتِ بأشياء جديدة حتى يقولوا: هذه حروفٌ لا نعرفها.

قالوا: ودليل ذلك: أنه إمَّا أن يُذْكَرَ القرآنُ، أو يُذْكَرَ حكمٌ لا يكون إلا بالوحْيِ، مثل: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم:١-٤] فهذا ليس فيه ذكرٌ للقرآن، لكن فيه الإخبار عن أمرٍ مستقبل، وهذا لا يكون إلا عن طريق الوحْيِ الذي هو القرآن.

وأمَّا قوله: «وَيُقَالُ: بَلْ هُوَ اسْمٌ» أي: اسمٌ للسورة، وأنشد عليه قول شريح بن أبي أوفى العبسيِّ، فيُقال: نعم، هي اسمٌ للسورة، يُقال: سورة ﴿حمٓ﴾ سورة ﴿نٓ﴾ سورة ﴿قٓ﴾ وما أشبه ذلك، لكنها ليست اسمًا لشخص مُعَيَّن، أو للرسول ﷺ، أو ما أشبَهَهُ.

[١] يعني قوله تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر:٣] فالطَّوْلُ هو الغِنَى والتفضُّل به، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء:٢٥].

[٢] يعني قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ الإِيمَانُ[١].

﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ يَعْنِي الوَثَنَ[٢].

﴿يُسْجَرُونَ﴾ تُوقَدُ بِهِمُ النَّارُ[٣].

﴿تَمْرَحُونَ﴾ تَبْطَرُونَ[٤].

= عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ قال المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خَاضِعِينَ» ولا يعني بالخضوع هنا خضوعَ الطاعة، لكنه خضوعُ الذُّل، كما قال الله تعالى في آية أُخْرَى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥] فهم يدخلونها وهم داخرون، أي: خاضعون خُضوعَ ذلٍّ وصَغَارٍ.

[١] يعني قوله تعالى عن مؤمن آلِ فرعون: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ففسَّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: ﴿إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ أي: إلى الإيمان، وهذا تفسيرٌ للشيء بسببه؛ لأن الإيمان هو سبب النجاة، وإلا فإنه يدعوهم إلى أن ينجوا من النار؛ لقوله بعدها مباشرةً: ﴿وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ لكنَّ النجاةَ سببُها الإيمانُ.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [غافر:٤٣] أي: ما لا يستحقُّ أن يُدْعَى لا في الدنيا، ولا في الآخرة؛ لأنه وثَنٌ، والوثَنُ لو دعوته لا ينفعك لا في الدنيا ولا في الآخرة.

[٣] يعني قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي: تُوقَد بهم النارُ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦] أي: أُوقِدَتْ.

[٤] هذا في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا

وَكَانَ العَلَاءُ بْنُ زِيَادٍ يُذَكِّرُ النَّارَ، فَقَالَ رَجُلٌ: لِمَ تُقَنِّطِ النَّاسَ؟! قَالَ: وَأَنَا أَقْدِرُ أَنْ أُقَنِّطَ النَّاسَ، وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ وَيَقُولُ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؟! وَلَكِنَّكُمْ تُحِبُّونَ أَنْ تُبَشَّرُوا بِالجَنَّةِ عَلَى مَسَاوِئِ أَعْمَالِكُمْ، وَإِنَّمَا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ مُبَشِّرًا بِالجَنَّةِ لِمَنْ أَطَاعَهُ، وَمُنْذِرًا بِالنَّارِ لِمَنْ عَصَاهُ[١].

= كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ والمَرَح هو البَطَر، وهذا توبيخٌ لهم على بطرهم في هذه الدنيا، وفرحهم بها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس:٧-٨] فهؤلاء الذين فرحوا بالحياة الدنيا، وزهدوا في الآخرة، وبطروا نعمة الله؛ يكونون في النار، كما في الآيات التي أشار إليها المؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

[١] كان العلاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكرُ النارَ، يُخوِّف الناسَ منها، فقيل له: إذا كنت لا تذكر إلا النار فمعنى هذا أنك تُقنِّط الناسَ من رحمة الله، فقال: لا، لست أُقنِّطهم من رحمة الله؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مع أن الذين أسرفوا على أنفسهم هم أصحاب النار، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ فأنا عندما أُذكِّرهم بالنار لا أُريد أن أُقنِّطَهم من رحمة الله، وهذا كلامٌ جيِّد.

ولكن مع هذا ينبغي للإنسان الواعظ أن يلتزم طريقةَ القرآن، وأن يكون الأمرُ مثانيَ، فتارةً يُبشِّر بالجنة، وتارةً يُنذر من النار، حتى تبْقَى القلوبُ سائرةً إلى الله عَزَّوَجَلَّ بين الخوف والرجاء؛ لأنه إن كان لا يُذكِّرهم إلا بالنار دائمًا استولى عليهم الخوفُ

٤٨١٥ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ: حَدَّثَنَا الوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ: حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، قَالَ:........................

= واليأسُ، وإذا كان يُذَكِّرهم بالجنة دائمًا استولى عليهم الرجاءُ والأمنُ من مكْرِ الله، وهذا ضررٌ في سلوك الإنسان إلى ربِّه، قال الإمام أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ينبغي أن يكون خوفُه ورجاؤُه واحدًا، فأيهما غلب هلَكَ صاحبه.

وقال بعض العلماء: ينبغي أن تسير إلى الله تعالى كالطائر يفرش جناحيه، إن خَفَضَ أحد الجناحين هوى إليه، فكُنْ سائرًا كأنك طائر بين الجناحين، لا خوف يزيد على الرجاء، ولا رجاء يزيد على الخوف.

وقال بعض العلماء: ينبغي للمريض أن يُغَلِّب جانبَ الرجاء؛ ليموت وهو يُحسن الظنَّ بالله عَزَّوَجَلَّ، وينبغي للصحيح أن يُغلب جانب الخوف؛ حتى يرتدعَ عن المعصية.

وقال بعض العلماء: بل إذا منَّ الله عليك بالطاعة فغَلِّب جانبَ الرجاء أن يقبلها اللهُ تعالى منك، فإن الله عند ظنِّ عبده به، وإن همَمْتَ بمعصية فغَلِّب جانبَ الخوف؛ لأنك إن غلَّبت جانبَ الرجاء وأنت هامٌّ بالمعصية فعلْتَ، وقلتَ: أفعلُ، ويغفرُ الله لي، لكن إذا غلَّبْتَ جانبَ الخوف امتنعْتَ من المعصية، وهذا تفصيلٌ طيِّبٌ، وهو أن يكون الإنسان يُراعي الحكمةَ في سيره إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: «**وَإِنَّمَا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ مُبَشِّرًا بِالجَنَّةِ لِمَنْ أَطَاعَهُ، وَمُنْذِرًا بِالنَّارِ مَنْ عَصَاهُ**» هذا صحيحٌ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة:١١٩].

قُلْتُ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ: أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ مَا صَنَعَ المُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِفِنَاءِ الكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَوَى ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ، فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ، فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ، وَدَفَعَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[1].

---

[١] انظر هذا الحَنَقَ والعداوةَ! خَنَق النبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وشدَّ على رقبته؛ حتى يكتم نَفَسَهُ، يُريد أن يقتله، فقام أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ودفع عن رسول الله ﷺ، وجزاهُ اللهُ عن أُمَّة محمد خيرًا، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهذا الاستفهامُ استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ: كيف تقتلون هذا الرجل بأمرين يستحقُّ أن يُشْكَر عليهما: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ والثاني: أنه أتاكم بالبينات من ربكم التي فيها سعادتكم؟! فمَن كان صالحًا بنفسه مُصْلِحًا لغيره فإنه لا يستحقُّ أن يُقْتَل، فأنْكَر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عليهم هذا؛ لأن هذا الرجل لم يأتِ بشيءٍ يستحِقُّ أن يُقْتَل عليه، بل أتى بشيء يستحِقُّ أن يُحْمَدَ عليه ويُشْكَرَ؛ لأنه قال: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وهذا صلاحُهُ بنفسه، وجاءكم بالبينات من الله، وهذا إصلاحٌ لكم، فكيف يُقْتَل مثلُ هذا الرجل؟!

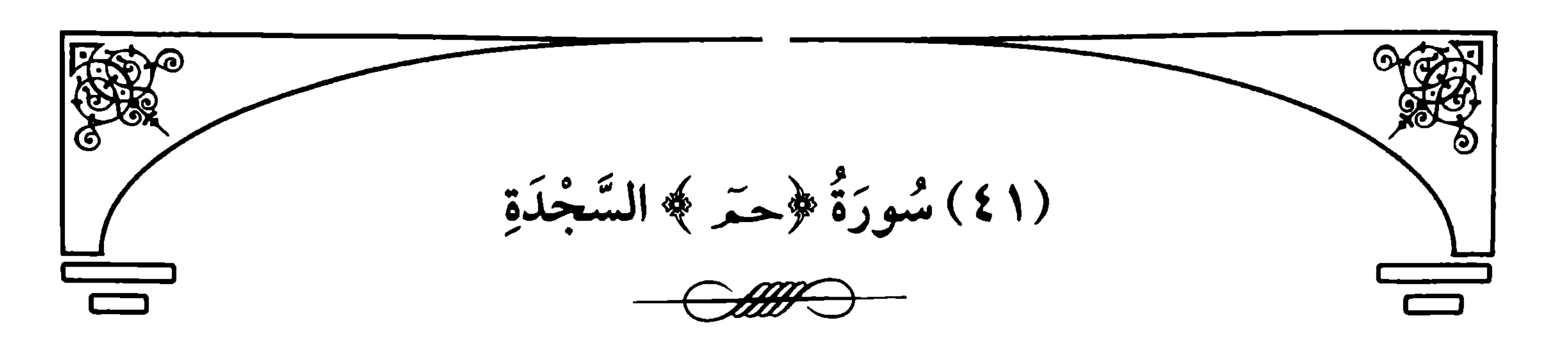
وهذه الآية قالها مؤمنُ آل فرعونَ، قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: أتقتلون موسى؟! وأتى به مُنكَّرًا دون اسمه العَلَم؛ لئلا يُتَّهم أنَّ بينه وبينه مُواطأةً في الدفاع عنه؛ لأنه لو قال: «أتقتلون موسى» فمعنى هذا: أنه يعرفه، فيُدافع عنه دفاعًا شخصيًّا، أمَّا إذا قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ بالنكرة فكأنَّهُ لا يعرفه، وحينئذٍ تبعد التُّهمة أن يكون قد تَواطأَ معه على هذا الأمر.

....

= وهل يُفْهَم من هذا الحديث أن هذه الآية: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ قد نزلت قبل هذه الواقعة؟

نقول: نعم، هذا هو الظاهرُ؛ لأن سورة غافرٍ مكِّيَّةٌ، وهذه الحادثة وقعت في مكة في فناء الكعبة.





(٤١) سُورَةُ ﴿حمٓ﴾ السَّجْدَةِ

وَقَالَ طَاوُسٌ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أَعْطِيَا ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أَعْطَيْنَا[1].

---

[١] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ وسبق أنَّ كلمة «استوى» تُسْتَعمل في اللغة العربية أربعة استعمالات:

الأول: تُسْتَعمل مُقَيَّدَة بـ: «إلى».

الثاني: مُقَيَّدة بـ: «على».

الثالث: مقرونةً بالواو.

الرابع: مُنْفَردة.

فإذا قُيِّدت بـ: «إلى» كان معناها: القصد والإرادة، ومنه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ و﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٩].

وإذا قُرِنَت بـ: «على» كان معناها: العلو والاستقرار.

وإذا قُرِنَت بالواو فمعناها: المساواة، كقولهم: «استوى الماء والخشب».

وإذا أُفردت فمعناها: الكمال، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤].

....

= وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ هذا الأمر: ﴿ٱئْتِيَا﴾ أمرٌ كونيٌّ؛ لأنه قال: ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ والتعبُّدي لا يكون كَرْهًا، بل إذا أُكْرِهَ الإنسانُ على فعل العبادة لم تصحَّ إذا فعلها لدفع الإكراهِ.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ فيه إشكالان:

الإشكالُ الأول: كيف وُجِّه الخطابُ إلى الجماد؟

والجواب أن نقول: إن كل شيء يعقل ويفهم بالنسبة إلى أمْرِ الله تعالى، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤].

الإشكالُ الثاني: كيف كان الجواب من الجماد؟

والجواب: أن هذا كما قال الله تعالى للقلم: «اكْتُبْ» وهو جمادٌ، قال: وماذا أكتب؟[1] فأجاب وهو جماد، فكل شيء بالنسبة للرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ فإنه عاقلٌ يُوجَّهُ إليه الخطاب، ويقع منه الجواب.

وقوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا﴾ قال: «أَعْطِيَا» لكن ظاهر الآية الكريمة أن معنى قوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا﴾ أي: جِيئا، أمَّا لو كانت: «آتِيَا طوعًا» لكانت بمعنى: أعْطِيَا، فالصواب: أن يبْقَى اللفظُ على ظاهره، أي: جِيئا طوعًا، أي: انقادا لأمري طوعًا أو كرهًا ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي: جئْنَا.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السُّنَّة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء في الرضى بالقضاء، رقم (٢١٥٥)، وأحمد (٥/ ٣١٧).

وَقَالَ المِنْهَالُ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنِّي أَجِدُ فِي القُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ، قَالَ: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فَقَدْ كَتَمُوا فِي هَذِهِ الآيَةِ.

وَقَالَ: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ خَلْقِ الأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿طَآئِعِينَ﴾ فَذَكَرَ فِي هَذِهِ خَلْقَ الأَرْضِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ.

وَقَالَ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فَكَأَنَّهُ كَانَ، ثُمَّ مَضَى.

فَقَالَ: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ فِي النَّفْخَةِ الأُولَى، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ، وَلَا يَتَسَاءَلُونَ، ثُمَّ فِي النَّفْخَةِ الآخِرَةِ: أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ فَإِنَّ اللهَ يَغْفِرُ لِأَهْلِ الإِخْلَاصِ ذُنُوبَهُمْ، وَقَالَ المُشْرِكُونَ: تَعَالَوْا نَقُولُ: لَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ، فَخُتِمَ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، فَتَنْطِقُ أَيْدِيهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ عُرِفَ أَنَّ اللهَ لَا يُكْتَمُ حَدِيثًا، وَعِنْدَهُ ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآيَةَ.

= لكن تفسير البخاريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس على القراءة المشهورة السبعيَّة، وإنما على قراءة ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (آتِيَا) (قَالَتَا آتَيْنَا) أي: أعْطَينا.

وَخَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ، فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، ثُمَّ دَحَا الأَرْضَ، وَدَحْوُهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا المَاءَ وَالمَرْعَى، وَخَلَقَ الجِبَالَ وَالجِمَالَ وَالْآكَامَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ فَجُعِلَتِ الأَرْضُ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، وَخُلِقَتِ السَّمَوَاتُ فِي يَوْمَيْنِ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ سَمَّى نَفْسَهُ ذَلِكَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ، أَيْ: لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يُرِدْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابَ بِهِ الَّذِي أَرَادَ، فَلَا يَخْتَلِفْ عَلَيْكَ القُرْآنُ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِ اللهِ[١].

---

[١] ذكر الرجل ههنا إشكالاتٍ:

الأول: في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١] وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات:٢٧] فنفى في الآية الأُولى، وأثبت في الآية الثانية.

الإشكال الثاني: في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢] وقوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] فكتموا مع أن الله يقول: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

الإشكال الثالث: في قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ ومثلها كذلك آية البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ

....

= ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٩] وقال الله عَزَّوَجَلَّ في آية النازعات قال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ فقال: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾.

وقول الرجل: «ثُمَّ قَالَ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾» الترتيب هنا ترتيب ذكريٌّ، وإلا فالترتيب بحسب الذي في القرآن: أن ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ قبل: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾؛ لأن ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ موجودةٌ في سورة ﴿حمٓ﴾ السجدة، وهي سورة فُصِّلت، و﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ في سورة النازعات.

فظاهر الآيات هنا التعارضُ، وهذا هو معنى قول الرجل: «تَخْتَلِفُ عَلَيَّ» وهذا القسم يُسَمِّيه العلماءُ: التعارض بين الأدلة.

وقد سَبَقَ أنه متى أمكن الجمعُ وجبَ الجمع؛ لئلا يُسْقَط أحد الدليلَيْنِ، فإن لم يُمكن الجمعُ فالمتأخِّر ناسخٌ إن عُلِمَ التاريخُ، فإن لم يُعْلَم التاريخُ فإنه يُرَجَّح أحدُهما على الآخر بأحد أسباب الترجيح المعروفة، فإن لم يُمكن وجبَ التوقُّف، وقلنا هذا باعتبار نظر المستدلِّ.

أمَّا باعتبار الواقع فإنه لا يُمكن أن يقع التعارُض بين الأدلة إلى هذا الحدِّ، بحيث تبْقى مشتبهةً لا يُعْرَف وجهُ الجمع بينها؛ لأن الله تعالى وصف القرآن بأنه تبيانٌ لكل شيء، والتبيان ضدُّ الخفاء، فلا يُمكن أن يقع في الأدلة ما يصل إلى هذه النهاية إلا باعتبار نظر المستدلِّ، أمَّا باعتبار الحقيقة والواقع فلا.

أمَّا الإشكالُ الرابعُ: ففي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ

....

= ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فظاهرُ هذه الآيات: أنه كان فيما مضى، وأمَّا الآن فليس على ما هو عليه، يعني: كان الله غفورًا رحيمًا، ثم لم يكن غفورًا رحيمًا، وهذه مُشتبهة لا من حيثُ التعارُض، ولكن من حيثُ صفةٌ من صفات الله عَزَّوَجَلَّ

ثم أجاب ابن عباس رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا عن اختلاف هذه الآيات على الرجل، فأمَّا الإشكالُ الأول فذكر أن هذا باختلاف الزمنين، فزمنٌ لا يتساءلون، وزمنٌ يتساءلون.

وهناك جوابٌ آخرُ، وهو أن قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضُهم بعضًا سؤالًا يُغيثه به ويُنقذه من الشدَّة، ففي الدنيا تكون الأنساب بينهم ويتساءلون عند الشدائد، يسأل بعضُهم بعضًا: أَعِنَّا، أنقِذْنا من هذه الشدَّة، وما أشْبَهَ ذلك، فينفعهم، لكن في الآخرة لا يكونُ ذلك؛ ولهذا أعْقَب قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ بقوله: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أمَّا التساؤلُ الثاني فهو تساؤلٌ عن شيءٍ لا ينفعهم فيه التساؤلُ.

وأمَّا **الإشكال الثاني**: فذكر أنهم يُنكرون بالأول يقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لكنهم كاذبون؛ لقوله تعالى بعدها مباشرةً: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فإذا رأوا أن الله تعالى يغفرُ بالإخلاص للمُوحِّدين ادَّعَوُا انتفاء الشرك، فقالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لعلَّهم يُغْفَر لهم، فإذا قالوا هكذا خُتِمَ على أفواههم، وتكلَّمت جوارِحُهم بما عملوا، وحينئذٍ يُقِرُّون ولا يُنكرون، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ فيكونون ترابًا ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

....

وأمَّا الإشكالُ الثالث: فذكر أن ابتداء خَلْقِ الأرض قبل خَلْقِ السماء، وهذا هو الترتيب الواقع الواضحُ: أن يُبْنَى الأسفل قبل الأعلى، ثم لـمَّا خُلِقَت الأرضُ خلق الله السماءَ، ثم بعد ذلك دحا الأرضَ.

وفسَّر الدَّحْـوَ بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ فصار خَلْقُ الأرض سابقًا على خلق السماء، ودحْوُ الأرض لاحقًا بعد خَلْق السماء، وهذا جمعٌ واضحٌ.

وأمَّا قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فالمراد: فيما لم يَزَل، ولكنه لم ينسلب عنه هذا الوصفُ؛ فإنَّ «كان» هنا يُراد بها بيان اتِّصاف المُخْبَر عنه بالخبَرِ، وهي مسلوبة الزمان، أي: لا تدلُّ على فعل ماضٍ انقضى، بل تدلُّ على اتِّصاف المُخْبَر عنه بالخبر، كما تقول: «كان زيد طويلًا» فهل المعنى: كان فيما مضى طويلًا، ثم قصر؟

الجواب: لا، ولكن المراد: أن هذه صفته، لم يزل مُتَّصفًا بالطـول، ولا يُمكن أن يقصر، وكذلك قولنا: «كانت الشمس مُضيئةً» أمَّا لو قلنا: «كان زيد قصيرًا» فهنا يحتمل أن المراد: كان قصيرًا ثم يطول.

والمهم: أنَّ «كان» هنا مسلوبة الزمان، والمقصود: تحقيق اتِّصاف المبتدإ بالخبر.

ثم إن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نصحه نصيحةً مُهمَّةً، قال: «فَلَا يَخْتَلِفْ عَلَيْكَ القُرْآنُ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِ اللهِ» فلا تظنَّ أن في القرآن شيئًا مُتناقضًا أبدًا، فإن ظَنَنْتَ ذلك فاتَّهم نفسَكَ، إمَّا بقصور العلم، وإمَّا بقصور الفهم، أمَّا أن يكون القرآنُ فيه شيءٌ مُتعارِضٌ مُتناقِـضٌ فهذا شيء مستحـيلٌ؛ لأن كـلًّا من عنـد الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: حَدَّثَنِي يُوسُفُ بْنُ عَدِيٍّ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَبِي أُنَيْسَةَ، عَنِ الْمِنْهَالِ، بِهَذَا[١].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ مَحْسُوبٍ[٢].

= ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢] لكنْ ما كان من عند الله لا يجدون فيه اختلافًا، لا كثيرًا، ولا قليلًا.

وقوله: «فَإِنَّ اللهَ لَمْ يُرِدْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابَ بِهِ الَّذِي أَرَادَ» وذلك أنه إذا كان كله من عند الله، وَكُلُّه حقٌّ، فإن الله لا يُريد بها قال إلا الحقَّ، فيكون مُصيبًا لِما أراده من الحقِّ، والحقُّ لا يتناقض بعضُه مع بعض، فهذا معنى كلام ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

[١] مثل هذا قليلُ الوقوع في صيغ المُحَدِّثين، أي: أنه يذكر المَتْنَ أولًا، ثم يسوق السَّنَدَ؛ لأن العادة الغالبة أنه يذكر السَّنَدَ أوَّلًا، ثم يأتي بالمتن، فيحتمل أن البخاريَّ رَحِمَهُ اللَّهُ أرادَ التنوُّع، أو أنه لم يستحضر حين كتابته السَّنَدَ، ثم استحضره بعدُ، وكَتَبَهُ؛ ولهذا ليست هذه العبارة موجودةً في بعض النسخ.

[٢] هذا قولٌ، والقول الآخر: أن الممنون بمعنى: المقطوع، فقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوعٍ، وكلا المعنيين حقٌّ، فإن هذا الأجر لا يُحْسَبُ عليهم، وليس كمَن أرسل إليك أغراضَ البيت، وقال: أَعْطِنَا الثمن؛ لأنه كما قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في الميميَّة يقول: إن هذا قد دُفِعَ رأسُ ماله(١)، والإنسان الآن يستثمر المُثْمَنَ، وهو المبيعُ، وهذا الكلام من ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ على سبيل التمثيل، وإلا فإن الجزاء

---

(١) انظر: الرحلة إلى بلاد الأشواق - شرح الميمية (ص:٢٢١) ونص البيت:

فما شئت خذ منه بلا ثمنٍ له   فقد أسلف التجار فيه وأسلموا

....

= ليس عوضًا عن العمل، بل العملُ سببٌ، والجزاءُ والعملُ أصلًا تفضُّلٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، قال النبيُّ ﷺ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»(١).

فإذا قال قائل: كيف يقول الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ**» واللهُ عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢]؟

فالجواب: قال العلماء: الباء في قول الرسولِ ﷺ: «**بِعَمَلِهِ**» باءُ العِوَضِ، والباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ باء السببيَّة، فالعملُ سببٌ، والجزاء مُسَبَّبٌ، وليس العملُ عِوَضًا، والجزاء مُعَوَّضًا به، ومع هذا فالكلُّ منَ الله عَزَّوَجَلَّ تفضُّلًا منه ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١٧].

وانظر مع المنَّة الظاهرة لله عَزَّوَجَلَّ علينا بالأعمال الصالحة -والحمد لله- هو يقول: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠] فكأنَّ الإحسانَ منك أنت، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ هو المُتفضِّل به أوَّلًا، ويقول تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ فسبحانَ الله! يمنُّ عَزَّوَجَلَّ علينا، ثم يقول: إن سعيكم مشكور عندي، ويقول: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، وفي كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم (٦٤٦٧)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، رقم (٢٨١٦/ ٧٥) (٢٨١٨/ ٧٨) عن أبي هريرة وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿أَقْوَاتَهَا﴾ أَرْزَاقَهَا[١].

﴿فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ مِمَّا أَمَرَ بِهِ[٢].

فإذا تأمَّلنا مثل هذه الآيات عرفنا منَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علينا أولًا بالتوفيق للعمل الصالح؛ فإن كثيرًا من الناس قد ضلُّوا عن الحقِّ، ثم منَّة الله علينا بالجزاء عليه، وبهذا التلطُّف والامتنان العظيم، كأنَّ الفضل منَّا، والفضلُ منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علينا.

والخلاصةُ: أن قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فيه قولان:

الأول: غير مقطوع.

والثاني: غير محسوب، فخُذْ ما شئتَ، ودَعْ ما شئتَ، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٢-٣٣].

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت:١٠].

وتأمَّل قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل الأقواتَ مُقدَّرةً، بحيث تكون كفيلةً بمصالح العباد وحاجاتهم، حتى إنه قدَّر عَزَّ وَجَلَّ في بعض البلاد أن تُوجَد هذه الثمارُ والأقواتُ، ولا تُوجَد في بلاد أُخْرى، والعكس بالعكس؛ لأجل أن يتبادل الناس هذه الأقوات، ويحصل بهذا الرزقُ والربحُ، فهؤلاء ينقلون لهؤلاء، وهؤلاء ينقلون لهؤلاء؛ ولهذا قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ فالأقواتُ مُقدَّرةٌ بحسب ما تقتضيه حِكْمة الله عَزَّ وَجَلَّ.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:١٢] أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ أمَرَ كلَّ سماء بما تقتضيه حكمتُهُ.

﴿نَّحِسَاتٍ﴾ مَشَائِيمَ[١].

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ قَرَنَّاهُمْ بِهِمْ[٢].

---

[١] قال: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:١٩]؛ لأن عذابَهم في الدنيا استمرَّ بعذابهم في الآخرة؛ لأن هؤلاء يُعذَّبون في قبورهم، فاليوم النَّحْس استمرَّ عليهم، والعياذُ بالله، فصاروا كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧] ترفعه الريح فوق، ثم تقلبه على رأسه، فيخرُّ على الأرض، ويبقى مثلَ أعجاز النخل الخاوية مُنْعَكِفًا، وكلُّهم صاروا على هذه الحال.

[٢] المعنى: هيَّأنا لهم قُرناء، وبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هؤلاء القُرناء ماذا عملوا؟ فقال: ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فزيَّنوا لهم الدنيا، فاغترُّوا فيها، وزيَّنوا لهم ما بين أيديهم من الآخِرَة، فاغترُّوا أيضًا؛ ولهذا يقول الكافر: ﴿هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت:٥٠] فزيَّن له الشيطانُ، وقال: اعمل الآن، وافعل ما شئتَ، واكفُر وأَشْرِك، والمستقبل لك ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

وكذلك الرجل الذي كان يُحاور صاحبَهُ في سورة الكهف قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ فهؤلاء القُرَناء زيَّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم.

ومن القُرَناء مَن يُزَيِّن ما بين أيديهم، ويحملهم على أن يُنكروا ما خلْفَهم، فيقول: لا مَرَدَّ، ولا مرْجِعَ، ولا بعْثَ، ولا حسابَ، ومن القرناء مَن يُزَيِّن ما بين أيديهم ويُزَيِّن ما خلْفَهم، بأن يجعله يُؤَمِّل التوبة، ويقول: أنت الآن شابٌّ، متى تموت؟ افعل الآن ما شئت، وامرح، ثم بعد ذلك تتوبُ إلى الله.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عِنْدَ المَوْتِ[1].

= لكن هؤلاء القُرَناء هل هم قرناءُ من الجنِّ، أو من الإنس، أو من هؤلاء وهؤلاء؟

الجواب: من هؤلاء وهؤلاء؛ فإنَّ الله تعالى يُقَيِّض لهم هؤلاءِ القرناءَ، ولكن إذا قال قائلٌ: ما سبب هذا التقييض، وأن الله عَزَّوَجَلَّ يُقَيِّض قُرناءَ السوءِ للإنسان، سواء من شياطين الجنِّ الذين يُوَسْوِسُون له في صدره، أو من شياطين الإنس؟

قلنا: سببُهُ ما ذكرَهُ الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ**﴾ [الزخرف:٣٦] فقوله: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ**﴾ أي: ينظرُ إلى ذِكْرِ الرحمن كنظر الأعشى الذي يُبْصِر في النهار، ولا يُبْصِر في الليل، أو أنه رديءُ النظر، لا ينظر إلى الأشياء على وجْهٍ سَليم، فإذا كان الإنسان لا ينظر إلى ذكر الله عَزَّوَجَلَّ على وجْهٍ سَليم فإنه يُهَيَّأ له هؤلاء الشياطينُ التي تصدُّه عن ذِكْرِ الله.

[1] يعني بذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وهذا هو الإيمان ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ يعني: على العمل الصالح ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني: عند الموت، تقول: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ أي: لا تخافوا المستقبل ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على الماضي ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وما أعظمَ هذه البشارة عند الإنسان وهو في سياق الموت! يُبَشَّر بالجنة التي كان يُوعَد، والتي صدَّق بها، وعَمِلَ لها، ويُبَشَّر أيضًا بألَّا يخافَ من مستقبل، ولا يحزنَ على ماضٍ.

ثم قال بعض السلف: يقع في قلب الإنسان المُبَشَّر ماذا يكون مصيرُ أولاده؟ فيقولون: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ نتولَّاكم، وكذلك نتولَّى أولادَكم من بعدكم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾.

﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ بِالنَّبَاتِ.

﴿وَرَبَتۡ﴾ ارْتَفَعَتْ[١].

وسواءٌ كان هذا القول صحيحًا أم غير صحيح فإن الإنسان إذا بُشِّر بالجنة، وقالت الملائكة: نحن نتولَّاكم في الدنيا وفي الآخرة، لا شَكَّ أن هذه بشارةٌ عظيمةٌ، تُسَهِّل خروجَ الرُّوح من البدَن؛ لأنه إذا بُشِّر بأنه سيرتحل إلى شيء أكمل وأحسنَ من الدنيا سَهُلَ عليه مُفارقةُ الدنيا، فتنقاد، اللهم اجعلنا من هؤلاء.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ [فصلت:٣٩] أي: اهتزَّت بالنبات، وارتفعَتْ به، ويحتمل أنها ترْبُو هي بنفسها؛ لأن الماء يتخلَّلها، فتزيد.

وقيل: إن رُبُوَّها هو ارتفاعُ القشرة الأرضيَّة عن النبات؛ لأن النبات إذا أنْبَت يرفع القشرة الأرضيَّة، ثم تنفتح له.

فعلى هذا إذا قلنا: إن قوله: ﴿وَرَبَتۡ﴾ المراد به: ارتفاع قشرة الأرض من أجل النبات الذي سيخرج، فإن الاهتزاز يكون بعدُ، فهل يكون هذا الترتيب ذِكْريًّا أو واقعيًّا؟ والترتيب الذِّكريُّ: أن يكون الثاني مُتأخِّرًا عن الأول في الذِّكرِ، وأمَّا في الواقع فالثاني سابقٌ على الأول.

نقول في الجواب: إذا قلنا: اهتزَّت بالنبات، ورَبَتْ بارتفاع قشرتها ليخرج النباتُ، فإن الأول قوله: ﴿وَرَبَتۡ﴾ فتربو، ثم يخرج النباتُ، ثم تهتزُّ به، لكن ذُكِرَ أولًا الاهتزاز الذي سيكون بعد الرُّبُوِّ، فيكون هذا الترتيب ذِكْريًّا لا واقعيًّا، وعليه قول الشاعر:

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ حِينَ تَطْلُعُ[١].

﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ أَيْ: بِعَمَلِي، أَنَا مَحْقُوقٌ بِهَذَا[٢].

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قَدَّرَهَا سَوَاءً.

﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ دَلَلْنَاهُمْ عَلَى الخَيْرِ وَالشَّرِّ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ وَكَقَوْلِهِ: ﴿هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ وَالهُدَى الَّذِي هُوَ الإِرْشَادُ بِمَنْزِلَةِ: أَصْعَدْنَاهُ، ....

إِنَّ مَــنْ سَــادَ ثُــمَّ سَــادَ أَبُــوهُ   ثُمَّ سَـادَ مِـنْ بَعْـدِ ذَلِـكَ جَـدُّهُ(١)

مع أن الأول في السيادة هو الجدُّ، ثم الأبُ، ثم ابن الابن، لكن بدأ بالابن أولًا.

وعلى كل حال: فالفرقُ بين الترتيب الواقعيِّ والترتيب الذِّكريِّ: أنه إذا كان الثاني سابقًا على الأول فهو ترتيبٌ ذِكْرِيٌّ، وإن كان الثاني مُتأخِّرًا عن الأوَّل فهو ترتيبٌ بحسب الواقع والذِّكْر أيضًا.

[١] الضميرُ في قوله: «غَيْرُهُ» يعود على مُجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا في قول الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ [فصلت:٤٧].

[٢] يعني بذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ قال: «بِعَمَلِي، أَنَا مَحْقُوقٌ بِهَذَا» أي: مُستحقٌّ له، فيُضيف هذه النِّعمة إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا كُفْرٌ بالنعمة؛ لأن الواجبَ أن يُضيف الإنسانُ النعمةَ إلى مَنْ مَنَّ بها، وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) البيت لأبي نواس، كما في «ديوانه» (ص:٤٦)، ولفظه:
«قُلْ لِـمَنْ سَادَ، ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ قَبْلَهُ، ثُمَّ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّه»

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[١].

﴿يُوزَعُونَ﴾ يُكَفُّونَ[٢].

﴿مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ قِشْرُ الكُفُرَّى هِيَ الكُمُّ، وَقَالَ غَيْرُهُ: وَيُقَالُ لِلْعِنَبِ إِذَا خَرَجَ أَيْضًا: كَافُورٌ، وَكُفُرَّى[٣].

---

[١] قوله: «أَصْعَدْنَاهُ» وقع في نسخة: «أَسْعَدْنَاهُ» وهو الصوابُ؛ لأن «أَصْعَدْنَاهُ» بمعنى: سلكناه الصُّعُدات، أي: الطرقات، وفيه نظرٌ ظاهرٌ.

والمهم أن الهُدى ينقسم إلى قسمين: هُدى الدلالة، وهُدى إرشاد، فهُدى الدلالة كائنٌ لكل إنسان، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ﴾ أي: الإنسان ﴿ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ يعني: سواء كان شاكرًا أو كَفُورًا فقد هداهُ الله السبيل، أي: هداية دلالة وبيانٍ.

وأمَّا هدايةُ التوفيق والإرشاد فهذه للمؤمنين فقط، وليست لكل إنسان، والمؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَّن في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت:١٧] قال: «دَلَلْنَاهُمْ عَلَى الخَيْرِ وَالشَّرِّ» ليفعلوا الخيرَ، ويدعوا الشرَّ، والمراد بهدايتهم في هذه الآية المراد بها: الدلالة، لكن قال: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من هداية الإرشاد: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ فهذه الهداية: هدايةُ التوفيق والإرشاد.

[٢] وقع في نسخة: «يُكَفَّوْنَ» من: كَفَّى يُكَفِّي، ويُكَفُّون من: كَفَّ يَكُفُّ، وإذا قلنا: المعنى: يُحْبَس كانت نسخة: «يُكَفُّونَ» أقربَ إلى الصواب.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا

﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ القَرِيبُ[١].

= وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت:٤٧] قال المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قِشْرُ الكُفُرَّى هِيَ الكُمُّ» وهو الذي يُسَمَّى عندنا: الكافورَ، وهو كِنُّ النخل، إذا طلع القِنْو من النخلة يكون فيه هذا الغطاءُ يقيه الحَرَّ أو البَرْد حتى يكبر، ويكون قابلًا لذلك، فينفتح عنه هذا الكُفُرَّى، ثم يُجْعَل فيه اللِّقاح.

وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ المراد: أي أُنْثى تكون، سواء كانت من بني آدم، أو من غيرهم.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ وهذه من الآيات التي تدعو إلى محاسن الأخلاق، فالحسنةُ لا تُساوي السَّيِّئة، وعلى هذا فقوله: ﴿وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ «لا» زائدةٌ للتوكيد، وأصل الكلام: ولا تستوي الحسنةُ والسَّيِّئةُ، أي: لا يستويان.

وقيل: إن «لا» تأسيسيَّة، والمعنى: ولا تستوي الحسنات بعضُها مع بعض، ولا السيئات بعضُها مع بعض، ويكون نَفْيُ استواء الحسنة والسيئة من بابٍ أَوْلَى؛ لأنه إذا لم تستوِ الحسناتُ بعضُها مع بعض مع كونها كلِّها حسناتٍ، فكذلك السيئة مع الحسنة.

ثم قال الله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فإذا كانت الحسنةُ هي الحُسْنى فادفع بها، وهذا قد يُؤَيِّد أنَّ «لا» تأسيسيَّة، وأن المعنى: أن الحسنات لا تتساوى، وكذلك السيئات.

﴿مِن مَّحِيصٍ﴾ حَاصَ: حَادَ[١].

﴿مِرْيَةٍ﴾ وَمُرْيَةٍ وَاحِدٌ، أَيِ: امْتِرَاءٌ[٢].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ الوَعِيدُ[٣].

= وقوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ «إذا» هنا فُجائيَّةٌ، يعني: لا يُفاجئك إلا هذا الأمرُ، أي: أنه يأتيك بسرعة، وتنقلب هذه العداوةُ إلى ولاية ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: قريبٌ صديقٌ بالغٌ في الصداقة والولاية.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: علموا وأيقنوا أنه لا محيدَ لهم عن العذاب، ولكن ذلك لا ينفعهم؛ لأن الأمرَ قد تمَّ وانتهى.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ [فصلت:٥٤] أي: في شكٍّ وتردُّد لم يجزموا، وهذا دليلٌ على أنه يجب الإيمان -وهو الجزم الذي لا شَكَّ معه- بأن الإنسان سيُلاقي الله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، وقال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ**»(١) فهذا أمرٌ يجب أن يتيقَّنه الإنسانُ، وأن يستعدَّ له، فإن تردَّد في ذلك -بأن قال مثلًا: هل سأُلاقي الله، أو لا أُلاقيه؟- فهو كافرٌ، وإن أنْكَر فهو أكفرُ، والواجب الإيمان بأنك ستُلاقي ربَّك عَزَّوَجَلَّ.

[٣] يريد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

---

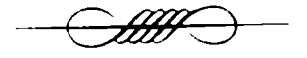
(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، رقم (٦٥٣٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٦/ ٦٧).

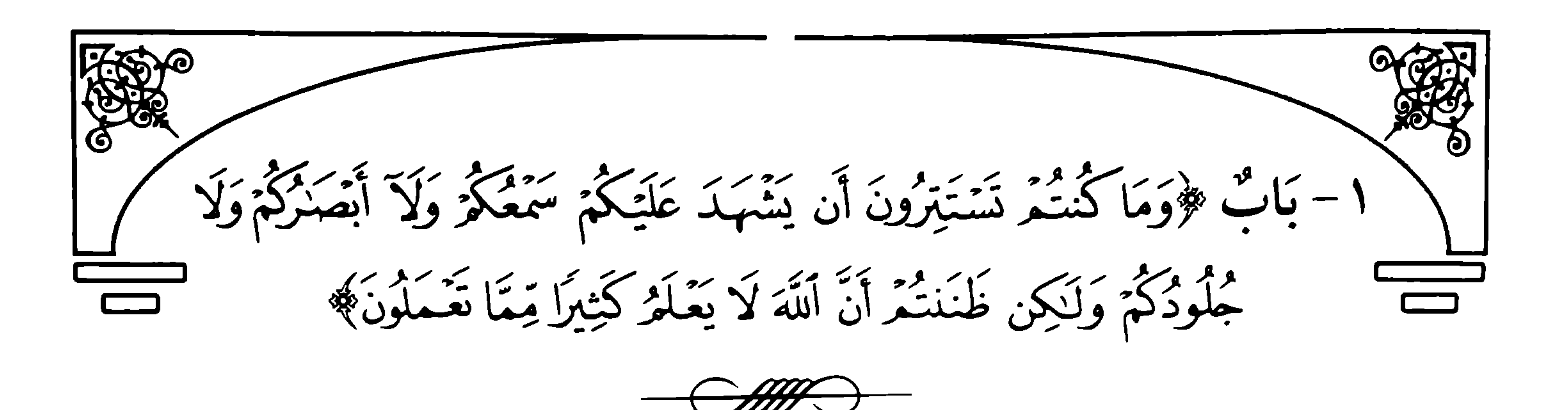
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الصَّبْرُ عِنْدَ الغَضَبِ، وَالعَفْوُ عِنْدَ الإِسَاءَةِ، فَإِذَا فَعَلُوهُ عَصَمَهُمُ اللهُ، وَخَضَعَ لَهُمْ عَدُوُّهُمْ ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

= للوعيد والتهديد، وهو كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] فهو تهديدٌ من الله عَزَّوَجَلَّ للإنسان، وليس من باب الإباحة والتخيير؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أمَرَنا بالإيمان به، وطاعته، واجتناب معصيته.

[١] هذا تفسير للدفع بالتي هي أحسن، وأخذه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الآية التي بعدها؛ لأنه قال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ومع هذا فإننا نقول: الآية أعمُّ ممَّا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهي تكون بالصبر، ورُبَّما أيضًا بالإحسان كالهديَّة والتلطُّف به، وما أشبه ذلك، ولكلِّ مقامٍ مقالٌ، فقد يكون التي هي أحسن الصبر والمصابرة من غير أن تُهْدِي إليه شيئًا؛ حتى لا يظنَّ أنك بمقام الذليل الضعيف، وقد تكون المهاداة أَوْلَى وأحسنَ.

والمهم: أن العاقل يتبع هذا الإرشاد: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فأحسنُ ما ترى أن يكون مُزيلًا لهذه العداوة والإساءة فاتبعه.





١- بَابٌ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

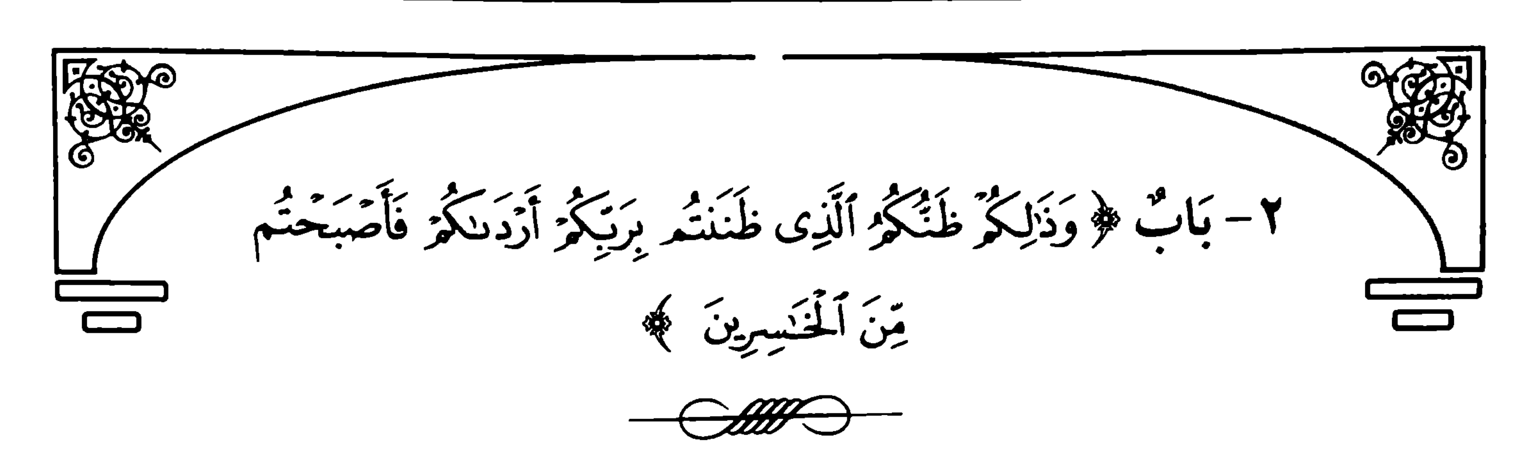
٤٨١٦- حَدَّثَنَا الصَّلْتُ بْنُ مُحَمَّدٍ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، عَنْ رَوْحِ بْنِ القَاسِمِ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾ الْآيَةَ، قَالَ: كَانَ رَجُلَانِ مِنْ قُرَيْشٍ وَخَتَنٌ لَهُمَا مِنْ ثَقِيفَ، أَوْ رَجُلَانِ مِنْ ثَقِيفَ وَخَتَنٌ لَهُمَا مِنْ قُرَيْشٍ فِي بَيْتٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَتُرَوْنَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ حَدِيثَنَا؟ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَسْمَعُ بَعْضَهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَئِنْ كَانَ يَسْمَعُ بَعْضَهُ لَقَدْ يَسْمَعُ كُلَّهُ، فَأُنْزِلَتْ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾ الْآيَةَ[١].

---

[١] كان هؤلاء يستترون عن الناس يظنُّون أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يعلم ما يعملون إذا كانوا مستترين، ولم يكونوا يفعلون ذلك؛ لئلا يشهد عليهم سمعُهم وأبصارُهم وجلودُهم؛ لأن هذا أمرٌ لم يكن يطرأُ لهم على بال، ولا يظنُّون به إطلاقًا.

ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وما كان يدور في فلك خيالهم أنه ستشهد عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يعملون، قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.





٢- بَابٌ ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾

٤٨١٧- حَدَّثَنَا الْحُمَيْدِيُّ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنَا مَنْصُورٌ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ، أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ، كَثِيرَةٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ، قَلِيلَةٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتُرَوْنَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ قَالَ الْآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا، وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا، وَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ الْآيَةَ.

وَكَانَ سُفْيَانُ يُحَدِّثُنَا بِهَذَا، فَيَقُولُ: حَدَّثَنَا مَنْصُورٌ أَوِ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ أَوْ حُمَيْدٌ أَحَدُهُمْ أَوِ اثْنَانِ مِنْهُمْ، ثُمَّ ثَبَتَ عَلَى مَنْصُورٍ، وَتَرَكَ ذَلِكَ مِرَارًا غَيْرَ وَاحِدَةٍ.

حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ: حَدَّثَنَا يَحْيَى: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْصُورٌ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بِنَحْوِهِ[١].

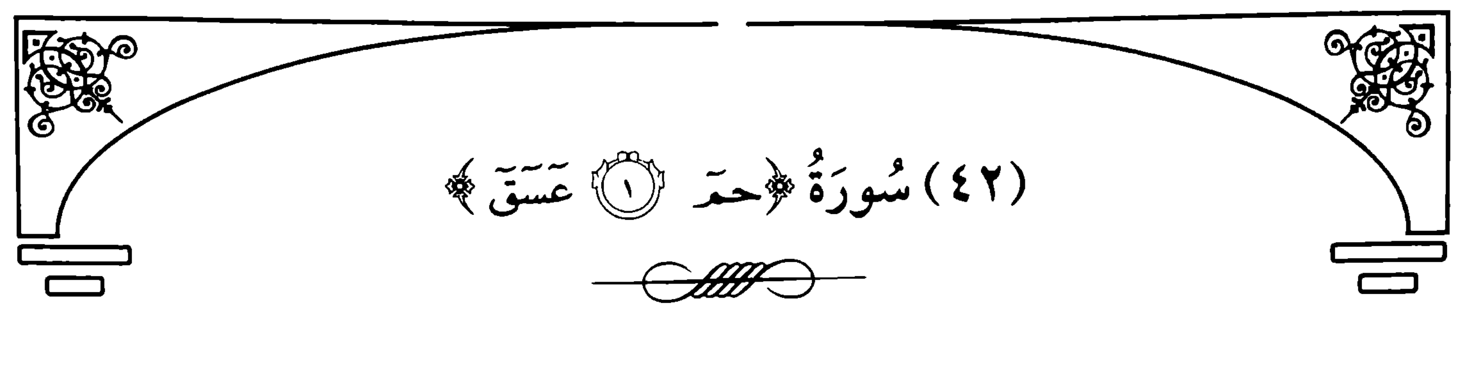
---

[١] قوله: «أَتُرَوْنَ» أي: تظنُّون.

والحاصلُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ يعلم كلَّ شيء، خفيًّا كان أو جهرًا، وأن الناس سوف تشهد عليهم يوم القيامة ألسنتُهم وأيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يعملون، ولا يَخْفَى من أعمالهم شيءٌ.

= وقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَثِيرَةٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ، قَلِيلَةٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ» غرضُهُ بهذا: ذمُّهم، كأنَّ هؤلاء ليس لهم هَمٌّ إلا أن يأكلوا ويملؤوا بطونَهُم، وأمَّا القلوب فهم في غفلة عنها، لا يهتمُّون بفِقْهِ قلوبهم، ولا العلم، ولا العمل الصالح.





وَيُذْكَرُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿عَقِيمًا﴾ الَّتِي لَا تَلِدُ[١].

[١] قوله: «وَيُذْكَرُ» هذه صيغةُ تمريضٍ، والبخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا ذكر الشيءَ بصيغة التمريض فمعنى هذا: أنه ضعيف عنده، بخلاف ما إذا ذكره جازمًا به، فهو عنده صحيحٌ.

وقوله في: ﴿عَقِيمًا﴾ قال: «لَا تَلِدُ» هذا المعنى صحيح؛ فإن العقيم مَن لا يلد، ولا يُولَد له، وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أن الناس ينقسمون إلى أقسام، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ فجعلهم أربعة أصناف.

وقال المستغربون: في هذه الآية دليلٌ على أن النِّساء يُقدَّمن على الرجال؛ لأن الله قال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ ولكن ردَّ الله عليه في الآية التي بعدها، فقال: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ فهم عند الاجتماع لَمَّا صار يُزَوِّجهم -أي: يجعلهم صنفين، بأن يُولَد للإنسان ذَكَرٌ وأُنْثى- قدَّم الذُّكورَ.

وإنما قدَّم الإناثَ هناك؛ لأن الإناث مكروهةٌ عند المخاطبين، فقدَّمها؛ ليُبيِّنَ أن إرادته عَزَّوَجَلَّ فوق إرادتهم، وما يُريده عَزَّوَجَلَّ فهو فوق ما يُريدونَهُ.

ثم حطَّ من قَدْرِهِنَّ بعضَ الشيء؛ حيثُ أتى بهنَّ على سبيل النكرة، وأتى

﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ القُرْآنُ[١].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ نَسْلٌ بَعْدَ نَسْلٍ[٢].

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لا خُصُومَةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ[٣].

= بالذكور على سبيل التعريف الدالِّ على الرِّفعة، أي: الذكور المعروفون الذين يُفْتَخر بهم، والذين هم محبوبون عندهم.

وعليه فقد سُدَّ البابُ على هذا المستغرب، وقيل له: إن الذُّكور مُقَدَّمون على الإناث، ولكننا نُوافقه على إقراره على نفسه، ونقول: إن الأُنْثى مُقَدَّمة عليك، أمَّا على غيرك من بني آدم فليست مُقَدَّمةً.

[١] وجه تسميته رُوحًا: أن به حياةَ القلب، فإن في القرآن الكريم حياةَ القلوب، فهو رُوحٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى:١١] والذَّرْأُ في الأصل: البثُّ، أي: يبثُّكم، ويكون ذلك نسلًا بعد نسل.

[٣] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمعنى: لا خُصومة؛ لأن الفصل عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو يُجازي كل واحد منَّا بما عمل.

أمَّا الخصومة فإنها تنقطع؛ لأن الخصومة إنما تكون بين خصمَيْن في الدنيا يتخاصمان عند الحاكم، أمَّا في الآخِرَة فإنَّ الله تعالى يقضي بالحق، ويُبيِّن الحقَّ، فيفصل بين المسلمين وبين الكافرين.

﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ذَلِيلٍ[١].

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ يَتَحَرَّكْنَ، وَلَا يَجْرِينَ فِي البَحْرِ[٢].

---

[١] يعني قول الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥] أي: أنهم لذُلِّهم وصغارهم لا يستطيع الإنسانُ منهم أن يرفع جفن عينيه، بل ينظر ويُسارق النظرَ، وهكذا الذليلُ عند مَن يخافه ويُعَظِّمه تجده لا يتجاسرُ أن يرفع جفنه عن عينه؛ لأنه ذليلٌ، فهم يُعْرَضون على النار يوم القيامة خاشعين، لا خشوع عبادة لكن خشوع صَغار وذُلٍّ؛ ولهذا بيَّنَ ذلك بقوله: ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ فاللهم أعِذْنَا منهم.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي: من آياته الدالَّة على قُدْرته ورحمته عَزَّوَجَلَّ الجواري -وهي السُّفُن- في البحر كالأعلام، أي: كالجبال، قال الله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي: تتحرَّك بالأمواج، لكنها لا تسيرُ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ فجعل لهذه الجواري ثلاثَ حالات:

الأُولى: حالة الجريان بهدوءٍ واطمئنانٍ حتى تصلَ إلى مَرْسَاها.

الثانية: حالة الركود إذا سكنت الريحُ، فإن السُّفُنَ الشراعيَّة لا تستطيع أن تمشيَ؛ لأنها تمشي على الريح.

الثالثة: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ أي: يُغْرِقهن حتى تهلك السفينةُ ومَن فيها ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾.

وهكذا نقول في السُّفُن الموجودة الآن، وإن كانت أقْوَى من السُّفُن السابقة، لكن

﴿شَرَعُواْ﴾ ابْتَدَعُوا[١].

= لو شاء الله عَزَّوَجَلَّ لأَوْبقها وأَهْلَكَها، ولعطَّل مُحرِّكاتها، ورُبَّما يتسرَّب الوقودُ منها، وتبقى واقفةً.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١] وهذه الآية الكريمة أصلٌ عظيمٌ في أن الأصلَ في العبادات الحظرُ إلا ما شُرِع؛ ولهذا قال: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: ما أَذِنَ الله بمنعه، ولو قال: ما أَذِنَ الله بمنعه لقلنا: إن المسكوت عنه يجوزُ أن يُشَرَّع، لكن قال: ﴿مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ فدلَّ على أنَّ مَنْ شَرَعَ ما أَذِنَ الله تعالى بمنعه أو شَرَعَ ما لم يأذن اللهُ بشرعه؛ فإنه مُبْتَدِعٌ، ومُتَّخِذٌ مع الله شركاءَ، وهو حرامٌ عليه أيضًا.

ولو قال لنا: ائتوا بدليل يدلُّ على المنع!

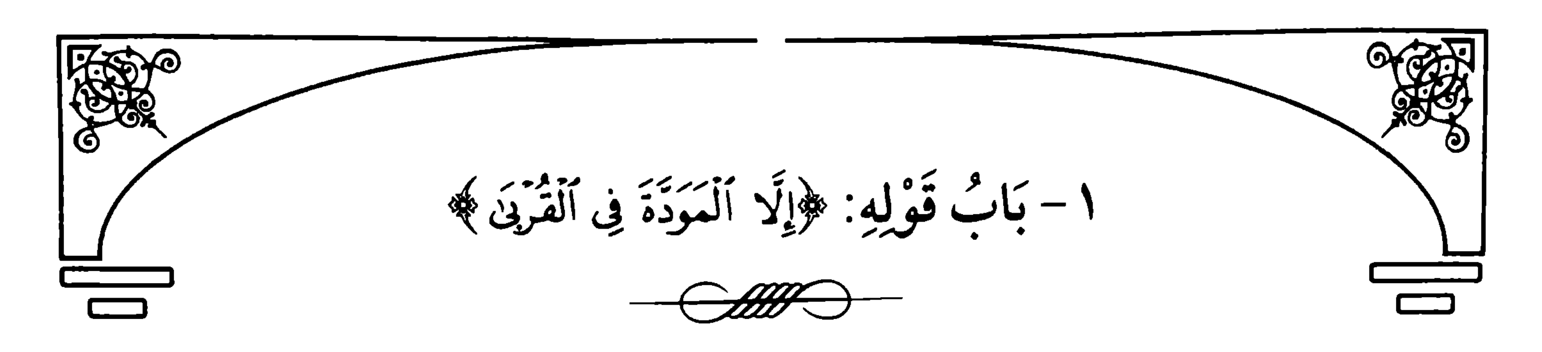
قلنا: ائتِ أنت بدليل يدلُّ على المشروعيَّة، وإلا فإنه أنكر على هؤلاء، قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ فالأقسامُ إذن ثلاثة.

وفي هذا: دليلٌ على أن مَن تعصَّب لشخص، واتَّخذ رأيَهُ الطريق الموصل إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ دون غيرِهِ ممَّا دل عليه الحقُّ؛ فهو داخلٌ في هذه الآية، وأنه قد اتَّخذ شركاءَ يشرعون لهم من الدِّين ما لم يأذَنْ به الله.

فإن قلت: إن هذا المُقلَّد رجلٌ صالحٌ عالِم، وسلك هذا المنهج بناءً على أن هذا هو الحقُّ!

= **قلنا**: يكون المُقَلَّد المتبوع معذورًا، ولكن هذا المُقَلِّد الذي عَلِمَ الحقَّ وتبيَّن له خطأُ مُقَلَّده ليس بمعذورٍ، فيجب عليه أن يتَّبع الحقَّ، فإن أصرَّ على مُوافقة المتبوع مع ظُهور الحقِّ له فهو داخلٌ في هذه الآية.





١ - بَابُ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾

٤٨١٨ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَيْسَرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ طَاوُسًا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قُرْبَى آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَجِلْتَ! إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ، فَقَالَ: إِلَّا أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ القَرَابَةِ[١].

---

[١] قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الاستثناء هنا منقطعٌ؛ لأن الله تعالى قال في عدَّة آيات: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس:٧٢] ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦] إلى غير ذلك، وحينئذٍ يكون الاستثناء منقطعًا، والمعنى: لكنَّ المودَّةَ في القربى هذا أمرٌ أطالبكم به، أي: بما تقتضيه هذه القرابةُ، فإن العادة أن القريب يودُّ قريبَهُ، ويُدافع عنه، فيكون معنى الآية: أنا لا أسألكم عليه أجرًا، ولكن أسألُكم ما تقتضيه القرابةُ بيني وبينكم.

وقال بعض العلماء: إن قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلا أن تودُّوا قرابتي، يعني: وإن لم تودُّوني، فلا أسألكم إلا أن تودُّوا حمزةَ والعباسَ وعليًّا وما أشبه ذلك، هذا الذي أسألكم، ولكن هذا ليس بصواب، وقد رُوِيَ في ذلك حديثٌ فيه رافضي(١)،

---

(١) هو: حسين بن الحسن الأشقر، والحديث أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (١١٤١)، والطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٤٧) (٢٦٤١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

....

= فهو حديثٌ ساقطٌ ومرفوضٌ؛ لأن هذا يُقَوِّي بدعته؛ إذ إن الروافضَ يحرصون غاية الحِرْص على الغلوِّ في آل البيت.

والصواب: ما دلَّ عليه أثرُ ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أنني لا أسألكم عليه أجرًا، ولكن القرابة التي بيني وبينكم أُطالبكم بمقتضاها، وهي المودَّةُ، وكما قال ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فإن النبيَّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ما من بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابةٌ، إمَّا من جهة الأُم، أو من جهة الأب، وأحيانًا يكون لا من هذا ولا من هذا، ولكن من جهة المصاهرة؛ ولهذا كان من جملة الغايات التي أَكْثَر النبيُّ ﷺ لها من الزواج هو أن يكون له صلةٌ بأُناس وقبائلَ عدَّةٍ.

فإن قال قائلٌ: كيف نجمع بين هذه الآية وبين قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؟

فالجواب أن نقول: إن الاستثناء منقطعٌ، وحينئذٍ لا يكون هناك عمومٌ ولا خصوصٌ؛ لأن كونهم يودُّنه لقرابته ليس أجرًا، ولا يُنافي نَفْيَ الأجر؛ لأن هذا أمرٌ واجبٌ، سواء كان الرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أو غيره، فإن قريبك من حقِّه عليك تبادلُ المودَّة بينك وبينه.

ثم إن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا من قرابة الرسولِ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ومع ذلك ما رضيَ أن يُجْعَل المعنى: إلا أن تودُّوا قرابتي، وهذا دليلٌ على أنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أمانَتُه كاملةٌ، وإلا لفرح أن تُفَسَّر بالأول، أي: إلا أن تودُّوا قرابتي؛ لأنه منهم.

والقول الثالث: أن قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يعني: إلا أن تُحِبُّوا التقرُّب إلى

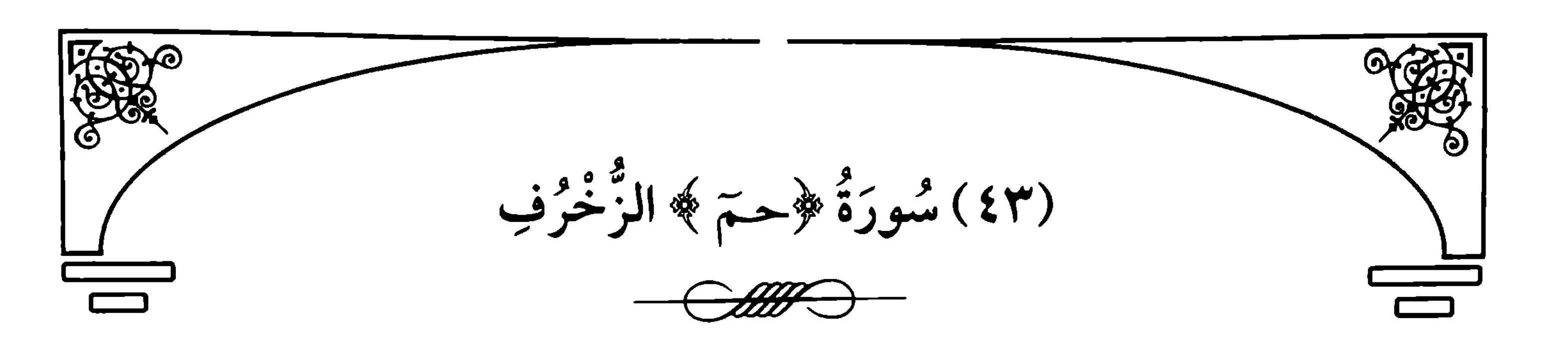
....

= الله عَزَّوَجَلَّ، فالقُرْبَى هي القُرْبى إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهي طاعتُهُ، فكأنه يقول: لا أسألكم شيئًا يعود نفْعُه إليَّ، ولكن يعود نفْعُه إليكم، وهي أنْ تودُّوا القُرْبَى، أي: التقرُّبَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، لكن هذا بعيدٌ.

وأقرب ما يكون: ما فسَّرها به ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لا أسألكم عليه أجرًا إلا أن تودُّوني لقرابتي منكم، فـ: «في» هنا للسببيَّة، أي: بسبب قرابتي، كما في قوله ﷺ: «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ»[1].



(١) أخرجه بهذا اللفظ: البخاري: كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق، رقم (٣٣١٨) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله، رقم (٢٦١٩/ ٢٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



(٤٣) سُورَةُ ﴿حمٓ﴾ الزُّخْرُفِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ عَلَى إِمَامٍ[١].

(وَقِيلَهُ يَا رَبِّ) تَفْسِيرُهُ: أَيَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، وَلَا نَسْمَعُ قِيلَهُمْ؟[٢]

---

[١] قول الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ قال: «عَلَى إِمَامٍ» وهذا أحدُ الأقوال في الآية، والقول الثاني: ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: على مِلَّةٍ.

و«أُمَّة» تأتي لعِدَّة معانٍ:

الأول: بمعنى: مِلَّة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢] أي: ملَّتكم.

الثاني: بمعنى: زمن، كما في قوله: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥].

الثالث: بمعنى: إمام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل:١٢٠] أي: إمامًا.

الرابع: بمعنى: طائفة، قال الله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص:٢٣] أي: طائفةً.

[٢] قوله: (وَقِيلَهُ) هذا على قراءة الفتح(١) فتكون مفعولًا لفِعل محذوفٍ،

---

(١) قرأ عاصم وحمزة بالجر، وقرأ الباقون (نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي) بالنصب، يُنْظَر: التبصرة في القراءات السبع، (ص:٦٧٢).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لَوْلَا أَنْ جَعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ كُفَّارًا لَجَعَلْتُ لِبُيُوتِ الكُفَّارِ ﴿سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ مِنْ فِضَّةٍ -وَهِيَ دَرَجٌ- وَسُرُرَ فِضَّةٍ[١].

= والتقديرُ: ونسمع قِيلَهُ؛ لأنه قال قبلها بآيات: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ إلى أن قال: (وَقِيلَهُ) يعني: ونسمع قيلَهُ، فنحن نسمع سرَّهم ونجواهم، ونسمع قِيلَه: ﴿يَٰرَبِّ﴾.

الوجه الثاني: أنه مصدرٌ لفعلٍ محذوفٍ، والتقدير: وقال قِيلَهُ.

وأمَّا على الجرِّ فذكروا فيها أوجهًا:

الوجه الأول: أنها معطوفة على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف:٨٥] أي: وعند الله علمُ الساعة وقيلِه، يعني: وعلمُ قِيلِه: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ لكن هنا وقعت جُمَلٌ حالت بين المعطوف والمعطوف عليه.

وذهب بعض النحويين إلى أن الواو هنا للقسم، أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ أقسم بقيل الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لِمَا فيه من التضرُّع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والالْتِجاء إليه، والافتقار والشكوى، فكان جديرًا أن يُقْسَم به.

وهذا من حيثُ المعنى فيه شيء من البُعْد، لكن من حيثُ اللفظُ، وأننا نَسْلَم من بُعْدِ المعطوف عن المعطوف عليه، يكون أقربَ إلى أساليب اللغة العربية.

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني: على الكُفْر، والمعنى: لولا هذا لنعَّمنا الكفَّار غاية التنعيم ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ هذا بدلُ اشتمالٍ مِنْ «مَنْ» في: ﴿لِمَن﴾ بإعادة العامل، والأصل: جعلنا لبيوتهم

﴿مُقْرِنِينَ﴾ مُطِيقِينَ[١].

﴿ءَاسَفُونَا﴾ أَسْخَطُونَا[٢].

= ﴿سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي: سلالمَ ودَرَجًا من فضة ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾ أي: زخارفَ من النقوش والألوان التي تبهج الناظرين.

لكن هذا يُخْشَى منه أن يكون الناس كلُّهم على الكُفْر؛ لأن طبيعة البشر المَيْلُ إلى التَّرَف والتنعُّم، فيكفرون.

وهذا إشارةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ إلى أن الدنيا ليست عند الله بشيء، ولو كانت عند الله شيئًا ما منحها الكافرَ، كما قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لَوْ سَاوَتِ الدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ لَمْ يَسْقِ مِنْهَا الرَّبُّ ذَا الكُفْرَانِ

لَكِنَّهَا وَاللهِ أَحْقَرُ عِنْدَهُ مِنْ ذَا الجَنَاحِ القَاصِرِ الطَّيَرَانِ(١)

وهذا هو معنى الآية الكريمة.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مطيقين، فلولا أن الله سخَّر لنا هذا الجَمَل الكبيرَ لكان لا يُطاق؛ ولهذا نجدُ الذئابَ والكلابَ والسِّباعَ أصغرَ من الجَمَل في الجسم، ولكنَّها غير مُسَخَّرة لنا، فهي قد تأكُلنا وتُؤذينا أذيَّةً عظيمةً.

[٢] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥] قال

---

(١) القصيدة النونية، البيت رقم (٤٩٥٣) وما بعده.

﴿يَعۡشُ﴾ يَعْمَى[1].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ﴾ أَيْ: تُكَذِّبُونَ بِالقُرْآنِ، ثُمَّ لَا تُعَاقَبُونَ عَلَيْهِ؟![2]

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ.

﴿مُقۡرِنِينَ﴾ يَعْنِي: الإِبِلَ وَالخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالحَمِيرَ[3].

= مُجاهدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَسْخَطُونَا» وفي هذا ردٌّ واضح على أهل التحريف الذين يقولون: إنَّ الغضب بمعنى الانتقام، ووجهُ ذلك: أن الله تعالى جعل الانتقام مشروطًا للغضب، والشرطُ غير المشروط، ولو كان الشرط هو المشروط لم يكن له فائدةٌ، ولكان المعنى: فلما انتقمنا منهم انتقمنا منهم، وهذا ليس بسليم.

[١] «يَعْشُ» مضارع «عَشَى» ومعنى الآية: مَن يتعامى عنه، ولا يلتفت إليه، ولا يراه شيئًا يُقَيِّضِ الله له في الدنيا شيطانًا، فيُقارنه، ويأمره بالسُّوءِ والفحشاءِ.

[٢] هذه الكلمة تُقال بمعنى: أني أعرضت عنه، ووَلَّيْتُهُ صَفْحَة عُنُقي، يعني: أتظنُّون أنكم تستمرُّون على الإجرام، ونسكت عنكم بلا عُقوبةٍ؟!

والجواب: لا، بل لابُدَّ أن نُعاقبكم، لكن الله عَزَّوَجَلَّ حليمٌ، يُمهل ولا يُهمل ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [فاطر:٤٥].

[٣] لم يُفسِّر المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا كلمة ﴿مُقۡرِنِينَ﴾ وقد فسَّرها بالأول بأن المعنى: مُطيقين، لكنه فسَّر الأنعام ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ﴾ وهذه الأنعام هي: الإبِلُ، والخيلُ، والبغالُ، والحميرُ.

(يَنْشَأُ[(١)] فِي الحِلْيَةِ) الجَوَارِي، جَعَلْتُمُوهُنَّ لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا، فَكَيْفَ تَحْكُمُونَ؟[١]

﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ يَعْنُونَ الأَوْثَانَ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أَيِ: الأَوْثَانُ، إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[٢].

---

[١] قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وهذا المثل الذي ضربه للرحمن: أنه جعل لله بناتٍ، فقال: الملائكة بنات الله، مع أن هذا الرجل إذا بُشِّر بالأُنْثى التي ضرَبها مَثَلًا للرحمن ظلَّ وجهه مُسْودًّا وهو كظيم، أي: اسودَّ وجهه، وامتلأ غيظًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي: يُرَبَّى في الحِلْية من الذهب والفضَّة واللؤلؤ وما أشبه ذلك، ولا يجمل إلا بالتجمُّل ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ فهو ناقصٌ في ذاته، وفي مَنْطقه، حتى في الخصام لا يُبين ولا يُفصح.

لكن أين القسيم لهذا: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾؟

الجواب: كمَن هو أكملُ من هذا؟! يعني: هل تكون الأُنثى كالولَد؟!

والجواب: لا، فإذن: لماذا جعلتُم الأُنْثى للرحمن، وجعلتُم الولدَ لكم؟! فأنتم تغضبون من نسبة البنت إليكم، وتجعلونها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

[٢] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ قال الله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ قال المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المراد بـ: ﴿مَّا لَهُم﴾ أي:

---

(١) قرأ بفتح الياء وسكون النون وتخفيف الشين نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة، وقرأ حفص وحمزة والكسائي بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين، يُنْظَر: التبصرة في القراءات السبع، (ص:٦٦٩).

....

= الأوثان، فهي لا تعلم بعبادتهم؛ لأنها جمادٌ، ولا تُحِسُّ، ومَن لا يعلم بعبادتهم ولا يحسُّ لا يُمكن أن ينفعُهم، وهذا ما ذهب إليه المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ويحتمل أن معنى قوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ يعني: ليس لهم علمٌ بمشيئة الله قبل أن يعبدوها، وليس لهم حُجَّة في ذلك عند الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه الكلمة كلمة حقٍّ، لكن أُريد بها باطلٌ، أرادوا بها الاحتجاج بالقدَر على الاستمرار في عبادتها، وعلى مُدافعة قول مَن أمَرهم بالتوحيد، فإذا أُمروا بالتوحيد قالوا: هذا ما شاء الله، ولو شاء الله ما عبدناهم، وعلى هذا فهم جبريَّةٌ.

وكلامُهم هذا صحيحٌ لو أرادوا به المعنى الصحيح، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام:١٠٧]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٣] لكن لو أنهم احتجُّوا بقدَر الله على ما فعلوا وأنابوا إلى الله لصحَّ احتجاجهم، وقُبِلَ منهم؛ ولهذا قَبِلَ النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من عليٍّ بن أبي طالب وفاطمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا حين أتى عليهما وهما نائمان، فعَتَب عليهما عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقال عليُّ بن أبي طالب: يا رسولَ الله! إن أنفسنا بيد الله، ولو شاء لأيْقَظنا، فخرج النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم يضرب على فَخِذِهِ، ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[1] ولم يُبطل حُجَّته؛ لأنه احتجَّ بأمر لا يُمكنه أنْ يتخلَّص منه، وهو النوم، فإن النائم لا حرَج عليه ولا لوْمَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾، رقم (٧٤٦٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الحث على صلاة الليل، رقم (٧٧٥/ ٢٠٦).

....

= وكذلك على أحد الوجهيْنِ احتجاجُ آدم على موسى عليهما الصَّلاة والسَّلام، فإن آدم لَمَّا قال له موسى: خيَّبتنا! أَخْرَجْتَنا من الجنة! لأن سبب إخراجنا من الجنة هو آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين عصَى وأكل من الشجرة، فقال له آدم: أتلومني على شيء كتبه الله عليَّ قبل أن أُخْلَق بكذا وكذا عامًا، قال النبيُّ ﷺ: «**فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**»[1] أي: غلبَهُ في الحُجَّة، فهنا احتجَّ على أمرٍ كان قد تخلَّص منه بالتوبة، وما أراد أن يحتجَّ بالقدَر على دفع اللَّوْم عنه، ولكن أراد أن يحتجَّ بالقدَر؛ لأنه تخلَّص ممَّا وقع منه وتابَ، وليس كقول المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]؛ لأن هؤلاء يُريدون الاستمرارَ على ما هم عليه، وهذا على أحد الوجهين في هذا الحديث.

والوجه الثاني: أن آدمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ احتجَّ بقدَر الله على المُصيبة التي حصلت له، لا على العَيْب الذي فعله، فيكون من باب الاحتجاج بالقدَر على المصائب، لا على المعايب؛ لأن آدم احتجَّ على هذه المصيبة العظيمة بأنَّها من قدَر الله، كأنه يقول: لو كنتُ أعلمُ أنها تُصيبني ما فعلتُ، لكنْ هذا أمرٌ مكتوبٌ عليَّ أن تُصيبني، بدليل: أن آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إنما تجاوَزَ وعصى؛ لأن إبليس وَسْوَسَ له ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢١] أي: أقسم لهما إقسامًا عظيمًا؛ ولهذا جاء بصيغة المُفاعلة: «قَاسَمَ» فظنَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه إذا أكل منها بَقِيَ في الجنة؛ لأنه قال له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:١٢٠] فأكَلَ، وما ظنَّ أن الأمرَ سيكون على خلاف ما أراد، فابْتُلِيَ بهذه المُصيبة، فاحتجَّ بالقدَر على المصيبة، وهذا اختيارُ شيخ الإسلام

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، رقم (٦٦١٤)، ومسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، رقم (٢٦٥٢/ ١٣).

﴿فِى عَقِبِهِۦ﴾ وَلَدِهِ[١].

= ابن تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]، وقال: إنه من المستحيل أنَّ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يلومُ أباه على ذنبٍ كان قد تاب منه، وهداهُ الله تعالى بعد ذلك، واجتباهُ.

والمهم: أن هؤلاء الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ قالوا كلمة حقٍّ، لكن أرادوا بها باطلًا.

فإن احتجَّ علينا العاصي بالقدَر أوسَعْنا ظهرَهُ ضَرْبًا، فإذا قال: لماذا؟ قلنا: هذا قدَرُ الله.

ويُذْكَر أن عُمَر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما جيءَ إليه بسارق، وأمَرَ بقطع يده، قال: يا أميرَ المؤمنين! مَهْلًا، واللهِ ما سرقتُ إلا بقدَر الله، قال: ونحنُ لا نقطعك إلا بقدَر الله[٢].

ونقول له أيضًا: إن الله عَزَّ وَجَلَّ لم يُجبرك على هذا الفعل، بل أعطاك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عقلًا، وأرسل إليك الرُّسُل، وأنزل عليك الكُتُب، وأقام عليك الحُجَّة.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي: جعل هذه الكلمة العظيمة باقيةً في عقبه، أي: أنه يلزم عَقِبَ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يقولوا بها، ولا يُمكن أن تُنْسَخَ، بل ستبقى في عَقِبِهِ إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ﴾ التنكيرُ هنا للتعظيم، وسمَّاها كلمةً مع أنها جملة؛ لأن الكلمة في كلام الله ورسوله ﷺ وفي اللغة العربية الفُصْحى تعني الجُملةَ.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٨٥٧).

(٢) لم أجده، وذكره ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «منهاج السنة» (٣/ ٢٣٤)، وينظر: ميزان الاعتدال للذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ترجمة: حيان بن عبد الله الدارمي (٢/ ٤٠٠).

....

= وقول الله تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ معلومٌ أنه إذا تبرَّأ ممَّا يعبدونه فقد تبرَّأ منهم لعبادتهم له، وهذا دليلٌ على وجوب البراء من كل معبودٍ سوى الله، ووجوبِ البراء من كل عابدٍ لغير الله ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا﴾ أي: ظهر ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤] وهذه كلماتٌ عظيمةٌ قويَّة بليغةٌ، فماذا تُرى فيمَن يلتزم الكافرَ، ويُقبِّله، ورُبَّما يسجدُ له، أو يدَّعي أنه معبودُهُ، هل يكون هذا من ذُرِّيَّة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في المعنى؟

الجواب: لا، هذا ليس من عَقِب إبراهيم في المعنى؛ لأن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يتبرَّأ من كلِّ معبودٍ من دون الله، ويتبرَّأ من كل عابدٍ لغير الله، وأيُّ إنسان يقع في قلبه مودَّةُ عدوٍّ لله فإنه سينقص من محبة الله في قلبه بقدْرِ ما حلَّ في قلبه من محبَّة عدوِّ الله.

وهذا شيءٌ مُشاهَدٌ معلومٌ بالحسِّ، فلا يُمكن أن تُوجَد -على سبيل الكمال- محبَّةٌ لله ومحبَّةٌ لعدُوِّه أبدًا، بل إذا حلَّت في القلب محبَّةُ عدُوٍّ لله فقد نقص من محبَّة الله بقَدْر ما حلَّ، فإن غلب الحبُّ على حبِّ الله وصار في تلك الساعة قد امتلأ قلبُهُ من محبَّة عدوِّ الله فإنَّهُ يستحقُّ قولَ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ۝١٦٥ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ يعني: ليت لنا كـرَّةً، فنعود إلى الدنـيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ وهذا أمـرٌ لا يُمكن، قـال

﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ يَمْشُونَ مَعًا[١].

= الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٧] وانظر الولاءَ والبراءَ كيف ينزل من القلب هذه المنزلة!

ونحن -في عصرنا هذا- ماتت الغيْرَة من قلوب بعضنا، وصرنا نرى أعداء الله يمشون بين أيدينا وكأنهم من أولياء الله، لا يُفَرِّق الإنسانُ بين رجلٍ عن يمينه مؤمنٍ بالله، ورجلٍ عن يساره كافرٍ مُلحد، ولو فتَّشت عن قلبه لرُبَّما تجده بعضَ الأحيان يُفَضِّل ذلك المُلْحِدَ الكافرَ على هذا المسلم؛ لأنه -كما يدَّعي- أعرفُ منه في العمل، وأكثرُ منه في الإنتاج، وأحذقُ منه في الألعاب، وما أشبه ذلك، وهذا هو الذي يُريده منَّا أعداؤنا من اليهود والنصارى؛ فإن اليهود بدلًا من أن يحتلُّوا بلادنا بالقوة العسكرية احتلُّوها بالقُوَى الفكرِيَّة الفاسدة، والمناهج السافلة، حتى أفسدوا كثيرًا من شباب المسلمين.

وعلى كل حال نقول: إن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جعل هذه الكلمة العظيمة كلمةً باقيةً في عقبه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يرجعون إليها؛ حتى يتبرَّؤوا من كلِّ معبودٍ من دون الله، ومن كل عابدٍ لغير الله.

[١] يعني بهذا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الرسولِ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم ﴿أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يعني: هلَّا حصل هذا الشيء؛ حتى نُؤْمِنَ به، فنقول: إنه قد جاءكم بأعظم من هذا، ولكن ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧] وهؤلاء الذين يقترحون الآيات لا تظنَّ أنهم يقفون عند

﴿سَلَفًا﴾ قَوْمُ فِرْعَوْنَ سَلَفًا لِكُفَّارِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَمَثَلًا﴾ عِبْرَةً[١].

﴿يَصِدُّونَ﴾ يَضِجُّونَ[٢].

﴿مُبْرِمُونَ﴾ مُجْمِعُونَ[٣].

= حدٍّ، حتى لو أُوتوا الآيةَ التي اقترحوها قالوا: نُريد أُخرى، وهكذا، كما قال الله تعالى في سورة الحِجْر: ﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ يعني: لو جاءتهم الآياتُ وشاهدوها قالوا: واللهِ هذا سِحْرٌ، وسُكِّرت أبصارُنا، ولم نرَ الأمرَ على حقيقته، وسُحِرْنا.

وهكذا الذي يكْفُر بالرُّسل، ويطلبُ الآيات نقول: لا يُمكنه؛ لأنه ليست الآيةُ الأُولى التي كذَّب بها بأدنى من الثانية، ثم إذا أُعطوا الثانيةَ قالوا: نُريد غير هذه، كما قال عَزَّوَجَلَّ في سورة الإسراء: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء:٩٣].

[١] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ فـ: ﴿سَلَفًا﴾ أي: مُقدَّمًا ﴿وَمَثَلًا﴾ أي: عِبْرةً ﴿لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ يعتبرون به، فمَن كفر فسيهلك كما هلك هؤلاء.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي: يضجُّون مُستنكرينَ، وهذه الكلمة غير «يَصُدُّون» بالضَّمِّ.

[٣] يعني في قول الله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ والإبرام مثل الكَيْدِ، إذا كانوا قد مكروا وكادوا فنحن أعظم منهم فيما يرمون إليه.

﴿أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ أَوَّلُ المُؤْمِنِينَ[١].

وَقَالَ غَـيْرُهُ: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ العَرَبُ تَقُـولُ: نَحْنُ مِنْكَ البَرَاءُ وَالخَلَاءُ، وَالوَاحِدُ وَالاِثْنَانِ وَالجَمِيعُ مِنَ المُذَكَّـرِ وَالمُؤَنَّثِ يُقَالُ فِيهِ: بَرَاءٌ؛ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ، وَلَوْ قَالَ: بَرِيءٌ لَقِيلَ فِي الاِثْنَيْنِ: بَرِيئَانِ، وَفِي الجَمِيعِ: بَرِيئُونَ.

وَقَرَأَ عَبْدُ اللهِ: (إِنَّنِي بَرِيءٌ) بِاليَاءِ[٢].

---

[١] يعني قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ وهذه الآية من أشكلِ الآيات؛ لأن ظاهرها أنه إن كان للرحمن ولدٌ فالرسول أول مَن يعبدُهُ، يعني: فأنا أول العابدين لهذا الولد؛ وذلك أن هؤلاء يعبدون عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُدَّعين أنه ولدُ الله، فيقول: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾.

وهذا من باب التنزُّل مع الخصم، ولا يدلُّ ذلك على وُقوعه؛ لأن المفروضَ ليس كالواقع، وهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥] والرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لن يُشرِك.

وعلى هذا فمعنى الآية: لو كان للرحمن ولدٌ فأنا أُوافق وأُقِرُّ وأعبدُ هذا الولدَ، ولكنَّ الأمرَ بالعكس، فليس للرحمـن ولدٌ، ولمَّا لم يكن له ولدٌ فأنا أول الكافرين بما زعمتم من أنَّ له ولدًا.

وهل تفسير البخاريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية بقوله: «أَوَّلُ المُؤْمِنِينَ» هل له وجه؟

الجواب: لعلَّ هذا من باب الملزوم؛ لأن العبادة تنبني على الإيمان.

[٢] يُريد بعبد الله: عبدَ الله بنَ مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

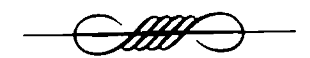
وَالزُّخْرُفُ: الذَّهَبُ.

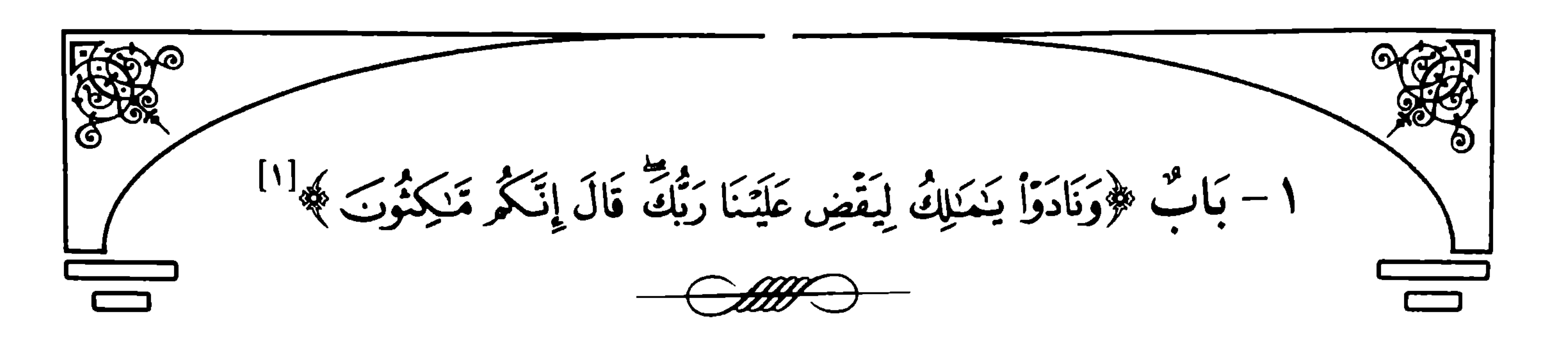
مَلَائِكَةً يَخْلُفُونَ: يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا[١].

---

[١] يعني بذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي: يخلفونكم، هذا هو الصواب، وليس المعنى: يخلف بعضُهم بعضًا؛ لأن «مِن» هنا بدليَّة، فمعنى: ﴿مِنكُم﴾ أي: بدلكم.

ولكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قدَّر أن تكون الخليفة هي بني آدم حتى يموتوا، وتنتهي الدنيا.





١- بَابُ ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[1]

[١] الضمير في قوله: ﴿وَنَادَوْا﴾ يعود على أهل النار، قالوا: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ وهو خازنُ النار ﴿لِيَقْضِ﴾ اللام لام الدعاء، فهم يسألون الله عَزَّوَجَلَّ أن يقضيَ عليهم فيموتوا، ويستريحوا من عذاب النار، ولكنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦] قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩] ما قالوا: يَدَعُنا بلا عذابٍ يومًا واحدًا، ولكن قالوا: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا﴾ ولو يومًا واحدًا ﴿قَالُوا﴾ مُوبِّخين ومُقرِّعين ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ وذلك لأن جَعْلَ أعداء الرسل في النار وفي هذا العذاب الأليم نصرٌ لهم.

فلهذا أَعْقَب دعاء هؤلاء الكفار بقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ أي: باقون في نار جهنم، لا تُخْرَجون منها، ولا تموتون ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ فأكثرهم كارهون للحقِّ، وبعضهم مُقلِّدٌ، يقول: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

٤٨١٩- حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَعْلَى، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ عَلَى الْمِنْبَرِ: ﴿وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[١].

وَقَالَ قَتَادَةُ: (مَثَلًا لِلْآخِرِينَ) عِظَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿مُقْرِنِينَ﴾ ضَابِطِينَ، يُقَالُ: فُلَانٌ مُقْرِنٌ لِفُلَانٍ: ضَابِطٌ لَهُ[١].

وَالأَكْوَابُ: الأَبَارِيقُ الَّتِي لَا خَرَاطِيمَ لَهَا[٢].

﴿أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ أَيْ: مَا كَانَ فَأَنَا أَوَّلُ الْآنِفِينَ، وَهُمَا لُغَتَانِ: رَجُلٌ عَابِدٌ وَعَبِدٌ.

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ وهذا بمعنى قول بعضهم: «مُقْرِنين: مطيقين» فلولا أن الله سخَّر لنا هذا وذلَّله ما أَطَقْناه؛ لأن مَن رأى كِبَر جسم البعير وكون الصبيِّ الصغير يقوده ويُنيخه ويُثيره عَرَفَ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي سخَّر لهم هذا.

[٢] قال الله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ والأكوابُ جمع كوبٍ، قال: «وَالأَكْوَابُ: الأَبَارِيقُ الَّتِي لَا خَرَاطِيمَ لَهَا» فكأنها كأسٌ لها عروة.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَإِنَّهَا -يعني: الذهب والفضة- لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَنَا فِي الْآخِرَةِ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأطعمة، باب الأكل في إناء مفضض، رقم (٥٤٢٦)، ومسلم: كتاب اللباس، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة، رقم (٢٠٦٧/ ٤).

وَقَرَأَ عَبْدُ اللهِ: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ).

وَيُقَالُ: ﴿أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ الجَاحِدِينَ، مِنْ: عَبِدَ يَعْبَدُ[١].

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ جُمْلَةِ الكِتَابِ، أَصْلِ الكِتَابِ[٢].

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١] وهذا ردٌّ على مَن قالوا: إن لله ولدًا، سواء قالوا: إن الملائكة بناتُ الله، أو عُزَير ابن الله، أو المسيح ابن الله، و«إِنْ» هنا لا تقتضي الوقوع.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ قال: «الجَاحِدِينَ» أي: الجاحدين لهذا الولد المُنْكِرين له، ولكن هذا فيه شيء من النظرٌ.

والقول الثاني في المسألة: أن المعنى: إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لله وإن كان له ولدٌ، يعني: أن كونه له ولدٌ لا يمنعني من أن أعبده وحده على فرْضِ ذلك، ولكنه ليس له ولد، وهذا هو أحسنُ ما يُقال فيها، كأنه يقول: حتى لو كان له ولدٌ فلماذا لا تعبدونه أنتم؟! فالواجب أن تعبدوه وحْدَهُ وإن كان له ولدٌ.

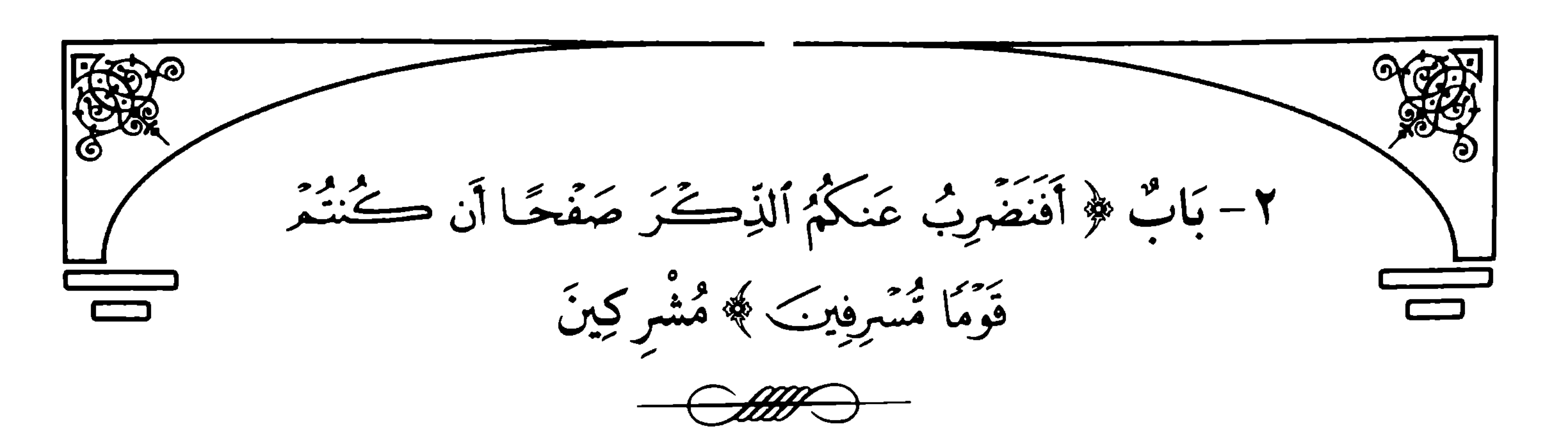
والقول الثالث: إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لهذا الولد، ولكن ليس له ولدٌ، فلا أعبد سواه؛ لأن النصارى يعبدون المسيح ابن مريم، ويقولون: إنه ولدُ الله، وإن الله ثالثُ ثلاثة.

[٢] يعني قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني: القرآن ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ فهل المراد: أن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، أو المراد: ذكره ووقت نزوله وشأنه وما يترتَّب عليه؟

= نقول: يحتمل أن المعنى: أن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، ويحتمل أنَّ ذِكْرَهُ، وما يكون فيه، وما ينتج عنه، وأنه سينزل قرآنٌ على محمد خاتم الرسل، وسينتج عنه كيت وكيت، وما أشبه ذلك، أن هذا هو الذي في اللوح المحفوظ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦] فإن الذي في كتب الأولين ليس القرآن هذا، ولكنْ ذِكْرُهُ والإخبارُ عنه والتنويه به.

وكذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٧-٧٩] فهل المراد: نفس القرآن، أو ذِكْرُهُ؟ فيه احتمالٌ؛ لأنه -فيما يظهر لنا- أن الله عَزَّوَجَلَّ تكلَّم به حين نزوله.





٢- بَابُ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ مُشْرِكِينَ

وَاللهِ لَوْ أَنَّ هَذَا القُرْآنَ رُفِعَ حَيْثُ رَدَّهُ أَوَائِلُ هَذِهِ الأُمَّةِ لَهَلَكُوا[١].

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عُقُوبَةُ الأَوَّلِينَ.

﴿جُزْءًا﴾ عِدْلًا.

---

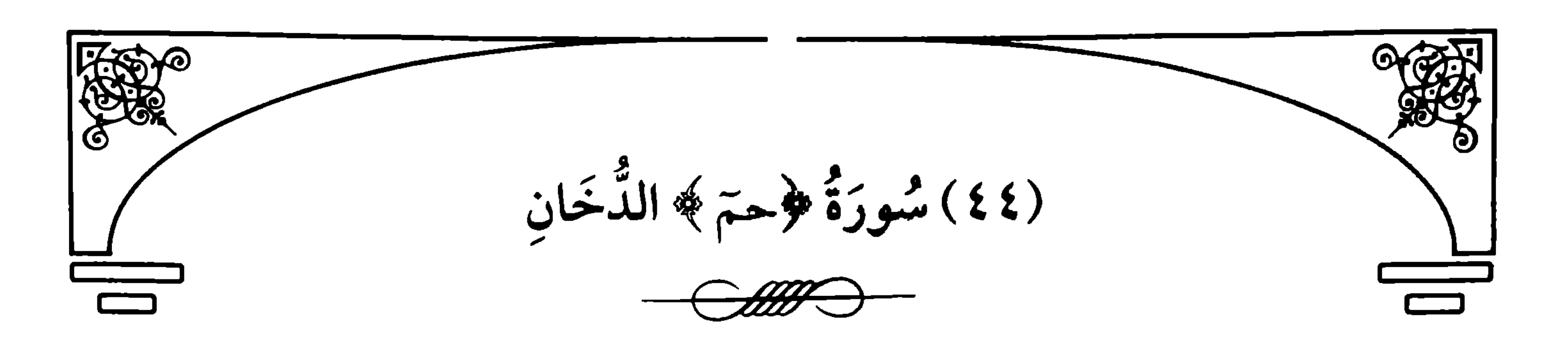
[١] يعني: أن القرآن لَمَّا كذَّبه هؤلاء لو أنَّ الله رفعه لهلكوا؛ ولهذا في آخِرِ الزمان إذا أعرض الناس عن القرآن، وهجروه تلاوةً وعملًا، رُفِعَ، فإن من أشراط الساعة: أن يُرْفَع القرآنُ من الصدور ومن المصاحف إذا هُجِرَ(١)، نسألُ اللهَ العافيةَ؛ لأنه ما بقي لوجـوده في الأرض فائدةٌ، كـما أن بيتَ الله عَزَّوَجَلَّ إذا هُجِرَ، ولم يُعَـظَّم، وانتُهِكَت حُرُماته، فإنه يُسَلَّط عليه ذو السُّويقتيْنِ رجلٌ من الحبشة، ويأتي يهدمه حَجَرًا حَجَرًا(٢).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ يعنـي: ونُعرض عن موعظتكم، ونترككم لإسرافكم؟ يعنـي: هذا أمرٌ لا يكون، بل نحن سنبَـيِّن لكم، ونضرب لكم الأمثالَ، ولو كنتم على هذه الحال إنذارًا وإعذارًا.

---

(١) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة (١/ ٣٤٥)، والمستغفري في فضائل القرآن (١/ ٢٨٩) (٢٨٥)، من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب هدم الكعبة، رقم (١٥٩٥، ١٥٩٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



(٤٤) سُورَةُ ﴿حمٓ﴾ الدُّخَانِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿رَهْوًا﴾ طَرِيقًا يَابِسًا، وَيُقَالُ: ﴿رَهْوًا﴾ سَاكِنًا[١].

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عَلَى مَنْ بَيْنَ ظَهْرَيْهِ[٢].

﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ ادْفَعُوهُ[٣].

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ قال: «سَاكِنًا» و«يَابِسًا» أي: يجمع بين الأمرين.

[٢] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على العالمين الذين بين أيديهم، وليس على كلِّ العالم إلى يوم القيامة؛ فإن هذه الأُمَّة أفضلُ من بني إسرائيل بلا شَكٍّ، ولو أخذنا بعموم كلمة ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لكان يقتضي أن بني إسرائيل أفضلُ من هذه الأُمَّة، فنقول: ليس المراد: العالمين كلَّهم، وإنما المراد: على العالمين الذين في زمانهم، والآيةُ واضحةٌ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠].

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: ادفعوه بشدَّة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: إلى أصلها وقعرها، والعياذُ بالله، ولا شَكَّ أن هذا إهانةٌ وإذلالٌ لهم، كما استكبروا عن الحقِّ في الدنيا أُهينوا بالعذاب في الآخرة.

﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ أَنْكَحْنَاهُمْ حُورًا عِينًا، يَحَارُ فِيهَا الطَّرْفُ[١].

وَيُقَالُ: ﴿أَن تَرۡجُمُونِ﴾ القَتْلُ[٢].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾ أَسْوَدُ كَمُهْلِ الزَّيْتِ[٣].

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿تُبَّعٖ﴾ مُلُوكُ اليَمَنِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُسَمَّى: تُبَّعًا؛ لِأَنَّهُ يَتْبَعُ صَاحِبَهُ، وَالظِّلُّ يُسَمَّى: تُبَّعًا؛ لِأَنَّهُ يَتْبَعُ الشَّمْسَ[٤].

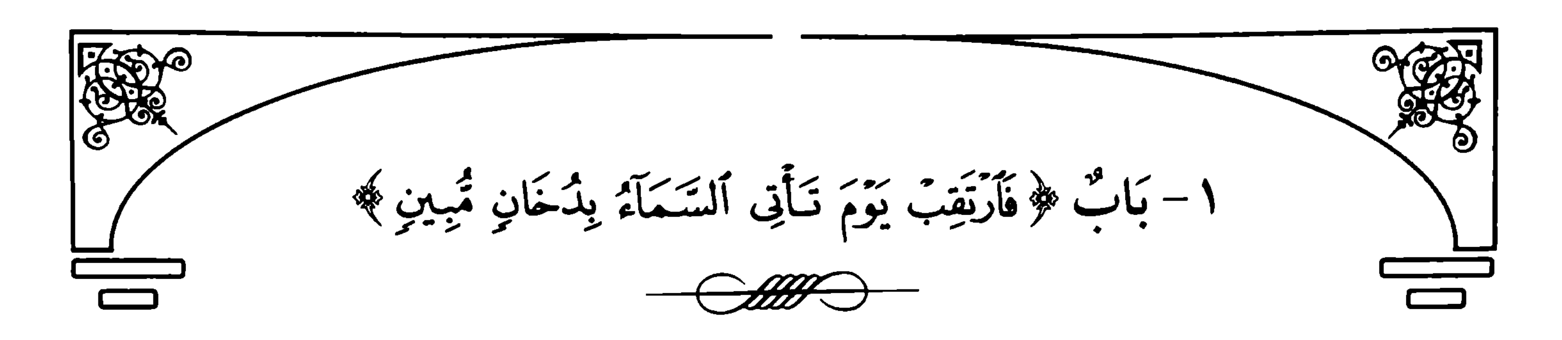
---

[١] العِين: جمع عَيْنَاء، وهي شديدةُ بياض العين، مع اشتداد سوادها وجمالها، والحَوَر: البَيَاض، فهؤلاء النساء قد جَمَعْنَ بين جمال الوجوه، وجمال الأعين، وأيضًا هي حوراءُ -كما قال المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أي: يحار فيها الطَّرْف من حسنها وجمالها.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ﴾ لأن فرعون قال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر:٢٦] قال موسى: ﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر:٢٧].

[٣] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ﴾ أي: الكافر ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ فهي في البطون تكون كالمُهْل؛ لأنهم إذا طلبوا الشراب يُسْقَون هذا الحميمَ شديدَ الحرارة، يغلي كغلي الحميم، فلا ينتفعون لا بما أكلوا، ولا بما شربوا.

[٤] يعني قول الله تعالى: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾.



١- بَابٌ ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾

قَالَ قَتَادَةُ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ فَانْتَظِرْ.

٤٨٢٠- حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ مُسْلِمٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: مَضَى خَمْسٌ: الدُّخَانُ، وَالرُّومُ، وَالقَمَرُ، وَالبَطْشَةُ، وَاللِّزَامُ[١].

---

[١] قوله: «مَضَى خَمْسٌ» يعني: من أشراط الساعة.

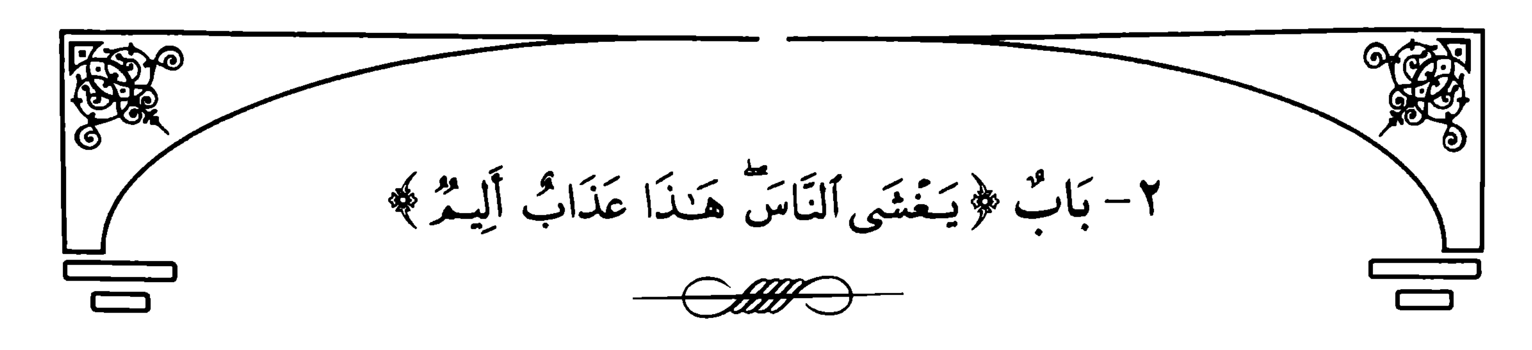
وقوله: «وَالرُّومُ» يعني في قول الله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم:٢-٣].

وقوله: «وَالقَمَرُ» يعني: انشقاق القمر.

وقوله: «وَالبَطْشَةُ» أي: البَطْشَةُ الكُبْرى التي كانت في غزوة بدر.

وقوله: «وَاللِّزَامُ» الظاهر: أنها السنوات السبع الشِّداد.





٢- بَابُ ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

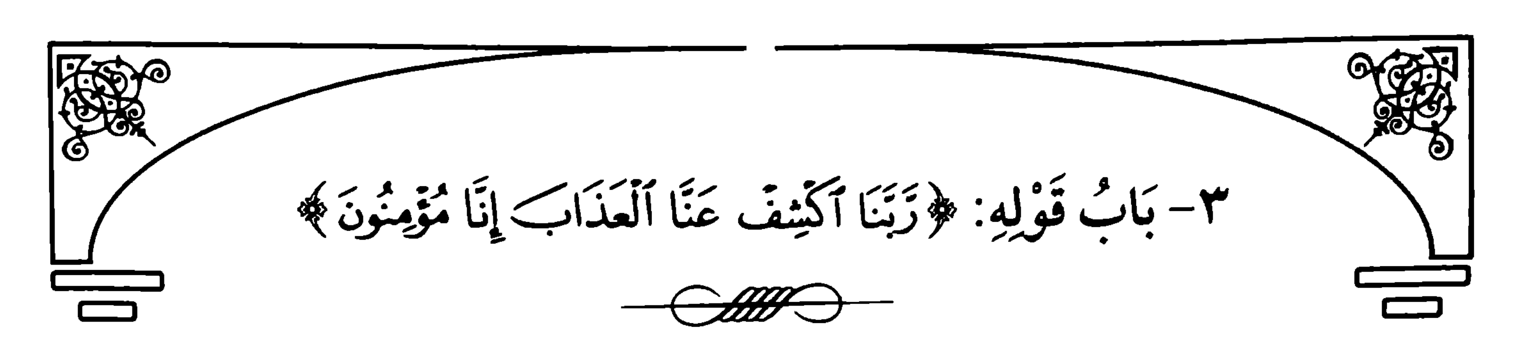
٤٨٢١- حَدَّثَنَا يَحْيَى: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ مُسْلِمٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: إِنَّمَا كَانَ هَذَا؛ لِأَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اسْتَعْصَوْا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ حَتَّى أَكَلُوا العِظَامَ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَرَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الجَهْدِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قَالَ: فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ! اسْتَسْقِ اللهَ لِمُضَرَ؛ فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ! قَالَ: «لِمُضَرَ؟! إِنَّكَ لَجَرِيءٌ» فَاسْتَسْقَى لَهُمْ، فَسُقُوا، فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ فَلَمَّا أَصَابَتْهُمُ الرَّفَاهِيَةُ عَادُوا إِلَى حَالِهِمْ حِينَ أَصَابَتْهُمُ الرَّفَاهِيَةُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ قَالَ: يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ[١].

---

[١] هذا يقتضي أن هذه السنوات كانت قبل الهجرة؛ لأنها سبعُ سنوات، وبدرٌ كانت في السَّنة الثانية من الهجرة.



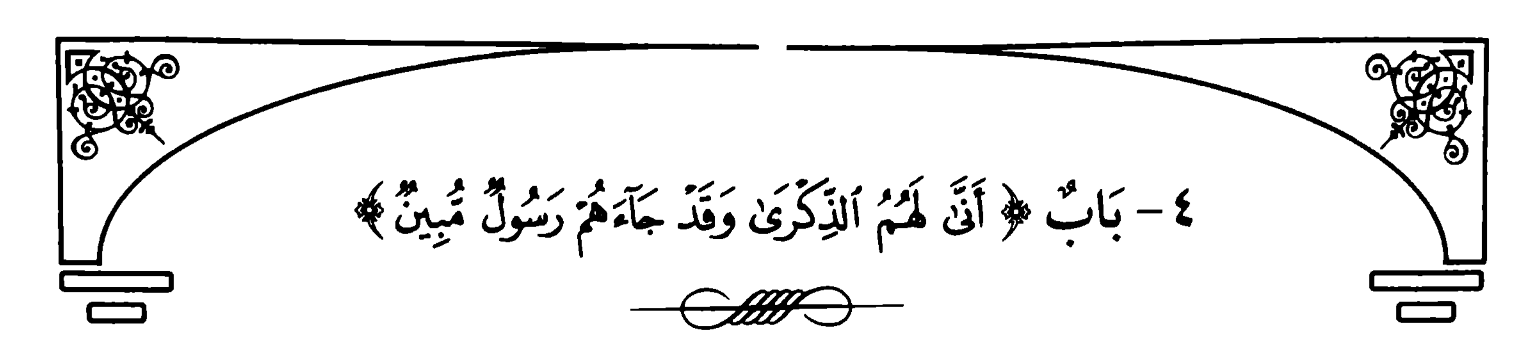


٣- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾

٤٨٢٢- حَدَّثَنَا يَحْيَى: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ اللهِ، فَقَالَ: إِنَّ مِنَ العِلْمِ أَنْ تَقُولَ لِمَا لَا تَعْلَمُ: اللهُ أَعْلَمُ، إِنَّ اللهَ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ إِنَّ قُرَيْشًا لَمَّا غَلَبُوا النَّبِيَّ ﷺ وَاسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ قَالَ: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ**» فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ أَكَلُوا فِيهَا العِظَامَ وَالمَيْتَةَ مِنَ الجَهْدِ، حَتَّى جَعَلَ أَحَدُهُمْ يَرَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الجُوعِ، قَالُوا: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ فَقِيلَ لَهُ: إِنْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَادُوا، فَدَعَا رَبَّهُ، فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَعَادُوا، فَانْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[١].

[١] هذا السياق يقتضي أنها كانت قبل يوم بدْرٍ.



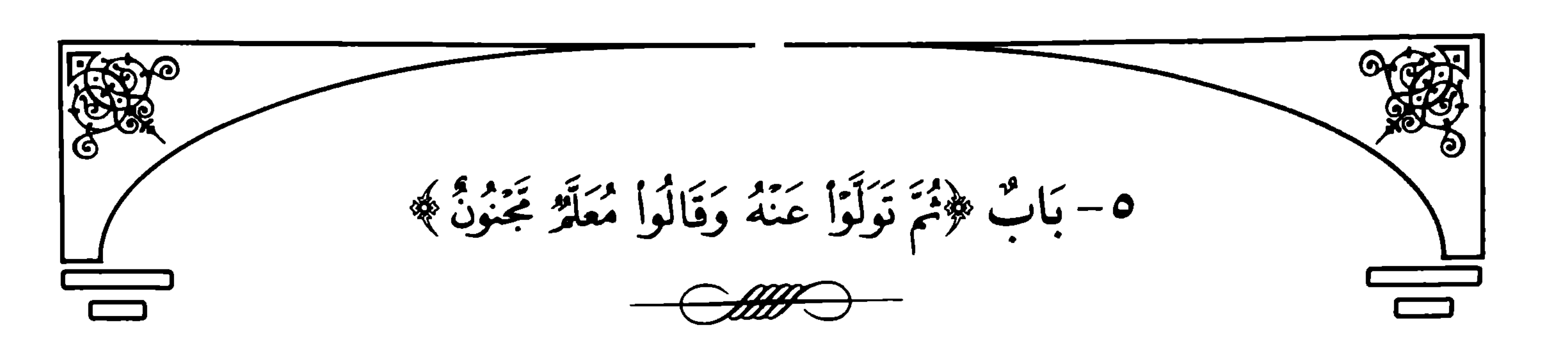


٤- بَابٌ ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾

الذِّكْرُ وَالذِّكْرَى وَاحِدٌ.

٤٨٢٣- حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ: حَدَّثَنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا دَعَا قُرَيْشًا كَذَّبُوهُ، وَاسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ**» فَأَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى كَانُوا يَأْكُلُونَ المَيْتَةَ، فَكَانَ يَقُومُ أَحَدُهُمْ، فَكَانَ يَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ مِثْلَ الدُّخَانِ مِنَ الجَهْدِ وَالجُوعِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ قَالَ عَبْدُ اللهِ: أَفَيُكْشَفُ عَنْهُمُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: وَالبَطْشَةُ الكُبْرَى يَوْمَ بَدْرٍ.





٥- بَابٌ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾

٤٨٢٤- حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ خَالِدٍ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدٌ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ وَمَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَقَالَ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا رَأَى قُرَيْشًا اسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ» فَأَخَذَتْهُمُ السَّنَةُ حَتَّى حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى أَكَلُوا العِظَامَ وَالجُلُودَ، وَقَالَ أَحَدُهُمْ: حَتَّى أَكَلُوا الجُلُودَ وَالمَيْتَةَ، وَجَعَلَ يَخْرُجُ مِنَ الأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ، فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: أَيْ مُحَمَّدُ! إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ، فَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: «تَعُودُوا بَعْدَ هَذَا».

فِي حَدِيثِ مَنْصُورٍ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ إِلَى: ﴿عَائِدُونَ﴾ أَنَكْشِفُ عَنْهُمْ عَذَابَ الآخِرَةِ؟! فَقَدْ مَضَى الدُّخَانُ، وَالبَطْشَةُ، وَاللِّزَامُ، وَقَالَ أَحَدُهُمْ: القَمَرُ، وَقَالَ الآخَرُ: وَالرُّومُ[١].

---

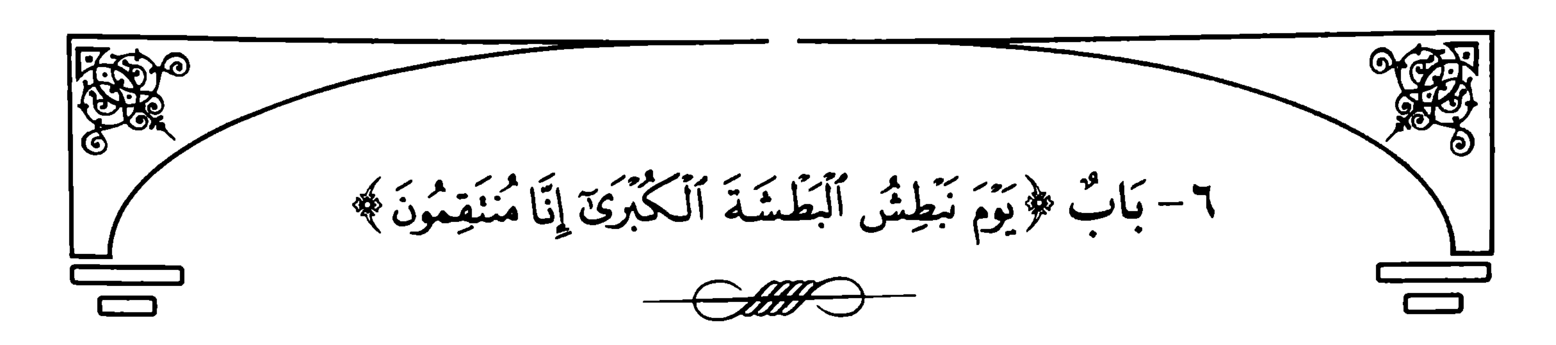
[١] قوله: «فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ» هذا يحتمل أنه أتاه بعد أن ترأّس قريشًا، وهذا يكون بعد بدرٍ، ويحتمل أن يكون أتاه قبل ذلك.

ففي هذه الأحاديث سياقٌ يقتضي أن هذه السنوات كانت قبل الهجرة، وسياقٌ يقتضي أن يكون ذلك بعد الهجرة إن كان أبو سفيان حين جاء زعيمَ قُريشٍ، على أنه قد

....

= يُقال: إن ابتداءها كان قبل الهجرة بأربع سنوات، وبدرٌ كانت في السَّنة الثانية، فقُتِلَ أبو جهل والصناديدُ، وصارت الرئاسة والقيادة لأبي سفـيان من السنة الثانية، ويأتي أبو سفيان إلى الرسولِ ﷺ في السَّنة الثالثة من الهجرة، أي: بعد بدرٍ بسنة، وبهذا يحصل الجمعُ.

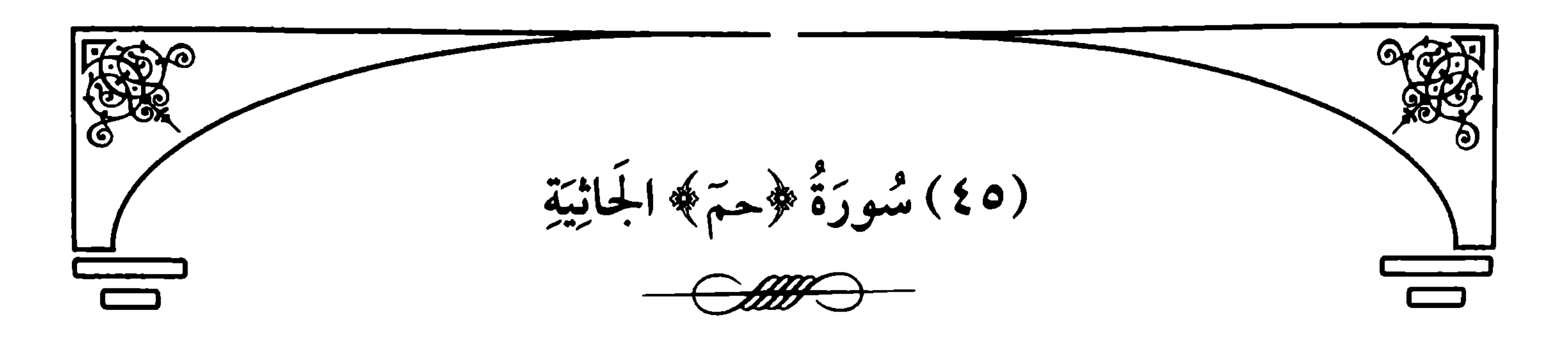




٦- بَابُ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾

٤٨٢٥ - حَدَّثَنَا يَحْيَى: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ مُسْلِمٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ: اللِّزَامُ، وَالرُّومُ، وَالبَطْشَةُ، وَالقَمَرُ، وَالدُّخَانُ.





(٤٥) سُورَةُ ﴿حمٓ﴾ الجَاثِيَةِ

مُسْتَوْفِزِينَ عَلَى الرُّكَبِ.

﴿نَسْتَنسِخُ﴾ نَكْتُبُ[١].

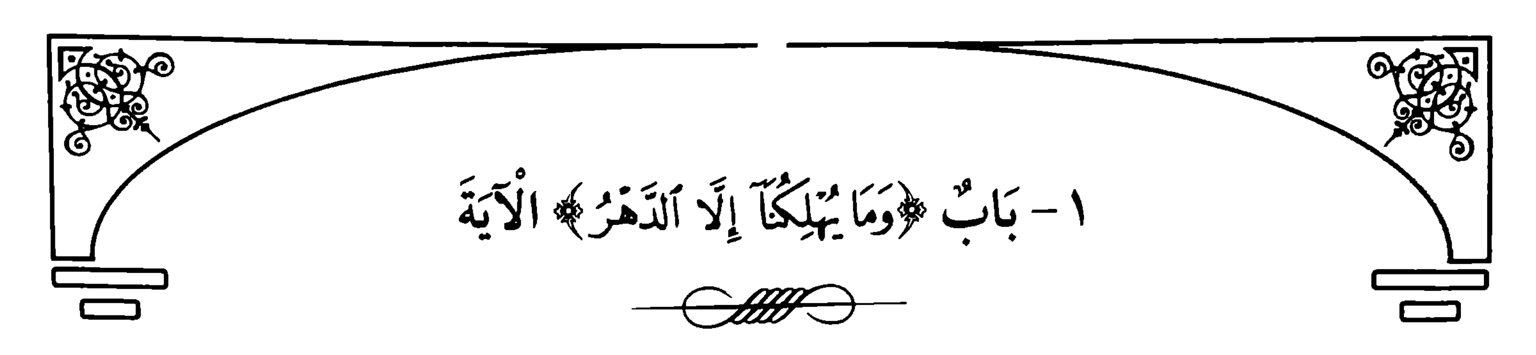
﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ نَتْرُكُكُمْ[٢].

---

[١] الذي كُتِبَ عليها بما عملت ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصِّدق المُوافِق للواقع ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نكتب، وذلك بواسطة الملائكة، وأضاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الفعل إليه؛ لأن الملائكة رُسُله، يكتبون بأمره، ومَن كان كاتبًا بأمرك فكأنَّك أنت الكاتب، وهذا من تمام عَدْلِ الله عَزَّوَجَلَّ: أن يُطلع الإنسان على عمله بما كُتِبَ عليه، كما قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية:٣٤] قال المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نَتْرُكُكُمْ» وليس المراد بالنسيان هنا: الذهول عن شيء معلوم؛ لأن ذلك في حقِّ الله ممتنعٌ، لكن النسيان هنا بمعنى الترك، وهو يأتي بمعنى: الترك، ويأتي بمعنى: الذهول عن شيء معلوم، وشواهده في القرآن مُتعدِّدة.





١ - بَابٌ ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ الْآيَةَ

٤٨٢٦- حَدَّثَنَا الْحُمَيْدِيُّ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنَا الزُّهْرِيُّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»[١].

---

[١] تقدَّم التعليق على هذا الحديث في كتاب (التوحيد) للشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ(١)، وذكرنا أن الأذيَّة لا يلزمُ منها الضرر، فلا يُنافي قوله تعالى في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**»(٢) فالله عَزَّ وَجَلَّ لا يضرُّه أحدٌ، لكن يتأذَّى ببعض فعل عباده، فهنا إذا سبَّ الإنسان الدَّهر فهو في الحقيقة قد سبَّ اللهَ، والله عَزَّ وَجَلَّ يتأذَّى أن يسبَّه أحدٌ؛ لأن سبَّ الله تعالى عُدوانٌ على حقِّ الله، وكذبٌ في حقِّ الله عَزَّ وَجَلَّ، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له المَثَل الأعلى، وهو كامل الصفات، فإذا سبَّه أحدٌ تأذَّى.

ولكن لو قال قائل: هل يتأذَّى بحقِّ ذاته، أو يتأذَّى لِمَا يكون من العقوبة على هذا السابِّ؟

نقول: يحتمل أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تأذَّى لأنه ترتَّب على أذيَّته عُقوبة على هذا السابِّ، ويحتمل أنه يتأذَّى؛ لأن سبَّه قولٌ مُتضمِّنٌ للكذب والعُدوان، والله عَزَّ وَجَلَّ لا يحبُّ الكاذبين، ولا يحبُّ المُعْتدين.

---

(١) يُنْظَر: القول المفيد على كتاب التوحيد لفضيلة شيخنا رحمه الله تعالى (٢/ ٢٤٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧/ ٥٥).

....

= وقوله تعالى: «وَأَنَا الدَّهْرُ» استدلَّ به ابن حزمٍ -رحمهُ اللهُ تعَالَى- وجماعة على أن من أسماء الله: الدهر[1] ولا حُجَّة لهم في ذلك؛ لأنه بيَّن معنى قوله: «وَأَنَا الدَّهْرُ» حيث قال: «بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» والليل والنهار هما الدَّهر، ولا يُمكن أن يكون المُقَلِّب هو المُقَلَّب، بل المُقَلِّب هو الله عَزَّوَجَلَّ، والمُقَلَّب هو الدَّهر، والذين يسبُّون الدهر لا يقصدون الله حتى يُقال: «يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ» إنما يسبُّون الزمن والوقت.

فإن قال قائل: كيف الجوابُ عن قول لوط عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود:٧٧] وقول الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَاليَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ» حين عُرِضت عليه النارُ[2]؟

فالجواب: أن هذا من باب الخبر، وليس من باب العَيْبِ والسَّبِّ، وفرقٌ بين مَن يُخْبِر، وبين مَن يَسُبُّ ويعيبُ.

وهل من سبِّ الدهر: سبُّ الليل والصباح؟

الجواب: إذا سبَّه للحوادث التي فيه أو لكونه حارًّا أو باردًا أو ما أشبه ذلك فنعم؛ لأن هذا زمنٌ مخلوقٌ، وما كان فيه من سوء أو غيره فهو من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذلك لو قال: «الله يقلع هذا اليوم» فإن الظاهر أن هذا من باب السَّبِّ.

---

(١) نقل ذلك عنه الشيخ سليمان بن عبد الله في «تيسير العزيز الحميد»، (ص:٥٣٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب من صلى وقدامه تنور، رقم (٤٣١)، وأحمد (١/ ٣٥٨)، وبمعناه مسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ، رقم (٩٠٧/ ١٧).

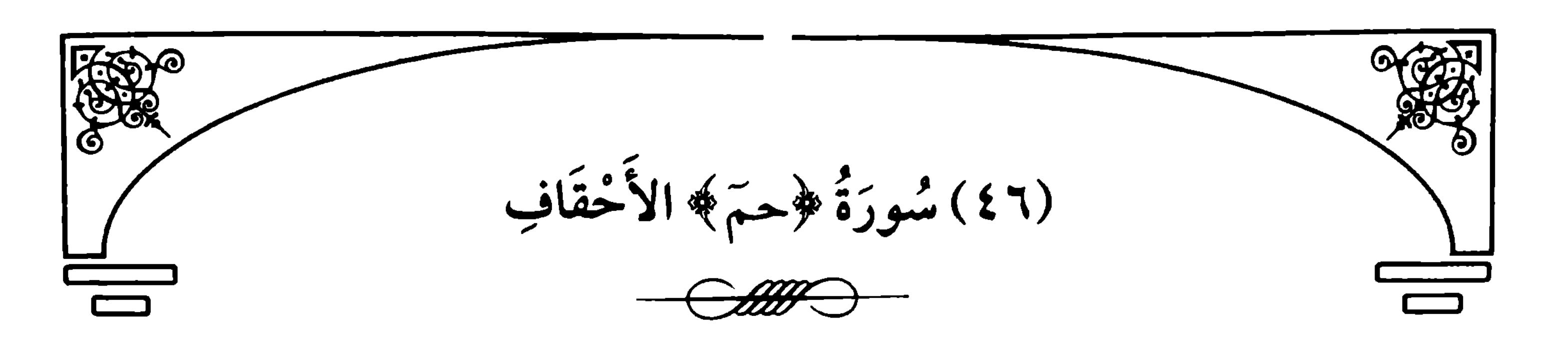
....

= فإن قال قائل: وكيف نُوَجِّه حديث: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا»[1]؟

نقول: ليس هناك تعارضٌ، والمعنى: أنها ممقوتة عند الله، والله تعالى لا يُحِبُّها، ولا يَأْبَهُ بها، إلا ما فيها ممَّا ذُكِرَ.



(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا، رقم (٢٣٢٢)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، رقم (٤١١٢).



(٤٦) سُورَةُ ﴿حمٓ﴾ الأَحْقَافِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تُفِيضُونَ﴾ تَقُولُونَ[١].

---

[١] يعني قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف:٨] فـ: ﴿تُفِيضُونَ﴾ أي: تقولونه، لكن ظاهر صيغة ﴿تُفِيضُونَ﴾ أنه القول الكثير، من: «فاض الماء يفيضُ» فالله عَزَّوَجَلَّ أعلم بما نُفيض فيه.

وكلمة ﴿أَعْلَمُ﴾ هل هي على بابها؟

الجواب: نعم، هي على بابها، وإنك لتستغرب ممَّا في (تفسير الجلالين)(١) وغيره من كتب أهل العلم الذين سَلَكُوا هذا المسلك، يُفَسِّرون كلمة ﴿أَعْلَمُ﴾ بـ: عالم، فيقولون: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ أي: هو عالمٌ، وليس هذا بصواب؛ لأن صفة «أعلم» أبلغ من صفة «عالم»؛ لأن «أعلم» تقتضي عدم المشاركة في هذا الوصف -الأعلمية، لا في أصل الصفة- و«عالِم» لا تقتضي ذلك، فإذا قلت: «زيد أفضل من عمرو» فهذا لا يقتضي أن عَمْرًا مشاركٌ له في هذه الصفة على وجه السواء.

فلهذا هم فرُّوا من شيء، ووقعوا في شيء سيِّءٍ، ولا نقول: أسوأ منه؛ لأن الأوَّل لا سُوءَ فيه، فهو عَزَّوَجَلَّ «أعلمُ» اسمُ تفضيل، أي: لا يُماثله أحدٌ في علمه، بخلاف: عالِم.

---

(١) تفسير الجلالين (ص:٧٠).

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَثَرَةٌ وَأُثْرَةٌ وَأَثَارَةٌ: بَقِيَّةٌ مِنْ عِلْمٍ[١].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ لَسْتُ بِأَوَّلِ الرُّسُلِ[٢].

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ هَذِهِ الأَلِفُ إِنَّمَا هِيَ تَوَعُّدٌ، إِنْ صَحَّ مَا تَدَّعُونَ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، وَلَيْسَ قَوْلُهُ: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ بِرُؤْيَةِ العَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ: أَتَعْلَمُونَ؟ أَبَلَغَكُمْ أَنَّ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ خَلَقُوا شَيْئًا؟[٣]

---

[١] يعني قول الله تعالى: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف:٤] أي: بقيَّة، يعني: هل عندكم كتابٌ نازلٌ غير هذا، أو عندكم بقيَّة من علم تُعارضون به ما جئتُ به؟ والأمرُ في قوله: ﴿ٱئْتُونِي﴾ للتحدِّي.

لكن هل ﴿ٱئْتُونِي﴾ تكون بالتحقيق أو بالتسهيل: إيتوني، فتجعل الهمزة ياءً؟

الجواب: إن وقفتَ على ما قبلها فهي بالتسهيل باتفاق القرَّاء، وعليه إذا قلت: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فإذا سكتَّ وقلتَ بعدها: ﴿ٱئْتُونِي﴾ فلابُدَّ من التسهيل، أمَّا إذا أدرجْتَ، وقلت: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي﴾ فهو جائزٌ.

[٢] لأن البِدْعَ في الأصل: أوَّلُ الشيء، ومنه قولهم: «البئر البدع» أي: التي بُدِعَت أخيرًا، ومنه قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١١٧] أي: خالقهما على غير مثالٍ سَبَق، أي: لم يُسْبَقا بمثل هذا الخَلْق.

وقوله: ﴿بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: لستُ بأول الرسل، فلستُ بغريب، فهناك رسلٌ قبلي، جاؤوا بالبينات والزُّبُر والكتاب المنير، فأنا مثلُهُم.

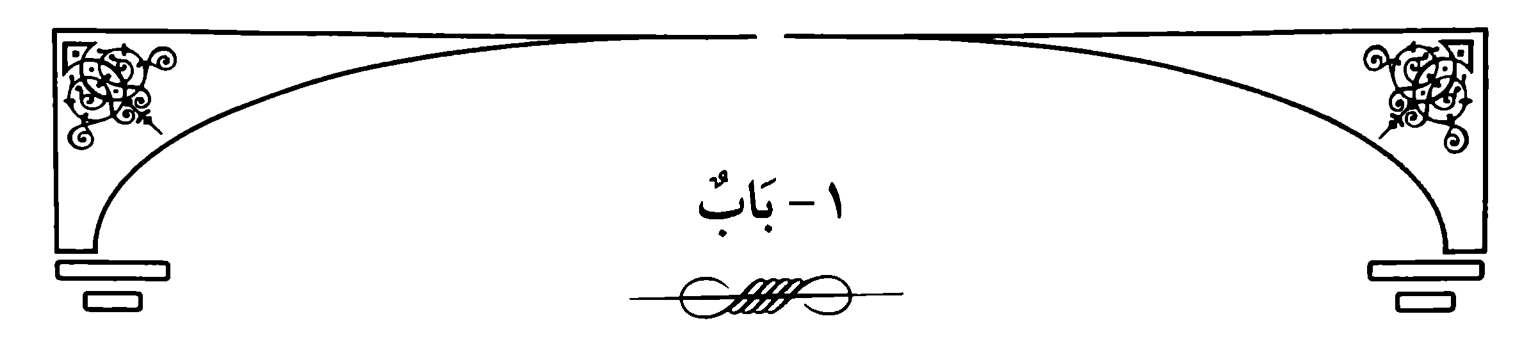
[٣] يعني قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأحقاف:٤] ومحطُّ الاستفهام محذوفٌ، أي: هل خلقوا شيئًا؟

= إن كان الأمر كما تقولون فأروني ماذا خلقوا من الأرض، فكيف بماذا خلقوا من السموات؟! لأنهم إذا عجزوا أن يُقيموا الحُجَّة على أنهم خلقوا شيئًا من الأرض فامتناع الحُجَّة على أنهم خلقوا شيئًا من السموات من بابٍ أَوْلَى، فهؤلاء ما خلقوا شيئًا من الأرض، ولا خلقوا شيئًا من السماء، فكيف تدعونهم لدفع الضَّرَّاء، أو لجلب السَّرَّاء، وهم ما خَلَقوا شيئًا؟! بل هم أنفسهم مخلوقون، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل:٢٠] فكيف تدعونهم وترجونهم لدفع الضرر، وجَلْب النفع؟!

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: بل ألهم شركٌ، وهنا لم يقل: ألهم خَلْق؟ أي: أنهم ما تُحدُّوا أن يكون لهم خَلْق في السموات، بل هل لهم شِرْكٌ في السموات؟ وإذا لم يكن لهم شِرْك لم يكن لهم خَلْق من بابٍ أَوْلَى؛ لأنه لو كان لهم خَلْقٌ لكانوا شُركاء في هذا الخَلْق.

وقول المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلَيْسَ قَوْلُهُ: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ بِرُؤْيَةِ العَيْنِ» يعني: أنها رؤية علمية، يعني: أعلمتم ما تَدْعُون من دون الله، إلى آخره.





١ - بَابٌ

﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[١].

---

[١] قوله: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ بمعنى: أتضجَّرُ منكما، وكانا يعرضان عليه الإيمان باليوم الآخِر، فيقول: ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ يعني: أنهم ماتوا وما رجعوا، فهو أيضًا مثلهم، يموت ولا يرجع، وهذا من التمويه؛ لأن الرُّسُل حين قالوا للناس: إنكم تُبْعَثون ما قالوا: إنكم تُبْعَثون الآن، فقولهم: ﴿ائْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥] هذا تعنُّت منهم، وقَلْب للحُجَّة، ودعوى في غير محلِّها؛ لأن الرُّسُل قالوا لهم: إنكم مبعوثون يوم القيامة، ولم يقولوا: إنكم تُبْعَثون الآن حتى تقولوا: أين آباؤُنا؟

وهكذا هذا الرجل لَمَّا قال لوالديه: ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ يَرُدَّان عليه بأننا لا نقول: إنك تُخْرَج الآن، وإنما تُخْرَج يوم القيامة، فيكون قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ التي جاء بها للاستدلال على امتناع البعث هذه مُعارَضةٌ بدعْوَى باطلةٍ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ أي: يسألانه الغَوْث للولد أن يهديَهُ، ثم يتوعَّدان الولدَ، فيقولان له: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ يعني: بالله، وبالبعث، وبالجزاء ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: صِدْقٌ وواقعٌ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور:٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات:٥].

٤٨٢٧- حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ، قَالَ: كَانَ مَرْوَانُ عَلَى الحِجَازِ، اسْتَعْمَلَهُ مُعَاوِيَةُ، فَخَطَبَ، فَجَعَلَ يَذْكُرُ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ؛ لِكَيْ يُبَايَعَ لَهُ بَعْدَ أَبِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ شَيْئًا، فَقَالَ: خُذُوهُ، فَدَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ، فَلَمْ يَقْدِرُوا، فَقَالَ مَرْوَانُ: إِنَّ هَذَا الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ﴾ فَقَالَتْ عَائِشَةُ مِنْ وَرَاءِ الحِجَابِ: مَا أَنْزَلَ اللهُ فِينَا شَيْئًا مِنَ القُرْآنِ إِلَّا أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ عُذْرِي[١].

ولكنه يقول: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فقد أَعْمَى الله قلبَهُ، وختَم عليه، فلم يَعِ ما جاءت به الرُّسل من الحقِّ، بل قال: هذا أساطير الأولين، أي: قصصهم التي لا حقيقةَ لها، بل هي أمورٌ باطلة، كما يُروَّع الصبيُّ، ويُقال: جاءك السَّبُع، جاءتك النارُ، جاءك كذا، جاءك كذا، وليس بحقٍّ، ولكن مَن طُبِعَ على قلبه، ورانت على قلبه الذنوبُ، فإنه لا يتبيَّن له الحقُّ، وكلما كان الإنسان أتقى لله تبيَّن له من الحق أكثرُ ممَّا تبيَّن لِمَن دونه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩] تُمَيِّزون به بين الحقِّ والباطل، وتؤمنون بالحقِّ، وتكفرون بالباطل.

[١] في هذه المسألة: خطورة التولِّي للأمراء، وأن الإنسان قد يدعو إلى أمرٍ لا يكون فيه مصلحةٌ، فهذا مروان لَمَّا أمَّره معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الحجاز صار يذكر يزيد بن معاوية بخير، ويُرَغِّب الناس فيه؛ ليُبايَع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئًا يُناقض قولَهُ ويُخالفه، فقال: خذوه ليُحْبَس أو يُعزَّر أو ما أشبه ذلك، فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه؛ احترامًا لأُمِّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ﴾ يُريد بهذا تشويهَ

....

= عبد الرحمن بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من خيار الصحابة، ومواقِفُهُ مشهورةٌ، وهو الذي قال له النبيُّ ﷺ: «اخْرُجْ بِأُخْتِكَ مِنَ الحَرَمِ، فَلْتُهِلَّ بِعُمْرَةٍ»[1].

ثم إن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت من وراء الحجاب: «مَا أَنْزَلَ اللهُ فِينَا» أي: في آلِ أبي بكر «شَيْئًا مِنَ القُرْآنِ إِلَّا أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ عُذْرِي»[2] وهذا النازلُ بعُذْرها مفخرةٌ لها، وليس سبًّا لآلِ هذا البيت، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وأمَّا قول مروان في الآية فلا يبعد أن يقع منه، وأن والديه عرَضا عليه الإسلامَ، وكان يتضجَّر من هذا العرض، لكنَّ نَفْيَ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أصحُّ، ويمنع من الاحتمال الأول قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ [الأحقاف:١٨] على أنه قد يكون الذي قال لوالديه: أُفٍّ لكما ليس واحدًا، ولكنهم جماعةٌ كثيرونَ.

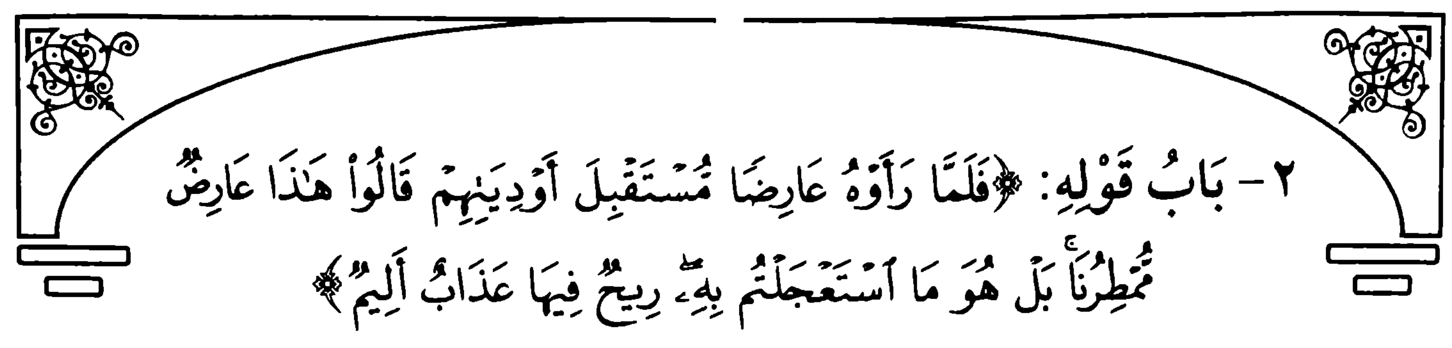
فإن قال قائل: كيف نُوَجِّه قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هذا، مع قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ [التوبة:٤٠] فإنها نزلت في أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟

نقول: هي تُريد -والله أعلم- ما أنزل الله فينا ممَّا يكون سبًّا عند الناس، فإن قضيَّة الإفْك الذين قالوا بها يُريدون سبَّ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فهي تقول: بَدَلَ أن يُنزل الله سبًّا يُوافق هؤلاء أنْزل عُذْرًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞ﴾، رقم (١٥٦٠)، ومسلم: كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، رقم (١٢١١/ ١٢٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف:١٧]، رقم (٤٨٢٧).



٢- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿عَارِضٌ﴾ السَّحَابُ[١].

٤٨٢٨- حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عِيسَى: حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ: أَخْبَرَنَا عَمْرٌو، أَنَّ أَبَا النَّضْرِ حَدَّثَهُ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ:

---

[١] ذكروا أن عادًا أُصيبوا بالجَدْب سنواتٍ عديدةً، فهلكت مواشيهم، وغارت مياهُهم، وأرسلوا جماعةً منهم إلى مكَّة يستسقون عند الكعبة، فلما رأوا هذه الريح السوداء التي قيل: إن لها ألسنةً من اللهب رأوها مُقبلةً من الجهة التي يُقْبِل منها السحابُ قالوا: هذا عارضٌ مُمْطِرُنا؛ لأنهم رأوه أسودَ ثقيلًا، والعادة أن السحابَ إذا كان أسودَ يكون مُحَمَّلًا بالماء، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ يعني: من العذاب، فإنهم كانوا بإصرارهم على المعاصي يستعجلون العذابَ، بل كان منهم مَن يستعجل العذابَ من نبيِّه، فيقول: ائتنا بما تَعِدُنا إن كنت من الصادقين كهؤلاء، فقال: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ﴾ -وهذا خبرٌ ثانٍ لـ: ﴿هُوَ﴾- ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مُؤْلِمٌ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: تُدَمِّرُ كل شيء أُمِرَتْ بتدميره ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أي: محلَّات بيوتهم، فدمَّرت كلَّ ما عندهم، حتى كانت تأخذ الواحدَ، فترفعه إلى السماء، ثم يعود على الأرض جاثيًا على رُكْبَتَيْهِ، فصاروا كأنهم أعجازُ نخل خاوية، ولم يَبْقَ منهم باقيةٌ، فهذه الريح التي ظنُّوا أنها عارضٌ ممطرهم، أُمطروا فيها بالعذاب، والعياذُ بالله.

مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ[١].

٤٨٢٩ - قَالَتْ: وَكَانَ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الغَيْمَ فَرِحُوا؛ رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ المَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عُرِفَ فِي وَجْهِكَ الكَرَاهِيَةُ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ! مَا يُؤْمِنِّي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؟ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ العَذَابَ، فَقَالُوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾»[٢].

---

[١] كان النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أحيانًا يضحك حتى تبدُوَ نواجذُهُ(١)، وأحيانًا يضحك حتى تبدو أنيابُهُ(٢)، ولكن الضَّحِك الذي تُرى منه اللَّهاة -بأن يفتح فمه بقوة، ويرفع رأسه- هذا لم يكن موجودًا منه ﷺ، وكان أكثرُ ضحكه التَّبسُّمَ.

وكان ﷺ مُنطلق الوجه، دائمَ البِشْر، كثيرَ التبسُّم، كما وصفوه بذلك، وهذا من كمال أخلاقه: أن وجهه لا تراه عابسًا قطُّ، وأنه كثيرُ التبسُّم.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس:١-٢] فهذه حال عارضةٌ، ومع هذا فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عاتبه فيها بعض العتاب.

[٢] وكان النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا رأى غيمًا أو ريحًا عُرِفَ في وجهه، وفي بعض الأحاديث: أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقوم، ويقعد، ويدخل، ويخرج حتى يمطر، فإذا أمطر سُرِّي عنه، وعَرَفَ أنه ممطرٌ(٣)، لكن قبل هذا تجده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يتغيَّر وجهه ومزاجُهُ؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قول الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، رقم (٤٨١١)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين، رقم (٢٧٨٦/ ١٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء، رقم (١٩٣٦)، ومسلم: كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان، رقم (١١١١/ ٨١).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح، رقم (٨٩٩/ ١٥).

....

= يخشى أن تكون ريحًا فيها عذابٌ أليمٌ؛ لأن عادًا قالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ ونحن نقول: هذا عارضٌ ممطرنا، فرُبَّما يكون ريحًا فيها هذا العذاب الأليم، وقد قيل: مَن كان بالله أعرفَ كان منه أخوفَ.

وإذا علمت حال النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ورأيت ما عليه الناس اليوم، يُشاهدون العذاب بأعينهم، فيُشاهدون الفيضانات المُدَمِّرة، والرياحَ العاتية، ومع ذلك لا يهتمُّون بهذا الشيء، وكأنها أمور طبيعيَّة ليس فيها إنذار.

وقد هبَّت في إحدى السنوات ريحٌ عظيمة على بريطانيا كانت سرعتها في الساعة مئةً وستِّين كيلو مترًا، ثم هبَّت ريحٌ على جُزُر الفلبين تبلغ سرعتها مئتـي كيلو متر، ودمَّرت أشياء عظيمةً، ومع ذلك نسمع بهذه الأشياء وكأنها ماءٌ باردٌ يمرُّ على قلوبنا، فالذي خَلَقَ الرياح في تلك الأمكنة قادرٌ على أن يخلقها في مكاننا نحن إذا لم نُؤمن بالآيات، وما أكثرَ الآيات! ولكن ما تُغْنِي الآيات والنُّذُر عن قوم لا يؤمنون، نسأل الله أن يحييَ قلوبَنا.

والمهم: أننا إذا رأينا حال النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ورأينا ما نحن عليه اليوم؛ عرفنا الفرْقَ العظيم بيننا وبين سلفنا، وعرفنا أن قلوبَنا قاسيةٌ مُتحجِّرةٌ، بل هي أشدُّ قسوةً من الحجارة، إلا أن يمنَّ الله علينا بتليينها وخشوعها لذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائل: كيـف نُوَفِّق بين هذا وبين قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣]؟

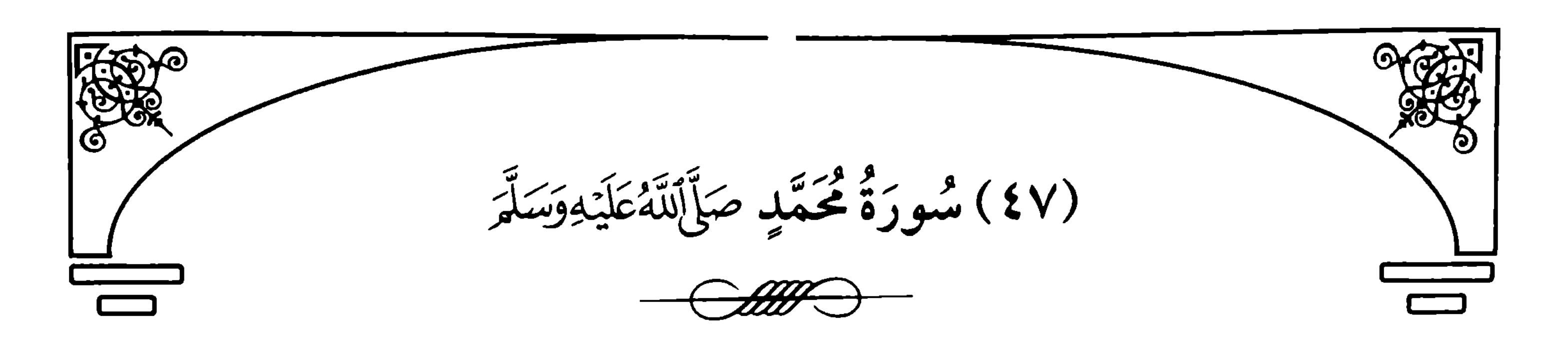
قلنا: هـذه الآيـة في مكـة، أو أن الرسـول ﷺ كـان يخشى أن قـول الله عَزَّوَجَلَّ:

= ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ يخشى أن يكون نزل في وقت، ورُبَّما يُعَذِّبهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا اشتدَّ عتوُّهم، فالله أعلم، إنما هذه الآية في أهل مكة؛ لأنه قال بعد ذلك: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ لأنه لا تُعَذَّب الأممُ إلا إذا كذَّبوا الرُّسُل، وغالبًا يُعَذَّبون إذا هجَرَتْهم رُسُلهم وتركوهم.

وقولها: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الغَيْمَ فَرِحُوا؛ رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ المَطَرُ» هذا هو الواقعُ، وهو من طبيعة البَشَر، ولكن الإنسان الذي يخاف حتى يزولَ هذا الخوف بالمطر.





(٤٧) سُورَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

﴿أَوْزَارَهَا﴾ آثَامَهَا حَتَّى لَا يَبْقَى إِلَّا مُسْلِمٌ[١].

﴿عَرَّفَهَا﴾ بَيَّنَهَا[٢].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وَلِيُّهُمْ[٣].

---

[١] هـذا في قـول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد:٥] أي: آثار الحرب وتنتهي، وذلك إذا أسلم الناس واستسلموا انتهت الحـرب، وهذا يدلُّ على أن الواجب القتلُ قبلَ الأَسْر، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال:٦٧] أي: يُثْخن بالقتل.

[٢] يعني قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي: بيَّنـها، وأصلُ التعريف: مأخوذٌ من العُرْف، وهو الارتفاعُ؛ لأن الشيء المُبَيَّن يتبيَّن للإنسان كما يتبيَّن العَلَم، وهو الشيء المرتفع.

وتعريفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إيَّاهم الجنة شاملٌ لتعريفها في الدنيا، وفي الآخرة، فأمَّا في الدنيا فإنه عرَّفها لهم بما نصب لها من الوسائل، وهي الأعمال الصالحة، وأمَّا في الآخرة فإن كل إنسان يهتدي إلى مكانه في الجنة كما يهتدي إلى مكانه في الدنيا.

[٣] يعني قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: وليُّهم الذي يتولَّى

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أَيْ: جَدَّ الأَمْرُ[١].

﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ لَا تَضْعُفُوا[٢].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَضۡغَـٰنَهُمۡ﴾ حَسَدَهُمْ.

﴿ءَاسِنٍ﴾ مُتَغَيِّرٍ.

= أمورَهم، وهذه ولاية خاصَّة غير الولاية العامَّة للمؤمنين وغيرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَـٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾.

وفي قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَـٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ فائدةٌ، وهي أن ما يتَّخذونهم أولياء كالمعدومين؛ لأنهم لا ينفعونهم بشيء؛ ولهذا قال: ﴿لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ فلا يَرِدُ على هذا أن لهم أولياء يتولَّونهم؛ لأننا نقول: هؤلاء الأولياء لا تُفيدهم شيئًا، وهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ [غافر:٢٠] ولم يقل: لا يقضون بالحقِّ؛ لأن الذين يدعون من دونه لا يقضون بحقٍّ ولا غير ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٍ﴾ [النحل:٢١] لا يُفيدون بشيء أبدًا، وهكذا هذه الآية.

[١] يعني قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ﴾.

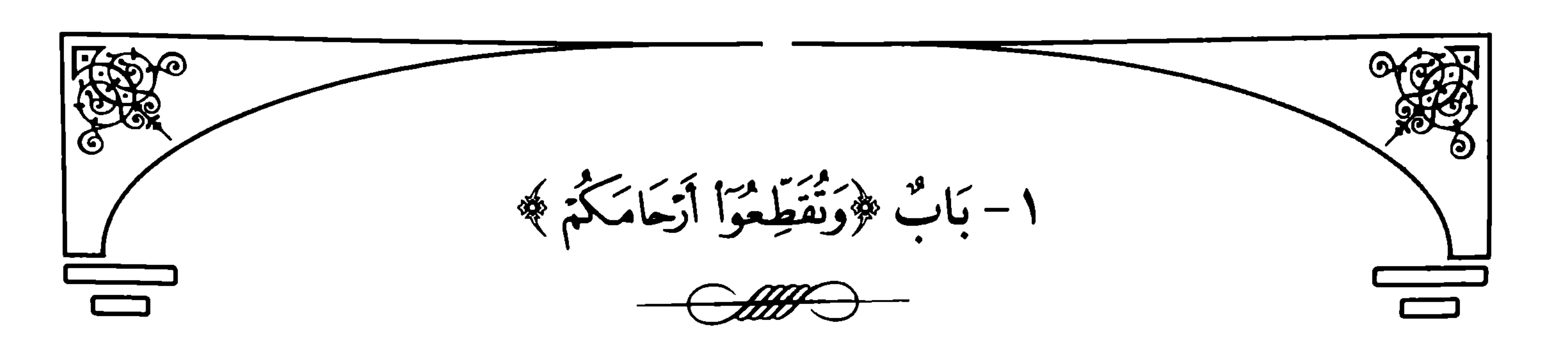
[٢] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدۡعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ [محمد:٣٥] والواو هنا هل هي للحال أو للاستئناف؟

الجواب: إذا قلنا: إنها للحال صار النهيُ واردًا على ما إذا كنا أعْلى منهم بالعَدَد والعُدَّة وأقوى، فحينئذٍ لا نَهِنُ ولا ندعو إلى السَّلم، أمَّا إذا كان الأمرُ بالعكس فلا حَرَجَ علينا أن ندعُوَ إلى السَّلم.

....

= أمَّا إذا جعلناها استئنافيَّةً فإنها لا تكون قيدًا في الجملة قبلها، فهو يقول: لا تهنوا ولا تدعوا إلى السلم؛ لأنكم الأعْلَوْنَ، والله معكم، وإذا كنتم الأَعْلَيْنَ والله معكم فلا يليقُ بكم أن تهنوا وتدعوا إلى السَّلم، إنما يَهِنُ ويدعو إلى السلم مَن كان لا ينال هذه المرتبةَ العُلْيا، وأن الله معه.





١- بَابٌ ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾

٤٨٣٠- حَدَّثَنَا خالِدُ بْنُ مَخْلَدٍ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي مُزَرِّدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ: مَهْ! قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ، قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ! قَالَ: فَذَاكِ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾.

٤٨٣١- حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَمْزَةَ: حَدَّثَنَا حَاتِمٌ، عَنْ مُعَاوِيَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَمِّي أَبُو الحُبَابِ سَعِيدُ بْنُ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِهَذَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾».

٤٨٣٢- حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ: أَخْبَرَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي المُزَرِّدِ بِهَذَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾»[١].

---

[١] قال الله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ والمعنى: هل هذا مُتوقَّع منكم؟ وإذا كان هذا هو المتوقَّع فقد قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾.

أمَّا الحديث الذي ساقه المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ ففيه عدَّةُ مسائل تتعلَّق بالعقيدة، منها:

....

= قوله: «فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ» ففي هذا إثبات صفة الفراغ لله عَزَّوَجَلَّ، لكن هذا الفراغ لا يقتضي تعطيله من فعله، فإن أفعالَ الله عَزَّوَجَلَّ لا مُنْتهى لها، فإنه إذا فرغ من خَلْق شيء فهناك أشياءُ كثيرةٌ، بل نفس هذا الشيء محتاجٌ إلى إمداد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لبقائه، فأفعالُ الله لا مُنتهى لها، لكن المفعولات هي التي تنتهي.

وعلى هذا فلا إشكالَ في قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١] فإن المعنى: أنه عَزَّوَجَلَّ يفعل فعلًا، ويفرغ منه، ثم يفرغ للفعل الآخر، وليس معنى ذلك: أنه عَزَّوَجَلَّ لا يقدِرُ على أن يفعل أفعالًا كثيرةً عظيمةً في آنٍ واحد، بل هو قادرٌ على ذلك، لكن يفعل هذا لِحِكْمة، وهذا الحِكْمة.

المسألة الثانية: قوله: «فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ» ففي هذا إثبات الحَقْوِ لله عَزَّوَجَلَّ، كإثبات القَدَم واليد والعين والوجْهِ، وهو من الصفات الذاتيَّة الخبريَّة، فالذاتيَّة؛ لأنه لم يزل ولا يزال مُتَّصفًا بها، والخبرية؛ لأن مُسْتَنَدَها مُجَرَّدُ الخبر؛ إذ إن العقلَ لا يهتدي إلى إثبات مثل هذه الصفات لله عَزَّوَجَلَّ إلا عن طريق الخبر، وهذه لا يلزم منها أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ مُماثلًا للخَلْق، كما لا يلزم أن يكون مُماثلًا للخَلْق إذا أثبتنا له اليد.

والحِقْوُ مِن الإنسان: هو مَعْقِدُ الإزار الذي فوق الوَرِك.

المسألة الثالثة: أن الشيء المعنوي قد يكون أمرًا حسِّيًّا يتكلَّم وينطقُ، فالرَّحِمُ هي القَرابة، والقرابة أمرٌ معنويٌّ، وليست أمرًا حسِّيًّا، بل هي وصف في القريب لقريبه، ولكن هنا قال: «فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ: مَهْ!» أي: ما شأْنُكِ؟ «قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ» فتأمَّل قوله: «فَأَخَذَتْ» و«قَالَتْ» فصدَرَ منها فعلٌ، وصدر منها قولٌ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادرٌ على أن يُجسِّد الأشياء المعنويَّة.

....

= وهاهو الموت يكون يوم القيامة على صورة كَبْشٍ، ويُعْرَض على أهل الجنة وعلى أهل النار، ويُذْبَح؛ لأنه يجيءُ على صورة كَبْش، والكبشُ هو الضأن الكبيرُ، فيُقال: يا أهل الجنة! خلودٌ ولا موت، ويا أهل النار! خلودٌ ولا موت.

وقوله: «**قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ! قَالَ: فَذَاكِ**» وفي لفظ: «**فَذَلِكِ لَكِ**»[1] فالتزم اللهُ عَزَّوَجَلَّ لها بهذا الالتزام وقَطَعَه على نفسه، ولا أحدَ يُلْزِم اللهَ جَلَّوَعَلَا، لكن هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُلْزِم نفسه بما شاء، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢] أي: أوْجَبَ وألزمَ على نفسه الرحمةَ.

وقوله: «**أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ**» جاءت النصوصُ هنا مُطْلَقَةً في الصلة وفي القطيعة، والقاعدة: أن ما جاء مُطْلَقًا ولم يُقَيَّد بالشرع فإنه يُقَيَّدُ بالعُرْف، قال الناظم:

وَكُلُّ مَا أَتَى وَلَمْ يُحَدَّدِ ... بِالشَّرْعِ كَالحِرْزِ فَبِالعُرْفِ احْدُدِ[2]

فإذا قال قائل: كيف الصلة؟

قلنا: ما عَدَّهُ الناسُ صلةً فهو صلةٌ، وما عَدَّهُ الناسُ قطيعةً فهو قطيعةٌ، وهذا يختلف باختلاف الأزمان، وباختلاف القرابة، وباختلاف الأحوال.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، رقم (٧٥٠٢).

(٢) يُنْظَر: منظومة أصول الفقه وقواعده لشيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (ص:٢٥١).

....

= فأمَّا اختلافه باختلاف الأزمان ففيما مضى كان من الصلة أن تأخذ الطعام، وتذهب به إلى أقاربك؛ ليأكلوا ويشبعوا، وأمَّا الآن فلا، بل لو تأتي إليهم بالطعام على هذه الصفة يغضبون عليك، ويقولون: أنحن فقراء؟! نحن أغنى منك، كما قال سليمانُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل:٣٦].

وأمَّا كونه يختلف باختلاف الأحوال فإذا كان القريب مريضًا، أو أُصيب بحادث، أو ما أشبه ذلك، كان مواصلة الصلة أمرًا لابُدَّ منه، وإذا كان في عافية وفي طُمأنينة ولم يحدث شيء كانت المواصلة أدنى وأخفَّ.

وكذلك يختلف باختلاف القرابة، فصِلَتُك مع عمِّك ليست كصِلَتِك مع عم أبيك، وصِلَتُك مع ابن أخيك ليس كصلة ابن عمِّك، وهكذا.

فالمهم: أن الشارع أطلق الصِّلَة، فيُرْجَع فيها إلى ما تعارفه الناسُ، وهذا يختلف باختلاف الزمان، والحال، والقرابة.

ثم قال أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ**: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ﴾» يعني: حتى يتبيَّن لكم أن مَن قطَّع رَحِمَهُ قَطَعَهُ الله؛ لأن جزاءه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ واللعن: هو الطردُ والإبعادُ عن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وأيُّ قطيعة أعظمُ من أن يُطْرَدَ الإنسانُ ويُبْعَدَ عن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ؟!

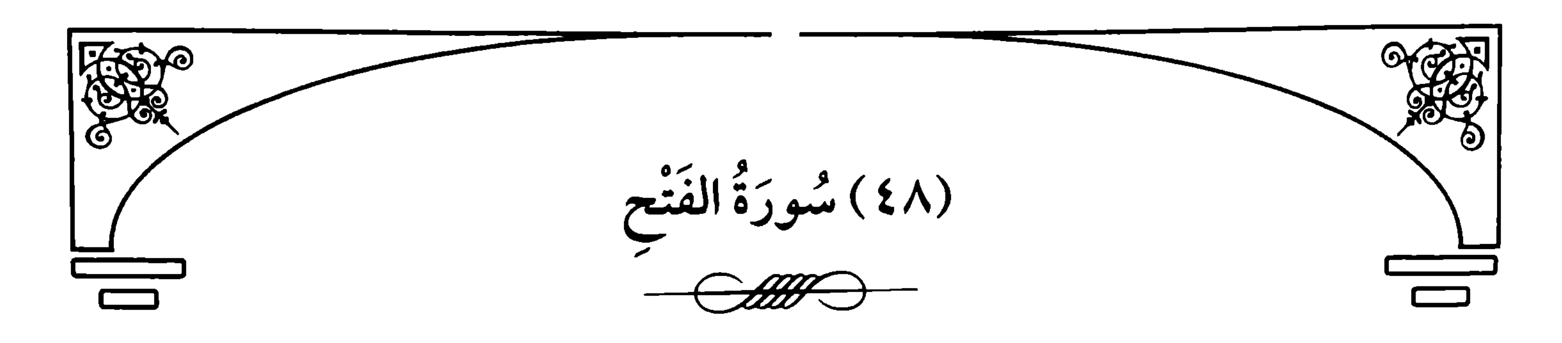
وهذا القول: «اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ» قول أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أي: أنه موقوفٌ، وفي السياق الثاني والثالث أنه قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو مرفوعٌ، فهل هذا يقدح؟

الجواب: لا يقدح؛ لعدم التنافي بين الوقف والرفع، وذلك من وجهين:

= **الأول**: أن الصحابي مثلًا قد يكون عند سياق الحديث في مرَّة من المرَّات ناسيًا أن الرسولَ ﷺ قاله، فيقوله من عنده؛ احتياطًا وتورُّعًا، ويكون في وقتٍ آخر قد ذكر أن الرسولَ ﷺ قاله، فيسوقُهُ مرفوعًا.

الوجه الثاني: أن يكون الراوي قاله في إحدى المرَّات حاكمًا به، لا رَاويًا له، فيظنُّ مَن سمعه أنه موقوفٌ، ويكون جاء من طريقٍ آخَرَ مرفوعًا صريحًا.





(٤٨) سُورَةُ الفَتْحِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿بُورًا﴾ هَالِكِينَ[١].

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ السَّحْنَةُ، وَقَالَ مَنْصُورٌ، عَنْ مُجَاهِدٍ: التَّوَاضُعُ[٢].

﴿شَطْـَٔهُۥ﴾ فِرَاخَهُ.

﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ تَغَلَّظَ.

﴿سُوقِهِۦ﴾ السَّاقُ: حَامِلَةُ الشَّجَرَةِ[٣].

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ والبُور الهلاك، ومنه: فلان بائرٌ، والأرض البُور، وهي التي لا نباتَ فيها ولا حياةَ.

[٢] هذا إشارة إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الفتح:٢٩].

السيما فيها ثلاثةُ معانٍ، إمَّا أنها حسِّيَّة، أو معنويَّةٌ، والمعنوية إمَّا بالتواضع، وإمَّا بنور الوجه.

[٣] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي: فراخه، فإن الزرع: تضع الحبَّة، ثم تنبت، ثم تُخرج الفِراخَ ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: قوَّاه كما قال تعالى: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ [طه:٣١] ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي: غَلُظ، لكن جاءت على صيغة «استفعل» للمُبالغة

....

= ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح:٢٩] أي: كمُل ونضج؛ لأن «استوى» في اللغة العربية تُسْتَعمل على أربعة أوجه:

الأول: أن تقترن بـ: «على» فمعناها: العُلُوُّ والاستقرار، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف:٥٤] وقوله: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٣].

الثاني: أن تقترن بـ: «إلى» ومعناها: القصد مع الارتفاع.

الثالث: أن تقترن بالواو، ومعناها: التساوي، كما يُقال: «استوى الماء والخشب» أي: تساويا، ووصل الماء إلى الخشب.

الرابع: أن تأتي مُجَرَّدةً، ولا تقترن بشيء، فمعناها: الكمالُ، والناس يقولون في الطبيخ: «استوى الطبيخ» وما أشبه ذلك، أي: كَمُل نضجُهُ.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ السُّوق جمع ساق، كقوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [ص:٣٣] قال المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السَّاقُ: حَامِلَةُ الشَّجَرَةِ» فالشجرة لها ساقٌ يحملها.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ جمع زارعٍ؛ لأن الزارع صاحب مِهْنة، فإذا رأى مثل هذا الزرع أعجبَهُ، زرعٌ قويٌّ، وفراخه تُساويه، وقد استوى على سوقه، فهذا يُعْجِبُ الزُّرَّاع، كما أن الإبل تُعْجِب أصحابَ الإبل، والخيلَ تُعْجِب أصحابَ الخيل، وكلُّ إنسان يُعجبه ما كان مِهْنةً له.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ يُفيد فائدةً عظيمةً، وهو أنه يُطْلَب منَّا أن نغيظ الكفار بكلِّ ما نستطيع، فإن غيظَهُم إذلالٌ لهم، وإعمالٌ للهمِّ والغمِّ في نفوسهم،

= ونحن مأمورونَ بذلك، بل قد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣].

وإذا كنا مأمورين بأن نغيظهم فإنَّنا منهيُّون عمَّا يُفرحهم ويُدخل السرورَ عليهم؛ لأنهم في الواقع أعداءٌ لله وأعداءٌ لنا.

لكن مع الأسف لَمَّا كَثُر الكفَّار بين المسلمين في الوقت الحاضر زالت الغَيْرَة من النفوس، وهانَ الأمرُ، حتى أصبحوا يتكلَّمون بالأُخوَّة الإنسانيَّة، وقد محا الله هذا، وجعل الأُخوَّة الحقيقيَّة أُخوَّة الدِّين، حتى القرابة القريبة تنتفي إذا لم تكن الأخوة الدينيَّة، قال نوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود:٤٥] قال الله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ وقال النبيُّ ﷺ: «**لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الكَافِرَ، وَلَا الكَافِرُ الْمُسْلِمَ**»[1] وهذا يدلُّ على التباين بين الكفار والمسلمين.

لكن كيف يكون غيظُ الكفَّار؟

نقول: نغيظهم بإظهار أننا مُتمسِّكون بالدِّين، مُنَفِّذون لأحكامه، وأننا أقوياءُ، وأن نتمسَّك بآدابنا الإسلاميَّة، وعقائدنا الدينيَّة، فإن هذا يغيظهم، فكل تمسُّك من المسلم بالإسلام الحقيقيِّ -وليس الإسلام المُدَّعى الذي يقول: إنه مسلم، وهو أَبْعَد الناس عن الإسلام، لكن الإسلام الحقيقي الذي يُنَفِّذ ما قال الله ورسولُهُ ﷺ، وقاله الخلفاء الراشدون، ويُكِنُّ المحبَّة الصادقة للنبيِّ ﷺ وأصحابه- فإذا رَأَوْا هـذا الإسلام

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر، رقم (٦٧٦٤)، ومسلم: كتاب الفرائض، رقم (١٦١٤/ ١).

وَيُقَالُ: ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ كَقَوْلِكَ: رَجُلُ السَّوْءِ، وَدَائِرَةُ السُّوءِ: العَذَابُ[١].

= الحقيقيَّ فإنه يغيظهم ويُحزنهم ويخافون منه؛ لأنه واللهِ لو قام الإسلام على ما هو عليه في عهد الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، واللهِ لا يبْقَى دولةٌ عُظْمى ولا غيْرُها، ولكانت كل الدول تَدِينُ لله تعالى بالإسلام، لكن المسلمين الآن مع الأسف ضيَّعوا الإسلامَ من عِدَّة وجوهٍ؛ ولهذا نَسُوا اللهَ، فنَسِيَهُمْ، إلا مَن رَحِمَ ربُّك.

لكن ما وجه انطباق هذا المثل على حال الرسولِ ﷺ وأصحابه؟

نقول: من وجهين:

الأول: أن الزَّرْع فيه منافعُ للناس، وقوامٌ للحياة، وكذلك النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأصحابه فيهم هذا.

الوجه الثاني: أنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ صار بعضُهم يُسْلِم على يد بعضٍ، ويُقَوِّيه، ويُنَشِّطه، ويُعينه حتى استوى.

[١] يعني بذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح:٦] ومن ظنِّ السَّوء الذي يظنُّونه بالله عَزَّوَجَلَّ: أنهم يظنُّون أن الله عَزَّوَجَلَّ لن يَنْصُرَ رسولَهُ ﷺ، وأن الدائرةَ ستكون عليه، لا سِيَّما حين حصل ما حصل في غزوة أُحُد، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ والدائرة هنا يحتمل أن تكون من الدائرة العادية، كدائرة الحلقة، والمعنى: أن السَّوْء والعَيْب مُحيطٌ بهم من كل جانب، ويحتمل أن معنى ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أن السَّوْء يدور عليهم، وأن مآلهم إلى النقص والاضمحلال، والمعنيان لا يتنافيان، وقد سَبَقَ أن المعنيين إذا كانا لا يتنافيان فالواجبُ حمل الآية عليهما جميعًا؛ لأن كلامَ الله عَزَّوَجَلَّ أعمُّ وأشملُ.

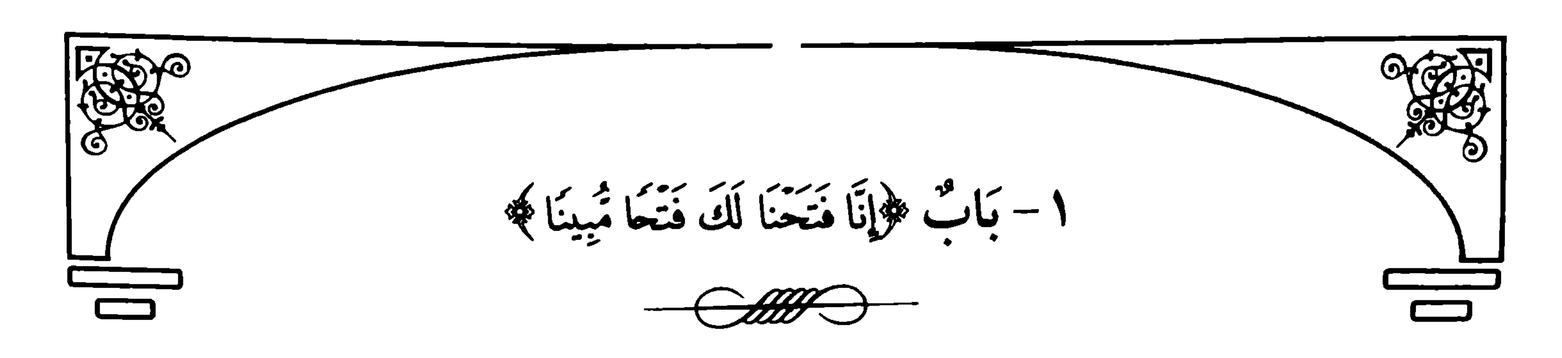
تُعَزِّرُوهُ: تَنْصُرُوهُ[١].

﴿شَطْـَٔهُۥ﴾ شَطْءُ السُّنْبُلِ: تُنْبِتُ الحَبَّةُ عَشْرًا، أَوْ ثَمَانِيًا، وَسَبْعًا، فَيَقْوَى بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، فَذَاكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ قَوَّاهُ، وَلَوْ كَانَتْ وَاحِدَةً لَمْ تَقُمْ عَلَى سَاقٍ، وَهُوَ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِذْ خَرَجَ وَحْدَهُ، ثُمَّ قَوَّاهُ بِأَصْحَابِهِ، كَمَا قَوَّى الحَبَّةَ بِمَا يُنْبِتُ مِنْهَا.

---

[١] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وهذه الآية جمعت بين ضمائر مختلفة، فقوله: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا لله ورسوله، والضمير في: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ للرسول ﷺ، وفي ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحدَهُ، فبدأ الله تعالى بالشيء المُشْتَرك، ثم بالشيء المُنْفرد للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ثم بالمُنْفَرد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.





١ - بَابٌ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾

٤٨٣٣ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَسِيرُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يَسِيرُ مَعَهُ لَيْلًا، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ عَنْ شَيْءٍ، فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ سَأَلَهُ، فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ، فَلَمْ يُجِبْهُ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: ثَكِلَتْ أُمُّ عُمَرَ! نَزَرْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلَّ ذَلِكَ لَا يُجِيبُكَ، قَالَ عُمَرُ: فَحَرَّكْتُ بَعِيرِي، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ أَمَامَ النَّاسِ، وَخَشِيتُ أَنْ يُنْزَلَ فِيَّ قُرْآنٌ، فَمَا نَشِبْتُ أَنْ سَمِعْتُ صَارِخًا يَصْرُخُ بِي، فَقُلْتُ: لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ قُرْآنٌ، فَجِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «**لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ، لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[١].

---

[١] في هذا الحديث دليلٌ على فوائدَ، منها:

١ - أن النبيَّ ﷺ كان يسيرُ مع أصحابه في أُخْريات القوم؛ لقول عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَحَرَّكْتُ بَعِيرِي، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ أَمَامَ النَّاسِ» فإن الظاهر أن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان في أُخريات القوم كما هي عادته.

٢ - كلام الرِّكاب بعضِهم مع بعض؛ لأن هذا يُخَفِّف عنهم عناءَ السفر، ويُسَهِّله عليهم.

....

= ٣- جوازُ تَرْكِ الجواب؛ لأن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ترك عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثلاث مرَّات، حين سأله، فلم يُجِبْهُ.

٤- شدَّة خوف عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه خاف أن ينزل فيه قرآنٌ.

٥- أن سورة الفتح نزلتْ جملةً واحدةً؛ لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ، لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**» وكان هذا في الرجوع من الحُدَيْبية.

وفي هذا إشكال، وجْهُهُ: أن من جملة ما ذكر عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للرسول ﷺ في المُناقشة في الصلح قال: إنك حدَّثتنا أننا نأتي البيت ونطوف به[1]، وقد يُجاب عن ذلك بأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حدَّثه قبل أن تنزل الآية، ويكون نزول الآية في الرجوع.

وقد ذكر ابن حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في وجْهِ قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**» قال: لِمَا فيها من البِشَارة بالمغفرة والفتح[2]، ولعلَّه ذكر هذا من باب ضرب المَثَل فقط، فإن فيها أشدَّ من هذا وأعظمَ، ففيها إثبات رسالة النبيِّ ﷺ في قوله: ﴿شَـٰهِدًا وَمُبَشِّـرًا وَنَـذِيرًا﴾ وفيها صفة الرسولِ ﷺ وأصحابه، ورضا الله عَزَّوَجَلَّ عن الذين بايعوه تحت الشجرة، وفيها أشياءُ كثيرةٌ.

وقول النبيِّ ﷺ: «**لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**» هذه كلمةٌ تُقال في بيان علوِّ مرتبة الشيء، كقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[3]

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم (٢٧٣١).

(٢) فتح الباري (٨/ ٥٨٣).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، رقم (٧٢٥/ ٩٦).

....

= ومعلوم أننا إذا ساوينا ثواب الركعتين بالدنيا فالدنيا ليست بشيء، وكلُّها زائلةٌ، لكن يُقال: هذا لبيان مرتبة هذا الأمْرِ، والنفوس مهما كانت مجبولةً على محبة الدنيا، لكن من النفوس مَن تُؤْثِرُ محبَّة الدنيا، ومنها مَن تكون بالعكس، وكان الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يحبُّ شيئًا من الدنيا، وقد قال: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا: النِّسَاءُ وَالطِّيبُ**»[1].

وهل يُؤْخَذ من هذا: جواز دعاء الإنسان على نفسه بالهلاك؛ لقول عُمَر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**ثَكِلَتْ أُمُّ عُمَرَ**»؟

الجواب: لا؛ لأن هذا ممَّا يجري بلا قَصْدٍ، لكنه أحيانًا يُراد به التحسُّر، وأحيانًا يُراد به الحثُّ، كقول النبيِّ ﷺ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ!**»[2] فهذا لأجل حضِّه، أو تحذيرِهِ من آفات اللسان.

فإن قال قائل: وهل مِثْل ذلك دعوةُ الأب على ابنه، وتكون ممَّا يجري على اللسان بلا قصد؟

فالجواب: نعم، وقد وردت أحـاديثُ بهذا، وأن الله لا يُؤاخِـذُ بها، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس:١١] ذكر بعض المُفَسِّرين أن هذه مثل قول الأب أو الأم لابنه: تعالَ فَعَلَ اللهُ بك، وفَعَلَ، وفَعَلَ، ولو سألته: هل تُريد أن تقعَ الدعوةُ؟ لقال: لا.

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم (٣٣٩١)، وأحمد (٣/ ١٢٨).

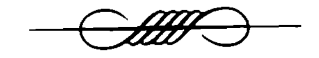
(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١).

٤٨٣٤ - حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ: حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ: سَمِعْتُ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قَالَ: الحُدَيْبِيَةُ.

٤٨٣٥ - حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ قُرَّةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ، قَالَ: قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ سُورَةَ الفَتْحِ، فَرَجَّعَ فِيهَا، قَالَ مُعَاوِيَةُ: لَوْ شِئْتُ أَنْ أَحْكِيَ لَكُمْ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ لَفَعَلْتُ.

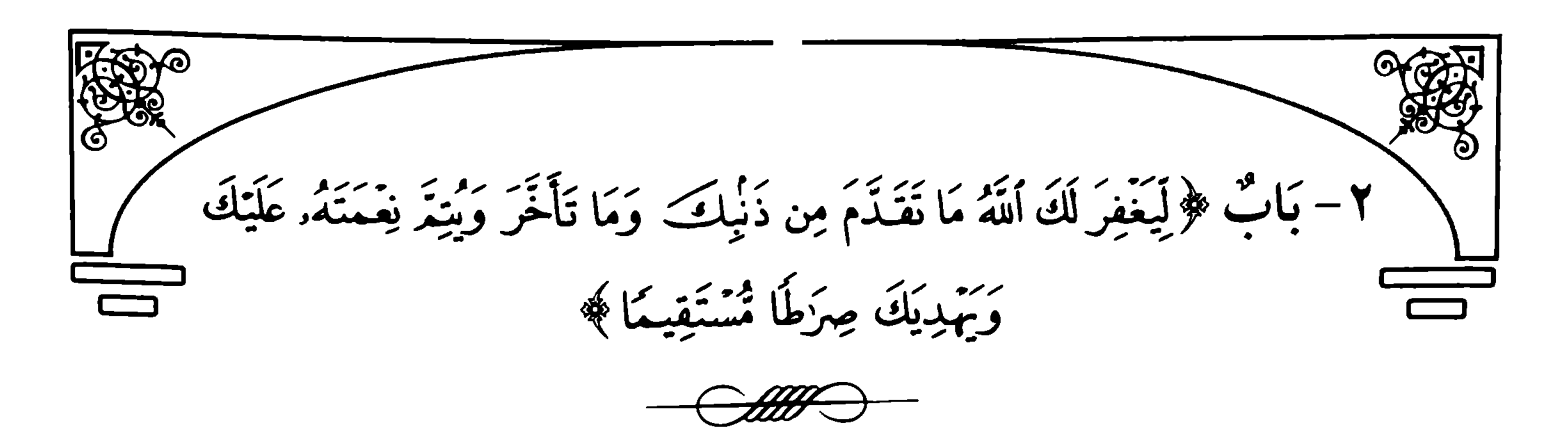
وهل يُنْكَر مثل هذا على الإنسان؟

نقول: هذا أمرٌ يكون رغمًا عنهم، وأمَّا حديث: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ»[1] فالمراد به: الدعاء المراد.



---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب حديث جابر الطويل، رقم (٣٠٠٩/ ٧٤).



٢- بَابٌ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾

٤٨٣٦- حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ الفَضْلِ: أَخْبَرَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ: حَدَّثَنَا زِيَادٌ (هُوَ ابْنُ عِلَاقَةَ) أَنَّهُ سَمِعَ المُغِيرَةَ يَقُولُ: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ! قَالَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!**».

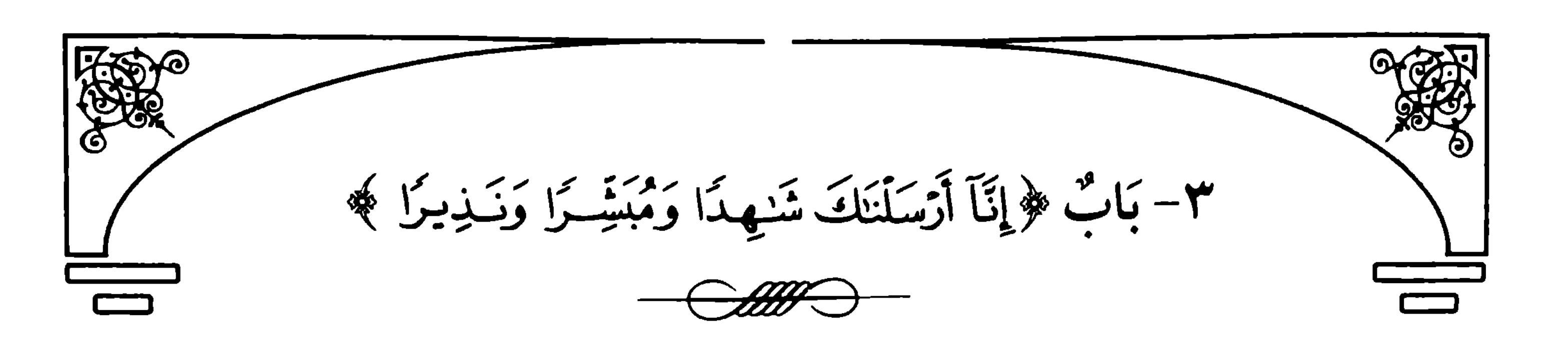
٤٨٣٧- حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يَحْيَى: أَخْبَرَنَا حَيْوَةُ، عَنْ أَبِي الأَسْوَدِ، سَمِعَ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «**أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟**» فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صَلَّى جَالِسًا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ، فَقَرَأَ، ثُمَّ رَكَعَ[١].

---

[١] هنا مسألة: قيام النبيِّ ﷺ قبل الركوع هنا ألا يُعْتَبر زيادةً في الصلاة؟

الجواب: لا، هذه الزيادة للارتقاء إلى الكمال.





٣- بَابُ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

٤٨٣٨ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ هِلَالِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي القُرْآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ قَالَ: فِي التَّوْرَاةِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا، وَمُبَشِّرًا، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ: المُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ، وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ بِالأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا[١].

---

[١] قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ فيه إثباتُ النبوة والرسالة للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: ﴿شَٰهِدًا﴾ حالٌ من الكاف، أي: شاهدًا على أُمَّتك بأن رسالة الله تعالى بلَغتهم ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لِمَن أطاع بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ لِمَن عصى بالنار، وهذه هي رسالةُ النبيِّ ﷺ، وهو مضمونها.

وأمَّا ما في التوراة ممَّا ذكرَهُ عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فإنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَصَل في يوم اليرموك على زَامِلَتَيْن من كُتُب بني إسرائيل، وصار يُحدِّث منها؛ ولهذا كان ممَّن عُرِفَ بالأخذ عن الإسرائيليات، كما ذكَر ذلك أهلُ المُصْطَلح.

....

= وذِكْرُهُ ما في التوراة ليس من باب الشكِّ فيما جاء به القرآن، لكنْ من باب التثبيت، وبيان أن هذا النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ قد شهدت له الكُتُب السابقة؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤].

وقوله: «أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي» هذه أفضلُ أوصاف الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: أنه عبدٌ لله عَزَّوَجَلَّ -بل هو أعبدُ الناس لله، وأخشاهم له- وأنه رسولُهُ.

وقوله: «سَمَّيْتُكَ: المُتَوَكِّلَ» هذا من أسماء النبيِّ ﷺ، أي: المتوكِّل على الله عَزَّوَجَلَّ، والذي سمَّاهُ به هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: «لَيْسَ بِفَظٍّ، وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ بِالأَسْوَاقِ» هذه صفات سلبيَّة منفيَّة عن الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإمَّا أن الفظاظة باللسان، والغلظة في الطبع، أو بالعكس، والمعنى: أن الرسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سهلٌ ليِّنٌ.

وقوله: «وَلَا سَخَّابٍ بِالأَسْوَاقِ» أي: كثيرِ السَّخَبِ والصُّراخ والزعاق، ولكنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان مُهذَّبًا، أدَّبه اللهُ، فأحسنَ تأديبَهُ.

وقوله: «وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ» بل هو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أحيانًا يدفعُ السيئة بالحسنة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت:٣٤] لكنَّ عفوَهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان عن مَقْدِرَةٍ، وليس عن عَجْزٍ، والعَفْوُ عن عَجْزٍ مذلَّةٌ، والعَفْوُ عن مَقْدِرَةٍ عزٌّ ومَنْقَبةٌ.

....

= وقوله: «وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ» فسَّر ذلك بقوله: «بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» أي: يقولوا بألسنتهم، مُعتقديها في قلوبهم.

و«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» أي: لا معبودَ حقٌّ إلا اللهُ؛ ولهذا كان الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يمشي في القبائل يدعوهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، يقول: «**أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»(1) فالفلاح كلُّه والخير كلُّه في هذه الكلمة، لكن بشرط: أن يلتزم الإنسان مُقْتَضاها، وليس مُجَرَّد أن يقولها باللسان، فهاهم المنافقون كانوا يقولون: لا إله إلا الله، ولكن لم يلتزموا بمقتضاها، فلم تنفعهم، إنَّما إذا الْتَزَمَ الإنسانُ بمقتضى هذه الكلمة فإنه يُفْلِحُ.

وقوله: «**فَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا**» أي: يفتح بـ: «لا إله إلا الله» وذلك لأن هذه الكلمة العظيمة إذا دخلت في القلب انفتح، وانشرح للحقِّ، وإذا أصابت الإنسانَ الأعمى عن الحق أبصرَهُ، وإذا أصابت الأَصَمَّ سمع الحقَّ.

والقلبُ الأغلفُ هو المُغَلَّف المختوم عليه الذي لا يدخله الحقُّ، كما قال الكفَّار: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت:٥] ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:٨٨] فقلوبهم ليست غُلْفًا لو رجعوا إلى الفطرة، لكنها بسبب كُفْرِهم طُبِعَ عليها، والعياذُ بالله.

وفي هذا الأثر دليلٌ على فوائدَ، منها:

١- جوازُ الاستشهاد بما في كُتُب الأمم السابقة لتأييد الحقِّ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٩٢).

....

= ٢- أن الحقَّ يُقْبَل ممَّن جاء به مهما كان حاله، وقد أيَّد النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قول الشيطان لأبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنك إذا قرأت آية الكرسيِّ لم يزل عليك من الله حافظٌ، ولا يقرَبُك شيطانٌ حتى تُصبحَ[1].

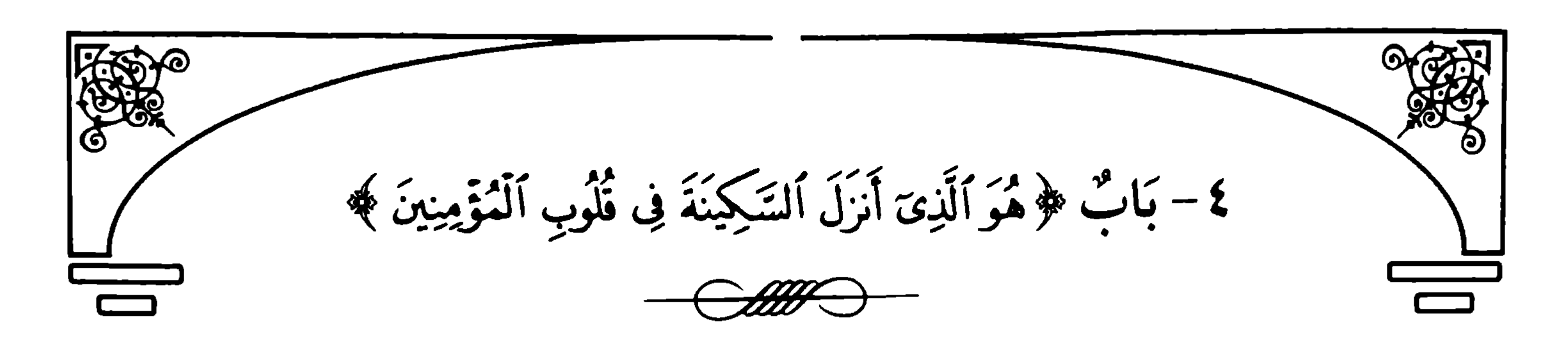
٣- ما ذكره العلماء من القاعدة المهمَّة المفيدة، وهي: أننا نعرف الرجالَ بالحقِّ، والحقُّ يُعْرَف بذاته لا بالرجال، فلا نجعلُ مقياس الحقِّ هو الرجل الذي تكلَّم، فقد يُخطئ الإنسانُ، ولكن نجعل الرُّجولة تَبَعًا للحقِّ، فمَن كان بالحقِّ أنطقَ فهو بالرجولة أحقُّ.

وليس معنى ذلك: أن نُلغي اعتبار المتكلِّم بالحقِّ، بل للناس اعتبارُهم ووزْنُهم، وكلُّ مَن كان أصدقَ وأكثرَ أمانةً فهو إلى الحقِّ أقربُ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦] فإذا جاءنا عَدْل بنبإ قبلناه، فإذن: هناك فرْقٌ بين الرجال.

لكن المهم ألَّا نجْعَل الرجال هم المقياس، بل نقول: الحقُّ يُقْبَلُ مِن كل مَن جاء به، سواءٌ كان من أعداء الإسلام أو من أصدقائه.



(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٩/ ٣٥٠)، وعلَّقه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكَّل رجلًا، فترك الوكيل شيئًا، فأجازه المُوكِّل، فهو جائز، رقم (٢٣١١).



٤- بَابُ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

٤٨٣٩ - حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَقْرَأُ، وَفَرَسٌ لَهُ مَرْبُوطٌ فِي الدَّارِ، فَجَعَلَ يَنْفِرُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ، فَنَظَرَ، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، وَجَعَلَ يَنْفِرُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالْقُرْآنِ**»[1].

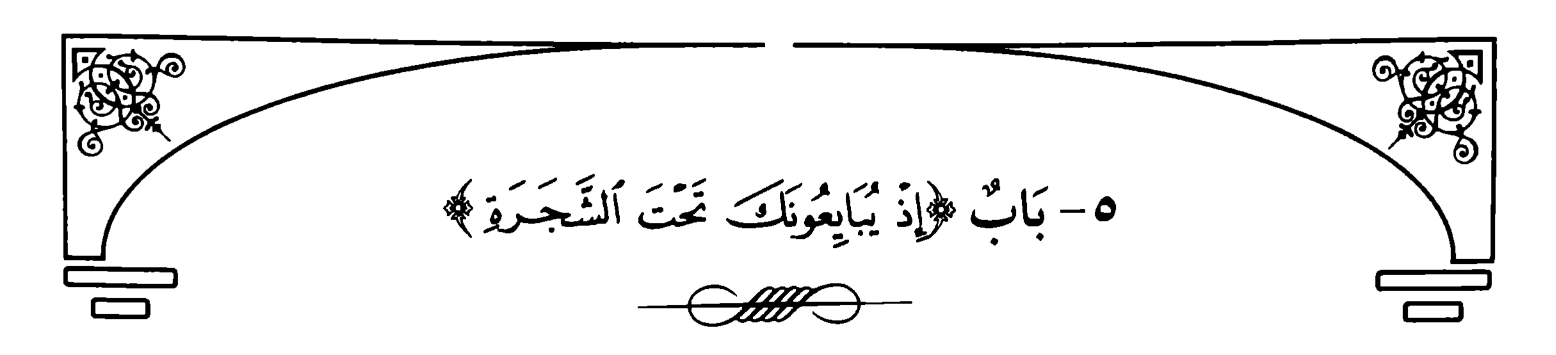
---

[١] كان هذا الرجل -وهو أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يقرأ القرآن في الليل في داره، وكان حوله فرسٌ مربوطَةٌ، فجعلت هذه الفرسُ تنفر؛ لأنها رأت الملائكة تنزَّلت من السماء لهذه القراءة، وفي بعض الروايات: كان ابنه حولْهَا، فخشي على ابنه منها(١)، فلما أصبح أخْبَرَ النبيَّ ﷺ بذلك، فقال: «**تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالْقُرْآنِ**»؛ لأن النبيَّ ﷺ يقول: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»(٢).

ولكنَّ المؤلِّـفَ رَحِمَهُ اللَّهُ جاء بهذا الحديث، ولا علاقـة له بالآية؛ لأن الآية في المسلمين مع الرسـولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ**﴾ فأنزلَ اللهُ السكينةَ -وهي الطمأنينة للحق، والرضا به، وعدم القلق منه- ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، رقم (٧٩٦/ ٢٤٢).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضيلة الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم (٢٦٩٩/ ٣٨).



٥- بَابٌ ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾

٤٨٤٠- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: كُنَّا يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَ مِئَةٍ.

٤٨٤١- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ: حَدَّثَنَا شَبَابَةُ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ عُقْبَةَ بْنَ صُهْبَانَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ المُزَنِيِّ: إِنِّي مِمَّنْ شَهِدَ الشَّجَرَةَ، نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الخَذْفِ.

٤٨٤٢- وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ صُهْبَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُغَفَّلٍ المُزَنِيَّ فِي البَوْلِ فِي المُغْتَسَلِ: يَأْخُذُ مِنْهُ الوَسْوَاسُ[١].

٤٨٤٣- حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الوَلِيدِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ خَالِدٍ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ.

٤٨٤٤- حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ السُّلَمِيُّ: حَدَّثَنَا يَعْلَى: حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ ابْنُ سِيَاهٍ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا وَائِلٍ أَسْأَلُهُ، فَقَالَ: كُنَّا بِصِفِّينَ،

---

[١] الخَذْفُ: عبارة عن حجارة من طين، تُيبَّس، ويُخْذَفُ بها ويُرْمَى.

والشاهد منه: قول عبد الله بن المُغَفَّل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنِّي مِمَّنْ شَهِدَ الشَّجَرَةَ» يعني: مِمَّن بايعوا تحت الشجرة، ولا يقصد البخاريُّ بهذا حكمَ الخَذْف؛ ولهذا ذَكَرَ المُغْتَسل.

فَقَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ؟ فَقَالَ عَلِيٌّ: نَعَمْ، فَقَالَ سَهْلُ ابْنُ حُنَيْفٍ: اتَّهِمُوا أَنْفُسَكُمْ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ -يَعْنِي: الصُّلْحَ الَّذِي كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُشْرِكِينَ- وَلَوْ نَرَى قِتَالًا لَقَاتَلْنَا، فَجَاءَ عُمَرُ، فَقَالَ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ، وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ؟ أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الجَنَّةِ، وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «بَلَى» قَالَ: فَفِيمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللهُ بَيْنَنَا؟! فَقَالَ: «يَا ابْنَ الخَطَّابِ! إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا» فَرَجَعَ مُتَغَيِّظًا، فَلَمْ يَصْبِرْ حَتَّى جَاءَ أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ! أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ، وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: يَا ابْنَ الخَطَّابِ! إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللهُ أَبَدًا، فَنَزَلَتْ سُورَةُ الفَتْحِ[١].

---

[١] هذه المبايعة سببها: أن النبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَمَّا سافر إلى مكة يُريد العُمْرة صدَّه المشركون، وظنُّوا أن النبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا دخل مكة كان في هذا ذلٌّ لهم، وضغطٌ عليهم، فقالوا: إنك لن تدخلها ضغطةً، أي: غَصْبًا علينا، فجرى بينه وبينهم صلحٌ.

ولكن قبل هذا أُشيع أنَّ عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قُتِلَ، فدعا النبيُّ ﷺ إلى المُبايعة، فبايَعَهُ الصحابةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على ألَّا يفرُّوا أبدًا، وكان هذا تحت شجرة هناك، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨] وقال النبيُّ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»(١)، وقد أمَرَ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بقطعها، فقُطِعَت، وهذا من فضل عُمَر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على هذه الأُمَّة؛ إذ لو بَقِيَتْ هذه

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة، رقم (٢٤٩٦/ ١٦٣)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في الخلفاء، رقم (٤٦٥٣)، والترمذي: كتاب المناقب، باب في فضل من بايع تحت الشجرة، رقم (٣٨٦٠)، وأحمد (٣/ ٣٥٠)، وهذا اللفظ لغير مسلم.

....

= الشجرةُ إلى اليوم لافتتن الناسُ بها، ولكن من نعمة الله عَزَّوَجَلَّ أن وفَّق هذا الخليفة الراشد إلى قَطْعها، فقَطَعَها، والحمدُ لله.

والشاهد: أن هؤلاء الذين بايعوا الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على ألَّا يفرُّوا أنزل الله عَزَّوَجَلَّ فيهم هذه الآية: أنه رَضِيَ عنهم، والقصة مشهورةٌ.

وفي مُراجعة عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبيِّ ﷺ دليلٌ على أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أشدُّ ثباتًا من عُمَر؛ لأن أبا بكر في الأمور الضيقة الشديدة الهالكة يكون أثْبَتَ من عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهنا كان جواب أبي بكر هو جواب النبيِّ ﷺ سواءً بسواء.

وفي موت الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إن الرسولَ ﷺ لم يمت، وإنما صُعِقَ، وليبعثنَّه الله، فليُقَطِّعنَّ أيْدِيَ رجال منكم وأرجُلَهم، وأنكر أن يكون ماتَ، أمَّا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان في بُسْتانٍ له خارجَ المدينة، ثم لَمَّا بلغه الخبرُ جاء، ورأى النبيَّ ﷺ ميتًا، فكشف الغطاء عن وجهه، وقبَّله، وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! واللهِ لا يجمعُ الله عليك موْتَتَيْنِ، ثم خرج إلى الناس وهم في اضطرابٍ شديدٍ، فصعد المِنْبَرَ، وخطب الناس تلك الخطبة العظيمة المعروفة[1]، فدلَّ هذا على أنه أشدُّ ثباتًا من جميع الصحابة في المقام الضَّنك الشديد.

وفي إرسال جَيْشِ أُسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد وفاة الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أشارَ الناسُ على أبي بكر ألَّا يَذْهَبَ أُسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أطراف الشام، والناس قد ارتدَّ بعضُهم،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٦٦٨)، وفي كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم (٤٤٥٤).

....

= ولكنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أبى، قال: لا أَحُلُّ رايةً عقَدَها رسولُ الله ﷺ[١].

ثم في قتال أهل الرِّدَّة عارضَهُ عُمَرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ولكنه صمَّم على أن يُقاتل[٢]، فهذه كلُّها أمثالٌ تدلُّ على أن أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان ثبَّاتًا في مقام الشدَّة.

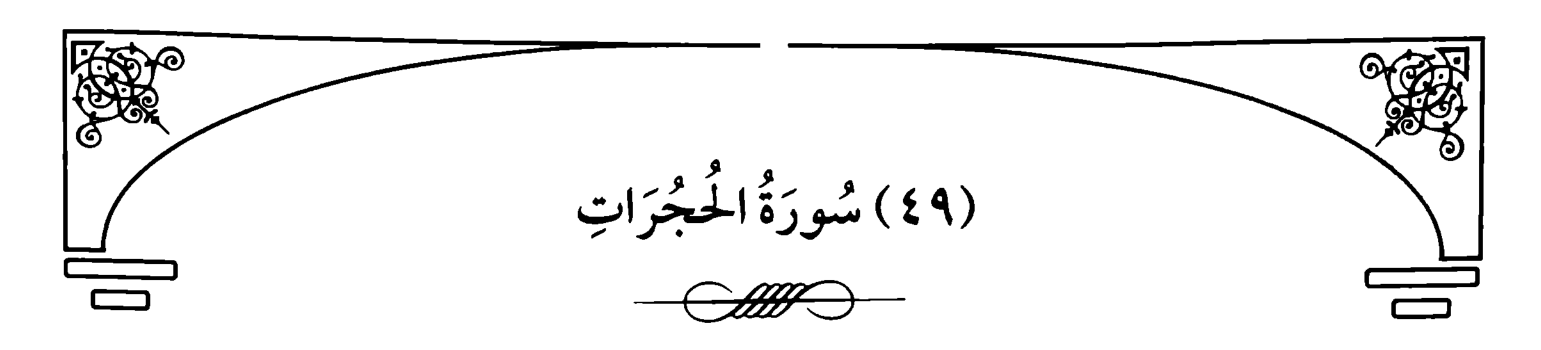
فإن قال قائل: كيف نجمعُ بين سبب النزول هنا وبين ما تقدَّم من أن عُمَر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سأل النبيَّ ﷺ ثلاثَ مرَّات، فلم يُجِبْهُ؟

نقول: قال العلماء: إذا لم يُمكن الجمعُ تعدَّدت الأسبابُ.



(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢/ ٤٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، رقم (٢٠/ ٣٢).



(٤٩) سُورَةُ الحُجُرَاتِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ لَا تَفْتَاتُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ عَلَى لِسَانِهِ[١].

﴿امْتَحَنَ﴾ أَخْلَصَ[٢].

---

[١] يعني بذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات:١] أي: لا تقولوا على رسول الله ﷺ شيئًا، ولا تَقضوا بين يديه بشيء حتى يكون هو القائل؛ لأن القولَ بين يدي الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بشيء لم يقله هذا افتياتٌ عليه، وتقدُّمٌ بين يديه، وإذا كنَّا نُهينا أن نتقدَّم بين يديه فكيف بمَن يُقَدِّم أقوالَ غير الرسولِ على أقوال الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟! يكون هذا أشدَّ وأعظمَ.

وفي نسخة: (لَا تَقَدَّمُوا) وهي قراءةٌ أُخرى(١)، وهذا التفسيرُ الذي ذكره مجاهدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ ينطبق على القراءتين؛ لأن الافتياتَ على الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يعني تقديمَ قولي على قوله، أي: لا تُقَدِّموا قوْلَكم بين يدي الله ورسوله.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات:٣] أي: أَخْلَصها؛ لأن الامتحانَ هو الاختبارُ الذي يتبيَّن به الخالص من الزَّيف، فمعنى: ﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ أي: أَخْلَصها حتى

---

(١) قرأ بها يعقوب الحضرمي من العشرة، وقرأ الباقون بضم التاء وكسر الدال، يُنْظَر: التذكرة في القراءات (٢/ ٥٦٢).

﴿وَلَا تَنَابَزُوا﴾ يُدْعَى بِالكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلَامِ[١].

= كانوا من قوَّة تَقْوَاهم يغضُّون أصواتهم عند الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ احترامًا له، وأدبًا بين يديه.

وفي هذا: دليلٌ على أنَّ رفْع الصوت على الإنسان يُنافي الأدبَ، فلو رفع الإنسانُ صوتَهُ على أبيه أو على أمِّه أو على أخيه الكبير أو ما أشبه ذلك لعُدَّ هذا من سوءِ الأدب.

[١] قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا يَنْبُزْ بعضُكم بعضًا باللقب السَّيِّءِ، مثل: أن يقول له بعد أن أسلم: أنت كافرٌ، أو يقول له بعد أن صار مُتَّقيًا عَدْلًا: أنت فاسقٌ، أو يقول: أنت خُضَيْرِيٌّ، أي: ليس له قبيلةٌ من العرب، أو يقول: أبوك حدَّاد، أبوك حجَّام، أبوك نجَّار، وما أشبه ذلك، فهذا مُحَرَّم، وهو من الفِسْقِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وهل من ذلك بعض الألقاب التي لا يحبُّها صاحبُها؟

نقول: نعم، هو من هذا النوع، فكلُّ لقبٍ سيِّءٍ فهو مَنْهِيٌّ عنه، إلا ما قُصِدَ به الخبرُ، فإن هذا لا بأس به، مثل: الأعرج، والأعمش، والأحول، وما أشبه هذا، ولا يكون هذا تنابُزًا؛ لأن التنابُزَ تدافعٌ بهذه الألقاب، كلُّ واحدٍ يُعَيِّرُ الثانيَ به.

فإن قال قائل: إذا كان لا يرضى لقبه السيِّءَ، ولكن لا يُعْرَفُ إلا به، فكيف يصنع الإنسان؟

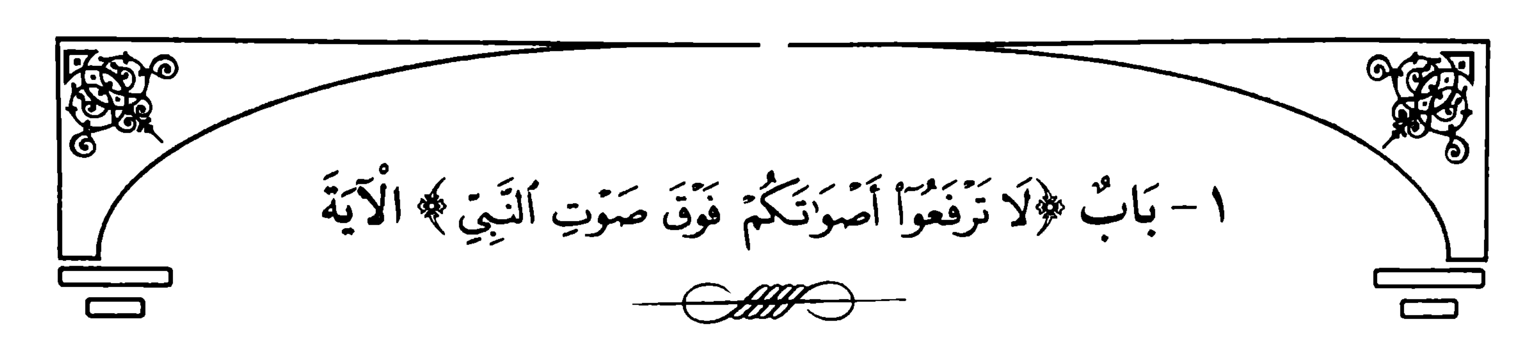
نقول: لا يُلَقِّبه به أمامَهُ، ولكن يقول للناس مثلًا: فلان بن فلان المعروف بكذا.

﴿يَلِتْكُم﴾ يَنْقُصْكُمْ، أَلَتْنَا: نَقَصْنا[١].

---

[١] هذا في قـول الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ [الحجرات:١٤] أي: لا ينقصكم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور:٢١] أي: ما نقصْناهم من عملهم من شيءٍ.





١ - بَابٌ ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الْآيَةَ

﴿تَشْعُرُونَ﴾ تَعْلَمُونَ، وَمِنْهُ الشَّاعِرُ[١].

---

[١] قال الله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: مخافة أن تَحْبَطَ أعمالُكم ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ فتأمَّل هذه الآدابَ العظيمةَ التي وجَّه الله الصحابة إليها بالنسبة إلى رسول الله ﷺ، لكن هل تَرِدُ هذه الآداب بالنسبة لنا؟

الجواب: نعم، تَرِدُ، فإن قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ أي: لا تجهروا حتى يكونَ صوتُكم أرفعَ من صوتِ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا بالكيفيَّة، فكيف بمَن يجعلُ قولَ غير الرسول مُقَدَّمًا على قول الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟! فإن هذا قد رفَع صوتَهُ فوق صوت النبيِّ، أو يقول عن شيءٍ: هذا حرامٌ، فيُقال: إن الرسولَ ﷺ أحلَّه، فيقول: لا، أنا أقول: إنه حرامٌ، فنقول: هذا أشدُّ وأعظمُ.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ يعني: حتى في المخاطبة لا ينبغي أن نُخاطِبَ الرسولَ ﷺ كما نتخاطَبُ بيننا بصوت مرتفع مجهورٍ به، ولكن نُكَلِّمه بأدبٍ.

وهل يصحُّ الاستدلال بهذه الآية على تحريم رفْعِ الصوتِ عند قبر النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟

الجواب: لا، لكن وردَ النَّهْيُ عن ذلك في حديث عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين جاء رجلٌ

٤٨٤٥- حَدَّثَنَا يَسَرَةُ بْنُ صَفْوَانَ بْنِ جَمِيلٍ اللَّخْمِيُّ: حَدَّثَنَا نَافِعُ بْنُ عُمَرَ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: كَادَ الخَيِّرَانِ أَنْ يَهْلِكَا: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رَفَعَا أَصْوَاتَهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ رَكْبُ بَنِي تَمِيمٍ، فَأَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ، وَأَشَارَ الآخَرُ بِرَجُلٍ آخَرَ، قَالَ نَافِعٌ: لَا أَحْفَظُ اسْمَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلَافِي، قَالَ: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ الْآيَةَ.

قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ عَنْ أَبِيهِ، يَعْنِي: أَبَا بَكْرٍ[١].

= من الطائف، فجعل يجهرُ، فقال: لو لا أنَّك من غير هذا البلد لفعلتُ بك كذا وكذا(١).

وهل يُقاس على هذا رَفْعُ الأصوات على العلماء؟

الجواب: لا، لا يُقاس، لكن قد يُقال: إنه ينبغي الأدبُ معهم بما يليق بحالهم، أمَّا أن يُقاسوا على الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فلا؛ لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ وهو يُخاطب الصحابةَ، وفيهم العلماء.

[١] **إذا قال قائل**: كيف كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبًا لابن الزُّبير؟

نقول: لأنه جدُّهُ من قِبَلِ أُمِّه.

وفي هذا: دليلٌ على إطلاق الأبِ على الجدِّ من قِبَلِ الأم، ومن بابٍ أَوْلَى إطلاقه على الجدِّ من قِبَلِ الأبِ.

---

(١) يُنْظَر: صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب رفع الصوت في المسجد، رقم (٤٧٠).

٤٨٤٦- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ: حَدَّثَنَا أَزْهَرُ بْنُ سَعْدٍ: أَخْبَرَنَا ابْنُ عَوْنٍ، قَالَ: أَنْبَأَنِي مُوسَى بْنُ أَنَسٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ افْتَقَدَ ثَابِتَ ابْنَ قَيْسٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ، فَأَتَاهُ، فَوَجَدَهُ جَالِسًا فِي بَيْتِهِ مُنَكِّسًا رَأْسَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ: كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ مُوسَى: فَرَجَعَ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ الْآخِرَةَ بِبِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ، فَقَالَ: «اذْهَبْ إِلَيْهِ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[١].

---

[١] في هذا: دليلٌ على أن الخوف قد تكون عاقبتُهُ خيرًا، فهذا الرجل خاف أن يكون من أهل النار؛ لأنه كان جهوريَّ الصوت، وكان أحدَ خُطَباء النبيِّ ﷺ، وكان فصيحًا بليغًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما نزلت هذه الآية فلشدَّة خوفه من الله عَزَّوَجَلَّ احْتبَسَ في بيته يبكي، حتى كان لا يحضرُ مجالسَ النبيِّ ﷺ، ففَقَدَهُ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وسأل عنه، فقال الرجل: أنا أُخبرُكَ خبرَهُ، فذهب إليه، فقال: ما الذي حَبَسَكَ؟ قال: «شَرٌّ» يعني: بحسب ظنِّه، لا بحسب الواقع، وهو أنه كان يرفع صوته عند النبيِّ ﷺ، فخاف أن يَحْبَطَ عملُهُ وهو لا يشعرُ، هكذا قال الرجل، فأخبَرَ الرجلُ النبيَّ ﷺ بذلك، ولكنه بشَّرَهُ هذه البشارةَ العظيمةَ، قال له: «إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» وقال له في روايةٍ أُخرى، قال: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا، وَتُقْتَلَ شَهِيدًا، وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟»(١) وقُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهيدًا في غزوة اليمامة.

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ»، رقم (٩٤٦)، رواية: محمد بن الحسن، وعبد الرزاق في «المصنف»، رقم (١١/ ٢٣٩).

....

= وهو الذي أَخَذَ أحدُ الجند دِرْعَهُ، ووضعه تحت بُرْمَة عند فرس في العسكر، فلما كان بالليل رآهُ صاحبٌ له في المنام، وقال له: إنه مرَّ بي فلانٌ، وأخذ منِّي الدِّرْع، ووضعَهُ تحت بُرْمَة، عندها فرَسٌ يستنُّ في طرف العسكر، فلما أصبح أخبرَ خالدَ بنَ الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: اذهب واطلبْ هذا الأمْرَ الذي يقول، فذهب، فطلبه، فوجد البُرْمَة على الدِّرْع، وحولها فرَسٌ يستنُّ -أي: يرفع رِجْلًا، وينزل أُخرى- فلما وجدوا هذا الدِّرْع، وكان ثابتٌ قد قال للرجل أيضًا: إذا أتيت أبا بكر فأخْبِرْهُ بكذا وكذا، لدَيْنٍ كان عليه، وأن عبدي فُلانًا حُرٌّ، وعبدي فُلانًا حُرٌّ، فلما وصلوا إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخبروه، فنفذ وصيتَهُ[1]، قالوا: ولم يُوجَد أحدٌ نُفِّذت وصيته بعد موته إلا ثابتُ بنُ قيس بن شمَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

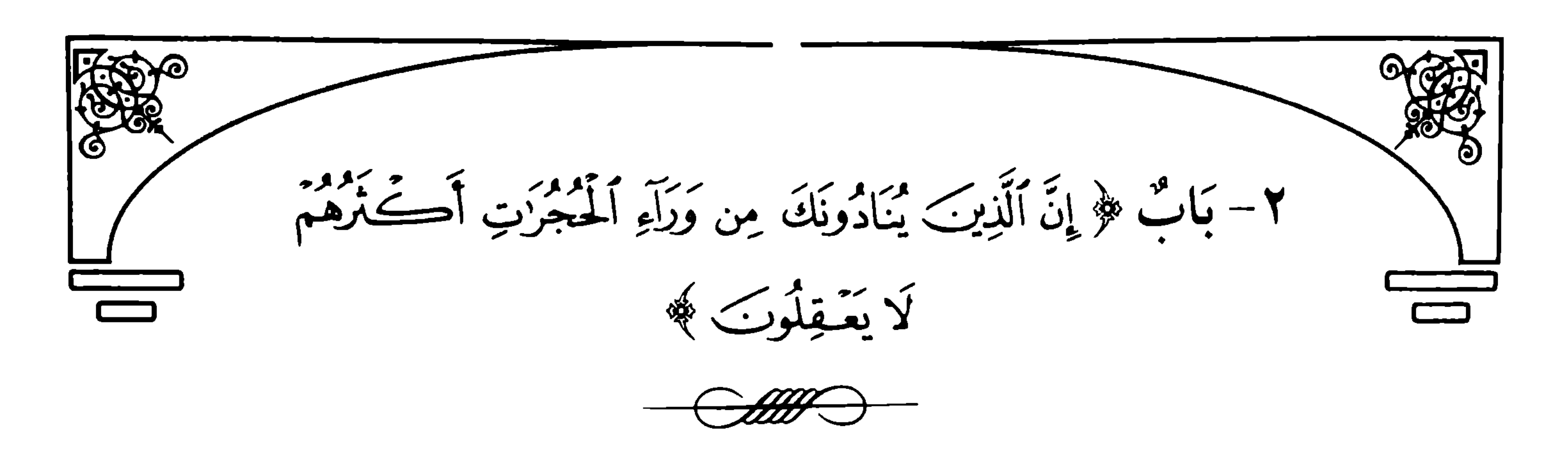
لكن إذا قال قائل: كيف نُفِّذت بعد موته؟

قلنا: لأنه وُجِدَ لها قرائنُ تدلُّ على صدقها، وإلا فلو جاءك إنسانٌ في المنام، وقال مثلًا: تصدَّق لي بكذا وكذا من مالي، فإنها لا تُنَفَّذُ، لكن إذا وُجِدَت قرائنُ تدلُّ على صدقها فإنها تُنَفَّذُ.

وهذا الرجل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصحُّ أن نشهد له بأنه من أهل الجنة، كما نصَّ على ذلك أهل العلم في العقائد.



(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» كما في «المطالب العالية» (١٦/ ٥٠٤، رقم ٤٠٨٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢/ ٧٠، رقم ١٣٢٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٢٣٥).



٢- بَابٌ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

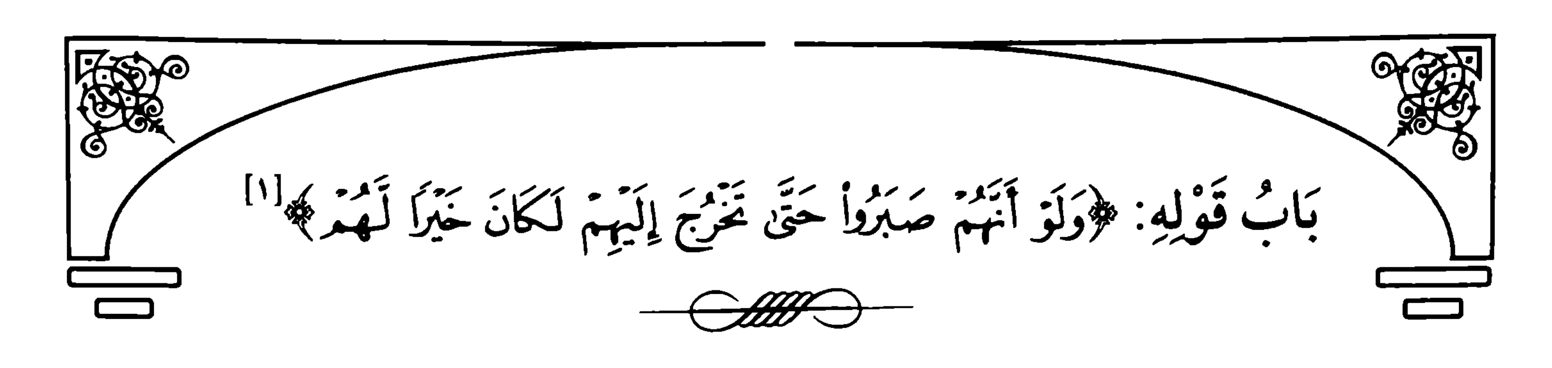
٤٨٤٧- حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ: حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ أَخْبَرَهُمْ: أَنَّهُ قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمِّرِ القَعْقَاعَ بْنَ مَعْبَدٍ، وَقَالَ عُمَرُ: بَلْ أَمِّرِ الأَقْرَعَ ابْنَ حَابِسٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا أَرَدْتَ إِلَى -أَوْ إِلَّا- خِلَافِي، فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ، فَتَمَارَيَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا، فَنَزَلَ فِي ذَلِكَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حَتَّى انْقَضَتِ الْآيَةُ[١].

---

[١] إذا قال قائل: ما المناسبةُ بين الآية وهذا الحديث؟

نقول: لا يظهر هناك مناسبةٌ، لكن الذين نادَوْهُ من وراء الحُجُرات من بني تميمٍ، فلعلَّ الأقْرَع والقعقاعَ كانا معهم.



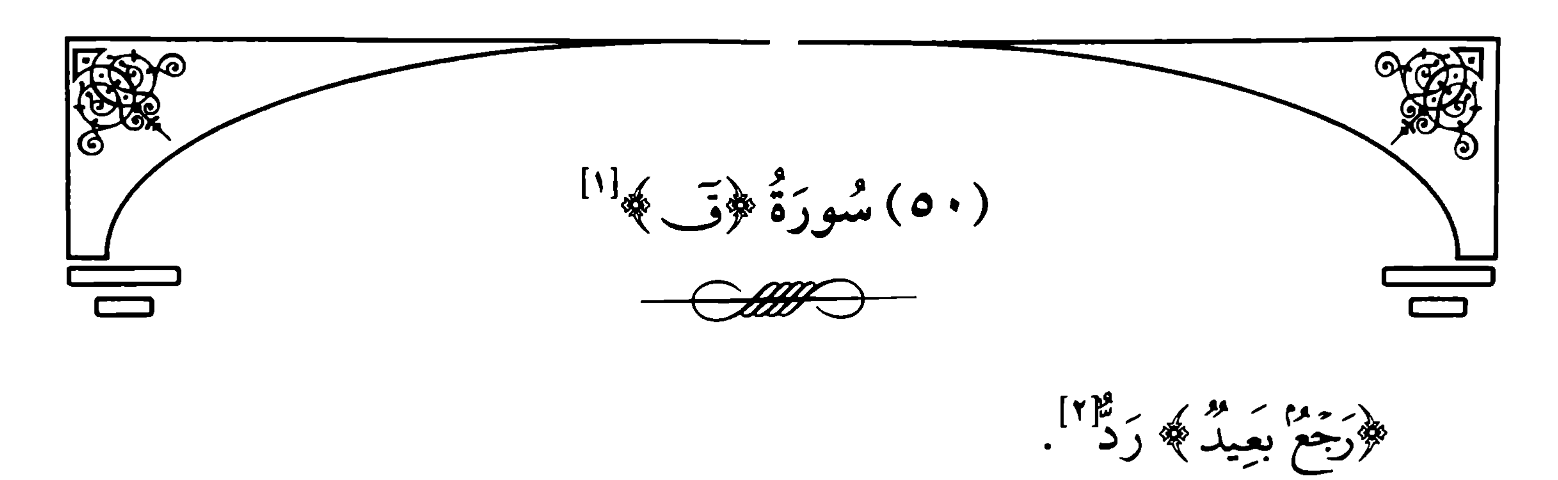


بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[1]

[١] كأن المؤلِّفَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يحضره تفسيرُ هذه الآية.

وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني بذلك: الذين نَادَوْهُ من وراء الحجرات، جاؤوا من وراء حُجُرات النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وجعلوا يُنادون: يا مُحَمَّد! يا مُحَمَّد! اخْرُج، وكان هذا فيه سوءُ أدبٍ مع الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولو كان عندهم عقلٌ كاملٌ لصبروا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ غفَرَ لهم، ورَحِمَهم.





(٥٠) سُورَةُ ﴿قٓ﴾[١]

﴿رَجْعُۢ بَعِيدٞ﴾ رَدٌّ[٢].

---

[١] من قال أن الحروف المقطعة التي في أوائل السور إشارة إلى أشياء ستحدث أو أشياء حادثة، أو أنها إشارة ورموز إلى أسماء الله عَزَّوَجَلَّ فقد قال قولًا بلا علم.

وأمَّا مَن قال: الله أعلم بما أراد بذلك فهذا قطعة من مذهب أهل التفويض، وهو خير من الذي قال: إنها رموز وإشارات إلى وقائع أو إلى أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، لكن مع ذلك فيه شيء من النظر؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل القرآن باللسان العربي، ومقتضى اللسان العربي أن هذه الحروف ليس لها معنى، وعلى هذا فنقول: إنه ليس لها معنى، ولكن إذا قلنا: ليس لها معنى فإن قائلًا يقول: إذن ما الفائدة منها؟

فالجواب: قال العلماء: إن لها فائدةً، وهي: أن هذا القرآن الذي أعجز قريشًا -وهم أُمَراء الفصاحة، وفصحاء الأمراء- إنما كان من هذه الحروف الهجائية التي يَبْنُون منها كلامهم، ولهذا قَلَّ أن تجد سورةً مبدوءةً بحرف من هذه الحروف أو أكثر إلا وجدت بعدها ذكر القرآن، وعليه فيكون لها مَغْزًى، وليس لها مَعْنًى، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١)، وهو قول مُوافق للمعقول غير مخالف للمنقول.

[٢] هذا يقوله الكفار المُنْكِرون للبعث، قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾ يعني: نُرَدُّ، ونُرْجَع؟! ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٞ﴾، فنقول: إنه رَجْع يسير على الله عَزَّوَجَلَّ، وليس ببعيد، قال

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٤٨).

﴿فُرُوجٍ﴾ فُتُوقٍ، وَاحِدُهَا: فَرْجٌ[١].

﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ وَرِيدَاهُ فِي حَلْقِهِ، وَالحَبْلُ: حَبْلُ العَاتِقِ[٢].

= الله تعالى في هذه السورة: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾، وقال في سورة أخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

[١] يُريد بذلك قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾، أي: ما لها من شُقُوق وتفتُّق، بل هي مُحْكَمة قويَّة.

[٢] حَبْل الوريد هو حَبْل العاتق، وهو ما يُسَمَّى بالشرايين، وهو أقرب شيء إلى القلب؛ لأنه الدم الذي يتَّصل بالقلب مباشرةً، ويُشير المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾، ولعلماء السلف في هذه الآية قولان:

الأول: أن المراد: قُرْبُ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، فيكون الله تعالى أقرب إلى كل إنسان من حبل الوريد؛ لأنه يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، سواء كان هذا الإنسان عابدًا، أم داعيًا، أم كافرًا مُتمرِّدًا، فالله تعالى أقرب إليه من حبل الوريد.

القول الثاني: أن المراد بالقرب: قُرْبُ الملائكة، لا قُرْبُ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن قُرْبَ الله لا يكون لعامَّة الناس، فإن قرب الله عَزَّوَجَلَّ نوع من التشريف والتكريم لِـمَن كان قريبًا منه، وهذا لا يستقيم لكلِّ واحد من الناس، وإنما يستقيم لِـمَن كان يعبد الله عَزَّوَجَلَّ، أو كان يدعو الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى**

....

= **أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»**[1]، وقال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»[2]، فقُرْبُ الله إنما يكون من العابد أو الداعي، أمَّا عامة الناس فلا يكون الله قريبًا منهم.

وقُرْبُ الملائكة لا يمتنع أن يكون مُضافًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الملائكة جنود الله، يأتمرون بأمره، ولا يعصون الله ما أمرهم، وقُرْبُ الجنود قُرْب لمُدَبِّرهم ومولاهم في الواقع.

واختار هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأيَّده بقوله: إن قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ مُتعلِّق بـ: ﴿أَقْرَبُ﴾، أي: نحن أقرب إليه في هذه الحال: في حال تلقِّي المُتَلَقِّيين عن اليمين وعن الشمال قعيد[3]، وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً على أن المراد بالقرب هنا: قرب الملائكة.

وهذا -والله أعلم- أقرب إلى الصواب من القول الأول، وليس فيه خروج عن ظاهر اللفظ ما دام هناك قرينتان:

الأولى: قرينة لفظيَّة، وهي قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾.

والثانية: قرينة معنويَّة، وهي أن القُرْبَ نوع من التَّكريم والتشريف، ولا يكون هذا لعموم الناس.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٤٠٢).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢/ ٢١٥).
(٣) بيان تلبيس الجهمية (٦/ ٣٣).

....

= ونظير هذه الآية من بعض الوجوه: قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٥]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح حديث النزول: أقرب إليه بملائكتنا، والمراد بالملائكة: الذين يحضرون الميت لقبض روحه[1]، ودليل ذلك: قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾، والله عَزَّوَجَلَّ ليس قريبًا من الميت بذاته، بحيث يكون في المكان، ولكننا لا نُبْصِره، وإنما الذي يكون في المكان ولا نُبْصِره هم الملائكة، وهذا هو القول الراجح.

وبناءً على هذا القول لا يصحُّ أن نُقَسِّم القرب إلى قسمين بخلاف المعيَّة، فإننا نُقَسِّم المعيَّة إلى قسمين، أمَّا القرب فيكون قسمًا واحدًا، وهو قرب الله عَزَّوَجَلَّ من عابده وداعيه، وأمَّا مَن قال: إن المراد قرب الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يُقَسِّم القرب إلى قسمين كالمعيَّة.

فإذا سألنا سائل: كيف قرب الله عَزَّوَجَلَّ؟

قلنا: هو عَزَّوَجَلَّ قريب بذاته، مع علوِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذلك لأن القرب أُضيف إليه: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، وكل شيء يُضاف إلى الله فالمراد: إليه ذاته، إلا بدليل، وإذا تصوَّرنا عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا يُمكن أن يُحاط به، وأن السموات السبع والأرضين السبع في كفِّه كخَرْدَلة في يد أحدنا، بل أدنى من ذلك، عُلِمَ بأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قريب في عُلُوِّه، عليٌّ في دُنُوِّه كما قال أهل العلم، وقد قال الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ**»، والضمير في «**أَقْرَبُ**» يعود إلى قوله: «**الَّذِي تَدْعُونَ**»، أي: المدعو، وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٩٤).

....

ومَن عَرفَ عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا يُمكن أن يُحاط به، أو أن يُقاس بخَلْقِه، تبيَّن له أن هذا أمر ممكن في حق الباري، كما أن النصوص تدلُّ على عُلُوِّه ومعيَّته، وعلى عُلُوِّه ونزوله إلى السماء الدنيا، وعلى عُلُوِّه وإتيانه للقضاء بين العباد، فكلُّ هذا تدلُّ عليه، ونحن نأخذ بظاهرها، ولكن نمنع القياس، فمثلًا: إذا كان الإنسان منَّا عاليًا فإنه لا يُمكن أن يكون قريبًا ممَّن هو في الأسفل، وإن كان القرب فيما بين المخلوقات يكون قربًا نسبيًّا، فمَن في المسجد قريبون من الإمام، لكن الصف الأول أقرب من الثاني.

فإن قال قائل: أليس المراد هنا: أقرب بعلمه؟

فالجواب: قد قال بعض العلماء: إن المراد: قريب بعلمه، لكن هذا لا يستقيم؛ لأن العلم لا ينفصل عن العالِم، بل هو صفة العالِم، والحقيقة أن المُنْفَصل عن العالِم هو المعلوم، فمعلومُ الله يكون في الأرض، لكن عِلمه صفتُه، والوصف يكون مع الموصوف، فليس هو شيئًا بائنًا عن الله عَزَّوَجَلَّ، بحيث نقول: إن العلم يكون في الأرض، والعالِم يكون في السماء، ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المراد: قريب بذاته[1].

فإن قال قائل: كيف يكون الله معنا حقيقةً بذاته، وهو فوق؟ هذا مُتعذِّر!

نقول: هذا بالنسبة للمخلوق صحيح، فإن الذي في السطح لا يُمكن أن يكون في السطح وفي الأسفل؛ لأنه تُحيط به الأشياء، لكن مَن كان بكل شيء محيطًا يُمكن أن يكون فوق، ونقول: هو أقرب إلينا من حبل الوريد، ولا تظنَّ أن المراد: أنه معنا في المكان هنا، أو إذا كنت في مكان آخر يكون معك، فإن هذا لا يُمكن، ولو أن الإنسان

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ١٢٥٥).

= أثبت بآيات القُرب أن الله عَزَّوَجَلَّ معه في المكان فقد نفى أن يكون عاليًا، ولهذا الذين يقولون: إن الله بذاته في كل مكان يقولون: ليس في العلو.

ولو أنه أثبت أن الله عالٍ لم ينتفِ القرب؛ لأن الله تعالى محيط بكل شيء، ولا يُمكن أن نتصوَّر كيف هذه الإحاطة؟ لأنه ليس لنا فيها علم، وهي فوق ما يُدركه العقل.

ونحن لا نتصوَّرُ هذا؛ لأننا لا نُحيط بالله علمًا، وإذا كان الرائي يرى الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يُدْرِكُه ببصره، فكيف سيُدْرِكه بعقله؟

وهذا كما نقول في المعيَّة، فهو عَزَّوَجَلَّ مع خَلْقِه حقيقةً لا مجازًا، كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (العقيدة الواسطيَّة)[1]، لكنها لا تستلزم الحلول في المكان، حتى في المخلوق، فإن القائد يقول لجنده: «اذهبوا، وأنا معكم»، وإن كان هو في مكانه، وكذلك يُقال للزوجة: «إنها مع زوجها»، يعني: لم يُفارقها، وإن كانت في بلد، وهو في بلد، وتقول: «أتى إلينا بلبن مع ماء» أي: مشوبًا ومخلوطًا به، ويقولون: «الكشك: لبن مخلوط بالقمح».

فالمعيَّة لفظ يدلُّ على مُطْلَق المصاحبة، وتكون المصاحبة في المعيَّة بحسب ما تُضاف إليه، فتارةً تقتضي الاختلاط، وتارةً تقتضي المقاربة الذاتيَّة مع المشاركة في المكان، وتارةً تقتضي مُطْلَق المصاحبة وإن لم يكن هذا مُسْتلزمًا لكونهم في مكان واحد.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٢).

....

= ولهذا تقول العرب كلامًا فصيحًا: «ما زلنا نسير، والقمر معنا»، مع أنه في السماء، وإذا كان على الطريق جبل مشهور كبير طويل يقولون: «نحن نسير والجبل معنا»، وإن كان بعيدًا عنهم.

والمهم أنه يجب أن تعلم عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه فوق ما يتصوَّره الإنسان، وأنه ليس كالخَلْق، بحيث نقيس ما ثبت له من الصفات على ما ثبت لنا، كما أننا لا نرى ما وراء الجدار، والله عَزَّوَجَلَّ يرى الذي وراء الجدار، ويرى الذي في أعماق البحار، ولا يمنعه شيء، وكذلك السمع، مع أننا شاهدنا من صنع البشر ما نرى به ما وراء الجدار، وما نسمع به ما لا تُدركه آذاننا من بعيد، لكن مع هذا لا يُمكن أن يكون هذا كهذا.

وهاهم الناس في المسجد لو كانوا ألفي رجل، وكلهم يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ومع ذلك يُخاطب الله عَزَّوَجَلَّ كلَّ واحد منهم، فيقول: «حَمِدَنِي عَبْدِي»، وهل يظنُّ أحد أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ مُتعدِّدًا بعدد مَن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟

الجواب: لا، مع أنه في البشر يستحيل أن يُخاطب ألفي رجل، كل واحد منهم يختلف عن الآخر في الوقوف على الآية.

فصفات الله عَزَّوَجَلَّ ليست كصفات المخلوق، ولا تُقاسُ بها، فعلى الإنسان أن يُثْبِت ما جاء به النص، وينفي عن الله عَزَّوَجَلَّ كلَّ نقص أو مماثلة للمخلوقين.

وهذا هو الطريق الأسلم؛ لأنك إذا قابلت الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة، وقد قال في كلامه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]،

= وقال نبيه ﷺ عنه واصفًا إيَّاه: «**إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا**»[١]، وقال: «**إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**»[٢]، فكيف تقول له إذا قلت: ما أنت بقريب، وإنما القريب علمك؟!

ولهذا نقول: هو عَزَّوَجَلَّ قريب في عُلُوِّه، عَلِيٌّ في دنوِّه، ولا منافاة، ولو وقع التنافي في هذا بالنسبة للمخلوق فليس متنافيًا بالنسبة للخالق عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا لو قال قائل: كيف تجمع بين الآيات الدالَّة على علوِّه، والدالَّة على قُرْبِه؟ وهل بينهما تناقض؟

فالجواب أن نقول: ليس بينهما تناقض، من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن النصوص جمعت بينها، والنصوص لا تتناقض، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، فنحن نقول: هو قريب، وهو عالٍ.

الوجه الثاني: أنه يصح في اللغة العربية أن يكون الشيء عاليًا، وهو معك أو قريب منك، بدليل: أن العرب يقولون: «ما زلنا نسير، والقمر معنا»، وما أشبه ذلك من الكلام.

الوجه الثالث: أنه لو قُدِّر أن بين هذين المعنيين تعارضًا بالنسبة للمخلوق فلا يلزم ذلك في حق الخالق؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (٤٢٠٢)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٤/ ٤٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٤٠٢).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ﴾ مِنْ عِظَامِهِمْ[١].

﴿تَبْصِرَةً﴾ بَصِيرَةً[٢].

﴿حَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ الحِنْطَةُ.

﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ الطِّوَالُ[٣].

= ويلزم من كونه عَزَّوَجَلَّ معنا أن يكون عالِـمًا بنا، قادرًا علينا، ذا سلطان علينا، إلى غير ذلك.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾، والصواب أنها أعم من ذلك، أي: ما تنقص من عظامهم، وجلودهم، ولحمهم، وأعصابهم، وغير ذلك، فالله عَزَّوَجَلَّ يعلم ما تنقص الأرض منهم إذا دُفِنُوا فيها، وهذا النقص الذي نقصته سوف يعود خَلْقًا جديدًا عند النفخ في الصُّور.

فإن قال قائل: وهل يستقيم أن يكون المراد بالنقص هنا: الموت؟

نقول: لا؛ لأن هذه الآية في الرد على مَن قالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾، يعني: كيف نرجع، ونحن عظام ورُفات؟! هذا لا يُمكن، فقال الله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، وسنُعيده يوم القيامة على ما كان.

[٢] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

[٣] قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ أي: مرتفعة عالية، ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي: مُنَضَّد، بعضه إلى جنب بعض.

﴿أَفَعَيِينَا﴾ أَفَأَعْيا عَلَيْنَا[١].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الشَّيْطَانُ الَّذِي قُيِّضَ لَهُ[٢].

﴿فَنَقَّبُواْ﴾ ضَرَبُوا[٣].

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ لَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِغَيْرِهِ[٤].

---

[١] ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي: أَأَعْجَزَنا الخَلْقُ الأول؟! والمراد بالخَلْق الأول: حين أنشأ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإنسان.

والجواب: لا، لم يُعجزه، وإذا كان لم يُعجزه الخَلْق الأول فكيف يُعجزه الخَلْق الثاني؟! فإن مَن قَدِرَ على الخَلْق الأول فهو قادر على الخَلْق الثاني، ثم انتقل مُبَيِّنًا ما هم عليه من الضلال، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، و«بل» هنا للانتقال؛ ليُبَيِّن حال هؤلاء.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾، فإن كان البخاري يقصد هذا ففيه نظر ظاهر؛ لأن هذا القرين هو المَلَك الكاتب الذي يكتب، يقول: هذا ما عندي عتيد، أي: حاضر، أمَّا قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ [ق:٢٧] فهذا هو الشيطان.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: طلبوا الفرار ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: هل من ملجأ؟ والجواب: لا، لم يجدوا ملجأً، بل أُخِذُوا بالعذاب، وفيها -أظن- قراءة: (فَنَقِّبُوا فِي البِلَادِ)(١).

[٤] لـمَّا ذكر الله تعالى الموعظة العظيمة في هذه السورة قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ

---

(١) يُنْظَر: معجم القراءات (٩/ ١١٤).

....

= لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ أي: عقل وفهم ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: استمع وهو حاضر القلب، حتى وإن لم يكن ذا عقل في الأصل، فإن القرآن لابُدَّ أن يُؤَثِّر عليه، ولهذا سمع القرآن أُناس من المشركين، وأثَّر عليهم قبل أن يكون لهم قلوب يعقلون بها.

و«أو» في الآية ليست بمعنى: الواو؛ لأن الأصل عدم ذلك، ولكنها للتنويع، يعني: إمَّا إنسان عاقل له قلب، فهذا سيتذكَّر بمُجَرَّد أن يمرَّ عليه هذا الشيء، وإمَّا إنسان ليس ذا عقل كامل، لكن عنده إلقاء للسمع، واستماع للقرآن.

والمراد بمَن له قلب: المؤمن، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥]، لكن حتى القرآن إذا سمعه الإنسان وإن لم يكن مؤمنًا فلابُدَّ أن يتأثَّر إذا ألقى السمع وهو شهيد.

وفي هذا: دليل على قوة تأثير القرآن الكريم، وأنه مُؤَثِّر بذاته حتى وإن لم يكن عند الإنسان استعداد للقبول، لكن إذا ألقى السمع وحضر وأنصت، ولم يشتغل بغيره، فلابُدَّ أن يتَّعظ ويتأثَّر، فلو جاء إنسان قارئ يُعْطِي القراءة حقَّها، فإن العامِّيَّ ولو لم يفهم المعنى على سبيل التفصيل، لكن يفهمه على سبيل الإجمال، ويتأثَّر، أمَّا مَن لم يفهمه لاختلاف اللغة فهذا لا يُمكنه أن ينتفع به.

وهل هذا يُؤَيِّد القول بأننا لا نخطب يوم الجمعة بسورة ﴿قٓ﴾ إلا بالتفسير؛ لأن الناس إذا لم تُفَسَّر لهم فإنهم لا يعرفون معناها، فلا يتَّعظون بها؟

﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ رَصَدٌ[١].

﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ المَلَكَانِ: كَاتِبٌ، وَشَهِيدٌ[٢].

﴿شَهِيدٌ ﴾ شَاهِدٌ بِالغَيْبِ[٣].

﴿مِن لُّغُوبٍ ﴾ النَّصَبُ[٤].

= نقول: هذا طيِّب، ويُقال: إن الرسول ﷺ اقتصر عليها(١)؛ لأن الصحابة كانوا يفهمونها تمامًا.

[١] قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: رَصَد حاضر يكتب ما يقول.

وهل هذه أسماء للملائكة؟

الجواب: لا، هذا وصف، فقوله: ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: مَلَك مُراقِب حاضر.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: سائق يسوقها، وشهيد يشهد عليها، وهما مَلَكَان.

[٣] وقع في نسخة: «شَاهِدٌ بِالقَلْبِ»، ونسخة «بِالغَيْبِ» أحسن.

[٤] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ أي: نصب، وهو التعب والإعياء، وهذا من الصفات السلبية.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٧٢/ ٥٠) (٨٧٣/ ٥١).

....

والصفات السلبية التي يصف الله عَزَّوَجَلَّ بها نفسه هي في الواقع صفات ثبوتيَّة؛ لأن المقصود بها نفي النقص عمَّا تتضمَّنه من صفة الكمال، فإذا قلت: لا يتعب فالمعنى: أنه كامل القوة، وهذه القوة لا يلحقها تعب؛ لأن القوة من حيث هي قوة قابلة للتعب والنقص، لكن قوة الله عَزَّوَجَلَّ بخلاف ذلك، فكلُّ الصفات السلبيَّة تتضمَّن صفاتٍ ثبوتيَّةً؛ لأن المراد بها نفي النقص عمَّا دلَّت عليه هذه الصفة من الصفات الثبوتيَّة، وليست هي نفيًا محضًا فقط؛ لوجوه:

الأول: أن النفي المحض عدم، والعدم ليس بشيء، فضلًا عن أن يكون كمالًا، فإذا قلنا: «ما في هذا المكان شيء» فمعنى هذا: أنه لا يُوصَف بنقص، ولا بكمال؛ لأنه عدم.

الثاني: أن نفي النقص قد يكون لعدم القابلية، لا للكمال، كما لو قلت: «إن الجدار لا يظلم»، وذلك لأنه غير قابل للظلم أو العدل.

الثالث: أن نفي النقص قد يكون عجزًا، لا كمالًا، كما لو قلت: «فلان لا يظلم» لأنه ضعيف عاجز، ليس عنده قدرة، بل هو مغلوب، لا لأنه عَدْل أو عفو يحب العفو.

ومنه قول الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ[1]

فقوله: «لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ** وَلَا يَظْلِمُونَ» إنما يفعلون ذلك؛ لأنهم عاجزون لا يستطيعون، وإن كانوا يرغبون أن يظلموا الناس ويغدروا، والظلم والغدر عند

(١) البيت للنجاشي الحارثي، يُنْظَر: زهر الآداب (١/ ٤٦).

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿نَّضِيدٌ﴾ الكُفُرَّى مَا دَامَ فِي أَكْمَامِهِ، وَمَعْنَاهُ: مَنْضُودٌ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ أَكْمَامِهِ فَلَيْسَ بِنَضِيدٍ[١].

= البادية صفة كمال، ولهذا كان فيما سبق إذا خطب إنسان من جماعة، قالوا: كم أغار على قوم من مرَّة؟ وكم قتل؟ وكم ظلم؟ فإذا قالوا: أغار على آل فلان، وقتلهم، وغنم أموالهم، قالوا: نقبل به، وإن قالوا: ما أغار على أحد قالوا: لا نُزَوِّجك، ولهذا نقول: إن قول الشاعر:

قُبَيِّلَـــةٌ لَا يَغْـــدِرُونَ بِذِمَّــــةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَـرْدَلِ

هذا يُعْتَبر نقصًا، وكذلك قول الشاعر:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَـانُوا ذَوِي حَسَـبٍ لَيْسُوا مِـنَ الشَّـرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَـا

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْـلِ الظُّلْـمِ مَغْفِـرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْـلِ السُّـوءِ إِحْسَـانَا(١)

فهنا ذمَّ قومهم؛ لأنهم كانوا يفعلون ذلك لأنهم عاجزون، ولهذا قال بعد هذا البيت:

فَلَيْـتَ لِي بِهِـمُ قَوْمًـا إِذَا رَكِبُـوا شَـنُّوا الإِغَـارَةَ فُرْسَـانًا وَرُكْبَانَـا

والمهم: أنه يجب أن نعلم أن صفات الله عَزَّوَجَلَّ السلبية ليست نفيًا محضًا، بل هي نفي مُتضمِّن للكمال، وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لكمال صفاته انتفى عنه هذا النقص.

[١] النضيد هو المرصوص بعضه على بعض، والطَّلع لا يكون مرصوصًا بعضه على بعض إلا إذا كان في الكُفُرَّى، وهو وعاء الثمر.

---

(١) البيت لقريط بن أنيف، كما في شرح الحماسة للتبريزي (١/ ١٠)، وشرح الحماسة للمرزوقي (١/ ٢٤).

﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ كَانَ عَاصِمٌ يَفْتَحُ الَّتِي فِي ﴿قٓ﴾، وَيَكْسِرُ الَّتِي فِي الطُّورِ، وَيُكْسَرَانِ جَمِيعًا، وَيُنْصَبَانِ[١].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَوْمَ الخُرُوجِ: يَوْمَ يَخْرُجُونَ إِلَى البَعْثِ مِنَ القُبُورِ.

[١] يعني بذلك قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور:٤٩]، أي: الفجر؛ لأن النجوم تُدْبِر ويزول سلطانها.

وأمَّا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة ﴿قٓ﴾: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ فهي جمع دُبُر، والمراد: ما بعده.

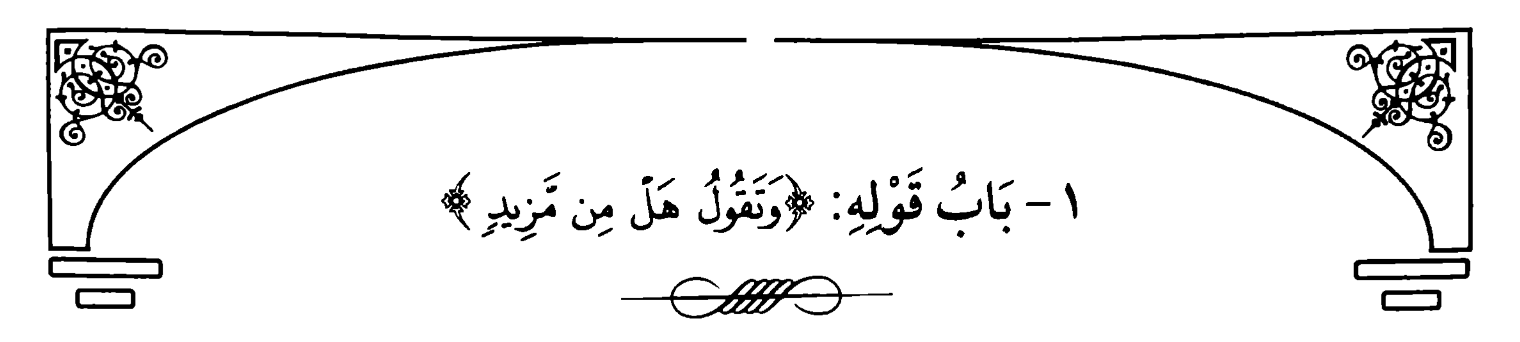
وقول المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**كَانَ عَاصِمٌ يَفْتَحُ الَّتِي فِي** ﴿قٓ﴾» على أنها جمع: دُبُر، «**وَيَكْسِرُ الَّتِي فِي الطُّورِ**» أي: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وَيُكْسَرَانِ جَمِيعًا، وَيُنْصَبَانِ**» يعني بالنصب: فتح الهمزة، وهذا على خلاف اصطلاح النحويين، فإن اصطلاح النحويين: يُفْتَحان؛ لأن النصب هو الذي يكون بعامل.

فأمَّا قراءة (**أَدْبَارِ النُّجُومِ**) بالفتح فشاذَّة، وأمَّا باقي القراءات فهي سبعيَّة(١).



(١) قرأ بفتح الهمزة في سورة ﴿قٓ﴾ أبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائي، وقرأ بكسرها نافع وابن كثير وحمزة، وقرأ السبعة كلهم بكسر الهمزة في سورة الطور، يُنْظَر: التبصرة في القراءات السبع، (ص:٦٨٢).



١- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾

٤٨٤٨- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي الأَسْوَدِ: حَدَّثَنَا حَرَمِيُّ بْنُ عُمَارَةَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**يُلْقَى فِي النَّارِ، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ، قَطْ**».

٤٨٤٩- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى القَطَّانُ: حَدَّثَنَا أَبُو سُفْيَانَ الحِمْيَرِيُّ سَعِيدُ ابْنُ يَحْيَى بْنِ مَهْدِيٍّ: حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ -وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُوقِفُهُ أَبُو سُفْيَانَ- «**يُقَالُ لِجَهَنَّمَ: هَلِ امْتَلَأْتِ؟ وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ فَيَضَعُ الرَّبُّ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **قَدَمَهُ عَلَيْهَا، فَتَقُولُ: قَطْ، قَطْ**».

٤٨٥٠- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالمُتَكَبِّرِينَ وَالمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ، قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ **مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ **يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا**»[١].

---

[١] في هذه الأحاديث: أن النار لا يزال يُلْقَى فيها أهلُها، وتقول: هل من مزيد؟

....

= قال بعض العلماء: إن الاستفهام هنا بمعنى: النفي، أي: لا مزيد، وقال بعض العلماء: إن الاستفهام هنا بمعنى: الطلب، يعني: زِدْني، وهذا القول هو الأصحُّ، بل هو المُتعيِّن؛ لهذه الأحاديث.

ثم إن الرب عَزَّوَجَلَّ يضع عليها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، أي: ينضمُّ، وتقول: «قَطْ، قَطْ»، أي: حَسْبي، حَسْبي، كفى.

وفي هذا من صفات الله عَزَّوَجَلَّ: إثبات القَدَم، ولكن يجب أن نعلم بأن هذه القَدَم لا تُماثل أقدام الخَلْق؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ولا يحلُّ لنا أن نتصوَّر أو أن نُخَطِّط كيفيَّةً له، فيجب علينا حِيال هذه الصفة وغيرها يجب علينا أمران:

الأول: أن نُؤمن بأنه لا مثيل لصفات الله.

الثاني: أن نجتنب التكييف لصفات الله تعالى، سواء كان نطقًا باللسان، أو تقديرًا بالجَنَان، فلا يجوز لك أن تُكيِّف؛ لأن هذا أمر لا عِلْمَ لك به، قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين سُئِلَ عن الاستواء، قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول»[1]، ولا يُمكن لأحد أن يتصوَّر كيفيَّة صفات الله عَزَّوَجَلَّ، ومَن قال بالكيفيَّة فقد قال على الله ما لا يعلم، وتجرَّأ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن وقع في قلبه شيء فإنه يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويُعْرِض.

وعلى هذا فنُؤمن بأن لله تعالى قَدَمًا، ولكن لا تُشبه أقدام المخلوقين، كما أن له

---

(١) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (ص:٥٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٠٥).

....

= ساقًا لا تُشبه سُوق المخلوقين، وله وجه لا يُشبه أوجه المخلوقين، وله عين لا تُشبه أعين المخلوقين، وله يد لا تُشبه أيدي المخلوقين، وهكذا.

وقوله بعد ذكر النار: «وَلَا يَظْلِمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا» عُلِمَ من هذا: أنه لو عذَّبهم بدون ذنب فإنه ظُلم؛ لأن الله تعالى حدَّ لهم حدودًا، ورَسَم لهم أشياء، افعل كذا ولك كذا، إن فعلت كذا فعليك كذا.

وأمَّا مَن قال: إنه عَزَّوَجَلَّ لو عذَّبهم بدون ذنب فإنه ليس بظالِم؛ لأن هذا ملكه، فإننا نقول في الجواب: إذا كان الرجل مُطيعًا لله تعالى بحسب ما أُمِرَ، ثم عاقبه الله، وقعنا في ثلاثة أمور:

الأول: أن هذا يُعْتَبر تكذيبًا لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله تعالى وعد هؤلاء الطائعين بالحُسْنى، فإن قلنا: إنه يُمكن أن يُعاقبهم لكان مقتضى ذلك أنه يُمكن أن يكذب فيما وعد، وهذا شيء مستحيل.

الأمر الثاني: أننا لو قلنا بالجواز لكان ذلك ظلمًا بلا شَكٍّ.

الأمر الثالث: أننا لو قلنا: إنه لا يُوصَف بالظلم؛ لأنه مُتصرِّف في ملكه، لم يكن في ذلك تمدُّح بنفي الظلم عنه، وأيُّ مدح يكون لله تعالى في نفي الظلم عنه حينئذ؟!

وعلى هذا فنقول: إن الظلم في حق الله تعالى جائز عقلًا، لكنه ممتنع بحسب ما لله تعالى من كمال العدل، وإلا فلو شاء لعذَّب، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: **«يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»**[1]، وهذا يدلُّ على أنه ممكن، لكن لكمال عَدْلِه لا يُمكن أن يظلم.

---

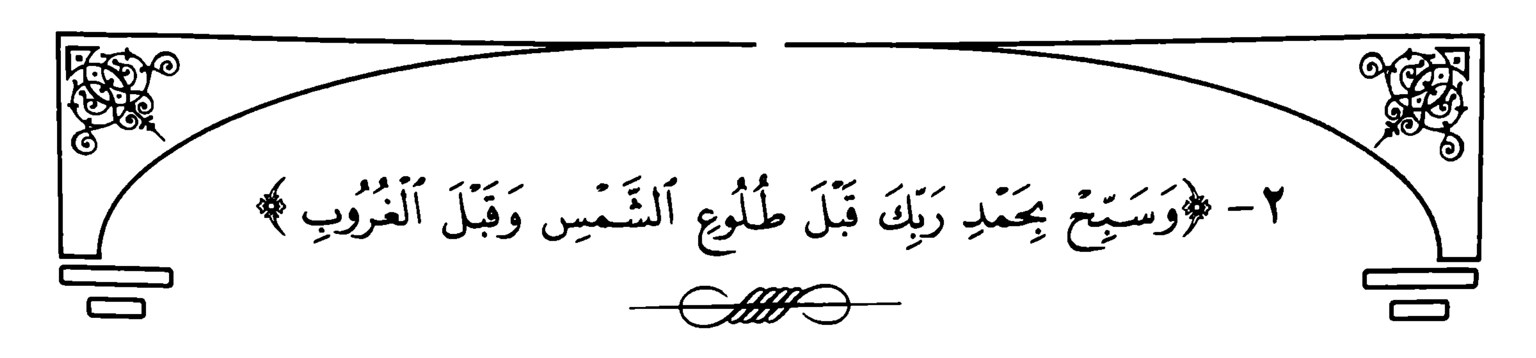
(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧/ ٥٥).

....

= وعلى هذا فإذا قال قائل: هل يصح أن نقول: إن مَن عمل صالحًا واجتنب الحرام فإنه لا يُمكن أن يُعَذَّب؟

فالجواب: نعم بحسب وَعْد الله عَزَّوَجَلَّ، ولا نجزم بعكس هذا إلا فيمَن أشرك؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، لكن نجزم بأنه مستحق، أمَّا أن نجزم بأنه يُعَذَّب فلا، ولهذا نقول: رحمة الله سبقت غضبه، وليس في هذا تكذيب؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فهو تحت المشيئة.





٢- ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾

٤٨٥١- حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ جَرِيرٍ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ، فَقَالَ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[١].

---

[١] قول جرير بن عبد الله البَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنَّا جُلُوسًا لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ» هذه الليلة هي أكثر ما يكون القمر امتلاءً بنُوره، وهو أَبْين وأوضح ما يكون، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا**» ويُشير إلى القمر، والمراد: سترونه رؤية عين؛ لوجهين:

الوجه الأول: أن الفعل «سَتَرَوْنَ» لم ينصب إلا مفعولًا واحدًا، والرؤية العِلْميَّة تنصب مفعولين.

الوجه الثاني: أنه قال: «**سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا**»، وهم يرون القمر بأعينهم، فتعيَّن أن تكون رؤيةً بصريَّةً.

وليس التشبيه هنا تشبيهًا للمرئي بالمرئي؛ لسببين:

السبب الأول: أن مثل هذه الصيغة لا تقتضي ذلك؛ لأنه قال: «**كَمَا تَرَوْنَ**»، فأَدْخل كاف التشبيه على الرؤية؛ لأن «ما» هنا مصدريَّة، وإذا حوَّلت الفعل بعدها إلى

....

= مصدر يكون التقدير: «كرؤيتكم»، فالخطاب هنا لا يقتضي أن يكون تشبيهًا للمرئي بالمرئي، ولكنه تشبيه للرؤية بالرؤيــة، أي: رؤية حقيقيَّــة واضحة بالعــين كما ترون هذا.

السبب الثاني: أن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ولا يُمكن أن يأتي كلام الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُناقضًا لكلام الله عَزَّوَجَلَّ.

وليُعْلَم أن أحاديث الرؤية متواترة عن النبــي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، رواها عنه بشر كثير، وهي في ضمن البيتين المشهورين في قول الناظم[١]:

مِمَّا تَوَاتَرَ: حَدِيثُ «مَــنْ كَــذَبْ» وَ«مَنْ بَنَــى لله بَيْتًــا وَاحْتَسَــبْ»

وَرُؤْيَــةٌ، شَــفَاعَةٌ، وَالحَــوْضُ وَمَسْحُ خُفَّــيْنِ، وَهَــذِي بَعْــضُ

أمَّا القرآن فقد دلَّ على الرؤية في مواضع، منها:

١- قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

٢- قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، حيث فسَّرها النبي ﷺ بالنظر إلى وجه الله[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

---

(١) ذكره الكتاني في نظم المتناثر (ص: ١٨)، نقلًا عن الشيخ أبي عبد الله محمد التاودي في حواشيه على الجامع الصحيح.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم، رقم (١٨١/ ٢٩٧-٢٩٨).

....

=

٤- قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]، فهذه الآية تدلُّ على الرؤية؛ لأنه نفى الإدراك، فدلَّ على وجود أصل الرؤية، فقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: لا تقدر أن تُحيط به الأبصار، فهي -إذن- تراه، لكنها لا تُحيط به؛ لأنه لو كانت لا تراه لقال: «لا تراه الأبصار»؛ لأن نفي الأخص يستلزم نفي الأعم، ونفي الأخص -والمقصود نفي الأخص والأعم- يُعْتَبر عِيًّا في القول، وخروجًا عن البلاغة، فإذا كان الأعمُّ منتفيًا فلماذا تنفي الأخص؟! وهل هذا إلا تلبيس وتشويش على الناس.

والغريب أن هذه الآية استدلَّ بها مَن يُنْكِرُون الرؤية، وقالوا: إن الله لا يُرى؛ لأنه يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، فنقول: هذا شطط من الاستدلال، بل هذه الآية تدلُّ على أن الله عَزَّوَجَلَّ يُرى؛ لأنه نفى الإدراك.

وكذلك يُستدَلُّ على هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فقد استدلَّ بعض العلماء بهذا على أن الله يُرى، فإن أراد بالاستدلال أن رؤيته ممكنة فهذا حق، وإن أراد أنها دالَّة على ثبوت رؤية الله فليس فيها دليل فيما أرى.

أمَّا وجه كونها دالَّةً على إمكان الرؤية فلأنها لو كانت مستحيلةً لم يسألها موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ إذ إن موسى لو سأل أمرًا مستحيلًا لكان هـذا من باب الاعتداء في الدعاء، وحينئذ نقول: إمَّا أن يكون موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جاهلًا باستحالة الرؤية، فنرميه حينئذ بالجهل، وإمَّا أن يكون عالِـمًا بإمكانها، وهذا هو المطلوب، ولذلك سأل الله عَزَّوَجَلَّ.

وهل يصحُّ الاستدلال على رؤية الله في الآخرة بآيات ملاقاة الله، كقول الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ [البقرة:٢٢٣] وغيرها؟

الجواب: استدلَّ بهذا بعض العلماء على إثبات الرؤية، لكن في الحقيقة لا يُسَلَّم لهم هذا الدليل، إلا إذا جاءت في سياق التكريم، فإذا ذُكِرَت على سبيل التكريم حُمِلَت على مُلاقاة الرؤية، وإذا ذُكِـرَت على سبيل التهديد أو بيان الواقـع العام فهي مُلاقاة الحساب.

أمَّا الأحاديث في هذا فإنها كثيرة ومعلومة، وبه نعرف أن الذين أنكروا أن الله تعالى يُرى فإنهم على ضلالة وعلى بدعة، ولـمَّا قال الرسول ﷺ للصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا**» فهل فهموا: أنكم ستعلمونه كما تعلمون هذا؟

الجواب: لا، بل فهموا أن الله تعالى يُرى بالعين، ولكن يبقى علينا أن نعلم أنه إذا رُئي سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فإنه لا يُحاط به؛ لأن الله تعالى أعظم من أن يُحاط به علمًا أو رؤيةً.

فإن قلت: كيف يُرى الشيء، ولا يُحاط به؟

قلنا: نعم، يُرى الشيء، ولا يُحاط به، إمَّا لعِظَمه، كالشمس تراها، لكن لا تُحيط بها، وإمَّا لحقارته، كأصغر شيء من المخلوقات، فإنك قد تراه بعينك، لكنك لا تُدركه، فإنك أحيانًا تُفتِّش الكتب، فتجد فيها هذا المخلوق الذي كالنقطة بريشة القلم الدقيق أو دون ذلك، وله أرجل، وله إرادة، وتجده يمشي، ويتخذ من الفراغات التي بين الورق بيتًا، وكيـف علم أنها تقيه، وأنها تنفعه؟ لكن قال موسى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، وقد تكفَّل الله عَزَّوَجَلَّ برزقه.

= والمهم: أن الله عَزَّوَجَلَّ يُرى، ولكن لا تُدركه الأبصار، والمراد: يُرى في الآخرة، أمَّا في الدنيا فلا يُرى، إلا أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رآه في المنام[1].

فإن قال قائل: كيف يرى المؤمنون ربَّهم عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة، مع أن الجبل اندكَّ لَّما تجلَّى الله عَزَّوَجَلَّ له؟

نقول: حال الناس يوم القيامة أشد من هذا، فيوم القيامة تدنو الشمس منهم قدر ميل، ولا يحترقون، بينما يقولون الآن: إنه لو يأتي حول الشمس أصلبُ حديد لاحترق وطار هباءً، وانظر شدَّة حرارتها مع بُعْدَها عنَّا، لا سيَّما في أيام الصيف.

وقوله ﷺ: «لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ» أي: لا يلحقكم ضَيمٌ، أي: ضيق، فكلُّ إنسان يرى الله عَزَّوَجَلَّ بدون أن يلحقه ضَيْم أو ضَرَر أو مُضايقة، وكلٌّ منَّا يرى القمر في بيته وفي سُوقه وفي أيِّ مكان كان، وبدون ضيم، فما بالك بالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟!

والشاهد من هذا الحديث: قوله: «فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ» وهي صلاة الفجر «وَقَبْلَ غُرُوبِهَا» وهي صلاة العصر، والمراد بهذا: أن الذي يُحافظ على صلاة الفجر وصلاة العصر يُجازَى بالنظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

وهاتان الصلاتان هما أفضل الصلوات، حتى قال فيهما الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ»[2]، والعصر أفضل من الفجر؛ لأنها هي الصلاة الوسطى التي قال الله عَزَّوَجَلَّ فيها: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨].

(١) أخرجه الترمذي: كتاب التفسير، باب سورة ص، رقم (٣٢٣٣)، وأحمد (١/ ٣٦٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر، رقم (٥٧٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٥/ ٢١٥).

....

وهل يختصُّ هذا بمَن يُصَلِّيها في الجماعة؟

الجواب: لا، لكن مَن تجب عليه الجماعة يجب عليه حضور الجماعة، فإذا كان الإنسان لا تجب عليه الجماعة لمرض أو ما أشبه ذلك فهنا نقول له: لا تُغْلَب على أن تُؤَخِّرها إلى أن تطلع الشمس، أو إلى أن تغرب الشمس، ونقول لِـمَن يُصَلِّي في جماعة: لا تُغْلَب على ترك الجماعة في الفجر والعصر.

وقوله: «ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾» يعني: قرأ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وفي هذا الحديث دليل على فوائد، منها:

١- أن الصلاة تسبيح، ولهذا استدلَّ بعض العلماء بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٧-١٨] استدلَّ بهذه الآية على إثبات أوقات الصلوات الخمس.

٢- استدلال النبي ﷺ بالقرآن، وهذا كثير، ويُستفاد منه فائدة مُتفرِّعة على هذه، وهي: أن القرآن هو الأصل في أدلَّة الشرع.

٣- أن أذكار المساء تكون من العصر إلى قريب من منتصف الليل، فكلُّ هذا مساء، لكن ما خُصَّ بالليل فهو بالليل، مثل: «**مَن قرأ آية الكرسي في ليلة**»[1] فهذه لابُدَّ أن تكون في الليل.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا، رقم (٢٣١١)، معلقا، ووصله النسائي في الكبرى رقم (١٠٧٢٩).

٤٨٥٢- حَدَّثَنَا آدَمُ: حَدَّثَنَا وَرْقَاءُ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَرَهُ أَنْ يُسَبِّحَ فِي أَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا، يَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾[١].

---

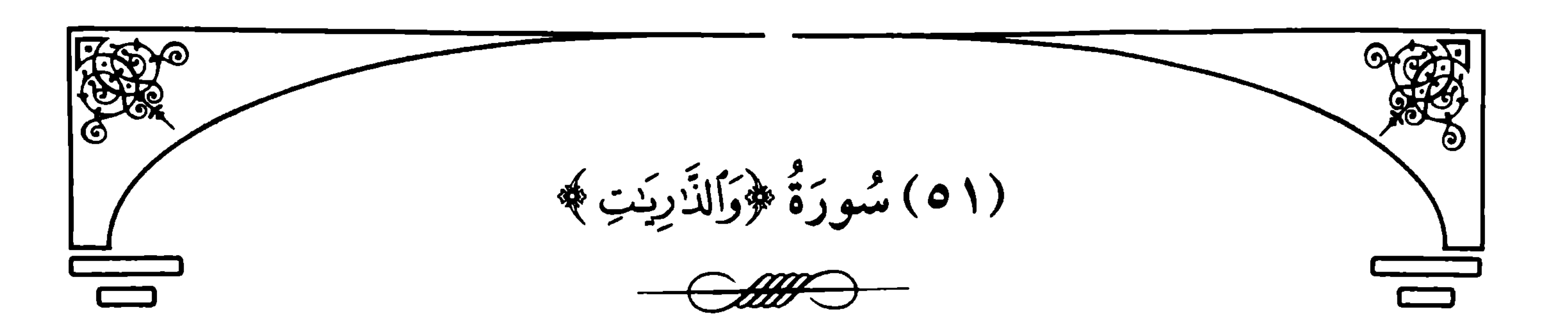
[١] يعني بذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾، ولهذا شُرِعَ للإنسان أن يُسَبِّح في أدبار الصلوات بما ورد عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد ورد هذا التسبيح على عدَّة كيفيَّات، بأيِّها قمت أجزأك(١).

ويُستفاد من هذا: أن الصلاة يُطْلَق عليها سجود؛ لأن السجود ركن فيها، فعبَّر به عنها؛ لكونه ركنًا فيها.



---

(١) يُنْظَر: التعليق على الحديث رقم (٨٤٣).



(٥١) سُورَةُ ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾

قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ[١]: الذَّارِيَاتُ: الرِّيَاحُ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿تَذْرُوهُ﴾ تُفَرِّقُهُ[٢].

---

[١] قوله: «قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ» الذي يظهر لي: أن هذا ليس من تصرُّف البخاري -رحمه الله تعالى-، ولكنه من تصرُّف النُّسَّاخ، ولا يبعد أن الذي نسخه ممَّن يتشيَّعون لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويزعمون أنهم أولياؤه، وإلا فإن «رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» من أفضل ما يكون من الدعاء؛ لأن رضى الله عن الإنسان يحصل به سعادة الدنيا والآخرة.

[٢] قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ أي: الرياح تَذْرُو التراب وغيره.

وقوله: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ أي: السحاب، وقيل: السفن؛ لأنها تُوقَر بالأرزاق، وتحملها في البحار.

وقوله: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ قيل: إنها السفن؛ لأنها تجرى مُيَسَّرةً بما سخَّر الله لها من الريح، وقيل: إنها السحاب تجري بين السماء والأرض بيُسْر وسهولة.

وقوله: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ هي الملائكة تُقَسِّم الأمور بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ هذا هو الْمُقْسَم عليه.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ فِي مَدْخَلٍ وَاحِدٍ، وَيَخْرُجُ مِنْ مَوْضِعَيْنِ[١].

﴿فَرَاغَ﴾ فَرَجَعَ[٢].

---

[١] من آيات الله عَزَّوَجَلَّ: أن الأكل والشرب يدخل من مدخل واحد، ويخرج من مخرجين مُفَرَّقًا، فالماء له مَخْرَج، والآخر له مَخْرج، بينما الماء والطعام يدخلان مدخلًا واحدًا، ولكن ليس هذا فحسبُ، بل في أنفسنا من آيات الله العجيبة العظيمة ما هو أعظم بكثير من هذا، ومَن أراد أن يعرف ذلك فليقرأ: «مفتاح دار السعادة، ومَنْشُور أهل العلم والولاية» لابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكذلك ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخر كتاب «التبيان» ذكر شيئًا عظيمًا من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الإنسان، وكذلك يقرأ ما كَتَبَه أهل الطبِّ المعاصر ممَّا يتعجَّبون منه ممَّا أَوْدَعَ الله تعالى في هذا الجسم.

[٢] وقيل: ﴿فَرَاغَ﴾ بمعنى: أسرع بخُفْيَة، ومثلُه الرَّوَغان، وهذا هو الأصح بلا شَكٍّ؛ لأن قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ تَشْعر بأنه يحمل معنى أبلغ من قوله: فرجع إلى أهله، بل ذهب بسرعة مُختفيًا؛ لأن العادة أن الضيوف إذا رأوا صاحب البيت ذهب إلى البيت ليأتي بالضيافة يقولون له: ارجع، لكنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لكرمه ومحبَّته ألَّا يمنعوه ذهب مُسْرِعًا مختفيًا.

وقوله: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ في آية أخرى: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود:٦٩]، فهل بينهما تعارض؟

الجواب: لا؛ لأن ﴿حَنِيذٍ﴾ بمعنى: مفعول، أي: محنوذ، وهو المشوي، والسمين:

﴿فَصَكَّتْ﴾ فَجَمَعَتْ أَصَابِعَهَا، فَضَرَبَتْ بِهِ جَبْهَتَهَا[١].

وَالرَّمِيمُ: نَبَاتُ الأَرْضِ إِذَا يَبِسَ وَدِيسَ[٢].

= كثير اللحم، ولا يتنافيان، وهذا يدلُّ على أنه ﷺ كريم ومِضْيَاف، وأن اللحم في بيته دائمًا مُهَيَّأً للضيوف.

وهل يُؤْخَذ من هذه الآية: أن الإنسان لو قدَّم لضيوفه فوق حاجتهم أنه لا بأس بذلك؟

نقول: لا، فقد يكون هؤلاء كثيرين، وقد يكون العجل صغيرًا، وقد يكون بعض عجل، فلماذا نأتي بهذه الآية المتشابهة، وعندنا آية من كتاب الله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف:٣١]، ونهى النبي ﷺ عن إضاعة المال(١)؟!

[١] الظاهر أنها فعلت ذلك تعجُّبًا؛ لأنه قال في آية أخرى: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود:٧٣]، وهذا لا يزال موجودًا معروفًا إلى الآن في النساء.

وهل يدخل هذا في النهي عن ضرب الخدود؟

الجواب: لا، لكن هذا يأتي أحيانًا بدون إرادة، وإنما يكون حرامًا لو كان هذا من أجل الحزن والمصيبة.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾، أي: أن هذه الريح العظيمة التي أرسلها الله عَزَّوَجَلَّ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستقراض، باب ما ينهى عن إضاعة المال، رقم (٢٤٠٨)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل، رقم (٥٩٣/ ١٢) عن المغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه مسلم في الموضع السابق، رقم (١٧١٥/ ١٠) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿لَمُوسِعُونَ﴾ أَيْ: لَذُو سَعَةٍ، وَكَذَلِكَ ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ يَعْنِي: القَوِيَّ[١].

= كالرميم، أي: كنبات الأرض إذا يبس، وهذا دليل على شدَّتها، ولهذا كانت تُخْرِج الإنسان حتى وإن كان في منزله، وترفعه، ثم ينتكس على رأسه، ويكون كأنهم أعجاز نخل خاوية، فإن عجز النخل إذا خوي تجده مُنهصرًا، فصاروا كلُّهم هكذا في بلادهم، نسأل الله العافية.

وتأمَّل حكمة الله عَزَّوَجَلَّ، حيث أهلك هؤلاء القوم الذين كانوا يقولون: مَن أشدُّ منَّا قوَّةً؟ أهلكهم بألطف الأشياء، وهي الريح، كما أهلك فرعون بالغرق في الماء الذي كان يفتخر بجنسه، فيقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥١-٥٢].

[١] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: لذوو سعة، ثم استشهد البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ﴾ أي: على ذي السعة، وهو الغنى والقوة ﴿قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾، وهذا هو المتبادر من الآية.

وإن كان بعض المتأخرين يقولون: إن معنى ﴿لَمُوسِعُونَ﴾ أي: لا تزال في اتِّساع، وإن الأفلاك الموجودة لا تزال في اتِّساع إلى يوم القيامة، وأيَّدوا قولهم هذا بأن «مُوسِع» اسم فاعل، واسم الفاعل يكون في المستقبل، ولكن هذا يحتاج إلى نظر، فإن صح هذا فقد تكون الآية دليلًا عليه، وإن لم يصحَّ فإننا نقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾، ثم قال: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: في بنائنا الذي انتهى.

وهنا مسألة: هل تجوز الزيادة على تفسير السلف للقرآن؟

نقول: تفسير السلف يكون أحيانًا على سبيل التمثيل، ومهما فسَّر الناس من كلام الله

﴿زَوْجَيْنِ﴾ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى، وَاخْتِلَافُ الأَلْوَانِ حُلْوٌ وَحَامِضٌ، فَهُمَا زَوْجَانِ[١].

= فكلام الله أوسع، وهذا الفهم الذي يكون فضلًا وزيادةً هذا ممكن إلى يوم القيامة؛ فإن القرآن يتشقَّق ويتفجَّر من المعاني والأشياء التي تظهر، وإن كان كثير من المُفَسِّرين يُفَسِّرون على طرقهم البدعيَّة كالزمخشري وغيره، أمَّا الفهم الذي يجب على الناس فالقرآن مفهوم من حين أُنزل.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩]، قال العلماء: ما من شيء قائم موجود من المخلوقات إلا وقِوَامه شيئان: سالب ومُوجب، وذكر وأنثى، وهكذا، وهذا من آيات الله عَزَّوَجَلَّ، فكل شيء لابُدَّ أن يكون مُرَكَّبًا من شيئين.

فإن قال قائل: وكيف هذا في الملائكة؟

قلنا: ليس المراد: أن يكون لها زوج؛ لأن الملائكة لا يتوالدون، ولا يأكلون، ولا يشربون، فليس لديهم أعضاء تناسل، ولا أعضاء هضم، ولا قبول للطعام، بل هم صُمْد كما قال السلف، خلقهم الله عَزَّوَجَلَّ هكذا ابتداءً، لكن لابُدَّ لها من شيء يُقَوِّم حياتها.

قال العلماء: وإنما نبَّهنا الله إلى ذلك؛ لنستدلَّ به على أنه سبحانه واحد، فالمخلوقات كلُّها تتكوَّن من شيئين، أمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فهو واحد، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقال بعض العلماء في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر:٣] قال: الشفع هو

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مِنَ اللهِ إِلَيْهِ[١].

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ مَا خَلَقْتُ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الفَرِيقَيْنِ إِلَّا لِيُوَحِّدُونِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: خَلَقَهُمْ؛ لِيَفْعَلُوا، فَفَعَلَ بَعْضٌ، وَتَرَكَ بَعْضٌ، وَلَيْسَ فِيهِ حُجَّةٌ لِأَهْلِ القَدَرِ[٢].

= المخلوق؛ لأنه لابُدَّ أن يكون من شيئين، والوتر هو الله عَزَّوَجَلَّ، «إِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ»(١).

ثم أشار البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ إلى شيء من هذا، فذكر أن الألوان مختلفة، منها: أحمر، وأخضر، وأسود، وأبيض، وكذلك الطُّعُوم منها: حلو، وحامض، كذا قال المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ، والذي يُقابل الحلوَّ هو المُرُّ.

[١] هذا معنى وجيه بلا شَكٍّ، كما قال الرسول ﷺ: «لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ»(٢).

وكذلك يشمل قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: من غيره إليه، فابتداء الفرار يكون من الله ومن غيره، لكن انتهاء الفرار يكون إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

[٢] قول المؤلف: «مَا خَلَقْتُ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الفَرِيقَيْنِ إِلَّا لِيُوَحِّدُونِ»

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحد، رقم (٦٤١٠)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى، رقم (٢٦٧٧/ ٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب فضل من بات على وضوء، رقم (٢٤٧)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب الدعاء عند النوم، رقم (٢٧١٠/ ٥٦).

....

= على هذا التفسـير يكون هذا من باب العام المُراد به الخاص، فقوله: ﴿الْجِنَّ وَالْإِنسَ﴾ ليسوا كلَّهم، وإنما أهل السعادة منهم، ما خلقتُهم إلا ليُوحِّدونِ، وعلى هذا فليس فيه إشكال إذا جعلنا الآية من باب العام الذي أُريد به الخاص، أي: ما خلقتُ أهل السعادة إلا لعبادتي، وقد فعلوا.

القول الثاني: أنه خلقهم ليفعلـوا، ففعل بعضٌ، وبعضٌ لم يفعل، كما تقـول: «بَرَيْتُ القلم؛ لأكتب به» أي: ليكون قابلًا للكتابة، ولكن قد تكتب، وقد لا تكتب، وهذا هو الظاهر.

وعلى هذا القول تكون الآية على عمومها، أي: ما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا لأجل أن يستعدُّوا ويتهيَّؤوا لعبادتي، فمنهم مَن عَبَد، ومنهم مَن كَفَر، وعلى هذا تكون الإرادة التي دلَّت عليها اللامُ هنا تكون إرادةً شرعيَّةً، وعلى الأول تكون إرادةً كونيَّةً.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَيْسَ فِيهِ حُجَّةٌ لِأَهْلِ القَدَرِ» هل مراده: لا حُجَّة لنُفَاة القدر، وهم المعتزلة، أو لا حُجَّة لمثبتي القدر، وهم الجبرية؟

الجواب: الظاهر أنه يُريد المعتزلة الذين هم نُفَاة القدر؛ لأن المعتزلة يقولون: الله عَزَّوَجَلَّ خَلَقَهم لعبادته، لكن هم لم يفعلوا، ويَبْعُد أن يُريد الجبرية؛ لأنه لو كان كذلك لعبدوا الله تعالى جبرًا عليهم.

لكن ما وجه كونهم يتعلَّقون بهذه الآية؟

الجواب: تعلقوا بها من ثلاثة أوجه:

....

= **الوجه الأول:** أنهم يقولون: إن قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هذا هو الذي أراد منهم، فأمَّا المعصية فهي غير مُرادة له، وحينئذ تكون أفعال الإنسان الشريرة ليست مرادةً لله عَزَّوَجَلَّ.

وجوابنا عن هذا أن نقول لهم: هي ليست مرادةً لله بالإرادة الشرعيَّة، أمَّا الإرادة الكونيَّة فكلُّ شيء مُراد لله عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا قول النبي ﷺ: «**وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»[1] أي: لا يُنْسَب إلى أفعال الله، فأفعاله -وإن كان في المخلوقات شر- فأفعاله ليست بشرٍّ.

وهنا فائدة: ذكر بعضهم عن المعتزلة أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُريد الشرَّ، وإنما يُريد الخير، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ذلك: إن هذا غلط عليهم، أي: على المعتزلة القَدَريَّة، فإنهم يقولون: إن جميع أفعال العباد غير مُرادة لله لا خيرها ولا شرها، لكن فرقة منهم قد تقول: إن الله تعالى لا يُريد الشرَّ، ولكن يُريد الخير، إنما مذهبهم الذي هو مذهبهم: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُريد أفعال العبد مطلقًا، وأن أفعال العبد ليس لها تعلُّق بإرادة الله.

الوجه الثاني: أن المعتزلة يقولون: إن أفعال الله مُعَلَّلة؛ لأن اللام هنا للتعليل، وما من فعل إلا وهو مُعَلَّل، والعلَّة تستلزم وقوع المعلول.

والجواب عن ذلك أن نقول: إننا نظنُّ أن هذا الشيء علَّة يثبت به المعلول، ويكون في الواقـع ليس بعلَّة، وإلا فإننا نعلم أنه لو كان هناك مصلحة في هذا الفعل لكان واجبًا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة النبي ﷺ بالليل، رقم (٧٧١/ ٢٠١).

= على الله أن يفعله، ولسنا نحن الذين أوجبنا، ولكنه عَزَّوَجَلَّ هو الذي أوجب على نفسه، حيث وصف نفسه بأنه حكيم، والحكمة تقتضي أن يفعل ما هو الصالح دون ما هو فاسد، وما هو أصلح دون ما هو صالح، ولهذا كان قول السفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العقيدة:

فَلَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ فِعْلُ الأَصْلَحِ وَلَا الصَّلَاحِ، وَيْحَ مَنْ لَمْ يُفْلِحِ[1]

كان هذا ردًّا لكلام المعتزلة الذين قالوا: إنه يجب عليه فعل الصلاح أو فعل الأصلح، ونحن نقول: لا يجب باعتبار أننا نُوجبه على الله، ونقول: هذا أصلح، فلماذا لم يفعله الله مثلًا؟! كما لو قال قائل: نزول المطر والخصب والأمن وسعة الرزق أصلح للناس، فهل نقول: إنه يجب على الله عَزَّوَجَلَّ أن يفعل هذا؟

الجواب: لا؛ لأنه قد يكون في مَنْعِهِ العبادَ من ذلك مصلحة تخفى علينا أو يكون هذا أصلح، فلذلك نحن نقول: إن الله تعالى يجب عليه فعل الأصلح، لكن لسنا نحن الذين أوجبناه عليه، وإنما بمقتضى وصفه بالحكمة، فإن الحكمة تقتضي هكذا؛ لأن العدول عن الصالح إلى الفاسد، أو عن الأصلح إلى الصالح، يُنافي الحكمة، ولكن الشأن كل الشأن: هل نحن نعلم أن الصالح في هذا، أو في هذا؟

الجواب: لا، لا نعلم، لكن عقيدتنا أن ما كان أصلح أو ما كان صالحًا فإن الله تعالى يفعله.

فإن قلت: إذا اعتقدت هذه العقيدةَ وجب عليك أن تقول: إن الله يجب عليه أن يفعل الأصلح؛ لأن العدول عن الأصلح إلى الصالح يُنافي الحكمة!

(١) يُنْظَر: شرح العقيدة السفارينية للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (ص:٣٤٥).

= **فالجواب أن نقول بما قاله الفقهاء:** قد يَعْـرِض للمفضول ما يجـعله أفضل من الفاضل، فمثلًا: المعاصي مكروهة لله عَزَّوَجَلَّ، وعدمها في الأرض خـير من وجودها، حتى قال العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦] أي: بالمعاصي، ولكن قد يكون وجودها في الأرض مصلحة عظيمة، لا من حيث هي، ولكن من حيث النتائج التي تترتَّب على ذلك، فلولا وجود الفساد في الأرض ما عُرِفَ الصلاح، ولولا وجود الفساد في الأرض ما كان هناك أمر بمعروف أو نهي عن مُنْكَر، ولولا وجود الفساد في الأرض ما كان الناس حزبين: حزب الله، وحزب الشيطان، ولولا الفساد في الأرض ما قام عَلَم الجهاد، وهكذا، فتجد أن هذه شرٌّ بنفسها، لكنها خير بما يترتَّب عليها من المصالح العظيمة الأخرى، فهي قد تكون خيرًا لقوم، وشرًّا لقوم، وقد تكون خيرًا للإنسان نفسه من وجه، وشرًّا من وجه آخر.

مثال ذلك: إذا جاء المطر كان خيرًا للناس، لا كلِّهم، لأنه يضرُّ الزَّارعين الذين حبُّهم في الفضاء، ويضرُّ الذي يبني بيته، وقد صبَّ صبَّة السقف، وكذلك يزيد الجهد على البلديَّات إذا كانت الشوارع فيها منخفض ورفيع.

وعلى كل حال: فهو خير لقوم، وشرٌّ لآخرين، بل نفس الإنسان يُصاب بمصيبة هي خير له من وجه، وشرٌّ له من وجه آخر.

وبه يُعْرَف معنى قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»[1]، ولم يقل: الشرُّ ليس مـن تقديرك، لكـن الشر لا يُنْسَب إليه، فهو من مفعـولاته، وليس من فعله،

(١) تقدم تخريجه (ص:٤٩٣).

....

= والفرق: أن الفعل وصف الفاعل، والمفعول بائن من الفاعل، كالمخلوقات بائنة من الله عَزَّوَجَلَّ، لكن الخَلْق فعله هو.

ونظير ذلك: لو أن رجلًا رأى في ابنه مرضًا، فأخذ الحديدة، وأحماها على النار، وكواه بها، فهنا الكي بالنسبة للولد شرٌّ؛ لأن فيه إيلامًا ووجعًا، ورُبَّما يتعفَّن ويتجرَّح، لكنه خير بالنسبة لفعل الأب إيَّاه؛ لأنه يُريد به الشفاء.

وأمَّا مَن قال في الجواب: إن اللام في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ ليست لام الغرض، كذا قال، والله يعفو عنَّا وعنه، والصواب أن يُسَمِّيها: لام الحكمة، فهي بالنسبة لله عَزَّوَجَلَّ حكمة، وإن كانت علَّةً بالنسبة لاصطلاحهم، فيقول: قد تكون اللام غير باعثة، ولكنها للتوقيت فقط، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء:٧٨]، أي: زوالها، يعني: في وقت الزوال، وكقوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]، أي: في وقت عدَّتهن.

فنقول في الجواب عن ذلك: إن الأصل في اللام أنها للتعليل، ولا تأتي للوقت إلا بقرينة، على أنه يُمكن أن يُعارَض حتى في المثالين السابقين، ففي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ قد جعل العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ دخول وقت الصلاة جعلوه سببًا لوجوب الصلاة، ويُمَثِّلون للأسباب حين يتكلَّمون عليها بدخول الوقت، فيجعلون الوقت سببًا للوجوب.

وأمَّا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فصحيح أن العدَّة ليست سبب الطلاق، لكنها الوقت الذي يحلُّ فيه الطلاق، أي: طلِّقوهن طلاقًا يكون سببًا لابتداء

وَالذَّنُوبُ: الدَّلْوُ العَظِيمُ[١].

= عدَّتهنَّ، والطلاق للعدَّة لا يستقيم إلا إذا كان في استقبال العدَّة، إذا كانت طاهرًا من غير جماع.

الوجه الثالث: أن القدريَّة استدلُّوا بإضافة الفعل إلى الإنسان استدلُّوا بذلك على أن الإنسان مستقلٌّ بعمله، وليس لله فيه خَلْق، قال: لأنه قال: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فأضافه إلى أفعالهم، وهذا يدلُّ على أنهم مُستقلُّون.

وجوابنا عن ذلك أن نقول: هي مخلوقة لله عَزَّوَجَلَّ، وهي فعل مُباشِر للعبد، لكن لَمَّا كان هذا الفعل صادرًا عن قدرة وإرادة، والقدرة والإرادة مخلوقة لله، صار الفعل مخلوقًا لله بهذا الاعتبار.

ولا يصح أن نقول في الجواب: هي خَلْق لله، وكسب للإنسان، فإن الكسب لا حقيقة له عند الأشعري.

[١] هذا في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾، والذَّنوب في الأصل: الدلو العظيمة، كما جاء في الحديث: «**هَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ**»(١)، لكن المراد بالذَّنوب هنا: العقوبات التي تحلُّ بهم، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾.

فإن قال قائل: كيف ثبتت النون في قوله: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾، مع أن «لا» ناهية؟

فالجواب أن نقول: إن النون هنا للوقاية، ولذلك إذا وَصَلْت وجب أن تكسرها، فتقول: «فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ فَوَيْلٌ».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول، رقم (٢٢٠).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿صَرَّةٍ﴾ صَيْحَةٍ.

﴿ذَنُوبًا﴾ سَبِيلًا.

العَقِيمُ: الَّتِي لَا تَلِدُ، وَلَا تُلْقِحُ شَيْئًا[١].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَالحُبُكُ: اسْتِوَاؤُهَا وَحُسْنُهَا[٢].

﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ فِي ضَلَالَتِهِمْ يَتَمَادَوْنَ[٣].

وَقَالَ غَيْرُهُ: تَوَاصَوْا: تَوَاطَؤُوا.

وَقَالَ: ﴿مُسَوَّمَةً﴾ مُعَلَّمَةً، مِنَ السِّيمَا.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لُعِنَ[٤].

---

[١] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، أي: لا ألد، فكيف يأتيني الولد، وأنا كبيرة، ولم ألد؟!

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عنها قبل ذلك: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾، والمراد: الضحك المعروف، وأمَّا مَن قال: إنه الحيض فليس بصحيح.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾، أي: ذات الاستواء والحُسْن.

[٣] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾، أي: في ضلالة، وفي غفلة، وفي إعراض عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يقولون الحقَّ، ولا يعرفونه، وكل كلامهم خرص.

[٤] لعلَّه يُريد قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾، أي: لُعِنُوا وأُهْلِكُوا بذنوبهم.

....

= وبقي في هذه السورة آية مُهمَّة، وهي قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، فاستدلَّ بهذه الآية مَن قال: إن الإيمان والإسلام شيء واحد، وقال: إن اختلاف التعبير في هاتين الآيتين من باب التنوع، فالكلمتان بمعنى واحد.

ولكن الصحيح أن الإيمان شيء، والإسلام شيء آخر، بنصِّ القرآن وبالسُّنَّة أيضًا، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]، وقال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ للنبي ﷺ: ما الإسلام؟ قال: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، ثم قال: ما الإيمان؟ فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ»[1]، ولم يقل: الإيمان هو الإسلام، فدلَّ ذلك على الفرق بينهما بالكتاب والسُّنَّة.

وأمَّا الآية الكريمة فإن التعبير فيها مختلف، والمعنى مختلف أيضًا، فإنه لو كان يُريد بالبيت في الآية بيتَ المؤمنين لقال: «فما وجدنا فيها غير بيت من المؤمنين»، لكنه قال: ﴿مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ لأن في هذا البيت مَن ليس بمؤمن، لكنه مسلم، وهي امرأة لوط، فإن امرأة لوط كانت تُظهر الإسلام، ولهذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ له: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ [العنكبوت:٣٣]، ويدلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:١٠].

فالبيت -إذن- بيت مسلمين، لا بيت مؤمنين، وأمَّا الذين نجوا من هذا البيت فهم المؤمنون.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٨/ ١).

....

وهنا فائدة: هل هناك شبه بين المسلم والمنافق؟

الجواب: نعم، ففي الأعمال الظاهرة سواء، ولهذا كان المنافقون يخرجون مع الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حتى في الجهاد، قال الله تعالى عنهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، فهؤلاء خرجوا مع الرسول ﷺ وقاتلوا، ولهذا قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾، لكنهم أحيانًا لا يخرجون، بل يأتون إلى الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يستأذنون، وإلى هذا أشار الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة:٤٦]، وأحيانًا يخرجون، ويرجعون من أثناء الطريق، كما فعل عبد الله بن أُبَيٍّ في غزوة أُحُد، فإنه خرج، ثم رجع، وقال: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٧]، فهذه هي أحوال المنافقين.

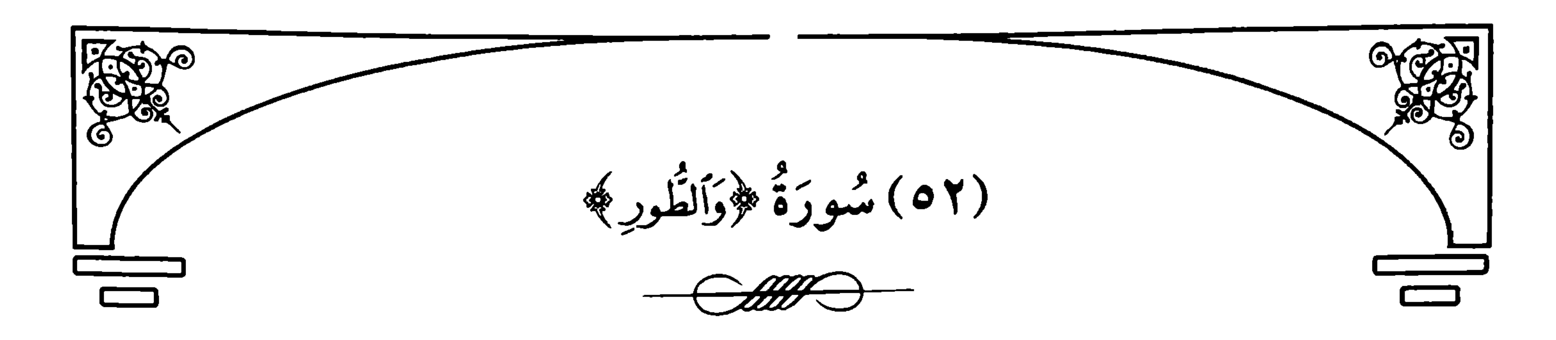
فإن قال قائل: إذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم ما في القلوب فكيف يصح إطلاق الإسلام على المنافق؟

قلنا: لأن الإسلام في الأصل: هو الاستسلام بالظاهر، وقد قال الرسول ﷺ في المنافقين: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»(١)، فسمّاهم أصحابًا مع أنهم منافقون، لكنهم في الظاهر مسلمون، ومن أصحاب الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والباطن له اللهُ عَزَّوَجَلَّ.



---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، رقم (٤٩٠٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، رقم (٢٥٨٤/ ٦٣).



(٥٢) سُورَةُ ﴿وَٱلطُّورِ﴾

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿مَّسْطُورٍ﴾ مَكْتُوبٍ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الطُّورُ: الجَبَلُ بِالسُّرْيَانِيَّةِ[١].

---

[١] الطور هو الجبل الكبير في اللغة العربية، لكن كأن مجاهدًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: هذا في الأصل من اللغة السُّريانيَّة، وقد نقول: إن هذه دعوى؛ لأن الأصل أن كل ما في القرآن فهو عربي، قال الله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، فأيُّ إنسان يدَّعي بأن هذه الكلمة سريانيَّة أو عِبْريَّة أو غيرها نقول له: لا نقبل هذا، بل هي عربيَّة، فإن ثَبَت أن هذه الكلمة لا يُوجَد لها أصل في اللغة العربية فحينئذ نقول: هي مُستعرِبة، أي: كانت تُسْتَعْمَل عند غير العرب، فأخذها العرب، واستعملوها، فصارت عربيَّةً بالاستعراب، على أن الكلمات المُستعرِبة في القرآن تجد أن بينها وبين اللُّغَة الأُولى التي نُقِلَت منها تجد أن بينها شيئًا من الخلاف بواسطة التعريب، وممَّا زعموا أن أصلها غير عربيٍّ: السندس، والإستبرق، وما أشبه ذلك.

أمَّا بعض الأسماء -لأُناس من غير العرب- فهذه أصلها أعجمي بالاتفاق، فأسماء الأنبياء كلُّها أعجميَّة إلا العرب منهم كصالح وهود، لكن هذه الأسماء دخلها بعض التعريب، مثل: موسى، فإنهم يضعون السين شينًا: مُوشى، ومثل: يوسف، فأصلها: جوزيف، ومثل: عيسى، فأصلها: يَسُوع، وأمَّا «إبراهام» فهي عربية بالنطقين.

﴿رَقٍّ مَنشُورٍ﴾ صَحِيفَةٍ[١].

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ سَمَاءٌ[٢].

﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾ المُوقَدِ، وَقَالَ الحَسَنُ: تُسْجَرُ حَتَّى يَذْهَبَ مَاؤُهَا، فَلَا يَبْقَى فِيهَا قَطْرَةٌ[٣].

= **والمهم**: أن نقول: إن كلَّ ما في القرآن فهو عربي في الأصل، فإن وُجِدَ باليقين كلمات أصلها غير عربيٍّ فإنها لَمَّا تكلَّم بها العرب صارت عربيَّةً بالاستعراب، حتى إسماعيل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أبو العرب كانت لُغَته غير عربيَّة، ولهذا يُسَمَّى ذُرِّيَّة إسماعيل يُسَمَّون: العرب المُسْتَعْرِبة؛ لأن المُؤَرِّخين يقولون: إن العرب العاربة الأصيلة هم من قحطان في اليمن.

فإن قال قائل: إذا كان الأمر كذلك فكيف نُوَجِّه قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾؟

قلنا: إن العرب لَمَّا نطقوا بها صارت عربيَّةً بالنطق.

[١] **إذا قال قائل**: أي صحيفة هي؟

نقول: قيل: إنها الصحف التي بأيدي الملائكة من القرآن الكريم، أو هو الرَّقّ المنشور الذي سيجده الإنسان يوم القيامة في صحيفة عمله.

[٢] يدلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢].

[٣] في كلمة ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾ ثلاثة تفسيرات:

الأول: أنه المملوء.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَلَتْنَاهُم﴾ نَقَصْنَا[١].

= الثاني: أنه المُوقَد.

الثالث: أنه المحبوس المربوط.

وكلُّ هذه الأقوال الثلاثة لا يُنافي بعضها بعضًا، فأمَّا المسجور بمعنى المملوء فهو ظاهر، فإن البحر قد مَلَأ موقعه، وأمَّا كونه ممنوعًا فهو ظاهر أيضًا؛ لأن هذا البحر لولا أن الله مَنَعَه لفاض على الأرض، وأغرق أهلها، وأمَّا كونه مُوقَدًا فهو باعتبار ما يكون يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦]، فالبحار يوم القيامة تُوقَد نارًا.

[١] يعني قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، وفي هذه الآية ثلاثة أحكام:

الأول: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، أي: جعلنا الذُّرِّيَّة -وهم الصغار الذين ليس لهم أولاد- تتبعهم، فهذه الذُّرِّيَّة يرفعهم الله تعالى في الجنة درجاتٍ؛ ليكونوا مع آبائهم.

الحكم الثاني: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾، فإذا قال قائل: هل هذا الإلحاق يلزم منه تنزيل الآباء في مقابلة رفع الذرية؛ ليكون هذا من باب المقايضة، فإذا رُفِّع الأولاد درجتين نُزِّل الآباء درجتين؟

فالجواب: لا، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾، أي: أننا إذا ألحقنا بهم ذُرِّيَّتهم لا ننقصهم من عملهم، فإذا قُدِّر أن بين هذه الذُّرِّيَّة وبين الآباء عشر درجات فإن المقايضة أن نرفع الأولاد خمس درجات، وننزل الآباء خمسًا، لكن الله عَزَّوَجَلَّ يقول:

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿تَمُورُ﴾ تَدُورُ[١].

= ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾ أي: ما نقصنا الآباء بسبب رفع الذُّرِّيَّة ﴿مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾، و«من» الثانية حرف جرٍّ زائد زائد(١)، وعلى هذا تصعد الذُّرِّيَّة إلى عشر درجات، فهذا -إذن- من باب رفع التوهم، وبيان فضل الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم علَّل عدم النقص بالحكم الثالث، وهو: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾، وهذه قاعدة، فكل إنسان مرهون بكَسْبِهِ، ولا يُمكن أن يُنْقَص من كسبه شيء؛ لأنه لو نُزِّل الآباء لكان في ذلك نقص، ولم يكن الكاسب رهينًا بكسبه.

وهذا جعله علماء البلاغة من الأمثال المضروبة؛ لأن هذا يصلح أن يكون مَثَلًا على أن كل إنسان عامل يُعْطَى عمله؛ لأن كلَّ امرئ بما كسب رهين.

فإن قال قائل: كيف يُرْفَع الأولاد، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾؟

نقول: هذا فضل من الله عَزَّوَجَلَّ، كما لو أعطى الإنسانُ غيرَه حقَّه وزاده.

فإن قال قائل: إذا كان الأبناء أرفع درجةً من الآباء فهل يُلْحَق الآباء بهم؟

نقول: لا، لا يُلْحَق بهم الآباء، ولا يُنزل الأبناء، فإذا كان الأبناء تحت فإنهم يُلْحَقون بآبائهم، ولا عكس، والحكمة في ذلك: أن الإنسان إذا كان مع ذُرِّيَّته وعائلته فهو أتمُّ لسروره.

[١] يعني قول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾، أي: تدور أو تضطرب.

---

(١) يُريد رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه زائد في اللفظ، ويزيد في المعنى.

﴿أَحْلَٰمُهُم﴾ العُقُولُ[١].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ٱلْبَرُّ﴾ اللَّطِيفُ[٢].

﴿كِسْفًا﴾ قِطْعًا[٣].

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ يعني: الهلاك، ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾، يعني: عقولهم، ومنه في الحديث: «لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الأَحْلَامِ وَالنُّهَى»(١)، أي: أُولو العقول والنُّهى، فعطف النُّهى على هذا من باب عطف المترادِفَين، وقيل: إن الأحلام في الحديث بمعنى: الحُلُم، والمراد: البالغون، وأُولو النُّهى هم العقلاء.

و«أم» في الآية للإضراب، فهي مُتضمِّنة معنى: بل والهمزة، يعني: بل أتأمرهم أحلامهم بهذا القول ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾، وهذا إضراب وإبطال، يعني: لم تأمرهم بذلك، ولكنهم قوم طُغاة، فقالوا: إن محمدًا ﷺ شاعر، وإننا ننتظر به الموت.

[٢] هذا القول ضعيف، والصواب: أن البَرَّ كثيرُ البِرِّ والإحسان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾، ومنه: البِرُّ بالوالدين، أي: الإحسان إليهما.

[٣] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ أي: قطعًا من العذاب ساقطةً عليهم ﴿يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾، يعني: وليس عذابًا، وهذا من شدَّة عُتوِّهم وطغيانهم: أنهم إذا رأوا العذاب أنكروه، وجحدوه تمويهًا على العامَّة، ولـمَّا رأت عاد الرِّيح مُقبلةً إليهم قالوا: هذا عارضٌ مُمطِرُنا، إمَّا تجاهلًا منهم أو جهلًا، لكن ما

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها، رقم (٤٣٢/ ١٢٢).

المَنُونُ: المَوْتُ[١].

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿يَتَنَزَعُونَ﴾ يَتَعَاطَوْنَ[٢].

= ذكره الله عن هؤلاء المُكَذِّبين للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليس تجاهلًا منهم، بل طغيانًا وعدم مُبالاة.

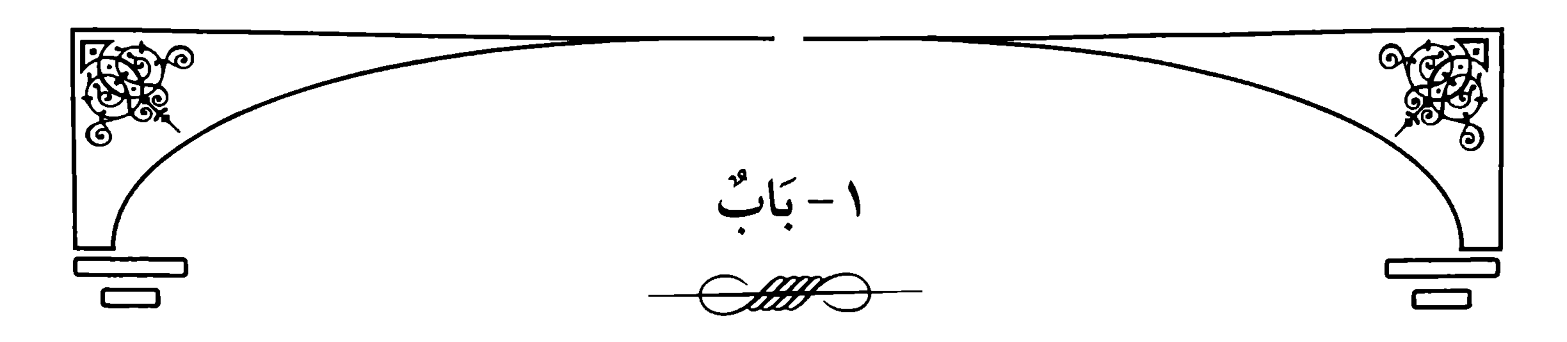
ومن هذا النوع أو شبيه به: ما يقوله بعض الناس اليوم إذا رأوا الكسوف أو الخسوف قالوا: هذا أمر طبيعي، ولم يتأثّروا بذلك، مع أن الرسول ﷺ تأثّر به، وفزع، وصلَّى تلك الصلاة التي ليست معهودةً، وقال: «**يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ**»(١).

[١] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾، يعني: أَخْذَ الموت إيَّاه، وقد سبق الكلام على الآية.

[٢] يعني قول الله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾، أي: يتعاطونها، كلُّ واحد يُعطي الآخر تودُّدًا وتحبُّبًا، وليس عن قلَّة الكؤوس، هذا مع أنهم قد نزع الله ما في قلوبهم من غلٍّ، لكن هذا زيادةً في التلطُّف والأُنس، ولانشراح بعضهم مع بعض، اللهم اجعلنا منهم.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب الذكر في الكسوف، رقم (١٠٥٩)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف، رقم (٩١٢/ ٢٤) عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب قول النبي ﷺ: «**يُخَوِّفُ اللهُ عِبَادَهُ بِالكُسُوفِ**»، رقم (١٠٤٨) عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، رقم (٩٠١/ ٦) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



١ - بَابٌ

٤٨٥٣ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ: أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ نَوْفَلٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: شَكَوْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي أَشْتَكِي، فَقَالَ: «**طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ**»، فَطُفْتُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي إِلَى جَنْبِ الْبَيْتِ، يَقْرَأُ: بِـ﴿الطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾[1].

[١] كان هذا في صلاة الفجر، لكن متى صلَّت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؟

نقول: رُبَّما صلَّت وحدها؛ لأن المرأة ليست من أهل الجماعة.

وفي هذا الحديث: دليل على وجوب طواف الوداع، وجه ذلك: أن النبي ﷺ لم يُسْقِطه عن أمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لمرضها، بل قال: «**طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ**»، فلو كان الحاج مريضًا حين الخروج من مكة، ولا يستطيع أن يطوف بنفسه، قلنا: اركب، وإن كان الركوب مُتعذِّرًا قلنا: يُحْمَل كما يُحْمَل الناس.

فإن قال قائل: لماذا لا تعذرونه كما عذرتُم الحائض؟

فالجواب: أن الحائض ليست أهلًا للطواف، ولا للمكث في المسجد، أمَّا هذا العاجز فهو أهل للطواف، فيجب عليه أن يطوف ولو محمولًا.

فإن قال قائل: ولماذا لا نقول: ينتظر حتى يزول عذره؟

فالجواب: إذا كان كذلك فيمكن أن نقول: إن الحائض تنتظر أيضًا، مع أن

٤٨٥٤ - حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: حَدَّثُونِي عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ.

= الرسول ﷺ قال: لا شيء عليها[1]، وأيضًا قد يكون عِلْمُ زوال الحيض أَوْكَد من عِلْمِ زوال المرض، فإن المرض لا يُدْرَى متى يزول؟ فقد يستمرُّ سنتين أو ثلاثًا أو أربعًا.

فإن قلت: إذا بلغ المريض إلى حال لا يَشْعُر معها، ورفقته محتاجون للسفر؟

قلنا: يسقط عنه في هذه الحال؛ لأنه لا تمييز له، ولكن هل يلزمه البدل، وهو ذبحُ فِدْيَة؟

الجواب: لا يلزمه؛ لأمرين:

الأول: أن إيجاب الفدية بترك الواجب في القلب منه شيء.

الثاني: أن هذا عاجز عن الواجب، والقاعدة الشرعيَّة: أنه لا واجب مع العجز.

وهل يُؤْخَذ من هذا الحديث: أن الطواف راكبًا يكون للعاجز؟

نقول: نعم، يُمكن هذا، فيُقال: إن هذا أمر معلوم عندهم أنه لابُدَّ للطائف أن يكون على قَدَمَيْه، ولهذا استأذنت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب إذا حاضت المرأة بعدما أفاضت، رقم (١٧٥٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب وجوب طواف الوداع، رقم (١٢١١/ ٣٨٢) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
وأخرجه البخاري: كتاب الحج، باب طواف الوداع، رقم (١٧٥٥)، ومسلم: كتاب الحج، باب وجوب طواف الوداع، رقم (١٣٢٨/ ٣٨٠) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قَالَ سُفْيَانُ: فَأَمَّا أَنَا فَإِنَّمَا سَمِعْتُ الزُّهْرِيَّ يُحَدِّثُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، وَلَمْ أَسْمَعْهُ زَادَ الَّذِي قَالُوا لِي[١].

---

[١] انظر هذا التحرُّز العظيم من سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه قال: «حَدَّثُونِي»، وذلك من أجل هذه الزيادة، وإلا فإن أصل الحديث المرفوع مُتَّصل بسماع الثقات عن الثقات.

وفي هذا الحديث دليل على فوائد، منها:

١- مشروعية قراءة سورة الطور في صلاة المغرب.

٢- أنه لا ينبغي للإمام أن يُداوم على قراءة قِصَار المُفَصَّل في المغرب، بل السُّنَّة أن يأتي بطواله أحيانًا.

ومن ذلك أيضًا: أن سورة الأعراف تُقْرَأ في صلاة المغرب، لكن هذا إذا كانوا محصورين، ولا يشقُّ عليهم؛ لأن سورة الأعراف فيها مشقَّة على كثير من الناس، بل ومشقَّة جسميَّة أيضًا، فلا يتحمَّل الوقوف.

فإن قال قائل: وكيف يصنع الإنسان لو اعترض عليه الناس إذا فعل ذلك؟

نقول: الإنسان الذي سيُطَبِّق السُّنَّة عند أُناس أهل جهل سيُؤْذَى، ولكن يصبر، وينبغي أيضًا إذا قرأ سورة الطور -مثلًا- ورأى أنهم يستنكرونها ينبغي أن يُخْبِرهم، ويقول: ما أردتُّ إلا الخير لي ولكم، وهذا فعل النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ونحن مأمورون بالتأسِّي به.

٣- تأثير القرآن الكريم في القلوب؛ لأن جُبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان في ذلك الوقت غير مسلم؛ لأنه جاء في أسرى بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

٤- قوة براهين القرآن الكريم، حيث أتى بهذا الدليل العقلي الذي لا مفرَّ منه، وهو: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، ووجهه: أنه لا بُدَّ لكل مُحْدَث من مُحْدِث، ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ يعني: أم هم الذين خلقوا أنفسهم؟ والجواب: لا؛ لأنهم قبل أن يُخْلَقوا كانوا عَدَمًا، والعَدَم هو بنفسه غير موجود، فكيف يُوجِد؟! إذن: فمن الذي خَلَقهم؟!

فإن قال قائل: الذي خَلَقَه هو أبوه!

قلنا: أبوه لم يخلقه، إنما أَلْقَى هذه النطفة في رحم الأم، وليس هو الذي قام يُعالج النطفة إلى عَلَقة، ثم إلى مُضْغة مُخَلَّقة وغير مُخَلَّقة، إلى نفخ روح.

فإذا قال: فعل ذلك سيِّدي الوليُّ!

نقول: أولًا: مَن خلق سيِّدك الوليَّ؟!

وثانيًا: هل سيِّدك الوليُّ جاء إلى رحم هذه المرأة، واندسَّ فيه، وقام يخلق في رحمها؟!

فإذن: تبيَّن أنه لا يُمكن أن يُوجَد خالق سوى الله عَزَّوَجَلَّ، ومهما حاولت أن تتخلَّص من هذا الإلزام فإنك لا تقدر.

وهذا النوع من الاستدلال يُسَمِّيه أهل المنطق: السَّبْر والتقسيم، بمعنى: أنه يُتتبَّع الأمر، ويُقَسَّم إلى أقسام لا يُوجَد لها زائد، حتى يُذْعِن المخاطَب بذلك.

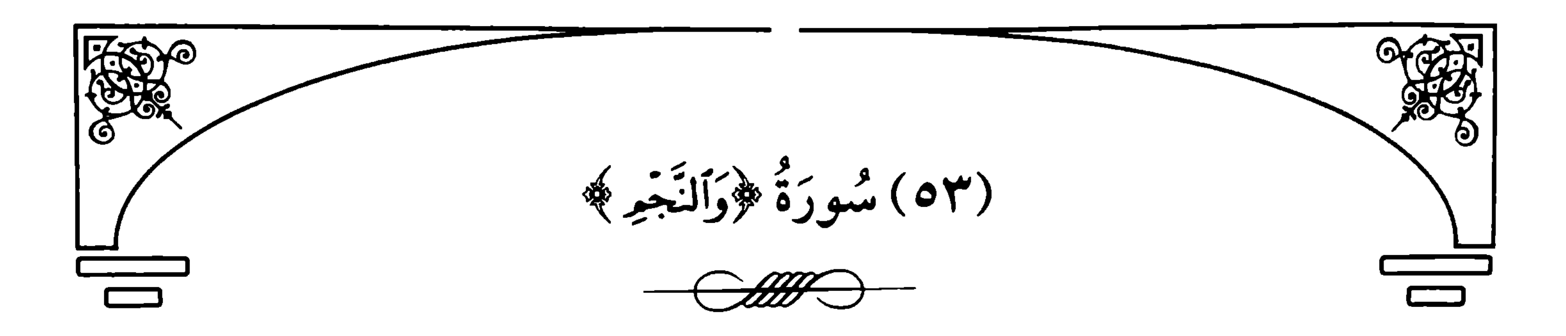
مثال ذلك: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٧٧-٧٨]، الجواب: ﴿كَلَّا﴾،

= لم يطَّلع الغيب، ولم يتَّخذ عهدًا عند الله أنه سيُؤتَى مالًا وولدًا، فإذن: يكون بدعواه هذه كاذبًا.

وهل من باب السبر والتقسيم ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة:٢٥٨] الآية؟

الجواب: لا، ولكن هذا من باب الإلزام بما يعجز عنه المخاطَب.





(٥٣) سُورَةُ ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذُو قُوَّةٍ[١].

﴿قَابَ قَوۡسَيۡنِ﴾ حَيْثُ الوَتَرُ مِنَ القَوْسِ[٢].

﴿ضِيزَىٰٓ﴾ عَوْجَاءُ[٣].

---

[١] هذا وصف لجبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ﴾، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذُو قُوَّةٍ»، والصواب: أن المِرَّة الهيئة الحسنة؛ لأن القوة مُستفادة من قوله: ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾، فـ: ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ أي: ذو هيئة حسنة.

[٢] القوس: هو الذي يُرْمَى به، والوتر: هو الذي يَشُدُّ بين طرفي القوس، فهذا معنى ﴿قَابَ قَوۡسَيۡنِ﴾، أي: طرفي القوس، فسمَّى كلَّ طرف قوسًا.

والمراد بهذه الآية: جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي: جبريل ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ﴾ أي: من محمد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾.

[٣] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ أي: عوجاء جائرة، وذلك أنهم قالوا: نحن لنا الذكور، والله عَزَّوَجَلَّ له الملائكة، وهم البنات.

وفي الآية: دليل على أنه في هذا القرآن العظيم تُراعَى فيه الفواصل، وأن يكون له ترنُّم يُطْرِب الآذان؛ لأنه قال: ﴿تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ بدل: جائرة.

﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ قَطَعَ عَطَاءَهُ[١].

﴿رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ هُوَ مِرْزَمُ الجَوْزَاءِ.

﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ وَفَّى مَا فُرِضَ عَلَيْهِ[٢].

= وقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]، وقال في سورة طه: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾، مراعاةً للفواصل.

ولا شَكَّ أن الكلام إذا كان على نسق واحد يكون له لذَّة في الاستماع إليه، ويهزُّ القلب أكثر ممَّا لو كان على غير هذه الوتيرة.

فإن قال قائل: إذا كان الأمر كذلك فكيف نُوَجِّه النهي عن السجع؟

نقول: المراد: السَّجع المُتكلَّف، وإلا فإن الرسول ﷺ حصل منه السَّجْع في أحاديث كثيرة.

[١] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي: مَنَع وقَطَع العطاء، فهو لا يُعْطِي الكثير، بل يُعْطِي القليل، ومع ذلك يبخل، فيقطعه.

ومنه: «الكُدْيَة» للحصى الصلب؛ لأنه يمنع ويُعْجِز غيره.

[٢] يعني بذلك إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤]، ولـمَّا أتمَّ هذه الكلمات التي ابتلاه الله بها كان جزاؤه: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، فالإمامة تُنال بوفاء الإنسان بما أَمَرَه الله وكلَّفه به، فإذا أردت أن تكون إمامًا يُقْتَدى بك وينتفع الناس بك فأَوْفِ ما أمرك الله به، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]،

﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ﴾ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ[١].

﴿سَٰمِدُونَ﴾ البَرْطَمَةُ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: يَتَغَنَّوْنَ بِالحِمْيَرِيَّةِ[٢].

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ أَفَتُجَادِلُونَهُ، وَمَنْ قَرَأَ: (أَفَتَمْرُونَهُ) يَعْنِي: أَفَتَجْحَدُونَهُ(١)[٣].

= ومن كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه الآية قال: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين(٢).

[١] «أزف» بمعنى: قَرُب، ومنه قول الشاعر:

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا ... لَمَّا تَزُلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَنْ قَدِ(٣)

[٢] السامدون هم المُغَنُّون، أو اللاهون، أو الغافلون، ولو قيل بأنها تشمل المعاني الثلاثة، وأن بعضهم يكون لاهيًا، وبعضهم يكون غافلًا، وبعضهم يكون مُغَنِّيًا، لم يكن هذا بعيدًا.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾، أي: أتُجادلونه على ما يرى صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، وما تأكَّده؟ والشيء المُتَأكَّد لا يُجادَل فيه؛ لأنه يكون معلومًا مقطوعًا به.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بفتح التاء وسكون الميم من غير ألف بعدها، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الميم بعدها ألف، يُنْظَر: التبصرة في القراءات السبع، (ص:٦٨٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٨).

(٣) البيت للنابغة الذبياني، يُنْظَر: ديوان النابغة، (ص:٨٩)، ط. دار المعارف، غير أن فيه: «أَفِدَ» بدل: «أَزِفَ».

وَقَالَ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ بَصَرُ مُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وَمَا جَاوَزَ مَا رَأَى[١].

﴿فَتَمَارَوْا﴾ كَذَّبُوا.

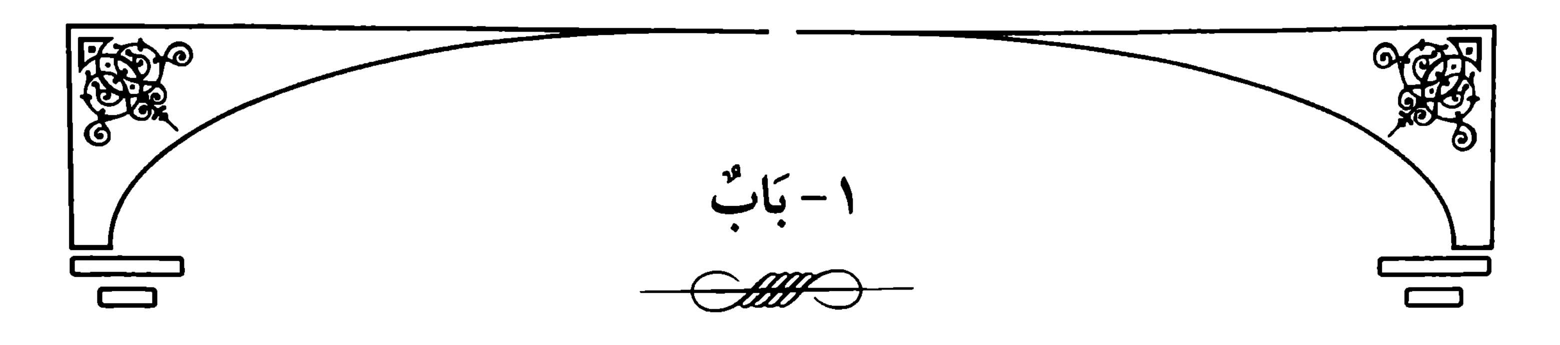
وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ غَابَ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أَعْطَى، فَأَرْضَى.

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: أن ما رآه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من سدرة المُنْتَهى وغيرها رآه حقًّا، فبصره ﴿مَا زَاغَ﴾ أي: مال، ومنه: زاغت الشمس، أي: مالت، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: لم ينظر ما لم يُؤْذَن له في نَظَره، بل كان على كمال الأدب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بخلاف بعض الناس إذا دخل المنزل قام يُقَلِّب بصره في السقف والجدران والفُرُش والأباريق والدِّلال والفناجيل وكل شيء، وأمَّا الرسول ﷺ فهو لكمال أدبه في هذا المقام ما زاغ بصره، أي: ما مال يمينًا، ولا شمالًا، ولا طغى، أي: تعمَّد أن ينظر ما لم يُؤْذَن له فيه.





١- بَابٌ

٤٨٥٥- حَدَّثَنَا يَحْيَى: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ عَامِرٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا أُمَّتَاهْ! هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَفَّ شَعَرِي مِمَّا قُلْتَ! أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ، مَنْ حَدَّثَكَهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ؟! مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾، وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗا﴾، وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الآيَةَ، وَلَكِنْ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ[١].

---

[١] سأل مسروقٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: هل رأى النبي ﷺ ربَّه؟ فوقف شعرها استنكارًا لسؤاله، وذكرت له هذه الثلاث مسائل، مَن حدَّثه بهنَّ فقد كذب:

الأولى: مَن حدَّث أن محمدًا ﷺ رأى ربَّه فقد كذب، واستدلَّت بآيتين:

الآية الأولى: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾.

والآية الثانية: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾.

....

= فأمَّا الآية الثانية فالاستدلال بها ظاهر؛ لأن الله تعالى كلَّم محمدًا ﷺ في المعراج، والله تعالى لا يُكَلِّمه إلا من وراء حجاب.

وأمَّا الآية الأولى ففي استدلالها بها نظر، فإن الله تعالى لم يَنْفِ الرؤية، وإنما نفى الإدراك، والإدراك أخصُّ من الرؤية، كما سبق[1].

فإن قال قائل: قال النبي ﷺ حين سُئِلَ: هل رأيت ربَّك؟ قال: «**رَأَيْتُ نُورًا**»[2] يعني: ما رأيتُه، فلماذا لم تستدلَّ به عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؟

قلنا: إمَّا أن الحديث لم يكن بَلَغها، أو أنها أرادت أن تستدلَّ بالقرآن؛ لأنه أقوى.

وهل يصحُّ استدلالها على ذلك لو استدلَّت بقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]؟ الجواب: لا يصح؛ لأن هذا في موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

المسألة الثانية: مَن حدَّث أن محمدًا ﷺ يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، وهذا صحيح، بل إن الرسول ﷺ لا يعلم ما في اليوم الحاضر إذا كان غائبًا عنه؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام:٥٠].

المسألة الثالثة: مَن حدَّث أن محمدًا ﷺ كتم فقد كذب، ثم قرأت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وقد بلَّغ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) يُنْظَر: التعليق على الحديث، رقم (٤٨٥١).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»، رقم (١٧٨/ ٢٩٢).

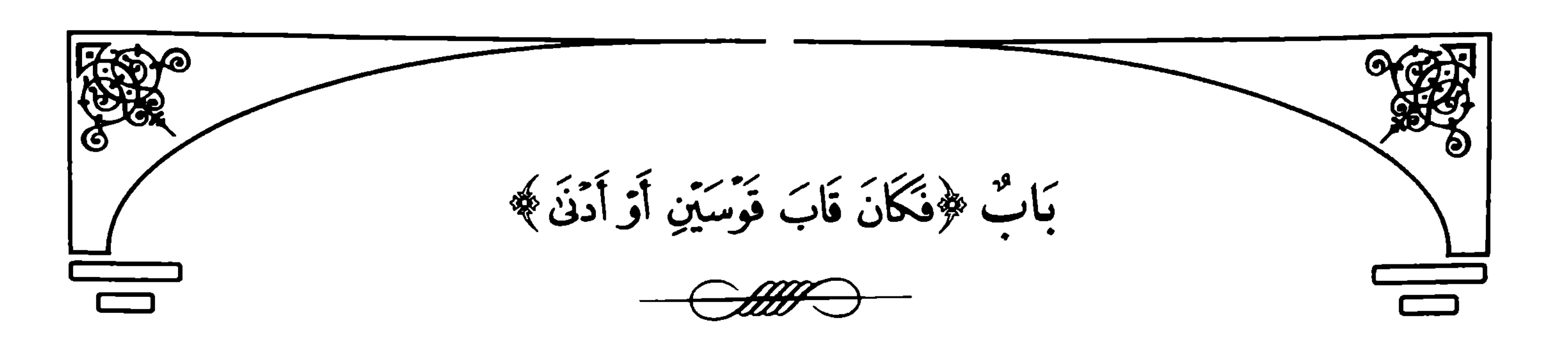
....

ثم قالت: «وَلَكِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ»، ويدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾[النجم:١٣-١٤]، ولو كان المراد: أنه رأى الله عَزَّوَجَلَّ لكان مقتضى ذلك أنه رأى ربَّه مرَّتين، وهذا يدلُّك دلالةً قطعيَّةً على أن الذي رآه النبي ﷺ هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، رآه على صورته مرَّتين: مرَّةً في غار حِرَاء، والنبي ﷺ في الأرض، ومرَّةً في السماء حين عُرِجَ به.

وهنا فائدة: جاء في رواية حينما رأى النبي ﷺ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على صورته قال: «يَنْتَثِرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاوِيلُ: الدُّرُّ، وَاليَاقُوتُ»[1]، والتهاويل هي التي تُفْزِع الإنسان وتُهوِّله، أي: أنها شيء هائل عظيم.



(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٤١٢).



بَابٌ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾

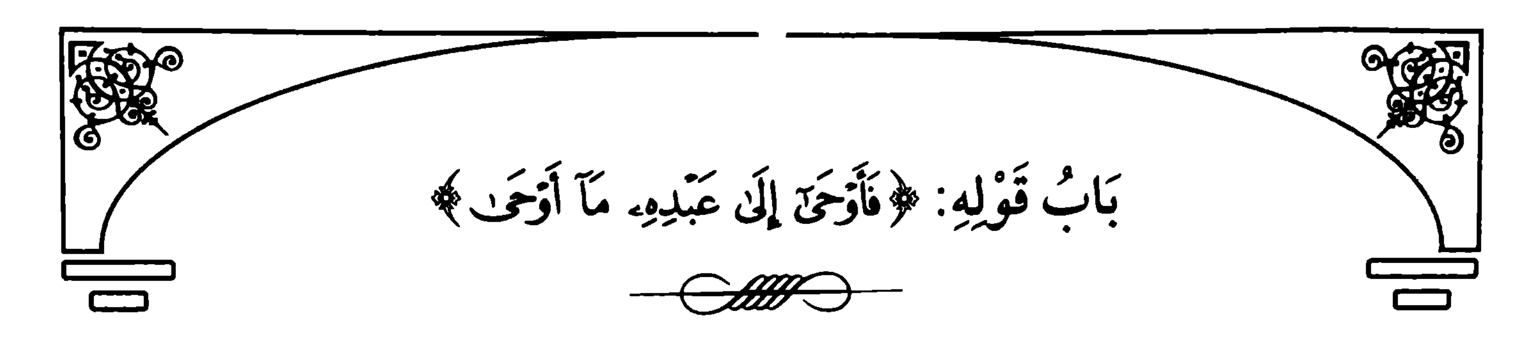
حَيْثُ الوَتَرُ مِنَ القَوْسِ.

٤٨٥٦- حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَاحِدِ: حَدَّثَنَا الشَّيْبَانِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ زِرًّا، عَنْ عَبْدِ اللهِ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ مَسْعُودٍ: أَنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ، لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ[١].

[١] وعلى هذا يكون الذي قرب، فكان قاب قوسين أو أدنى، هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومعنى الآية: أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ دنا من محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حتى كان بمقدار ما بين طرفي القوس.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ أي: أوحى جبريل إلى عبده، أي: إلى عبد الله، فالضمير في ﴿عَبْدِهِۦ﴾ يعود على الله عَزَّوَجَلَّ، وفي ﴿أَوْحَىٰ﴾ يعود على جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

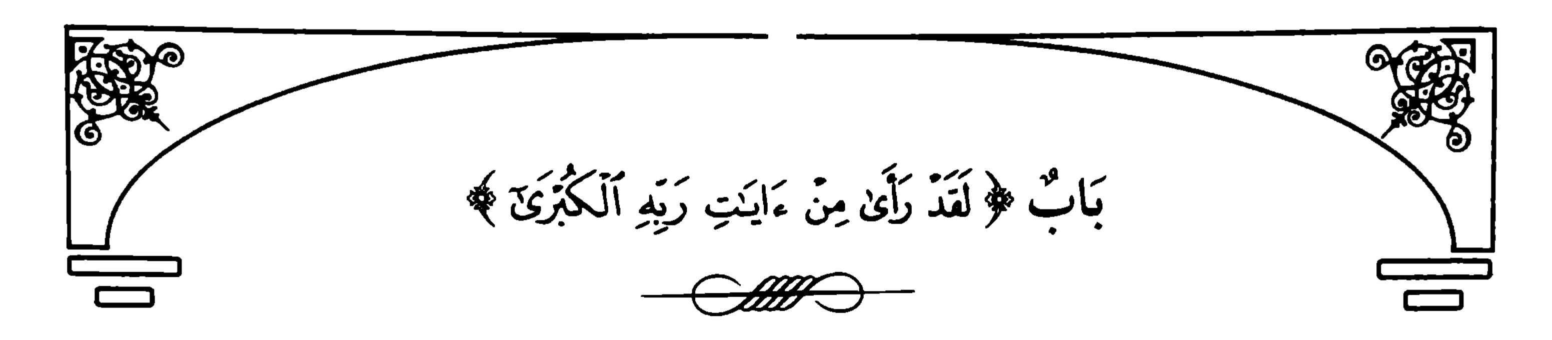




بَابُ قَوْلِهِ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾



٤٨٥٧- حَدَّثَنَا طَلْقُ بْنُ غَنَّامٍ: حَدَّثَنَا زَائِدَةُ، عَنِ الشَّيْبَانِيِّ، قَالَ: سَأَلْتُ زِرًّا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ: أَنَّهُ مُحَمَّدٌ رَأَى جِبْرِيلَ ﷺ، لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ.



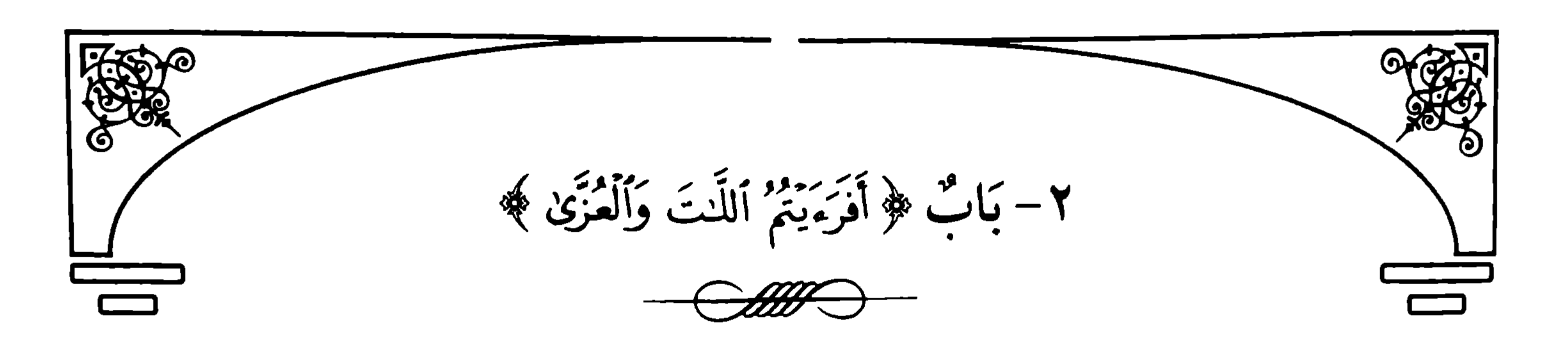
بَابٌ ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾

٤٨٥٨- حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ قَالَ: رَأَى رَفْرَفًا أَخْضَرَ قَدْ سَدَّ الأُفُقَ[١].

---

[١] قد يكون هذا هو المراد بها رأى، وقد يكون المراد ما هو أعمُّ من ذلك، فإن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رأى في هذه الليلة من الآيات الشيءَ الكثيرَ، كرؤية الأنبياء، وصلاته بهم، ورؤية السموات، وترحيب أهل السموات به، ورؤية البيت المعمور، ورؤية سِدْرَة المُنْتَهى، والجنة، وغير ذلك، فقد رأى آياتٍ عظيمةً في هذه الليلة أعمُّ مما قاله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.





٢- بَابُ ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾

٤٨٥٩- حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: حَدَّثَنَا أَبُو الأَشْهَبِ: حَدَّثَنَا أَبُو الجَوْزَاءِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ كَانَ اللَّاتُ رَجُلًا يَلُتُّ سَوِيقَ الحَاجِّ[١].

٤٨٦٠- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ: أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ، فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِرْكَ فَلْيَتَصَدَّقْ»[٢].

---

[١] قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ هذا الاستفهام للتحقير؛ لأنه لمَّا ذكر ما ذكر من الآيات العظيمة قال: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ هل لها آيات؟ الجواب: لا، بل هي أحقر من أن يكون لها آيات، ولا تصحُّ أن تكون آلهةً، فالاستفهام هنا للتحقير.

وقد سبق الكلام مُطوَّلًا في اللات والعُزَّى في (كتاب التوحيد)، فلا حاجة لإعادته(١).

[٢] قوله: «مَنْ حَلَفَ، فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»

---

(١) يُنْظَر: القول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ١٩٦-٢٢٥).

....

= وجـه ذلك: أنه إذا قال: واللَّاتِ والعُزَّى فهذا شرك؛ لأنه حلـف بالأصنام، ودواء الشرك: الإخلاص، أن تقول: «لا إله إلا الله».

وهل يدخل في هذا إذا حلف بالأمانة وبالنبي؟

نقول: هذا نـوع من الشرك، لكن الظاهر أنه لا ينطبـق عليه هذا؛ لأن اللَّات والعُزَّى أصنام، فالحلف بها أشدُّ خطرًا من غيرها.

وقوله: «وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِرْكَ» أي: أُراهنك وأُغالبك «فَلْيَتَصَدَّقْ»، ووجه ذلك: أن المقامرة محاولة لأكل -أي: أَخْذِ- المال بالباطل، والصدقة بذل للمال في الحق، فهما مُتقابلان، فإذا قال: تعالَ أُقامرك قلنا له: تصدَّق حتى تُذْهِبَ حسنةُ الصدقة سيِّئَةَ المقامرة.

ومن ذلك: قول الناس: «تعال أُراهنك» فيما لا يصحُّ فيه الرهن، أو «تعالَ، من حقٍّ، أنت تقول كذا، وأنا أقول عكسه»، يُريد أن الذي يغلب يدفع، وهذا في الحقيقة جامع بين القِمار والكذب، فقولهم: «تعالَ أُراهنك» أهون من قولهم: «من حق»؛ لأن كلمة «من حق» مُتضمِّنة لمعنى: «أُراهنك»، لكنه بلفظ مختلف، ثم إن كلمة «من حق» فيها محظور آخر زائد عن الأول، وهو وصف هذا الباطل بالحق، فيكون الذي يقول: «من حق» أعظم من الذي يقول: «تعالَ أراهنك»، بعكس ما يتصوَّره العامَّة.

فمثل هذه الكلمات ينبغي لنا -نحن معشر طلبة العلم- أن ننصح العامَّـة عنها؛ لأن بعضهم يقوله عنادًا، وبعضهم يقوله جهلًا.

....

وقول العامَّة في الرهان: إنه حق، كقول الكفرة في الخمر: إنه شراب روحي، أي: يُريح الروح ويُنعشها، والذي يسمع كلمة «شراب روحي» يقول: سأتناوله حتى أستريح من ألم الجسم وتَعَبه وهُمومه وأحزانه، وهذا مصداق قول النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: «يَشْرَبُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا»[1]، نسأل الله العافية.

فإن قال قائل: إذا كان بذل العوض من طرف واحد فما حكمه؟

نقول: إذا لم يكن فيه إفساد للمال وإضاعة، ولكن كان تشجيعًا على خير، فهذا لا بأس به، مثل: أن يقول: إن عرفت هذه المسألة، أو إن أخبرتني بكذا، فلك كذا وكذا.

أمَّا إذا كان بذل مال في لَهْو لا خير فيه فهذا من إضاعة المال، لا سِيَّما إذا كان كثيرًا، مثل هؤلاء الذين يقولون: مَن سبق منكم في المصارعة، أو مَن سبق في طاولة التنس، أو ما أشبهها، فله كذا وكذا، فهذا إضاعة مال بلا فائدة، وسوف يُحاسَب الإنسان على هذا يوم القيامة، كما جاء في الحديث: «إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأشربة، باب في الداذي، رقم (٣٦٨٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم (٤٠٢٠)، وأحمد (٥/ ٣٤٢) عن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه النسائي: كتاب الأشربة، باب منزلة الخمر، رقم (٥٦٦١)، وأحمد (٤/ ٢٣٧) من حديث رجل صحب النبي ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾، رقم (٣١١٨).

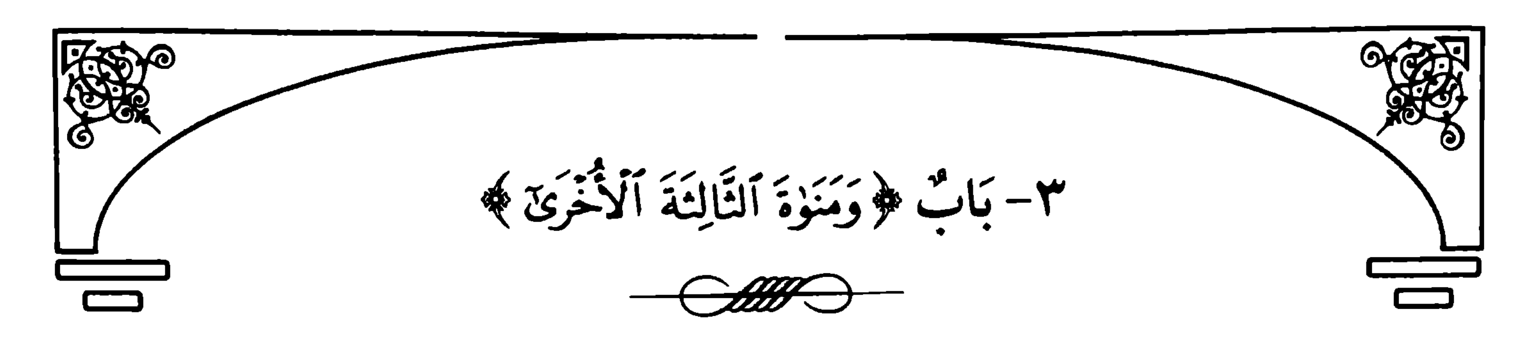
....

= وإذا كان العوض من غير المتسابقين خرج عن كونه قمارًا، لكن يبقى النظر: هل هذا العمل ممَّا يستحقُّ أن يُشَجَّع عليه، أو أن هذا العمل ممَّا يكون بذلُ المال فيه إضاعةً للمال؟

فإن قال قائل: وهل الأمر الذي في الحديث على سبيل الوجوب؟

قلنا: أمَّا الحكم الأول فإنه واجب أنه إذا أشرك يُقابِله بالإخلاص والتوحيد، وأمَّا الثاني فالظاهر أنه على سبيل الاستحباب فقط؛ لأن مَن قال: «تعال أفعل» هو لم يفعل، ويجوز أن يتركه، ولا يُقامر، بخلاف الذي قال: «واللات» فقد أشرك، ففعل فعلًا يجب أن يتوب منه.





٣- بَابٌ ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾

٤٨٦١- حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنَا الزُّهْرِيُّ، سَمِعْتُ عُرْوَةَ، قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَقَالَتْ: إِنَّمَا كَانَ مَنْ أَهَلَّ بِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ الَّتِي بِالْمُشَلَّلِ لَا يَطُوفُونَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، فَطَافَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ.

قَالَ سُفْيَانُ: مَنَاةُ بِالْمُشَلَّلِ مِنْ قُدَيْدٍ.

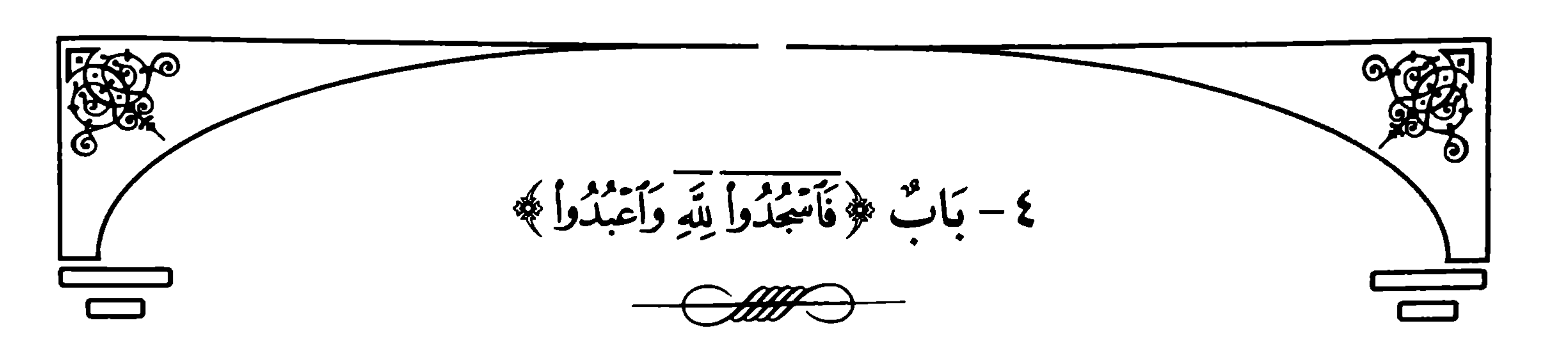
وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: نَزَلَتْ فِي الأَنْصَارِ، كَانُوا هُمْ وَغَسَّانُ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ، مِثْلَهُ.

وَقَالَ مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ: كَانَ رِجَالٌ مِنَ الأَنْصَارِ مِمَّنْ كَانَ يُهِلُّ لِمَنَاةَ، وَمَنَاةُ صَنَمٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ! كُنَّا لَا نَطُوفُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ تَعْظِيمًا لِمَنَاةَ، نَحْوَهُ[١].

---

[١] كانوا لا يطوفون بين الصفا والمروة تعظيمًا لمناة الذي هو الصنم الذي بين مكة والمدينة، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨]، وإذا كانت من شعائر الله فلتُعظَّم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].





٤ - بَابٌ ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ﴾

٤٨٦٢ - حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَارِثِ: حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ المُسْلِمُونَ وَالمُشْرِكُونَ وَالجِنُّ وَالإِنْسُ.

تَابَعَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَهْمَانَ، عَنْ أَيُّوبَ، وَلَمْ يَذْكُرِ ابْنُ عُلَيَّةَ: ابْنَ عَبَّاسٍ[١].

---

[١] هذا القول من ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ممَّا لا يُقال بالرأي، فيكون له حكم الرفع.

وفيه فائدة، وهي: أن المسلمين والمشركين والجنَّ والإنس سجدوا مع الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فإذا قلت: سجود المسلمين ليس بغريب؛ لأن نبيَّهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سجد، فسجدوا معه، لكن المشركين كيف سجدوا؟

فالجواب: قال بعض العلماء: إنهم سجدوا؛ لأنهم سمعوا عند قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ سمعوا كلامًا حسبوه من كلام الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو من إلقاء الشيطان، سمعوا كلامًا يقول:

تلك الغرانيق العُلَا وإن شفاعتهنَّ لتُرْتَجى

فقالوا: هذا مُحَمَّد مدح آلهتنا، فسجدوا لذلك(١).

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٨/ ٦٦٦)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٥٣، رقم ١٢٤٥٠). وانظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٨٧).

....

وهذه القصة إذا تأمَّلت الآيات وجدت أن إنكارها بشدَّة ليس له وجه؛ لأن الأمر الذي اشتدَّ إنكار مَن أنكرها بسببه غير وارد أصلًا، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الحج:٥٢-٥٤]، فإلقاء الشيطان ليس معناه: أن النبي قرأ، لكن الشيطان ألقى صوتًا يُشبه صوت النبي، فظنَّه السامع أنه من قول النبي، وهذا ليس فيه قدح في الرسالة، ولا في الرسول.

وأمَّا من ناحية الأسانيد ففيها نظر، لكن إنكارها بهذه الشدَّة، مع أنك إذا تأمَّلت ظاهر القرآن وجدت أن هذا هو الذي حصل.

وقال بعض العلماء: إنهم سجدوا؛ لأن الآيات التي سمعوها أخذت بمجامع قلوبهم حتى كانوا كالسكارى منها؛ من شدة ما أثَّرت عليهم، ومن المعلوم أن القرآن الكريم أعظم الكلام بيانًا، وقد قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا**»[1]، فكأنَّ هذا الكلام سحرهم، فصرعهم حتى كانوا لا يُحِسُّون بما فعلوا، فسجدوا بدون إرادة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب إن من البيان لسحرًا، رقم (٥٧٦٧) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
وأخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٩/ ٤٧) عن عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٤٨٦٣- حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ: أَخْبَرَنِي أَبُو أَحْمَدَ (يَعْنِي: الزُّبَيْرِيَّ) حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، قَالَ: فَسَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ، إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ، فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا، وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ[١].

= **لكن إذا قال قائل**: ما الذي أَعْلَمنا أن الجن سجدوا؟

قلنا: إن الظاهر أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخبره النبـي ﷺ بذلك؛ لأن مثل هذا الأمر لا يطَّلع عليه ابن عباس إلا بوحي.

فإن قلت: إن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ممَّن عُـرِفَ بالأخذ عن الإسرائيـليَّات(١)، وكلامه ليس له حكم الرفع!

فالجواب: أن هذا ليس ممَّا يُؤْخَذ عن بنـي إسرائيل، وحينئذ يتعـيَّن أن يكون موقوفًا له حكم الرفع.

وهل يُؤْخَذ من هذا الحديث: أن سجود التلاوة لا يُشْتَرط له الوضوء؟

الجواب: يحتمل أن هذا كان قبل الصلاة؛ لأن الصلاة لم تُفْرَض إلا مُتأخِّرةً، ثم إن الوضوء اختلف المُؤَرِّخون: هل هو مفروض مع الصلاة، أو كان فرضه مُتأخِّرًا؛ لأن سورة النساء والمائدة كلتاهما مدنيَّتان نزلتا بعد الهجرة، وهذا الذي حصل قبل الهجرة، وعلى هذا فلا يتمُّ الاستدلال به؛ لأنه قبل أن يُفْرَض الوضوء في الصلاة.

[١] في قول ابن مسعود فائدة، وهي: أن أول سورة فيها سجدة سورةُ النجم.

---

(١) انظر في رد هذه الدعوى: الشرح الممتع لفضيلة شيخنا رحمه الله تعالى (٧/ ٢٣٦).

....

= وقوله: «وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ» هذا لا يدلُّ على أن الجن سجدوا معه؛ لأن مثل هذا إذا قيل يُراد به الإنس.

وقوله: «إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ، فَسَجَدَ عَلَيْهِ» كأن الذي منعه من ذلك: الكِبْر، فبقي على استكباره، وكراهته للحق واتِّباع النبي ﷺ، فقُتِلَ كافرًا.

فإذا قلت: كيف تجمع بين قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ**»، وقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ، فَسَجَدَ عَلَيْهِ**»؟

فالجواب: أن كلام ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عام، وكلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاص، فيكون مُخَصِّصًا لكلام ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

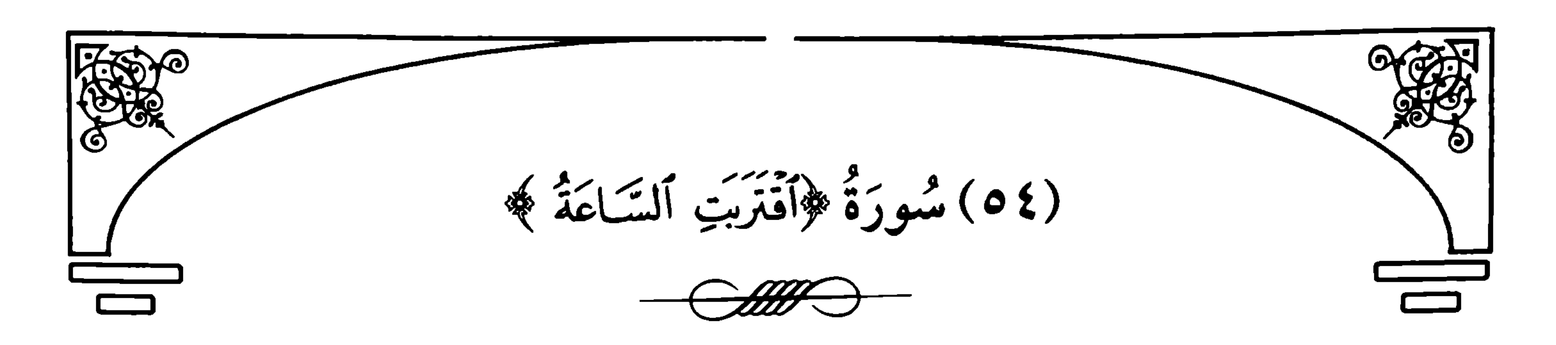
وأيضًا فإن كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من باب المُثْبِت، فهو أثبت أن بعض المشركين لم يسجد، وكلام ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من باب العام، ومعلوم أن إخراج بعض العموم إثبات، فهو مُقَدَّم على العموم.

فإن قال قائل: إذا كان سبب سجود المشركين هو ما ألقاه الشيطان فلماذا لم يسجد أُميَّة بن خلف؟

قلنا: أولًا: هم ما سجدوا للآلهة، ولكن سجدوا لله موافقةً لرسول الله ﷺ، حيث مدح آلهتهم، بناءً على ظنِّهم أنه هو الذي تكلَّم.

وثانيًا: أن أُميَّة لعناده واستكباره وعَلْوَائه لم يخضع حتى في هذه الحال.





(٥٤) سُورَةُ ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾ ذَاهِبٌ[١].

﴿مُزۡدَجَرٌ﴾ مُتَنَاهٍ[٢].

﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ فَاسْتُطِيرَ جُنُونًا[٣].

﴿دُسُرٖ﴾ أَضْلَاعُ السَّفِينَةِ[٤].

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾، مأخوذ من المرور، لا من الاستمرار والبقاء، فمعنى: ﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾ أي: ذاهب، يمرُّ ويذهب، هذا ما قاله مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولعلَّ فيها قولًا آخر، وهو أن ﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾ بمعنى: متتابع دائم، أي: أنك يا محمد تأتينا مرَّةً بعد أُخرى بأنواع من السحر، وهذا أقرب لظاهر اللفظ.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾، والظاهر أن معنى ﴿مُزۡدَجَرٌ﴾ أي: ما فيه ازدجار عن المعاصي والشرك، يعني: أنه جاءهم أشياء ينزجر بها الإنسان، لكنهم لقسوة قلوبهم لم ينزجروا.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾، قال المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: «فَاسْتُطِيرَ جُنُونًا»، وهذا بعيد من ظاهر اللفظ، بل ظاهر اللفظ أن المعنى: زَجَروه ووبَّخوه على ما جاء به من البينات.

[٤] هذا فيه نظر ظاهر، بل الصواب أن الدُّسُر جمع دِسَار، وهي المسامير، فذكر

﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ يَقُولُ: كُفِرَ لَهُ جَزَاءً مِنَ اللهِ[١].

﴿مُّحْتَضَرٌ﴾ يَحْضُرُونَ المَاءَ[٢].

وَقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ: ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ النَّسَلَانُ، الخَبَبُ السِّرَاعُ[٣].

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ فَعَاطَهَا بِيَدِهِ، فَعَقَرَهَا[٤].

= الله عَزَّوَجَلَّ هذه السفينة من حيث المادَّة التي رُكِّبت منها، ومن حيث ما يُمْسِك تلك المادة، فهي ألواح من الخشب، والذي أمسكها الدُّسُر، وهي المسامير، ولم يقل: حملناه على الفلك، أو على السفينة، وذلك لأجل أن يعرف الناس ممَّ تُصْنَع السفن؟ فيكون في هذا إخبار وتعليم، هذا من وجه.

ومن وجه آخر: مراعاةً لفواصل الآيات في السورة؛ لأن الآيات كلها رائية.

[١] قال الله تعالى: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: كُفِرَ به ورُدَّ قوله، وهو نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

[٢] هذه في قصة ثمود، قال الله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾، أي: يحضره مَن يشرب.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ أي: مُسرعين إليه ﴿يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾، وأمَّا المؤمنون فلا يقولون: هذا يوم عَسِر؛ لأنه يكون عليهم سهلًا يسيرًا.

[٤] القول الآخر: أن معنى ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ أي: استجاب حين دَعَوْه، وذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ﴾ أي: استجاب لهم ﴿فَعَقَرَ﴾ أي: الناقة.

﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ كَحِظَارٍ مِنَ الشَّجَرِ مُحْتَرِقٍ[١].

﴿ازْدُجِرَ﴾ افْتُعِلَ، مِنْ: زَجَرْتُ[٢].

﴿كُفِرَ﴾ فَعَلْنَا بِهِ وَبِهِمْ مَا فَعَلْنَا جَزَاءً لِمَا صُنِعَ بِنُوحٍ وَأَصْحَابِهِ.

﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ عَذَابٌ حَقٌّ.

يُقَالُ: الأَشَرُ: المَرَحُ وَالتَّجَبُّرُ[٣].

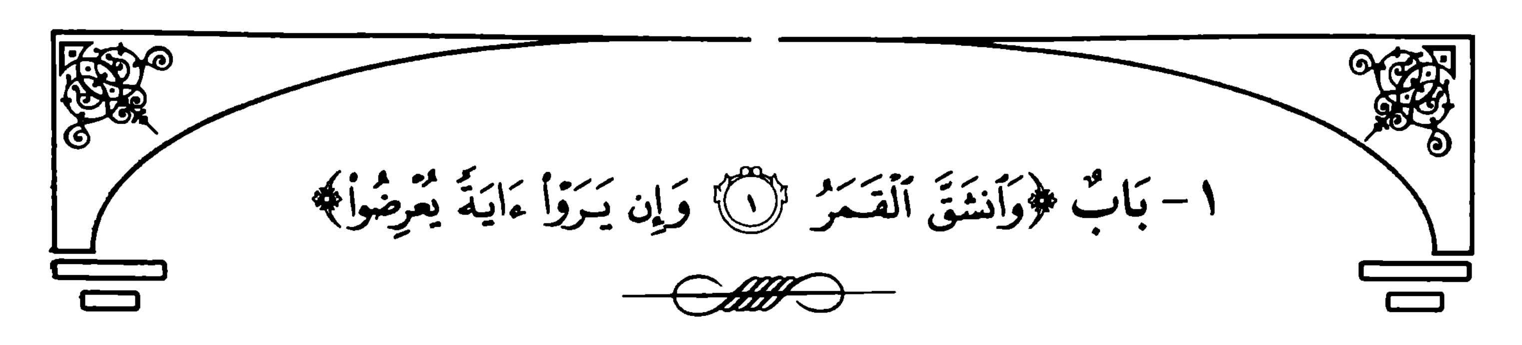
---

[١] يعني بذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾، وهؤلاء هم ثمود، وذلك أنه يكون على الحيطان والبساتين حِظَار من الخوص، وهذه مع طول الزمن تُحْرِقها الشمس والهواء والمطر، فتكون هشيمًا، فصاروا كهشيم المحتظِر لا حراك بهم، والعياذ بالله.

[٢] هذا خلاف ما قاله مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو القول الثاني.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي: مُتجبِّر ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾، وهذا يوم القيامة، حيث يُوَبَّخون على تكذيبهم للرسل، ويعلمون مَن هو الكذاب الأشر، ولهذا يُقال لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٤-١٦]، وهذا في غاية التوبيخ والتقريع، فيُصابون بعذاب جسمي وعذاب نفسي، والعياذ بالله.





١ - بَابٌ ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ﴾

٤٨٦٤ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ: حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ شُعْبَةَ وَسُفْيَانَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: انْشَقَّ القَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِرْقَتَيْنِ، فِرْقَةً فَوْقَ الجَبَلِ، وَفِرْقَةً دُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اشْهَدُوا».

٤٨٦٥ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: أَخْبَرَنَا ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: انْشَقَّ القَمَرُ وَنَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَصَارَ فِرْقَتَيْنِ، فَقَالَ لَنَا: «اشْهَدُوا، اشْهَدُوا».

٤٨٦٦ - حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي بَكْرٌ، عَنْ جَعْفَرٍ، عَنْ عِرَاكِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: انْشَقَّ القَمَرُ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ.

٤٨٦٧ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ: حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ القَمَرِ.

٤٨٦٨ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ: حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: انْشَقَّ القَمَرُ فِرْقَتَيْنِ[١].

---

[١] المعروف أن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ من المُدَلِّسين، وهنا حديثه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُعَنْعَن، لكن قد قيل: إن ما رواه البخاري ومسلم رَحِمَهُمَا اللَّهُ من حديث قتادة مُعَنْعَنًا

....

= فهو محكوم له بالاتصال؛ لأن إمامتهما في الحديث وجلالتهما تدلُّ على أنه كان عندهما من الطرق ما يعلمان بأن السند مُتَّصل غير مُدَلَّس فيه، مع أن بعض المُحَدِّثين -ومنهم ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ- يقول: إن ذوي التدليس اليسير لا تُؤَثِّر عنعنتهم، إنما تُؤَثِّر العنعنة فيما إذا كان المُدَلِّس كثير التدليس[١].

وذكر المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا ثلاثة أحاديث: حديث ابن مسعود، وابن عباس، وأنس، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وليس هذا فحسب، بل هناك أحاديث كثيرة تدلُّ على انشقاق القمر، وأن هذا القمر الذي نُشاهده في السماء انشقَّ فرقتين، كانت إحداهما على جبل أبي قُبَيْس، والثانية على قُعَيْقِعَان.

وفي بعض ألفاظ أحاديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه انشقَّ مرَّتين، قال العلماء: والمراد بالمرَّتين هنا: الفِرْقَتان، أي: صار اثنتين.

وقد أنكر بعض المعاصرين انشقاق القمر انشقاقًا حسِّيًّا، وقال: إن الأفلاك السماويَّة لا يُمكن أن تتغيَّر، فكيف ينشقُّ القمر؟! ولا شَكَّ أن هذا من جهلهم؛ لأن الأحاديث الواردة في ذلك شبه متواترة.

وقالوا أيضًا: إن هذا حدث عظيم، ولو كان هذا واقعًا لتحدَّثت به الأخبار، ونحن لا نجد هذا في أخبار الروم، ولا في أخبار الهند، فما هو الجواب عمَّا قالوا؟

نقول: الجواب عن ذلك أمر يسير، والحمد لله، فأمَّا الأول فنقول: مَن الذي فَتَق

---

(١) انظر: زاد المعاد (٢/ ٢٥٥).

....

= السموات والأرض بعد أن كانتا رَتْقًا؟ والجواب: الله عَزَّوَجَلَّ، والذي فَتَقَ السموات والأرض بعد أن كانتا رَتْقًا قادر على أن يقسم القمر قسمين.

ثم مَن الذي فَصَل الشمس عن القمر، وجعل هذا قمرًا، وهذه شمسًا، وهذا كوكبًا، وهذا نجمًا، وهذا مُرتفعًا، وهذا مُنخفضًا، إلا الله عَزَّوَجَلَّ؟ فلماذا لا نُصَدِّق بأنه قادر على أن يجعل هذا القمر فرقتين؟!

وأمَّا قولهم: إن هذا لم تتحدَّث عنه الأخبار فالجواب: أنه يحتمل أن السماء كانت في ذلك الوقت عند هؤلاء غيمًا، وقد يكون هذا في آخر الليل، وهم نائمون، والناس في ذلك الوقت ليسوا كالوقت الحاضر، وأمَّا الذين في الجهة الأخرى من الأرض فمعلوم أنهم لا يَرَوْنَه.

على أننا في غنى عن أخبار هؤلاء ما دام عندنا كتاب الله وسُنَّة الرسول ﷺ، ولكننا نُحاجُّ هؤلاء ضعفاء العقول.

والمهم أن هذه الشبهات لا يُمكن أن تُبْطِل ما جاء به القرآن، واشتهرت فيه الأحاديث عن النبي ﷺ.

وأمَّا تحريفهم لمعنى الآية -لأنهم لا يقدرون على أن ينكروا الآية- فقالوا: إن المراد به: بان صبح الرسالة، فإن القمر نور، وانشقاقه هنا بمعنى بيانه وظهوره، ولكن هذا تحريف لا داعي له سوى استبعاد عقول هؤلاء أن يقع مثل هذا الحدث.

وأمَّا الأحاديث الصحيحة فهؤلاء وأمثالهم عندهم قاعدة خبيثة أَصَّلوها، وهي: أن خبر الآحاد لا يُفيد اليقين.

....

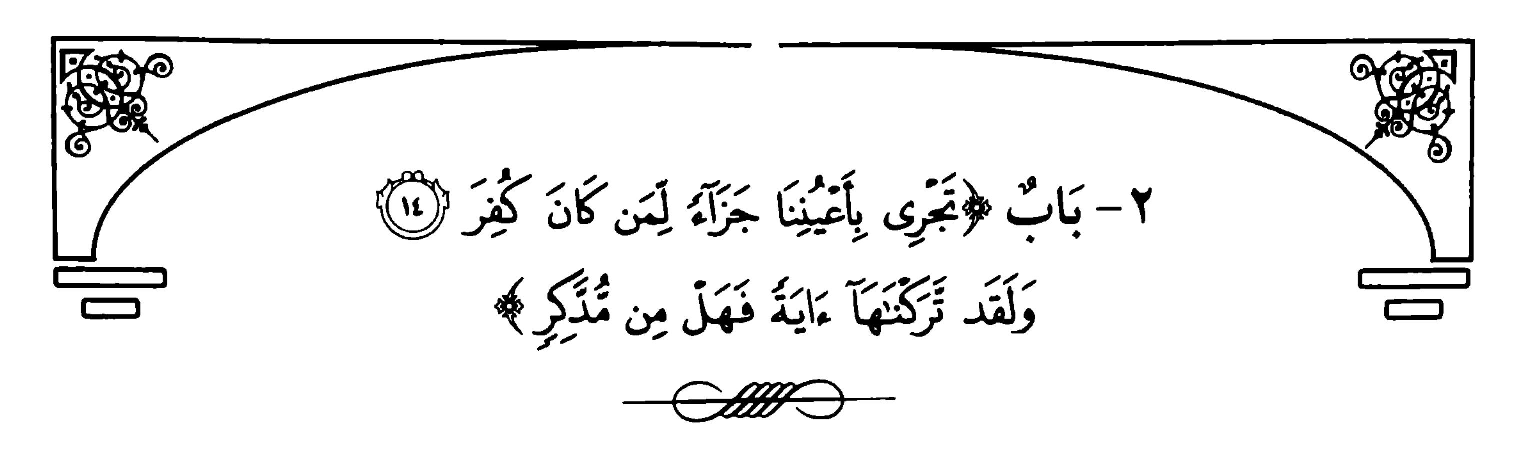
= فإن قال قائل: الشق الذي على القمر هل يصح أن يكون دليلًا على انشقاق القمر؟

فالجواب: لا؛ لأن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ رأوه مُفترقًا متباعدًا، وهذا الشق لا يكون متباعدًا.

وهنا سؤال: لَمَّا انشقَّ القمر فهل بقي ليلةً كاملةً هكذا؟

الجواب: الظاهر أنه بقي حتى رأوه فقط؛ لأن النبي ﷺ قال: «اشْهَدُوا»، ولـمَّا استشهدهم تلاءم، وعاد على حاله.





٢- بَابُ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾

قَالَ قَتَادَةُ: أَبْقَى اللهُ سَفِينَةَ نُوحٍ حَتَّى أَدْرَكَهَا أَوَائِلُ هَذِهِ الأُمَّةِ[١].

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ ﴿جَزَآءً﴾ مفعول من أجله، أي: لأجل مجازاة هذا النبي الذي كُفِرَ.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ فالمعنى: أنها تجري ونحن نَكْلَؤها بأعيننا، ونراها بأعيننا، ولا أحد يظنُّ أن المراد: أن السفينة تجري في عين الله، وأن تكون ظرفًا لها.

ولهذا لمَّا قال أهل التعطيل: أنتم -يا أهل السُّنَّة- تتحكَّمون، فتارةً تُنْكِرون التأويل، وتارةً تقولون بالتأويل، وهذا تناقض منكم، فإمَّا أن تُؤَوِّلوا، وتكونوا مثلنا، ونتَّفق معكم على أن تطَّرد القاعدة في تأويل ما أخبر الله به عن صفاته، وإمَّا ألَّا تُؤَوِّلوا، وتقولوا: إن السفينة تجري بعين الله.

فقال لهم أهل السُّنَّة: هذا منكم تمويه وتلبيس، فنحن إذا أوَّلنا -على زعمكم أن ما قلناه تأويل- فلنا في ذلك طريقان:

الطريق الأول: إنكار أن يكون ظاهر اللفظ ما ذكرتُم، وحينئذ لا نكون مُؤَوِّلين.

والظهور والبطون يكون بحسب فهم الإنسان، وفهم الإنسان يكون بحسب ما معه من العلم والإيمان والعمل الصالح، فكلما ازداد الإنسان علمًا وإيمانًا وعملًا صالحًا ازداد فهمًا لكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

....

= ولهذا قد يظنُّ بعض الناس أن هذا هو ظاهر الآية، ولا يظنُّه الآخر، ولهذا تجد العلماء يختلفون: هل هذا هو ظاهر اللفظ، أو ليس بظاهر اللفظ؟ وهل هناك ما يصرفه، أو لا؟

الطريق الثاني: على فرض أن يكون ظاهر اللفظ ما ذكرتم فإن لدينا دليلًا عقليًّا يمنع من أن يكون ظاهر الكلام مُرادًا.

أمَّا الأول فإننا نقول: نحن نمنع أن يكون ظاهر قوله تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أن السفينة تجري في عين الله، فإن هذا مستحيل؛ لوجوه:

الأول: أن الباء لا تأتي بمعنى الظرفية إلا بقرينة، فإذا أخذنا الباء التي تعدَّى بها الفعل إذا أخذناها على ظاهرها نقول: لا تأتي للظرفية، وإتيانها للظرفية لا يكون إلا بقرينة، كما أن «في» للظرفية، ولا تأتي للسببيَّة إلا بقرينة.

وعليه فتكون الباء هنا للمصاحبة، أي: تجري مصحوبةً بأعيننا، تراها العين وتُدْرِكها، وهو عناية من الله عَزَّوَجَلَّ لهذه السفينة.

الوجه الثاني: أن السفينة تجري في الأرض على الماء، والله عَزَّوَجَلَّ فوق كلِّ شيء، فكيف يُقال: إن ظاهر اللفظ أنها تجري في نفس العين؟! فبطل أن يكون ذلك ظاهرَ اللفظ.

الوجه الثالث: أن هذا التعبير موجود في لغة العرب، فيقولون: تمشي بعيني، ويقولون: على العين والرأس، وخطاب العرب الذي نزل به القرآن إذا جاء بمثل هذه الصيغة فالمعنى: أن هذا الشيء مَكْلُوء بالعين محفوظ بها، هذا هو ظاهر اللفظ.

....

= الوجه الرابع: أن نقول: إن هذا الظاهر مستحيل وكفر، ويمتنع غاية الامتناع أن يكون ظاهر كلام الله ورسوله ﷺ مستحيلًا وكفرًا، وهذا يأتي من جهة نصوص الكتاب والسُّنَّة، وأنها لا يُمكن بأيِّ حال من الأحوال أن تدلَّ على ما ظاهرُه كفر ومستحيل.

فهذه وجوه أربعة كلُّها تدلُّ على أن الظاهر ما قلناه نحن معشرَ أهل السُّنَّة، ثم على فرض أن يكون ظاهر اللفظ ما قالوا، وأن الباء للظرفية، وأن تكون السفينة في عين الله عَزَّوَجَلَّ، نقول: هذه الظرفيَّة يمتنع أن يكون المراد بها: الظرفية الحسِّيَّة، حتى على قولكم أنتم، فإنكم لا تقولون: إن هناك شيئًا حالًّا في الله، فنحن وأنتم على سواء، وإذا جعلنا الباء للظرفيَّة لزم من ذلك أن يكون بعض المخلوقات حالًّا في الله، وهذا ممتنع عندنا وعندكم.

وإذا كان هذا ممتنعًا لدينا ولديكم فأنتم تُوافقوننا في ذلك، وليس لكم أن تُنكِروا علينا إذا صرفناها عن هذا الظاهر الذي زعمتموه ظاهرها، ولا وجه لإنكاركم أيضًا، وكيف تُنْكِرون علينا ما أنتم واقعون فيه؟!

فإذا جاؤونا بالنصوص الأخرى التي أَبَيْنَا تأويلها قلنا: نحن نُخالفكم ولا نُوافقكم في تأويلاتكم، ولذلك نُنْكِر عليكم، وأنتم لو قلتم: نحن لا نُوافقكم على تأويلكم، بل نقول: إنها حالَّة في الله، فحينئذ لكم أن تُنْكِروا علينا.

والأمر -والحمد لله- ظاهر، وقد ذكرنا في كتاب (القواعد المثلى)[1] أن ممَّا يَقْصِم

---

(١) يُنْظَر: شرح القواعد المثلى لفضيلة شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (ص:٤٤٩).

٤٨٦٩- حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الأَسْوَدِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

= ظهر أهل التأويل الحديثَ الصحيحَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ! اسْتَطْعَمْتُكَ، فَلَمْ تُطْعِمْنِي» إلى آخر الحديث[1]، ووجه ذلك: أنه لَمَّا كان المراد بهذا الحديث غير الظاهر فُسِّر وبُيِّن، فدلَّ هذا على أن الظاهر من صفات الله تعالى وأسمائه يبقى على ظاهره ما لم يأتِ دليل مُتَّصل أو مُنْفَصل على أنه غير مراد.

وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً﴾ أي: تركنا جنسها، فتكون كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك:٥]، والتي ترجم الشياطين هي الشُّهُب، وليست النجوم نفسها.

وعلى هذا يكون المعنى: جعلناها علامةً يهتدي الناس بها، ويصنعوا مثلها، وينجون بها من الغرَق، وهذا هو ما ذكره ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإلا فأنا أشكُّ في أن السفينة بقيت هي بذاتها.

أو يكون المعنى: أبقينا السفن إلى أن أدركتها هذه الأمة، لكن إذا كان كذلك فلا معنى لكلام قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ إطلاقًا؛ لأن السفن بقيت إلى الآن حتى جاءت هذه السُّفُن الحديديَّة التي تعمل على النار.

أو يكون المعنى: أبقينا ذكرها حتى علم به الناس، وإذا كان كذلك صار في هذا ادِّكار.



---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل عيادة المريض، رقم (٢٥٦٩/ ٤٣).



بَابُ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يَسَّرْنَا﴾ هَوَّنَّا قِرَاءَتَهُ.

٤٨٧٠ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، عَنْ يَحْيَى، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الأَسْوَدِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّه كَانَ يَقْرَأُ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[١].

---

[١] في هذه الآية: الترغيب في الانتفاع من القرآن، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ﴾، وهل المراد: يسَّرنا تلاوته لفظًا، أو يسَّرنا معناه، أو يسَّرنا العمل به؟

الجواب: يشمل الثلاثة، فيسَّر الله عَزَّ وَجَلَّ لَفْظَه ومعناه والعمل به، لكن ﴿لِلذِّكْرِ﴾، يعني: لِـمَن تذكَّر به، واتَّعظ، والتذكُّر أن يكون مُذكِّرًا بالآخرة والعمل الصالح حتى تعمل، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، فمن كان كذلك فإنه يُيسَّر له القرآن حفظًا وفهمًا وعملًا.

وعلى هذا فمَن لم يتذكَّر به فلا يُيَسَّر له، فإذا أردت أن يُيَسِّر الله لك القرآن لفظًا بحيث يسهل عليك حفظه، ويبقى في نفسك، وأن يُيَسِّر الله لك القرآن فهمًا ومعنًى، وأن يُيَسِّر الله لك القرآن عملًا، ويسهل عليك تطبيقه، فاجعله ذكرًا لك، وتذكَّر به، وهذا كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾، وهذه جملة مُؤَكَّدة بثلاثة مُؤَكِّدات، وهي: اللام، و«قد»، والقَسَم المُقدَّر، وهو وعد من الله عَزَّ وَجَلَّ أن يُيَسِّر لك هذا القرآن العظيم إذا كنت مُذَّكِّرًا به.

....

= فعلى الإنسان أن يتذكَّر بكلام الله عَزَّوَجَلَّ تصديقًا في الخبر، وامتثالًا في الحكم، حتى يُيَسَّر له.

وأخذ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هـذا في (العقيدة الواسطيَّة) قوله: «مَن تدبَّر القرآن طالبًا الهدى منه تبيَّن له طريق الحق»[(١)]، فهذه الآية تُعيننا على أن نحرص على تطبيق ما جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، والعمل به.

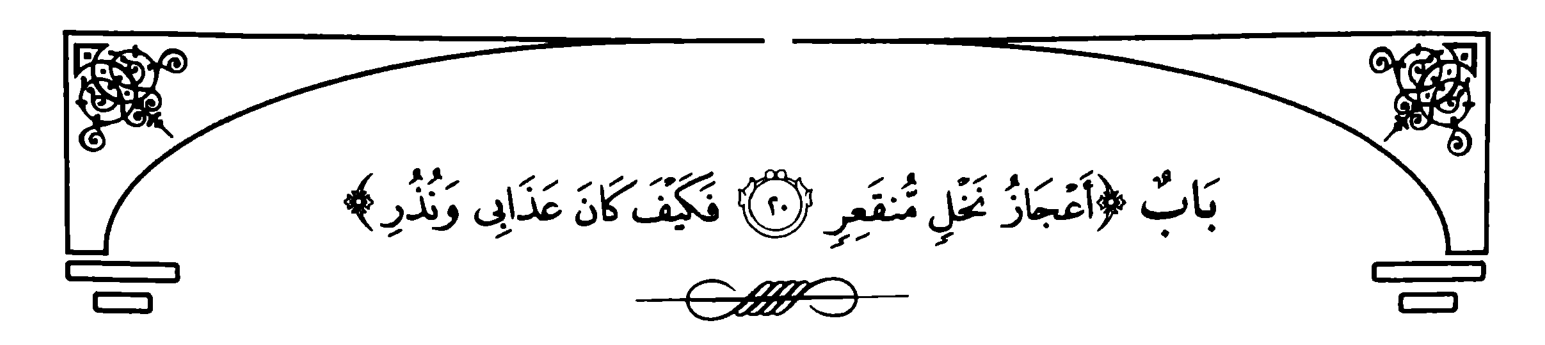
وقوله: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: فهل أحد مُتَذِّكر به؟

وهنا تنبيه: تجد بعض القُرَّاء من أمهر الناس في قـراءة القرآن، لكنه لا يتدبَّره، وهذا ابتلاء من الله عَزَّوَجَلَّ وامتحان لهم، وقد أخبر الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه يكون أقوام يقرؤون القرآن، يحقر الإنسان قراءته عند قراءتهم، لكنَّه لا يتجاوز حناجرهم[(٢)].



(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٣٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤/ ١٤٨).



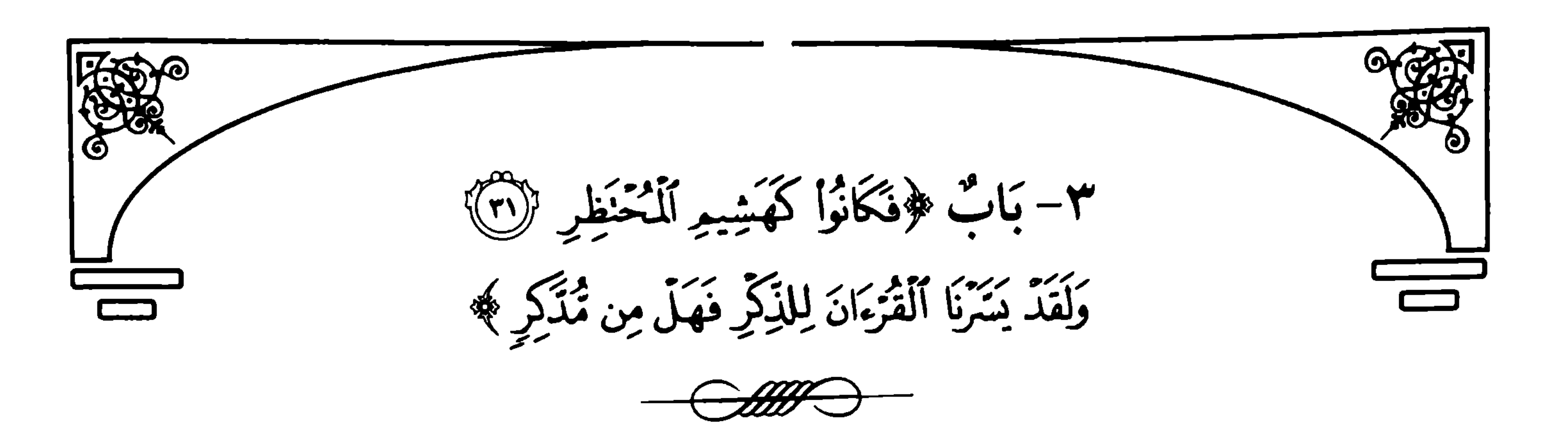
بَابُ ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾

٤٨٧١ - حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ: حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ: أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا سَأَلَ الأَسْوَدَ: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ أَوْ مُذَّكِرٍ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ يَقْرَؤُهَا: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾، قَالَ: وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَؤُهَا: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ دَالًا[١].

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ هذا في قوم هود، فإن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أرسل عليهم الريح، حتى صارت تنزع الناس، ثم تردهم إلى الأرض، فتكون كأنها أعجاز نخل مُنْقَعر، وتُفَسِّرها الآية الأخرى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة:٧].

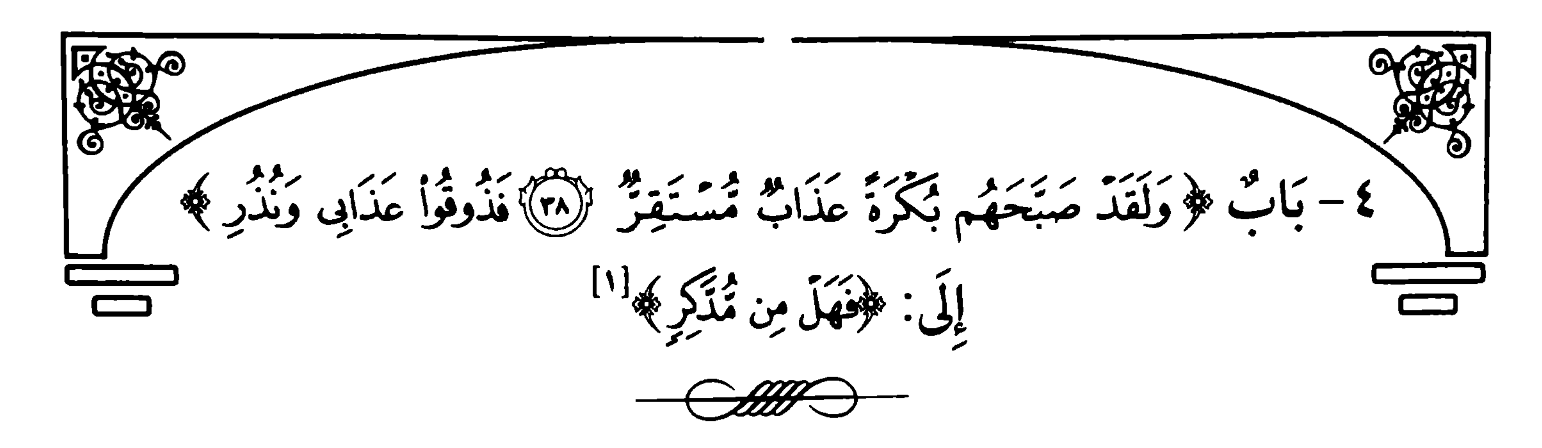




٣- بَابٌ ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾

٤٨٧٢ - حَدَّثَنَا عَبْدَانُ: أَخْبَرَنَا أَبِي، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الأَسْوَدِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَرَأَ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ الآيَةَ.





٤- بَابٌ ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ إِلَى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[١]

٤٨٧٣- حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ: حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الأَسْوَدِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

---

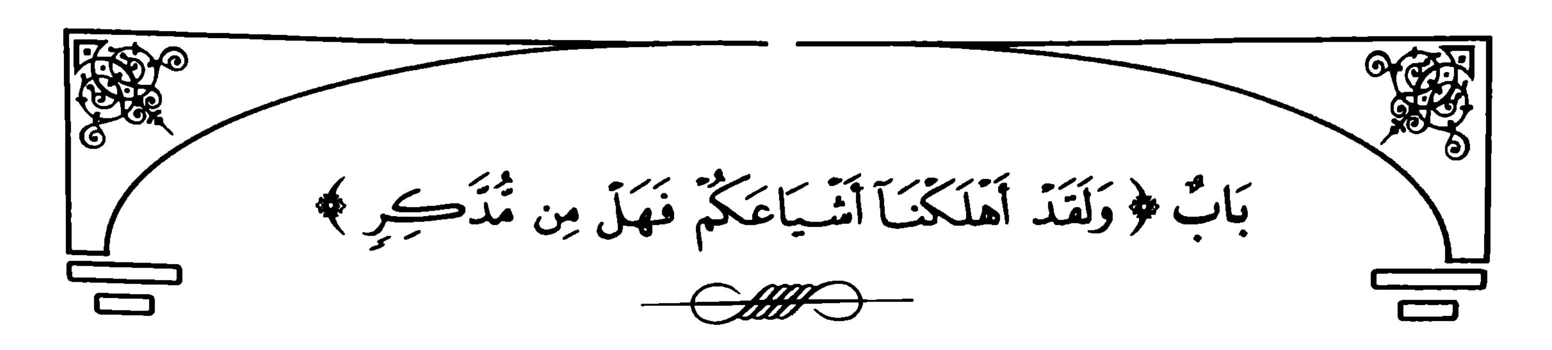
[١] هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ في قوم لوط، أُهلكوا في الصباح والعياذ بالله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود:٨١]، وكان هذا في بُحَيْرة في فلسطين، وهي البحر الميت.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ استدلَّ به أهل السُّنَّة على ثبوت عذاب القبر؛ لأنه إذا كان صبَّحهم العذاب -وهو عذاب مستقر- فمعنى هذا: أنه سيستمرُّ، وهذا يدلُّ على ثبوت عذاب القبر، وهو ثابت بالنصِّ والإجماع، ولا إشكال فيه، فكلُّ المسلمين في جميع الصلوات يقولون: «أعوذ بالله من عذاب جهنَّم، ومن عذاب القبر»، ولا يتعوَّذون من شيء لا يُؤمنون به.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ يعني: يُقال لهم ذلك توبيخًا وتقريعًا.

وقوله: ﴿عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ الواقع أن النُّذُر سبقوا في الدنيا، لكن المراد: هذا مصداق قول النذر، يعني: ذوقوا عذابي، وذوقوا ما قالته النُّذُر لكم.





٤٨٧٤ - حَدَّثَنَا يَحْيَى: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَرَأْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: فَهَلْ مِنْ مُذَّكِرٍ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1].

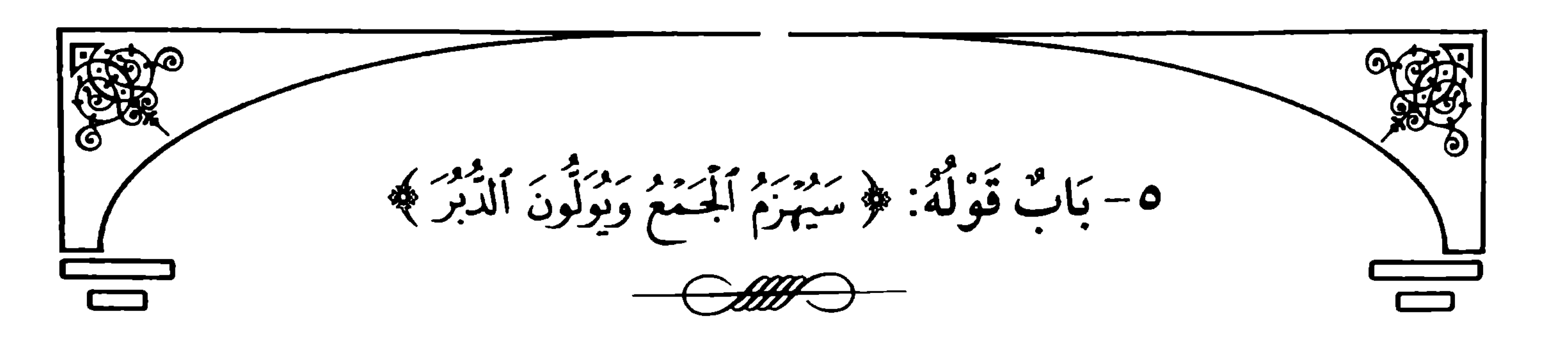
---

[١] الأولى بالذال، والثانية بالدال.

وإسرائيل: رجل ثقة من رواة الحديث، وكلُّ الرجال الذين في (صحيح البخاري) كلهم ثقات.

فائدة: أمَّا الدولة اليهودية فتُسَمَّى: إسرائيل؛ لأنهم يدَّعون أنهم من بني إسرائيل، ولهذا قال بعض الناس: ليتها ما سُمِّيت إسرائيل؛ لأن إسرائيل نبي، وهو يعقوب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.





٥- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾

٤٨٧٥- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَوْشَبٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَهَّابِ: حَدَّثَنَا خَالِدٌ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، (ح) وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ: حَدَّثَنَا عَفَّانُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ وُهَيْبٍ: حَدَّثَنَا خَالِدٌ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ يَوْمَ بَدْرٍ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ تَشَأْ لَا تُعْبَدْ بَعْدَ اليَوْمِ**»، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ! أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ، وَهُوَ يَثِبُ فِي الدِّرْعِ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[1].

---

[١] لمَّا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ هؤلاء المُكذِّبين وإهلاكهم خاطب أهل مكة، فقال: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أي: في الكُتُب، يعني: هل أنتم خير من هؤلاء، أو أن الله أعطاكم عهدًا كتَبه لكم في الزُّبُر بأنه لن يُهلككم؟ والجواب: لا هذا، ولا هذا، لكنهم ادَّعوا دعوى ثالثةً، فقال: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾ أي: نحن مجتمعون ومُتآلفون ومُتعاهدون ومتعاقدون منتصرون.

فأمَّا قولهم: ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ﴾ فصحيح، وأمَّا قولهم: ﴿مُّنتَصِرٞ﴾ فخطأ، فقد ينتصرون، وقد لا ينتصرون، فالانتصار ليس بأيديهم، فماذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في جوابهم؟

الجواب: قال: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، وهذا ضد قولهم: ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾، وهذا هو الذي حصل، ولله الحمد، فقد هُزِمَ الجَمْع في بدر، وولَّوا الأدبار، وقُتِلَ من صناديدهم مَن قُتِل، وسُحِبُوا جِيَفًا، وأُلْقُوا في قليب من قُلُب بدر خبيث له

....

= رائحة مُنتنة، حتى إن بعضهم بقي يومًا أو أكثر، وانتفخ، وصار مثل الجمل، وأُلْقُوا في هذه القليب، ووقف النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يدعوهم بأسمائهم، وأسماء آبائهم: «يَا فُلَانَ ابْنَ فُلَانٍ! وَيَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ! هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللهُ حَقًّا» يُريد النصر والهزيمة، قالوا: يا رسول الله! كيف تُكَلِّمهم وقد صاروا جيفًا؟ قال: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ»[1]، وانظر هذا التوبيخ! بعد أن هُزِمُوا هذه الهزيمة النَّكراء -وهم صناديد قريش وكُبَراؤهم ووُجهاؤهم وأشرافهم- وقُتِلُوا هذه القِتْلَة، وكانوا أربعةً وعشرين، وكلُّهم أُلْقُوا في هذه القليب.

وإذا كانوا يسمعون الرسول ﷺ الذي يعتقدونه ذليلًا عندهم، وليس بشيء، ويَدْعُونه الساحر والمجنون والكاهن وما أشبه ذلك، إذا كانوا يسمعونه وهم في حال لا يستطيعون أن يُجيبوا، وهو يقول: «هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللهُ حَقًّا»، فماذا تكون هذه عليهم؟! تكون من أشدِّ ما يكون، نسأل الله العافية.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، والسين للتقريب والتحقيق، وهنا قال: ﴿سَيُهْزَمُ﴾؛ لأنهم هُزِمُوا على يد النبي ﷺ بمعونة الملائكة، قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:١٢-١٣]، فهُزِمَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم (٣٩٧٦)، ومسلم: كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت، رقم (٢٨٧٣/ ٧٦).

....

= الجَمْع، وولَّى فَلُّهم الدُّبُر، فانقلبوا خائبين خاسرين، ورجعوا إلى مكة مَوْتُورين مقطوعين قطعًا لم يَقُم لهم بعده شأن.

فإن قال قائل: وكيف نجمع بين هذا الحديث، وبين قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [النمل:٨٠]؟

قلنا: المراد بالآية: لا تُسْمِعُهم سماعًا ينتفعون به، أي: أن دعوتك لهؤلاء كدعوة الموتى، فكما أنك لو ذهبت إلى المقابر، وقلت: يا أهل المقابر! آمِنُوا بالله ورسوله، أطيعوا الله ورسوله، فإنه لا يُمكن أن يفعلوا، فكذلك هؤلاء لا يسمعون سماعًا ينتفعون به، فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ ورد في أن هؤلاء لا يؤمنون، وأنهم أموات، ولم يَرِد في التحدُّث عن الموتى، وهل الرسول ﷺ يُسْمِعهم، أو لا؟ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦]، ومعلوم أن الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يذهب إلى المقابر يدعوهم.

وعلى هذا يكون معنى الآية: إذا كنت تُسْمِع الأموات في المقابر فإنك ستُسْمِع هؤلاء، والذين يستجيبون هم الذين يسمعون.

وقد حاول بعض الناس أن يُحوِّل النصوص على التحدُّث مع الموتى؛ لئلا يتعلَّق القبوريُّون بأهل المقابر، يأتون إلى قبور الأولياء، ويدَّعون أن هؤلاء شُفعاء وأولياء، ويقولون مثلًا: يا سيدي! يا وليي! يا وليَّ الله! زوجتي لا تحمل، اجعلها تحمل، أو يقول: ليس لي إلا ولدان، اجعل الثالث يأتيني، أو يقول: ما عندي إلا مال قليل، وأُريد أن أتزوَّج، ائتني بمال، وهكذا، كما هو موجود في البلاد الإسلاميَّة.

....

= ولكن نردُّ على هؤلاء، فنقول: إن أهل القبور حتى لو سمعوا دعاءكم ما استجابوا لكم، كما قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥]، ولا حاجة إلى أن نُجادلهم: هل يسمعون، أو لا يسمعون؟

فإذا قالوا: إن هذه الآيات نزلت في الكفار، وليست في قوم صالحين!

نقول: إن عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ داخل في الآية مع أنه نبي، ولهذا لمّا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨] جاء الكفار -كما ذُكِرَ ذلك في التفسير- فقالوا: هذا عيسى يُدْعَى من دون الله، فهل هو من حصب جهنم؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١][1].

وهنا فائدة: هل الميت يسمع، ويردُّ على السلام؟

الجواب: ورد في هذا أحاديث صحَّحها ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، ووافقه ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب (الروح)[2]، ولهذا يزور الإنسان الموتى، ويُسَلِّم عليهم، ويدعو الله لهم.

---

(١) عزاه ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ -عند تفسير الآية- إلى الحافظ ابن مردويه رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) الروح (١/ ١٦٧).

....

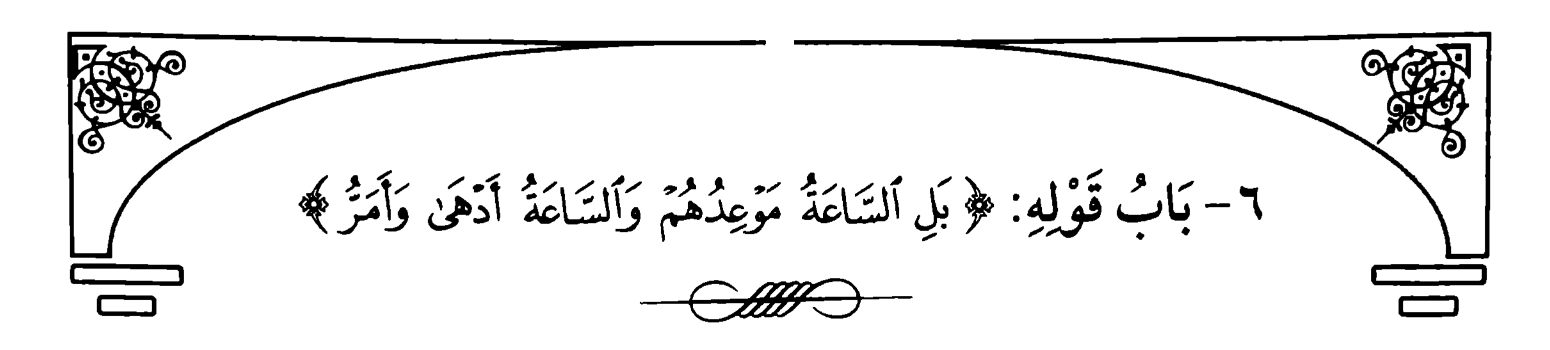
= فإن قال قائل: ولماذا لا نقـول: إن الله عَزَّوَجَلَّ جعل لهذه الأمـة عهدًا بأنه لن يُهلكها، وهذا يشمل أمة الدعـوة وأمة الإجابة، وأن «أم» في قوله: ﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ بمعنى: بل؟

قلنا: لأنه من أول السورة وهو يُخاطب قومًا مُعَيَّنِين، وهم قريش، ولهذا تجد هذه السورة آياتها قصيرة، لكنها من أشدِّ ما يكون؛ لأنهم قوم فُصَحاء، يفهمون مثل هذا الكلام المُوجَز الذي كالقوارع والصواعق عليهم.

ثم إن قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾ يُريد به كفَّار مكة، فالآية واضحة في أنها في خصوص هؤلاء.

ومعنى (ح) التي في السند: أن المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحوَّل من السند الأول إلى السند الثاني، والغرض من التحويل: الاختصار، فبدلًا من أن يأتي بالمتن بعد السند الأول، ثم يُعيده، يذكر السند الثاني، ويذكر المتن الثابت بهما، وتُكْتَب (ح)، وتُقْرَأ بلا همزة على ما رُسِمَت.





٦- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾

يَعْنِي: مِنَ المَرَارَةِ[١].

٤٨٧٦- حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى: حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، أَنَّ ابْنَ جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ، قَالَ: أَخْبَرَنِي يُوسُفُ بْنُ مَاهَكٍ، قَالَ: إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ، قَالَتْ: لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَكَّةَ، وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[٢].

---

[١] على هذا يكون «أَمَرُّ» اسم تفضيل من: مرَّ يَمَرُّ، بمعنى: صار مُرًّا.

[٢] كان نزول هذه السورة قريبًا من الهجرة؛ لأن الجَمْع هُزِمَ في السَّنة الثانية من الهجرة في بدر، والسين في ﴿سَيُهْزَمُ﴾ تدلُّ على القرب.

وهنا فائدة: متى وُلِدَت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؟

الجواب: وُلِدَت بعد البعثة بخمس سنوات، لأنه كان لها ثماني عشرة سنةً يوم مات النبي ﷺ، وقد كانت مدَّة رسالة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ثلاثًا وعشرين سنةً.

وكانت الهجرة بعد البعثة بثلاث عشرة سنةً، فيكون لها حين الهجرة ثمان سنوات؛ لأن الرسول ﷺ تزوَّجها وهي بنت ست سنين، وبنى بها في المدينة ولها تسع سنوات.

وإذا كان لها حين الهجرة ثمان سنوات، وهي تقول: «وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ»، وهذا ممكن وهي أمُّ ثمان سنوات، فتكون السورة نازلةً قبل الهجرة بزمن غير بعيد.

٤٨٧٧ - حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ: حَدَّثَنَا خَالِدٌ، عَنْ خَالِدٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ لَهُ يَوْمَ بَدْرٍ: «أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَدًا»، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ، وَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ! فَقَدْ أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ، وَهُوَ فِي الدِّرْعِ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[1].

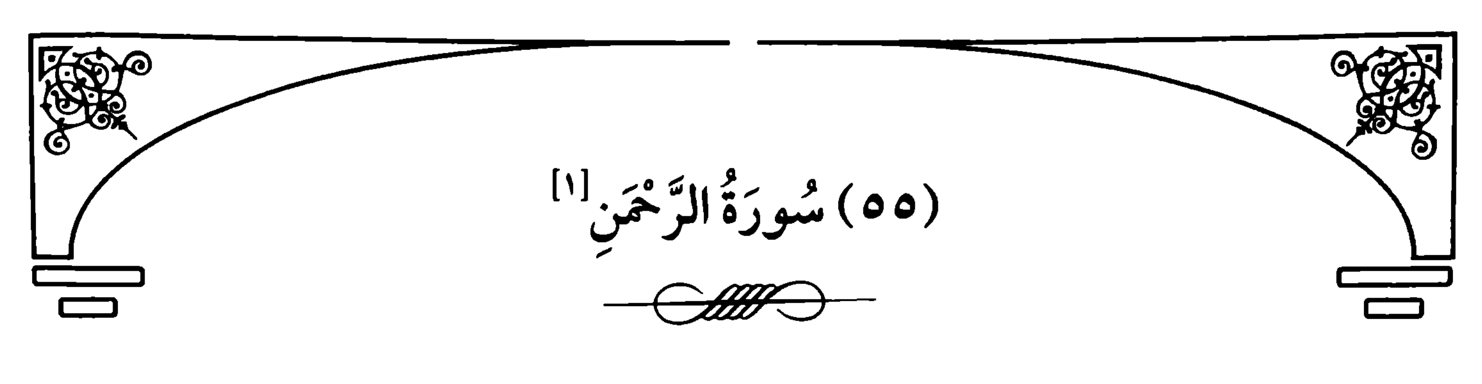
---

[١] قوله: «وَهُوَ فِي الدِّرْعِ» هذا يدلُّ على أن فعل الأسباب لا يُنافي التوكُّل؛ لأن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو سيِّد المتوكلين، ومع ذلك كان يلبس الدِّرع في الحرب للوقاية، فالأخذ بالأسباب لا يُنافي التوكل، بل قد يجب الأخذ بالأسباب، ويكون من تمام الدين.

فإن قال قائل: لكن قوله هنا: «**فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ:** ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾» هل يدلُّ على أنها نزلت حين دعا النبي ﷺ، فاستجاب الله له؟

نقول: هذا لا يلزم، فقد تنزل قبل ذلك، ويتلوها الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تحقيقًا لهذا.





(٥٥) سُورَةُ الرَّحْمَنِ[١]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ كَحُسْبَانِ الرَّحَى[٢].

---

[١] قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾، ومعلوم أن خَلْق الإنسان قبل تعليم القرآن، ولكن تعليم القرآن أهم بكثير من خَلْق الإنسان؛ لأن بتعليم القرآن تحصل السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.

ثم تأمَّل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ثم أَعْقَبها بقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ لتستدلَّ به على أن تعليم القرآن من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ﴾، قال: «كَحُسْبَانِ الرَّحَى»، أي: أنها مُستديرة، وتدور في هذا الفلك، كما تدور الرَّحى بفَلَكِها، وهذا يدلُّ على أن الشمس والقمر يدوران على الأرض كما هو مُعتقدنا إلى الآن، وأنه ليس اختلافُ الليل والنهار -كما يزعمون- بسبب دوران الأرض، ولكن بسبب دوران الشمس والقمر.

ونحن لا ننفي دوران الأرض ولا نُثْبِتُه، بل نقول: إن كانت تدور فهي تدور، وإن كانت لا تدور فهي لا تدور، وإن كان قد يغلب على ظنِّي -والله أعلم- أنها تدور، قال الله تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل:١٥]، وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ﴾ أي: تضطرب، وهذا يدلُّ على أن فيها حركةً، لكن لا أجزم.

وإنَّما الذي نُنْكِره أن تكون الشمس واقفةً، والأرض هي التي تدور عليها، وإذا غابت الشمس فنحن الذين غبنا عنها، وليست هي التي غابت، ويكون تعاقب الليل

....

= والنهار بسبب دوران الأرض حول الشمس، أي: أن الليل والنهار يأتي من أجل أن الأرض إذا دارت قابلت الشمس، فإذا انحرفت في الدوران اختفت عن الشمس، فهذا الشيء الذي أُنكره ولا أُقِرُّه وعندي كلام الله عَزَّوَجَلَّ، إلا لو رأيته بنفسي، فقد يكون لي عذر أن أُؤَوِّل القرآن، ولا يُكلِّف الله نفسًا إلا وسعها.

أمَّا مُجَرَّد نظريات -وإن كانوا يقولون: إنها أصبحت يقينيَّات، بل بعضهم يقولون: بديهيَّات لا معارضة فيها، كما أعرف أن نصف الاثنين واحد أعرف أن اختلاف الليل والنهار بسبب دوران الأرض- فأقول: لكم ما ترون، أمَّا أنا فلا يُمكن أن ألقى الله إلا بهذا، إلا إذا تبيَّن لي شيء يُسَوِّغ لي أمام الله عَزَّوَجَلَّ أن أُؤَوِّل القرآن، فهذا شيء آخر.

إنما الذي نرى أن الشمس هي التي تدور على الأرض، فتطلع وتغرب، ويكون بذلك الليل والنهار، ولا يمنع أن تكون الأرض تتحرَّك من جهة، والشمس تدور عليها من جهة أخرى، لكن إنكار أن يكون الليل والنهار بواسطة الشمس يُعْتَبر خطرًا على الإنسان.

وأمَّا مَن استدلَّ على دوران الأرض بقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]، فنقول له: اقرإ الآيات التي قبلها، ولا تجعل القرآن أبتر، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾، وهذا يكون يوم القيامة، فما الذي ينزع هذه الآية من بين الآيتين، ويجعلها في

....

= الدنيا؟! لكن بعض الناس يُحَرِّف القرآن من أجل ما يعتقده هو، ولا ينبغي لنا أن نُحَمِّل الآيات ما لا تتحمَّل، ونلوي رقاب الآيات لتكون على حسب ما نعتقد.

فإن قال قائل: إذا كان الأمر كذلك فكيف تكون الفصول الأربعة؟

قلنا: إن الشمس لا تدور على خط مستقيم، ولكن تدور مثل النابض.

وهنا مسألة: كيف يصنع المُعَلِّم مع التلاميذ في هذه المسألة؟

الجواب: يجب أن يُبَيَّن للصغار أن الشمس هي التي تدور على الأرض، فيختلف بهذا الليل والنهار، ويُقال: دوران الأرض لا نستطيع أن نُنْكِره أو نُثْبِتَه، لكن يجب أن يُقَرَّر عليهم بأن الشمس هي التي تدور على الأرض.

فإن قال قائل: وكيف يصنع الإنسان في الاختبار إذا سُئِلَ عن هذه المسألة؟

قلنا: إذا كان في الاختبار فإنه يأتي بالذي في الكتاب، ولا يأتي بالذي يعتقد؛ لأن الإنسان لا يُخْتَبر عن مُعْتَقَده، ولا يُريد أن يفتي أو يكتب كتابًا، وإنما يُريد أن يُقَدِّم بحثًا امتُحن فيه على ضوء ما قيل له، ولا يُقال: إن هذا الرجل أفتى بغير ما يعتقد أنه الحق؛ لأن هذه الأجوبة التي تُكْتَب لا تُنْشَر للناس، وإنما تُحَرَّق أو تُمَزَّق.

فإن قال قائل: وكيف يصنع إذا كان هذا الجواب يحوي حديثًا موضوعًا؟

فالجواب: يقول: قال صاحب الكتاب، أو فيما يُنْسَب إلى الرسول ﷺ، مع أني أرى أنه يجب على طالب العلم الذي عنده علم بأن هذا الحديث موضوع أو ضعيف أن يُكَلِّم المُدَرِّس في هذا، حتى يُقَرِّر المُدَرِّس رفع هذا الحديث، أو التعليق عليه.

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ﴾ يُرِيدُ لِسَانَ المِيزَانِ[١].

= فإن قال قائل: وهل مثل ذلك ما يُدَرَّس من أن السحب تتكوَّن من تبخُّر المياه من البحار بسبب حرارة الشمس؟

قلنا: يُقال للطلبة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم:٤٨]، ويُبَيَّن لهم أن الرياح هي التي تُثير السحاب، ولو كانت الشمس لكان المطر يأتي في الصيف، مع أن أكثر ما يأتي المطر في أيام الشتاء، والشمس باردة.

والمهم: أنه في كل هذه يجب أن يُقْرَن ما تقتضيه الأدلة الشرعية بها؛ حتى لا يُبْعِد هؤلاء التلاميذ؛ لأن التلميذ إذا مكث هذا في ذهنه لا يذهب.

[١] قوله: «يُرِيدُ لِسَانَ المِيزَانِ» ذلك أن الميزان له لسان؛ لأن الميزان يكون في الوسط، والكفتان على اليمين والشمال، ثم إذا رجحت إحداهما طلع اللسان من جهتها، فأقيموا اللسان؛ لأنه إذا أقام اللسان وجعله مُتوسِّطًا فهذا هو العدل.

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ الميزان في هذه السورة ثلاث مرَّات، ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾، لكن لكلِّ واحد منها معنى، فقوله: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العدل، فإن الله تعالى وضع الميزان، وأمر به، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠]، وهذا يشمل العدل في كل شيء، حتى العدل في عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، بأن تقوم بحق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الوجه الخالص له.

وقوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ أي: في العدل، فتجوروا على أحد.

وَالعَصْفُ: بَقْلُ الزَّرْعِ إِذَا قُطِعَ مِنْهُ شَيْءٌ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَ، فَذَلِكَ العَصْفُ.

﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ رِزْقُهُ.

﴿وَٱلْحَبُّ﴾ الَّذِي يُؤْكَلُ مِنْهُ.

وَالرَّيْحَانُ فِي كَلَامِ العَرَبِ: الرِّزْقُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَالعَصْفُ يُرِيدُ المَأْكُولَ مِنَ الحَبِّ، وَالرَّيْحَانُ: النَّضِيجُ الَّذِي لَمْ يُؤْكَلْ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: العَصْفُ وَرَقُ الحِنْطَةِ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: العَصْفُ التِّبْنُ.

وَقَالَ أَبُو مَالِكٍ: العَصْفُ أَوَّلُ مَا يَنْبُتُ، تُسَمِّيهِ النَّبَطُ: هَبُورًا.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: العَصْفُ: وَرَقُ الحِنْطَةِ، وَالرَّيْحَانُ: الرِّزْقُ[١].

= وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ هذا هو الميزان الحسِّي الذي تُوزَن به الأشياء.

[١] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾، أي: أن الأرض جعل الله فيها هذه الأشياء لمنافع الناس.

وقوله: «وَالعَصْفُ: بَقْلُ الزَّرْعِ إِذَا قُطِعَ مِنْهُ شَيْءٌ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَ» يعني: أن العصف هي الأوراق التي في الزرع، وكذلك الكِمام التي على السنبل، وشبهه، وذلك لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل هذا العصف له حمايةً يحميه.

وَالمَارِجُ: اللَّهَبُ الأَصْفَرُ وَالأَخْضَرُ الَّذِي يَعْلُو النَّارَ إِذَا أُوقِدَتْ[١].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ لِلشَّمْسِ فِي الشِّتَاءِ مَشْرِقٌ، وَمَشْرِقٌ فِي الصَّيْفِ، ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ مَغْرِبُهَا فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ[٢].

وأمَّا قوله: «﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ رِزْقُهُ» فهذا فيه غرابة، بل الريحان هو هذا الطيب المشموم، فذكر الله عَزَّوَجَلَّ ما يتلذَّذ به الإنسان بأكله، وما يتلذَّذ الإنسان برائحته، وهذا أَوْلَى ممَّا فسَّره به المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

[١] يعني بذلك قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾، فإذا رأيت لَهْبَة النار وجدت شيئًا أخضر وأصفر، ورُبَّما أيضًا أزرق، وهذا هو المارج.

وسُمِّي: مارجًا؛ لأنه مُخْتَلط، والمَرْجُ بمعنى: الخَلْط، كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥]، أي: مختلط.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾، يعني: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المالك للمشرق والمغرب، ومشرق الشمس في الصيف غير مشرقها في الشتاء، فإنها تكون في مدار الجدي في أيَّام الشتاء، وفي مدار السرطان في أيَّام الصيف، وبينهما تباعد عظيم، والذي جعلها تتنقَّل في هذه البروج هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وفي هذه السورة قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾، وفي سورة أُخرى قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:٤٠]، وفي ثالثة قال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل:٩]، وليس بين هذه الآيات تناقض، فأمَّا قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ فقد سبق وجه التثنية، وأمَّا قوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ فالمراد: الجهة، وأمَّا قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ فالمراد: مشارق كلِّ ما يشرق، كالشمس، والنجوم،

﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ لَا يَخْتَلِطَانِ[1].

= والقمر، أو أن المراد: مشارق الشمس، لكن باعتبار كل يوم، فإن كل يوم لها مشرق ومغرب غير اليوم الثاني.

[١] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾، و﴿مَرَجَ﴾ بمعنى: خَلَط كما سبق قريبًا، و﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ هما العَذْب والمالح، وقوله: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ جملة حاليَّة.

وقوله: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ قال كثير من المُفَسِّرين: إن البرزخ الذي بينهما هو اليابس من الأرض؛ لأن الأنهار تجري في مجاريها، وبينها وبين البحار المالحة برزخ، ولا يبغي بعضها على بعض.

وقيل: إن البرزخ هو ما يكون عند مصبِّ النهر، فإن النهر إذا صبَّ في البحر يمتدُّ إلى مسافة بحسب اندفاعه لا يختلط بالبحر؛ لأنه مع قوة الاندفاع يتمايز الماء المالح عنه، فيندفع إلى مكان بعيد دون أن يختلط بالماء المالح.

وقيل: إن المراد بالبحرين: الصِّنْفَان والنوعان من البحار، وليس المراد بذلك: النهر والبحر، وأن هذه البحار -وإن كانت بحرًا واحدًا- لكنها أنواع، حتى إنه يكون بين كل نوع وآخر شِبْهُ الحاجز الذي لا يمنع من السفن، ولا من الغواصات، فليس هو حاجز جدار، ولكنه حاجز بالخِلْقَة، وهو حاجز بسيط جدًّا، كما يكون في قطمير النواة، وأن هذين النوعين من البحار لا يبغي بعضهما على بعض، فهذا لا يدخل في هذا، وهذا لا يدخل في هذا، وأن كل واحد منهما له نوع خاص من الحوت لا يعيش في النوع الآخر من البحار، فإذا صحَّ هذا -بحسب المعلومات الآن- فهذا أبلغ في القدرة

﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ مَا رُفِعَ قِلْعُهُ مِنَ السُّفُنِ، فَأَمَّا مَا لَمْ يُرْفَعْ قَلْعُهُ فَلَيْسَ بِمُنْشَأَةٍ[١].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ كَمَا يُصْنَعُ الفَخَّارُ[٢].

= ممَّا قاله العلماء في القول الأول؛ لأن الماء إذا نظرت إليه نظرت إليه على أنه ماء واحد، لكنه في الحقيقة مُتميِّز لا يبغي بعضها على بعض.

وهناك قول رابع، وهو أن في البحار أنهارًا عذبةً جدًّا تمشي كما تمشي على سطح الأرض، ولا تختلط بالمالح، وفيها أيضًا عيون عذبة تنبع من الأرض، حتى إن الغوَّاصين ينزلون معهم بالقِرَب، ويضعون فَمَ القربة على فُوهة الشق الذي يخرج منه الماء الحلو، ويملؤون القربة، ويخرجون بها، وهذا وجه رابع في الآية، وإنما لم يعرف هذا السلفُ؛ لأنه ليس عندهم الآلات الدقيقة التي تُميِّز.

والآية تُحْمَل على هذه الأقوال جميعًا، لكن أشدها في القدرة والعظمة هو القول الثالث.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾، والمُنْشَأ هو الذي رُفِعَ قِلْعُه، وذلك أن السفن الشراعيَّة ينصبون فيها الشراع، والذي يدفعها هو الهواء، فهذه الجواري قال الله تعالى عنها: ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ أي: كالجبال؛ لأن العَلَم هو الجبل.

وهذه الآية تظهر تمامًا في زمننا أكثر ممَّا مضى؛ لأن السُّفُن فيما مضى ليست بهذه الضخامة وهذا الكِبَر، لكنها الآن ضخمة وكبيرة، تدخل السفينةَ كأنها بلد كامل من كِبَرها، فيها أسواق، وفيها مطابخ.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾، يعني:

الشُّوَاظُ: لَـهَبٌ مِنْ نَارٍ.

﴿وَنُحَاسٌ﴾ النُّحَاسُ: الصُّفْرُ، يُصَبُّ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، فَيُعَذَّبُونَ بِهِ[1].

= كالفخَّار المعروف، وهو عبارة عن الطين الذي يُشْوَى، ثم يُرَطَّب بالماء، ويبقى مدَّةً، فيُعْجَن، وتُصْنَع منه القدور والأواني، ويكون صلبًا.

[١] هذا في قول الله تعالـى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾، ﴿وَنُحَاسٌ﴾ فيها قراءتان: ﴿وَنُحَاسٌ﴾، (وَنِحَاسٍ)(١)، وهذا يدلُّ على أن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن:٣٣] يُراد به يوم القيامة، وليس كما ادَّعى بعض الناس حين وصل الإنسان إلى القمر قال: إن القرآن يدلُّ على ذلك، وقال: لأنه قال: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾، والسلطان هو العلم، وقد علمتم وتعلَّمتم ووصلتم، فنقول: هذا كذب على الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله تعالى ما أراد ذلك قطعًا؛ لوجوه:

الأول: أن الآية في سياق يوم القيامة، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾.

الوجه الثاني: أن الآية يُخاطب الله عَزَّوَجَلَّ فيها الجن والإنس، والجن كانوا قد وصلوا إلى السماء حين نزول القرآن.

---

(١) قرأ بالجر ابن كثير وأبو عمرو، وقرأ الباقون بالرفع، يُنْظَر: التبصرة في القراءات السبع، (ص:٦٩٠).

﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ يَهُمُّ بِالمَعْصِيَةِ، فَيَذْكُرُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فَيَتْرُكُهَا[١].

الوجه الثالث: أنه قال: ﴿مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولن ينفذ أحد من أقطار السموات والأرض، وهؤلاء وإن نفذوا من أقطار الأرض لكن لم يصلوا إلى أقطار السماء، فضلًا عن أن ينفذوها.

الوجه الرابع: أنه عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾، وهؤلاء ما أُرسل عليهم شواظ من نار، إذن: فهذا يكون يوم القيامة.

لكن هل ثبت أن هؤلاء صعدوا إلى القمر، وكيف يُصَدَّقون وهم كفار؟

نقول: هذا الأمر متواتر، ولا شَكَّ عندي في أنهم وصلوا إلى القمر، والمتواتر لا يُشْتَرَط فيه عدالة الراوي، ولكن يُشْتَرَط في المتواتر: ألا يكون عن عقيدة، ولكن يستند إلى أمر محسوس، أي: يُدْرَك بالحس، أمَّا ما ينتهي بالمُعْتَقد فلا يصح، وإلا لكنا نقول: قد تواتر عند النصارى أن الله ثالث ثلاثة، وهذا يُرَدُّه القرآنُ والعقلُ، ولهذا اشترطوا في المتواتر، قالوا: يُشْتَرَط أن يكون منتهى السند إلى أمر محسوس، لا إلى اعتقاد.

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: خاف وقت القيام بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ ومكانه، فإذا ذكر الإنسان أنه سيقف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، كما أخبر بذلك النبي ﷺ: أن الله تعالى يخلو بعبده المؤمن(١)، وأن الله يُكَلِّمه ليس بينه وبينه ترجمان(٢)، إذا ذكر هذا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨/ ٥٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، رقم (٦٥٣٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٦/ ٦٧).

....

= فإنه يخاف، كلَّما همَّ بمعصية تذكَّر ذلك المقام، كلما همَّ بترك طاعة تذكَّر هذا المقام، فأبى أن يفعل المعصية أو أن يدع الطاعة.

والحقيقة أن الإنسان إذا تذكَّر هذا دائمًا ينتفع انتفاعًا عظيمًا، فإذا ذكرت أنك الآن بين أصحابك وبين أهلك، وسيأتي اليوم الذي لا يكون عندك إلا الله عَزَّوَجَلَّ، يُقرِّرك بذنوبك، ويقول: عملتَ كذا وعملتَ كذا وعملتَ كذا، لو لم يحصل لك إلا الخجل من الله عَزَّوَجَلَّ لكان كافيًا، فكيف وأنت مُعرَّض للعقوبة؟! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠-٤١]، وهنا يقول: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.

لكن الخوف الحقيقي يستلزم نهي النفس عن الهوى، ولهذا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ هذا اللازمَ في آية النازعات، ولم يذكره هنا؛ لأنه إذا خاف الإنسان مقام ربِّه حقيقةً نهى نفسه عن هواها.

وقد ذكر الله تعالى لِـمَن خاف مقام ربِّه أربعة أصناف، لكن كل اثنين يُعْتَبران صنفًا واحدًا، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، ثم قال بعد آيات: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، فأيهما أفضل: الجنتان الأُوليان، أم الأُخْريان؟

الجواب: الأُوليان، والعلماء مختلفون في هذا، فمنهم مَن يقول: إن الثانية أكمل، ومنهم مَن يقول: الأولى أكمل، وقد ذكر ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (النونية) أن بينهما عشرة

....

= فروق، وقال: لولا ضيق النظم لسردتها[1]، وليته سردها ولو ضاق النظم، عفا الله عنه، فمن ذلك:

أولًا: أنه في الثانية قال: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي: سوداوان من النبات الذي فيهما، ويُقابلها في الأولى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ أي: أغصان، وهذه أبلغ؛ لأن هذا يدلُّ على كِبَر أشجارهما، وأنها ذوات أغصان، أو أن المراد بـ:﴿أَفْنَانٍ﴾ أي: أصناف.

ثانيًا: أنه قال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، ويُقابلها في الأُخريين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾، ولا شَكَّ أن الجري أقوى من النضخ؛ لأن النضخ عبارة عن الفوران، لكنه لا يمشي، والجريان جري ومشي.

ثالثًا: قال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، وقال في الأُخريين: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، والأولى أحسن؛ لأن قوله: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾ نكرة في سياق الإثبات، فلا تعمُّ، إلا أنهم قالوا: إذا جاءت في سياق الامتنان، فقد تكون للعموم، وإلا فالأصل أنها للإطلاق فقط، لكن في الأولى قال: ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾، فهي أشد.

رابعًا: أنه قال في الأُوليين: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾، وهو أعلى أصناف الحرير، فإذا كانت البطائن من إستبرق فما بالك بالظهائر؟! ولهذا لم يُفْصِح بالظهائر، فتكون فوق ما يتخيَّله الإنسان، أمَّا في الأُخريين فقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾، والرفرف هي البُسط أو المحابس.

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في النونية، في البيت (٥٠٧٦):
«فَالأُولَيَانِ الفُضْلَيَانِ لِأَوْجُهٍ عَشْرٍ، وَيَعْسُرُ نَظْمُهَا بِوِزَانِ».

....

= **خامسًا:** أنه قال في الأُولين: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾، وزاد: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾، أمَّا في الأُخريين فقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ فقط، وسكت الله عنها، لكن في الجنة ما تشتهيه الأنفس، وتلذُّ الأعين، وإنما المقارنة تكون على الشيء المُصَرَّح به.

فإن قال قائل: يَرِدُ على هذا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٣]؟

نقول: يحتمل أن يُحْمَل هـذا على الجـميع، ويكون النص على هـذا من باب التخصيص، كما يُذْكَر الخاص بعد العام.

سادسًا: أنه قال في الأُخريين: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾، يعنـي: فلا تنظر إلى غير زوجها، حيث إنها لا تخرج، لكن في الأُولين قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، أي: هي بنفسها، ومَن قام الفعل منه ليس كمَن قام الفعل به من غيره، كما لو قلت: إن هذه امرأة قاصرة، لا تنظر إلى غير زوجها، لكنها تخرج وتذهب وترى الناس، وامرأة أُخرى لا تُريد غير زوجها؛ لأن مُغْلَق عليها في البيت ما رأت غيره.

وهنا إشكال، وهو أنه قال في الجـنَّتين الأُخريين: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾، قـال العلماء: خَيْرات الأخلاق حِسَان الوجوه، وهذا لم يُذْكَر في الأُولين، ولهذا أرى أن الجـنَّات الأربع كلُّها نساؤها واحـد؛ لأنه قال: ﴿فِيهِنَّ﴾، وفي بقيَّة الأشياء يقـول: ﴿فِيهِمَا﴾، وذكرنا هذا في أثناء التفسير، وأن بعض العلماء قال: ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في العَلالي والقصور، وليس في الجنات، وحينئذ تتميَّز الحـور في الجنَّتين الأُولين عن الجـنتين الأُخريين.

﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ سَوْدَاوَانِ مِنَ الرِّيِّ.

﴿صَلْصَٰلٍ﴾ طِينٌ خُلِطَ بِرَمْلٍ، فَصَلْصَلَ كَمَا يُصَلْصِلُ الفَخَّارُ، وَيُقَالُ: مُنْتِنٌ، يُرِيدُونَ بِهِ صَلَّ، يُقَالُ: صَلْصَالٌ كَمَا يُقَالُ: صَرَّ البَابُ عِنْدَ الإِغْلَاقِ، وَصَرْصَرَ، مِثْلُ: كَبْكَبْتُهُ، يَعْنِي: كَبَبْتُهُ.

﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ الرُّمَّانُ وَالنَّخْلُ بِالفَاكِهَةِ، وَأَمَّا العَرَبُ فَإِنَّهَا تَعُدُّهَا فَاكِهَةً، كَقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾، فَأَمَرَهُمْ بِالمُحَافَظَةِ عَلَى كُلِّ الصَّلَوَاتِ، ثُمَّ أَعَادَ العَصْرَ تَشْدِيدًا لَهَا،

= ولكن لو قال قائل: إن الضمير يعود على الجنات الأربع، وأن صفات النساء في الجنات على حدٍّ سواء، لكنه ذكر في جنتين أوصافًا لم يذكرها في الجنتين الأُخريين، فنأخذ من المجموع صفات هؤلاء النساء، ففي كل الجنات الأربع قاصرات الطَّرف، وكأنهنَّ الياقوت والمرجان، وهنَّ خَيْرات حِسَان، ومقصورات في الخِيَام، ولم يطمثهنَّ إنس قبلهم ولا جان[1].

سابعًا: أنه قال في الأولين: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾، ولم يقل هذا في الأُخريين.

وهنا إشكال: إذا كان للرجل في الجنة سبعون من الحور فكيف كانت النساء أكثر أهل النار؟

قلنا: هذه الحور ليست من بنات آدم.

---

(١) تفسير القرآن الكريم (من الحجرات إلى الحديد) لفضيلة شيخنا رحمه الله تعالى، (ص:٤٢٩).

كَمَا أُعِيدَ النَّخْلُ وَالرُّمَّانُ، وَمِثْلُهَا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، وَقَدْ ذَكَرَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي أَوَّلِ قَوْلِهِ: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[١].

---

[١] جعل المؤلِّف قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ معطوفًا على ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، و«مَن» للعُقَلاء، وإلا فإن ما بعد «مَن» داخل في العموم: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ كلها داخلة في عموم قوله: ﴿مَن﴾، فهي من باب عطف الخاص على العام، لكن كأن البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ غير داخلة في ﴿مَن﴾؛ لأن «مَن» للعاقل.

لكن لو أخذنا بهذا الرأي، وحذفنا ما بعد «مَن»، وقلنا: «ألم ترَ أن الله يسجد له مَن في السموات وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب»، فإنه لا يكون لها فائدة في الواقع، فالصواب: أن «مَن» هنا تشمل العاقل وغير العاقل.

وهنا سؤال: هل النخل والرمان من الفاكهة، أم لا؟

نقول: في هذا قولان، فمنهم مَن قال: ليستا من الفاكهة؛ لأن الأصل في العطف المغايرة، ومنهم مَن قال: بل هما منها، والعطف هنا من باب عطف الخاص على العام، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر:٤]، والروح من الملائكة، وكقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨].

وقد ذكر ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (زاد المعاد) أن التمر غذاء وحلوى وفاكهة، فاعتبره من الفاكهة(١).

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٢٩٢).

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿أَفْنَانٍ﴾ أَغْصَانٍ.

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ مَا يُجْتَنَى قَرِيبٌ.

وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ نِعَمِهِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يَعْنِي: الجِنَّ وَالإِنْسَ[١].

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يَغْفِرُ ذَنْبًا، وَيَكْشِفُ كَرْبًا، وَيَرْفَعُ قَوْمًا، وَيَضَعُ آخَرِينَ[٢].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿بَرْزَخٌ﴾ حَاجِزٌ[٣].

الأَنَامُ: الخَلْقُ.

﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ فَيَّاضَتَانِ.

﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ العَظَمَةِ[٤].

---

[١] هذه الآية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ كُرِّرت ثلاثًا وثلاثين مرَّةً؛ لأنها تُذْكَر بعد كل نعمة عظيمة، فيسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الجنَّ والإنس مُقَرِّرًا نِعَمه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، و﴿ءَالَآءِ﴾ بمعنى: نِعَم.

[٢] الظاهر أن المراد باليوم: اليوم المعتاد.

[٣] يعني قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾، وقد سبق أن العلماء قالوا في هذا البرزخ أربعة أقوال.

[٤] وردت هـذه الكلمة في هذه السـورة مرَّتين، مـرَّةً: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ

....

= وَٱلْإِكْرَامِ ﴾، ومرَّةً: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، فما هو السبب في أنه قال في الأولى: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ بالواو، وفي الثانية: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ بالياء؟

الجواب: لأنها في الأولى صفة للمضاف، وهو ﴿وَجْهُ﴾، وفي الثانية صفة للمضاف إليه، وهو «رب».

وبقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ يتبيَّن بطلان مَن فسَّر الوجه بالثواب؛ لأن بعض أهل التحريف قالوا: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس له وجه، والمراد بالوجه: الثواب؛ لأن الثواب مُؤَبَّد، فيُقال: إن قوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ يمنع أن يكون المراد به: الثواب، ووجه ذلك: أن الثواب لا يُوصَف بهذه الصفة، ولا يُوصَف بهذه الصفة إلا وجه الله عَزَّوَجَلَّ، والصواب: أن الله تعالى له وجه، ودليله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾، ووجهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُماثل أوجه المخلوقين، ودليل ذلك: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، وهذان دليلان نقليَّان لعدم المماثلة.

وأمَّا الدليل العقلي فلأنه لا يُمكن أن يكون الخالق مماثلًا للمخلوق، لا في ذاته، ولا في صفاته، وعليه فإن عقيدتنا أن نُؤمن بأن لله تعالى وجهًا يليق بجلاله وعظمته، ولا يُشبه أوجه المخلوقين.

فإن قلت: ما الجواب عن قوله ﷺ: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»(١)؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب بدء السلام، رقم (٦٢٢٧)، ومسلم: كتاب الجنة، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم...، رقم (٢٨٤١/ ٢٨).

وَقَالَ غَيْرُهُ: مَارِجٌ خَالِصٌ مِنَ النَّارِ، يُقَالُ: مَرَجَ الأَمِيرُ رَعِيَّتَهُ إِذَا خَلَّاهُمْ يَعْدُو بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيُقَالُ: مَرَجَ أَمْرُ النَّاسِ، ﴿مَّرِيجٍ﴾ مُلْتَبِسٌ، ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ اخْتَلَطَ البَحْرَانِ، مِنْ: مَرَجْتَ دَابَّتَكَ تَرَكْتَهَا[١].

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ سَنُحَاسِبُكُمْ، لَا يَشْغَلُهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ العَرَبِ، يُقَالُ: لَأَتَفَرَّغَنَّ لَكَ، وَمَا بِهِ شُغْلٌ، يَقُولُ: لَآخُذَنَّكَ عَلَى غِرَّتِكَ[٢].

قلنا: الجواب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن نقول: إن لله تعالى صورةً لا تُماثل وجه بني آدم، فصورة آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على صورة الله عَزَّوَجَلَّ، لكن بدون تماثل.

فإن قلت: وهل يُعْقَل هذا؟!

قلنا: نعم، فهذه أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ومع ذلك فإنه لا يلزم منها أن تكون مماثلةً للقمر.

الوجه الثاني: أن الصورة أُضيفت إلى الله عَزَّوَجَلَّ من باب التشريف والتكريم، أي: على صورته التي خَلَقَها عَزَّوَجَلَّ واعتنى بها، ولهذا نُهِيَ عن تقبيحها؛ لشَرفها بإضافتها إلى الله، وعن ضربها؛ لإضافتها إلى الله تعالى؛ لأنها إذا ضُرِبَت تأَثَّرت، وصارت مُشوَّهةً، وحينئذ تكون إضافتها إلى الله كإضافة ناقة الله وبيت الله إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

[١] كلمة «المَرْج» يُراد بها: الخالص، ويُراد بها: المختلط، وقد سبق أنه ما يُرى من أعلى اللهب من ألوان مختلفة.

[٢] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ قد يقول قائل: إن ظاهرها أن الله تعالى يُشْغله شيء عن شيء، وأنه إذا اشتغل بشيء لم يتمكَّن من الاشتغال بغيره،

....

= كما إذا قلت: أتزورني اليوم؟ فقال: إن فرغت زُرْتك، يعني: إن لم يُوجَد ما يشغلني عن زيارتك فأنا أزورك، فالأصل أنه لا يُقال: فرغ من كذا أو لكذا إلا وهو مشغول بشيء لا يتمكَّن معه أن يأتي بالشيء الآخر.

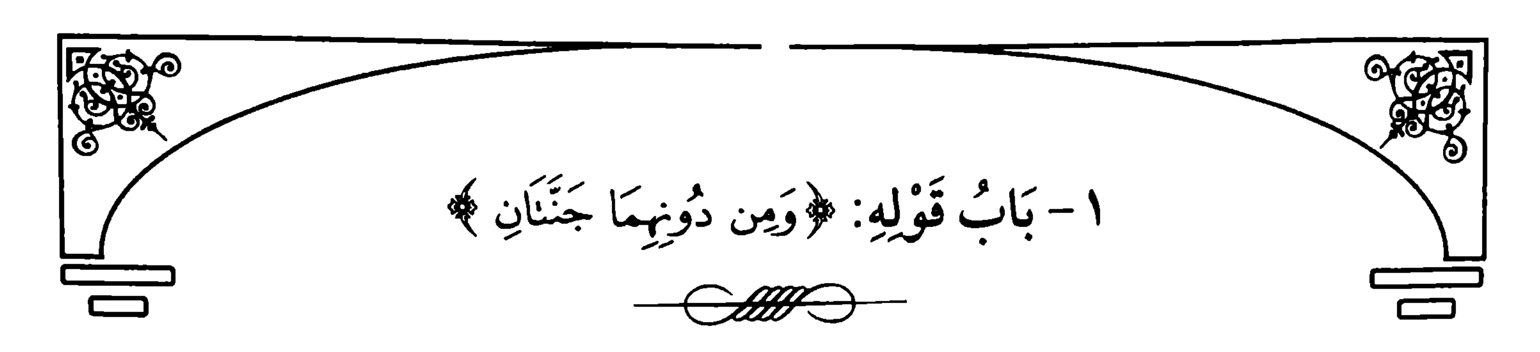
لكن كلمة «فرغ» في اللغة العربية تأتي للوعيد، فيُقال: سأتفرغنَّ لك، أو لأتفرَّغنَّ لك، أي: لآخذنَّك أَخْذَ مَن لا يشغله شيء عن شيء، أو سآخذك أخذ مَن لا ينشغل بغيرك عنك، فيكون المعنى هنا على سبيل التهديد، وهذا هو المتعيِّن في حق الله عَزَّوَجَلَّ، وإلا فإن الله تعالى لا يَشْغَله شيء عن شيء.

وها نحن نقف في الصلاة جميعًا، ونقرأ الفاتحة، فنقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وكلُّ واحد منَّا يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن الله يُجيبه، فيقول: «حَمِدَنِي عَبْدِي»[1]، مع أننا نحن في هذا المكان نختلف ابتداءً وانتهاءً، فمنا مَن كان قد دخل مع الإمام، ومنَّا مَن دخل بعد أن أتمَّ الناسُ الفاتحة، وهكذا، ومع ذلك فإن الله تعالى يُجيب الجميع، بل الأمر ليس مقصورًا على مسجد واحد، بل جميع المساجد في الدنيا، وليس مقصورًا على المساجد أيضًا، بل في كل مكان حتى المرأة في خِدْرها إذا قالت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله: «حَمِدَنِي عَبْدِي»، فلا ينشغل عَزَّوَجَلَّ بإجابة فلان عن فلان، ولا يشغله شيء عن شيء، لكن مثل هـذه العبارة ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ تأتي في لغـة العرب للتهديد وإن كان القائل لم ينشغل بشيء عن شيء.



---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥).



١- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾

٤٨٧٨- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي الأَسْوَدِ: حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ العَمِّيُّ: حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الجَوْنِيُّ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[١].

---

[١] إذن: صارت الجنَّتان مختلفتين، فجنَّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنَّتان من فضة آنيتهما وما فيهما، والجنَّتان من ذهب أعلى بلا شَكٍّ.

وقوله: «وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ» أي: أن نفس الجنَّة من الذهب، وكذلك قوله: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ» أي: نفس الجنة من الفضة.

وقوله: «وَمَا فِيهِمَا» أي: من الأواني وشبهها، أمَّا الأشجار والإنسان والحور والولدان فليست من هذا النوع.

فإن قال قائل: وهل الجنَّتان كلتاهما للإنس، أو جنَّة للإنس، وجنَّة للجنِّ؟

نقول: الظاهر أنهم بحسب الدرجات، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام:١٣٢]، فقد يكون الجن الذين من الصِّدِّيقين مع الإنس الذين من الصِّدِّيقين.

فإن قال قائل: وهل يتفاوت أهل الجنة في رؤية الله عَزَّوَجَلَّ؟

قلنا: أمَّا في أصل الرؤية فإنهم لا يتفاوتون، لكن قد يتفاوتون في مقدار التلذُّذ

....

= بالنظر إلى وجه الله، أو في كثرة الرُّؤية، أو ما أشبه ذلك؛ لأن الآية عامَّة: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾.

وهنا إشكال: إذا كان في الجنة ما تشتهيه الأنفس، وتلذُّ الأعين، وعلم أهل الجنة أن هناك جنَّةً أعلى ممَّا هم فيها، فكيف نُوَجِّه عدم دخولهم الجنة العليا مع أنهم يشتهونها؟

الجواب: أخبر الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأن أهل الجنة يتراءَوْن أصحاب الغُرَف العالية في الجنة كما يتراءى الناس الكوكب الدُّرِّيَّ الغابر في الأفق(١)، أي: أنهم رفيعون جدًّا، ولهم أنوار عظيمة، ومَن يتراءون هؤلاء يعلمون بهم، ومع ذلك يرون أنهم لا نعيم فوق نعيمهم؛ لأن الله تعالى ملأ قلوبهم قناعةً ورضا بما أعطاهم، لا يهمُّهم هذا الترقِّي، ولا يُنَغِّص عليهم عيشهم، ولا يقولوا: ليتنا مثلهم، ويرون أنفسهم قاصرين، كما أن هذا يُوجَد في الدنيا، تجد كثيرًا من الناس يعرف أن فلانًا أكثر منه مالًا، وأن فلانًا أكثر منه علمًا، وأن فلانًا أشرف منه جاهًا، ومع ذلك مُقتنع بما هو فيه مطمئن، فمَن قنَّعه الله بما أعطاه رأى أنه لا أحد أكمل منه.

ويتبيَّن هذا بقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]، ولم يقل: فلنرزُقَنَّه مالًا كثيرًا، ولهذا قد يكون الإنسان فقيرًا وعيشه كَفَافًا، لكن يجد أنه في حال طيِّبة، وهكذا أهل الجنة، فهم وإن كانوا أدنى ممَّن فوقهم، لكنهم لا يرون أنهم مهضومون في هذا النعيم.

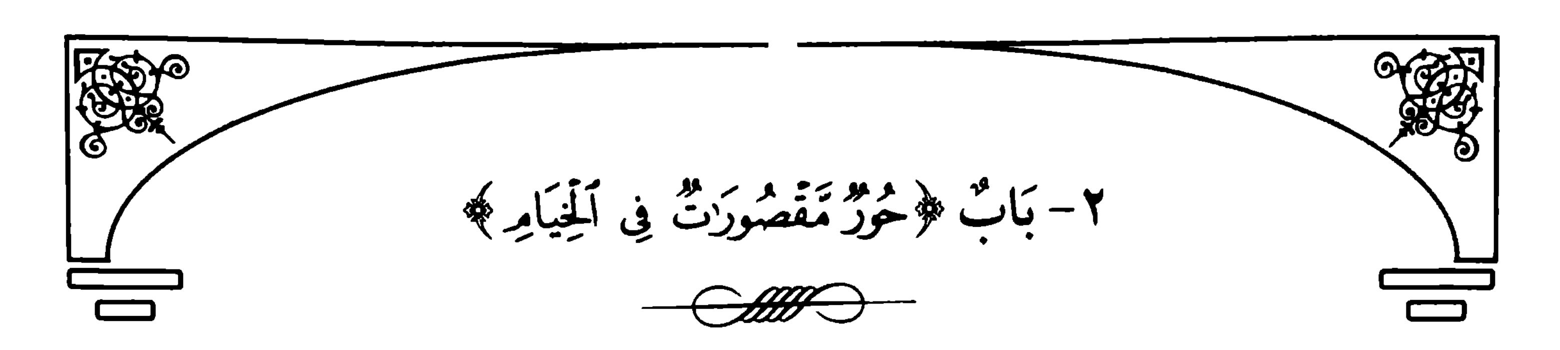
---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٥٦)، ومسلم: كتاب الجنة، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، رقم (٢٨٣١/ ١١).

....

= وأمَّا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف:٤٣] فالمراد: من غل فيما بينهم، لكن لا يلزم من نزع الغلِّ ألَّا يرى الإنسانُ نفسه أقصر من غيره في النعيم، بل قد يرى غيره أكمل منه، لكن لا يكون في قلبه غلٌّ عليه.





٢- بَابٌ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الحُورُ: السُّودُ الحَدَقِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ مَحْبُوسَاتٌ، قُصِرَ طَرْفُهُنَّ وَأَنْفُسُهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، قَاصِرَاتٌ: لَا يَبْغِينَ غَيْرَ أَزْوَاجِهِنَّ[١].

٤٨٧٩- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ المُثَنَّى، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ: حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الجَوْنِيُّ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ،.........

---

[١] وُصِفَت الحور في الجنَّتَين الأُوليين بأنهن ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، وكلمة ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ هل هي مضافة إلى الفاعل، أو إلى المفعول؟

الجواب: يحتمل هذا وهذا، فيحتمل أن المعنى: أن طرفهنَّ قاصر على أزواجهنَّ، فلا يبغين غير أزواجهنَّ، ويحتمل أن المعنى: قاصرات أطراف أزواجهنَّ عليهنَّ، فالزوج لا يبغي سوى زوجته، أمَّا في الدنيا فهل نساء الدنيا قاصرات الطرف؟

الجواب: لا، ولعلَّها إذا خرجت إلى السوق، ورأت رجلًا أحسن في عينها من زوجها، يكون في نفسها بعض الشيء، ويتعب زوجها معها، وكذلك بالعكس، فليس كلُّ إنسان من الناس ملأت زوجتُه عينَه، وإنها يُغَلِّب العقل، ويصبر على ما قدَّر الله له، لكن في الآخرة هن قاصرات الطرف، وكذلك ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ أي: محبوسات؛ لأنهن في أَنْعَم ما يكون، لا يحتجن إلى الخروج.

ورُبَّما يُؤْخَذ من هذه الآية: أن أفضل مكان للمرأة أن تكون محبوسةً في بيتها.

عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ، مَا يَرَوْنَ الآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ المُؤْمِنُونَ».

٤٨٨٠- وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ كَذَا آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[١].

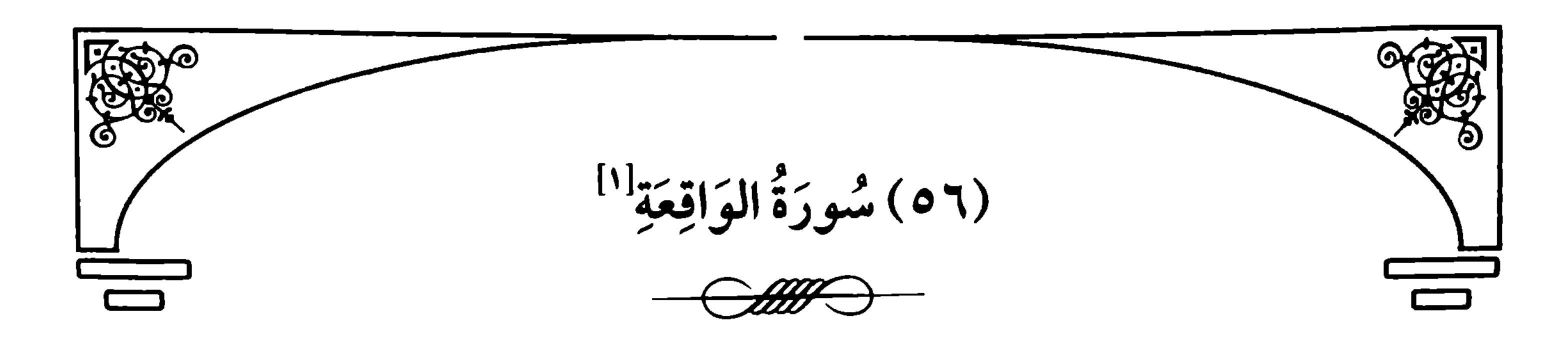
---

[١] قوله: «وَجَنَّتَانِ مِنْ كَذَا» بيَّنته الرواية السابقة: «وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ».

وهنا مسألة: إذا جاءت الجنة في القرآن مُطْلَقَةً فما المراد بها؟

الجواب: إذا أُريد بها الجنة مطلقًا فهي للعموم، لكن عند التفصيل يكون كما فصَّل الله عَزَّوَجَلَّ، وكما جاء في الحديث: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ».





(٥٦) سُورَةُ الوَاقِعَةِ[١]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿رُجَّت﴾ زُلْزِلَتْ[٢].

بُسَّتْ: فُتَّتْ، لُتَّتْ كَمَا يُلَتُّ السَّوِيقُ[٣].

---

[١] تحدَّث الله عَزَّوَجَلَّ في أوَّل هذه السورة عن يوم القيامة، ثم ذكر انقسام الناس في ذلك اليوم إلى ثلاثة أقسام: سابقون، وأصحاب يمين، وأصحاب شمال، ثم ذكر ما أنعم الله به على عباده من إيجادهم وإعدادهم -يعني: لِمَا خُلِقُوا له- ومن إمدادهم أيضًا، ومن ذلك: أنه أنزل عليهم القرآن الكريم.

ثم ذكر سُبْحَانَهُوَتَعَالَى حال الناس عند حلول الأجل، وأنهم ينقسمون أيضًا إلى ثلاثة أقسام: مُقَرَّبون، وأصحاب يمين، ومُكَذِّب ضال، هذا هو خلاصة ما في هذه السورة العظيمة التي سيتحدَّث المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شيء من تفسيرها.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾، أي: زُلْزِلَت.

وفي قوله: ﴿رَجًّا﴾ دليل على أن ذلك رجٌّ عظيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١].

[٣] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي: فُتِّت كما يُفَتُّ السويق ويُلَتُّ، والسويق: الشعير المُحَمَّص، يُلَتُّ بالدهن أو بالماء، أي: يُخْلَط ويُفْرَك، فهذه الجبال الصمُّ الصلبة العظيمة الكبيرة الثقيلة تُبَسُّ، ثم تكون هباءً يتطاير من شدَّة الهول وعِظَمه في يوم القيامة.

المَخْضُودُ: المُوقَرُ حَمْلًا، وَيُقَالُ أَيْضًا: لَا شَوْكَ لَهُ[١].

﴿مَّنضُودٍ﴾ المَوْزُ[٢].

وَالعُرُبُ: المُحَبَّبَاتُ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ[٣].

﴿ثُلَّةٌ﴾ أُمَّةٌ[٤].

= لكن كيف نجمع بين هذا وبين قول الله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥]؟

نقول: هذه الجبال لها أحوال، وليست تصير هباءً فورًا، ولكنها تنقلب شيئًا فشيئًا حتى تكون هباءً.

[١] قال الله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ أي: ليس له شوك، وأمَّا سدر الدنيا فإنه ذو شوك.

[٢] قال الله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾، وذكر المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه شجر الموز.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾، والأتراب: اللَّاتي على سنٍّ واحدة، لا تكبر إحداهنَّ الأُخرى.

[٤] ذُكِرَت الثُّلَّة في هذه السورة ثلاث مرَّات، وذُكِرَ في الرابع: قليل، ففي قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ قال: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، وفي أصحاب اليمين قال: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، وأمَّا القسم الثالث فلم يذكر فيه شيئًا، والظاهر -والله أعلم- لأن أكثر بني آدم هم أهل النار.

....

= والصحيح أن المراد: ثُلَّة من الأولين من هذه الأمة، وقليل من الآخرين من هذه الأمة.

والمراد بالأولين: سلف هذه الأمة من القرون الثلاثة المُفَضَّلة في قول النبي ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[١]، وقليل ممَّن بعدهم، فإن الصالحين من آخر الأمة بعد القرون الثلاثة قليلون بالنسبة لِـمَن سبقهم.

وليس المراد بالآية: ثُلَّة من الأولين السابقين لهذه الأمة، وقليل من هذه الأمة كما قيل به؛ لأن هذا يُنافي ما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من كون هذه الأمة شطر أهل الجنة[٢]، أو ثُلُثي أهل الجنة[٣].

فإن قال قائل: يُشْكِل على هذا العمومُ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾!

قلنا: يُمكن أن يُؤَوَّل: كنتم أيُّها الناس.

والسابقون: هم مَن يأتون بالواجبات والمُكَمِّلات، وأصحاب اليمين: هم الذين يقتصرون على الواجبات، وأصحاب الشمال: هم الذين لا يأتون إلا بالشرِّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٦٥١)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة، رقم (٢٥٣٣/ ٢١٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الحشر، رقم (٦٥٢٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون هذه الأمة نصف أهل الجنة، رقم (٢٢١/ ٣٧٦) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ﴾، رقم (٤٧٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: «يقول الله لآدم»، رقم (٢٢٢/ ٣٧٩) عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في كم صف أهل الجنة؟، رقم (٢٥٤٦)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ، رقم (٤٢٨٩)، وأحمد (٥/ ٣٤٧).

﴿يَحْمُومٍ﴾ دُخَانٌ أَسْوَدُ[١].

فإن أتى بالواجبات والمستحبات، لكن كان عنده شيء من النقص، نَقَص من سَبْقِه بقَدْرِه، وإذا كان عنده شيء من النقص -كفعل المُحَرَّم مثلًا- فهذا ما أتى بالواجبات؛ لأن المُحَرَّم يجب الكفُّ عنه.

فإن أتى بالمكروهات فهل يكون له حكم السابقين، مع القيام بالواجبات؟

الجواب: الله أعلم، لكن لا أظنُّ أنه يكون من السابقين؛ لأن هذا ليس بسَبْق، فإن الوقوع في المكروه وقوع في المنهيِّ عنه.

ومن أصحاب اليمين: الظالم لنفسه والمقتصدُ، في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢]، وأمَّا السابقُ بالخيرات فهو من السابقين.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾.

وقوله: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ هذه إمَّا أن تكون خبرًا لقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، ويكون قوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ جملةً معترضةً، وإمَّا أن يكون خبرًا لمبتدإ محذوف، تقديره: «هم في سموم»، ويكون خبر المبتدإ الأول جملة: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، فيكون الخبر هنا جملةً، والرابط: إعادة المبتدإ بلفظه، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾.

وقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي: ليس مُظِلًّا ومفيدًا للإنسان بالبرودة كما هي عادة الظل، وليس كريمًا بحيث ينتفع به الإنسان، ويَرْكَن إليه، ويأْنس به، نعوذ بالله من ذلك.

﴿يُصِرُّونَ﴾ يُدِيمُونَ[١].

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾، أي: في الدنيا، ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: على الإثم العظيم، وأعلى شيء من الحنث هو الشرك، لكن يشمل غيره من المعاصي.

وكانوا أيضًا مع إصرارهم على الحنث العظيم من الفسوق والمعاصي يُكَذِّبون، ﴿يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، وهذا القول قد يقولونه بألسنتهم، وقد يقولونه في قلوبهم؛ لأنه قد لا يُمكنهم أن يُصَرِّحوا به، ولكن يقولونه بالقلوب.

ويقولون أيضًا: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يعني: أَوَنُبْعَث نحن وآباؤنا الأولون؟ وكأنهم يقولون: ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين، ومن المعلوم أن هذا التحدِّي الذي تحدَّوا به الرسل، وقالوا: إذا كنا نُبْعَث فأتوا بآبائنا، معلوم أن هذا التحدِّي في غير محلِّه؛ لأن الرسل ما قالوا: إنكم تُبْعَثون الآن حتى يقولوا: هاتوا آباءنا، وإنما يُبْعَثون يوم القيامة.

والحاصل: أن من علامات هؤلاء: الترف، وفي هذا: تحذير من الترف، وأنه لا ينبغي للإنسان ألَّا يكون همُّه في هذه الدنيا إلا أن يُترف نفسه، فإن في الترف التلف، وقد كان النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ينهى عن كثرة الإرفاه، ويأمر بالاحتفاء أحيانًا(١)، بينما لو مشيت الآن بين الناس حافيًا لنظر الناس إليك بأبصارهم.

والمهم: أن كثيرًا من أهل الترف هم الذين يهلكون ويتلفون، نسأل الله العافية.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الترجل، باب النهي عن كثير من الإرفاه، رقم (٤١٦٠)، والنسائي: كتاب الزينة، باب الترجل، رقم (٥٢٤١)، وأحمد (٦/ ٢٢).

الهِيمُ: الإبِلُ الظِّماءُ[١].

وأمَّا تنعيم الإنسان جسده بما أباحه الله من غير أن يكون ذلك أكبر همِّـه فهذا لا بأس به، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣٢]، وإن الله إذا أنعم على عبده نعمةً يحبُّ أن يرى أثر نعمته عليه.

ونحن لسنا نقول للناس: ناموا على الحصى، والبسوا الخِيَاش، بل نقول: تنعَّموا بنِعَم الله، لكن لا تكن أكبر همِّكم، وكأنما خُلِقْتُم للترف.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾، وهذا من باب حذف الموصوف؛ للعلم به، وتقدير الكلام: شرب الإبل الهيم، والهيم: جمع هَيْماء، وهي البعير الظَّمْآنة، فهذه لا تكاد تَرْوَى.

لكن من أين يشرب هؤلاء؟

الجواب: يشربون من الحميم، وهو الماء الحار الشديد الحرارة، إذا قرَّبوه إلى وجوههم يشوي الوجوه، ويتساقط لحمها، ثم يشربونه، ومع ذلك لا يَرْوَون أبدًا، وذلك لزيادة العذاب عليهم، حيث يشربون من هذا الماء الحار الذي كما قال الله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]، ومعلوم أنه إذا قطَّع أمعاءهم فسيتألَّـمون، لكن مع كونه يُقطِّع أمعاءهم ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم:١٦-١٧]، مع هذا فإنهم يشربون كما تشرب الإبل العطشى، لا يَرْوون أبدًا، كلُّ هذا زيادة في عذابهم، والعياذ بالله.

فانظر الفرق بين هؤلاء، وبين مَن ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ [المطففين:٢٥-٢٦]، يأكلون ولا يشبعـون ولا يَرْوَوْن، ويخـرج الطعام اللذيذ الذي تلذُّ فيه

﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ لَـمُلْزَمُونَ[١].

﴿مَدِينِينَ﴾ مُحَاسَبِينَ[٢].

= الأعين، وتشتهيه الأنفس، يخرج رَشْحًا عرقًا أطيبَ من ريح المسك، وجُشَاء أطيب من ريح المسك، فتأمَّل الفرق بين هؤلاء وهؤلاء.

ثم تأمَّل ما هو الثمن المُقَدَّم المُسْلَم لهاتين السِّلعتين، تجد أن الثمن قليل، ويسير على مَن يسَّره الله عليه، وهو الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، واتباع رسول الله ﷺ، وذلك في مدَّة وجيزة، فإن أعمار هذه الأمة ما بين السِّتين إلى السبعين، إن أمضيتها ليلًا ونهارًا في سجدة واحدة لله لكانت رخيصة جدًّا بالنسبة للعوض الذي تصل إليه بهذا العمل، ففكِّر وانظر ماذا فرَّطت في أوقاتك، وفي دهرك، وفي أحوالك، حتى يكون لك رجعة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

[١] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ والجواب: أنت يا ربَّنا الزارع؛ لأنه من الجائز أن نضع الحبَّ في التربة، وأن نسقيه، ولا يخرج، ومن الجائز أن يخرج، ولا يحمل الحب، ومن الجائز أن يخرج، ويحمل الحب، فيُرسل الله عليه ما يُهلكه، ولهذا قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، يُذَكِّرنا الله عَزَّوَجَلَّ بالنِّعَم التي لا نقدر عليها، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام:٩٥]، ولو اجتمع العالـم كلُّهم على أن يَفْلقوا حبَّةً من الشعير أو من الحِنْطَة؛ لتقوم على سُوقها، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، فما بالنا يكفر الكثير منَّا بالله عَزَّوَجَلَّ مع هذه الآيات العظيمة؟!

[٢] يُذَكِّر الله تعالى الإنسان في هذه الحال الحرجة: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾

رَوْحٌ: جَنَّةٌ وَرَخَاءٌ.

﴿وَرَيْحَانٌ﴾ الرَّيْحَانُ: الرِّزْقُ[١].

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فِي أَيِّ خَلْقٍ نَشَاءُ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تَعْجَبُونَ.

﴿عُرُبًا﴾ مُثَقَّلَةً، وَاحِدُهَا: عَرُوبٌ، مِثْلُ: صَبُورٍ، وَصُبُرٍ، يُسَمِّيهَا أَهْلُ مَكَّةَ: العَرِبَةَ، وَأَهْلُ المَدِينَةِ: الغَنِجَةَ، وَأَهْلُ العِرَاقِ: الشَّكِلَةَ[٢].

وَقَالَ فِي: ﴿خَافِضَةٌ﴾ لِقَوْمٍ إِلَى النَّارِ، وَ ﴿رَّافِعَةٌ﴾ إِلَى الجَنَّةِ[٣].

= وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، فقوله: ﴿مَدِينِينَ﴾ أي: محاسبين، والمعنى: هلَّا ترجعونها إن كنتم صادقين؟ والجواب: لا يستطيعون أن يرجعوا الروح إذا بلغت الحلقوم أبدًا مهما بلغوا في الطبِّ والرُّقيِّ.

[١] الظاهر أن الريحان هو المشموم، كما سبق في تفسير سورة الرحمن.

[٢] تقدَّم معنى العروب، وأنها المُتحبِّبة إلى زوجها بالتغنُّج والتشكُّل، وبه تتطابق اللُّغات الثلاث.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، و ﴿خَافِضَةٌ﴾ خبر مبتدإ محذوف، تقديره: «هي خافضة».

والمراد: خافضة لأقوام كانوا في الدنيا في العَلْيَاء، رافعة لأقوام كانوا يُدْفَعون بالأبواب لا يُؤْبَه لهم، فترفع هؤلاء إلى الجنة، وتخفض أولئك إلى النار؛ لأنهم من أهلها،

﴿مَوْضُونَةٍ﴾ مَنْسُوجَةٍ، وَمِنْهُ: وَضِينُ النَّاقَةِ[١].

وَالكُوبُ: لَا آذَانَ لَهُ، وَلَا عُرْوَةَ.

وَالأَبَارِيقُ: ذَوَاتُ الآذَانِ وَالعُرَى[٢].

= وهذا في الحقيقة هو الغبن، أن نرى أُناسًا يُرْفَعون إلى الجنة، وأُناسًا يُخْفَضون إلى النار.

وليس الغبن في الدنيا، أن ترى أُناسًا في القصور، والسَّيَّارات، والفُرُش الفخمة، والبنين، والأموال، فتنغبن، وتقول: كيف يكون عندهم هذه الدنيا، وأنا ميِّت من الجوع؟ لا تعترضُ على الله بذلك، إنما تتحسَّر في نفسك، فما هذا بغبن، ووالله لا يُغْبَن به إلا رجل قاصر العقل، وكيف يكون هذا غبنًا، وأنت ترى هذا الرجل حوله المنيَّةُ، لا يدري في أيِّ ساعة ينتقل عن هذا الأمر؟! وكيف يكون هذا غبنًا أمامك، وأنت تعرف أن صاحبه يُهَدَّد من كل جانب بالانتقال عنه، ولا يستطيع أن يضمن أن يبيت فيه ليلةً واحدةً، أو يومًا واحدًا؟! لكن الغبن يوم القيامة، إمَّا في نعيم دائم، أو في جحيم دائم، هذا هو يوم التغابن، كما قال ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩]، يعني: لا غيره.

وهذه السورة سورة عظيمة من أعظم السور إذا تأمَّلها الإنسان، لو لم ينزل في القرآن إلا هذه السورة في الموعظة لكانت كافيةً.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾، أي: منسوجة، قال العلماء: إنها منسوجة بذهب، وليست منسوجةً بالليف، وخيوط القطن.

[٢] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾، فذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أن الكوب هو الكأس ليس له أُذُن ولا عُروَة، وأن الأباريق

﴿مَّسْكُوبٍ﴾ جارٍ[١].

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ.

﴿مُتْرَفِينَ﴾ مُتَمَتِّعِينَ.

﴿مَّا تُمْنُونَ﴾ مِنَ النُّطَفِ، يَعْنِي: هِيَ النُّطْفَةُ فِي أَرْحَامِ النِّسَاءِ[٢].

﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ لِلْمُسَافِرِينَ، وَالقِيُّ: القَفْرُ[٣].

= هي ذوات الآذان والعُرَى، والعروة: هي ما يُمسَك بها، وتُسَمَّى: اليد، والأُذُن: هي الثُّعْبَة التي يصبُّ منها، وتُسَمَّى: الخرطوم.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي: جارٍ.

[٢] قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ يعني: الذي تُمْنُونه، وهو المني، ويحتمل أنه الولد، وهما متلازمان، ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، والجواب: الله عَزَّوَجَلَّ هو الخالق له، وهذا هو الإيجاد، ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي: تذكرةً لكل مَن يتذكَّر بها ويتَّعظ، فإنك لا تستطيع أن تبقى في هذه النار طرفة عين، بل إذا أصابتك منها شرارة صغيرة تعبت وتألَّمت، فكيف بمن يبقى فيها أبد الآبدين، في نار فُضِّلت على نار الدنيا كلِّها -بما فيها النار الأخيرة التي عرف الناس شدَّة حرارتها- فُضِّلت عليها بتسعة وستِّين جزءًا؟! ولهذا قال: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾.

﴿بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ بِمُحْكَمِ القُـرْآنِ، وَيُقَالُ: بِمَسْقِـطِ النُّجُومِ إِذَا سَقَطْنَ، وَمَوَاقِعُ وَمَوْقِعٌ وَاحِدٌ[١].

= وقوله: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي: للمسافرين، وهـي أيضًا متاع للمقيمـين، لكن حاجة المسافر إليها أشد.

[١] قيل: المراد بمواقع النجوم: المُحْكَم من القرآن، يعني: آيات القرآن؛ لأن القرآن نزل مُنَجَّمًا، فكأنه عَزَّوَجَلَّ يقول: فلا أُقسم بأوقات نزول القرآن.

وقيل: إن مواقع النجوم هي مساقط النجوم، يعنـي: النجوم التي تُرْمَـى بها الشياطين، والمراد: مهاويها التي تنتهي إليها.

ولا يخفى وجود التناسب بين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه؛ لأننا إن قلنا: إن مواقع النجوم هي أوقات نزول القرآن فإن المُقْسَم عليه هو القرآن، وإن قلنا: إن مواقع النجوم هي مساقط النجوم التي تُرْمَى بها الشياطين فإنما حصل ذلك من أجل حماية القرآن.

فإن قال قائل: أحيانًا تُكْتَشف نجوم بعيدة جدًّا، فهل يصح أن تُفَسَّر مواقع النجوم في الآية بهذه المواقع؟

نقول: يُمكن أن يُراد بمواقع النجوم: مكانها، لكن نقول في ردِّ هذا التخصيص: إن العرب خاطبهم الله عَزَّوَجَلَّ بما يعرفون، وهذه النجوم التي اكتُشفت حديثًا لم يعرفها العرب، فإذا تجاسرنا قلنا: إن الآيـة تعمُّ هذا وهذا، أمَّا أن نخصَّها بشيء لم يقـع ولم يُعْرَف إلا بعد ألف سنة من نزول القرآن، فهذا ليس بصحيح.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أي: لو تعلمـون عِظَم هـذا القَسَم لعرفتم، وهم لا يعلمون عِظَمه، أو المراد: لو تعلمون ما كذَّبتُم القرآن.

﴿مُّدۡهِنُونَ﴾ مُكَذِّبُونَ، مِثْلُ: ﴿لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾[١].

﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ﴾ أَيْ: مُسَلَّمٌ لَكَ، إِنَّكَ ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾، وَأُلْغِيَتْ «إِنَّ» وَهُوَ مَعْنَاهَا، كَمَا تَقُولُ: أَنْتَ مُصَدَّقٌ، مُسَافِرٌ عَنْ قَلِيلٍ، إِذَا كَانَ قَدْ قَالَ: إِنِّي مُسَافِرٌ عَنْ قَلِيلٍ.

وَقَدْ يَكُونُ كَالدُّعَاءِ لَهُ، كَقَوْلِكَ: فَسَقْيًا مِنَ الرِّجَالِ إِنْ رَفَعْتَ السَّلَامَ، فَهُوَ مِنَ الدُّعَاءِ[٢].

---

[١] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ أي: مُكَذِّبون، ولهذا قال: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، وذلك مثل قول الإنسان: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا، وما أشبهها.

وكأنَّ المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أن معنى قوله: ﴿لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ أي: لو تُكَذِّب فيُكَذِّبون، ولكن الصحيح: أن هذا ليس معناها، وأن معنى ﴿تُدۡهِنُ﴾ أي: تُداهنهم، وتسكت عمّا هم عليه من الباطل، فيسكتون عنك، أمَّا ﴿مُّدۡهِنُونَ﴾ في سورة الواقعة فالمراد بها: التكذيب والكفر.

[٢] ذكر المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ههنا قولين:

الأول: أن المعنى: فمُسَلَّم لك أنَّك من أصحاب اليمين.

القول الثاني: أن قوله: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ﴾ كقوله: «فَسُقْيًا لك»، فيكون دعاءً، كأنه قال: «فعليك السلام».

والمعنى: أن مَن كان من أصحاب اليمين فهو سالِم من الإثم، لكنه لم يصل إلى ما وصل إليه المُقَرَّبون.

﴿تُورُونَ﴾ تَسْتَخْرِجُونَ، أَوْرَيْتُ: أَوْقَدْتُ[١].

﴿لَغْوًا﴾ بَاطِلًا.

﴿تَأْثِيمًا﴾ كَذِبًا[٢].

---

[١] قول الله تعالى: ﴿تُورُونَ﴾ أي: تُوقـدون، وتستخرجون النار منه، ومعنـى «أَوْرَيت» أي: أوقدت.

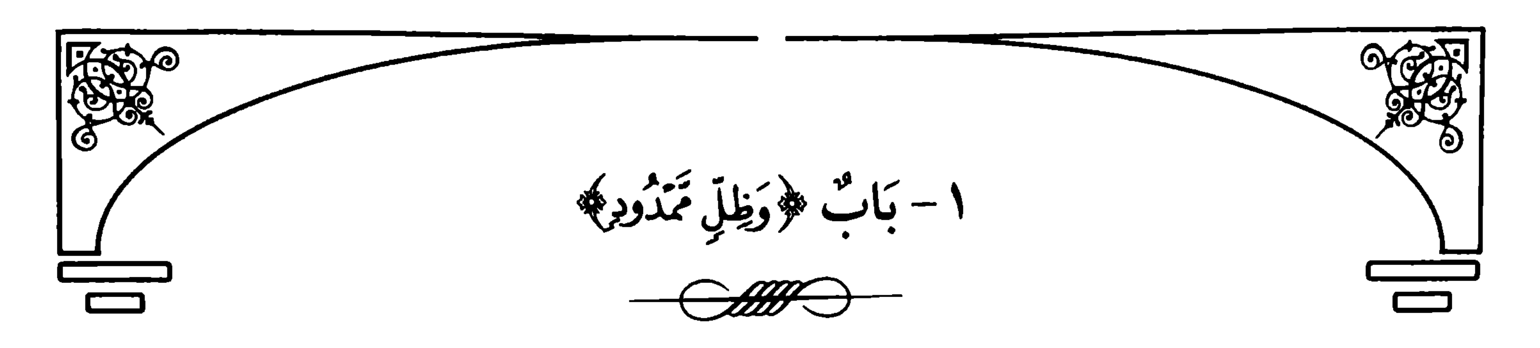
[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾، فاللغو: الكلام الباطل، والتأثيم: الكلام الكذب.

وقد يُقال: إن اللغو هو الكلام الذي لا خير فيه ولا شرَّ، والتأثيم هو الكلام الذي فيه شرٌّ.

فإن قلت: كيف يقول: ﴿تَأْثِيمًا﴾، مع أن الجنة دار جزاء، وليس فيها تأثيم؛ إذ ليست دار عمل؟

فيُقال: إن معنى قولنا: ليس فيها تأثيم أي: ما يأثمون بمثله في الدنيا من اللَّعن، والسَّب، والشتم، وما أشبه ذلك، وإلا فإن الجنة دار جزاء، وليست دار تأثيم.





١ - بَابٌ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾

٤٨٨١ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾**»[١].

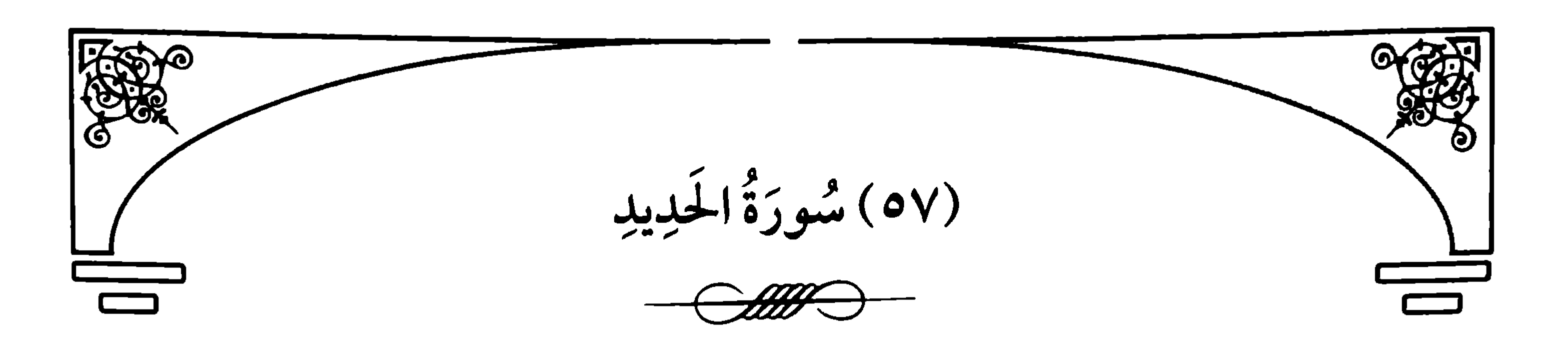
---

[١] قوله: «**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ** ﷺ، **قَالَ**» هل كلمة: «**قَالَ**» تعود إلى النبي ﷺ، أو إلى أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ فإن كانت إلى النبي ﷺ فهو من المرفوع صريحًا، وإن كانت إلى أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهو من المرفوع حكمًا.

والمراد بهذه الشجرة: هي طُوبى على قول، والقول الثاني: أن الجنة كلَّها تُسَمَّى: طُوبى؛ لأنها مأخوذة من الطِّيب.

والمراد بالظِّلِّ: ظِلُّ الشجرة، والنور الذي يكون لهذه ظِلٌّ بسببه يأتي من قِبَل العرش.





(٥٧) سُورَةُ الحَدِيدِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ﴾ مُعَمَّرِينَ فِيهِ[١].

﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ إِلَى الهُدَى.

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ جُنَّةٌ وَسِلَاحٌ[٢].

---

[١] قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧]، أي: خَالِفِين لغيركم، أو أن الله عَزَّوَجَلَّ استخلفكم في هذه الأموال؛ لينظر: كيف تعملون فيها؟ وهو دليل على أن المال من الله عَزَّوَجَلَّ، وأن الواجب علينا أن نفعل في هذه الأموال ما أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ به.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: قوة قويَّة ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، وهذا جمع بصيغة مُنتهى الجموع، وهو يدلُّ على أنها منافع عظيمة لا تُحْصَى، وهو كذلك، وانظر من الإبرة إلى أكبر ما يكون من الآليَّات التي تُصْنَع من الحديد، وما بين ذلك أنواع وأفراد لا يُحصيها إلا الله عَزَّوَجَلَّ، كلُّها منافع للناس بهذا الحديد.

ثم إن هذا الحديد تختلف أجناسه، وتختلف منافعه باختلاف أجناسه، ومن ثَمَّ نعرف: لِمَ جاء بصيغة الجمع الذي هو صيغة منتهى الجموع؟ وذلك لكثرة أجناسه وأنواعه، واختلاف منافعه، فلهذا قال: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾.

﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ أَوْلَى بِكُمْ[١].

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لِيَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ[٢].

يُقَالُ: الظَّاهِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَالبَاطِنُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا[٣].

فإن قال قائل: وكيف يكون إنزال الحديد؟

قلنا: إنزال الشيء هو وضعه، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن:١٠]؛ لأن الله تعالى وضع هذا الحديد، لكن قال بعض العلماء: إنه عبَّر بالإنزال الدالِّ على العلو؛ لأنه كُلَّما كان الحديد من الأعلى (من قِمَم الجبال) كان أشدَّ متانةً وأقوى، وليس المراد بالإنزال هنا: الخَلْق؛ لأن الإنزال أخص من الخَلْق.

ويُمكن أن يكون المراد: أن الحديد ليس من مادة الأرض في الأصل، وإنما أُنْزِلَ بعد ذلك، لكن يُشْكِل على هذا: أننا نجد هذا الحديد مختلطًا بهذه الأحجار اختلاطًا تامًّا، كأنه جزء منه، والله على كل شيء قدير، إنما العلماء السابقون يقولون: إنه عبَّر بالإنزال؛ لأنه كلما كان الحديد من فوق كان أشدَّ صلابةً وأقوى، وهو مثل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦].

[١] يعني في قول الله عَزَّوَجَلَّ في النار: ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: أَوْلَى بكم؛ لأنكم أهلها، والعياذ بالله.

[٢] أفادنا البخاري بهذا: أن «لا» في قوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ زائدة؛ لأن المعنى: ليعلم، ولو قيل: إنها نافية لانعكس المعنى، والله عَزَّوَجَلَّ إنما بيَّن هذا؛ ليعلم أهلُ الكتاب.

[٣] هذا من غرائب ما يكون من البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنه قال: «يُقَالُ»، فأتى

(أَنْظِرُونَا)(١) انْتَظِرُونَا[١].

= بصيغة التمريض، ثم فسَّرها بغير ما فسَّرها به النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإن النبي ﷺ فسَّرها، فقال: «**أَنْتَ الظَّاهِرُ، فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ**».

وأمَّا قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَأَنْتَ البَاطِنُ، فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»(٢) فيُمكن أن يكون هذا مُوافقًا لِمَا فسَّرها به البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأن قوله: «**فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**» أي: لا يحول دونك شيء، لا دون علمك، ولا قدرتك، ولا سلطانك، ولا غير ذلك ممَّا تحيط به، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والحاصل: أن (الظاهر) لا نقول فيه كما قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُقَالُ»، بل يجب أن نُفَسِّره بما فسَّره به النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو العالي على كل شيء؛ لأنه قال: «**أَنْتَ الظَّاهِرُ، فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ**»، واشتقاقه من الظهور، وكلما كان أَعْلَى كان أظهر وأَبْيَن، ومنه: ظهر البهيمة؛ لأنه أعلاها، وكذلك نقول في الباطن: الذي ليس دونه شيء.

والغريب أن أهل التحريف قالوا: إن الظاهر فوق كلِّ شيء، فلا يخفى، والباطن دون كلِّ شيء، فلا يُرى، وهذا تناقض ظاهر.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ فرجعوا، وحين رجعوا ضُرِبَ ﴿بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾، وكان هذا الضرب في لحظة.

---

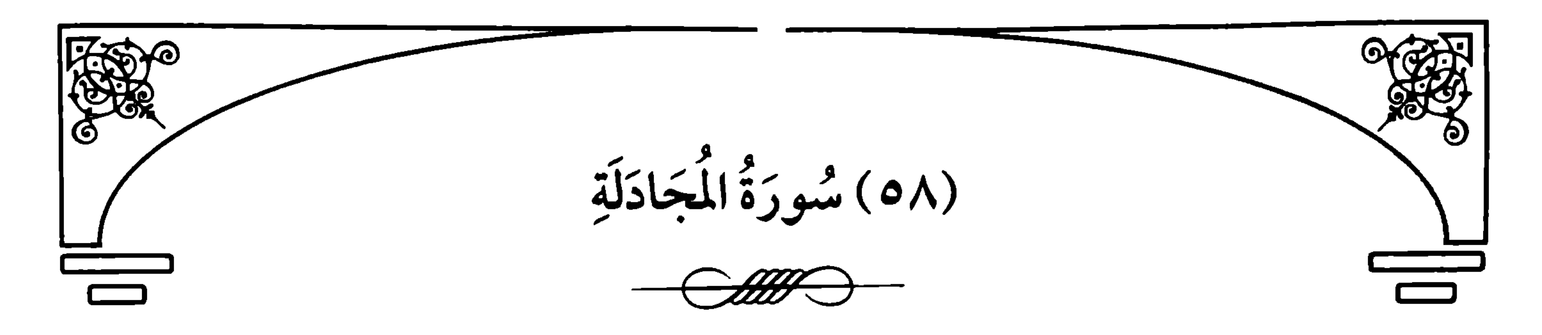
(١) قرأ حمزة بفتح الهمزة وصلًا وابتداءً مع كسر الظاء، وقرأ الباقون بضم الهمزة ابتداءً، وضم الظاء، يُنْظَر: التبصرة في القراءات السبع، (ص:٦٩٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب الدعاء عند النوم، رقم (٢٧١٣/ ٦١).

....

= ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ وهؤلاء هم المنافقون ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.





(٥٨) سُورَةُ المُجَادَلَةِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يُحَآدُّونَ﴾ يُشَاقُّونَ اللهَ.

﴿كُبِتُوا۟﴾ أُخْزُوا، مِنَ الخِزْيِ[١].

﴿ٱسْتَحْوَذَ﴾ غَلَبَ[٢].

---

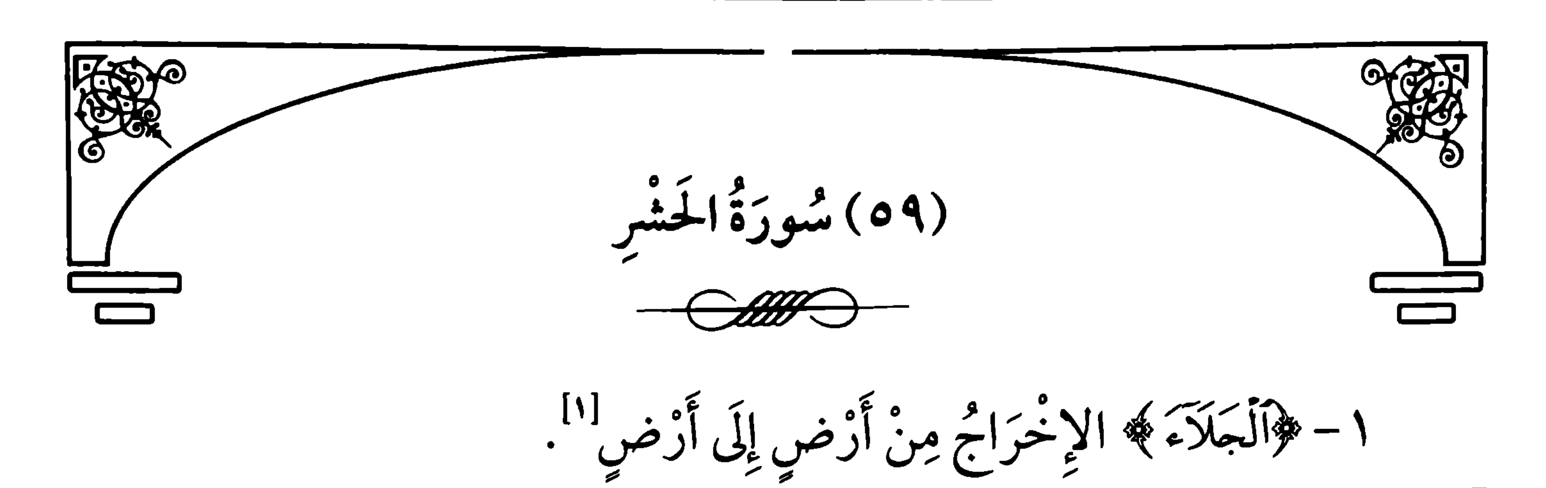
[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ﴾ أي: يُشاقُّونه، بمعنى: أنهم يُخالفونه؛ لأن المخالف مُحادٌّ، قد جعل بينك وبينه حدًّا، والمخالف أيضًا مُشاقٌّ، جعل نفسه في شقٍّ، وأنت في شقٍّ آخر.

فالذين يُحادُّون الله بمخالفة أوامره، وبالحكم بغير ما أنزل، وبغير ذلك ممَّا يُحادُّون الله به قال الله تعالى عنهم: ﴿كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وهذا تعبير بالماضي، ويُقْصَد به المستقبل أيضًا، فإنهم يُكْبَتون كما كُبِتَ الذين من قبلهم.

ووقع في بعض النسخ: «أُخْزِيوا»، فأتى بلام الفعل، والقاعدة العربيَّة في مثل هذا: حذفُ لام الفعل، فيُقال: «أُخْزوا» كما هي في نسخة، ووقع في بعض النسخ: «أُحْزِنُوا»، ومن لازم الخزي الحزنُ.

[٢] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [المجادلة:١٩]، أي: غَلَب عليهم الشيطان.





١- ﴿ٱلْجَلَآءَ﴾ الإِخْرَاجُ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ[١].

[١] يعني بذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ [الحشر:٣]، أي: الجلاء من أرض إلى أرض، كما فعل ببني النضير، فإنهم خرجوا من المدينة إلى خيبر، ثم من خيبر إلى أَذْرِعات الشام.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ يجب الوقوف هنا، ثم نستأنف، فنقول: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنك لو وصلت أَوْهَم السياق خلاف المقصود، وصار عذاب النار ممتنعًا؛ لأنه داخل في جواب «لولا»، و«لولا» حرفُ امتناع لوجـود، إذا وُجِدَ فعل الشرط في «لولا» فجوابه ممتنع، وكلُّ ما أوهم خلاف المقصود يجب تجنُّبه.

وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ نقول: إن عذاب الدنيا لم يقع؛ لأن المراد: لعذَّبهم في الدنيا بالقتل والأَسْر والسبي، لكن كتب الله عليهم الجلاء، فجَلَوْا، ولهذا لو وصلنا قوله: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ لكان داخلًا في الممتنع، ومعلوم أن عذاب النار لا يمتنع، بل هم مُستحقُّون له.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [القلم:٣٣] قال العلماء: يجب أن تقف؛ لأنك لو وصلت، وقلت: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ اختلَّ المعنى، وصار: أكبر لو كانوا يعلمون، فإذا لم يكونوا يعلمون فليس بأكبر، ولكن المعنى المراد: ولعذاب الآخرة أكبر، لو كانوا يعلمون لَمَا تعرَّضوا له، أو لَمَا كذَّبوا الرسول.

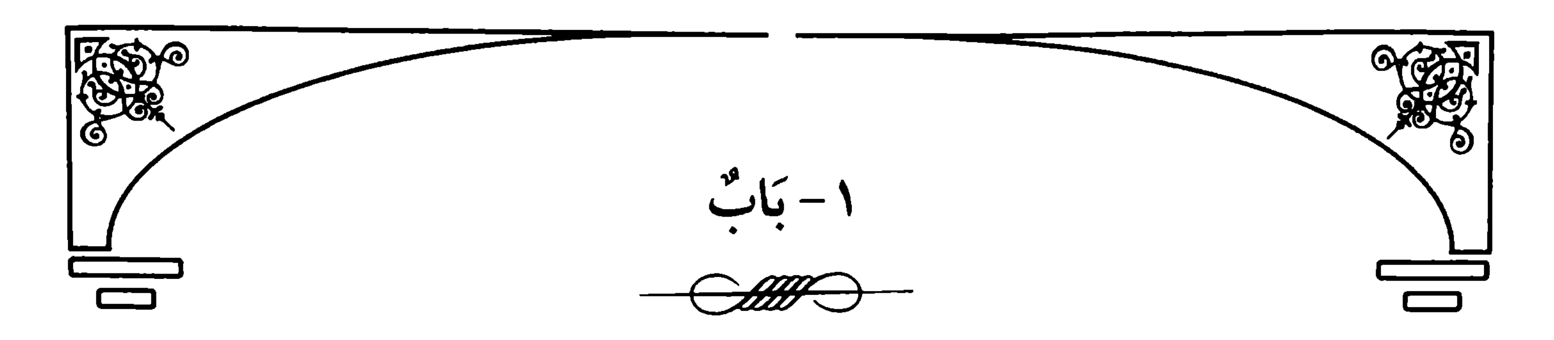
....

= ومثله أيضًا قول الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنبياء:٢١]، فتقف، ثم تقول: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾، ولا تصل؛ لأنك لو وصلت لكانت الجملة تُوهم أن تكون صفةً لِمَا سبق، أي: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ هذه الآلهة، ولكن المعنى: هل هذه الآلهة تُنْشِر وتبعث وتخلق؟ والجواب: لا، وأمثال هذا كثير في القرآن.

ومع ذلك تجد بعض الناس عندهم علم، ولكنهم يَصِلُون مثل هذه الأشياء التي يكون وَصْلُها مُوهمًا لخلاف المقصود.

ولهذا نقول: إن الوقف أثناء الآيات يُراعَى فيه المعنى، أمَّا إذا كان الوقف في مُنتهى الآيات فقد اختلف فيه القُرَّاء، فمنهم مَن يقول: استمرَّ على حسب المعنى، ومنهم مَن يقول: قف على كل آية، وهذا هو الأرجح، وإذا وقفت على كل آية فإنك لا تُلام، فلو قلت: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾، ثم قلت: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، فليس في هذا بأس، وكذلك إذا قرأت: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فلا حرج أن تقف على القول الصحيح: أن هذه آية، وإن كان ما بعدها مُتعلِّقًا بها.





١ - بَابٌ

٤٨٨٢ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ: أَخْبَرَنَا أَبُو بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: سُورَةُ التَّوْبَةِ؟ قَالَ: التَّوْبَةُ هِيَ الفَاضِحَةُ، مَا زَالَتْ تَنْزِلُ: وَمِنْهُمْ، وَمِنْهُمْ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا، قَالَ: قُلْتُ: سُورَةُ الأَنْفَالِ؟ قَالَ: نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ، قَالَ: قُلْتُ: سُورَةُ الحَشْرِ؟ قَالَ: نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ[١].

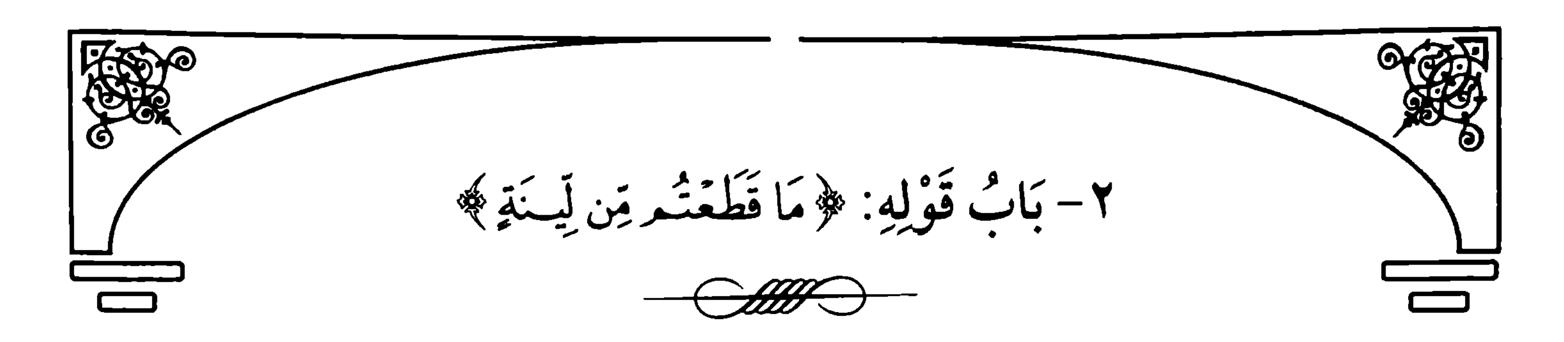
٤٨٨٣ - حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ مُدْرِكٍ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ حَمَّادٍ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدٍ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سُورَةُ الحَشْرِ؟ قَالَ: قُلْ: سُورَةُ النَّضِيرِ[٢].

---

[١] سورة التوبة تُسَمَّى: الفاضحة؛ لأن الله تعالى فضح فيها المنافقين، كما قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَا زَالَتْ تَنْزِلُ: وَمِنْهُمْ، وَمِنْهُمْ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ أَحَدًا مِنْهُمْ، إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا»، حتى إن بعضهم عُلِمَ بعينه بسبب ما نَزَل من وصفه.

[٢] وقع في بعض النسخ: «سُورَةُ بني النَّضِيرِ»، والمعنى واحد، وأفادنا المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يرى أن هذه السورة تُسَمَّى: سورة بني النضير، والتوبة تُسَمَّى: سورة الفاضحة. وهكذا أسماء السور فيها شيء توقيفي، وفيها شيء من اجتهاد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.





٢- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾

نَخْلَةٍ مَا لَمْ تَكُنْ عَجْوَةً أَوْ بَرْنِيَّةً[١].

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ إنما قال الله عَزَّوَجَلَّ ذلك دفاعًا عن المؤمنين، حيث قطعوا نخل بني النضير، فأقاموا عليهم الدعوى السيئة والسمعة السيئة، فدافع الله عَزَّوَجَلَّ عنهم، قال: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وإذا كان بإذن الله فلا اعتراض لأحد عليكم، والإذن هنا شرعي؛ لأن ما كان بالإذن القدري قد يُلام عليه الإنسان، لكن قد اجتمع هنا الإذنان الشرعي والقدري، لكن لأن هذا في موقف الدفاع فلا ينفع إلا الشرعي.

فإن قال قائل: وكيف نُوَجِّه نهي النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم عن قطع الشجر(١)؟

قلنا: هذا لمصلحة عظيمة، كما أنه نهى عن أخذ الأموال وسبي الذرية، وأباحها لمصلحة.

وذكر المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن اللِّينة هي النخلة، إلا أن تكون عجوةً أو برنيةً، وهما نوعان من نخل المدينة، وهما من أطيب النخل، لكن المعروف أن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ يشمل كل النخل، فـ: «لينة» اسم للنخلة مطلقًا.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٦).

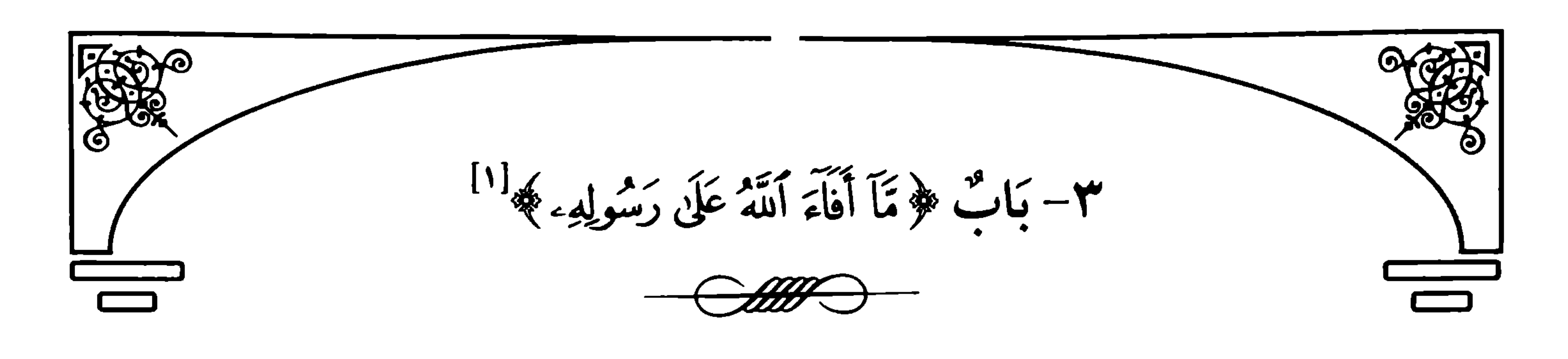
٤٨٨٤- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ: حَدَّثَنَا لَيْثٌ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ، وَهِيَ البُوَيْرَةُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].

---

[١] هل يُؤْخَذ من هذا: أن ما يقع من أقدار الله قد يكون مرتبطًا بالاسم، وذلك من تسمية اليهود نخلهم بـ: البُوَيْرة؟

الجواب: قد يكون هذا؛ لأن الأسماء في الغالب تُوافق المعاني والوقائع.





٣- بَابُ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾[١]

[١] الفيء: يُطْلَق في الشرع على الغنيمة، وعلى ما يكون في بيت المال، فهو أعمُّ ممَّا قال الفقهاء، أمَّا الفقهاء فيَرْوَن أن الفيء هو خُمُس الخمس من الغنيمة، وكذلك الأموال التي لا يُعْلَم لها مالك، والأموال التي مات الإنسان عنها وليس له ورثة، فترجع إلى بيت المال، لكن الفيء في القرآن أعمُّ من ذلك، فيشمل خُمُس الخمس وغيره، حتى الغنيمة قد تُسَمَّى: فيئًا؛ لأنها من: فاء، يفيء إذا رجع، فكأنَّ هذا المال رجع إلى أهله؛ إذ إن الكفار ليسوا أهلًا للمال، فإن الكافر لا يستحق أن يتمتَّع بنِعَم الله عَزَّوَجَلَّ، بل هي مُحَرَّمة عليهم؛ لأنهم أعداء، فكيف يتمتَّعون بنعمة الله وهم يكفرون به؟! كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:٩٣]، فقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ يدلُّ بمفهومه على أن غير المؤمن عليه جناح فيما طَعِمَ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، فقوله: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يدلُّ على أنها لغيرهم ليست خالصةً.

فإذن: المال إذا غنمه المسلمون بجهاد أعداء الله الذين قاموا ضد شريعة الله يكون رجع إلى أهله، وإلى مُستحقِّه، فصار يُسَمَّى: فيئًا.

٤٨٨٥- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ غَيْرَ مَرَّةٍ، عَنْ عَمْرٍو، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الحَدَثَانِ، عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِمَّا لَمْ يُوجِفِ المُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ خَاصَّةً،.......................

= وأمَّا الصدقة فلا تُسَمَّى: فيئًا، وإنما يُطْلَق على كل ما في بيت المال، وما غنمه المسلمون من الكفار.

فإن قال قائل: كيف كان هذا مُحَرَّمًا على الكفار مع أن الأصل في الأشياء الإباحة؟

قلنا: هذا بالنسبة للإنسان من حيث هو إنسان، كما نقول: الخبز حلال لشخص، مع أنه قد يكون حرامًا على آخر.

فإن قال قائل: وهل معنى هذا أنه يجوز أن نسطو على أموال المشركين الذين في حرب مع المسلمين؟

قلنا: نعم، إذا لم يكن بيننا وبينهم عهد فإنه يجوز أن نسطو عليهم، مثل: أن نتلصَّص عليهم، فندخل بلادهم خفاءً، وننهب أموالهم، ونأخذ رعاياهم من الإبل والبقر والغنم، وهذا إذا لم يكن مُنِعَ، أمَّا إذا مُنِعَ فإنه يجب طاعة ولاة الأمور.

على أن بعض العلماء قال: إن أموال الكفار الحربيين ما دامت حلالًا فلنأخذ ما شئنا بأيِّ وسيلة نأخذها ولو بعقود أو معاهدات، ولكن هذا ليس بصحيح، بل يجب أن نفي بالعهد؛ لأنك إذا عقدت مع هؤلاء الكفار -وإن كانوا حربيين- فهذا عهد؛ لأن معنى العقد: أن أُوفي لك بما يقتضيه العقد، وأن تُوفي لي بما يقتضيه العقد.

يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ مِنْهَا نَفَقَةَ سَنَتِهِ، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِـيَ فِي السِّلَاحِ وَالكُرَاعِ عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللهِ[١].

---

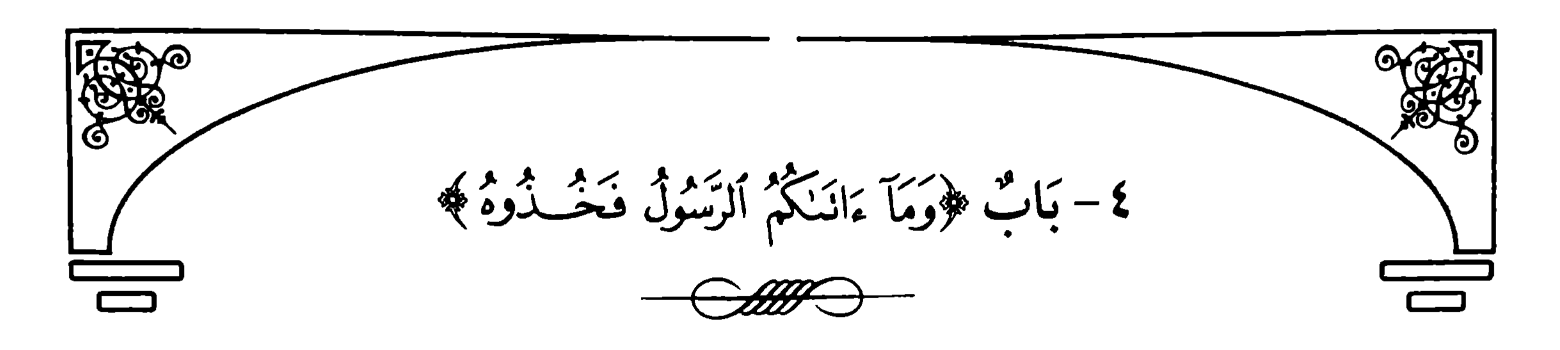
[١] إنما جعلها عدَّةً في سبيل الله؛ لأنها أُخِذَت من الكفار من بني النضير، فكان يجعلها عُدَّةً، وأمَّا أموال الزكاة فيجعلها في الفقراء والمساكين والمؤلَّفة قلوبهم وما أشبه هذا.

وقوله: «وَالكُرَاعِ» هو الخيل، وهو في الأصل أطراف رجلي البهيمة، كما قال النبي ﷺ: «لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ»(١).



---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب من أجاب إلى كراع، رقم (٥١٧٨).



٤ - بَابٌ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾

٤٨٨٦ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: لَعَنَ اللهُ الوَاشِمَاتِ، وَالْمُوتَشِمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ، يُقَالُ لَهَا: أُمُّ يَعْقُوبَ، فَجَاءَتْ، فَقَالَتْ: إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَقَالَ: وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَمَنْ هُوَ فِي كِتَابِ اللهِ؟! فَقَالَتْ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ، فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ، قَالَ: لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، أَمَا قَرَأْتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ، قَالَتْ: فَإِنِّي أَرَى أَهْلَكَ يَفْعَلُونَهُ، قَالَ: فَاذْهَبِي، فَانْظُرِي، فَذَهَبَتْ، فَنَظَرَتْ، فَلَمْ تَرَ مِنْ حَاجَتِهَا شَيْئًا، فَقَالَ: لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ مَا جَامَعْتُهَا[١].

---

[١] الوَشْم: أن يُغرَز الجلد بإبرة، ثم يُدْخَل فيه أشياء مُلَوَّنة، إمَّا كُحل أو غيره، ويبقى ما تحت الجلد مُلوَّنًا، فإمَّا أن يُجْعَل كهيئة الأشجار، أو الأنهار، أو يكون مُجَرَّد نقوش، أو يُكْتَب به الاسم، والنصارى يجعلونه صلبانًا.

والواشمة: هي التي تفعل الوشم بغيرها، والمستوشمة: هي التي تطلب من غيرها أن يَشِمَها.

....

= فأمَّا الواشمة فواضحة أنها ملعونة؛ لأنها تُعين على تغيير خلق الله، وأمَّا المستوشمة فإذا كانت صغيرةً فاللعن على وليِّها الذي طلب أن يُفْعَل بها، وأمَّا إذا كانت كبيرةً فهي مُكَلَّفة، ويكون اللعن عليها.

وهل يدخل في هذا الحنَّاء؟

نقول: لا؛ لأن الحنَّاء لا يدوم، أمَّا هذا فيبقى.

لكن هنا مسألة: إذا رأى الإنسان امرأةً واشمةً فهل له أن يلعنها؟

الجواب: لا، ولكن يقول: لعن الله الواشمات والمستوشمات.

وأمَّا المُتنمِّصات فقال العلماء: إن النمص نتفُ شعر الوجه، كالحواجب، والأهداب، وما أشبه ذلك، إلا أنه يُسْتَثنى من هذا: ما كان إزالةً لعيب، مثل: أن يحدث للمرأة شارب -إمَّا شعر غليظ، أو شعر خفيف- فهذه لا حرج عليها أن تُزيل هذا الشيء.

وكذلك بعض النساء يظهر لها لحية، يكون فيها ثؤلُول أو ما أشبه ذلك ممَّا ينبت في الجلد، ويظهر عليه شعرات، فهذا أيضًا لا بأس بإزالته؛ لأنه إزالة عيب.

فما كان إزالة عيب فجائز، وأمَّا التجميل فهذا هو الذي لعن الله فاعلته.

فإن كان شعر الحاجب كثيفًا، أو متصلًا بالآخر، فهل يجوز للمرأة أن تأخذ منه؟

الجواب: أمَّا كِثَف الشعر الذي يُؤذي، أو يكون خارجًا عن العادة، كما لو ظهر إلى الجبهة، فهذا لا شَكَّ في جوازه، أمَّا فَرْقُ الحاجبين فلا؛ لأن الاقتران موجود بكثرة، فلا يُعْتَبر عيبًا، بل هو عند بعض الناس ممدوح.

....

وأمَّا شعر الذراعين والساقين والصدر والرقبة فلم يَرِدْ فيها شيء، فمن العلماء مَن قال: إن هذا ممَّا عفا الله عنه؛ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ما سكت عنها نسيانًا، ولكن رحمةً بالخلق، وعفوًا وتوسيعًا عليهم.

ومنهم مَن قال: إنه لا يجوز؛ لأنها داخلة في عموم قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١١٩]، ولأن الأصل فيما كان في البدن أن يبقى كما هو، إلا ما أمر الشرع بإزالته، كالأظافر، والشارب، والعانة، وما أشبه ذلك.

وأنا لا أرى التحريم، وإنما أرى أنه ممَّا سكت الله عنه، وأن الأفضل تركه على ما هو عليه، إلا أن يزداد زيادةً مُشوِّهةً؛ لأن بعض الناس -ولا سِيَّما الرجال- يكون عندهم شعر كثير جدًّا، وتكون رِجْلُه كأنها رجل خروف، فهذا لا شَكَّ في أنه لا حرج عليه أن يُزيله، ويقص منه حتى يُزيل التشويه، ويكون كعادة الناس.

وكذلك المرأة إذا زاد عن المعتاد فلا بأس؛ لأن هذا يُؤذيها، ويُؤذي زوجها أيضًا، وليس هناك دليل على التحريم، وإلا لقلنا: تصبر.

والمُتفلِّجات: هنَّ اللَّاتي يُفَلِّجن أسنانهنَّ بالمِبْرَد؛ لأجل أن يتَّسع ما بين الأسنان؛ لأن الفلج عندهنَّ جمال، فإذا كانت أسنانها مُتراصَّةً ذهبت تُفَلِّجها، وتجعل ما بينها مُتميِّزًا لأجل الحُسْن.

أمَّا إذا كان لإزالة عيب فلا بأس به، كما لو فُرِضَ أن امرأةً ظهر سنُّها ظهورًا بيِّنًا، وصارت مُتَشوِّهةً بهذا، فإنه لا بأس بإزالة العيب.

....

= وهل يدخل في التفلُّج ما يفعله بعض النساء ممَّا يُسَمُّـونه بتسوية الأسنان، بأن يذهبن إلى طبيب الأسنان؛ لأجـل أن يرصَّ على بعضها بحديد أو بغيره؛ لأجـل أن تكون مَرصوصاتٍ متساوياتٍ، لا يزيد بعضها على بعض، وإن لم يكن فيه عيب؟

نقول: الظاهر أنه كذلك ما دام ليس فيه عيب، وإنما هو للحسن، ولهذا يقول: «**وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ**»، فالعلَّة واحدة، وأمَّا إذا كان إزالةً لعيب فهو جائز.

وهل يدخل في هذا خَرق الأُذُن؟

الجواب: لا، لا يدخل في هذا.

ثم إن امـرأةً كان عندها خصومة ومُحاجَّـة، فجاءت تقول لعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنك لعنت كَيْتَ وكَيْتَ، فقال: «**وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ**» يعني: أيُّ شيء يمنعني؟! فإذا لعن النبي ﷺ شيئًا فلنا أن نلعنه، ولهذا نلعن مَن لَعَن والديه، ونلعن مَن ذبح لغير الله، وما أشبه ذلك.

ثم قال: «**وَمَنْ هُوَ فِي كِتَابِ اللهِ؟!**» أي: ومَن هو ملعون في كتاب الله؟ وهذا فيه إشكال، ولهذا قالت المرأة: «**لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ** -تعني: المصحف- **فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ**»، وهي صادقة في هذا، لكن من حيث اللفظ، ولهذا قال: «**لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ**».

وفي هذا: دليل على جواز إلحاق الياء لضمير المخاطبة إذا اتَّصلت بضمير المفعول به، وهذا جائز على لغة -لكنها قليلة- مثل: وجدتيني، وجدتيه، وما أشبهها، وإلا فالمعروف أن تاء ضمير المخاطبة يُكْسَر بدون ياء، فيُقال: «لئن كنتِ قرأتِه لقد وجدتِه».

٤٨٨٧- حَدَّثَنَا عَلِيٌّ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، عَنْ سُفْيَانَ، قَالَ: ذَكَرْتُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَابِسٍ حَدِيثَ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَعَنَ اللهُ الوَاصِلَةَ، فَقَالَ:.........................

ثم قال لها: «أَمَا قَرَأْتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟» قالت: بلى، قال: «فَإِنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ»، فإذا نهى عنه الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقد نهى عنه الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا أمر به الرسول ﷺ فقد أمر الله به؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، يعني: وَمَن يَعْصِ الرسول فقد عصى الله.

ثم إنها أوردت عليه شبهةً، قالت: «فَإِنِّي أَرَى أَهْلَكَ يَفْعَلُونَهُ»، وهي في هذه الكلمة قد تكون واهمةً، فقد تظن أن هذه المرأة من نساء ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتقول هذا الكلام.

لكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لها: «فَاذْهَبِي، فَانْظُرِي»، فذهبت، فنظرت، فلم ترَ من حاجتها شيئًا، فقال: «لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ» يعني: امرأته «مَا جَامَعْتُهَا» أي: ما اجتمعتُ معها، ولفارقتُها، ووقع في بعض النسخ: «مَا جَامَعَتْنَا».

وفي هذا: دليل على ورع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكراهتهم أن يجتمعوا مع امرأة تعصي رسول الله ﷺ.

فإن قال قائل: كيف لم تجد المرأة ذلك في كتاب الله، والله تعالى يقول: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١١٩]؟

نقول: لأن المرأة تُريد اللعن، وأن الله لعن الواشمات والمستوشمات...

سَمِعْتُهُ مِنِ امْرَأَةٍ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ يَعْقُوبَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، مِثْلَ حَدِيثِ مَنْصُورٍ[١].

[١] **في هذا الحديث:** زيادة ذكر الواصلة، وهي التي تصل شعرها، ولكن هل المُحَرَّم أن تَصِلَه بشعر، أو مطلقًا؟

نقول: في حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نهى أن تصل المرأة بشعرها شيئًا(١)، وهو عام، والمشهور عند أكثر أهل العلم: أن المُحَرَّم هو وَصْلُ الشعر بشعر؛ لأن وَصْلَ الشعر بالشعر يجعله كالشعر بأصل الخِلْقَة، فإذا كانت المرأة رأسها قصير، وقِصَر الرأس يُعْتَبر عيبًا أو على الأقل فوات جمال، لكن لَمَّا استغرب الناس اليوم صار قِصَر الرأس مدحًا، والمرأة التي يطول رأسها تذهب، فتقصُّه، ورُبَّما قصَّته حتى يكون كشعر رأس الرجل، والتي تقصُّه إلى هذه الحال تُعْتَبر ملعونةً؛ لأن الرسول ﷺ لعن المُتشبِّهات من النساء بالرجال(٢)، وكان الناس -فيما سبق- إذا خطب الرجل المرأة كان كما يسأل عن جمالها في وجهها وبقيَّة بدنها، يسأل عن طول رأسها، ويُضْرَب المثل بالمرأة التي يضرب رأسها على الأرض إذا جلست، ويُقال: رأسها يجلس معها، أمَّا الآن مع الأسف صار النساء بالعكس، إلا مَن عصم الله.

والمهم أن النساء -فيما سبق- إذا كان رأس المرأة قصيرًا ذهبت تَصِلُه بشعر حتى يُرى وكأنه طويل، ولا شَكَّ أن هذا من تغيير خِلْقَة الله، كالمُتفلِّجات للحُسْن، فلهذا لعن النبي ﷺ الواصلة والمستوصلة.

وهل من ذلك ما يُعْرَف بالباروكة، وهو شيء يُجْعَل على الرأس كالطاقية، ويكون فيه شعر ينزل، فهل نقول: إنه داخل؛ لأن العلَّة واحدة؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب اللباس، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة، رقم (٢١٢٦/ ١٢١).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب المتشبهون بالنساء، رقم (٥٨٨٥).

....

نقول: اختلف العلماء في هذا، فمنهم مَن قال: إن هذا وَصْل، أو بمعنى الوَصْل، ومنهم مَن قال: هذا ليس بوصل، ولكنه شيء يُحَلَّى به الرأس كالحُلِيِّ.

وعندي: أنه لا يجوز لبس الباروكة، اللهم إلا إذا كانت امرأةً ليس على رأسها شعر إطلاقًا، بحيث يكون رأسها كخدِّها، فإن هذا من باب ستر العيب، وهي بين أمرين: إمَّا أن تبقى مُتخمِّرةً دائمًا، وإمَّا أن تخجل، ولا تستطيع أن تُقابل الناس، فمثل هذه لا بأس أن تلبس الباروكة.

ويبقى عندنا حديث المرأة التي جاءت للرسول ﷺ وقالت: يا رسول الله! إن ابنتي أصابتها الحَصْبَة، فتمرَّق أو تمزَّق شعرها، تستأذن النبي ﷺ أن تَصِلَه، فلم يأذن لها[1]، فيُقال -والله أعلم- إن معنى أن الحصبة مرَّقته أو مزَّقته بمعنى: أنها أتلفت أكثره، وأنه بقي شيء يُمكنها أن تستر العيب به، أمَّا التي نتحدَّث عنها فهي امرأة ليس في رأسها شيء من الشعر مطلقًا.

وهل من ذلك إذا كان شعرها جعدًا، فتجعله مسترسلًا؟

الجواب: هذا لا بأس به إذا لم يكن فيه تدليس، كما لو أراد أن يبيع الجارية، فاستعمل دواءً يجعل شعرها جعدًا، فهذا لا يجوز؛ لأجل التدليس، على أننا نقول: إن الرجل إذا تجعَّد شعره فلا بأس؛ لأن هذا يدلُّ على القوة والشجاعة، لكن المرأة لماذا تُجعِّده؟!

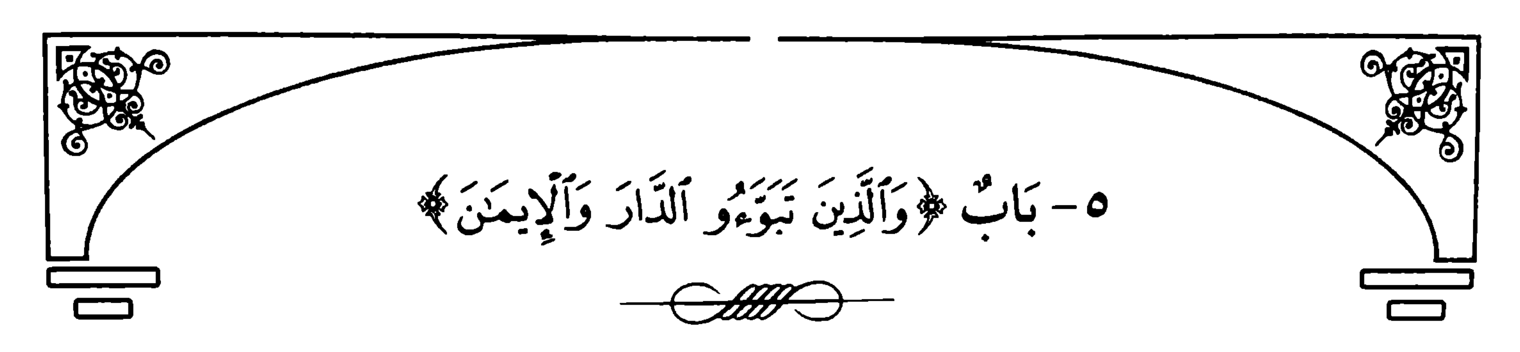
---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب الوصل في الشعر، رقم (٥٩٣٥)، ومسلم: كتاب اللباس، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة، رقم (٢١٢٢/ ١١٥).

....

= ثم اعلم أن المدلِّس ضرره على نفسه؛ لأن المرأة إذا فعلت هذا، ثم دخل عليها الزوج وهي بهذا الجمال، ثم رجعت، كَرِهَها، وهذا يضرُّ، ولهذا كان الأحسن أن يدخل عليها وهي على طبيعتها، ثم تتجمَّل بعدُ؛ ليزداد رغبةً فيها؛ لأنه عند الدخول يُوجَد سببان يجذبانه لهذه المرأة: الغريزة الجنسية، والثاني: ما يراه فيها من الجمال، فإذا تخلَّف الجمال بعدُ، وهبطت الغريزة الجنسية، كان ضررًا عليها، ولهذا كان فعل هذا الشيء خطأً.





٥- بَابٌ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾

٤٨٨٨- حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ (يَعْنِي: ابْنَ عَيَّاشٍ) عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أُوصِي الْخَلِيفَةَ بِالْمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَأُوصِي الْخَلِيفَةَ بِالأَنْصَارِ الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُهَاجِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَيَعْفُوَ عَنْ مُسِيئِهِمْ[١].

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني بهم الأنصار؛ لأن الله تعالى ذكر في سورة الحشر أصناف المؤمنين، وأنهم ثلاثة، وبدأ بهم على الترتيب بالأفضلية، فقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ وهذه هي الهجرة ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وهذه هي النصرة، ولهذا كان المهاجرون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جمعوا بين الهجرة والنصرة، ثم قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، ولا أصدق من أن يخرج الإنسان من بلده، وأهله، وأحبِّ البقاع إليه، أن يخرج إلى بلد هو غريب فيها لله ورسوله، فهذا أصدق ما يكون دلالةً على أن الإيمان قد وقر في قلوبهم، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾ أي: سكنوا ﴿ٱلدَّارَ﴾ وهي المدينة ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾، يعني: وأخلصوا الإيمان؛ لأن الإيمان لا يُتبوَّء، ولهذا كان العامل محذوفًا، ويُقدَّر بما يُناسب المقام.

ثم ذكر أوصافهم، فقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾، ولا يقولون: هذا غريب، ضيَّق علينا، وضيَّق المكان، وأكل الطعام والشراب، بل مَن هاجر إليهم يُحبُّونه.

....

= الوصف الثاني: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾، والواو في ﴿أُوتُوا۟﴾ تعود على المهاجرين، يعني: لا يجد هؤلاء الأنصار في صدورهم حاجةً أو حسدًا ممَّا آتى الله المهاجرين من الفضل وغيره.

الوصف الثالث: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: مجاعة.

ويدلُّ على ذلك: ما صنع الأنصار مع المهاجرين حين آخى بينهم النبي ﷺ، حتى صار الأنصاري يقتسم ماله بينه وبين المهاجر، حتى إن بعضهم يقول للمهاجر: أتُريد إحدى زوجتيَّ أتنازل لك عنها[1]؟ إلى هذا الحد، فالواقع شاهد بما أخبر الله به، ونحن نُصدِّق خبر الله عَزَّوَجَلَّ وإن لم نعلم الشاهد، لكن إذا طبَّقت هذا على أحوالهم وجدت الأمر كما أخبر الله عنهم تمامًا.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، ولهذا أوصى الخليفة الراشد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أوصى بالمهاجرين خيرًا، وأوصى بالأنصار الذين تبوَّؤوا الدار والإيمان قبل الهجرة أوصى بهم خيرًا أيضًا؛ لأن لهم الفضل.

وخطبة النبي ﷺ فيهم في غزوة حُنَين تُبْكِي؛ لأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قسم الغنائم بين المؤلَّفة قلوبهم، والإنسان يحبُّ المال، فقال بعض الأنصار: محمد ﷺ وجد أصحابه، فقسم المال فيهم أو كما قالوا، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فأمر أن يجتمعوا في مكان ليس فيه أحد سواهم، وخطبهم خطبةً بليغةً عظيمةً، وذكَّرهم بنعمة الله عليهم، بأنهم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، رقم (٢٠٤٨).

....

= كانوا ضُلَّالًا، فهداهم الله به، وأنهم كانوا عالةً، فأغناهم الله به، وأنهم كانوا مُتفرِّقين، فجمعهم الله به، وكلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمنُّ.

ثم قال لهم: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ؟» قالوا: بلى، قد رضينا، ثم قال: «لَوْلَا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ»، فجعلوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يبكون حتى خضبوا لحاهم بالدموع، وخرجوا مُقتنعين منشرحةً صدورهم بهذا الكلام[1].

والمهم: أنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لهم النصرة البالغة للنبي ﷺ، فقد آووْه، ونصروه، ومنعوه ممَّا يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، فهذا ثناء الرب عَزَّوَجَلَّ عليهم.

ثم ذكر الطائفة الثالثة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، وكلمة «من» تُفيد الفصل، كما في قوله: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت:٥]، ولم يقل: وبيننا وبينك حجاب، وذلك للتباعد.

والحكمة في هذا -والعلم عند الله عَزَّوَجَلَّ- أن الذين جاؤوا من بعدهم يشمل التابعين وإلى يوم القيامة، وهؤلاء فيهم مَن فيهم؛ لأنه كلما بَعُد العهد من النبوة بَعُد الناس من الشريعة، إلا الطائفة المنصورة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم (٤٣٣٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم (١٠٦١/ ١٣٩) عن عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٧٦) عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

= وقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ يعني بالذين سبقوهم بالإيمان: المهاجرين والأنصار، قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: إن الروافض لا يستحقُّون من الفيء شيئًا؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، ثم قال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، فقال: إن الروافض لا يستحقون من الفيء شيئًا؛ لأنهم لا يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، بل يكرهون هؤلاء إلا نفرًا قليلًا من آل البيت.

والحاصل: أن هؤلاء الأصناف الثلاثة هم أهل الفيء الذين يستحقونه.

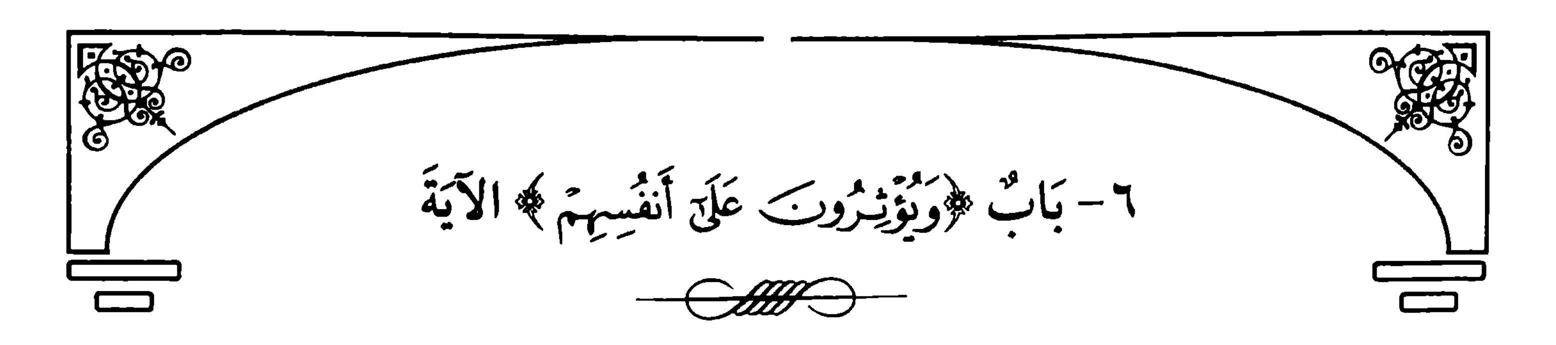
فإن قال قائل: هل هذه الوصية من عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تشمل ذُرِّيَّة هؤلاء؟

فالجواب: لا؛ لأنه قال: «بِالأَنْصَارِ الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُهَاجِرَ النَّبِيُّ ﷺ»، فالذرية التي حصلت بعد هجرة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا تدخل في كلام عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وهذا رجل في المدينة يستلطف إنسانًا ويتلطَّف إليه، قال: نحن ذُرِّيَّة المهاجرين والأنصار، قال: ولكن النار لا تُورث إلا الرماد! فليس كل مَن كان من ذرية المهاجرين والأنصار يكون مثلهم.



(١) انظر: النوادر والزيادات (٣/ ٣٩٨)، وتفسير القرطبي (١٨/ ٣٢)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١٠٢).



٦- بَابُ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآيَةَ

الخَصَاصَةُ: الفَاقَةُ.

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفَائِزُونَ بِالخُلُودِ، وَالفَلَاحُ: البَقَاءُ.

حَيَّ عَلَى الفَلَاحِ: عَجِّلْ[١].

وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿حَاجَةً﴾ حَسَدًا[٢].

---

[١] قوله: «وَالفَلَاحُ: البَقَاءُ» هذا صحيح، فهو يُطْلَق في اللغة العربية بمعنى البقاء، كما قال الشاعر:

لِكُـلِّ أَمْـرٍ مِـنَ الأُمُـورِ سَـعَهْ وَالـمَسْيُ وَالصُّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَهْ(١)

أي: لا بقاء معه، وليس المعنى: أن الإنسان لا يُفلح.

[٢] الصحيح: أنه يشمل الحسد وغيره، فلا يجدون أيَّ شيء في نفوسهم ممَّا آتى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المهاجرين من الفضل.

فإن قال قائل: المنافسة على الخير هل تدخل في هذا؟

فالجواب: لا، لا تدخل، بل قد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بها، فقال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]، وقال: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، وقال: ﴿وَسَارِعُوٓا۟

---

(١) البيت للأضبط بن قريع كما في «سمط اللآلي» (١/ ٣٢٦)، وفيه: «لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الهُمُومِ».

٤٨٨٩- حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ كَثِيرٍ: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ: حَدَّثَنَا فُضَيْلُ بْنُ غَزْوَانَ: حَدَّثَنَا أَبُو حَازِمٍ الأَشْجَعِيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَصَابَنِي الجَهْدُ، فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، يرحمهُ الله**»، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ! فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ضَيْفُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَا تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا، قَالَتْ: وَاللهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَةِ، قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ العَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ، وَتَعَالَيْ، فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ، وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ، فَفَعَلَتْ.

ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**لَقَدْ عَجِبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ ضَحِكَ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةَ**»، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[١].

= إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:١٣٣]، وقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١]، وذلك لأن الإنسان المُسارع لا يُسارع، ويقول: ليت فلانًا يتأخر، وإنما يُسارع، ويقول: لعلِّي أسبق غيري، ففرق بين إنسان يتمنَّى لغيره أن يتأخَّر، وبين إنسان يتمنَّى أن يسبق غيره.

[١] في هذه القصة عبرة عظيمة، فهاهو الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لو شاء أن تسير الجبال معه ذهبًا لسارت، ولـمَّا دخل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين آلى من نسائه، وصار في مَشْرُبة له، وإذا هو على فراش حَشْوُه ليف، وقد أثَّر في جنب الرسول ﷺ، فبكى عمر، فقال: «مَا يُبْكِيكَ؟» قال: أبكي؛ لأن فارسَ والروم يتمتَّعون

....

= بما يتمتَّعـون به، وأنت على هذه الحال، فقال: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا، وَلَنَا الآخِرَةُ؟**»[١].

وأنا أعلم علم اليقين أن رسـول الله ﷺ أنْعَم منهم حتى في الدنيا؛ لأن النعيم ليس هو نعيم البدن، بل النعيم نعيم القلب، ولهذا قال الله تعالى في أهل الجنة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦]، فالاستثناء هنا لا وجـه له؛ لأنه ليس فيها موت، لكن لـمَّا كان نعيم أهل الجنة ممتدًّا من الدنيا إلى الآخرة صار هذا الموت حاصلًا في نفس الجنة.

ويُذْكَر أن شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] رحمة الله عليه لـمَّا حبسوه، وأغلقوا الباب، قال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣]، ثم قال: ما يصنع أعدائي بي؟! إن جنَّتي في صدري، إن حبسي خَلْوة، وقَتْلي شهادة، ونفيي سياحة، والشاهد: قوله: «إن جنَّتي في صدري»، وهذا هو النعيم، وقد قال الله تعالى أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣-١٤]، وهذا كما يكون في الآخرة يكون أيضًا في الدنيا.

والمقصود هنا: أن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له تسع نسوة، كل امرأة في بيت، وهذا الرجل لـمَّا قال: «**أَصَابَنِي الجَهْدُ**» أي: المشقة أرسل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى نسائه، فلم يجد عندهنَّ شيئًا، فكانت بيوت الرسول ﷺ كلُّها خالية من الضيافة في تلك الليلة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾، رقم (٤٩١٣)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء، رقم (١٤٧٩/ ٣٠).

(٢) انظر: الوابل الصيب لابن القيم (ص ٤٨).

....

= وقد حكت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه يمضي عليهم الشهر والشهران لا يُوقَد في بيوتهم نار، قيل: فما طعامكم؟ قالت: الأسودان: التمر، والماء[1].

ونحن الآن إذا وُضِعَ الطعام بين أيدينا وإذا فيه أنواع مُتعدِّدة من كل شيء، والرسول صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم يمضي عليه ثلاث ليالٍ تِبَاعًا لا يشبع من خبز البُرِّ[2].

ثم إن النبي ﷺ قال: «أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، يَرحَمُهُ الله»، وفي هذا: دليل على جواز السؤال للمحتاج إذا علمتَ أو غلب على ظنِّك صِدْقُه؛ لأن الرسول ﷺ عرض، قال: «أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ».

ثم قام هذا الرجل من الأنصار، فقال: أنا، فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: «ضَيْفُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَا تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا»، ولم يقل: هذا ضيفي، فكأنه جعل نفسه نائبًا عن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

لكن امرأته قالت: «وَاللهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَةِ»، يعني: لهذه الليلة، وليس عندها قوتُ الغد، وهذا يدلُّ على أنهم بيت فقر، لكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ العَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ، وَتَعَالَيْ، فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ، وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ»، ونحن لو جاءنا ضيف، وما عندنا إلا طعام العشاء، ما أعطيناه شيئًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ؟، رقم (٦٤٥٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٧٢/ ٢٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ، رقم (٦٤٥٤)، ومسلم: كتاب الزهد، رقم (٢٩٧٠/ ٢٠).

....

وإنما أمر أن يُنَوِّم الصبية على الجـوع؛ لأجل أن يدَّخر الأكل للضيـف، فيشبع ضيف رسول الله ﷺ.

وأمر أن يُطْفَأ السراج حتى لا يراهم الضيف أنهم لا يأكلون، فيأكل هو، ويظنُّ أنهم يأكلون أيضًا، ولهذا قال: «وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ»، يعني: فلا نأكل شيئًا، وهذا يدلُّ على أن الطعام قليل.

ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ، فقال: «لَقَدْ عَجِبَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَوْ ضَحِكَ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةَ»، وهذا عجب دالٌّ على الرضى أو ضحك تعجُّبًا من هؤلاء أن يبقى الرجل هو وزوجته وصبيته جياعًا يَطْوُون بطونهم؛ ليشبع ضيف رسول الله ﷺ، فآثروا هذا الضيف على أنفسهم، مع أن بهم خصاصةً، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

وفي هذا: دليل على ثبوت العلم لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم كل شيء يكون في الأرض جملةً وتفصيلًا، وكذلك في السماء، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥]، و﴿شَيْءٌ﴾ نكرة في سياق النفي، فتُفيد العموم.

وقوله: «لَقَدْ عَجِبَ اللهُ أَوْ ضَحِكَ» أظنُّ أن «أو» هنا شكٌّ من الراوي، فمرَّةً يبدو له أنه قال: «ضَحِكَ»، فيجزم بالضحك كما في بعض الروايات[1]، ومرَّةً يبدو له أنه قال: «عَجِبَ»، فيجزم بالعجب، ولو أردنا أن نُرَجِّح لرجَّحنا رواية مسلم: «عَجِبَ»[2]؛ لأنها أصح من الرواية الأُخرى.

---

(١) ذكرها ابن حجر، وعزاها لابن أبي الدنيا من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتح الباري (٨/ ٦٣٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف، رقم (٢٠٥٤/ ١٧٢).

....

= والعجب مثل الفرح والغضب، لا يُمكن أن تُحـدَّد أبدًا، وكذلك كل الأمـور الانفعاليَّة، ولهذا ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (روضة المحبين) أنهم ذكروا لتعريف المحبَّة أكثر من عشرين تعريفًا[1].

وقد قال ابن القـيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه الأمـور النفسية لا يُمكن أن تُحـدَّ بأبين من ألفاظها، وإن حدَّها أحد حدَّها بآثارها ولوازمها، وعلى هذا فلو قال قائل: إن المحبة هي ميل القلب قلنا: هذا أثرها؛ لأنك إذا أحببت الشيء ملت إليه.

والعجب صفة يتَّصف بها العاجب، إمَّا لخروج الشيء عن نظائره، وإمَّا لكون هذا الشيء صفةً مرضيَّةً أوجبت السرور، كما في هذا الحديث، وكما في قول عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: كان الرسول ﷺ يُعجبه التيامن في تنعُّله[2]، أي: يسرُّه.

وإمَّا لخفاء الأسباب على المُتعجِّب، كما لو جاءه الشيء بغتةً، وما قدَّر له التقدير، فيتعجَّب، لكن هذا الأخير منفي عن الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يُمكن أن يرد في حقِّه.

وضحك الله عَزَّوَجَلَّ ضحك حقيقي، ولكن كيفيته غير معلومة لنا، ولا نقول: إنه ضحك كضحكنا، ولـمَّا أخبر الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأن الله يضحك قال الأعرابي: يا رسول الله! أو يضحك ربُّنا؟ قال: «نَعَمْ»، قال: واللهِ لن نعدم من ربٍّ يضحك خيرًا[3].

---

(١) روضة المحبين (ص:١٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب التيمن في الوضوء والغسل، رقم (١٦٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨١)، وأحمد (٤/ ١١).

وقد سبق أن الإيثار ينقسم إلى ثلاثة أقسام: إيثار بالواجب، وإيثار بالمستحب، وإيثار بما هو حقُّ الإنسان الخالص.

فأمَّا الإيثار في الواجب فحرام، وأمَّا الإيثار بالمستحب فمكروه، وقيل: مباح، وقيل: يُنْظَر فيه للمصلحة، وأمَّا الإيثار بما هو حق الإنسان الخالص فهذا مستحب، يرجع إلى الإنسان نفسه.

مثال الإيثار بالواجب: أن يكون عند الإنسان ماء، إن توضَّأ به لم يَكْفِ صاحبه، وإن توضَّأ به صاحبه لم يَكْفِه، فهنا لا يجوز أن يُؤْثِر غيره به؛ لأنه إذا آثر غيره به فقد ترك الواجب عن عمد؛ لأن غيره لا يجب عليه الوضوء؛ لعدم الماء، وهو يجب عليه الوضوء؛ لوجود الماء.

مثال الإيثار بالمستحب: أن يؤثر غيره بمكانه الفاضل في الصفِّ، فيأتي إنسان، وهو في الصف الأول، فيتأخَّر له؛ ليتقدَّم، فهذا مكروه على المشهور من المذهب[1]، وقيل: مباح، وقيل: يُنْظَر فيه للمصلحة، فقد يكون من المصلحة أن تُؤثر هذا الرجل، كما لو كان أباك، ويعتب عليك لو لم تُؤْثِره، أو كان رجلًا تحبُّ أن تُؤثره ترغيبًا له في حضور الجماعة في المسجد، وليس زهدًا في الخير، وكان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يترك الشيء من أجل مصلحة غيره، وإن كان هو يهواه.

أمَّا الشيء الذي من حقِّك الخالص فالإيثار فيه مستحب إذا كان المُؤْثَر أهلًا للإيثار، مثل قضية الأنصاريِّ هذا، فهذا الطعام إمَّا أن يأكله الضيف، فيجوعون،

(١) منتهى الإرادات بشرح البهوتي (٢/ ٣٠).

....

= أو يأكلوه، فيجوع الضيف، فآثروا على أنفسهم، وأنزل الله تعالى الآيات في الثناء عليهم.

وكذلك قصَّة الثلاثة الذين كانوا عِطَاشًا إن صحَّت القصة[(١)]، فهي من المباح؛ لأن هذا حقُّه الخالص.

فإن قال قائل: إذا أتى إليَّ رجل يطلب حاجةً، وأنا قد احتجتها، فإذا قلت له: إني أحتاجها، قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[(٢)]، فماذا يصنع الإنسان؟

نقول: يُمكنه أن يقول له: طبِّق هذا الحديث على نفسك، فهل ترضى أن يأتي شخص، ويأخذ حاجتك التي تحتاجها، إمَّا ساعة، أو قلم، أو كتاب؟

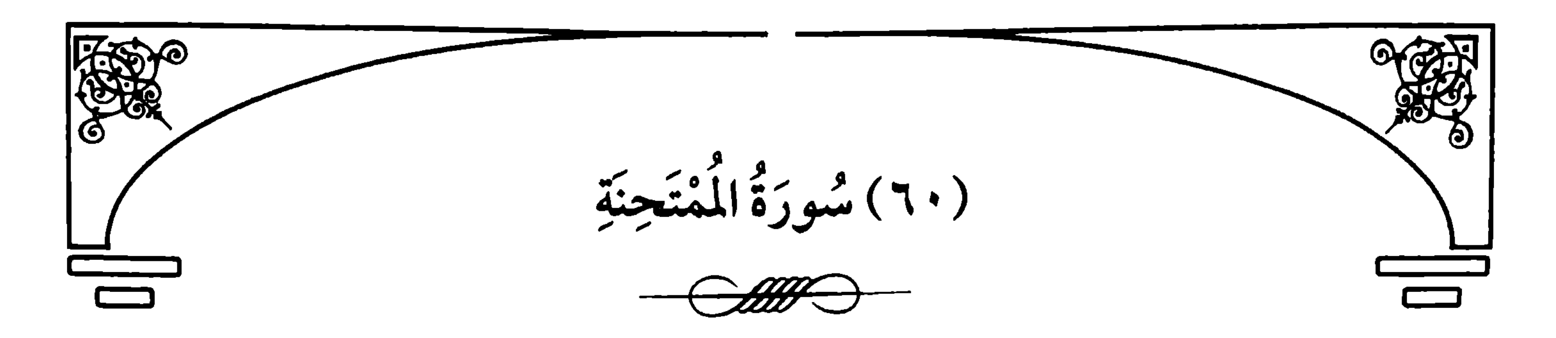
وهذا الحديث أودُّ أن يكون دائمًا على بالنا، وأن نحفظه؛ لنعرف كيف حال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟ وكيف توقيرهم لرسول الله ﷺ؟ وما فيه من الفوائد التي ليس هذا موضع بسطها.



---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، رقم (٤٥).



(٦٠) سُورَةُ المُمْتَحِنَةِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ لَا تُعَذِّبْنَا بِأَيْدِيهِمْ، فَيَقُولُونَ: لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ عَلَى الحَقِّ مَا أَصَابَهُمْ هَذَا[١].

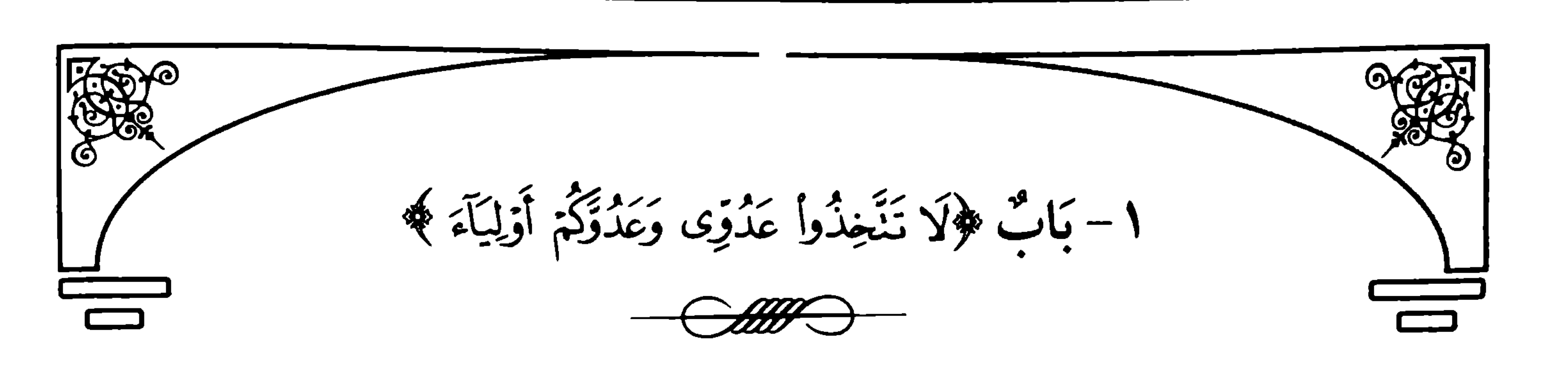
﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ أُمِرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ بِفِرَاقِ نِسَائِهِمْ، كُنَّ كَوَافِرَ بِمَكَّةَ.

---

[١] هذا في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾ [الممتحنة:٥]، أي: لا تُعذِّبنا على أيديهم، فيفتتنوا، بأن يقولوا: لو كانوا على حقٍّ ما أصابهم هذا.

وهذا كما وقع في الأمة سابقًا يقع فيها الآن، فإذا ابتُلِيَ الإنسان ببلاء قال الناس: لو كان هذا مُخلصًا ما ابتلاه الله بهذا الشيء، وما أشبه ذلك من الكلمات التي يقولونها، ولم يعلم هؤلاء السفهاء الجُهَّال أن الله تعالى يبتلي العبد؛ لينال بذلك درجة الصابرين؛ لأن الصبر درجة عالية، حتى استحقَّ الصابر أن يكون الله معه، ولا يُقال: إن الإنسان يصبر على نعمة، ولكن يُقال: يصبر على بلاء؛ لأن الصبر يكون على البلاء، والشكر يكون عند الرخاء، فقد يبتلي الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان بشيء؛ لأجل أن يعلم عَزَّوَجَلَّ صبره حتى يرتقي إلى درجة الصابرين، قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١].





١- بَابٌ ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾

٤٨٩٠- حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي الحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، أَنَّهُ سَمِعَ عُبَيْدَ اللهِ بْنَ أَبِي رَافِعٍ كَاتِبَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالمِقْدَادَ، فَقَالَ: **«انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا»**، فَذَهَبْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ المُشْرِكِينَ مِمَّنْ بِمَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَا هَذَا يَا حَاطِبُ؟»** قَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مِنْ قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِمَكَّةَ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَصْطَنِعَ إِلَيْهِمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ كُفْرًا، وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ»**، فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ! فَقَالَ: **«إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»**.

قَالَ عَمْرٌو: وَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، قَالَ: لَا أَدْرِي الآيَةَ فِي الحَدِيثِ، أَوْ قَوْلُ عَمْرٍو.

حَدَّثَنَا عَلِيٌّ، قَالَ: قِيلَ لِسُفْيَانَ فِي هَذَا، فَنَزَلَتْ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ الآيَةَ، قَالَ سُفْيَانُ: هَذَا فِي حَدِيثِ النَّاسِ، حَفِظْتُهُ مِنْ عَمْرٍو، مَا تَرَكْتُ مِنْهُ حَرْفًا، وَمَا أُرَى أَحَدًا حَفِظَهُ غَيْرِي[1].

---

[١] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، فبدأ بذكر عدوِّه دون ذكر عدونا، والعادة عند الإغراء أن يُبْدَأ بعدوِّ النفس حتى تأخذ الإنسان الحميَّة، فيغار لنفسه، ولكن الله تعالى بدأ بعداوته؛ لأن مَن كان عدوًّا لله أشدُّ عند المؤمن ممَّن كان عدوًّا لنفسه، ولهذا قال: ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾، وهذا وجه.

الوجه الآخر: أن عداوة الإنسان لك قد لا يكون مصدرها الدين، فقد يكون مصدرها أمرًا شخصيًّا، لكن إذا كان هذا عدوًّا لله فإن عداوته للمؤمن عداوة دينية، فلهذا بدأ بقوله: ﴿عَدُوِّي﴾ تربيةً للإنسان أن يجعل عداوة الله وولاية الله مُقدَّمةً على عداوة نفسه وولاية نفسه.

وهنا نذكر أمرًا آخر، وهو تقديم ما يحبُّه الله على ما تحبُّه نفسك وتهواه؛ لأن هذا هو حقيقة المحبة والعبوديَّة، أمَّا إذا كان الرجل يقول: أنا أحبُّ الله، ولكن يُقَدِّم ما تهواه نفسه على محبَّة الله، فهذا ليس بصادق، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]، فانتبه للقرآن، ففي طيَّاته -واللهِ- خفايا وعجائب ومعانٍ عظيمة، إذا تأمَّلها الإنسان تبيَّن له أنه تنزيل من حكيم خبير، جَلَّوَعَلَا، لكن تغلب على قلوبنا كثيرًا من الأوقات الغفلةُ، وإمرارُ اللفظ، كأننا نُريد أن نُكمل اللفظ فقط، وإلا فقد قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص:٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء:٨٢]، فإذا تدبَّرت القرآن وتأمَّلت فيه وجدتَّ فيه من كنوز العلم والمعرفة ما لا يخطر على بالك.

....

=

وفي هذا الحديث من الفوائد:

١- أن النبي ﷺ علم بهذا الكتاب، وهذا دليل على أنه أُوحي إليه به، وكذلك علم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنهم سيجدون المرأة في روضة خاخ، وهي روضة معروفة في ذلك الوقت.

٢- استعمال المكر والكيد في فعل هذه الظعينة -وهي المرأة- ويحتمل أنها فعلت ذلك من نفسها، أو بمشورة حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأيًّا كان فهذا كيد.

والآن الذين يُهرِّبون الشيء وهو ممنوع من دخوله البلد، يجعلونه في أشياء خفيَّة لا تخطر بالبال، حتى إننا سمعنا أنهم يضعونه في إطارات السيارات، أو يُدخلونه في بطون الجمال وغيرها، ويخيطون عليها، ويجعلونها تمرُّ، ومَن يدري أن هذه فيها شيء؟!

وهذه الأمور والأساليب إذا كانت بحق فإنها تُسْتَعمل، أمَّا إذا كانت بباطل فلا شَكَّ في أنها حرام.

٣- فضيلة أهل بدر؛ لأن الله تعالى قال: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، أي: أنه بعد هذه الحسنة العظيمة التي حصلت في بدر ما شاؤوا فعلوه، ولو كان ذنبًا، فإنه قد غُفِرَ لهم، فيكون معناه: بيان المنَّة عليهم بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنَّ عليهم بمغفرة الذنوب مهما عَمِلُوا من الأعمال.

وقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ» كلمة «يُدْرِيكَ» تنصب ثلاثة مفاعيل، فالمفعول الأول: الكاف، والمفعول الثاني والثالث مُعَلَّق بـ: «لعلَّ».

....

فإن قال قائل: كيف قال النبي ﷺ: «**لَعَلَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ**»، مع أن هذا خبر عن أمر ماضٍ مُتحقِّق؟

قلنا: «لعلَّ» تأتي للتحقيق، مثل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى:١٧]، كما تقول: لعلِّي فعلتُ كذا وكذا، وأنت قد فعلتَه، فيكون هذا من باب التحقيق.

٤- أن أهل بدر لا يُمكن أن يرتدُّوا عن الإيمان، وعلى فرض أن يرتدَّ منهم أحد فسيعود إلى الإيمان، ووجه ذلك: أنهم لو ارتدُّوا وماتوا على الكفر ما صار لهم مغفرة، وصار الخبر كاذبًا.

فإن قال قائل: قول الله تعالى هنا: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ» هل هو كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت:٤٠]؟

نقول: لا؛ لأن قوله: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا للتهديد، أمَّا هنا في الحديث فهو لبيان أن كلَّ ما يعملونه معفوٌّ عنه، ومغفور لهم، لكننا نعلم أنهم لن يعملوا كفرًا؛ لأنهم لو ماتوا على الكفر فلن يغفر الله عَزَّوَجَلَّ لهم.

٥- أن الإنسان قد يفعل ما هو الكفر، لكن بغير قصد الكفر، كما فعل حاطب رَضِيَاللَّهُعَنْهُ، ولهذا نفى عن نفسه أن يكون هذا منه كفرًا أو ارتدادًا عن الدين، لكن فَعَلَه لغرض تأوَّل فيه رَضِيَاللَّهُعَنْهُ، وقد أخطأ في تأوُّله.

٦- أن الجاسوس يُقْتَل ولو كان مسلمًا، والجاسوس هو الذي يُخبر أعداءنا بما عندنا، ووجه الدلالة: أن الرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لم يذكر المانع من قتله إلا أنه من

....

= أهل بدر، وهذا يدلُّ على أن الجاسوسية سبب مُسَوِّغ للقتل، وهذا المانع لا يُوجَد في الناس الآن، فإذا وُجِدَ جاسوس للكفار وهو مسلم فإنه يُقْتَل، لكن هل يُقْتَل كافرًا، أو يُقْتَل مسلمًا؟

نقول: هذا يرجع إلى السبب الحامل له على الجاسوسيَّة، فإن كان طمعًا دنيويًّا فإنه لا يكفر، كما فعل حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكن لا يجوز لنا أن نجعل هذا خدشًا في حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأن الله قد غفر له، بسبب كونه من أهل بدر.

وهذا كما يُوجَد أُناس من الكفار يُعْطُون أموالًا عظيمةً على الجاسوسية بين صفوف المسلمين، فهذا إذا كان قصده الطمع فإننا لا نحكم بكفره.

أمَّا إذا كان الحامل لهذا الجاسوس كراهة المسلمين وحب المنافقين فهذا كفر، لا شَكَّ فيه؛ لأن كل أحد يكره المسلمين ويحبُّ الكافرين فهو كافر، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أحب قومًا فهو منهم**»[1]، ولا أحد يكره المسلمين إلا وهو يكره الإسلام، دَعْنَا من رجل يكره أعمال بعض المسلمين أو أعمال المسلمين عمومًا، فهذا قد يقع من المسلمين أشياء تُوجب كراهتهم، لكن هذا لا يكره المسلمين على أنهم مسلمون، وإنما يكره المسلمين على أفعال فعلوها.

أمَّا إذا كان يكره المسلمين؛ لأنهم مسلمون، فهذا كفر؛ لأنه كراهة ما جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب علامة حب الله عَزَّ وَجَلَّ، رقم (٦١٦٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٤٠)، بلفظ: «المرء مع من أحب».

....

= **والخلاصة في حكم الجاسوس**: أن الجاسوس المسلم يُقْتَل بكل حال، وهل يُقْتَل كفرًا، أو حدًّا؟ هذا بحسب نيته، وهذا عند الله عَزَّوَجَلَّ، لكن إذا قتلناه فهل نُصَلِّي عليه، مع أن هذا أمر يرجع إلى نيَّته في قلبه؟

نقول: الأصل أنه مسلم، لكن لو رأى الإمام أنه لا يُصَلِّي عليه، أو أن طائفةً مُعَيَّنَةً من الناس لا تُصَلِّي عليه -كما فعل الرسول ﷺ فيمَن قتل نفسه[1]- فلا بأس، فيُوعز الإمام -مثلًا- ويقول: هذا الرجل لا تُصَلُّوا عليه، ولكن يُحْمَل إلى المقبرة، ويُصَلِّي عليه رجل واحد من الناس.

فإن قال قائل: قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ هل يدلُّ على أن الجاسوس لا يكفر؛ لأنه ناداهم باسم الإيمان، والآية نزلت في حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟

قلنا: هذا ليس بصريح، فقد يكون هذا حكمًا عامًّا، ولهذا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يفهم هذا الفهم.

٧- من فوائد الحديث: أنه لا يجوز الافتيات على الإمام بقتل مَن يرى القاتلُ أنه مستحق للقتل؛ لأن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استأذن النبي ﷺ، فقال: «دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ».

٨- أنه يجب على الإنسان الرَّوِيَّة والتأنِّي وعدم السرعة؛ لأن الإنسان قد يظنُّ أن هـذا الفعل مُنْكَـر، وليس بمُنْكَـر، فعُمَـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا رأى هـذا الرجـل الذي جـسَّ

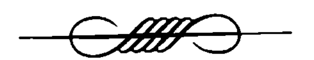
---

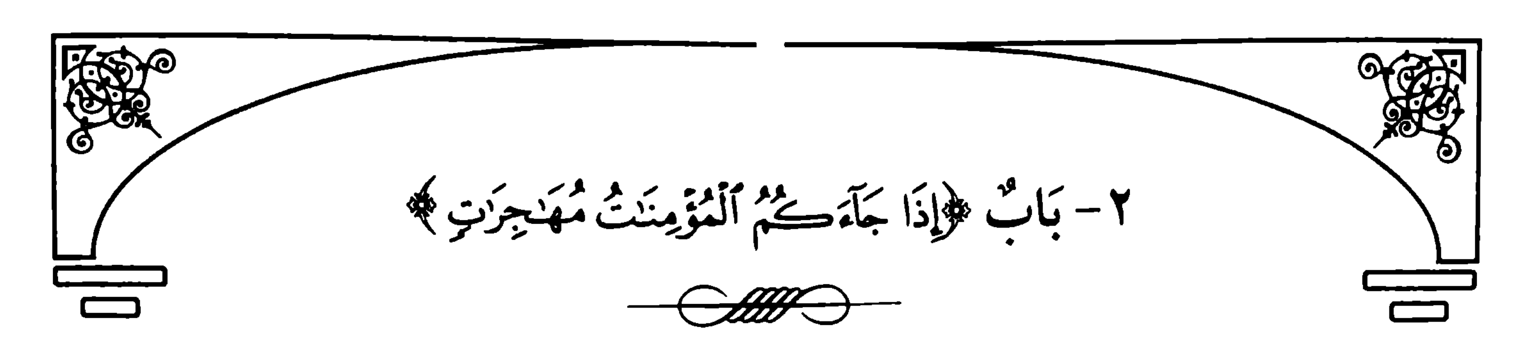
(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ترك الصلاة على القاتل نفسه، رقم (٩٧٨/ ١٠٧).

....

= للمشركين على المؤمنين رأى أن يُضْرَب عنقه؛ لكن على أي أساس قال هذا؟ هل لأنه مُفْسِد في الأرض، أو لأن هذا يدلُّ على النفاق، أو يدلُّ على الكفر والرِّدَّة؟

نقول: في هذا احتمال، ولكن الظاهر أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ظنَّ أن الرجل كان منافقًا.





٢- بَابُ ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ﴾

٤٨٩١- حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَخِي ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عَمِّهِ، أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ الآيَةِ، بِقَوْلِ اللهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَدْ بَايَعْتُكِ» كَلَامًا، وَلَا وَاللهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ، مَا يُبَايِعُهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ: «قَدْ بَايَعْتُكِ عَلَى ذَلِكِ».

تَابَعَهُ يُونُسُ وَمَعْمَرٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ.

وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاشِدٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ: عَنْ عُرْوَةَ وَعَمْرَةَ[١].

---

[١] الشاهد من هذا: أن المبايعة تكون بالقول، وتكون بالقول والفعل، وهي مأخوذة من الباع؛ لأن المعاهَد يمدُّ يده إلى المعاهِد، فيُمسك بيده على أن هذه البيعة تامَّة.

وكان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُبايع النساء من غير مسِّ يد؛ لأن مسَّ اليد لا يجوز إلا للمَحْرَم، على أن النبي ﷺ يجوز له بالنسبة للمرأة ما يمتنع على غيره من غير المحارم، فقد ذكر بعض العلماء أن من خصائص النبي ﷺ جواز الخلوة بالمرأة، وجواز النظر إليها.

....

= وهل يجب على وليِّ الأمر أن يستقبل النساء المسلـمات اللاتي هاجرن من دول كافرة؟

الجواب: نعم، وإذا كنَّا نُعْطِي الناس نتألَّفهم على الإسلام فكيف لا نقبل مَن جاء مسلمًا؟! لكن لـمَّا فسد الناس أَفْسَد الله أمـرهم، فلما كان بعض الناس يُسْلِم لا رغبةً في الإسلام، ولكن رغبةً في الدنيا، كما هو مُشاهَد، يأتي أُناس ويُسْلِمُـون في البلد، وإذا ذهبوا إلى أهليهم انقلبوا مُرتدين، إنما يُسْلِمُون؛ لأجل المال فقط، ولهذا صارت الحكومات تحتاط في هذه المسألة، ويجعلون للرجل مدَّةً مُعَيَّنَةً ينظرون فيها: هل هو صـادق، أو كاذب؟ نعم، هم يقبلـون منه الإسلام، لكن لا يُعْطـونه صكًّا في ذلك أو يُغَيِّرون ديانته في جوازه إلا بعد مضي مدَّة يُعْلَم فيها بأنه صادق في طلبه الإسلام.

وهنا مسائل حول البيعة:

المسألة الأولى: هل لابُدَّ من أن يذهب الإنسان للمبايعة، أو تكفي النية؟

الجواب: يذهب، لكن مَن كان تَبَعًا لغيره فيُكْتَفى بأهل الحلِّ والعقد، فإذا بايعه أهل الحلِّ والعقد تمَّت البيعة، وهذا بإجماع المسلمين، ولهذا تتمُّ الخلافة بالخليفة في المدينة، والناسُ في مشارق الأرض ومغاربها.

والواجب على المسلمين أن يكونوا تحـت إمام واحد، لكن هذا أمر مضى من زمان، وأصبحت الأمَّة مُتفرِّقةً، فكل واحد من رؤساء الدول الإسلامية قد بايع مَن هو تحت ولايته.

....

المسألة الثانية: هل يُشْتَرط في أن تكون الجماعة قد خرجت على الإمام أن يكون الإمام قرشيًّا؟

الجواب: لا؛ لأن الإمام تثبت إمامته وإن لم يكن قُرشيًّا؛ لأن الرسول ﷺ قال: «وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ»[1]، فما دام غلب هذا الرجل وصارت له السيطرة وجب أن يكون ولي الأمر، إلا إذا رأينا كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان.

المسألة الثالثة: هل يُبايَع الرجل إذا كان لا يُحكِّم شرع الله؟

الجواب: لا، بل هذا حرام، وإذا كان هذا الذي لم يُحكِّم شرع الله وصل به الأمر إلى الكفر الصريح الذي عندنا فيه من الله برهان فيجب إزالته بأيِّ وسيلة، كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[2]، والبرهان أي: الدلالة الواضحة التي لا تحتمل التأويل في أنه كافر، ولا يُقال: إنه يحتمل أن يكون تجرَّأ على أمر ليس بكفر.

وقد يندر أن نرى هذا؛ لأن هؤلاء الذين يحكمون بغير ما أنزل الله في بعض الأشياء لو سألتهم لوجدت عندهم علماء سوء يُلَقِّنونهم التحريفات والتأويلات وما

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم (٧١٤٢) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم (١٨٣٧/ ٣٦) (١٨٣٨/ ٣٧) عن أبي ذر وأم الحصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا»، رقم (٧٠٥٦)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم (١٧٠٩/ ٤٢).

....

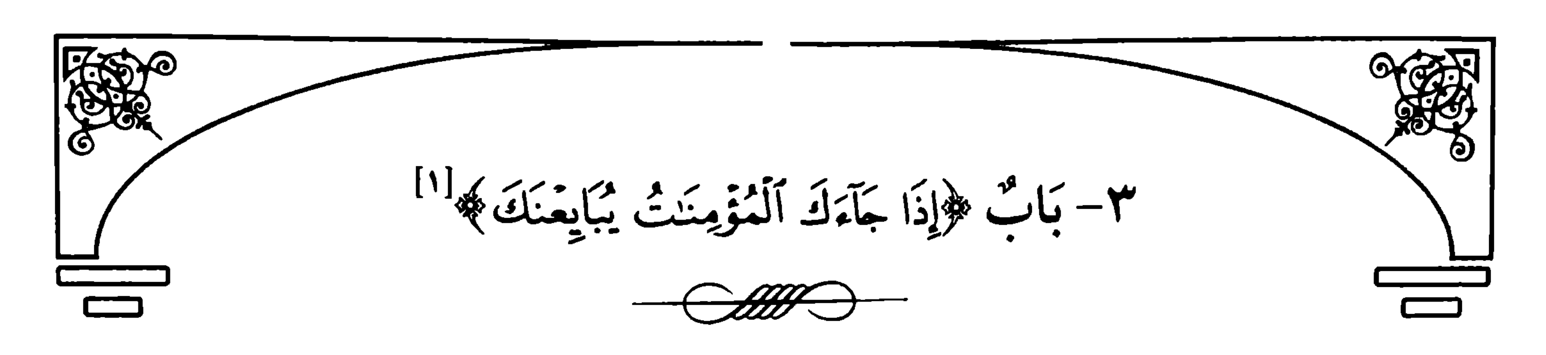
= أشبه ذلك كما نسمع، حتى إن بعض علماء السوء يقولون: إن الدين إنما يُنَظِّم المعاملة بين الإنسان وبين ربِّه فقط، وأمَّا العقود والبيوع وغيرها فهذه ليست بحرام، ويُجوِّزون كل عقد نهى الشارع عنه حتى الميسر والربا، بحُجَّة حديث تمسَّكوا به، وهو قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أوَّلَ ما قدم المدينة، وكانوا يُلَقِّحون النخل من الفحول، وقال لهم: «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ»، فتركوا هذا، ثم فسد الثمر، فقال لهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»[1]، فأخذوا هذه الكلمة المُجْمَلة، وجعلوها تمحو كل ما جاءت به النصوص من تحريم العقود المشتملة على الظلم والربا والميسر.

فإن قال قائل: إذا كان الحاكم يُوالي أعداء الإسلام، ويُنَفِّذ تعاليمهم في محاربة الإسلام وشعائره، فهل يُعَدُّ هذا كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان؟

قلنا: الله أعلم؛ لأنه قد يستنصر بأعداء الإسلام ظنًّا منه أنهم ينصرونه، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٥٢]، وهو لا يستنصر بهم على أن يقتل المسلمين، ولكنه يقتل مَن يدَّعي أو يزعم أنهم يُريدون إحداث الفوضى والخروج عليه بغير حقٍّ، وهذا رأيه.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا، رقم (٢٣٦٣/ ١٤١).



٣- بَابٌ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾[١]

٤٨٩٢- حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَارِثِ: حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ حَفْصَةَ بِنْتِ سِيرِينَ، عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَرَأَ عَلَيْنَا: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، وَنَهَانَا عَنِ النِّيَاحَةِ، فَقَبَضَتِ امْرَأَةٌ يَدَهَا، فَقَالَتْ: أَسْعَدَتْنِي فُلَانَةُ، أُرِيدُ أَنْ أَجْزِيَهَا، فَمَا قَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا، فَانْطَلَقَتْ، وَرَجَعَتْ، فَبَايَعَهَا[٢].

---

[١] قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ فيه إشكال من الناحية النحوية، وهو عدم تأنيث الفعل، فلماذا لم يقل: إذا جاءتك المؤمنات؟

نقول: لوجود الفاصل، قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَدْ يُبِيحُ الفَصْلُ تَرْكَ التَّاءِ فِي ... نَحْوِ: أَتَى القَاضِيَ بِنْتُ الوَاقِفِ(١)

[٢] الإسعاد: هو التعزية والتسلية.

والنياحة: هي البكاء بصوت يُشبه نَوْح الحمام، وأمَّا الندب فهو تعداد محاسن الميت، وكلاهما منهي عنه.

ولـمَّا نهاهنَّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن النياحة قالت امرأة: أسعدتني فلانة، بأن تأتي معها، وتبكي معها ميِّتها، وتُريد أن تجزيها، أي: تردَّ عليها مثل ما فعلت بها،

---

(١) انظر شرح ألفية ابن مالك لشيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ (٢/ ٢١٥).

٤٨٩٣ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ: حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، قَالَ: سَمِعْتُ الزُّبَيْرَ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قَالَ: إِنَّمَا هُوَ شَرْطٌ شَرَطَهُ اللهُ لِلنِّسَاءِ[١].

= فلم يردَّ عليها النبي ﷺ شيئًا، فانطلقت، ورجعت، فبايعها، وتوجيه ذلك أن نقول: إن هؤلاء النساء كنَّ سبق أن حصلت منَّة عليهنَّ بالإسعاد معهن، وإن الرسول ﷺ أَذِنَ لهنَّ من باب المقابلة، أو المكافأة؛ خوفًا من أن يكون لِـمَن أسعدن أوَّلًا منَّةٌ على النساء، وكلما حصل شيء قلن: قد أسعدناكُنَّ في ذلك الوقت، وما أشبه ذلك؛ لأن النساء كثيرات المنَّة، فيكون هذا من باب درء المفاسد.

وأمَّا القول بأن النياحة نُهِيَ عنها كراهة تنزيه، ثم حُرِّمت، ففي النفس منه شيء.

فإن قال قائل: لو أن امرأةً جاهلةً أسعدت امرأةً أُخرى بالنياحة، فهل يجوز لها أن تُكافئها؟

قلنا: لا؛ لأن هذا الإسعاد كان قبل النهي، أمَّا كونها جاهلةً فهذا الخطأ منها، فلماذا لم تتعلَّم؟!

وهذا يدلُّ على أنه لا يجوز المقابلة بالمثل في الأمور التي هي معصية، فلو أن أحدًا فعل بك شيئًا مُحَرَّمًا، وهو في ظاهر الأمر إحسان إليك، ثم تبيَّن التحريم، فلا تردَّ عليه مثل هذا.

[١] الصواب: أنه شرط شرطه الله عَزَّوَجَلَّ للنساء وللرجال أيضًا، ففي حديث

....

= عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنهم كانوا يُبايعون الرسول ﷺ على بيعة النساء[1].

وهل بيعة النساء خاصة بالنبي ﷺ، أو تكون لِـمَن بعده من الخلفاء؟

نقول: الأصل هو الأسوة والقدوة إلا بدليل، ولا أعلم شيئًا يُخْرِجها عن هذا الأصل، فلو أسلمت نساء أو جِئْنَ مهاجراتٍ من بلاد الكفر فإن للإمام أو ولي الأمر في البلد التي هاجرن إليها أن يُبايعهنَّ.

وهنا إشكال في قوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾، فهل هذا قيد لبيان الواقع، وهو ما يُعْرَف عند العلماء بـ: الصفة الكاشفة، أو هو قيد يُقْصَد به خلاف الحكم في المخالفة؟

نقول: هو من الباب الأول، وليس من باب القيد الذي يُراد به خلاف الحكم في المخالفة؛ لأنه لو قيل بذلك لكان النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يأمرهنَّ بالمعروف وغير المعروف، فنُهين أن يعصينه في المعروف، وأمَّا في الْمُنْكَر فيعصينه، ومعلوم أن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يأمر بالْمُنْكَر.

إذن: فهو من باب القيد الْمُبيِّن للواقع، الذي يُسَمَّى عندهم: الصفة الكاشفة، والصفة الكاشفة هي التي تُوضِّح المعنى، ولها أمثلة، منها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، فهل معنى هذا: أن لنا ربًّا آخر لم يخلقنا والذين من قبلنا؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾، رقم (٤٨٩٤)، ومسلم: كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، رقم (١٧٠٩/ ٤٣).

٤٨٩٤- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: الزُّهْرِيُّ حَدَّثَنَاهُ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو إِدْرِيسَ، سَمِعَ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «أَتُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا -وَقَرَأَ آيَةَ النِّسَاءِ، وَأَكْثَرُ لَفْظِ سُفْيَانَ: قَرَأَ الآيَةَ- فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَعُوقِبَ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَسَتَرَهُ اللهُ، فَهُوَ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ».

= الجواب: لا، بل الرب هو الخالق عَزَّوَجَلَّ، فتكون هذه من باب الصفات الكاشفة.

ومنه: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، فهل معنى هذا: أنه يُمكن أن يدعونا لأمر فيه هلاكنا؟

الجواب: لا، فالقيد -إذن- هنا لبيان الواقع، فهو صفة كاشفة، وليست صفةً مُقَيِّدةً تُخرج ما خالفها في المعنى إلى ما يُخالفها في الحكم.

وعلى هذا فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ كأنه قد عُلِمَ وبان للناس أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يأمر إلا بمعروف، فأَمْرُهُ كلُّه معروف، والمعنى: لا يعصينك فيما تأمر به؛ لأنك لا تأمر إلا بمعروف.

وأمَّا غير النبي ﷺ فإن كان يأمر بما يأمر به الرسول ﷺ فذاك، وإلا فلا.

والصفة الكاشفة تكون كأنها علَّة لِما سبقها، ففي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ نقول: أمر بذلك؛ لأنه يدعوكم لِما يُحييكم، فكأنها علَّة تكشف المعنى وتُوضِّحه، وكذلك نقول في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ لأنه هو ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

تَابَعَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، فِي الآيَةِ[١].

---

[١] في هذا الحديث: أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عرض على الرجال أن يُبايعوه كما يُبايع النساء، وقسَّم الناس في ذلك إلى ثلاثة أقسام:

الأول: قسم وفى، فهذا أجره على الله، وقد عُلِمَ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجزي الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

القسم الثاني: لم يَفِ، لكن عُوقب به في الدنيا، سواء كانت العقوبة شرعيَّةً على يد ولاة الأمور، كالحدود، أو كانت العقوبة قدريَّةً من الله عَزَّوَجَلَّ، كالمصائب التي تُصيبه في بدنه وأهله وماله، فالعقوبة تكون كفَّارةً له، وهذا أيضًا قد نجا من عذاب الآخرة.

القسم الثالث: «وَمَنْ أَصَابَ مِنْهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَسَتَرَهُ اللهُ، فَهُوَ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»، ولكن هذا ليس على عمومه؛ لأنه قال: «عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا»، والشرك لا يُغفر، وهذا من السُّنَّة التي خصَّصها القرآن، والسُّنَّة التي خصَّصها القرآن عزيزة قليلة، وأكثر ما يكون تخصيص القرآن بالسُّنَّة، لكن أحيانًا تُخَصَّص السُّنَّةُ بالقرآن، فهنا نقول: يخرج من ذلك الشرك، فإنه ليس راجعًا إلى المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

وهل الأفضل للإنسان إذا وقع في شيء من ذلك أن يذهب إلى القاضي؟

نقول: إذا رأى الإنسان من نفسه أنه سيتوب صدقًا فلا يذهب، وينبغي أن يستر على نفسه، أمَّا إذا رأى نفسه مُنهمكًا، يَعِدُ نفسه بالتوبة والتستر، ولكن لا يفعل، فالذهاب إلى القاضي أفضل.

٤٨٩٥- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ: حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ، قَالَ: وَأَخْبَرَنِي ابْنُ جُرَيْجٍ، أَنَّ الحَسَنَ بْنَ مُسْلِمٍ أَخْبَرَهُ، عَنْ طَاوُسٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَالِلَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: شَهِدْتُ الصَّلَاةَ يَوْمَ الفِطْرِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ، فَكُلُّهُمْ يُصَلِّيهَا قَبْلَ الخُطْبَةِ، ثُمَّ يَخْطُبُ بَعْدُ، فَنَزَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ حِينَ يُجَلِّسُ الرِّجَالَ بِيَدِهِ،.................

= **وهنا إشكال:** كيف قرأ آية المبايعة، مع أنها ما نزلت إلا مُتأخِّرةً بعد صلح الحديبية قطعًا؟ وهل كانت هذه المبايعة في يوم العقبة، أو في المدينة، أو حصلت مرَّتين، أو أن الرسول ﷺ بايعهم على هذا، ثم نزلت الآية مُقرِّرةً لذلك؟

نقول: إن المراد: إنه بايعهم على شيء نزل القرآن بموافقته، ويكون قوله: «**وَقَرَأَ آيَةَ النِّسَاءِ**» يعني: قرأها عبادة بن الصامت رَضِيَالِلَّهُعَنْهُ.

ولا مانع أيضًا أن نقول بتعدُّد القضية، وتكون البيعة وقعت مرَّتين، ويكون ذُكِرَ في البيعة الثانية الحدود بعد نزولها، على أن قول الرسول عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ في حديث عبادة: «عُوقِبَ بِهِ» يشمل العقوبة الدنيويَّة التي تكون على يد البشر كالتعزير والحدود، أو العقوبة الإلهيَّة التي يُنزلها من المرض، والفقر، وفَقْد الأموال، والأولاد، وما أشبه ذلك.

وهل كان هدي النبي ﷺ كلما أمر بأمر بايع عليه الصحابة؟

الجواب: لا، لكن هذه أحيانًا تَرِدُ لمناسباتٍ خاصَّة بها، وهذه المناسبات قضايا أعيان قد لا نعلم ما السبب الذي أعاد له البيعة، وأحيانًا -والله أعلم- قد يُعيد البيعة لحضور وفد، فيكون بيانًا لهذا الوفد، ولا تُذْكَر قصتهم.

ثُمَّ أَقْبَلَ يَشُقُّهُمْ حَتَّى أَتَى النِّسَاءَ مَعَ بِلَالٍ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنَ الآيَةِ كُلِّهَا، ثُمَّ قَالَ حِينَ فَرَغَ: «أَنْتُنَّ عَلَى ذَلِكَ؟» فَقَالَتِ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ لَمْ يُجِبْهُ غَيْرُهَا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ! لَا يَدْرِي الحَسَنُ مَنْ هِيَ؟ قَالَ: «فَتَصَدَّقْنَ»، وَبَسَطَ بِلَالٌ ثَوْبَهُ، فَجَعَلْنَ يُلْقِينَ الفَتَخَ وَالخَوَاتِيمَ فِي ثَوْبِ بِلَالٍ[1].

---

[١] في هذا الحديث دليل على فوائد، منها:

١- أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يُكرِّر صفة هذه المبايعة على النساء، كما في هذا الحديث.

٢- أن نساء الصحابة كرجال الصحابة، أشدُّ الناس مبادرةً في فعل الخير؛ لأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال لهن: «**تَصَدَّقْنَ؛ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ**»(١)، فجعلن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ يتصدَّقن، حتى إن المرأة تأخذ الفتخ من أصبعها والخواتم، وفي بعض الألفاظ: والخُرْص من أُذُنها(٢)، وتُلقيه في ثوب بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتصدَّقت بحُليِّها التي تتجمَّل به للزوج، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٣- جواز لبس الخواتم للنساء، وعلى هذا جمهور أهل العلم، وحكى بعضهم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان، رقم (٨٠) عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه مسلم في الموضع السابق، رقم (٧٩/ ١٣٢) (٨٠) عن ابن عمر وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة، رقم (١٤٣١)، ومسلم: كتاب صلاة العيدين، رقم (٨٨٤/ ٢).

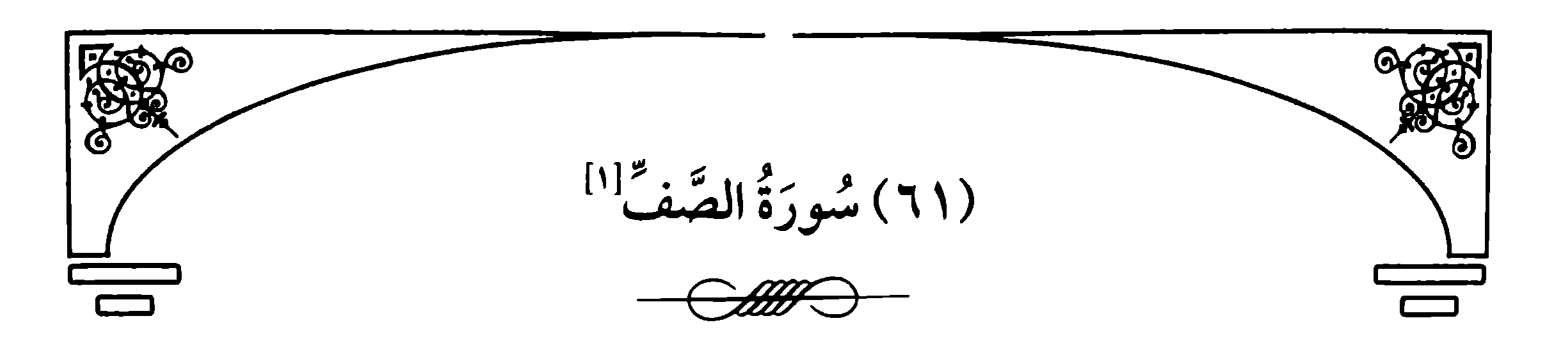
....

= الإجماع على جواز لبس الخواتم والأسورة ونحوها من الذهب للنساء، كما يجوز من الفضة.

وأمَّا الأحـاديث الواردة في ذلك[1] فأجـابوا عنها إمَّا بضعفـها، أو شذوذها، أو نسخها، أو تنزيلها على حال من الأحوال، كحال الضيق وعدم السعة، يُمْنَع النساء من الانهماك في التحلِّي بالخواتم والأسورة وشبهها، وإن كان هذا الجواب ضعيفًا؛ لأن هذا القول لا يَمْنَع من التحلِّي بالذهب المُرَصَّع ونحوه، فقول الجمهور رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ هو الحق، وهو الصواب، فيجوز للمرأة أن تلبس من الذهب ما شاءت، ما لم يخرج بها إلى حدِّ الإسراف، فإن خرج إلى حدِّ الإسراف فقد نهى الله عن الإسراف.



(١) منها: ما أخرجه أبو داود: كتاب الخاتم، باب ما جاء في الذهب للنساء، رقم (٤٢٣٦)، وأحمد (٢/ ٣٣٤).



(٦١) سُورَةُ الصَّفِّ[١]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مَنْ يَتَّبِعُنِي إِلَى اللهِ؟[٢]

---

[١] سُمِّيت سورة الصف بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

[٢] إنما فسَّر النصرة بالاتِّباع؛ لوجود حرف الجر «إلى» الذي يتعدَّى به الفعل: «يتَّبِعُني»، وهذا يُسَمَّى عند النحويين: باب التضمين، أي: أن يُضَمَّن الفعل معنى يتناسب مع حرف الجر.

وقدَّم البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آية متأخِّرة؛ لأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعتمد في تفسيره غالبًا على قول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومجاهد إمام التابعين في التفسير؛ لأنه أخذه عن عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ويُلاحَظ في تفسير البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمران:

الأول: أنه يأتي ببعض الآيات.

الثاني: أنه غير مُرَتَّب، والظاهر لي -والله أعلم- أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلما عَنَّ له شيء كَتَبَه، ولا أظنُّ أنَّ هذا من النُّسَّاخ، وأنهم هم الذين أَخْلَفوه؛ لأن النُّسَخ مُتَّفقة على ذلك.

أو نقول: إنه إذا ذكر قول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ -مثلًا- ذَكَرَه كلَّه على نسق واحد، ثم ذكر قول غيره، لكن يُشْكِل عليه أنه أحيانًا يأتي به من عنده، وتجده مختلفًا في الترتيب.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿مَّرْصُوصٌ﴾ مُلْصَقٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَقَالَ غَيْرُهُ: بِالرَّصَاصِ[1].

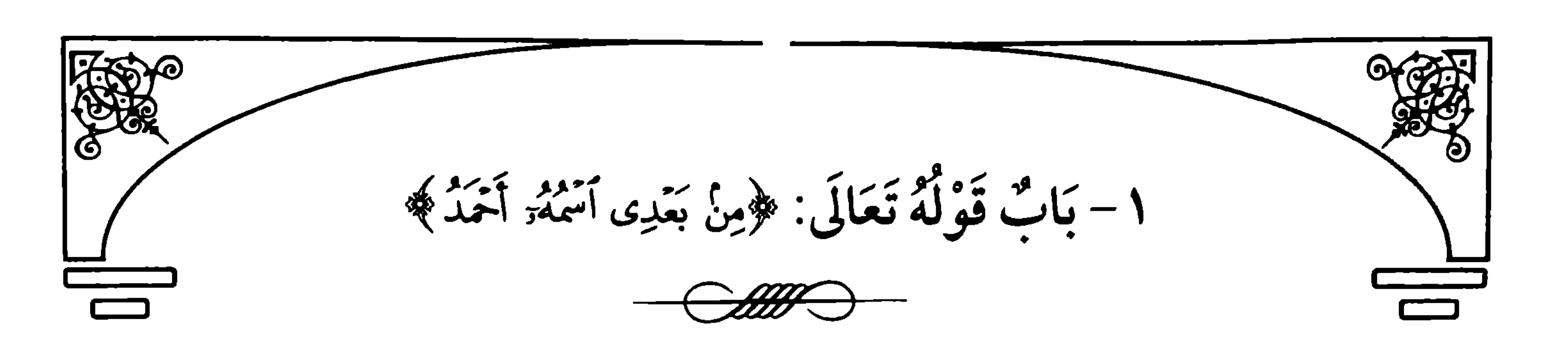
---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ فسَّره ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا بأنه مُلْصَق بعضه ببعض.

والتفسير الثاني لـ:﴿مَّرْصُوصٌ﴾ أي: مُرَصَّص بالرصاص؛ لأنه إذا رُصَّ بالرصاص صار هذا أشدَّ إحكامًا له، وعدم تفرُّق وتفلُّت.

ولو قيل بالمعنيين جميعًا صح؛ لأن القاعدة في التفسير: أنه إذا كانت الآية تحتمل المعنيين بدون منافاة فإنها تُحْمَل عليهما جميعًا.





١- بَابُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾

٤٨٩٦- حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ»[١].

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ هذه من بشارة عيسى ابن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ [الصف:٦].

والنصارى الذين يدَّعون أنهم أتباع المسيح اليوم يقولون: إن أحمد لم يأتِ بعد، والذي جاء هو مُحَمَّد، وليس أحمد، ونحن مُستعدُّون للإيمان بأحمد، وأمَّا مُحَمَّد فلم يُبشِّر به عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فما جوابنا لهم عن ذلك؟

الجواب: نقول لهم: أنتم تُؤمنون بالجملة الأولى من الآية؟ قالوا: نعم، نقول: الجملة الثانية تقول: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، فهو -إذن- قد جاءكم، فمن الذي جاء غير مُحَمَّد؟! وحينئذ يكون قد جاء، ومع ذلك كفرتُم، وقلتُم: هذا سحر مُبين، ولم تتَّبعوه، فإن آمنتم بأول الآية فآمِنُوا بآخرها، وإن كفرتم بأول الآية فقد كذَّبتُم عيسى ﷺ.

ثم إن عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد بشَّركم بهذا، ولا يُبَشِّركم بشيء لا ينفعكم، فإذن: لا تنتفعون إلا إذا آمنتم بهذا الرسول محمد ﷺ؛ لأنه بشارة عيسى، فاتَّبعوه.

....

= ونحن نُريد أن نردَّ عليهم من الآية نفسها، وإلا فالآيات الأخرى والأحاديث في هذا واضحة.

لكن هنا سؤال: كيف ألهم الله عَزَّوَجَلَّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يقول: أحمد، ولم يقل: محمد؟

نقول: لأن «أحمد» اسم تفضيل مصوغ من اسم الفاعل واسم المفعول، فهو أكثر الناس حمدًا لله، وهو أحق الناس أن يُحْمَد، فكان ذكره لـ: «أحمد» في مخاطبة بني إسرائيل أبلغ في الثناء من «محمد».

وهؤلاء المعاندون النصارى هم أشدُّ الناس عداوةً لنا في الوقت الحاضر، فهم مثل اليهود؛ لأن اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض، فإذا كان بعضهم أولياء بعض صاروا أعداءً لنا.

وأمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ فقد عُلِّلت: لماذا كانوا أقرب؟ فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة٨٢-٨٣]، وأين هذه الصفات في نصارى اليوم، وقبل ذلك بأزمنة؟! بل إنهم الآن لم يقتصروا على الاستكبار عن دين محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وعدم قبوله فقط، بل حاولوا بكل جهودهم أن يُنَصِّروا غيرهم ويُدْخِلُوهم في دين النصارى، وهذا شيء معلوم لا يخفى على أحد، فهؤلاء الذين يَسْعَون جهدهم في صدِّ المسلمين عن

....

= دينهم لا يُقال: إنهم أقرب الناس مودَّةً للذين آمنوا، بل بالعكس، فهم يحملون العداوة والضغينة العظيمة، ولن ينسوا أبدًا الحروب الصليبيَّة التي ردَّتهم على أعقابهم.

وإذا سَبَرَ الإنسان أحوال العالم وجد أن جميع أهل الملل من نصارى ويهود وبوذيين ومُلحدين زنادقة وغيرهم كلهم أعداء للإسلام؛ لأنهم يعلمون أن هذا الإسلام لو استقام لفلَّ جموعهم، وأسقط عروشهم، فهم يُريدون من الإسلام أن يكون أهله هكذا، أمَّا هو فلو قام فواللهِ لتُفْتَحَنَّ البلاد كلُّها.

لكن مع الأسف الشديد أن المسلمين الآن لا يُمَثِّلون الإسلام كما ينبغي، ولقد كلَّمني رجل من بلاد أمريكا، يقول: إنهم يتَّفقون مع الإنسان على أن يُؤْجِرُوه البيت أو الشقة لمدة سنة، ولا يقبلون أقلَّ من سنة، ثم يتم العقد معهم على هذا، فإذا طرأ للإنسان أن يذهب لانتهاء دراسته أو لإلغاء دراسته أو ما أشبه ذلك ذهب، ولم يُعْطِهم بقية الأجرة، وهذا في الحقيقة لا يُسيء إلى نفسه هو أو إلى دولته هو، بل إلى الإسلام أيضًا، ويُقال: انظروا المسلمين، لا يُوفون بالعهد، ولا يُراعون حقوقًا، مع أن هذا واجب عليه ما دام قد دخل معهم على هذا العقد، ولو لم يسكن إلا شهرًا واحدًا.

والذي ناقشني في هذا قال: إنهم يقولون: إن مال الكفار حلال! فيُقال: نعم، مال الكفار حلال إذا صادمناهم وحاربناهم، أمَّا مع العهود فليس حلالًا، بل يجب أن نَفِي لهم بعهودهم.

ولهذا -مع الأسف الشديد- صار المسلمون اليوم لا يُمَثِّلون الإسلام في أخلاقه، وآدابه، ومعاملاته، ووفائه، وصدقه، بل على العكس.

....

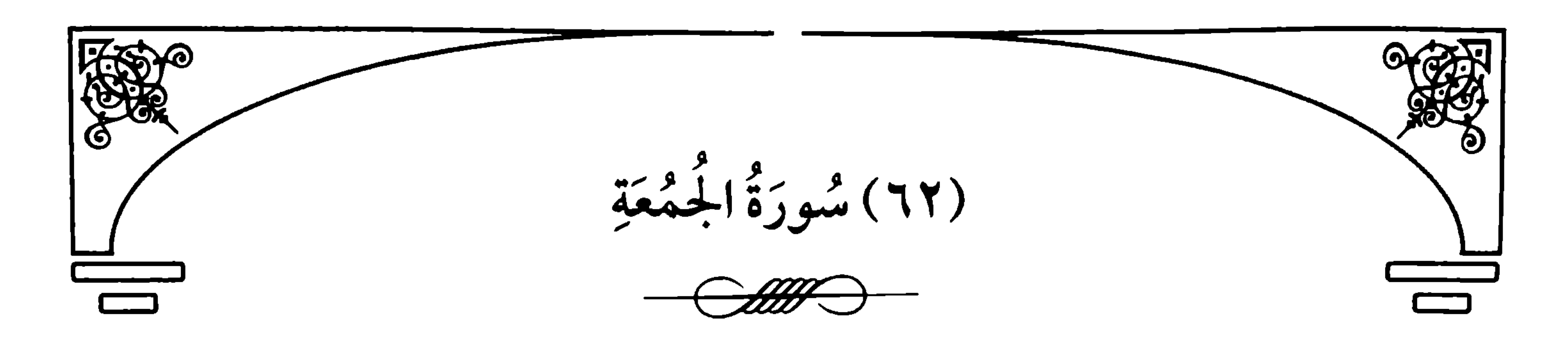
= وما يُسَمَّى عند الناس بالتضحيات في الأموال والأنفس غير موجود في المسلمين، بينما هو موجود عند الكفار، وليس عند الكفار فقط، بل عند مَن ينتسب إلى الإسلام وهو على ضلال، تجده يبذل الغالي والنفيس من أجل إعزاز ما هو عليه من البدعة والضلال، فتجد الواحد منهم يُدافع عن مبدئه البدعي كأنما يُمَثِّل الأسرة كلَّها، أمَّا نحن فالواحد منَّا لا يمشي إلا لنفسه، وليته يمشي للمصلحة المعنوية، بل للمصلحة المادِّيَّة، هذا في الغالب، والله المستعان.

وقوله ﷺ: «وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي» أي: على أثري، سواء في الآخرة، أو في الدنيا، بمعنى: أنهم يُحْشَرون على سُنَّته، أي: يُجازَون بها؛ لأنه هو خاتم الأنبياء، فالناس يُحْشَرون على اتِّباعه، فإن اتَّبعوه نَجَوا، وإلا هلكوا.

وقوله: «وَأَنَا العَاقِبُ» أي: الذي عَقَبَ الأنبياء، ولم يكن بعده أحد.

وللنبي ﷺ أسماء كثيرة، لكنه لا يذكر كل شيء في مقام واحد.





(٦٢) سُورَةُ الجُمُعَةِ

١ - قَوْلُهُ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾[١]

وَقَرَأَ عُمَرُ: فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ.

---

[١] لم يُفَسِّر المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الآية، وكأنه -والله أعلم- لم يصل إليه تفسير يجزم بصحته، أو يكون على شرطه، لكن فمَن المراد بهم؟

نقول: قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، قال بعضهم: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ أي: من الأُمِّيين ممَّن لم يأتوا بعد، وهذا يشمل مَن جاء إلى يوم القيامة.

وقال آخرون: بل هم الأجناس الأُخرى من غير العرب كالعجم، ولهذا قال: ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾، أي: لم يلحقوا، ولكنهم سيلحقون، وقد صار من العجم أئمَّة في الإسلام، كصاحب هذا الكتاب الذي أجمع المسلمون على أنه أصحُّ كتاب بعد كتاب الله، وصار في هذا الرجل الأعجمي من حفظ سُنَّة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما لم يكن في كثير من العرب.

وهذا الوصف ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ وُصِفَت به هذه الأمة؛ لأنهم كانوا قبل الإسلام يندر منهم مَن يقرأ أو يكتب، أمَّا بعد أن جاء الإسلام فإنهم صاروا هم أهل العلم.

٤٨٩٧- حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: حَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ، عَنْ ثَوْرٍ، عَنْ أَبِي الغَيْثِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الجُمُعَةِ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَلَمْ يُرَاجِعْهُ حَتَّى سَأَلَ ثَلَاثًا، وَفِينَا سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ، وَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ، ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ أَوْ رَجُلٌ مِنْ هَؤُلَاءِ».

٤٨٩٨- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ: حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ: أَخْبَرَنِي ثَوْرٌ، عَنْ أَبِي الغَيْثِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلَاءِ»[١].

---

[١] هذا يُشير إلى أن المراد بهم: مَن سوى الأُميين، وهذا هو الواقع، فإن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بُعِثَ في الأُمِّيين وفي غيرهم أيضًا؛ لأنه أُرسل إلى الناس كافَّةً.

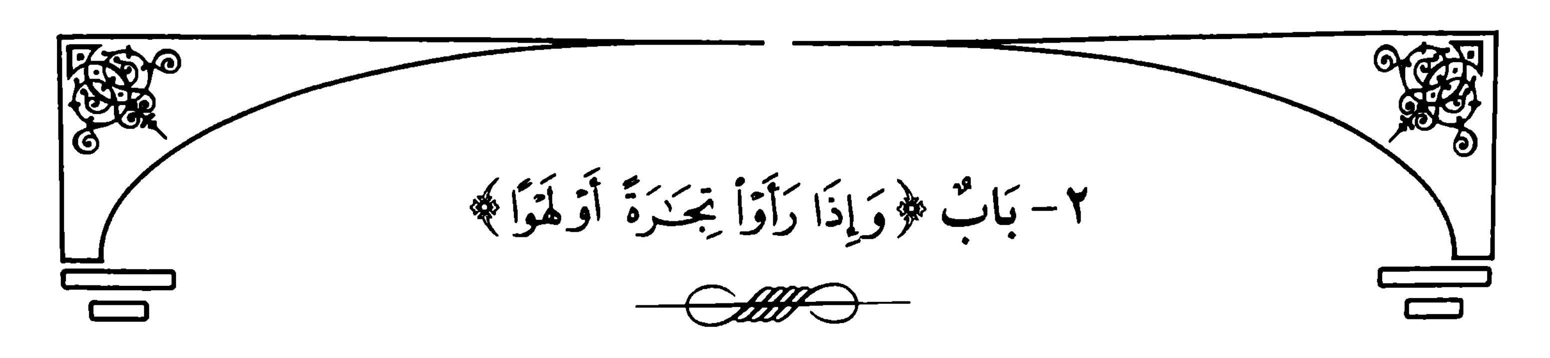
فإن قال قائل: وكيف نُوَجِّه كلمة «من» في قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾؛ لأن الضمير يعود على الأميين؟

قلنا: هذه البعضية قد يُراد بها الجنس، وهم البشر.

وقوله: «لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ أَوْ رَجُلٌ مِنْ هَؤُلَاءِ» أي: أن هؤلاء القوم -الذين هم فارس- سيأخذون بالإسلام ولو كان بعيدًا، وهذا ثناء عليهم.

وقوله: «رِجَالٌ أَوْ رَجُلٌ» في السياق الأخير جزم بأنهم «رِجَالٌ»، وهذا يدلُّ على أنهم قلَّة؛ إذ إن أكثر مَن حمل لواء الإسلام هم العرب.





٢- بَابٌ ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾

٤٨٩٩- حَدَّثَنِي حَفْصُ بْنُ عُمَرَ: حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: حَدَّثَنَا حُصَيْنٌ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الجَعْدِ، وَعَنْ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَقْبَلَتْ عِيرٌ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَنَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَثَارَ النَّاسُ إِلَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾[1].

---

[١] في هذه القصة من الفوائد:

١- بيان قصور الإنسان، وأن الإنسان مهما بلغ في المنزلة عند الله عَزَّوَجَلَّ فإنه لابُدَّ من أن يقع في أمر قاصر أو يُقصِّر.

٢- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُقِرُّ أحدًا على خطإ أبدًا، لا النبي ﷺ، ولا الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولا المنافقين، فأمَّا النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس:١-٢]، وقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١]، وقال له: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧]، وهذا من أشدِّ ما قال، ومن أعظم ما يكون من العتاب.

وأمَّا في المؤمنين فهذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾، وهذا غير لائق أن يخرجوا ونبيهم ﷺ قائم يخطب، يَعِظُهم ويُذَكِّرهم بالله عَزَّوَجَلَّ،

....

= ثم يخرجون من أجل متاع الدنيا، ولهذا قال: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

وأمَّا في المنافقين فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء:١٠٨].

وهذا يدلُّ على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُقِرُّ أحدًا على خطإ إطلاقًا، وبه نعرف صحة الاستدلال على جواز الشيء أو مشروعيته إذا فُعِلَ في عهد النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإن لم يعلم به النبي ﷺ؛ لأنه إن علم به فوجهه ظاهر؛ لأنه يكون من باب السُّنَّة التقريريَّة، لكن إذا لم يعلم فنقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ علمه، ولو كان ممَّا لا يرضاه الله لبيَّنه.

وبهذا نعرف أن ما فُعِلَ في عهد النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من عبادة وأُقِرَّ فهو عبادة وسُنَّة، وما فُعِلَ من عادة وأُقِرَّ فهو جائز، وليس بحرام.

وهنا مسألة: ما أقل عدد تُقام به الجمعة؟

الجواب: اختلف أهل العلماء في هذا على أقوال:

القول الأول: أنها تنعقد باثني عشر رجلًا.

القول الثاني: أنها تنعقد بأربعين؛ لأن أول جمعة جُمِّعت في المدينة كانت في حرَّة بني بَيَاضة، قيل للراوي: كم كنتم؟ قال: كنَّا أربعين[1]، لكن هذا لا يدلُّ على أنه شرط.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب الجمعة في القرى، رقم (١٠٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب في فرض الجمعة، رقم (١٠٨٢).

....

القول الثالث: أن ما تنعقد به الجماعة تنعقد به الجمعة، فتُقام باثنين فيهم الإمام، أي: إمام ومأموم، وهؤلاء -في ظنِّي- أنهم لا يشترطون الاستيطان، ولا القرية، فلو كانوا مسافرين في البر يُقيمون الجمعة، لكن هذا قول شاذ لا عمل عليه، وهو خلاف النص.

القول الرابع: ثلاثة رجال، وهو مذهب الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]؛ لأن الثلاثة تحصل بهم الجماعة، ولظاهر الآية الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩]، قالوا: فهنا مُنادٍ، وإمام، ومدعوٌّ مُنادَى، ولأنه ورد حديث: «**مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ**»[2]، وهذا الحديث فيه نظر.

وأصح هذه الأقوال أنها تنعقد بثلاثة رجال فيهم الإمامُ، وهذا غالبًا لا يتأتَّى في البلاد الإسلامية؛ لأنه قلَّ أن تُوجَد قرية ما فيها إلا ثلاثة رجال، لكن هذا يُوجَد في بلاد الكفر، فلو فرضنا أن ثلاثة رجال من المسلمين قد سكنوا في بلد فإنه تجب عليهم الجمعة على القول بأن الثلاثة هم العدد الكافي، أو إذا كانوا اثني عشر على القول بأنه اثنا عشر، أو أربعين على القول بأنهم أربعون.

وليُعْلَم أنه لابُدَّ أن يكون هؤلاء القوم من المستوطنين، وعلى هذا فلو اجتمع في مكان ما من بلاد الكفر جماعة يدرسون، وسيبقون عشر سنوات أو عشرين سنةً

---

(١) الدر المختار بحاشية ابن عابدين (١/ ٥٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب في التشديد في ترك الجماعة، رقم (٥٤٧)، والنسائي: كتاب الإمامة، باب التشديد في ترك الجماعة، رقم (٨٤٨)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، وليس في لفظ واحد منهم: «تقام فيهم الجمعة».

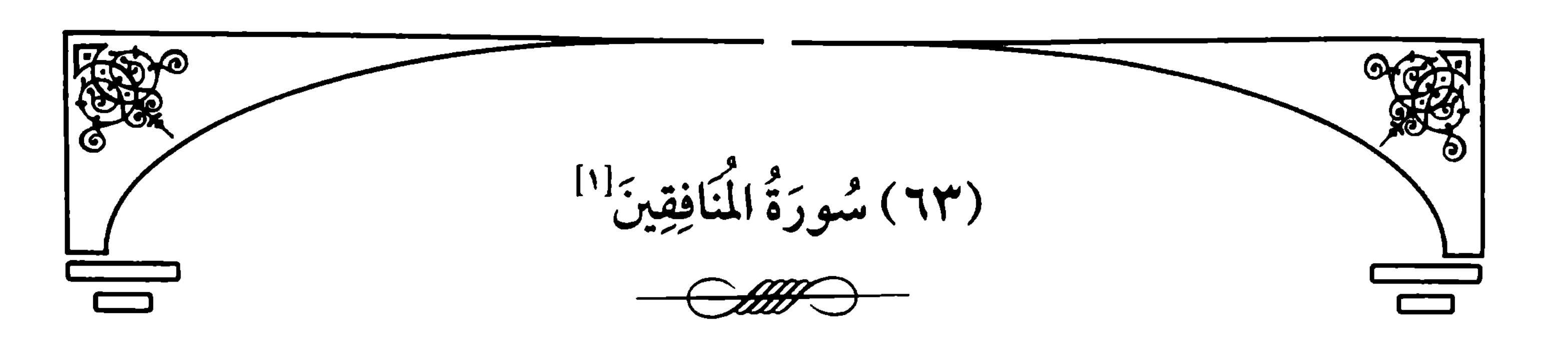
....

= أو أكثر أو أقل فإنهم لا يُقيمون الجمعة حتى على المذهب وعلى مذهب الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من المذاهب الفقهية؛ لأنه يُشْتَرط لإقامة الجمعة: أن يكون المقيم مستوطنًا[1]، وهؤلاء ليسوا بمستوطنين.

لكن ممَّا نسمع من الشباب الذين هناك أنهم يُصَلُّون الجمعة ولو كانوا غير مستوطنين، نعم، إن كان فيهم ثلاثة مستوطنون فالأمر واضح؛ لأنه إذا أُقيمت الجمعة لزمتهم بغيرهم، والصحيح عندي: أنها إذا أُقيمت الجمعة تلزمهم بأنفسهم، وأنه يصحُّ أن يكونوا أئمَّةً فيها ولو كانوا غير مستوطنين.



(١) نهاية المحتاج (٢/ ٤٥)، منتهى الإرادات مع شرح البهوتي (٢/ ١٢).

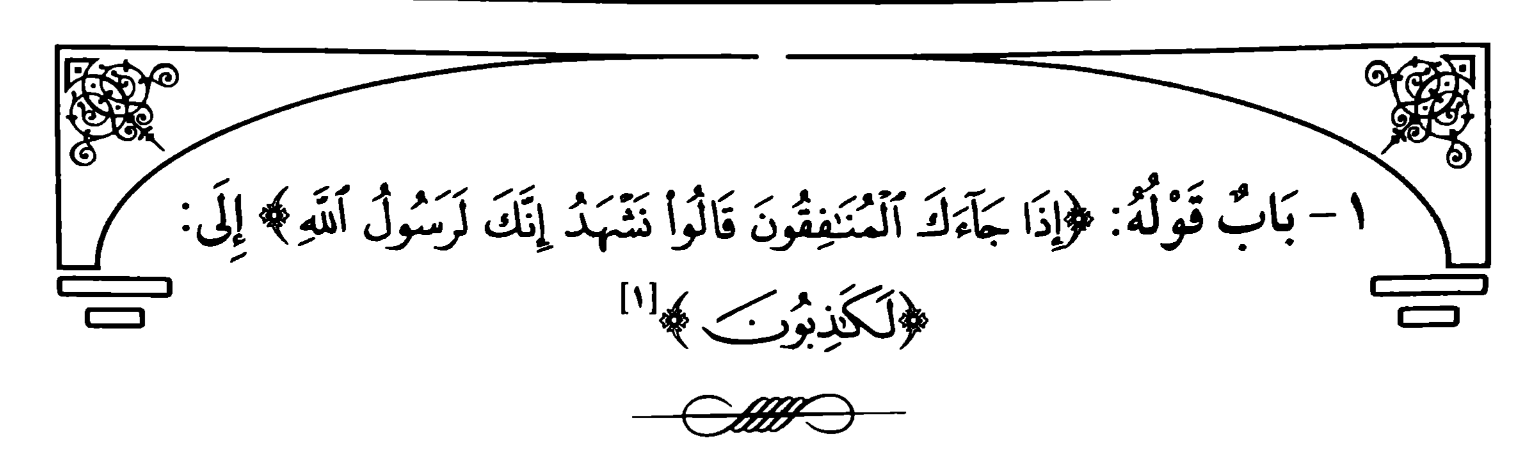


(٦٣) سُورَةُ المُنَافِقِينَ[١]

[١] قال العلماء: المنافق هو الذي يُظهر الخير ويُبطن الشر، وهذا بالمعنى العام، وأمَّا بالمعنى الخاص فالمنافق هو الذي يُظْهِر الإسلام، ويُبْطن الكفر.

والمنافقون بزغ نجمهم بعد غزوة بدر، حين ظهر النبي ﷺ على أعدائه، وقتل صناديد قريش، فبزغ نجم النفاق، وإلا فكان لا يُعْرَف في المدينة؛ لأن المنافقين إنما يَظْهَرون إذا قوي الإسلام؛ لأنهم يخافون منه، فيُظْهِرُون أنهم مسلمون، وهم في الباطن كفار، وهم أشدُّ عداوةً للإسلام والمسلمين، وأشدُّ ضراوةً، وأشدُّ خطرًا ممَّن كفر وأعلن كُفْرَه، ولهذا قال الله تعالى في هذه السورة: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.





١- بَابُ قَوْلُهُ: ﴿إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إِلَى: ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾[١]

٤٩٠٠- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ رَجَاءٍ: حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَالَ: كُنْتُ فِي غَزَاةٍ، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ، وَلَئِنْ رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِهِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي أَوْ لِعُمَرَ، فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَدَعَانِي، فَحَدَّثْتُهُ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَصَدَّقَهُ، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ، فَجَلَسْتُ فِي البَيْتِ، فَقَالَ لِي عَمِّي: مَا أَرَدْتَ إِلَى أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَمَقَتَكَ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾،..............................

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ﴾ هذا جواب الشرط: ﴿إِذَا جَاءَكَ﴾.

وقوله: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ يقولون ذلك بألسنتهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، ولو لم يقل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ لأوهم قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أن المراد: لكاذبون في أنك رسول الله، ولهذا جاءت الآية فيها احتراز مُقدَّم على الحكم عليه، فعُلِمَ بهذا أن قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: في قولهم: نشهد، لا في قولهم: إنه رسول الله؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أثبت ذلك، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾.

فَبَعَثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَرَأَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ»[١].

---

[١] قوله: «حَتَّى يَنْفَضُّوا» أي: يتفرَّقوا عنه، و«حتى» هنا للتعليل، أي: لأجل أن ينفضُّوا، وليست للغاية؛ لأنها لو كانت للغاية لفسد المعنى، فهؤلاء المنافقون يقول بعضهم لبعض: لا تُنفقوا على مَن عند رسول الله؛ لأنكم إذا تركتم الإنفاق عليهم انفضُّوا عن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقال الله عَزَّوَجَلَّ مُكذِّبًا ما زعموا: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾، فالخزائن عند الله، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المُنْفِق المانع للإنفاق، وليست خزائن الرزق عندكم حتى إذا منعتموها عن أصحاب الرسول ﷺ ماتوا جوعًا، فانفضُّوا عنه.

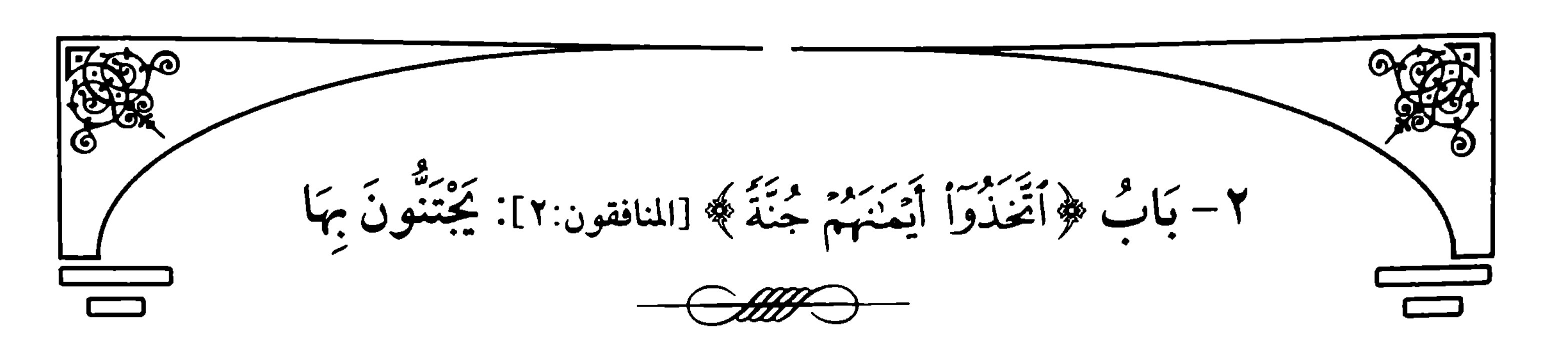
ثم قال: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، ويعنون بالأعزِّ: أنفسهم، ويعنون بالأذل: رسولَ الله ﷺ ومَن معه، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ولو شاء النبي ﷺ لقتلَهم، ولأخرجهم، لكنه ﷺ أراد أن يُعامل الناس بظاهر أحوالهم، حتى لا يتجرَّأ مُتجرِّئ بعده على قتال مَن ادَّعى عليه أنه منافق، فقال ﷺ: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»(١)، وإلا فلو شاء لأخرجهم من المدينة؛ لأنه هو الأعزُّ، وهم الأذلَّاء.

وفي هذا دليل على فوائد، منها: أن إبلاغ قول الزور إلى ولي الأمر لا يُعَدُّ غيبةً، فإن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبلغ ذلك رسول الله -صلَّى الله عليهِ وعلى آلهِ وسلَّم، ولم ينْهَه الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، رقم (٤٩٠٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، رقم (٢٥٨٤/ ٦٣).

(٢) من هنا إلى الحديث رقم (٤٩٠٧)، لا يوجد تسجيل صوتي له.

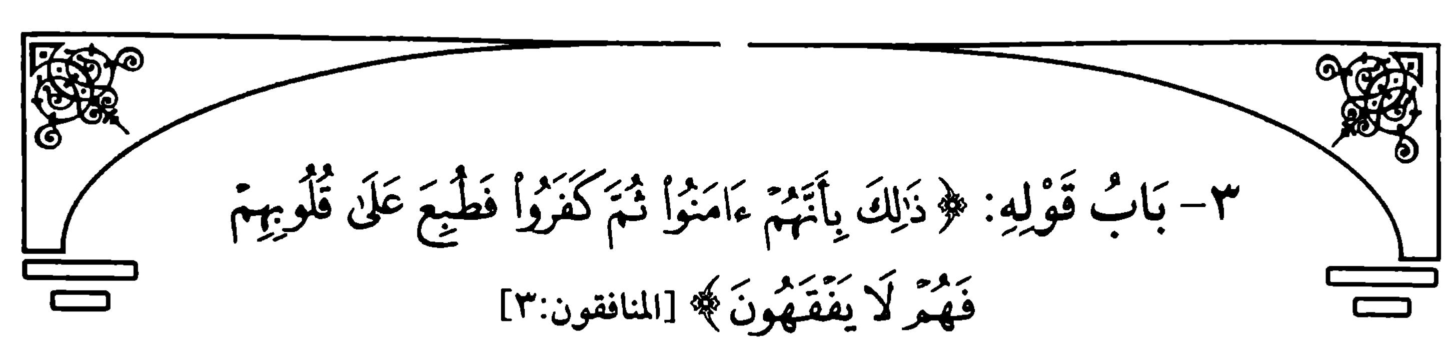


٢- بَابُ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون:٢]: يَجْتَنُّونَ بِهَا

٤٩٠١- حَدَّثَنَا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَمِّي، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا، وَقَالَ أَيْضًا: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي، فَذَكَرَ عَمِّي لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَصَدَّقَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَذَّبَنِي، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ، فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ [المنافقون:١] إِلَى قَوْلِهِ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:٧] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨] فَأَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَرَأَهَا عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ»(١).

---

(١) سبق التعليق عليه؛ كتاب التفسير، باب قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى ﴿لَكَـٰذِبُونَ﴾، رقم (٤٩٠٠).

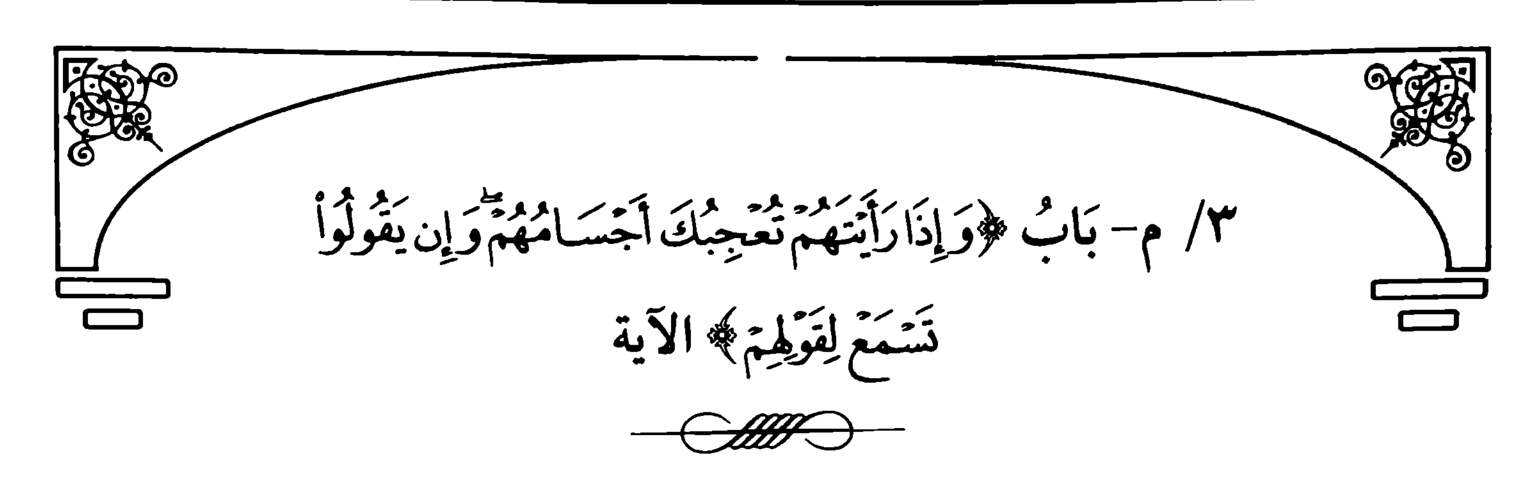


٣- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٣]

٤٩٠٢ - حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنِ الحَكَمِ، قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ القُرَظِيَّ، قَالَ: سَمِعْتُ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ، وَقَالَ أَيْضًا: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ، أَخْبَرْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَلَامَنِي الأَنْصَارُ، وَحَلَفَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ مَا قَالَ ذَلِكَ، فَرَجَعْتُ إِلَى المَنْزِلِ فَنِمْتُ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ، وَنَزَلَ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟﴾ [المنافقون:٧] الآيَةَ» وَقَالَ ابْنُ أَبِي زَائِدَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ عَمْرٍو، عَنِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ زَيْدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ[1].

---

(١) سبق التعليق عليه؛ كتاب التفسير، باب قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾، رقم (٤٩٠٠).

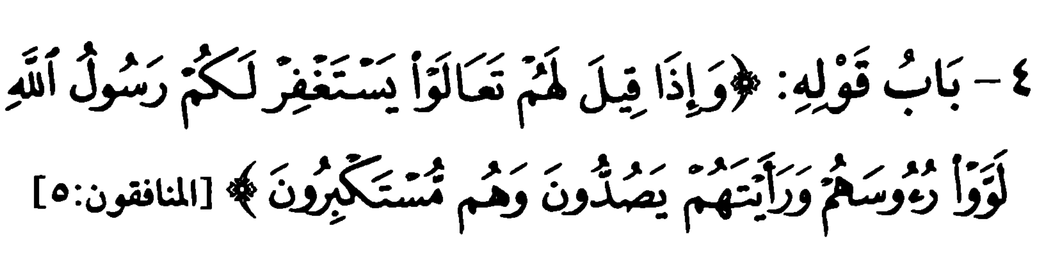


٣/ م- بَابُ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ الآية

٤٩٠٣- حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ لِأَصْحَابِهِ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ، وَقَالَ: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ فَسَأَلَهُ، فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ مَا فَعَلَ، قَالُوا: كَذَبَ زَيْدٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِمَّا قَالُوا شِدَّةٌ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ تَصْدِيقِي فِي: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ [المنافقون:١] فَدَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، فَلَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَقَوْلُهُ: ﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون:٤] قَالَ: كَانُوا رِجَالًا أَجْمَلَ شَيْءٍ(١).

---

(١) سبق التعليق عليه؛ كتاب التفسير، باب قوله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ إلى ﴿لَكَاذِبُونَ﴾، رقم (٤٩٠٠).



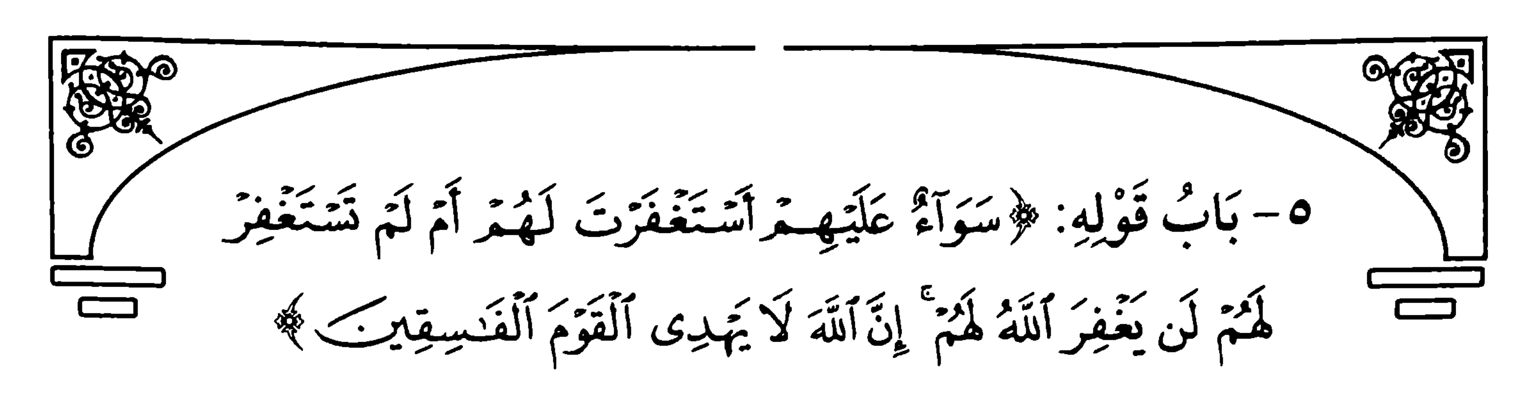
٤- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون:٥]

حَرَّكُوا، اسْتَهْزَءُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ وَيُقْرَأُ بِالتَّخْفِيفِ مِنْ لَوَيْتُ.

٤٩٠٤- حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَمِّي فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ، يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا، وَلَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي، فَذَكَرَ عَمِّي لِلنَّبِيِّ ﷺ فَدَعَانِي فَحَدَّثْتُهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، وَكَذَّبَنِي النَّبِيُّ ﷺ وَصَدَّقَهُمْ، فَأَصَابَنِي غَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ، فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي، وَقَالَ عَمِّي: مَا أَرَدْتَ إِلَى أَنْ كَذَّبَكَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَقَتَكَ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١] وَأَرْسَلَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَرَأَهَا، وَقَالَ: «إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ»(١).

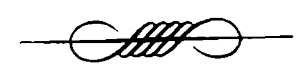


(١) سبق التعليق عليه؛ كتاب التفسير، باب قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾، رقم (٤٩٠٠).



٥- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾

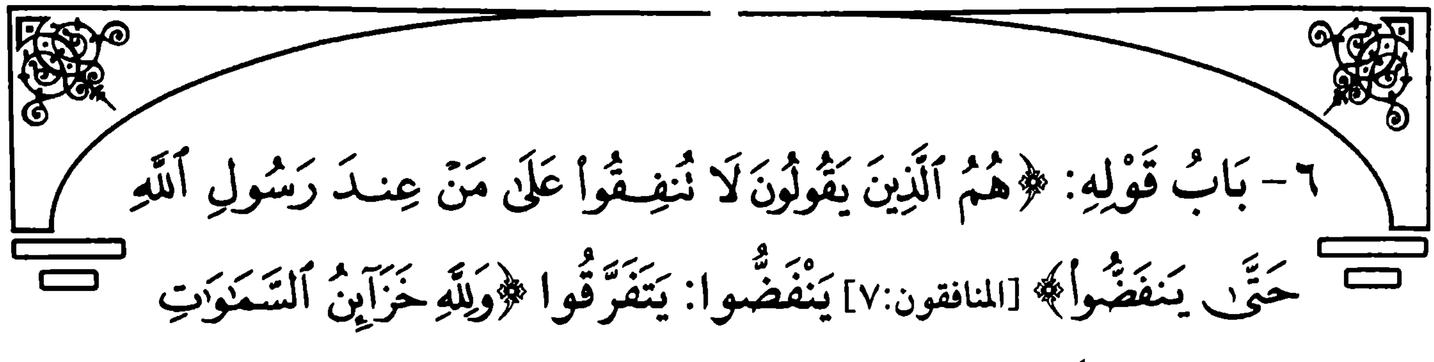
[المنافقون:٦]



٤٩٠٥- حَدَّثَنَا عَلِيٌّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ عَمْرٌو: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ -قَالَ سُفْيَانُ: مَرَّةً فِي جَيْشٍ- فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ» فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَقَالَ: فَعَلُوهَا، أَمَا وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعْهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» وَكَانَتِ الأَنْصَارُ أَكْثَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، ثُمَّ إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ كَثُرُوا بَعْدُ، قَالَ سُفْيَانُ: فَحَفِظْتُهُ مِنْ عَمْرٍو، قَالَ عَمْرٌو: سَمِعْتُ جَابِرًا: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ[1].

---

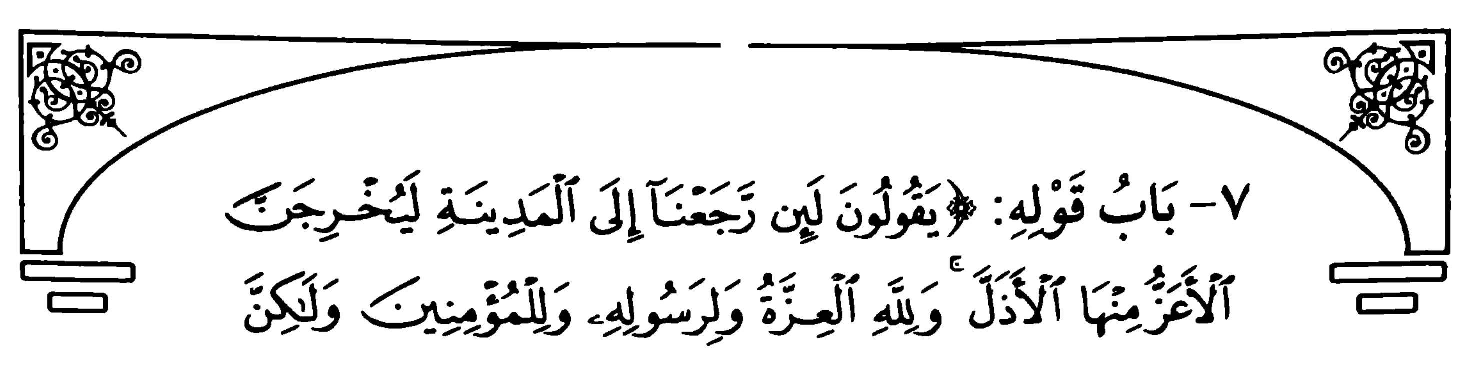
(١) سبق التعليق عليه؛ كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية، رقم (٣٥١٨).



٦- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون:٧] يَنْفَضُّوا: يَتَفَرَّقُوا ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٧]

٤٩٠٦- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، قَالَ حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ الفَضْلِ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ: حَزِنْتُ عَلَى مَنْ أُصِيبَ بِالحَرَّةِ، فَكَتَبَ إِلَيَّ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ، وَبَلَغَهُ شِدَّةُ حُزْنِي، يَذْكُرُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلأَنْصَارِ، وَلِأَبْنَاءِ الأَنْصَارِ» وَشَكَّ ابْنُ الفَضْلِ فِي: «أَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ» فَسَأَلَ أَنَسًا بَعْضُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ، فَقَالَ: هُوَ الَّذِي يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا الَّذِي أَوْفَى اللهُ لَهُ بِأُذُنِهِ».





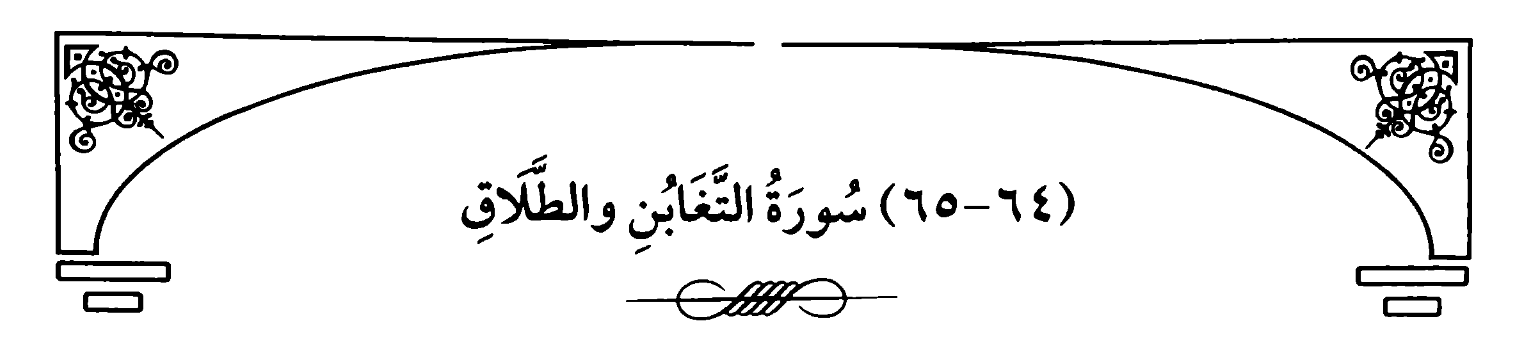
٧- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨]

٤٩٠٧- حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: حَفِظْنَاهُ مِنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمَّعَهَا اللهُ رَسُولَهُ ﷺ قَالَ: «مَا هَذَا؟» فَقَالُوا كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ» قَالَ جَابِرٌ: وَكَانَتِ الأَنْصَارُ حِينَ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَ، ثُمَّ كَثُرَ المُهَاجِرُونَ بَعْدُ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ: أَوَقَدْ فَعَلُوا، وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[1].



---

(١) سبق التعليق عليه؛ كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية، رقم (٣٥١٨).



(٦٤-٦٥) سُورَةُ التَّغَابُنِ والطَّلَاقِ

وَقَالَ عَلْقَمَةُ: عَنْ عَبْدِ الله، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]: «هُوَ الَّذِي إِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ رَضِيَ وَعَرَفَ أَنَّهَا مِنَ الله» وَقَالَ مُجَاهِدٌ: التَّغَابُنُ: غَبْنُ أَهْلِ الجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ [الطلاق:٤]: إِنْ لَمْ تَعْلَمُوا: أَتَحِيضُ أَمْ لَا تَحِيضُ فَاللَّائِي قَعَدْنَ عَنِ المَحِيضِ، وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ بَعْدُ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ. ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾: جَزَاءَ أَمْرِهَا.

١- باب

٤٩٠٨- حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَالِمٌ، أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، فَذَكَرَ عُمَرُ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَتَغَيَّظَ فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «لِيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ يُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ، فَتَطْهُرَ، فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا، فَتِلْكَ العِدَّةُ كَمَا أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»[1].

---

[١] إذا قال قائل: هل يقع الطلاق في حال الحيض؟

فالجواب: جمهور العلماء على أنه يقع، ومنهم الأئمة الأربعة(١).

---

(١) حاشية ابن عابدين (٢/ ٤١٩)، الشرح الصغير (٢/ ٥٣٨)، نهاية المحتاج (٦/ ١٠٩)، منتهى الإرادات بشرح البهوتي (٥/ ٣٧٤).

....

وقال بعض العلماء: إنه لا يقع، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، ولم يقل: فاتَّبعوا الأكثر، وقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقرب إلى الصواب بلا شَكٍّ، ويدلُّ على أنه لم يقع في حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا:

أولًا: قوله: «**فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا**» يعني: الطَّلقة التي طلَّقها وراجعها فيها.

ثانيًا: ما الذي يستفيده المُطَلِّق إذا قلنا: رَاجِعْهَا، بعد أن طلَّقها وهي حائض؟ فإذا قلنا: إن الطلقة وقعت فإن المحذور لا يرتفع بإرجاعها، بل زدنا الطين بلَّةً؛ لأن معنى هذا: أنه يردُّها، فيُطَلِّقها ثانيةً، فيقع عليها طلقتان، فيكون هذا فيه ضرر على الزوج.

ثالثًا: أننا إذا فرضنا أنه لم يَبْقَ له إلا طلقة واحدة، وأن الطلقة الثانية هي التي وقعت في الحيض، فمعنى ذلك: أننا أمرناه أن يُراجعها من أجل أن نُبينها منه، وإن كان العلماء لا يُوجِبون أن يُطَلِّقها إذا طهرت؛ لأن اللام في قوله ﷺ: «**فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا**» للإباحة؛ لأنها في مقابلة المنع، ولهذا قال: «**فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا**»، أو يُقال: إن الوجوب في قوله: «**فَلْيُطَلِّقْهَا**» عائد على قوله: «**طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا**»، فيعود الأمر على وصف المرأة.

رابعًا: أن قوَّة الخطاب: «**لِيُرَاجِعْهَا**» تقتضي أنه ولو كانت هذه هي الطَّلقة الثالثة؛ لأن الرسول صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم لم يستفصل، وإذا كانت الثالثة وقلنا بالوقوع فإنه لا يُمكن أن يُراجعها.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٣/ ١٠١).

....

خامسًا: أنه طلاق منهي عنه، وقد قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1]، فإذا كان الرجل لو تزوَّج على غير الوجه الشرعي لم ينعقد نكاحه، فكذلك إذا طلَّق على غير الوجه الشرعي لم يقع طلاقه من باب أَوْلَى؛ لأن الطلاق ممَّا لا ينبغي، والشرع لا يُحِبُّه، ولولا خوف المشقة على الناس لمنع الطلاق.

لكن ما دليل مَن قال بوقوع الطلاق في الحيض؟

الجواب: يقولون: إنه قال: «لِيُرَاجِعْهَا»، والمراجعة لا تكون إلا بعد وقوع الطلاق، ولهذا من تعبيرات العلماء: باب الرجعة، وهي إعادة المُطَلَّقة، فلا تكون المراجعة إلا بعد طلاق.

والجواب عن ذلك أن نقول: إن المراجعة في لسان الشارع غير المراجعة في اصطلاح الفقهاء، فالمراجعة في اصطلاح الفقهاء: إعادة المُطَلَّقة، لكن المراجعة في لسان الشارع: مُطْلَق الرجوع إلى الزوج، سواء كان بالمعنى الاصطلاحي، أو بغيره، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ يعني: الزوج، طلَّقها الطلاق الثالث ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي: الزوج الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ [البقرة:٢٣٠] أي: الزوج الأول والمرأة، فسمَّى الله التراجع: رجعةً، مع أنه عقد نكاح جديد، وليس مراجعةً عند الفقهاء، ولكن المراجعة عندهم: أن يُراجعها وهي في العدَّة بدون عقد.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨) (١٨)، وأخرجه بمعناه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧).

....

وبهذا نعرف أن القول الصواب هو ما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: أن الطلاق في الحيض لا يقع.

فإن قال قائل: الطلاق في عهد الرسول ﷺ هل لم يقع إلا مرَّةً واحدةً من ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أو وقع كثيرًا؟

قلنا: الظاهر أنه وقع كثيرًا، وأن هناك نساءً كثيراتٍ طُلِّقن في عهد الرسول ﷺ.

فإذا قال: لماذا لم يستفصل الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

نقول: لأن الأصل أن الصحابة لا يُطَلِّقون إلا على رسم الشرع، أي: لا يُطَلِّقون إلا كما قال تعالى: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾، والاحتمال المُقَدَّر لا يُدْفَع به النص الصريح.

فإن قال قائل: لو أن المرأة هي التي طلبت الطلاق، فهل يجوز أن يُطَلِّقها؟

فالجواب: قال بعض العلماء: إنه يجوز؛ لأن الله تعالى إنما أمر بالطلاق للعدَّة لحق المرأة؛ لئلا تطول عليها العدة؛ لأنه إذا طلَّقها وهي حائض ولم نعتبر بقية هذه الحيضة زادت عليها العدَّة، فحرَّم الله عَزَّ وَجَلَّ ذلك من أجل حقِّها، فإذا طلبت هي ذلك فإنه جائز، وهذا هو المشهور من مذهب الحنابلة[1].

وقال بعض العلماء: إنه لا يجوز؛ لأننا لا ندري: أذلك لحق الله، أم لحقها هي، أم لحق الزوج، ويكون سفيهًا؟ لكن كيف يكون لحق الزوج؟

الجواب: لأن الإنسان إذا كانت امرأته حائضًا فإنه لا يتمتَّع بها التمتع التام، بل يمتنع عليه الجماع، فرُبَّما في هذه الحال التي لا يتمكَّن من الاستمتاع بها على الكمال يكون

---

(١) منتهى الإرادات بشرح البهوتي (٥/ ٣٨١).

....

تضيق نفسه بها، فيُطَلِّقها، ورُبَّما يراها في هذه الحال على حال تكرهها نفسُه، فيُطَلِّقها، فلهذا مُنِعَ من أن يُطَلِّقها في حال الحيض لحقِّه هو، لا لحقِّها هي.

والقول الراجح: أنه لا يجوز أن يُطَلِّقها وهي حائض ولو بطلبها، لكن لو أنها طلبت الخلع فهل يجوز؟

الجواب: نعم، يجوز؛ لأن الخلع ليس بطلاق، بل هو فداء؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٢٩].

وهنا مسألة: إذا جاءك رجل يقول: اكتب طلاق امرأتي، فهل يلزمك أن تقول له: أحائض هي، أم طاهر؟ أو نقول: إنه لا يلزم السؤال عن المانع، كما أن المستفتَى لا يلزمه السؤال عن وجود المانع، وإنما يسأل عن الشروط إذا اقتضت الحال ذلك؟

نقول في الجواب: إنه في هذه الحال عندما يقول: اكتب طلاق امرأتي يسأله؛ لأن الجهل عند الناس كثير، فإذا قال: امرأتي حائض، ولم يلفظ بالطلاق بعدُ، فإنه يقول له: لا تُطَلِّقها، وانتظر إلى أن تطهر.

لكن إذا قال: إني قد طلَّقتها، فاكتب الطلاق، ففي هذه الحال يكتب، لكن يُبيِّن، ويقول: إنه طلَّقها وهي حائض؛ من أجل أنه إذا عُرِضَت هذه المسألة على قاضٍ يرى وقوع الطلاق إذا هو يحكم بالطلاق، أو على قاضٍ لا يراه إذا هو يقول: هذا الطلاق لغو، هذا هو الذي يجب على الإنسان في هذه المسألة نظرًا لجهل الناس.

أمَّا لو كان الناس عندهم علم بأن الطلاق في حال الحيض حرام فلا حاجة إلى السؤال عن انتفاء الموانع.

....

لكن هنا مسألة: لو قال: يا فلان! اكتب طلاق امرأتي، فهل يُعَدُّ ذلك طلاقًا؟

نقول: إذا قصد بقوله: «اكتب طلاق امرأتي» يعني: فقد طلَّقتها الآن، فهذا يكون واقعًا، ويكون هذا خبرًا، أمَّا إذا كان إنشاءً للتوكيل، قال: «اكتب طلاق امرأتي» يعني: إني وكَّلتك أن تكتب الطلاق، وهو لا يقصد أنه أوقعه، فهنا لا يقع الطلاق.

وهنا مسألة: يُوجَد أُناس طلَّقوا في زمن الحيض، واعتقدوا أن الطلاق واقع، ورُبَّما استَفْتَوا، فأُفْتُوا، ثم طلَّقوا مرَّةً ثانيةً، ثم طلَّقوا مرَّةً ثالثةً، ثم جاؤوا يُنَقِّبون، ويقولون: إن طلاقنا الأول كان في حيض، فما تقولون؟

نقول: إن نظرنا إلى أننا نعتقد أن الطلاق لا يقع في الحيض، فمعنى هذا: أننا لا نحسبه عليه، ونقول: لك المراجعة.

ولكن إذا كان هذا الرجل يعتقد الوقوع، والتزم بأنه واقع، كما لو طلَّق في الحيض، وانتهت العدَّة، وتزوجت المرأة، فقيل له: هل طلَّقتها في الحيض؟ قال: نعم، قيل: اعتدَّت؟ قال: نعم، قيل: تزوجت؟ قال: نعم، فإذا قيل له: إن طلاقك لم يقع، فهل سيذهب ويُطالب الزوج الثاني، ويقول: أعطني زوجتي؟

الجواب: لا تجد أحدًا يُطالب بهذا، لكن إذا ضاقت عليه المخارج، وصارت هذه آخر تطليقة، ذهب يُنَقِّب عن الماضي: لعلِّي طلَّقتُ وهي حائض، لعلِّي طلَّقتُ في طهر جامعتُ فيه، لعلَّه طلَّق وهو غضبان غضبًا شديدًا، لعلَّه طلَّق وهو سكران، وهذا واقع.

ولهذا أرى في هذه المسألة أننا لا نُفتيه بهذا، ما دام قد طلَّق، والتزم بذلك، وهو ما عليه علماء بلده، ورُبَّما كان مُفْتًى بذلك، ثم لـمَّا ضاقت عليه المخارج جاء يقول: إني طلَّقت في حيض!

....

ثم قد نقول: إننا إذا تمكَّنَّا من إرجاعها في العدة كما في قضية ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رجعناها، أمَّا إذا انتهت العدة، وكلٌّ عرف حاله، فهذه يجب أن نتأمَّل وننظر فيها.

وعلى كل حال: فالقول الراجح عندي: أن الطلاق في حال الحيض أو الطهر الذي جامع فيه لا يقع؛ لمخالفته أمر الله ورسوله ﷺ.

فإن قال قائل: وهل يشمل هذا إذا كان ذلك قبل الدخول؟

قلنا: أمَّا الطلاق في طهر جامعها فيه فهذا لا يرد؛ لأنه قبل الدخول، وإنَّما الذي يرد أن يُطَلِّقها في حال الحيض، وله أن يُطَلِّقها في حال الحيض.

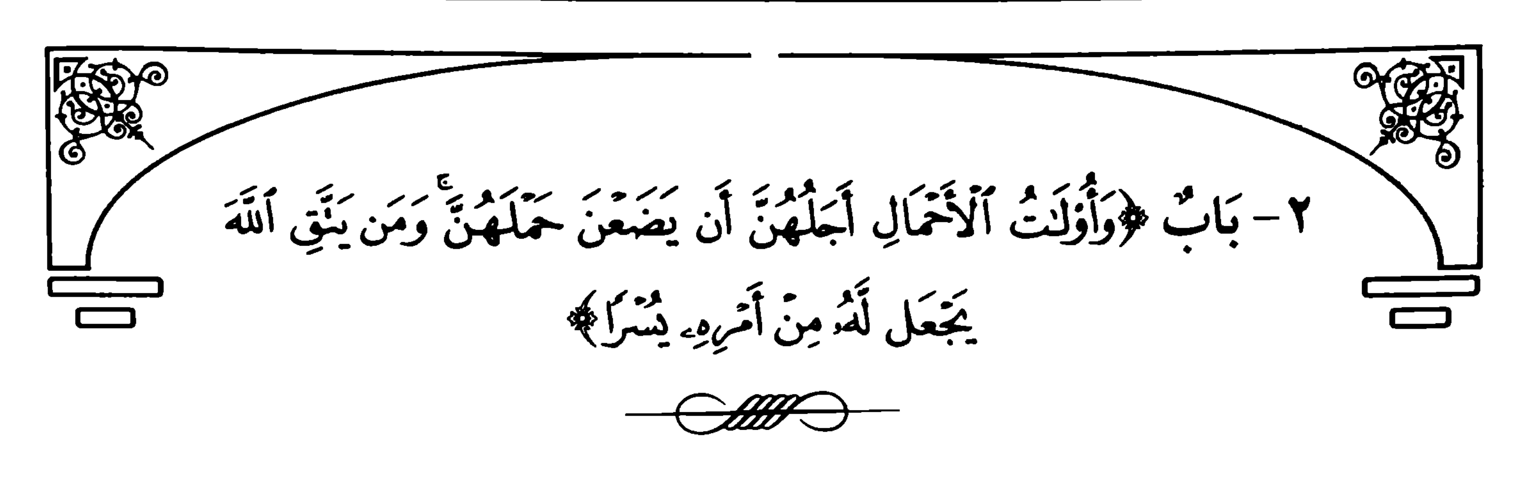
مثال ذلك: رجل عقد على امرأة، ثم بدا له ألَّا يتزوجها، فطلَّقها وهي حائض، فهل يجوز له هذا؟

الجواب: نعم، يجوز؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، وهذه ليس لها عدَّة.

لكن ما هو الطلاق الذي يُباح؟

نقول: ما كان في الحمل، أو في طهر لم يُجامعها فيه؛ لأن الذي يُطلِّقها في طهر جامعها فيه لا يدري: هل تشرع في عدَّة حمل، أو في عدَّة حيض؟ فلم يُطَلِّق للعدَّة؛ لأن العدَّة غير مُتيقَّنة، لا ندري: هل هذه، أم هذه؟





٢- بَابٌ ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾ وَاحِدُهَا: ذَاتُ حَمْلٍ[١].

---

[١] أفادنا البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا: أن «أولات» ليس لها مُفْرَد، بل هي بمعنى: صاحبات، ومُفْرَد صاحبات: صاحبة.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ «أن» وما دخلت عليه في تأويل مصدر خبر المبتدإ «أولات»، وهذه الآية قاضية على جميع آيات العِدَد، فهي قاضية على عدَّة المتوفَّى عنها، وعدَّة المُخْتَلعة، وعدَّة المفارقة للعيب، وعدَّة المُطَلَّقة، وجميع العِدَد، أي: أن المرأة إذا كانت مُفارقةً وهي حامل فإن عدَّتها بوضع الحمل طال أو قَصُر.

فإذا كانت حاملًا بواحد فعدَّتها بوضع هذا الواحد، وإن كانت باثنين فبوضعهما، وبثلاثة فبوضعهم، وكذلك بأربعة وبخمسة إن كان؛ لأن ﴿حَمۡلَهُنَّ﴾ مُفْرَد مضاف، فيعم كلَّ الحمل.

وإن طُلِّقت وهي في الطَّلْق، ثم وضعت بعد الطلاق بلحظة، فإنها تخرج من العدَّة.

فإن بقي حملها ثلاث سنوات أو أربع فإنها تبقى، فإن بقي خمس سنوات ففيه خلاف، والمذهب على أن أكثر الحمل أربع سنوات(١)، والصحيح: أنه ما دام الحمل في

---

(١) منتهى الإرادات بشرح البهوتي (٥/ ٥٩٠).

....

= بطنها ولو بقي أربعين سنةً فهي حامل، وعدَّتها أن تضع الحمل، وقد ذكر ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تحفة المودود) أن بعض الحمل يبقى إلى سبع سنين، وبعضه يخرج من بطن أمه وقد نبتت أسنانه(١).

ولكن إذا قال قائل: لو أن هذه المرأة تضرَّرت بطـول الحمل، وهي امرأة تُريد الزواج، فهل يجوز إسقاطه؟

فالجواب: إن كان لا خطر عليه فإنه يجـوز إسقاطه، وإن كان عليـه خطر فإنه لا يجوز، ويكون هذا من المصائب التي قدَّر الله تعالى على هذه المرأة، فمنعها من الزواج.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ هذه الجملة جملة شرطية، جاءت من عنـد أصدق القائلين، وأقـدر الفاعلين، وهو الله عَزَّوَجَلَّ، وهو لا يُخْـلِف الميعاد، ومعروف أن الجملة الشرطية يلزم من وجود الشرط فيها وجودُ المشروط، فإذا وُجِدَت التقوى تيسَّر الأمر.

لكن هل المراد: من أمره الذي اتَّقى الله فيه فقط، أو من جميع أموره؟

نقول: إذا كانت التقوى تقوى كاملةً بقدر ما يستطيع فهو من جميع أموره، وإن كانت تقوى في شيء مُعَيَّن وهو فاسق في غيره فقد يُقال: إنه يحصل له تيسير هذا الأمر الذي اتَّقى الله فيه دون غيره، مثل: أن يكون رجلًا فاسقًا بحَلْق اللحية، لكنه في الصلاة مُتَّقٍ لله، يُصَلِّي مع الجماعة، ويُكْثِر النوافل، فهل نقول: إن هذا الرجل يجعل الله له من أمره يسرًا في الصلاة فقط دون بقية الأشياء؟

---

(١) يُنْظَر: تحفة المودود، (ص:٤٣٨).

٤٩٠٩- حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ حَفْصٍ: حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ يَحْيَى، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ جَالِسٌ عِنْدَهُ، فَقَالَ: أَفْتِنِي فِي امْرَأَةٍ وَلَدَتْ بَعْدَ زَوْجِهَا بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: آخِرُ الأَجَلَيْنِ،.........

= الجواب: هذا فيه احتمال، وعلى هذا الاحتمال إذا لم يتَّقِ الله في هذا الأمر، واتَّقى الله في أمر آخر، لم يُيَسَّر له ذلك الأمر الذي لم يتَّقِ الله فيه.

مثال ذلك: رجل يبيع ويشتري، لكن مع معصية لله، إمَّا بربا، أو خداع، أو ما أشبه ذلك، فهذا الرجل لم يتَّقِ الله في بيعه، فلا يُيَسَّر له، لكن هل تُيَسَّر له بقية الأمور التي اتَّقى الله فيها؟

الجواب: هذا ينبني على أننا إذا جعلنا التيسير بإزاء التقوى فنقول: كل شيء اتَّقى الله فيه فإن الله تعالى يجعل له منه يسرًا، وكل شيء لم يتَّقِ الله فيه لا يجعل الله له فيه يسرًا، فإن تيسَّر له الأمر الذي لم يتَّقِ الله فيه فهو من باب الاستدراج.

وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ هل نقول: إن «من» للتبعيض، أو نقول: إنها لبيان الجنس، أي: يجعل له من كل أمر؟ الله أعلم، قد نقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ وعده بأن يجعل له من أمره يسرًا حتى لا يطمع في تيسير الأمور، وحتى لا يقول إذا تخلَّف اليُسْر في بعض أشيائه: إن هذا من باب إخلاف الوعد؛ لأننا إذا جعلنا «من» لبيان الجنس، وأنه يجعل كلَّ أمره يسيرًا عليه، وتخلَّف، فقد تقول له نفسُه: إنَّ هذا فيه شيء من إخلاف الوعد، فقطع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الإنسان هذا الأمر، وقال: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾، ومعلوم أن الموعود بالبعض إذا أُعْطِيَ الكلَّ كان هذا زيادة فضل، يُحْمَد عليه الفاعل.

إذن: التقوى من أسباب تيسير الأمور؛ لهذه الآية.

قُلْتُ أَنَا: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَا مَعَ ابْنِ أَخِي، يَعْنِـي: أَبَا سَلَمَةَ، فَأَرْسَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ غُلَامَهُ كُرَيْبًا إِلَى أُمِّ سَلَمَـةَ يَسْأَلُهَا، فَقَالَتْ: قُتِلَ زَوْجُ سُبَيْعَةَ الأَسْلَمِيَّةِ وَهِيَ حُبْلَى، فَوَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَخُطِبَتْ، فَأَنْكَحَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَكَانَ أَبُو السَّنَابِلِ فِيمَنْ خَطَبَهَا.

٤٩١٠- وَقَالَ سُلَيْـمَانُ بْنُ حَرْبٍ وَأَبُو النُّعْمَانِ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ مُحَمَّدٍ، قَالَ: كُنْتُ فِي حَلْقَةٍ فِيهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى، وَكَانَ أَصْحَابُهُ يُعَظِّمُونَهُ، فَذَكَرُوا لَهُ، فَذَكَرَ آخِرَ الأَجَلَيْنِ، فَحَدَّثْتُ بِحَدِيثِ سُبَيْعَةَ بِنْتِ الحَارِثِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، قَالَ: فَضَمَّزَ لِي بَعْضُ أَصْحَابِهِ، قَالَ مُحَـمَّدٌ: فَفَطِنْتُ لَهُ، فَقُلْتُ: إِنِّي إِذًا لَجَرِيءٌ إِنْ كَذَبْتُ عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، وَهُوَ فِي نَاحِيَةِ الكُوفَـةِ، فَاسْتَحْيَا، وَقَالَ: لَكِنْ عَمُّهُ لَمْ يَقُلْ ذَاكَ، فَلَقِيتُ أَبَا عَطِيَّةَ مَالِكَ بْنَ عَامِرٍ، فَسَأَلْتُهُ، فَذَهَبَ يُحَدِّثُنِي حَدِيثَ سُبَيْعَةَ، فَقُلْتُ: هَلْ سَمِعْتَ عَنْ عَبْدِ اللهِ فِيهَا شَيْئًا؟ فَقَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللهِ، فَقَالَ: أَتَجْعَلُونَ عَلَيْهَا التَّغْلِيظَ، وَلَا تَجْعَلُونَ عَلَيْهَا الرُّخْصَةَ؟! لَنَزَلَتْ سُـورَةُ النِّسَاءِ القُـصْرَى بَعْدَ الطُّـولَى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[١].

---

[١] قوله: «فَضَمَّزَ لِي بَعْضُ أَصْحَابِهِ» أي: عضَّ شفته، يعني: اسكت.

وكان علي بن أبي طالب وابن عباس وعبد الرحمن بن أبي ليلى رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يرون آخر الأجلين، أمَّا ابن مسعود -وهو عم عبد الله بن عتبة بن مسعود- فبالعكس.

لكن ما معنى قولنا: آخر الأجلين؟

....

= الجواب: أي: أطول الأجلين، فإذا مات رجل عن امرأة حامل، فوضعت قبل أربعة أشهر وعشر، فإنها -على رأيهم- تبقى إلى أن تكمل أربعة أشهر وعشرًا، وإن مضت أربعة أشهر وعشر قبل أن تضع فإنها تبقى حتى تضع، فيُعاملونها بأطول الأجلين، وهذا تعذيب، ولهذا قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَتَجْعَلُونَ عَلَيْهَا التَّغْلِيظَ، وَلَا تَجْعَلُونَ عَلَيْهَا الرُّخْصَةَ؟!» وصدق.

والحقيقة أنه لولا السُّنَّة لكان الصواب مع علي بن أبي طالب وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأن هذا هو الذي يحصل به الاحتياط، ولكن جاءت السُّنَّة عن النبي ﷺ بأنها إذا وضعت الحمل ولو قبل أربعة وعشر فإنها تنقضي العدَّة.

فإن قال قائل: لو وضعت الحمل بعد موت زوجها وقبل أن يُدْفَن فهل تنقضي عدَّتها؟

الجواب: نعم، تنقضي، وتحلُّ للأزواج، ورُبَّما تتزوج زوجًا آخر قبل أن يُدْفَن زوجها الأول، لكن لا يُجامعها زوجها حتى تطهر، والحِدَاد ينتهي بانتهاء العدَّة؛ لأن الإحداد واجب عليها مدَّة العدة، طالت أو قصرت، والحامل عدَّتها بوضع الحمل، فلو فُرِضَ أنها بقيت ثلاثة أيام ووضعت خرجت من الإحداد، ولو فُرِضَ أنها جلست سنةً كاملةً بقي عليها الإحداد، بمعنى: أن الإحداد من واجبات العدة ملازم لها.

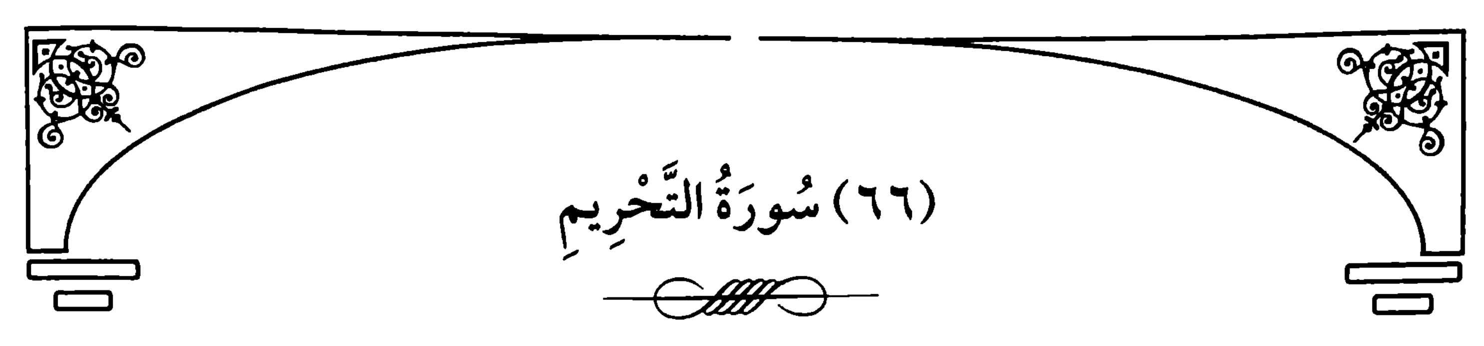
فإن وضعت المرأة حين احتضار الزوج فإن العدَّة حينئذ تنقضي بأربعة أشهر وعشر.

....

= وقوله: «لَنَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ القُصْرَى بَعْدَ الطُّولَى» يُريد رَضِيَٱللَّهُعَنهُ بالطُّولى البقرة، وبالقُصْرَى الطلاق، ولا يُريد بذلك سورة النساء، وإنما مراده بقوله: «سُورَةُ النِّسَاءِ» أي: السورة التي تتحدَّث عن عِدَد النساء، وهذا في البقرة.

وعلى هذا يُقَدَّم عموم: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ على عموم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾، وكان السلف يُسَمُّون التخصيص: نسخًا؛ لأن حقيقة التخصيص أنه نسخ لعمومه.





(٦٦) سُورَةُ التَّحْرِيمِ

١- بَابٌ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[١]

٤٩١١- حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ فَضَالَةَ: حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ يَحْيَى، عَنِ ابْنِ حَكِيمٍ (هُوَ يَعْلَى بْنُ حَكِيمٍ الثَّقَفِيُّ) عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ فِي الحَرَامِ: يُكَفِّرُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾[٢].

---

[١] قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ «ما» هنا استفهامية، لكن تُحْذَف الألف إذا دخل عليها حرف الجر، مثل: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، و«لِـمَ»، و«فِيمَ»، و«علامَ»، و«حتَّامَ».

وانتبه إلى أن «علامَ» مثل: علامَ تبكي؟ علامَ تحزن؟ أن «على» إذا دخلت على «ما» الاستفهاميَّة حُذِفَت ألف «ما»، وقُلِبَت الألف التي على ياء ألفًا مُشالةً، فتكون كتابتها مثل: «عَلَّام»، وكذلك «إِلَامَ؟».

وقوله: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ هذه جملة حاليَّة من فاعل ﴿تُحَرِّمُ﴾.

[٢] ذكر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن الإنسان إذا حرَّم شيئًا فإنه يُكَفِّر كفارة يمين، ثم تلا هذه الآية: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أفتى نبيَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لـمَّا حرَّم ما أحلَّ الله له أفتاه بأن يُكَفِّر، فقال: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾.

٤٩١٢- حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى: أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَيَمْكُثُ عِنْدَهَا، فَتَوَاطَأْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ عَلَى أَيَّتُنَا دَخَلَ عَلَيْهَا فَلْتَقُلْ لَهُ: أَكَلْتَ مَغَافِيرَ؟ إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ! قَالَ: «لَا، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، فَلَنْ أَعُودَ لَهُ، وَقَدْ حَلَفْتُ، لَا تُخْبِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا»[١].

ومن ذلك: إذا قال: «عليَّ الطلاق لا أفعل»، فقد حرَّم على نفسه هذا الشيء بصيغة الطلاق، وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ التحريم يمينًا، فصار هذا حكمه حكم اليمين، كما ورد عن الصحابة فيمَن قال: إن فعلتُ كذا فللَّه عليَّ نذر أن أصوم شهرًا أو أتصدَّق بكذا، قالوا: يُكفِّر كفارة يمين.

[١] في هذا الحديث أنه اتَّفقت عائشة وحفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جميعًا، وهما ابنتا الصِّدِّيق والفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فعائشة بنتُ أبي بكر، وحفصة بنتُ عمر، اتَّفقتا -لمحبَّتهما لرسول الله ﷺ- حين تأخَّر عند زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومكث عندها، اتَّفقتا على أنه إذا دخل على أيِّ واحدة منهما تقول له: «أَكَلْتَ مَغَافِيرَ؟» والمغافير: نبت معروف، ويُقال: إن النحل يأكله، وإذا أكله النحل ظهرت رائحته في العسل.

وهذا القول منهم ليس خبرًا، بل هو استفهام، يعني: أأكلت مغافير؟ والهمزة تُحذَف إذا عُلِمَ المقصود، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ [الأنبياء:٢١]، يعني: أهم يُنْشِرون؟

لكن قوله: «إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ» هل هذا كذب، أو نقول: إنه يُمكن، ويكون ذلك من العسل؟

....

=

الجواب: الثاني هو الظاهر؛ لأنه لا يُمكن أن هاتين الزوجتين تكذبان، وتكذبان أيضًا على رسول الله ﷺ، وإن كان قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤] قد يدلُّ على أنه يُمكن أن يكون قد وقع منهما كذب، ويُمكن أنهما لَمَّا تظاهرتا على الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأرادتا أن تُضَيِّقا عليه لكونه تأخَّر وأبطأ صار في هذا سوء أدب مع الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

لكن هنا إشكال: كيف تستفهمان عن أمر معلوم؟

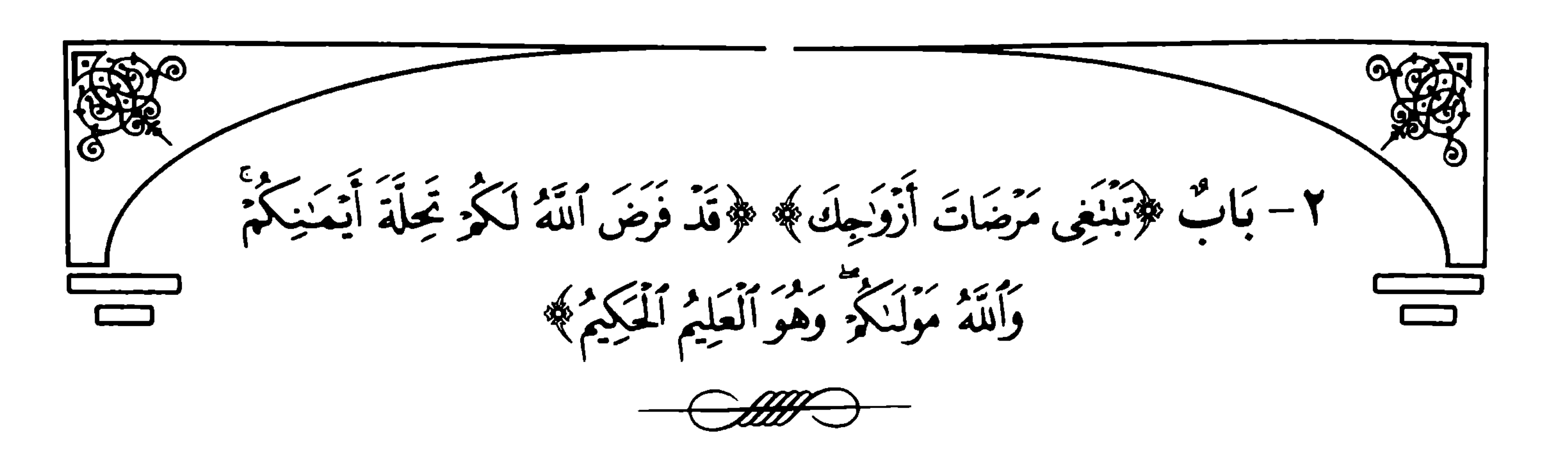
نقول: لأنهما لا تعلمان ماذا أكل؟ وقد يترجَّح عندهما أنه أكل عسلًا، لكن لَمَّا كان يكره المغافير قالتا هذا الكلام.

ثم إنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**لَا، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، فَلَنْ أَعُودَ لَهُ، وَقَدْ حَلَفْتُ، لَا تُخْبِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا**».

فإن قال قائل: كيف نجمع بين الروايات الواردة في هذه القصة؟

قلنا: لا يُمكن أن نُوفِّق بينها، ولكن نُرَجِّح، والراجح أن زينب رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا هي التي سقت النبي ﷺ العسل، وأن اللتين تظاهرتا عليه هما عائشة وحفصة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.





٤٩١٣- حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللهِ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ، عَنْ يَحْيَى، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ حُنَيْنٍ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُحَدِّثُ أَنَّهُ قَالَ: مَكَثْتُ سَنَةً أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ عَنْ آيَةٍ، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْأَلَهُ هَيْبَةً لَهُ، حَتَّى خَرَجَ حَاجًّا، فَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا رَجَعْنَا وَكُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ عَدَلَ إِلَى الأَرَاكِ لِحَاجَةٍ لَهُ، قَالَ: فَوَقَفْتُ لَهُ حَتَّى فَرَغَ، ثُمَّ سِرْتُ مَعَهُ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ! مَنِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَزْوَاجِهِ؟ فَقَالَ: تِلْكَ حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللهِ إِنْ كُنْتُ لَأُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ هَذَا مُنْذُ سَنَةٍ، فَمَا أَسْتَطِيعُ هَيْبَةً لَكَ، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ، مَا ظَنَنْتَ أَنَّ عِنْدِي مِنْ عِلْمٍ فَاسْأَلْنِي، فَإِنْ كَانَ لِي عِلْمٌ خَبَّرْتُكَ بِهِ[1].

---

[١] في هذه القطعة من الحديث فوائد، منها:

١- مهابة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مع كون أمير المؤمنين عمر يُعِزُّه ويُدْنِيه كان يهابه.

لكن ما سبب هذه الهيبة من ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هنا؟

نقول: إمَّا لأن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مهيبًا، أو بسبب مكان حفصة من عمر، وقد نقول: إنه اجتمع الأمران، وإن كنَّا لا ندري هل وقع في ذهن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن إحداهما هي حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؟

قَالَ: ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: وَاللهِ إِنْ كُنَّا فِي الجَاهِلِيَّةِ مَا نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أَمْرًا، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ فِيهِنَّ مَا أَنْزَلَ، وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا فِي أَمْرٍ أَتَأَمَّرُهُ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتِي: لَوْ صَنَعْتَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا: مَا لَكِ، وَلِمَا هَا هُنَا؟! وَفِيمَ تَكَلُّفُكِ فِي أَمْرٍ أُرِيدُهُ؟! فَقَالَتْ لِي: عَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ! مَا تُرِيدُ أَنْ تُرَاجَعَ أَنْتَ، وَإِنَّ ابْنَتَكَ لَتُرَاجِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ! فَقَامَ عُمَرُ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ مَكَانَهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ، فَقَالَ لَهَا: يَا بُنَيَّةُ! إِنَّكِ لَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ،.......................................

= ٢- أنه لا تنبغي الهيبة من العلم، وأن الإنسان ينبغي له أن يسأل، فإن كان عند المسؤول علم بيَّنه، وإلا قال: الله أعلم، ولهذا قال: «**مَا ظَنَنْتُ أَنَّ عِنْدِي مِنْ عِلْمٍ فَاسْأَلْنِي، فَإِنْ كَانَ لِي عِلْمٌ خَبَّرْتُكَ بِهِ**»، يعني: وإن لم يكن لي علم قلت لك: لا علم عندي.

٣- صراحة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وبساطتهم، فإن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال لِعُمَر هذا الكلام، مع أنه لو سكت ما نُوقِش عليه؛ لأن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يدري، لكن هذا دليل على صراحتهم.

وهكذا ينبغي للمؤمن أن يكون صريحًا، وأن يكون ظاهره كباطنه، والمهم ألَّا يُضمر سوءً، ولكن يكون صريحًا فيما يقول.

وإذا كان الإنسان صريحًا فغالبًا أنه يُوَفَّق لا بالنسبة للمسؤول، ولا بالنسبة للسؤال الذي يُورده، لكن الذي يتكتَّم، ولا يُبْدِي ما عنده، ويُحاول أن يُراوغ، فهذا ليس من شأن المؤمنين.

فَقَالَتْ حَفْصَةُ: وَاللهِ إِنَّا لَنُرَاجِعُهُ، فَقُلْتُ: تَعْلَمِينَ أَنِّي أُحَذِّرُكِ عُقُوبَةَ اللهِ وَغَضَبَ رَسُولِهِ ﷺ؟ يا بُنيَّةُ! لَا يَغُرَّنَّكِ هَذِهِ الَّتِي أَعْجَبَهَا حُسْنُهَا حُبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِيَّاهَا، يُرِيدُ عَائِشَةَ[١].

---

[١] قوله: «**فَبَيْنَا أَنَا فِي أَمْرٍ أَتَأَمَّرُهُ**» ليس المراد: في أمر المسلمين؛ لأن هذا الأمر كان قبل خلافته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فكان في وقت الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولكن المراد: في شأن أشتغل به، كأنه سيصنع شيئًا، فقالت امرأته: لو صنعت كذا وكذا بدلًا من هذا الشيء، أو لو صنعته على صفة غير التي سيصنعه عليها.

وقوله: «**يَا بُنَيَّةُ! إِنَّكِ لَتُرَاجِعِينَ**» هذه جملة استفهاميَّة، حُذِفَت منها أداة الاستفهام، والتقدير: أإنَّك لتُراجعين.

والمراجعة: أن تُناظر زوجها في الكلام: لماذا فعلت كذا؟ ولماذا فعلت كذا؟ أو إذا قال: افعلي كذا، وهي لا ترى أن ذلك مصلحة، قالت: هذا ليس فيه مصلحة، وما المصلحة في ذلك؟ وما أشبه هذا، وكان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لشدَّته لا يُريد الزوجة أن تتكلَّم بشيء.

وقوله: «**لَا يَغُرَّنَّكِ هَذِهِ الَّتِي أَعْجَبَهَا حُسْنُهَا حُبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِيَّاهَا**» هذه الجملة تُحْمَل على رواية مسلم: «لَا يَغُرَّنَّكِ هَذِهِ الَّتِي قَدْ أَعْجَبَهَا حُسْنُهَا وَحُبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِيَّاهَا»(١)، فحذف بعض الرواة واو العطف؛ لعدم ضبطه إيَّاها.

وأمَّا رواية «حُبَّ» بالنصب فهي ضعيفة؛ لأن المعروف أن حذف حرف الجر لا يطَّرد إلا مع «أنَّ» و«أنْ»، وإلا فلا يُحْذَف.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء، رقم (١٤٧٩/ ٣١).

....

وفي هذا الجزء من الحديث فوائد، منها:

١- أن الإسلام رفع من شأن المرأة، ولله الحمد، وأنه كان بين طرفي نقيض:

النقيض الأول: الذي لا يرى للمرأة أمرًا، ولا يهتمُّ بها، ولا يُريدها أن تتكلَّم في أي شيء.

والنقيض الثاني: الذي يجعل المرأة هي السيدة، وما تقوله فهو النافذ، ويجعل لها السيطرة عليه، ويُريد أن تكون المرأة كالرجل سواءً، بل يرى أنه يجب أن تكون مُقَدَّمةً عليه.

فصار الإسلام وسطًا عَدْلًا خِيَارًا، يجعل لكل أحد ما يُناسبه حتى يستقيم الأمر؛ لأننا لو جعلنا النساء كالرجال فاتت المصلحة من تصنيف الجنسين، وصار هذان الجنسان كأنهما جنس واحد، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ جعلهما جنسين؛ ليتولَّى كلٌّ منهم من العمل ما يليق به.

ثم إن أولئك الطغاة الذين يَدْعُون إلى اختلاط النساء بالرجال هم في الحقيقة يُريدون أن يُفسدوا على الناس أمرهم؛ لأن الإنسان بطبيعته البشرية يميل إلى النساء ميلًا خاصًّا، فإذا كان عنده امرأة -ولا سيما إن كانت جميلةً وظريفةً- فإنه سوف ينسى مُهِمَّته وعمله الذي كُلِّف به، فكان من حماية الإسلام للأعمال وللأشخاص أن نهى عن اختلاط الرجال بالنساء حتى في مواطن العبادة، فكان الرسول ﷺ يقول: «خَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا»[1]؛ لأن أولها أدنى إلى الرجال من آخرها، وكان

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها، رقم (٤٤٠/ ١٣٢).

....

= يأمر الرجال أن يلبثوا قليلًا، بل هو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يلبث قليلًا حتى ينصرف النساء؛ لئلا يختلط الرجال بهنَّ في الأسواق(١)، فكيف بمَن يختلط بهنَّ في الأعمال، تجلس إلى جنبه أو أمامه في كرسيه تُبادله الحديث والمزاح والأكل والشرب وغير ذلك؟!

فالحاصل: أن هذا الحديث يدلُّنا أن الإسلام كان وسطًا بين طرفي نقيض، وهكذا الإسلام دائمًا في كل الأمور تجده وسطًا بين طرفي نقيض: بين الغلو والتفريط، ولله الحمد.

٢- جواز مُحاجَّة المرأة زوجها بذكر النظير أو مَن هو أَوْلَى، كما لو كان الزوج شَكِسًا سيِّء الأخلاق مع زوجته، فقالت له: لِـمَ لا تكون أنت هكذا، فإن فلانًا مع أهله هكذا؟! ووجهه من الحديث: أن زوجة عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا نظَّرت المسألة بحفصة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا مع النبي ﷺ، وقصدها رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -وهو مَن هو في مقامه، وأنه يجب أن يُحْتَرَم ويُعَظَّم أكثر من غيره- ومع ذلك فإن زوجاته يُراجعنه.

فإن قال قائل: لكن مثل هذا يفتح الباب للنساء على أزواجهن!

قلنا: لا مانع، إذا كان هذا الرجل مُعتبرًا عند الجميع، ولنقل: إنه عالِـم مثلًا، فقالت له زوجتُه: لماذا تغضب إذا راجعتك في بعض الأمور، وفلان العالـم الذي تقتدي به تُراجعه امرأته؟!

كما أن مراجعة الزوجة لزوجها فيه انبساط وعدم كُلْفَة؛ لأنها لو بقيت تهابه كما تهاب الأجنبي أو كما يهاب الولدُ والده لا تحصل الزوجيَّة السعيدة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب صلاة النساء خلف الرجال، رقم (٨٧٠).

قَالَ: ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ لِقَرَابَتِي مِنْهَا، فَكَلَّمْتُهَا، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: عَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ! دَخَلْتَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَبْتَغِيَ أَنْ تَدْخُلَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَزْوَاجِهِ! فَأَخَذَتْنِي وَاللهِ أَخْذًا كَسَرَتْنِي عَنْ بَعْضِ مَا كُنْتُ أَجِدُ، فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهَا[١].

وَكَانَ لِي صَاحِبٌ مِنَ الأَنْصَارِ، إِذَا غِبْتُ أَتَانِي بِالخَبَرِ، وَإِذَا غَابَ كُنْتُ أَنَا آتِيهِ بِالخَبَرِ، وَنَحْنُ نَتَخَوَّفُ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ غَسَّانَ، ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْنَا، فَقَدِ امْتَلَأَتْ صُدُورُنَا مِنْهُ، فَإِذَا صَاحِبِي الأَنْصَارِيُّ يَدُقُّ البَابَ، فَقَالَ: افْتَحِ!

= **فإن قال قائل:** لكن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اعتزل أزواجه بعد هذه المراجعة!

قلنا: لأنهن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ اجتمعن عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وضيَّقن عليه، فآلى منهنَّ شهرًا، وأراد أن يُؤَدِّبهن؛ لأنهن تجاوزن الحد، عفا الله عنهن.

نعم، إذا كانت المرأة تقول لزوجها: أعطني النفقة، وتُلِحُّ عليه، وتقول: فلان اشترى لزوجته حليًّا، وثيابًا صفتها كذا وكذا، وسيَّارةً، وأتى لها بخادم، وبنى لها بيتًا، وهو فقير، فهذه لا حق لها في أن تُراجعه، لكن لها حق -على رأي بعض العلماء- إذا أعسر بالنفقة أن تطلب فسخ النكاح، والمسألة خلافيَّة.

أمَّا الأشياء التي لا تُؤَثِّر عليه، ويُمكنه القيام بها، ثم نقول: لا تُراجعه الزوجة، فهذا ليس بصحيح، بل يُلْزَم بالنفقة، ولها أن تشكو الزوج، ويُلزمه القاضي بالنفقة.

[١] كانت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عاقلةً من أعقل النساء، ولهذا قال: «كَسَرَتْنِي عَنْ بَعْضِ مَا كُنْتُ أَجِدُ».

افْتَحْ! فَقُلْتُ: جَاءَ الغَسَّانِيُّ؟ فَقَالَ: بَلْ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ، اعْتَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَزْوَاجَهُ، فَقُلْتُ: رَغَمَ أَنْفُ حَفْصَةَ وَعَائِشَةَ! فَأَخَذْتُ ثَوْبِي، فَأَخْرُجُ حَتَّى جِئْتُ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَشْرُبَةٍ لَهُ، يَرْقَى عَلَيْهَا بِعَجَلَةٍ، وَغُلَامٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَسْوَدُ عَلَى رَأْسِ الدَّرَجَةِ، فَقُلْتُ لَهُ: قُلْ: هَذَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، فَأَذِنَ لِي[١].

قَالَ عُمَرُ: فَقَصَصْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ هَذَا الحَدِيثَ، فَلَمَّا بَلَغْتُ حَدِيثَ أُمِّ سَلَمَةَ تَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ، مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ، فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: «**مَا يُبْكِيكَ؟**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا، وَلَنَا الآخِرَةُ؟**»[٢].

---

[١] كلمة: «افْتَحِ! افْتَحْ!» يقولها الإنسان في حال الاستعجال والرُّعب والخوف وما أشبه ذلك.

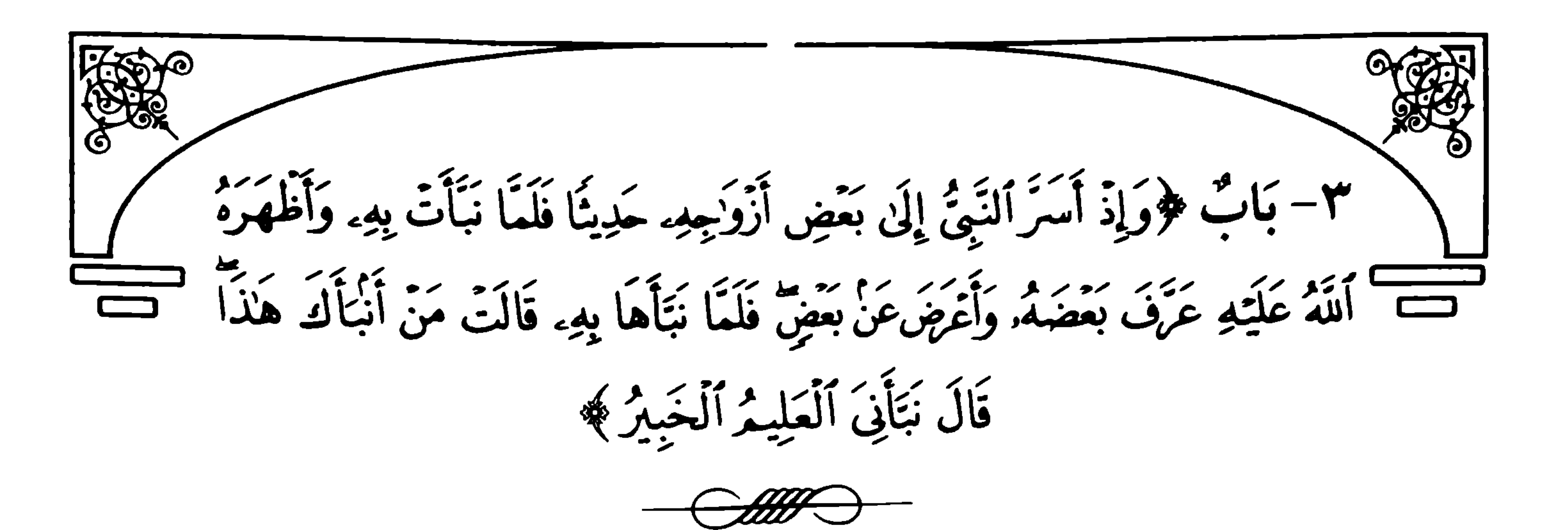
وهل كان سبب اعتزال النبي ﷺ لزوجاته أنهن كن يُغْضِبْنَه؟

الجواب: لا، ولكن سبب ذلك: أنهنَّ طالبنه بالنفقة(١)، وكان الرسول ﷺ يُعْتَبر من الفقراء قبل أن يفتح الله عليه، فسألْنَه النفقة، ونزلت آية التخيير: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٨].

[٢] قوله: «**فَلَمَّا بَلَغْتُ حَدِيثَ أُمِّ سَلَمَةَ تَبَسَّمَ**» يريد بذلك قولها: «**دَخَلْتَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَبْتَغِيَ أَنْ تَدْخُلَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَزْوَاجِهِ!**».

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب بيان أن تخييره امرأته لا يكون طلاقًا، رقم (١٤٧٨/ ٢٩).



٣- بَابٌ ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾

فِيهِ عَائِشَةُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ[١].

٤٩١٤- حَدَّثَنَا عَلِيٌّ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عُبَيْدَ بْنَ حُنَيْنٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: أَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ! مَنِ المَرْأَتَانِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَمَا أَتْمَمْتُ كَلَامِي حَتَّى قَالَ: عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ[٢].

---

[١] يُريد به ما سبق في حديث: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ» إلى آخره(١).

[٢] في هذا دليل على فوائد، منها:

١- قول الحق ولو على النفس أو الأولاد أو الوالِدَيْن؛ لأن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما أخفى هذا الأمر، مع أن ابنته إحدى المرأتين اللتين تظاهرتا على النبي ﷺ.

٢- أن منزلة الإنسان وَجَاهَه وشرفه قد يُؤَدِّي به إلى أمر مكروه، فإن عائشة وحفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فعلتا هذا الشيء غيرةً على النبي ﷺ؛ لأنهما يريان أنفسهما في منزلة عالية، فحصل منهما ما حصل.

---

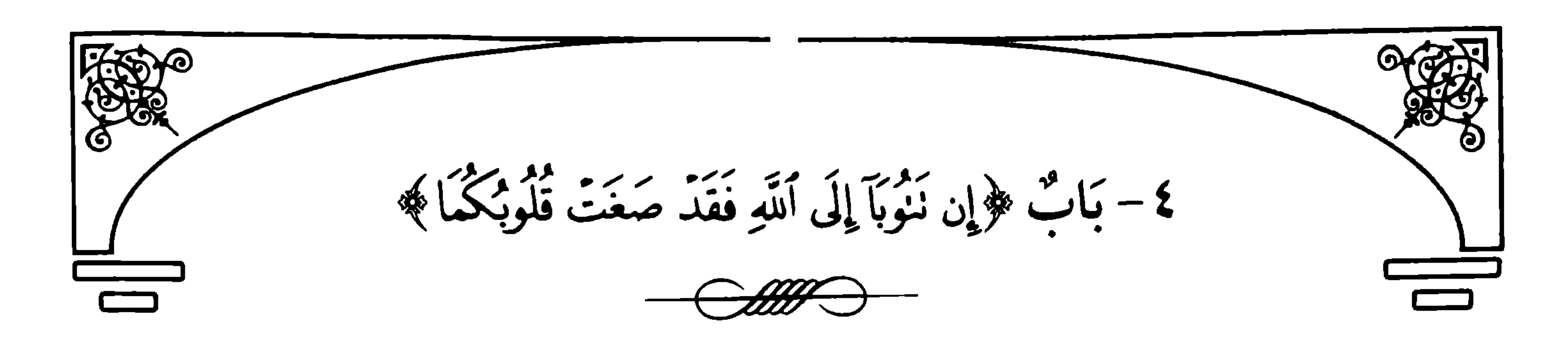
(١) تقدم برقم (٤٩١٢).

....

= وهل تُعْتَبر هذه القصة أصلًا للبحث عن أسماء أصحاب القصص؟

الجواب: لا، لكن تُعْتَبر أصلًا لمعرفة عين الشخص إذا كان يُخْشَى أن يُتَّهَم مَن هو بريء، فهنا إذا لم نعلم أنهما حفصة وعائشة فمعنى هذا: أن كل زوجات الرسول ﷺ يحتمل أن تكون هي، فلذلك إذا كان يُخْشَى من هذه المفسدة فلا بأس بطلب التعيين.





٤- بَابٌ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾

صَغَوْتُ وَأَصْغَيْتُ: مِلْتُ، ﴿لِتَصْغَى﴾ لِتَمِيلَ.

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ عَوْنٌ.

﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ تَعَاوَنُونَ[١].

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ ليس معناه: المظاهرة المعروفة، ولكن معناه: التعاون، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، وقد رأيتُ كلامًا للرافضة في هذا المقام، قالوا: هاتان المرأتان كانتا تفعلان مظاهرةً على النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كمظاهرات الناس اليوم، كأنهما خرجتا إلى السوق يقودان العالَم مظاهرةً على النبي ﷺ، وهذا من تحريفهم للكَلِم عن مواضعه، وإلا فالواقع أن التظاهر بهذا المعنى الأخير شيء جديد ما كان معروفًا من قبل، صحيح أن التظاهر في اللغة العربية بمعنى التعاون والتساعد، لكن لا على هذا الوجه المعروف.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي: أن الملائكة متعاونة، من التظاهر بمعنى: التعاون، ومعنى الآية: إن تعاونتما أنتما فإن الله هو مولاه وجبريل وصالحو المؤمنين والملائكة، فبدل الثنتين أربعة، ومعلوم أن واحدًا منها يكفي، وهو قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾، لكن هذا من باب أن الذي يُريد شيئًا فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنده أشياء.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ﴾ أَوْصُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَأَدِّبُوهُمْ.

٤٩١٥- حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عُبَيْدَ بْنَ حُنَيْنٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ عَنِ المَرْأَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَظَاهَرَتَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَمَكَثْتُ سَنَةً، فَلَمْ أَجِدْ لَهُ مَوْضِعًا حَتَّى خَرَجْتُ مَعَهُ حَاجًّا، فَلَمَّا كُنَّا بِظَهْرَانَ ذَهَبَ عُمَرُ لِحَاجَتِهِ، فَقَالَ: أَدْرِكْنِي بِالوَضُوءِ، فَأَدْرَكْتُهُ بِالإِدَاوَةِ، فَجَعَلْتُ أَسْكُبُ عَلَيْهِ المَاءَ، وَرَأَيْتُ مَوْضِعًا، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ! مَنِ المَرْأَتَانِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَمَا أَتْمَمْتُ كَلَامِي حَتَّى قَالَ: عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ[١].

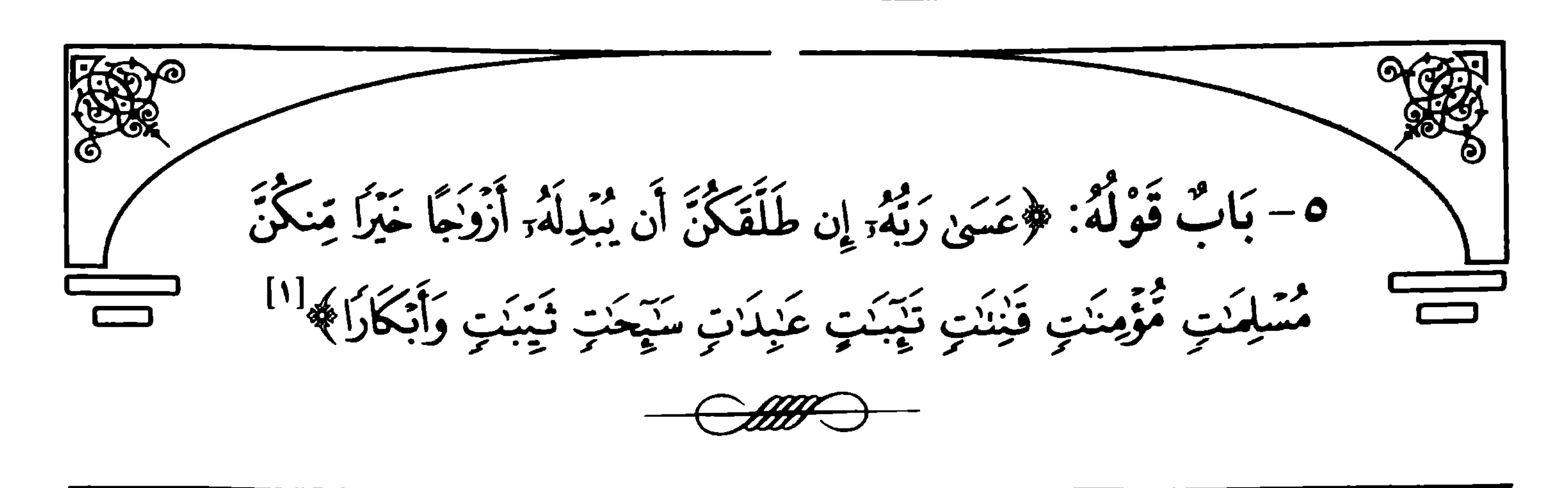
---

[١] في هذا: دليل على جواز الكلام حال الوضوء؛ لأن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كان يسكب الماء على أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أي: يصبه عليه، فسأله، فأجابه.

وعلى هذا فيجوز للإنسان أن يتكلَّم وهو يتوضأ، لكن الكلام الكثير الذي يُشغله عن الوضوء هذا لا ينبغي؛ لأنه رُبَّما يفتح باب الوسواس، فيظنُّ الإنسان أنه لم يغسل بعض الأعضاء؛ لانشغاله بالكلام مع صاحبه.

وقوله: «فَلَمَّا كُنَّا بِظَهْرَانَ» هذا اسم موضع في طريق المدينة إلى مكة.





٥- بَابُ قَوْلُهُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[١]

[١] قوله: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي: صائمات.

وقوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ قال بعض النحويين: إن هذه الواو هي واو الثمانية، وأثبتوا واوًا تُسَمَّى: واو الثمانية، واستشهدوا بهذه الآية، واستشهدوا أيضًا بآية براءة: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:١١٢]، واستدلُّوا أيضًا بقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧٣]، وقالوا: إن أبواب الجنة ثمانية، وإن هذه الواو لإفادة أن الأبواب ثمانية.

أمَّا الجواب عن هذه الآية هنا فنقول: لأن الأوصاف السابقة: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ يُمكن أن تجتمع كلُّها في موصوف واحد، وأمَّا ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ فلا يُمكن أن تجتمع، فإن كُنَّ ثيِّباتٍ لم يكُنَّ أبكارًا، فلابُدَّ من العطف.

وأمَّا قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فالسبب في ذلك: هو أن الأمر بالمعروف لا يتمُّ حتى يجتمع إليه النهي عن المُنْكَر، فمثلًا: إذا أمر الإنسان بالمعروف ما تمَّ أمره إلا بالنهي عن المُنْكَر.

٤٩١٦- حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَوْنٍ: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الغَيْرَةِ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُنَّ: عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ[١].

مثال ذلك: إذا كان يقول: يا أيُّها الناس! صلُّوا، لكن لا يقول: يا أيُّها الناس! اجتنبوا الرِّبا، فهذا ما تمَّ أمره بالمعروف ونهيه عن المُنْكَر، فلابُدَّ من اجتماع الأمرين حتى يتمَّ قيامه لله عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا آية الزمر فالواو فيها حرف عطف، لكن المعطوف عليه محذوف، والتقدير: حتى إذا جاؤوها، واقْتُصَّ لبعضهم من بعض، وهُذِّبوا، ونُقُّوا، وشَفَع النبيُّ ﷺ في فتح باب الجنة، وفُتحت أبوابها، فيكون جواب الشرط محذوفًا، والواو عطف على ذلك الجواب المحذوف.

ولهذا قال في النار: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾؛ لأنهم من حين ما يصلون إليها يُبادِرُون بالدخول.

ورُبَّما استدلوا أيضًا بآية الكهف: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ [الكهف:٢٢]، ويُجاب عنها بأن الواو هنا فائدتها التحقيق، ولهذا لم يُبْطِلها الله عَزَّوَجَلَّ، أمَّا ﴿ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ و﴿خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ فقد قال الله تعالى: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

[١] هذه من موافقات عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للقرآن، فهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أجابهنَّ بهذا الجواب: «عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ»، فنزلت الآية على وفق ما قال.

....

= وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عسى من الله واجبة[١]. فإذا رأيت الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿عَسَىٰ﴾ فهي للتحقيق، وليست للترجّي، مثل قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء:٩٩]، وقوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:١٨]، فهذه للتحقيق، لكنها تأتي بصيغة الرجاء؛ لئلا يُعْجَب الإنسان بعمله إذا قام به، بل يكون عاملًا راجيًا.

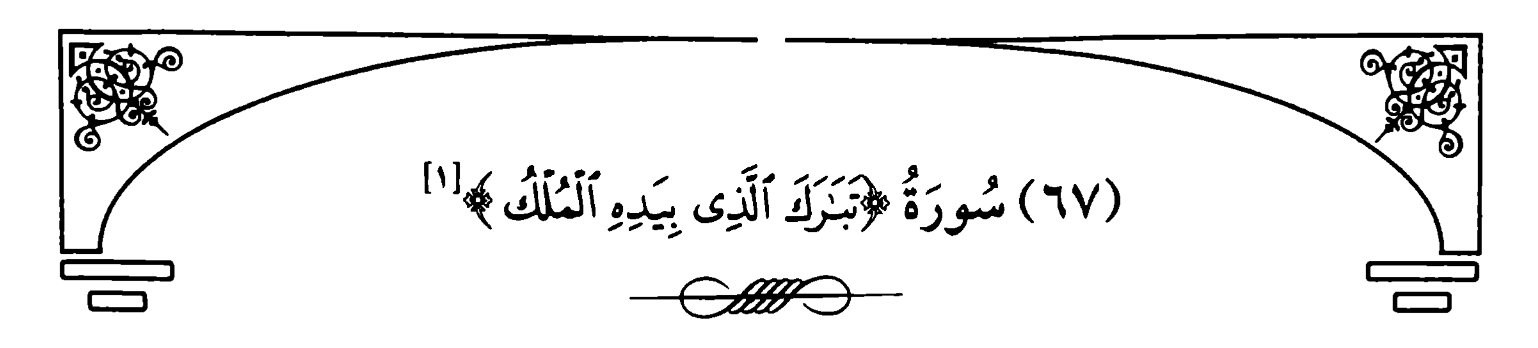
وهل تأثم المرأة على الغيرة؟

نقول: أمَّا الغيرة بمقتضى الطبيعة فلا تأثم عليها، ولابُدَّ منها، ولا يمكن دَرْؤُها، لكن إذا أدَّت إلى ترك الواجب أو إلى فعل ما لا يجوز بحقِّ الزوج صارت آثمةً، وقد دعا الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأم سلمة أن يذهب الله بالغيرة منها[٢]، والمراد بذلك: الغيرة الشديدة، أمَّا الغيرة المعتادة التي تُفْطَر النساء عليها فهذا موجود.



(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ١٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، رقم (٩١٨/ ٣).



(٦٧) سُورَةُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[١]

التَّفَاوُتُ: الِاخْتِلَافُ، وَالتَّفَاوُتُ وَالتَّفَوُّتُ وَاحِدٌ[٢].

---

[١] قول الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: كثرت خيراته وثبتت وانتشرت وانبسطت.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يتصرَّف في مُلكه كما يشاء مع ثبوت اليد له، وليس معناه: أن الملك كلَّه كأنه في يده، لكن المعنى: أن التصرُّف في هذا الملك بيد الله مع إثبات اليد.

وأهل التحريف يقولون: لا نُثبت اليد حتى وإن كان يقول: ﴿بِيَدِهِ﴾، ولكن المراد باليد: القدرة، أو النعمة، أو ما أشبه ذلك، ونحن نقول: بل نُثبت اليد، ولكن إذا قيل: بيدك كذا وكذا يعني: أن أمره راجع إليك مع ثبوت اليد لك.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣]، أي: اختلاف.

فإن قال قائل: إننا نجد تفاوتًا، ففسِّروا لنا التفاوت الذي نفى الله عَزَّوَجَلَّ؟

نقول: التفاوت هو التناقض، فأنت ترى الخَلْق مع اختلافه في اللون والشكل والغِلْظَة واللِّين وغير ذلك تجده مُتوافقًا لا يُناقض بعضه بعضًا، فلا يصطدم القمر بالشمس، أو الشمس بالقمر، أو الكواكب بعضها ببعض، أو الأرض بالسماء، بل تجده مُطَّرِدًا مُتلائمًا لا يتناقض.

﴿تَمَيَّزُ﴾ تَقَطَّعُ[١].

﴿مَنَاكِبِهَا﴾ جَوَانِبِهَا[٢].

---

[١] هذا في قول الله تعالى في النار: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، أي: يسمعون لهذه النار شهيقًا، كالرجل الذي يشهق، وكأنها في غاية ما يكون للتشوق لهم، كالأسد يرى الفريسة، تجده يندفع إليها بقوَّة وشخير؛ ليُدْرِكَها، فهي ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾ من شدَّة غَلَيَانها ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، والإنسان إذا اغتاظ تنتفخ أوداجه، ويقف شعره، وتحمرُّ عيناه، ويكاد يتقطَّع، فهي أيضًا تكاد تميَّز من الغيظ، ويجعل الله تعالى فيها هذا الشعور لشدَّة أخذها إيَّاهم، نسأل الله أن يُسَلِّمنا وإياكم منها.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾، و﴿ذَلُولًا﴾ أي: مُذَلَّلة بطرقها وطبيعتها، ولو كانت قاسيةً كالحجارة ما عاش الناس عليها، ولا حرثوا ولا بذروا ولا غرسوا، ولو كانت رخوةً -كالزبد مثلًا- ما عاشوا عليها أيضًا، بل جعلها مُذَلَّلةً، لا صعبةً، ولا ليِّنةً، على حسب ما تقوم به المصالح.

ثم قال: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ أي: جوانبها ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، قال بعض العلماء: في هذا دليل على أن كلَّ مَن تجوَّل في الأرض لطلب الرزق فإنه يحصل له؛ لأنه قال: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، فكأنَّ الأكل من الرزق والمشيَ مُتلازمان، لكن البلاء كل البلاء الركون إلى الكسل وعدم التحرُّك والتصرُّف، هذا هو البلاء، أمَّا إذا تصرَّفت وسعيت فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يرزقك.

﴿تَدَّعُونَ﴾ وَتَدْعُونَ وَاحِدٌ، مِثْلُ: تَذَّكَّرُونَ، وَتَذْكُرُونَ[١].

وهل هذا يشمل السفر إلى بلاد الكفر للتجارة؟

نقول: الآية يُؤْخَذ منها العموم، وأنك تطلب الرزق في أيِّ مكان، لكن إذا كان هذا على حساب الدِّين فهذا لا يجوز، فلو فرضنا أن الرجل لو سافر إلى بلاد الكفار للاتِّجار تأثَّر في دينه واختلَّ فإنه لا يجوز.

ولعلَّ هذا يُفْهَم من قوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، يعني: فلا تنسوا هذا النشور الذي يكون إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فتأكلوا من الرزق الحلال والحرام، والطيب والخبيث.

فإن قال قائل: لكن في بعض البلاد قد يُلْزَم الإنسان بعمل مُعَيَّن، ولا يُمكنه العمل بما يُريد!

قلنا: هذا على حسب نظام ولي الأمر، فإذا رأى ولي الأمر مصلحةً في تقييد بعض الأشياء فالظاهر أن هذا لا بأس به، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، فأمرنا أن نُطيعه في غير المعصية، فإذا رأى أن يُقْتَصر الاتِّجار على هذا النوع من التجارة، أو أن يُقْتَصر الاتِّجار على مدَّة مُعَيَّنة، يقول: أسمح لكم أن تأتوا بهذه البضائع في شهر ما، أو في مكان ما، فإذا كان هذا من المصلحة فهو مأجور، وإذا كان من أجل مصلحة نفسه أو من أجل الإضرار بالآخرين فهو مأزور.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾، أي: تطلبون، ثم قال: «تَدَّعُونَ وَتَدْعُونَ وَاحِدٌ، مِثْلُ: تَذَّكَّرُونَ، وَتَذْكُرُونَ»، أي: أنكم تَدْعُون بهذا الذي رأيتموه من العذاب؛ لأنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:١٦]، ويتحدَّون الرسل، يقولون: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:٧٠]،

﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ يَضْرِبْنَ بِأَجْنِحَتِهِنَّ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ بَسْطُ أَجْنِحَتِهِنَّ[١].

﴿وَنُفُورٍ﴾ الكُفُورُ[٢].

= ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي: قريبًا ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: لحقها السوء ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي: تطلبون وتستعجلون.

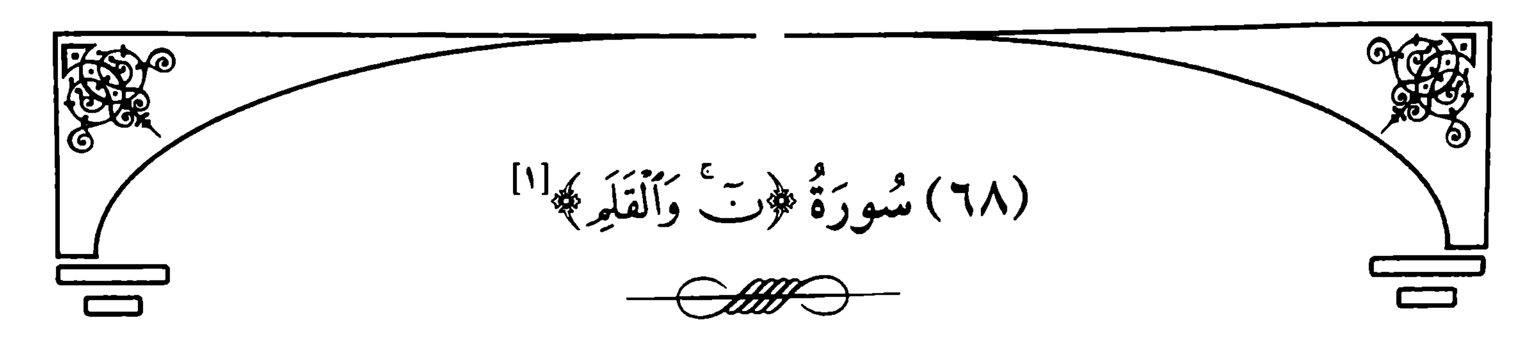
فإن قال قائل: كيف قال: «تَدَّعُونَ وَتَدْعُونَ وَاحِدٌ» مع أن الفعل إذا شُدِّد تعدَّى؟

نقول: تختلف الأفعال في هذا، فبعضها إذا شُدِّد أو دخلت عليه الهمزة تعدَّى، وبعضها لا يكون كذلك.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك:١٩]، فأمَّا اللاتي يقبضن فقد يقول قائل: هذا غير غريب أنها تطير في الجو؛ لأنها تقبض، فيدخل الهواء، فيحملها، لكن الغريب أنهن صافات، فتجد الطائر يصفُّ جناحيه، ولا يتحرَّك الجناحان، وهو يندفع ويطير، ورُبَّما يعلو أو ينخفض وهو صافٌّ، فهذا من آيات الله، والإنسان يتحيَّر: كيف تُمْسِك بالجو بهذا الشكل بدون حركة نشعر بها؟ وقد قيل: إنها تملأ كيسًا من الهواء حتى يخف وزنها في الطيران، وهذا هو الذي يُمسكها بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قال: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءِۭ بَصِيرٌ﴾.

ولهذا بدأ بقوله: ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ قبل قوله: ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾، وأيضًا جعل ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ حالًا كأنه وصف، وجعل ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ فعلًا حادثًا، والكل من آيات الله عَزَّوَجَلَّ.

[٢] هذا في قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾، أي: كفور.



(٦٨) سُورَةُ ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾[١]

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿حَرۡدٖ﴾ جِدٌّ فِي أَنْفُسِهِمْ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يَنْتَجُونَ السِّرَارَ وَالكَلَامَ الخَفِيَّ.

﴿لَضَآلُّونَ﴾ أَضْلَلْنَا مَكَانَ جَنَّتِنَا.

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾ كَالصُّبْحِ انْصَرَمَ مِنَ اللَّيْلِ، وَاللَّيْلِ انْصَرَمَ مِنَ النَّهَارِ، وَهُوَ أَيْضًا كُلُّ رَمْلَةٍ انْصَرَمَتْ مِنْ مُعْظَمِ الرَّمْلِ، وَالصَّرِيمُ أَيْضًا: المَصْرُومُ، مِثْلُ: قَتِيلٍ وَمَقْتُولٍ[٢].

---

[١] زعم بعض المُفَسِّرين أن ﴿نٓ﴾ اسم للحوت، كقوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ [الأنبياء:٨٧]، يعني: ذا الحوت، ولكن هذا خطأ، بل ﴿نٓ﴾ حرف من حروف الهجاء، مثل: ﴿صٓ﴾ و﴿قٓ﴾، ولو كانت النون هي الحوت لكُتِبَت «نون»، يعني: بالنون والواو والنون، كما في قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾.

وقد سبق أن الحروف الهجائية التي تُبْتَدأ بها السور ليس لها معنى على القول الصحيح؛ لأن القرآن نزل باللسان العربي، وهذه الحروف مُقَطَّعة ليس لها معنى.

[٢] يعني بذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾، وكان هؤلاء جماعةً مشتركين في بستان، قد رزقهم الله عَزَّوَجَلَّ، ولـمَّا استوت ونضجت، ولم يَبْقَ إلا أن يحصدوها، أقسموا ليَصْرِمُنَّها مصبحين بدون استثناء، قالوا: واللهِ لنَصْرِمُنَّها في الصباح، ولا قالوا: إن شاء الله، فقدَّر الله عليها ما قدر.

....

= ثم إنهم تناجوا فيما بينهم، وهم ذاهبون إليها: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾، أي: امنعوا المساكين، لا يدخلون عليكم، فعُوقِبُوا بأن الله تعالى جعلها كالصريم، فطاف عليها طائف من الله، فأصبحت كالصريم، منصرمةً لا خير فيها، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: ضائعون، ما هذا حائطنا، ما هذا بستاننا، ولكنا أضللنا مكان جنّتنا، وضعنا عنه.

ثم رجعوا إلى أنفسهم، وقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، أي: حُرِمْنَا إياها بما نزل بها من الدمار، فهؤلاء لَمَّا أرادوا منع فضل الله عَزَّوَجَلَّ من مستحقيه -وهم الفقراء- مَنَعَهم الله تعالى فضله، وهذا أمر مُشاهَد.

وقد حكى لنا بعض الناس أن شخصين مشتركان في حائط، فاقتسما الثمر، وقال أحدهما لصاحبه: اختر الجانب الشرقي أو الغربي، قال: أُريد الغربي؛ لأنه رأى أنه أكثر، فقال الثاني: وأنا آخذ الشرقي، فكان الذي أخذ الغربي كان بخيلًا، وكان الناس في شهر رمضان، فقال: سأجذُّه في نهار رمضان؛ لأجل ألَّا يأكل الفقراء، ففعل، جذَّه في نهار رمضان، وأدخله.

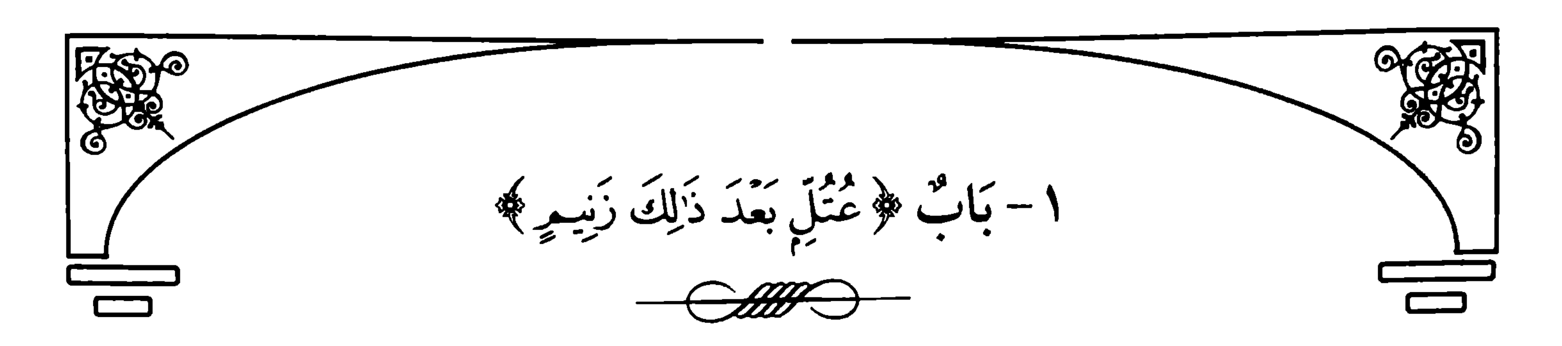
وأمَّا الثاني فكان كريمًا، فقال: لا أجذُّه إلا بعد فطر الناس من رمضان، ولـمَّا صار في آخر رمضان أعلن فيما بينه وبين أصحابه قال: نحن سنجذُّ النخل في اليوم الفلاني -بعد أن خرج رمضان- إن شاء الله تعالى، وذلك من أجل أن يأتي الناس يأكلون، وكان الناس في ذلك الوقت فقراء ليسوا كاليوم، فلما أعلن أنه سيجذُّه في اليوم الفلاني اجتمع الفقراء، وجاؤوا يُساعدونهم على الجذاذ، ويأكلون، وفي ذلك الوقت كان الإنسان

....

= يأكل أكلًا كثيرًا، وصار هذا الرجل يجذُّ ويُدْخِل التمر، والناس يأكلون من جهة، فيقولون: إنه ظهر أكثر من تمر الأول، فاحتكم الرجلان إلى القاضي، وقال الأول: إني أدَّعي الغبن في القسمة، يُريد أن القسمة ليست بصحيحة، إذ كيف يأكل الناس عند هذا الرجل من الصباح إلى المساء، ويُدْخِل أكثر منِّي، وأنا لم يأكل عندي أحد، وأُدْخِل أقلَّ منه؟! فقال له القاضي: كيف طريقة القسمة؟ فأخبره، فقال الرجل الكريم: نحن قَسَمْنا المِلك، وخيَّرته، فاختار الذي رأى أنه أكثر، قال القاضي: ثم ماذا؟ قال: إن الرجل جذَّه في رمضان؛ لئلا يأكل الفقراء منه، أمَّا أنا فأبقيته حتى أفطر الناس؛ ليأكل الفقراء منه، فقال: اتَّضح الأمر، هذا الرجل مَنَع فضله، فمنعه الله فضله، أمَّا أنت فما نقصت صدقة من مال.

وهذا يدلُّك على أن الإنسان إذا منع الفضل الذي أعطاه الله فإن الله تعالى قد يمنعه فضله، فأصحاب الجنَّة كانوا يتناجون فيما بينهم ألَّا يدخُلَنَّها اليوم عليكم مسكين، فلما جاؤوا إلى بستانهم وجدوه صريمًا لا شيء فيه، حتى إنهم اتَّهموا أنفسهم بأنهم ضاعوا، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾، ليس هذا بستاننا.





١- بَابُ ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾

٤٩١٧- حَدَّثَنَا مَحْمُودٌ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي حَصِينٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ قَالَ: رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ لَهُ زَنَمَةٌ مِثْلُ زَنَمَةِ الشَّاةِ[١].

٤٩١٨- حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَعْبَدِ بْنِ خَالِدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ الْخُزَاعِيَّ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ»[٢].

---

[١] الزنمة: هي الزيادة التي تكون في رقبة الشاة تتدلَّى، أحيانًا تكون واحدةً، وأحيانًا تكون اثنتين.

وقيل: إن الزنيم هو الدَّعِيُّ الذي ينتسب إلى القوم، وليس منهم، والآية لا تمنع هذا ولا هذا.

وفي قوله: ﴿عُتُلٍّ﴾ دليل على غِلَظ طِبَاعه، وعلى شدَّته وقسوته، كالعَتَلَة، وهي الحديدة التي يُضْرَب بها كالمِعْوَل.

[٢] هنا ذكر صفات من صفات أهل النار ومن صفات أهل الجنة، فأمَّا أهل الجنة فقال: «كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ»، والفرق بينهما: أن «ضعيف» وصفه، و«مُتضعِّف»

....

= أي: يتكلَّف هذا الشيء، فهو لا يُريد أن يرتقي إلى درجة أهل الكبرياء والخيلاء، بل هو مُتضعِّف، وهو بنفسه أيضًا ضعيف أمام الناس، مدفوع بالأبواب، لا يُؤْبَه له، لكنه عند الله ذو جاهٍ عظيم، «لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ» يعني: لو قال: واللهِ لا يكون كذا أبرَّه الله، ولم يكن.

ومن هذا: قصة أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع الرُّبَيِّع حينما كسرت ثنيَّة جارية من الأنصار، فترافعوا إلى النبي ﷺ، فأمر بالقصاص، فقال أنس بن النضر: يا رسول الله! تُكْسَر ثنية الرُّبَيِّع؟! كأنها شديدة عليه، قال: «كِتَابُ اللهِ القِصَاصُ»، فقال: واللهِ لا تُكْسَر ثنيَّتها، قال ذلك ثقةً بالله عَزَّوَجَلَّ، وليس اعتراضًا على حكم النبي ﷺ، فعرضوا عليهم المال، فهداهم الله وقَبِلُوه، وتنازلوا عن القصاص، فقال النبي ﷺ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»[1].

وهذا عكس مَن يقسم بالله تحجُّرًا لفضله، وامتنانًا على ربِّه بعمله، فإن هذا رُبَّما يهوي إلى جهنم، مثل الرجل الذي قال: واللهِ لا يغفر الله لفلان، فقال الله تعالى: «**مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»[2]، فهذا أُعْجِب بعمله، وأَدْلَى به على ربِّه، وتحجَّر فضل الله، فقال: واللهِ لا يغفر الله لفلان، فيسَّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لفلان -هذا العاصي- الاستغفار، وهداه، وغفر له، أمَّا ذاك فأحبط الله عمله.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قول الله: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾، رقم (٤٦١١)، ومسلم: كتاب القسامة، باب إثبات القصاص في الأسنان وما في معناها، رقم (١٦٧٥/ ٢٤).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله، رقم (٢٦٢١/ ١٣٧).

....

= والحاصل: أن الإقسام على الله عَزَّوَجَلَّ يكون بحسب الباعث له، فإن كان الباعث له قوَّة الرجاء بالله عَزَّوَجَلَّ وحسن الظنِّ به فهذا لا بأس به، ورُبَّما يُبَرُّ الإنسان، ولا سِيَّما إذا كان ذلك التألِّي أو الحلف على الله هو مقتضى وعده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، مثل أن يقول القائل: واللهِ لنُنْصَرنَّ على القوم الكافرين، فهذا هو مقتضى وعد الله، والله عَزَّوَجَلَّ سيبرُّ قَسَم هذا المُقْسِم.

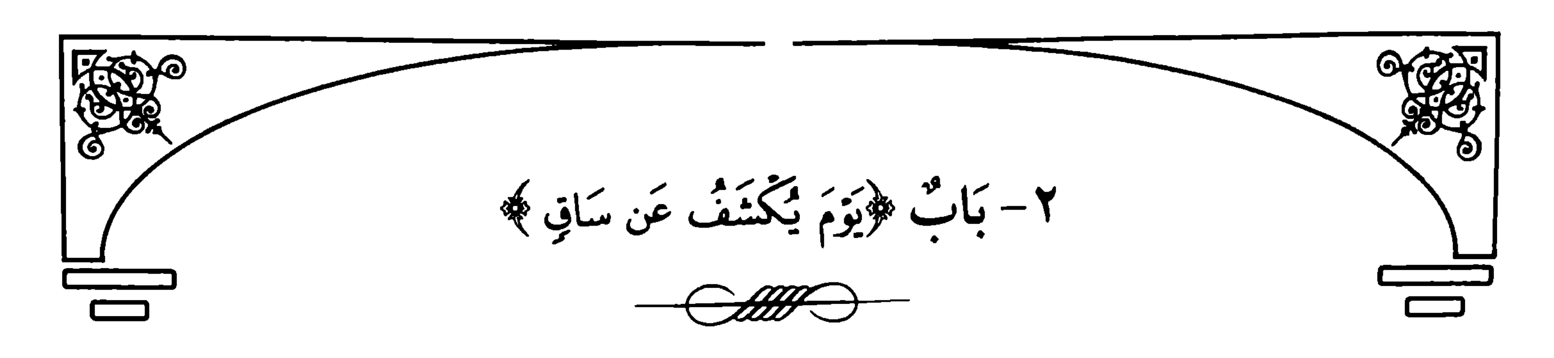
أمَّا إذا كان الحامل على القَسَم إعجاب الإنسان بنفسه، وتحجُّره لفضل ربِّه، واحتقاره لغيره، فإن هذا يُحْبِط عمل الإنسان من حيث لا يشعر.

فإن كان الإنسان يُقْسِم على الله ثقةً به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكن لا يتحقَّق المُقْسَم عليه، فلا كفارة عليه.

ثم اعلم أن المراد بهذا: أن هذه من صفات أهل الجنة، ولا يلزم أن تُوجَد في كل أهل الجنة، ولا يلزم أيضًا ألَّا يكون هناك صفات غير هذه، فالصدق والإيمان والعمل الصالح كلُّ هذا من أوصاف أهل الجنة.

وأمَّا أهل النار فهم: «كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ»، والعتلُّ: هو غليظ الطِّباع القاسي الذي لا يلين، والمستكبر: هو المتعالي على الحقِّ، والجوَّاظ إمَّا أن يكون وصفًا بدنيًّا، وهو أن يكون كثير اللحم كثير الأكل، ليس له همٌّ إلا بطنه، وإمَّا أن يكون وصفًا معنويًّا، إمَّا بالقول، وإمَّا بالفعل، فبالفعل: أن يختال في مشيته، ويمشي مِشْيَة المُتَكَبِّر، وبالقول: أن يكون كثير التشكِّي وعدم الصبر، أو كثير الكلام والقول بما هو شرٌّ.





٢- بَابٌ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾

٤٩١٩- حَدَّثَنَا آدَمُ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، فَيَبْقَى كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا»[١].

---

[١] قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ اختلف السلف في المراد بالساق في هذه الآية، فقال بعضهم: المراد بالساق: الشدة؛ لأنه يُقال: كشفت الحرب عن ساقها، أي: عن شدَّتها، وهو مروي عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(١).

وقال آخرون: بل المراد بالساق: ساقُ الله عَزَّوَجَلَّ.

فمَن قال بالأول قال: إن الله تعالى لم يُضِفْه إلى نفسه، ولم يقل: عن ساقنا، أو عن ساق الله، وإنما نكَّره، وإذا نكَّره ولم يُضَف إليه فإنه لا يجوز أن نُضيفه إليه، بل ننظر ماذا يُعْنَى بالساق في اللغة العربية: هل هو هذا العضو من بني آدم، أو من غيره من الحيوان، أو هو من شيء آخر؟ فقالوا: إن اللائق بهذا السياق أن يكون المراد به: الشدة، وهذا يُطْلَق في اللغة العربية.

---

(١) تفسير ابن جرير (٢٣/ ١٨٧).

....

= والذين قالوا: إن المراد: ساق الله قالوا: إن سياق حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُطابق الآية تمامًا، فإنه يقول: «**يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، فَيَبْقَى كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا**»، فإن قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ مثل قوله: «**فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا**»، وقد كانوا يُدْعَون إلى السجود وهم سالمون، فهم وإن سجدوا في الدنيا لكنهم لم يسجدوا حقيقةً؛ لأن هذا السجود المقترن بالرياء والسمعة غير مقبول عند الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال الله تعالى: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ**»[1]، فكأنهم لم يسجدوا؛ لأنهم قيل لهم: اسجدوا لله، ولكن سجدوا للناس رياءً وسمعةً، وحينئذ كأنهم لا يسجدون، فمَن نظر إلى مُطْلَق اللفظ في الآية قال: المراد بالساق: الشدة، ولا يجوز أن نُضيف إلى الله ما لم يُضِفه إلى نفسه، ومَن نظر إلى سياق الآية مع سياق الحديث قال: المراد بالساق هنا: ساق الله عَزَّوَجَلَّ.

ونحن لا نشكُّ في أن الله تعالى موصوف بأن له ساقًا كما ثبت به الحديث، لكن هل يُؤْخَذ من هذه الآية، أم لا؟ هذا هو محل البحث هنا.

وليُعْلَم أن ساق الله ووجه الله وأصابع الله وكفَّ الله ويد الله وعين الله كل هذه الصفات التي مُسَمَّاها أبعاض لنا وأجزاء هي بالنسبة لله تعالى صفات خبرية أخبرنا الله بها عن نفسه، فيجب علينا أن نُؤْمِن بها، ويحرم علينا أن نُؤَوِّلها إلى المعاني؛ لأن تحريفها إلى المعاني خلافُ ظاهر اللفظ، وهذه أمور غيبيَّة يجب أن نقتصر فيها على ما دلَّ عليه

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب تحريم الرياء، رقم (٢٩٨٥/ ٤٦).

....

= لفظها على ظاهره، لكن بدون تمثيل، فلا نقول: ساق الله مثل ساقنا، أو نقول: إن يد الله مثل أيدينا، أو ما أشبه ذلك، فإن هذا حرام ولا يجوز.

وأمَّا قوله ﷺ: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»[١] فهذا لا يعني التمثيل، ولا يُمكن أن يُريد النبي ﷺ التمثيل، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ويقول: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، لكن المراد: أنه على صورته من حيث الجملة، وأن هناك اشتباهًا في بعض الأمور: وجه ووجه، وعين وعين، ويد ويد، وساق وساق، ولكن بدون مماثلة، والصورة مع الأُخرى لا تستلزم التمثيل، كما ثبت في الحديث: أن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر[٢]، ولا يلزم من ذلك أن تكون مماثلةً لها.

وأيضًا فالناس إذا رأوا امرأةً جميلةً يقولون: وجهها قمر، ومع ذلك فليست بقمر.

والحاصل: أن هذا أسلم ما قيل في الحديث: أننا نُجريه على ظاهره بدون تأويل.

وهناك تأويل ثانٍ قريب، وهو أن الصورة هنا صورة آدم، ولكن الله أضافها إليه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، مثل: ناقة الله، وبيت الله، وأنه من أجل أن الله عَزَّوَجَلَّ أضافها إلى نفسه فإنه لا ينبغي أن نُقَبِّح هذا الوجه، أو نضرب هذا الوجه الذي خلق اللهُ آدمَ على هذه الصورة، فيُفْسِد هذه الصورة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب بدء السلام، رقم (٦٢٢٧)، ومسلم: كتاب الجنة، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم...، رقم (٢٨٤١/ ٢٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الجنة، رقم (٣٢٤٥)، ومسلم: كتاب الجنة، باب أول زمرة تدخل الجنة...، رقم (٢٨٣٤/ ١٤).

....

= وهناك تأويل ثالث، وهو أن الضمير يعود على المضروب، أي: أن الله تعالى خلق آدم على صورة هذا المضروب الذي أنت تضربه مع وجهه، فكأنك ضربت وجه آدم، لكن هذا التأويل ضعيف، ووجهه: أنه لا معنى له.

وهناك قول رابع، وهو أن الله خلق آدم على صورة آدم، وهذا أيضًا ضعيف؛ لأنه لا معنى أن يُقال: إن الله خلق آدم على صورة آدم، فكيف وهي قد جاءت بالحثِّ على عدم ضرب الوجه وتقبيحه؟! إذ إننا نقول: وخلق الله البقر على صورة البقر، وخلق الله الحمار على صورة الحمار، وهكذا، ولا يظهر حينئذ فضل.

فأسلم ما يكون من الوجوه الوجه الأول؛ لأنه هو الذي يمشي على قاعدة أهل السُّنَّة والجماعة من إجراء النصوص على ظاهرها بدون تمثيل.

ثم إنه يجب عند بحث هذه الأمور التي تتعلَّق بالله عَزَّوَجَلَّ ألَّا نبحثها وكأننا نُشَرِّح آدميًّا، بل يجب أن نبحثها مع التعظيم العظيم، والإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَمَّا سُئِلَ عن الاستواء قيل له: يا أبا عبد الله! ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ لم يقل: معنى الاستواء العلو والاستقرار، ولكن لا أدري ما كيفيته، كما هو شأننا نحن، لكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أطرق مليًّا حتى كأن شيئًا نزل على قلبه، وبدأ يتصبَّب عرقًا، وعلاه الرُّحضاء، ثم رفع رأسه، وقال الجملة المشهورة التي صارت ميزانًا لجميع الصفات[1].

فحذارِ أن يكون بحثك في ذات الله عَزَّوَجَلَّ وأسمائه وصفاته كأنك تبحث في شخص، تقول: له عين، وله يد، وما أشبه ذلك، فإن هذا أمر خطير جدًّا، بل يجب

(١) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (ص:٥٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٠٥).

....

= علينا عندما نبحث هذه الأمور -إذا اضطُررنا إليها- أن نبحثها ونحن تقشعرُّ جلودنا من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه، لا أن نجعلها كمسائل نظريَّة نُجادل فيها مع أشعري وماتريدي وما أشبه ذلك.

ووالله إنِّي لأظنُّ أن عجائز أهل القصيم في قلوبهنَّ من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ ما ليس في قلوب كثير من طلبة العلم الذين يبحثون في التوحيد؛ لأن هؤلاء يبحثون وكأنما يبحثون في شيء كالآدمي، لكن عندما يأتي مثل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ تجد العجوز يقشعرُّ جلدها، ونحن تمرُّ على قلوبنا كما يمرُّ قوله: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٣].

والمهم أنَّني أنصح نفسي وغيري في مثل هذه الأمور ألَّا نُجْرِيَها كبحث جدلي، كأنما نُشَرِّح بدن إنسان، بل المسألة خطيرة، ويجب أن يكون في قلب المؤمن من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ ما لا يُؤَدِّي إلى مثل الحال التي عليها كثير من طلبة العلم اليوم.

وهنا نسأل: هل نحن أشدُّ تعظيمًا لله عَزَّوَجَلَّ من الصحابة؟ الجواب: لا والله، ولا أشدُّ حرصًا على العلم بالله وأسمائه وصفاته منهم، ومع ذلك لم يبحثوا مع نبيهم ﷺ هذا البحث، بل أخذوا النصوص بصدر منشرح وقبول اعتقاد ويقين، ومع ذلك لا يُمكن أن يخطر ببال واحد منهم أن شيئًا من هذه الصفات على حقيقتها تقتضي مماثلة الخالق للمخلوق؛ لأنهم يعلمون التباين العظيم بين الخالق عَزَّوَجَلَّ وبين المخلوق، فالمخلوق حادث لم يكن شيئًا مذكورًا، فهل يكون مثل الخالق، أو يتحكَّم هو في صفات الخالق، ويقول: هذه تجب لله، وهذه لا تجب، وهذه تمتنع على الله، وهذه لا تمتنع؟! بل هذا سوء أدب.

....

= والخلاصة في مسألة الساق واليد والوجه والعين أن نقول:

أولًا: يجب أن نبحثها، وقلوبنا ممتلئة بتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ.

ثانيًا: ألَّا نحرص على كثرة البحث فيها، والخوض فيها، فإنِّي أخشى أن يُقَلِّل هذا من هيبة الله وعظمته، ولكن علينا أن نعرف القواعد عمومًا، ونقول في كلِّ ما ورد من صفات الله عَزَّوَجَلَّ: سمعنا، وأطعنا، وقَبِلْنا، وآمنَّا حتى نَسْلَم من هذه الأمور الخطيرة.

واسأل قلبك لَمَّا كنت في الأول ساذجًا لا تعرف البحث في هذه الأمور: ماذا يقع في قلبك من تعظيم الله؟ تجد أنه شيء كثير، لكن لَمَّا خضت هذا الخوض فما يقع من الجدل في هذه الأشياء يُوجب ضعف الخشية والخوف، ولهذا كان أئمَّة الكلام يقولون: إننا نموت على عقيدة عجائز نيسابور، يقوله أبو المعالي الجُوَيْني(1)، وهو مَن هو في علم الكلام! وكذلك كثير منهم يقول: ها أنا أموت على عقيدة أمِّي.

أمَّا إذا كان الإنسان سيتكلَّم فيها بحق، وعلى مجراها عند السلف، فهذا يزداد إيمانًا وتعظيمًا لله عَزَّوَجَلَّ، لكن غالب المجادلات الآن ومنذ ظهر علم الكلام مجادلات لا تُبْنَى على تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، إلا مَن شاء الله.

ومع هذا فلست أُقَلِّل من أهمية الموضوع، بل هو ذو أهمية؛ لأنه يُوجَد أُناس مبتدعة يَدْعُون إلى الباطل، ويُجادلون فيه، ويحتاجون إلى النزول معهم في الميدان حتى نخوض كما خاضوا، ونُلقمهم أحجارًا ممَّا يدَّعون من أن هذا هو الميزان، وهذا هو المعقول، وما أشبه ذلك.

---

(1) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٧٣).

....

فهذه القاعدة ينبغي أن يفهمها الإنسان فهمًا جيِّدًا، وأن يجعل في قلبه دائمًا تعظيم ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإن قال قائل: إذا قال لنا أهل التحريف: إن السلف يُجْرون النصوص على ظاهرها، وأنتم تُؤَوِّلونها في نصوص الساق والمعيَّة، فكيف تُنْكِرون علينا تأويلنا، فما هو الجواب عن هذا؟

نقول: الجواب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن نُنْكِر أن هذا هو التأويل الذي ذهبوا إليه؛ لأنهم هم يُحَرِّفون الكلم عن مواضعه في أمور ظاهرة.

الوجه الثاني: أن نقول: إن تأويلنا نحن له بدليل، أمَّا أنتم فلو أوَّلتم بالدليل لقلنا: على العين والرأس، لكنكم تُؤَوِّلون بلا دليل.

ثم نقول في مسألة الساق: إن الساق في الآية ما أُضيف إلى الله عَزَّوَجَلَّ، بمعنى: أن الله عَزَّوَجَلَّ ما قال: «عن ساقه»، حتى تُلزمونا بأن نجعله صفةً من صفات الله، ونحن نؤمن بالساق من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأمَّا المعيَّة فإن السلف رُوِيَ عنهم أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] أي: بعلمه، وهو تفسير بلازمها، وليس تفسيرًا بالمعنى المطابق.

ومن العلماء المُحَقِّقين الذين لا يُتَّهمون في عقيدتهم -كشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ- مَن قال: هو معنا حقيقةً عَزَّوَجَلَّ، وهو على عرشه في السماء، وقال: إن العلو والمعيَّة

....

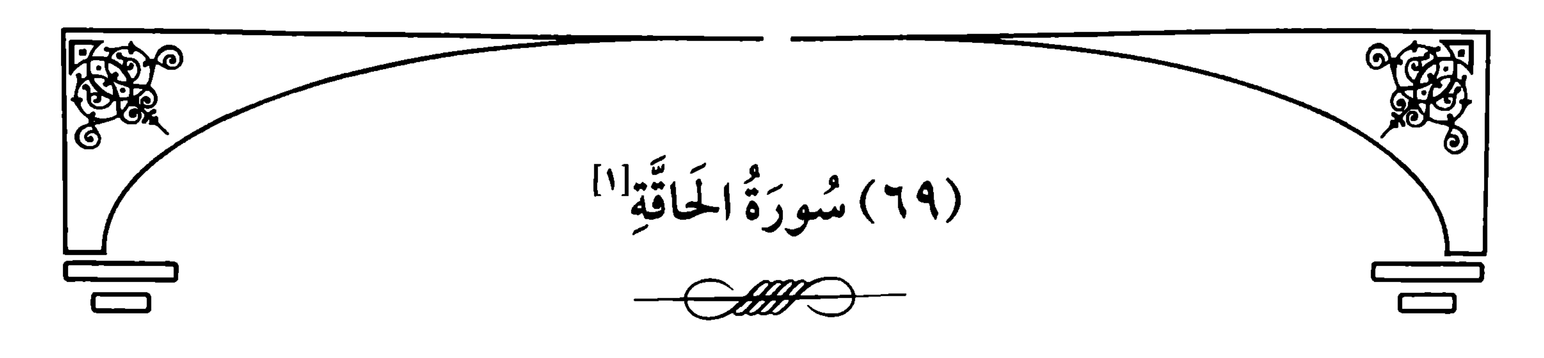
= الحقيقية لا منافاة بينهما، وهانحن نقول: إن القمر معنا، والنجم الفلاني معنا، وما أشبه ذلك، ومع هذا فالنجم في مكانه، والقمر في مكانه في السماء، فهو لا يُؤَوِّل في المعية، بل هي حق على حقيقتها وظاهرها، لكنه يمنع من أن يكون في الأرض؛ لأنه ثبت أنه في العلو[١].

وهذا كما نقول في الصورة تمامًا، فإن الصورة لو أخذنا بظاهر اللفظ لكان ظاهره التمثيل، فلو قلت: عندي ثوب على صورة هذا الثوب، أو عندي شيء على صورة هذا الشيء، فمعنى هذا: التماثل، لكن نقول: هي صورة حقيقيَّة بدون مماثلة.

وهنا فائدة: علم الكلام هو علم جدل فقط، يُريدون أن يُحَوِّلوا العلم المبني على الكتاب والسُّنَّة إلى علم مبني على ما يدَّعونه عقلًا، ومع هذا فالذي يدَّعونه عقلًا هو في الحقيقة وَهْم، لا عقل.



(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٢).



(٦٩) سُورَةُ الحَاقَّةِ[١]

قَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ يُرِيدُ فِيهَا الرِّضَا[٢].

---

[١] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ الحاقة: اسم فاعل من: حقَّ إذا وَجَبَ وثَبَتَ، فهي حاقَّة، أي: واجبة ثابتة.

وتعظيمها بقوله: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ واضح؛ لأن «ما» للتفخيم والتعظيم، ولهذا أُعيد المبتدأ بلفظه، يعني: ما هذه الحاقة التي تحقُّ؟ والجواب: هي حاقَّة عظيمة، لو لم يكن من عِظَمِها إلا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١]، فعظَّمها الربُّ عَزَّوَجَلَّ.

وقصَّ الله تعالى في هذه السورة علينا نبأ أقوام أهلكهم، ثم ذكر فيها مآل الخَلْق، وأن الناس منهم مَن يُؤْتَى كتابه بيمينه، ومنهم مَن يُؤْتَى كتابه بشماله، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾.

[٢] ظاهر كلام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المراد: راضٍ أهلُها، وقيل: إن ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ بمعنى: مَرضيَّة، ولكنه جيء بها باسم الفاعل من باب المبالغة.

وعلى كلِّ حال: فعيشتها راضية ومرضيَّة، وفيها الرِّضا، ولو لم يكن فيها من الرِّضا إلا رضا الله عَزَّوَجَلَّ، حيث يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «**أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي،**

﴿ٱلْقَاضِيَةَ﴾ المَوْتَةَ الأُولَى الَّتِي مُتُّهَا، لَمْ أُحْيَ بَعْدَهَا[١].

= فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»(١).

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾، قال: «المَوْتَةَ الأُولَى الَّتِي مُتُّهَا، لَمْ أُحْيَ بَعْدَهَا»، وهذا كقوله في الآية الثانية: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ:٤٠]، أي: ليتني ما خرجت، فإنه لمَّا كان في قبره يُعَذَّب لا يعلم به أحد، وليس في ذلك عار وخزي، فلما خرج صار مع العذاب عار وخزي؛ لأنه في ذلك اليوم كلُّ أحد يشهد: الملائكة، والجن، والإنس، والوحوش، وكل شيء، فكلُّ شيء يُحْشَر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، ولهذا سمَّى الله ذلك اليوم: يوم الجمع.

فإن قال قائل: إذا كان كذلك فكيف نجمع بين هذا وبين قول الله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٥٤-٥٥]؛ لأن هذا يدلُّ على أنه لم يكن يراه قبل أن يطَّلع عليه، وكذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [ص:٦٢-٦٣]؟

فالجواب: أنه في الجمع الكثير لا يلزم أن كل واحد يرى كل شخص، وربَّما يكون قد رآه في عرصات القيامة، لكن يُريد أن يراه بعد أن استقرَّ في النار، ولهذا قال: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وأمَّا قول أهل النار: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ فهؤلاء الرجال

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٤٩)، ومسلم: كتاب الجنة، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، رقم (٢٨٢٩/ ٩).

﴿مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ «أَحَدٌ» يَكُونُ لِلْجَمِيعِ وَالوَاحِدِ[1].

= كانوا من المؤمنين الذين لم يدخلوا النار، قالوا: أين هم؟ وكانوا يظنُّون أنهم من الأشرار، وأنهم سيكونون في النار.

[١] هذا جواب إشكال، فلو قال قائل: كيف قال: ﴿حَٰجِزِينَ﴾ بصيغة الجمع، وهو خبر عن ﴿أَحَدٍ﴾؟

فقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن كلمة «أحد» تصلح للجمع والمفرد، تقول: «ما فيها أحد ساكن»، وتقول: «ما فيها أحد ساكنون».

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ ﴿مِّنْ﴾ زائدة، و﴿أَحَدٍ﴾ اسم «ما»، و﴿حَٰجِزِينَ﴾ خبرها؛ لأن «ما» هنا حجازيَّة.

وهذه الآية في سياق قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾، هذا لو تقوَّل بعض الأقاويل -لا كلِّها- لعاملناه بهذه المعاملة: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: بالقوة، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ وهو عِرْق يتَّصل بالقلب، إذا قُطِعَ مات الإنسان، ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ يعني: ما أحد منكم يحجزنا عنه، هذا وهو الرسول ﷺ، فكيف بمَن يأتي اليوم، ويقول: حكم الله في هذا أنه حرام، حكم الله في هذا أنه حلال، حكم الله في هذا أنه واجب؟! فقد تقوَّل على الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا كان السلف -وهم أئمَّة- يتحاشون أن يقولوا: هذا حلال، وهذا حرام، فكان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا تكاد تجد في أجوبته كلمة «حرام» أو «واجب» أو ما أشبه ذلك، ولكن يقول: لا أُحب هذا، أكره هذا، لا ينبغي، افعل هذا، وما أشبه ذلك من الكلام؛ تحرُّزًا من أن يقول على الله ما لا يعلم، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل:١١٦].

....

= أمَّا نحن ففي أدنى شيء نقول: هذا حرام، هذا واجب، مَن فعل هذا فصلاته باطلة، وهكذا، جُرْأَة عظيـمة على الله عَزَّوَجَلَّ، وكأنَّ الفتوى أصبحت سلعةً لأهـل البيوع، أي إنسان يربح فيها فهو الرابح.

وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتدافعون الفُتْيَا، يأتي إليه الرجل، فيقول: اذهب إلى فلان، إلا إذا رأى الضرورة، بحيث لم يكن في البلد أحد سواه، فإنه يُجيب، أمَّا ما دام يرى أن أحدًا يُمكن أن يقوم بالواجب فهو يتحرَّز منها[١].

لكن إذا كان يخشى ألَّا يُجيب أحد فإنهم يُجيبون؛ لأنَّ مَن سُئِلَ عن علم فكَتَمَه أُلجم بلِجَام من نار يوم القيامة.

والحاصل: أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لو تقوَّل على الله شيئًا من الأقاويل لكانت هذه عقوبته، فكيف بنا؟!

ولقد حاجَّني رجل رأى بعض الناس يُصَلُّون أمام الإمام في مسجد ضيـق، ولا يُوجَد فيه مكان، وقال لي: ما تقول في هؤلاء الذين صلَّوا أمام إمامهم؟ فقلت: هذا ضرورة؛ لأن المكان ضيـق ولا يستطيعون، وقد قال بعض العلماء: إنه يجـوز أن يتقدَّم المأمـوم على الإمام للضرورة، وعند الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه جائز مُطْلَقًا ولو بلا ضرورة[٢]، فاشرأبَّ، وقال: كيف هذا؟! الإمام مالك يقول هكذا؟! قلت: نعم، قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ يقولها بغِلْظَة، وهذا الرجل نفسُه من قوم يسبُّون الصحابة، ويقول هذا الكلام في فقهاء الإسلام.

---

(١) يُنْظَر: الزهد لابن المبارك، (ص:٦٣).

(٢) انظر: مختصر اختلاف العلماء للطحاوي (١/ ٢٣٦)، والإشراف للقاضي عبد الوهاب (١/ ٣٠٠).

....

= والخلاصة: أنني أقول: احذر أن تقول على الله شيئًا لم تتيقَّن أنه قول الله أو يغلب على ظنِّك ذلك، وغلبة الظن مع الاجتهاد تكفي؛ لأنه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

لكن متى يتورَّع طالب العلم أن يقول في بعض المسائل: هذا حلال، أو هذا حرام؟

نقول: أمَّا التي فيها نص صريح فلا بأس، كما لو قال الإنسان: ما حكم الميتة؟ فتقول: حرام، أو قال: ما حكم البيع؟ تقول: حلال، أو ما حكم الربا؟ فتقول: حرام.

لكن في المسائل التي لا يجزم الإنسان بأنها واجبة مثلًا، ككثير من أوامر الله عَزَّوَجَلَّ وأوامر الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإنك لا تجزم أنها على سبيل الوجوب، ولا أنها على سبيل الاستحباب، ومثل هذه هي التي قال فيها الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ»(١).

لكن هنا إشكال، وهو أن بعض الناس إذا قلت له: افعل هذا، قد أمر به الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال: أهو واجب؟! فنقول: سبحان الله! وهل لا تفعله إلا إن كان واجبًا؟! أمر الرسول ﷺ به، فافعل.

وأحيانًا تقول له: هذا نهى عنه الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فلا تفعله، ثم يُجادلك: أحرام هو؟ ولهذا نقول: إذا نهى عنه الرسول ﷺ فاتركه، ثم إذا حصلت حال تستلزم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال، رقم (١٥٩٩/ ١٠٧).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ٱلْوَتِينَ﴾ نِيَاطُ القَلْبِ[١].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿طَغَا﴾ كَثُرَ، وَيُقَالُ: ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ بِطُغْيَانِهِمْ، وَيُقَالُ: طَغَتْ عَلَى الخَزَّانِ، كَمَا طَغَى المَاءُ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ[٢].

= أن نقول: هو حلال، أو هو حرام، كضرورة أو ما أشبه ذلك، بحثنا؛ لأن المعروف أن الأصل في الأوامر الوجوب، وفي النواهي التحريم.

فإن قال قائل: لكن العامَّة إذا لم تقل لهم: هذا حرام لا ينتهون عنه، فلو قلت لمن يشرب الدخان: لا تشرب الدخان، هذا يضرُّك ويُفْنِي مالك، وتسأم العبادات من أجله، قال لك: أهو حرام؟

قلنا: هنا أستطيع أن أقول: هو حرام؛ لأن عندي أدلَّةً، كحديث: «**إن الله نهى عن إضاعة المال**»(١)، هكذا جاء الحديث.

[١] نياط القلب: هو عرق القلب؛ لأن القلب يتحرَّك، وهذا العرق الذي يتَّصل بالقلب يتحرَّك، ولهذا لو مسسته وجدته يتحرَّك.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، قال: «كَثُرَ»، وهذا الماء الذي طغى وكَثُر وزاد هو الماء الذي أرسله الله تعالى على قوم نوح عذابًا لهم، فإن نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دعا ربَّه: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، وهذا فيه توسُّل إلى الله تعالى بحال الداعي، فلمَّا لجأ إلى الله عَزَّوَجَلَّ بذكر حاله، وتوسَّل بها إليه، أجابه الله، قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ أي: شديد غزير، وفي قراءة: (فَفَتَّحْنَا)(٢)،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل، رقم (٥٩٣/ ١٤) عن المغيرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
(٢) قرأ بالتشديد ابن عامر، وقرأ الباقون بالتخفيف، يُنْظَر: التبصرة في القراءات السبع، (ص: ٤٩٤).

....

= ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: كل الأرض، حتى إن التنور الذي هو موقد النار -وهو أبعد ما يكون عن الماء؛ لحرارته، ويُبْسِه- صار يفور، ولهذا قال: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾، ولم يقل: «فجرنا عيون الأرض»، فصارت الأرض كلُّها كأنها عين، والله أعلم: هل طغى الماء على الكرة الأرضية، أو طغى على الذين كذَّبوا نوحًا فقط؟ لأنه يصح أن نقول: إن قوله: ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ يُراد بها أرض خاصة، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة:٢١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، وفي ذلك الوقت يظهر -والله أعلم- أنه لا يُوجَد إلا قوم نوح؛ لأن المدة بين آدم ونوح عليهما الصَّلاة والسَّلام وجيزة، ولم ينتشر الناس كثيرًا، ولم يذكر الله تعالى مع نوح أحدًا من الرسل، ولا بقي إلا ذُرِّيَّة نوح فقط، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧].

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي: ماء السماء وماء الأرض ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾، ففي مدَّة وجيزة كثر الماء وطغى، حتى صار على قمم الجبال.

ويُقال: إن امرأةً كان معها صبي، وكانت تصعد على الجبل، وكلما ارتفع الماء صعدت، حتى وصل إلى قمة الجبل، فلما ألجمها الماء رفعت صبيها تُريد أن تموت قبله، وفي الحديث الذي يُرْوَى عن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَوْ رَحِمَ اللهُ أَحَدًا مِنْ قَوْمِ نُوحٍ لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ**»[1]، لكن إذا جاء بأس الله لا ينفع الندم ولا التوبة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ [غافر:٨٤-٨٥]، وهذا فرعون

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٤٢).

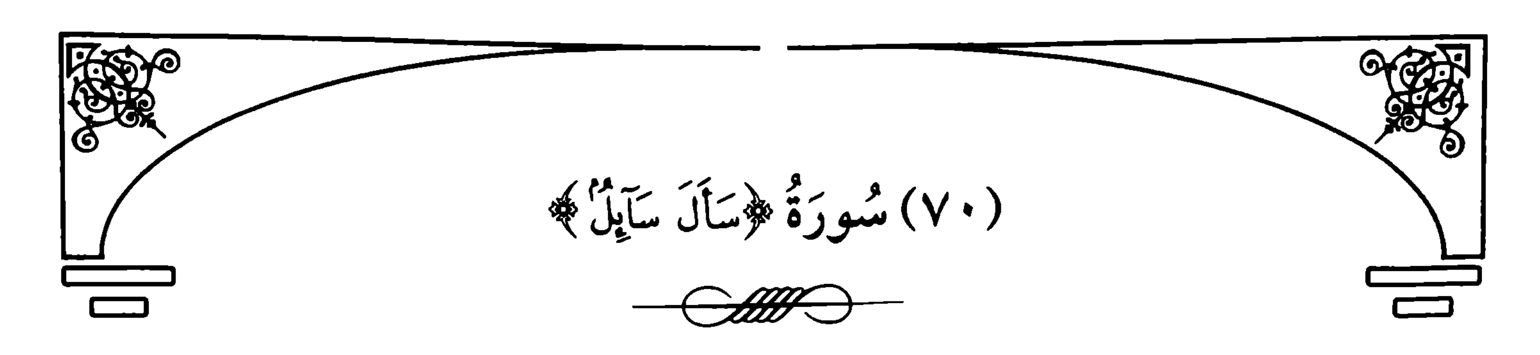
....

= لَمَّا أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ يعني: أتُؤْمِن الآن ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

فإن قال قائل: فكيف نُوَجِّه طلب نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من ابنه أن يُؤْمِن حين عاين الطوفان؟

نقول: لعله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ظنَّ أن قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ [هود:٤٠] أنه سينجو منهم، فظنَّ العموم، ولهذا قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هود:٤٥].





(٧٠) سُورَةُ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾

الفَصِيلَةُ: أَصْغَرُ آبَائِهِ القُرْبَى، إِلَيْهِ يَنْتَمِي مَنِ انْتَمَى[١].

﴿لِّلشَّوَىٰ﴾ اليَدَانِ، وَالرِّجْلَانِ، وَالأَطْرَافُ، وَجِلْدَةُ الرَّأْسِ، يُقَالُ لَهَا: شَوَاةٌ، وَمَا كَانَ غَيْرَ مَقْتَلٍ فَهُوَ شَوًى[٢].

﴿عِزِينَ﴾ وَالعِزُونَ: حِلَقٌ وَجَمَاعَاتٌ، وَوَاحِدُهَا: عِزَةٌ.

---

[١] هذا في قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾، ولهذا قال: «إِلَيْهِ يَنْتَمِي مَنِ انْتَمَى»، فيوم القيامة يفرُّ المرء من أخيه، وأمه، وأبيه، وصاحبته، وبنيه، وفي هذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾، لكن ما هو الشَّوى؟

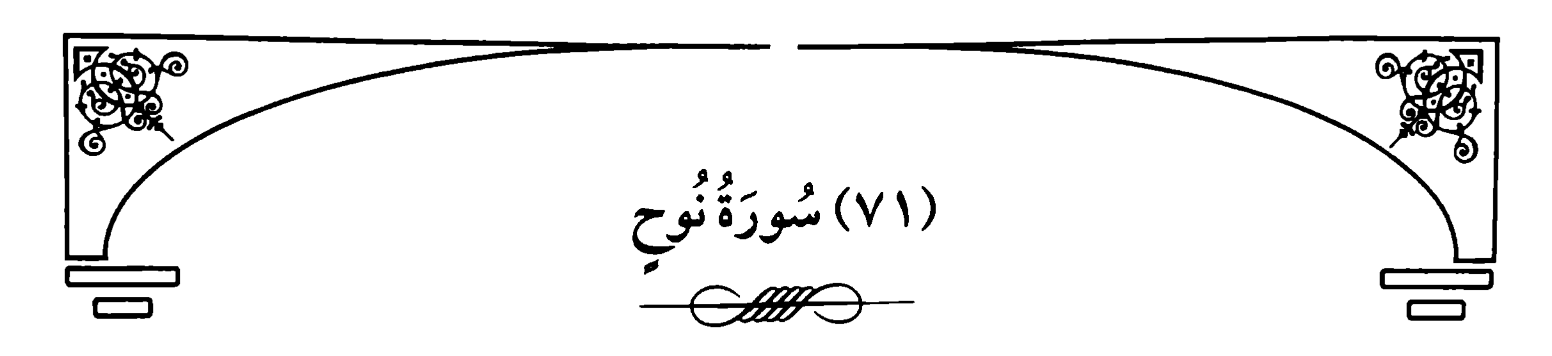
الجواب: قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اليَدَانِ، وَالرِّجْلَانِ، وَالأَطْرَافُ، وَجِلْدَةُ الرَّأْسِ، يُقَالُ لَهَا: شَوَاةٌ، وَمَا كَانَ غَيْرَ مَقْتَلٍ فَهُوَ شَوًى»، يُريد أن كل الأطراف التي ليس فيها مقتل تُسَمَّى: شوى، أي: أنها تنزع اليدين والرِّجلين وجلدة الرأس وما أشبه ذلك.

فإن قال قائل: وكيف نجمع بين هذا، وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦]، فكأن العذاب يكون على الجلود؟

....

= نقول: لأن الجلود لـمَّا كانت هي التي تُباشر صار النضج فيها، ولهذا قال بعضهم في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة:٧] قال: تأكل منهم كل شيء إلا القلب، فيبقى؛ ليتألَّم، والعياذ بالله، نسأل الله أن ينجينا من النار.





(٧١) سُورَةُ نُوحٍ

﴿أَطْوَارًا﴾: طَوْرًا كَذَا وَطَوْرًا كَذَا، يُقَالُ: عَدَا طَوْرَهُ أَيْ قَدْرَهُ.

وَالكُبَّارُ أَشَدُّ مِنَ الكِبَارِ، وَكَذَلِكَ جُمَّالٌ وَجَمِيلٌ لأَنَّهَا أَشَدُّ مُبَالَغَةً، وَكَذَلِكَ كُبَّارٌ الكَبِيرُ، وَكُبَارًا أَيْضًا بِالتَّخْفِيفِ، وَالعَرَبُ تَقُولُ: رَجُلٌ حُسَّانٌ وَجُمَّالٌ وَحُسَانٌ، مُخَفَّفٌ، وَجُمَالٌ، مُخَفَّفٌ.

﴿دَيَّارًا﴾: مِنْ دَوْرٍ، وَلَكِنَّهُ فَيْعَالٌ مِنَ الدَّوَرَانِ، كَمَا قَرَأَ عُمَرُ: الحَيُّ القَيَّامُ: وَهِيَ مِنْ قُمْتُ.

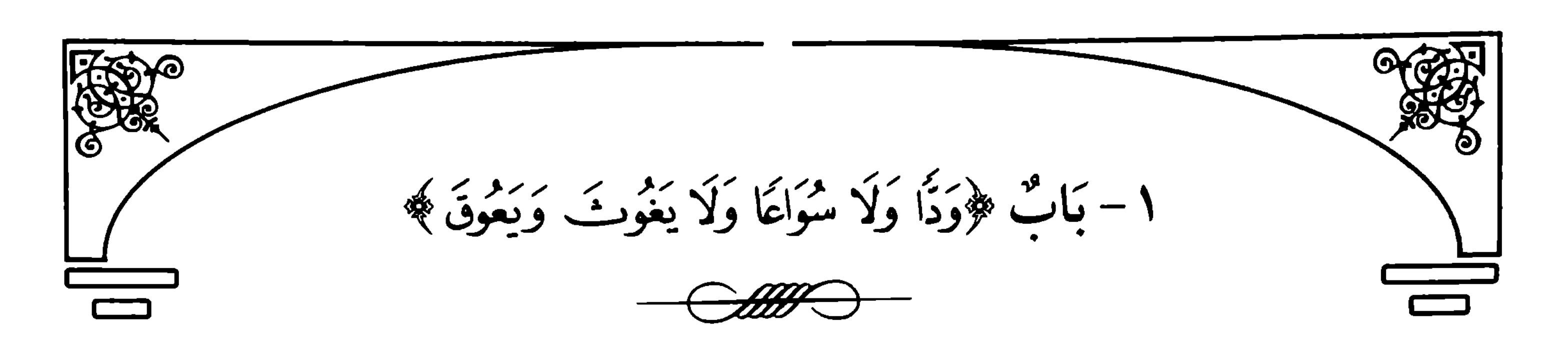
وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿دَيَّارًا﴾: أَحَدًا.

﴿تَبَارًا﴾: هَلَاكًا.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿مِّدْرَارًا﴾: يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

﴿وَقَارًا﴾: عَظَمَةً.





١- بَابٌ ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾

٤٩٢٠- حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى: أَخْبَرَنَا هِشَامٌ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، وَقَالَ عَطَاءٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالجَوْفِ عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَتَنَسَّخَ العِلْمُ، عُبِدَتْ[١].

---

[١] في هذا: دليل على خطورة تصوير الصالحين، سواء كانوا على شكل التِّمثال، أو على شكل مُلَوَّن، وتُجعَل في المجالس؛ ليتذكَّر الإنسان بهم طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فإن هذا يُؤَدِّي في النهاية إلى أن يغلو أولئك القوم الذين نصبوها يغلو في هؤلاء، ثم يعبدوهم.

والإنسان الذي يُريد أن يتذكَّر طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ليس له أحسن من الكتاب الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ، والوحي الذي أوحاه الله إليه، وذلك في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله ﷺ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، وكان النبي ﷺ يَعِظُ أصحابه أحيانًا مواعظ تَوْجَل منها القلوب، وتذرف منها العيون، ﷺ، وهذه هي المواعظ النافعة.

....

أمَّا ما يُسَمَّى بالتذكار، بأن يجعل صورةً يحملها في جيبه أو يضعها في غرفته أو في مجلسه أو ما أشبه ذلك، فكلُّ هذا من الشيطان، ولا يحلُّ، ولهذا نقول: جميع الصور بأي شيء صُوِّرت لا يجوز اقتناؤها أبدًا، اللهم إلا عند الضرورة أو الحاجة أو شيء لا يستطيع الإنسان أن يفرَّ منه كالدراهم والتابعية والجواز وشبهها، وإلا فإن اقتناء الصور ووضعها في البيوت ظاهر تحريمه من قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ**»(١).

فإن قال قائل: وما حكم وضع صورة الكاتب عند المقال؛ لأجل أن يُعْرَف؟

قلنا: لا يجوز، وليس فيه مصلحة، والإنسان يُعْرَف بكلامه، لا بشكله، فإذا كان كلامه جيِّدًا ونافعًا ومحتويًا على العلم عرفه الناس، وسألوا عنه.

فإن قال قائل: وما حكم تصوير المعارك؟

قلنا: أمَّا تصويرها بالفيديو فلا بأس فيه، وأمَّا في المجلات فالإنسان يتردَّد فيها، فقد يقول قائل: إن هذا فيه مصلحة؛ لأجل أن يتشجَّع الناس على مساعدتهم ومعاونتهم بالمال والدعاء وغير ذلك، وقد يقول قائل: إنها لا تجوز.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب من كره القعود على الصور، رقم (٥٩٥٨)، وفي باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه صورة، رقم (٥٩٦٠)، وفي باب من لم يدخل بيتًا فيه صورة، رقم (٥٩٦١)، ومسلم: كتاب اللباس، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٦/ ٨٣) (٢١٠٧/ ٩٦) عن أبي طلحة وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه صورة، رقم (٥٩٦٠) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه مسلم في الموضع السابق، رقم (٢١١٢/ ١٠٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

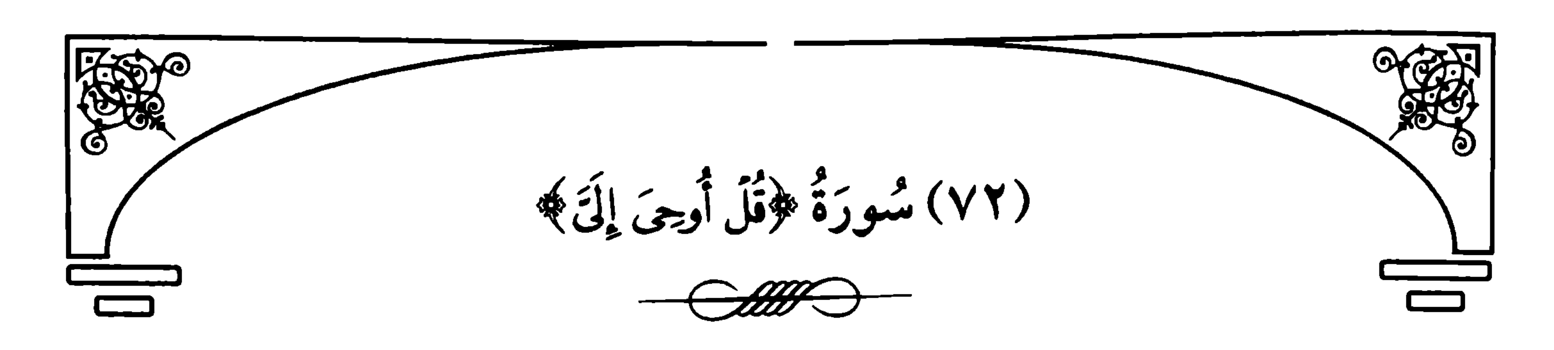
= **فإن قال قائل**: وهل يجوز اقتناء المجلات التي فيها صور؟

قلنا: هناك مجلات فيها صور، ويقتنيها الإنسان لا من أجل الصور، فهذه نظرًا لعمـوم البلوى بها، ومشقة التحرُّز منها، أرى أنه لا بأس بها، ما دام الإنسان لا يُريد الصورة، إنما يُريد ما فيها من الكـلام النافع؛ لأنه لم يقصد اقتناء الصـور، وإن كان التورُّع والأفضل أن يطمس ما فيها، وأهم شيء الوجه.

وأمَّا النقود فلا؛ لأن هذا إضاعة مال، ولو طمس الإنسان ثم اشترى بها فإنها تُرَدُّ عليه.

والآن جاءنا أمر أشدُّ من هذا وأفظع: صور خليعة وصور عارية، فهم ما جاؤوا يغزون المسلمين بالسلاح والقنابل، ولكن بالقنابل المُدَمِّرة للأخلاق، صاروا يغزوننا بها، ونحن اسْتَمْرَأْناها، وصارت أمرًا مُعتادًا عندنا، بل صار بعض الناس يتقصَّد أن يشتري هذا الشيء؛ لأجل إثارة غريزته.





(٧٢) سُورَةُ ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لِبَدًا﴾ أَعْوَانًا[١].

٤٩٢١ - حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ قَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالَ: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا مَا حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِي حَدَثَ، فَانْطَلَقُوا، فَضَرَبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، يَنْظُرُونَ مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، قَالَ: فَانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِنَخْلَةَ، وَهُوَ عَامِدٌ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الفَجْرِ،..................

---

[١] اللِّبَد مأخوذ من التجمُّع، ومنه: قولهم: لبَّد رأسه بالصمغ والحناء وما أشبه ذلك، يعني: جمَّعه.

ويعني بذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، أي: مجتمعين كاللِّبَد، ومتعاونين على إفساد ما يدعو إليه، حتى كانوا يقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]، وهو يشمل شياطين الإنس والجن، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ إذا نصر أحدًا لا يستطيع أحد أن يخذله أو يهزمه.

فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ، فَقَالُوا: هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾، وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ[١].

---

[١] هذا الحديث واضح في تفسير هذه السورة، وهذه السورة إذا تأمَّلها الإنسان وجد العجب ممَّا صنعه الجنُّ من هذا الكلام الصحيح المبني على التوحيد الخالص، والذي أقرُّوا فيه على أنفسهم بأنهم ثلاث طوائف: مسلمون، والمسلمون فيهم صالحون ودون ذلك، والطائفة الثالثة: قاسطون، أي: كافرون، فقالوا: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، وهناك فرق بين «أَقْسَط» الرباعي، وبين «قَسَطَ» الثلاثي، فـ:«قَسَط» بمعنى: جَارَ، و«أَقْسَط» بمعنى: عدل، ومثله: «أخطأ» و«خَطِئ»، فإذا قيل: أيهما المذموم: الخاطئون، أم المخطئون؟

قلنا: الخاطئون هم المذمومون، قال الله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق:١٦]، وأمَّا المُخْطِئ فليس بمذموم، بل معفو عنه.

فإن قال قائل: يرد على هذا قول الله تعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء:٨٢]!

قلنا: لا؛ لأن الخطيئة يُراد بها: ما أخطأ به الإنسان، والإنسان بشر، قد يكون له خطيئة يُخْطِئ بها، ويحتاج إلى مغفرة الله عَزَّوَجَلَّ، وكان النبي ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»(١)، ويقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٣/ ٢١٦).

....

= قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ»[1]، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:١-٢]، وقال له: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]، وليس عيبًا أن يُخْطِئ الإنسان بمقتضى الطبيعة البشرية، ثم يستغفر الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا غفر الله له زال أثر الذنب.

فإن قال قائل: وهل الأنبياء معصومون من الخطإ؟

قلنا: أمَّا الخطأ الذي يعود إلى أصل الرسالة فهذا لا يُمكن أن يقع منهم، كالكذب والخيانة وما أشبه ذلك، وذلك لأن هذا طعن في الرسالة.

وأمَّا الخطأ في عبادة الله فاختلف فيه العلماء، فقال بعضهم: إنه لا يُمكن أن يقع منهم معصية أبدًا، وقالوا: إنهم معصومون عن صغائر الإثم وكبائره.

وقال بعضهم: تقع منهم المعاصي الصغار دون الكبار.

وقال بعضهم: حتى الكبائر تقع منهم، كما وقع لموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في قتل النفس، وهذا وإن كان قد وقع منه قبل أن يُرْسَل، لكنه وقع مع علمه بتحريمه، فهي كبيرة، ولهذا قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ [القصص:١٦].

وقال آخرون: إنه لا يقع منهم إلا خطأ في اجتهاد، ويكونون ملومين على ذلك؛ لعدم تثبُّتهم في هذا الشيء، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ»، رقم (٦٣٩٨)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب في الأدعية، رقم (٢٧١٩/ ٧٠).

....

= والصحيح: أنه يقع منهم الخطأ مُطْلَقًا والذنب مُطْلَقًا، إلا ما يعود إلى الرسالة، فإنه لا يُمكن أن يقع منهم، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى:٦-٧]، على أن بعض العلماء قال في هذه الآية: المراد به: النسخ، أي: فلا تنسى إلا ما شاء الله أن يُنسيك إيَّاه، فينسخه، فهو كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة:١٠٦].

أمَّا ما ثبت عنه من أنه ﷺ نسي آيةً -كما في حديث أُبيٍّ بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ حين صلَّى مع النبي عَلَيهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فلما انصرف أخبره أنه نسي آيةً، قال: «**مَا مَنَعَكَ؟**»[(١)] وكذلك ما ثبت عنه أنه مرَّ برجل يقرأ في الليل، فقال: «**يَرحَمُهُ الله! لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا -آيَةً- كُنْتُ أُنْسِيتُهَا**»[(٢)]- فهذا لا يضرُّ؛ لأنه كما نسي، فسلَّم قبل أن يُتمِّم صلاته[(٣)]، فكذلك ينسى ما حفظه من كتاب الله، لكن لا يُمكن أن ينساه قبل أن يُبلِّغه، ولو فُرِضَ أنه نسيه قبل أن يُبلِّغه فإنه يُذكَّر به، ولعلَّ هذا هو معنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، يعني: فلا تنسى ما أوحينا إليك قبل تبليغك، أمَّا بعد التبليغ فلو نسي فالناس قد ذكَروه، ولهذا قال: «هَلَّا أَذْكَرْتَنِيهَا»، وقال للرجل الآخر: «**يَرحَمُهُ الله! لَقَدْ أَذْكَرَنِي آيَةً**».

---

(١) يُنْظَر: سنن أبي داود: كتاب الصلاة، باب الفتح على الإمام، رقم (٩٠٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب نسيان القرآن، رقم (٥٠٣٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الأمر بتعهد القرآن، رقم (٧٨٨/ ٢٢٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم (٤٨٢)، ومسلم: كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٣/ ٩٧) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ. وأخرجه مسلم في الموضع السابق، رقم (٥٧٤/ ١٠١) عن عمران رَضِيَٱللَّهُعَنهُ.

....

وهذه المسألة خاض فيها الناس كثيرًا، حتى إنهم قالوا: إن نسيان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في صلاته إنه ليس نسيانًا بشريًّا، مع أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نفسه قال: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ**»(١)، ولكن الصواب: أنه ينسى، وأن كل الطبائع البشرية تَرِدُ عليه.

والخلاصة: أن الأنبياء قبل الرسالة معصومون من الشرك، ومعصومون من الرَّذائل وكلِّ ما هو من سيِّء الأخلاق، كالفواحش وما أشبهها؛ لأنهم يُبْعَثون حيث علم الله عَزَّوَجَلَّ أن فيهم الكفاءة.

فإن قال قائل: يَرِدُ على هذا قول إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين يطلبون منه الشفاعة، فيقول: «**وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ**»(٢)!

قلنا: أمَّا قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٩] فهذه تورية، أو تنزُّلًا معهم حيث يقولون هكذا، مثل قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٦]، مع أنه يعرف أنه ليس بربِّه، ولهذا قال في آخر الآيات: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، لكن لَمَّا كان هؤلاء يظنُّون أنه صادق بحسب ما يظهر من كلامه صار كالكذب، فإن التورية كذب من وجه، وصدق من وجه آخر، فلو سألني سائل، قال: هل عندك لزيد شيء؟ فقلت: «ما لزيد عندي شيء» فهذا صدق من جهة، وكذب من جهة، فحينما فهم الرجل أنه لا شيء لزيد عندي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم (٤٠١)، ومسلم: كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة، رقم (٥٧٢/ ٨٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، رقم (٤٧١٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلةً فيها، رقم (١٩٤/ ٣٢٧)، واللفظ للبخاري.

....

= -مع أن عندي له شيئًا- صار كذبًا، لكن من حيث اعتقادي أن المعنى: الذي لزيد عندي شيءٌ من الأشياء صارت صدقًا.

ولنرجع إلى الآيات، فنقول: إذا تأمَّل الإنسان ما صنعه الجن رأى حُسْنَ تعلُّمهم، وأنهم لـمَّا حضروا القرآن قالوا: ﴿أَنصِتُوا﴾ [الأحقاف:٢٩]، فأنصت بعضهم بعضًا؛ لأجل أن يستمعوا بهدوء وفَهْم، فذهبوا إلى قومهم يقولون هذا الكلام: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾.

ثم اعلم أن الأحكام التي تلزم الجن يسمعونها، وتُبلَّغ إليهم، ولكن هاهنا مسألة، وهي: هل هم مُكَلَّفون بما كُلِّف به الإنس، أو لا؟

نقول: اختلف في هذا أهل العلم، فقال بعضهم: إنهم مُكَلَّفون بما كُلِّف به الإنس في كل شيء.

وقال آخرون: إنهم لم يُكَلَّفوا بما كُلِّف به الإنس، بل كُلِّفوا بالتوحيد والأمور العامَّة التي لابُدَّ لِـمَن أراد الصلاح أن يقوم بها، وأمَّا المسائل الأخرى فإنهم لم يُكَلَّفوا بما كُلِّف به الإنس؛ لأن الله كلَّفهم بأشياء تُناسب أحوالهم، قالوا: وإذا كان الإنس يختلفون في الأحكام بحسب أحوالهم، وهم جنس واحد، فما بالكم بالجن الذين يُفارقونهم في الحدِّ والحقيقة؟ وهذا الأخير هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنهم كُلِّفوا بما يليق بحالهم؛ لأن هذا هو مقتضى الحكمة[1].

---

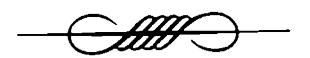
(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٣٣).

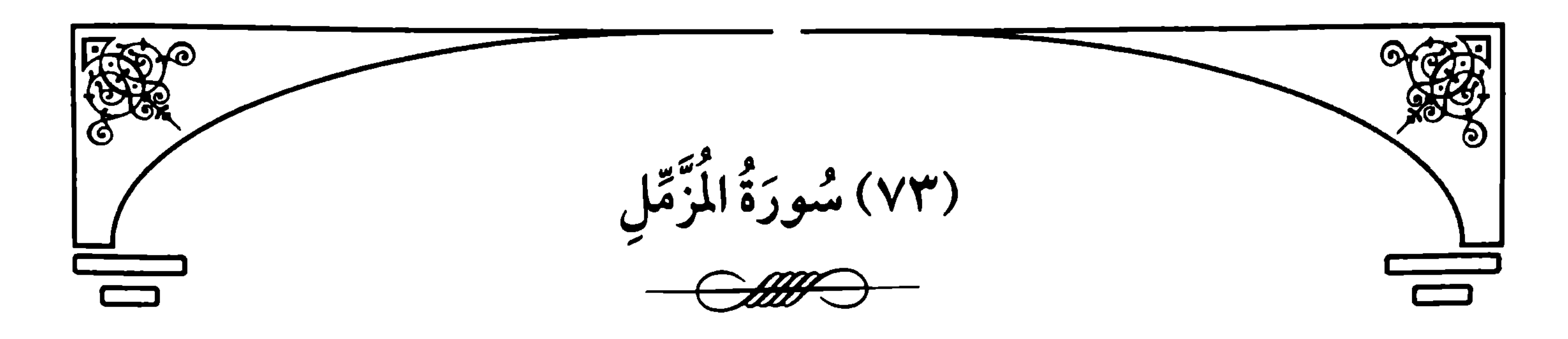
....

= وهل يُحاسَبون، ويدخلون الجنة؟

نقول: الصحيح أنهم يدخلون الجنة، وهو الذي عليه جمهور أهل العلم؛ لعموم الآيات الدالَّة على أن مَن آمن وعمل صالحًا فهو من أهل الجنة، ولأن الله تعالى قال في سورة الرحمن، وهو يُخاطب الجميع، قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فلولا أن الجن من أهل هذه الجنات لم يكن لقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فائدة، وهذا هو القول الراجح.

أمَّا كافرهم فيدخل النار بالنص والإجماع، قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨].





(٧٣) سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَتَبَتَّلْ﴾ أَخْلِصْ[١].

---

[١] هـذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، قال: «أَخْلِصْ»، وهـذا من معانيها، وقيل: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ أي: انقطع إليه.

وهنا قال: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، ولم يقل: تبتُّلًا، فنُعرب ﴿تَبْتِيلًا﴾ هنا على أنها مفعول مُطْلَق؛ لأنها خالفت الفعل في التصريف، والمعنى: انقطع إلى ربِّك ولا تلتفت، والإنسان المؤمن الحازم يُمكن أن يتبتَّل إلى ربِّه في كل شيء، في أَكْلِه وشُرْبه ولباسه ودخوله وخروجه، ولولا الغفلةُ لكانت الغنيمة كبيرةً جدًّا لا نهاية لها، أن يغتنم الإنسان كلَّ أقواله وأفعاله، ويجعلها لله عَزَّوَجَلَّ.

والمسألة تحتاج إلى تمرين، وأن الإنسان كلما فعل شيئًا يتذكَّر التعبُّد لله عَزَّوَجَلَّ بما فعل.

ثم إن ما يفعله الإنسان إمَّا عبادة نصَّ الشرع عليها، وإمَّا شيء يُعينه على العبادة، فيكون عبادةً لغيره، لا لذاته.

وهذه الآية: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ كانت بعد قوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾، مع أنه قال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٩١]، وعلى هـذا فيكـون التبتُّل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دائمًا.

وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿أَنكَالًا﴾ قُيُودًا[١].

﴿مُنفَطِرٌ بِهِۦ﴾ مُثْقَلَةٌ بِهِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ الرَّمْلُ السَّائِلُ[٢].

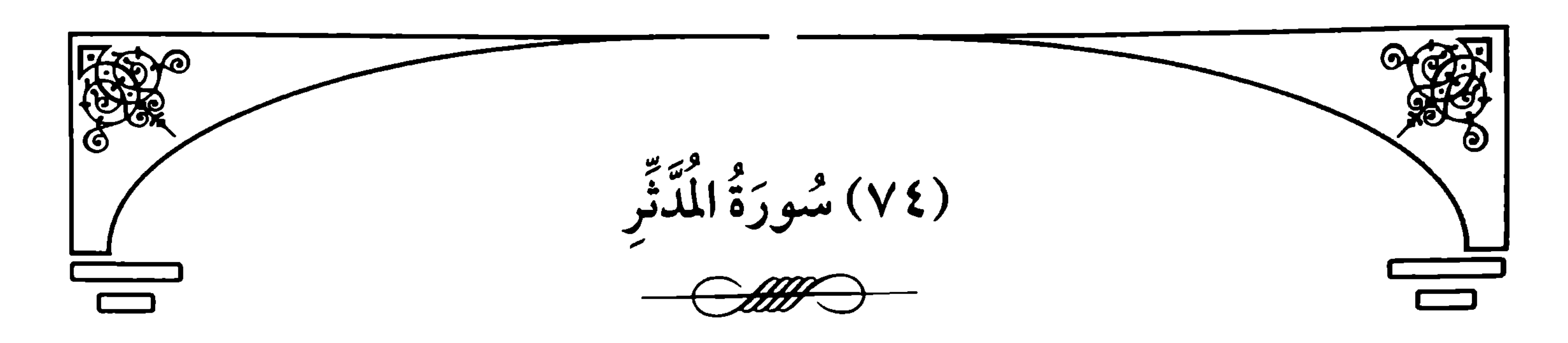
﴿وَبِيلًا﴾ شَدِيدًا.

---

[١] هـذا في قول الله تعالـى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيـمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: للكافرين.

[٢] هذا في قـول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾، قال: «الرَّمْلُ السَّائِلُ» يعني: الذي يسيح، كالذي يكون في النفود، فإذا كنت في جبل من الرمل، وحفرت من أسفل، مشى الرمل إليك.





(٧٤) سُورَةُ المُدَّثِّرِ

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿عَسِيرٌ﴾ شَدِيدٌ[١].

قَسْوَرَةٌ: رِكْزُ النَّاسِ وَأَصْوَاتُهُمْ.

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: القَسْوَرَةُ قَسْوَرُ الأَسَدُ.

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ أي: نُفِخَ في الصور ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾، فوُصِفَ اليوم بأنه عسير ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي: أنه عسير عليهم، ويدلُّ لذلك قوله عَزَّوَجَلَّ في سورة الفرقان: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾، فصار هذا اليوم هو في حدِّ ذاته عسير، لكنه بالنسبة للكفار عسير أيضًا، وبالنسبة للمؤمنين يسير، فإذا جمعت بين قوله: ﴿عَسِيرٌ﴾ و﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ تبيَّن لك أنه عسر كامل مُتناهٍ في العُسْر، لكن على الكافرين؛ لأنه نفى أن يكون فيه اليسر في قوله: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾، ولو قال: «وكان يومًا على الكافرين عسيرًا» لكان يحتمل أن يكون عسيرًا في وقت دون آخر، أو يُيَسَّر لهم في بعض الأحوال، فلما قال: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ علمنا أنه عسير عليهم في كلِّ حال، وليس فيه أيُّ يُسْر، نسأل الله العافية.

وأمَّا المؤمن فإن مفهوم الآيتين يدلُّ على أنه يسير عليه، مع أن مقداره خمسون ألف سنةً، وتدنو الشمس من الناس قدر ميل، وكلٌّ خاشع، ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨]، وكلٌّ مشتغل بالشأن الذي يعنيه، ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧]، يعني: عن النظر في شؤون الآخرين.

الرِّكْزُ: الصَّوْتُ، وَكُلُّ شَدِيدٍ قَسْوَرَةٌ.

﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ نَافِرَةٌ مَذْعُورَةٌ[١].

٤٩٢٢ - حَدَّثَنَا يَحْيَى: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْمُبَارَكِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ: سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، قُلْتُ: يَقُولُونَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ ذَلِكَ، وَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ الَّذِي قُلْتَ، فَقَالَ جَابِرٌ: لَا أُحَدِّثُكَ إِلَّا مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: «جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ، فَنُودِيتُ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي، فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ عَنْ شِمَالِي، فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ أَمَامِي، فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ خَلْفِي، فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَرَأَيْتُ شَيْئًا، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا»، قَالَ: «فَدَثَّرُونِي، وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا»..

---

[١] قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ يعني: عند الموعظة ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾، والقسورة فيها ثلاثة معانٍ:

الأول: أنها رِكْز الناس وأصواتهم، أي: ضجَّتهم وما يتعلَّق بذلك.

الثاني: الرُّماة القناصة الذين يخرجون إلى الصحراء، يرمون حمر الوحش.

الثالث: الأسد، فإن الحُمُر تنفر من الآساد نفورًا عظيمًا، وهكذا الكفار يفرُّون من القرآن ومن العلوم الشرعيَّة فرار الحمار من القسورة، وكلُّ مَن كان يفرُّ من المواعظ ويكرهها ففيه شَبَه من هؤلاء.

قَالَ: «فَنَزَلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾»[١].

---

[١] ما قاله جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صحيح، لكن المراد: أول ما نزل بالنسبة للأمر بتبليغ الرسالة، ولهذا قال العلماء: إن النبي ﷺ نُبِّئ بـ:﴿ٱقْرَأْ﴾، وأُرْسِل بالمدثر، فهذه أولية نسبيَّة، وليست أوليَّةً مُطْلَقةً، وإلا فلا شَكَّ أن أول ما نزل عليه أربعُ آيات من ﴿ٱقْرَأْ﴾ من أوائلها، وأمَّا هذه فهي أول ما نزل باعتبار الرسالة، حيث قيل له: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

وقوله: «فَرَأَيْتُ شَيْئًا» يعني به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهل هذا يقتضي أنه رآه على هيئته ثلاث مرَّات؟

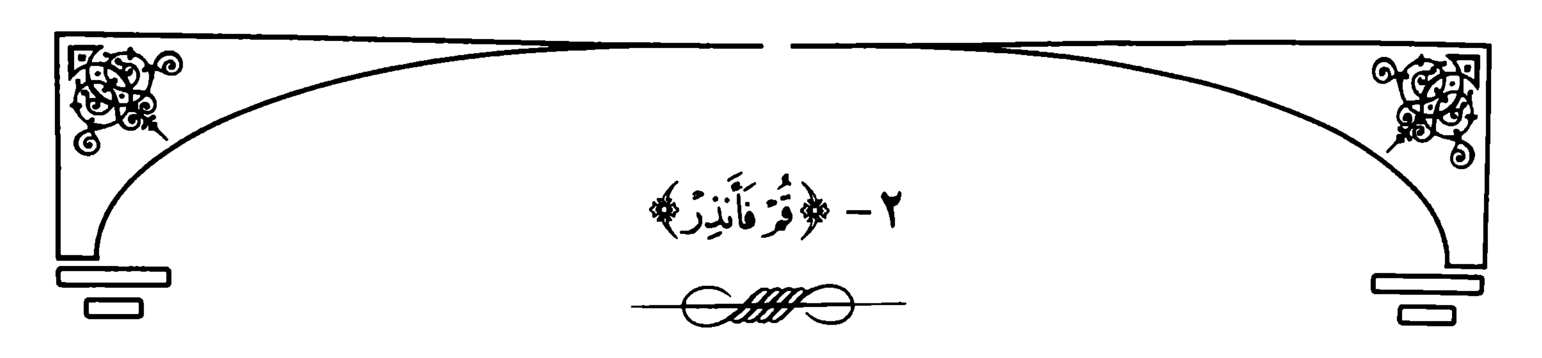
نقول: هو ما رآه على خِلْقَته إلا مرَّتين فقط، قال الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن العظيم: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم:١٣]، لكن هل كان في أول مرَّة جاءه الوحي رآه على الصورة التي خُلِقَ عليها، أو رآه على وجه آخر؟ فإن ثبت أنه في أول ما نزل الوحي رآه على صورته التي خُلِقَ عليها، فهنا رآه على غير صورته التي خُلِقَ عليها، لكن الظاهر أنه رآه على خِلْقَته التي خُلِقَ عليها في المرَّة الثانية؛ لأنه في المرَّة الأولى نزل على صورة إنسان؛ لأنه أمره أن يقرأ، فلما لم يقرأ وقال: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» ضمَّه ضمًّا شديدًا حتى بلغ منه الجَهْد، ثم أرسله، فقال: «اقْرَأْ»(١)، ولتُحَرَّر المسألة.

وهل كان النبي ﷺ يعلم بأنه مَلَك؟

نقول: كانوا فيما سبق يسمعون بالملائكة، ثم لمَّا قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ عرف أن هذا مَلَك؛ لأن البشر لا يأتي بمثل هذا، وإذا كان رآه على صورته التي خُلِقَ عليها فالأمر واضح، والمسألة تحتاج إلى تحرير.

---

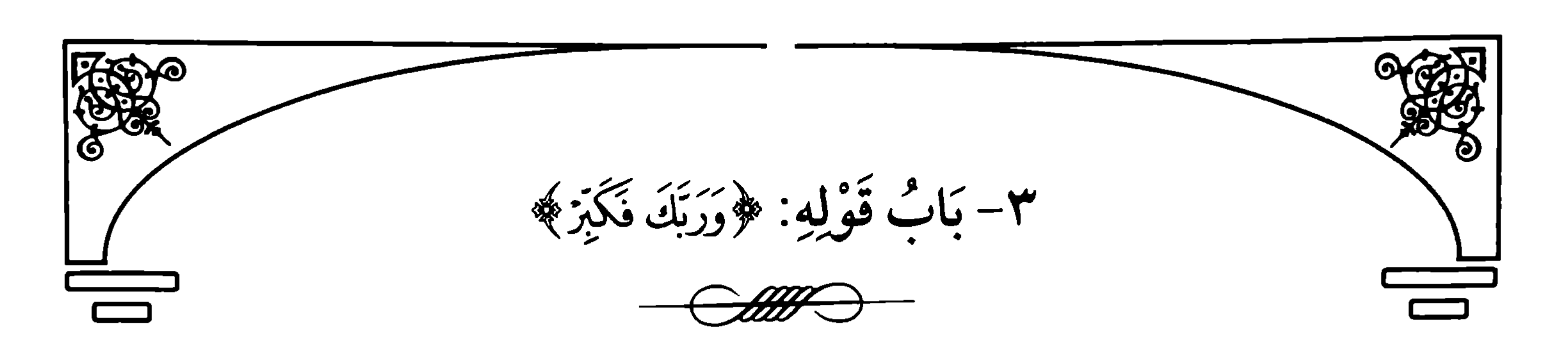
(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي؟، رقم (٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦٠/ ٢٥٢).



٢- ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾



٤٩٢٣- حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ وَغَيْرُهُ، قَالَا: حَدَّثَنَا حَرْبُ بْنُ شَدَّادٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ» مِثْلَ حَدِيثِ عُثْمَانَ بْنِ عُمَرَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْمُبَارَكِ.



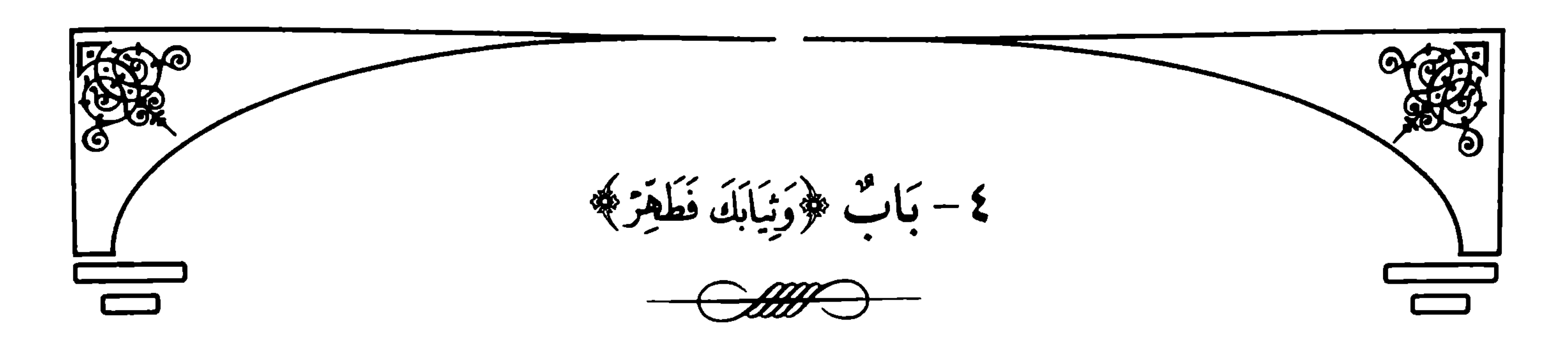
٣- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾

٤٩٢٤- حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ: حَدَّثَنَا حَرْبٌ: حَدَّثَنَا يَحْيَى، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ: أَيُّ القُرْآنِ أُنْزِلَ أَوَّلُ؟ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فَقُلْتُ: أُنْبِئْتُ أَنَّهُ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ: أَيُّ القُرْآنِ أُنْزِلَ أَوَّلُ؟ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فَقُلْتُ: أُنْبِئْتُ أَنَّهُ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، فَقَالَ: لَا أُخْبِرُكَ إِلَّا بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «جَاوَرْتُ فِي حِرَاءٍ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ، فَاسْتَبْطَنْتُ الوَادِيَ، فَنُودِيتُ، فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى عَرْشٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، وَأُنْزِلَ عَلَيَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾»[١].

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ قال العلماء في مثل هذا التعبير: إن الفاء لتحسين اللفظ؛ لأنه لا يجتمع عاطفان في معطوف واحد، وهنا قال: ﴿وَرَبَّكَ﴾، وهذا حرف عطف، وجُعِلَت الواو هي العاطفة لسَبْقِها، ولهذا في غير القرآن لو قلت: «وربَّك كَبِّر» جاز، ولم يختلف المعنى.

وقوله: «فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى عَرْشٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ» العرش هو الكرسي الكبير الواسع، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، أي: كرسي كبير واسع.



٤- بَابٌ ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾

٤٩٢٥- حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، (ح) وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَأَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ، فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ رُعْبًا، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، فَدَثَّرُونِي، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ إِلَى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلَاةُ»، وَهِيَ الأَوْثَانُ[١].

---

[١] يُريد أن الرجز هي الأوثان.

وهذا السياق يُبيِّن ما سبق؛ لأنه قال: «وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ»، فكان هذا أول ما نزل باعتبار الأمر بالإنذار، وهو الرسالة، ويدلُّ لهذا قوله: «فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ»، فهذا يدلُّ على أن هذه الأوليَّة أوليَّة نسبيَّة.

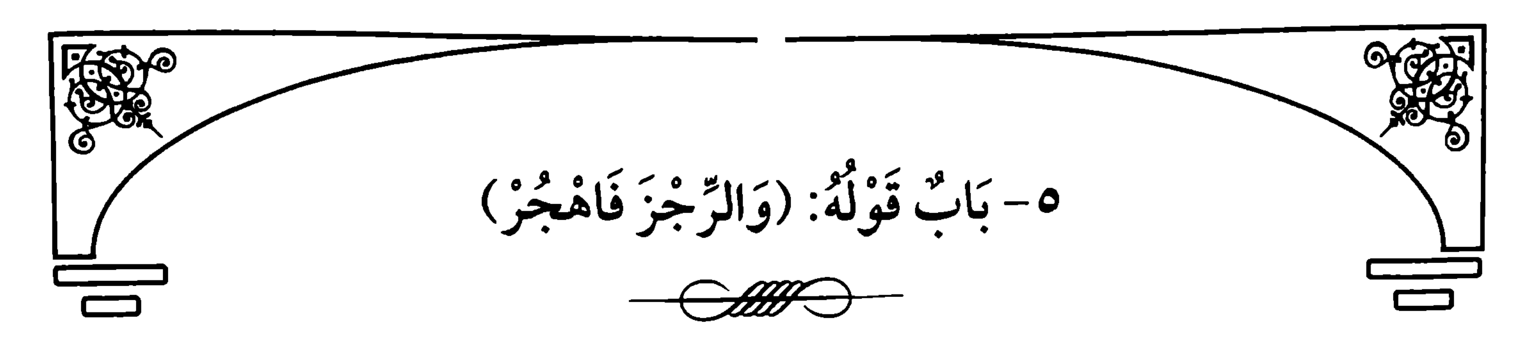
وحراء: اسم جبل حول مكة، ويُسَمَّى: جبل النور، وهو موجود، لكن ما حكم الصعود إلى غار حراء؟

نقول: إذا كان تعبُّدًا فهو بدعة، كما أنه أيضًا لا تُشْرَع الصلاة فيه، أمَّا إذا كان يذهب لينظر كيف هذا الجبل الذي كان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يتعبَّد فيه بدون أن

....

= يعتقد أن لذلك فضلًا فهذا لا بأس فيه، وكذلك إذا كان يُريد أن يصعد ليُذَكِّر الناس فهذا لا بأس به أيضًا، وإن كان الأحسن أن يُمْنَع الناس منه؛ لأن الناس يصعدونه، ويفعلون أشياء مُنْكَرةً، يتمسَّحون بنفس الغار، وببابه، ويكتبون عليه كتاباتٍ، ويُعَلِّقون فيه خِرَقًا، وما أشبه ذلك.





٥- بَابُ قَوْلُهُ: (وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ)

يُقَالُ: الرِّجْزُ وَالرِّجْسُ: العَذَابُ[١].

٤٩٢٦- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: سَمِعْتُ أَبَا سَلَمَةَ، قَالَ: أَخْبَرَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ: «**فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَجَئِثْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ، فَجِئْتُ أَهْلِي، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُونِي، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَٱهْجُرْ﴾** -قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: (وَالرِّجْزَ) الأَوْثَانَ- **ثُمَّ حَمِيَ الوَحْيُ، وَتَتَابَعَ**»[٢].

---

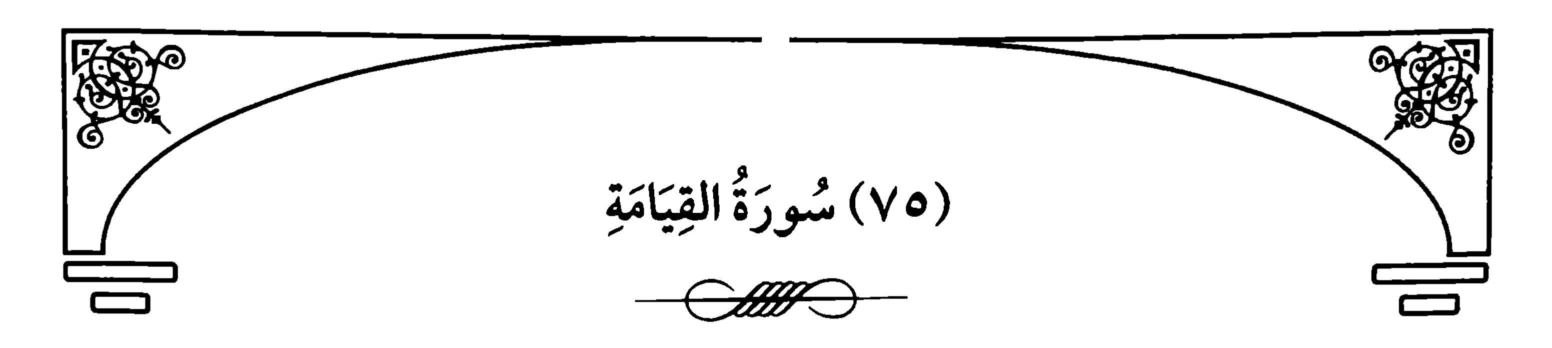
[١] **الصحيح**: أن الرجز هنا: الأوثان، لكن يُطْلَق الرِّجز على العذاب، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ:٥].

[٢] هل يُؤْخَذ من هذا الحديث: أن بدايات الأشياء تكون بطيئةً كالتعلُّم؟

الجواب: لا؛ لأن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إنما أبطأ الوحي عليه؛ ليزداد شوقه إليه، كما جاء في رواية أخرى(١).

---

(١) يدل عليه ما أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي، رقم (٦٩٨٢)، وانظر: فتح الباري (١/ ٢٧).



(٧٥) سُورَةُ القِيَامَةِ

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[١].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿سُدًى﴾ هَمَلًا[٢].

---

[١] كان الرسول ﷺ -من محبَّته للقرآن وشفقته أن ينسى شيئًا منه- إذا كان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يُلْقِي عليه يستعجل، فيقرأ معه، فأمره الله عَزَّوَجَلَّ ألَّا يستعجل، فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، لا يفوتك منه شيء.

وقوله: ﴿قَرَأْنَٰهُ﴾ الفاعل هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإن كان السياق يدلُّ على أنه الله عَزَّوَجَلَّ، لكن الله عَزَّوَجَلَّ ليس يقرؤه على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إنما الذي يقرؤه هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأضافه الله عَزَّوَجَلَّ إليه؛ لأنه رسول الله مُبَلِّغ عن الله.

وهنا فائدة: هل يثبت للمستمع مثل أجر القارئ؟

الجواب: المستمع كالقارئ، ولهذا قال الله تعالى لموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس:٨٩]، وكان الذي دعا موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن كان هارون عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُؤَمِّن.

[٢] يعني بذلك قول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾، أي: همَلًا لا يُؤْمَر ولا يُنْهَى، وهذا استفهام بمعنى الإنكار، يعني: لا تحسب هذا، بل إنك ستُؤْمَر وتُنْهَى، وتُعاقَب إذا خالفت.

﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ سَوْفَ أَتُوبُ، سَوْفَ أَعْمَلُ[١]. ﴿لَا وَزَرَ﴾ لَا حِصْنَ[٢].

٤٩٢٧- حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ أَبِي عَائِشَةَ -وَكَانَ ثِقَةً- عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ حَرَّكَ بِهِ لِسَانَهُ -وَوَصَفَ سُفْيَانُ- يُرِيدُ أَنْ يَحْفَظَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[٣].

---

[١] يعني قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وهذا يحتمل ما قاله المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن معناه التسويف بالعمل، يقول: سأعمل، سأعمل، فيتمادى في المعصية، وهو يَعِدُ نفسه بالتوبة كلَّ يوم.

ويحتمل أن معنى: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي: ليُكذِّب ما أمامه من البعث؛ لأنه قال: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، ولهذا قال: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: متى يكون يوم القيامة الذي قلتم؟

[٢] ليس المراد بالحصن: حصن البناء، ولكن المراد: ما يُحصِّن الإنسان من العذاب، فقوله: ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي: لا مُعين يُعينني على الحساب، فأتحصَّن به.

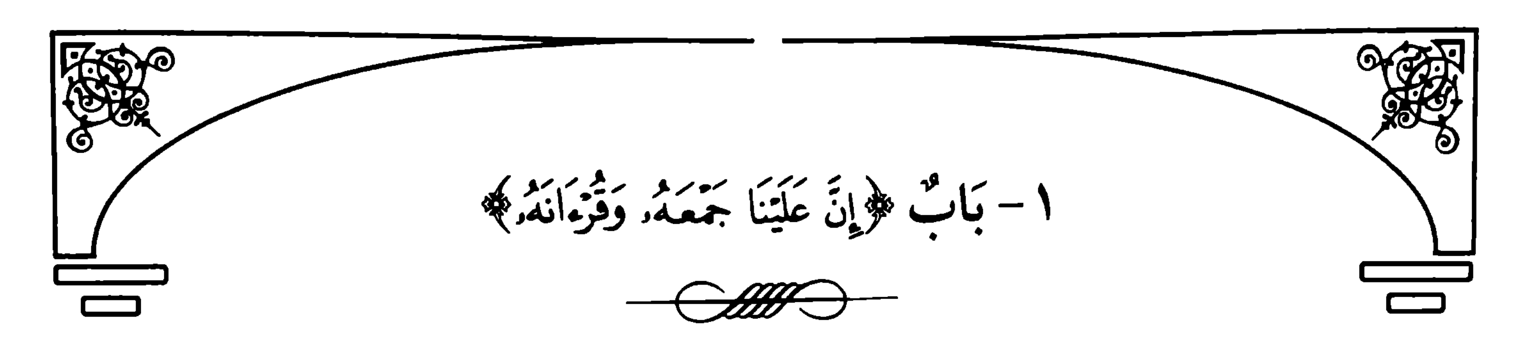
وهنا ينبغي الوقوف عند التلاوة، فتقول: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، ثم تقف، ثم تقول: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، وأمَّا وصل التلاوة فإن هذا يُوهم خلاف المقصود، فالأَوْلَى للقارئ أن يقف، فيقول: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، أي: لا مُعين ولا مُحصِّن من عذاب الله.

[٣] قوله هنا: «حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ أَبِي عَائِشَةَ، وَكَانَ ثِقَةً» ما الذي حمل سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن يقول: «وَكَانَ ثِقَةً»؟

....

الجواب: يحتمل أن هذا لُمجَرَّد الثناء عليه، ويحتمل أن فيه خلافًا بين الناس: هل هو ثقة، أو لا؟ فأراد سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُوَثِّقه، وفي المصطلح مسألة: هل توثيـق الراوي مَن روى عنه مُعْتَبر، أو لا؟





١- بَابٌ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾

٤٩٢٨- حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ، أَنَّهُ سَأَلَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾، قَالَ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ يَخْشَى أَنْ يَنْفَلِتَ مِنْهُ، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ، وَقُرْآنَهُ أَنْ تَقْرَأَهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ يَقُولُ: أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أَنْ نُبَيِّنَهُ عَلَى لِسَانِكَ[1].

---

[١] قوله: «أَنَّهُ سَأَلَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ» السائل هو موسى بن أبي عائشة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: «كَانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ» الصواب ما دلَّ عليه القرآن، وهو أنه يُحَرِّك لسانه، وإذا كان يُحَرِّك لسانه فالغالب أن الشفتين تتحرَّكان، إنما الذي يتحرَّك هو اللسان، ولا شَكَّ أن القراءة لابُدَّ فيها من تحرُّك اللسان والشفتين، أمَّا مُجَرَّد إمرارها على القلب فليس بقراءة، ولهذا لو قال قائل: إذا كنت أُمِرُّ القراءة على قلبي فهل لي أجر التلاوة؟

فالجواب: لا، لكن بعض الناس يُمِرُّ القرآن على قلبه لتحفُّظه فقط؛ لئلا ينساه، وهذا يُسَمَّى: تذكُّرًا، ولا يُسَمَّى: تلاوةً، كما أنه لو سألنا سائل في الصلاة، وقال: إني أقرأ القرآن في الصلاة، ولكن أُمِرُّه على قلبي بدون أن أنطق به، فهل يُجْزِئ؟

نقول: لا، لا يُجْزِئ، بل لابُدَّ من تبيين الحروف، وأن تُحَرِّك الشفتين واللسان، ولكن هل يُشْتَرط أن يُسْمِع نفسه؟

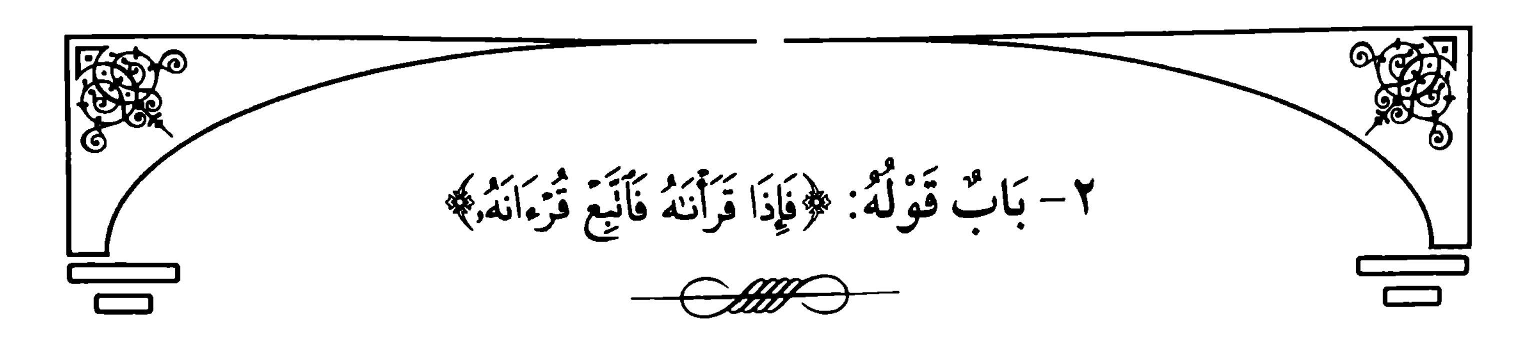
....

= الجواب: في هذا خلاف، فالمشهور من المذهب: أنه لابُدَّ أن يُسْمِع نفسه[1]، والصحيح: أنه ليس بشرط، فإذا خرجت الحروف من مخارجها فلا يُشْتَرط أن يُسْمِع نفسه، وهذا مُعتبر في كل قول، فلو أن رجلًا أَمَرَّ طلاق امرأته على قلبه دون أن ينطق به، إنما قال عن زوجته في قلبه: هي طالق، فإنها لا تطلق؛ لأنه لم يلفظ بالطلاق، ولابُدَّ من اللفظ به.

وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: علينا أن نجمعه في قلبك وتحفظه حتى تقرأه.



(١) منتهى الإرادات بشرح البهوتي (١/ ٣٧٥).



٢- بَابٌ قَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿قَرَأْنَٰهُ﴾ بَيَّنَّاهُ، ﴿فَٱتَّبِعْ﴾ اعْمَلْ بِهِ[1].

٤٩٢٩- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ جِبْرِيلُ بِالوَحْيِ، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ، فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ، وَكَانَ يُعْرَفُ مِنْهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ الآيَةَ الَّتِي فِي: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قَالَ: عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ، وَقُرْآنَهُ، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فَإِذَا أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ، قَالَ: فَكَانَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ أَطْرَقَ،........

---

[١] هذا معنى آخر لقوله: ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾؛ لأنه يتبادر إلى الذهن أن المراد به: متابعة القارئ، وهو جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لكن هذا معنى آخر، وهو: اتِّباعه بالعمل به، وقد سبق أن الآية إذا كانت صالحةً للمعنيين المذكورين بدون مناقضة بينهما فالأَوْلى أن تُحمَل عليهما جميعًا، وهذا من باب إعمال المُشْتَرك في معنييه، والصحيح: جوازه، والمشترك: هو اللفظ إذا كان واحدًا وتعدَّد معناه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير:١٧]، فهذه لها معنيان في اللغة العربية: أقبل، وأدبر.

أمَّا إذا تعدَّد اللفظ دون المعنى فهذا هو المُترادف، مثل: إنسان، وبشر.

فَإِذَا ذَهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ[١].

---

[١] قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ يشمل بيانه للناس بلفظه، وبيانه للناس بمعناه، ولهذا نقول: لا يُمكن أن يُوجَد في القرآن معنى ملتبس على جميع الناس، وإنما الالتباس أو الخفاء لبعض الناس، فيكون أمرًا نسبيًّا، أمَّا القرآن من حيث هو فإنه لا يُمكن أن يخفى على كل الأمة.

وبه نعرف ضلال أولئك القوم الذين فوَّضوا في معاني الصفات، وقالوا: إننا لا نعرف المعنى، ولا أحد يُمكنه أن يعرف المعنى، فنقول لهم: إن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، وهذا التزام من الله عَزَّوَجَلَّ ألزم به نفسه أن يُبيِّن للناس هذا القرآن العظيم بلفظه ومعناه.

ولهذا لم يتجرَّأ أحد على تغيير لفظه أبدًا بحذف كلمة، أو زيادة كلمة، أو ما أشبه ذلك، ولله الحمد، بل كل المسلمين -ما عدا الرافضة الذين يقولون: إن فيه زيادةً أو نقصًا- كلهم يقولون: إن القرآن لم يُغيَّر أبدًا، أمَّا المعنى فقد غُيِّر بلا شَكٍّ، ولكن إذا غيَّره زائغ يسَّر الله له راسخًا في العلم يُبيِّن زيغه وضلاله.

وهل يجوز أن يُتَرْجَم القرآن للأعاجم؟

الجواب: نعم، يجوز أن يُتَرْجَم، لكن ترجمة معنويَّة، وتكون تفسيرًا؛ لأن الترجمة الحرفية لا تُمكن؛ إذ إن الترجمة الحرفية تقتضي أن يكون ترتيب اللسان الأعجمي والعربي سواءً، وهذا لا يُمكن.

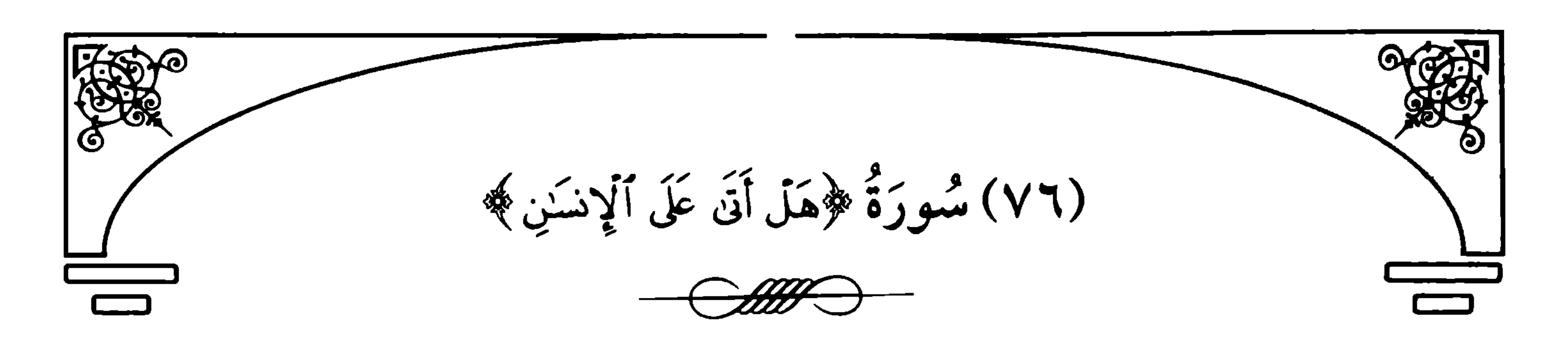
لكن هنا فائدة: لماذا تجد بعض العلماء يقول مثلًا: سورة ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾؟

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ تَوَعُّدٌ.

= نقول: هذه الأسماء لم تكن مشهورةً كثيرًا عند الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكانوا في أول الأمر يُسَمُّون السورة باسم أول آية منها، كقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاةَ بالتكبير، والقراءةَ بـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[1]. وأمثال هذا.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يجمع صفة الصلاة، رقم (٤٩٨/ ٢٤٠).



(٧٦) سُورَةُ ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾

يُقَالُ: مَعْنَاهُ: أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ، وَ«هَلْ» تَكُونُ جَحْدًا، وَتَكُونُ خَبَرًا، وَهَذَا مِنَ الخَبَرِ، يَقُولُ: كَانَ شَيْئًا، فَلَمْ يَكُنْ مَذْكُورًا، وَذَلِكَ مِنْ حِينِ خَلَقَهُ مِنْ طِينٍ إِلَى أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ الرُّوحُ[١].

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ ليس المراد به: آدم وحده؛ لأن آدم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ما خُلِقَ من نطفة، ولكن خُلِقَ من سلالة من طين.

وقوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ يعني: ألم يأتِ، فالاستفهام هنا للتقرير، والمعنى: قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، وهذا صحيح، فمَن كان عمره سبع عشرة سنةً فإنه قبل ثماني عشرة سنةً لم يكن شيئًا مذكورًا، وكل إنسان قبل ولادته لم يكن شيئًا مذكورًا، فهذا الإنسان الذي أتى عليه حين من الدهر -الله أعلم به فيما مضى- لم يكن شيئًا مذكورًا، ثم كان شيئًا مذكورًا، وهداه الله السبيل، وبيَّن له الطريق، سواء كان شاكرًا أو كافورًا.

ثم بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ بعد ذلك جزاء الكافرين، وجزاء الشاكرين، وأطنب في جزاء الشاكرين، وأوجز في جزاء الكافرين، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ: لأنه ذكر من صفات الشاكرين أكثر ممَّا ذكر من صفات الكافرين، فأطنب في جزاء هؤلاء دون هؤلاء(١).

---

(١) جامع الرسائل (١/ ٧٠).

﴿أَمْشَاجٍ﴾ الأَخْلَاطُ: مَاءُ المَرْأَةِ، وَمَاءُ الرَّجُلِ، الدَّمُ، وَالعَلَقَةُ.
وَيُقَالُ إِذَا خُلِطَ: مَشِيجٌ، كَقَوْلِهِ: خَلِيطٌ، وَمَمْشُوجٌ مِثْلُ مَخْلُوطٍ[١].

= وعندي أيضًا وجه آخر، وهو أن جزاء الشاكرين فضل وإحسان ومنَّة، فكان في الإطناب فيه من بيان فضل الله عَزَّوَجَلَّ وإحسانه ما هو ظاهر وما هو أظهر، أمَّا جزاء الكافرين فهو عدل فقط، فجزاء سيِّئة سيئة مثلها، فلذلك لم يُطنب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما لهم.

وقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَ«هَلْ» تَكُونُ جَحْدًا» أي: نفيًا، وذلك إذا جاءت بعدها «إلا»، كما تقول: «هل أنت إلا صادق»، فهي هنا نافية، أي: ما أنت إلا صادق.

ويحتمل أن مراد البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «جَحْدًا» أي: استفهامًا، كأن المستفهم يُنْكِر علمه بما استفهم عنه.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَتَكُونُ خَبَرًا» أي: مُجَرَّدةً من الاستفهام، كما في هذه الآية: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾، فمعناها: قد أتى على الإنسان.

[١] هذا في قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، وقوله: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أي: مختلط، فهذه النطفة فيها -بإذن الله- من الحيوان المنوي شيء كثير جدًّا لا تراه إلا بالمِجْهَر المُكَبِّر، فتجدها خليَّةً من الحيوانات، بينما إذا رأيتها في ظاهر العين تقول: هذه نقطة، لكنها كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْشَاجٍ﴾، فكلُّها مملوءة من هذه الحيوانات.

وهل يصحُّ أن نُفَسِّر قوله: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ باختلاف طبائع الناس، وأنهم أخلاط؟

وَيُقَالُ: (سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا)، وَلَمْ يُجْرِ بَعْضُهُمْ[١].

= نقول: لا يظهر هذا؛ لأن الطبيعة قال الله عَزَّوَجَلَّ فيها: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء:٣٧]، فهذه هي الطبيعة التي خُلِقَ منها، هذا وإن لم يكن هناك تعارض بين القولين، لكن ظاهر الآية الكريمة أن نفس النطفة أمشاج، فهذا يقتضي أن الأمر في المحسوس، ولو كان المراد به: الأخلاق والطبائع لنصب: «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاجًا»؛ ليكون وصفًا للإنسان، لكن هنا في الآية ﴿أَمْشَاجٍ﴾ وصف للنطفة، لا للطبائع.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره، وهذه الجملة استئنافية تُفيد التعليل.

ثم فرَّع هذا الاختبار، فقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، أي: يسمع ما يُقال، ويرى ما يُفْعَل، ويسمع الآيات، ويرى الآيات، فكان هذا السمع وهذه الرؤية ابتلاءً من الله عَزَّوَجَلَّ، تقوم بها الحجَّة على العباد بما رأوا وبما سمعوا.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بيَّنَّا له السبيل، فالهداية هنا: هداية بيان ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، و«إمَّا» هنا للتفصيل، أي: أننا بيَّنَّا له الطريق، سواء كان شاكرًا، أو كان كفورًا.

[١] وقع في نسخة: «ويُقْرَأ»، وهذه أصح؛ لأن صيغة: «يُقال» في صحيح البخاري تدلُّ على الضعف وعدم الصحة، مع أن هذه القراءة سبعيَّة.

وقراءة النصب هذه: (سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا) فيها إشكال من جهة أنها صُرِفَت، وهي على صيغة منتهى الجموع، لكن قالوا: إن هذا الصرف للتناسب، أي لأجل أن تتناسب الكلمات، فإن قولك: (سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا) تتناسب أكثر مما إذا قيل: ﴿سَلَٰسِلَا۟

﴿مُسْتَطِيرًا﴾ مُمْتَدًّا البَلَاءُ[١].

وَالقَمْطَرِيرُ: الشَّدِيدُ، يُقَالُ: يَوْمٌ قَمْطَرِيرٌ، وَيَوْمٌ قُمَاطِرٌ، وَالعَبُوسُ وَالقَمْطَرِيرُ وَالقُمَاطِرُ وَالعَصِيبُ أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ الأَيَّامِ فِي البَلَاءِ[٢].

= وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾، ولذلك تجد أن الأول أخفُّ على اللسان من الثاني، وهذا أحد المواضع التي يجوز فيها صرف ما لا ينصرف، كما قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الألفيَّة:

وَلِاضْطِرَارٍ أَوْ تَنَاسُبٍ صُرِفْ ... ذُو المَنْعِ، وَالمَصْرُوفُ قَدْ لَا يَنْصَرِفْ(١)

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾، أي: ممتدًّا كامتداد الطير جناحيه، ولهذا جاء في تفسير الفجر الصادق: أنه المستطير في الأفق، وأمَّا الكاذب فهو المستطيل -باللام- كذنب السِّرحان؛ لأن هناك فجرين: صادقًا وكاذبًا، فالصادق هو الذي يكون مستطيرًا، والكاذب هو الذي يكون مستطيلًا، وعلى هذا فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ أي: منتشرًا واسعًا.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أي: شديدًا، و﴿عَبُوسًا﴾ أي: ليس فيه شيء يُفرِّح؛ لأن الإنسان العبوس إذا رآه الإنسان فرُبَّما يعود كئيبًا، لكن الإنسان الذي يكون وجهه دائمًا مسرورًا مستبشرًا فإن الإنسان المغموم إذا رآه يُسَرُّ، ولهذا كان النبي ﷺ دائم البشر كثير التبسُّم، مَن رآه يُسَرُّ به إذا رآه، وهذا شيء مُشاهَد، فإن بعض الناس إذا رأيت وجهه تفرح به وتُسَرُّ من يوم ترى وجهه، وبعض الناس إذا رأيت وجهه مُعبِّسًا مُكَشِّرًا فإنك تكره أن تنظر إليه.

---

(١) شرح ابن عقيل (٣/ ٣٣٨).

وَقَالَ الحَسَنُ: النُّضْرَةُ فِي الوَجْهِ، وَالسُّرُورُ فِي القَلْبِ[١].

= فهذا اليوم -يوم القيامة- يكون عبوسًا قمطريرًا، أي: شديدًا لا يجد الإنسان فيه السرور والنعيم، وهذا باعتبار حال اليوم، أمَّا باعتبار حال الناس فهذا يختلف من شخص إلى آخر.

[١] لمَّا قالوا: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ قال الله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾، وهذا يدلُّ على أن الشرَّ بقي في ذلك اليوم، لكن هؤلاء وُقُوا شرَّ ذلك اليوم، ثم قال: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي: نضرةً في الوجوه، وسرورًا في القلوب، فإذا كانت الوجوه نضرةً، والقلوب مسرورةً، فهنا تبلغ الغاية في السرور والانشراح.

وفي قوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ جناس غير تام.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ الباء هنا للسببيَّة، أي: بسبب صبرهم، و«ما» هنا مصدريَّة، أي: بصبرهم، ويتعيَّن أن تكون مصدريَّةً؛ لأنه لا يصحُّ أن تكون: بما صبروه، فـ: «ما» هنا مصدريَّة، وإلا فالغالب أنه إذا جاءت «ما» فإنها تصحُّ أن تكون مصدريَّةً، وأن تكون موصولةً، لكن أحيانًا لا تصحُّ موصولةً.

فإن قال قائل: كيف جمع هؤلاء بين الصدقة والخوف، مع أن الإنسان إذا عمل الطاعة، فينبغي له أنه يُحْسِن الظن؛ ليزداد رجاؤه في الله عَزَّوَجَلَّ؟

قلنا: لا تعارض؛ لأن هؤلاء يقولون: إن الذي حملنا على الصدقة هو الخوف، وقد قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ، كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٤٨).

....

والإنسان إذا خاف من شيء قدَّم شيئًا يَقيه إيَّاه، فإذا خاف من ذلك اليوم قدَّم صدقةً، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ»[1]، فهؤلاء خافوا، فتصدَّقوا، فلما تصدَّقوا رَجَوْا.

وأمَّا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠] فهؤلاء إذا نظروا إلى أعمالهم وتقصيرهم خافوا، ومَن الذي يأمن التقصير من نفسه؟ ومَن الذي يأمن على نفسه الرياء؟ ومَن الذي يأمن على نفسه ألَّا يكون هناك مانع يمنع من القبول؟! وهذه مسألة خطيرة ليست بهيِّنة.

وأرباب السلوك والعبادة اختلفوا: هل الأولى أن يُقَدِّم الإنسان الرجاء، أو أن يُقَدِّم الخوف، أو أن يجعلهما سواءً، أو أنَّ هذا يختلف باعتبار الأحوال؟

فقال بعض العلماء: قدِّم الخوف؛ ليحملك على ترك المعاصي، وعلى فعل الطاعات.

وقال بعضهم: قدِّم الرجاء؛ لئلا تقنط؛ لأن الذي يُقَدِّم الخوف قد يُؤَدِّي به ذلك إلى القنوط.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا انهزع أحدهما اختلَّ توازنه، فينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيهما غلب هلك صاحبه[2].

وقال بعضهم: إذا هممت بالمعصية فقَدِّم جانب الخوف، وإذا فعلت الطاعة فقدِّم جانب الرجاء.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٤٧).
(٢) مسائل ابن هانئ (٢/ ١٧٨).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ السُّرُرُ.

وَقَالَ مُقَاتِلٌ: السُّرُرُ الحِجَالُ وَالدُّرُّ وَاليَاقُوتُ[١].

وَقَالَ البَرَاءُ: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا﴾ يَقْطِفُونَ كَيْفَ شَاؤُوا.

وَقَالَ مَعْمَرٌ: ﴿أَسْرَهُمْ﴾ شِدَّةُ الخَلْقِ، وَكُلُّ شَيْءٍ شَدَدْتَهُ مِنْ قَتَبٍ وَغَبِيطٍ فَهُوَ مَأْسُورٌ[٢].

وقال بعضهم: إذا كنت صحيحًا فقدِّم جانب الخوف، وإذا كنت مريضًا فقدِّم جانب الرجاء، لعلَّك أن تموت وأنت تُحْسِن الظنَّ بالله عَزَّوَجَلَّ.

وينبغي للإنسان أن يكون مُتكيِّفًا مع نفسه، فإذا فعل الطاعة رجا أن الله عَزَّوَجَلَّ يقبلها منه، وأَحْسَن الظنَّ بالله، وأمَّل ثوابها، وإذا همَّ بالمعصية فليُغَلِّب جانب الخوف، وليَذْكُر عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وعقابه حتى يرتدع عن هذه المعصية.

[١] وقع في بعض النسخ: «الحِجَالُ مِنَ الدُّرِّ»، وهي الصحيحة.

والحجال: عبارة عن أَخْبِئَة صغيرة تكون في جانب البيت، فمثلًا: الخيمة الكبيرة يكون فيها أحيانًا حَجَلة تكون صغيرةً، أو أن الحجلة عبارة عن شيء مُرتفع كالدَّكَّة في البيت، وتُلْبَس كساءً، وتكون منفردةً عن البيت.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان:٢٨]، وهذا ظاهر، فقد شدَّ الله أَسْرَ الإنسان بهذه الأعصاب، كما تُشَدُّ بالحبال، وهذه الأعصاب أحيانًا تكـون أعصابًا رقيقةً مثل السلك، لكنها قوية لا تستطيع أن تقطعها ولو أتيت بكل قوَّتك، ولا شَكَّ أن هذا من شدِّ الأسر.

....

ثم إن هذه المفاصل جعل الله تعالى فيها سائلًا لَزِجًا يُهَوِّن انحناءها وتحرُّكها، ثم إن الله جعل فيها ما يُسَمُّونه بالغضاريف، يدخل بعضها في بعض حتى تنشد، كالأمشاط؛ لأنه لولا هذا التداخل لانطلق أحدها من الآخر، لا سِيَّما مع قوة العمل، ومعاناة الأشياء التي تحتاج إلى عمل شديد.

والمهم: أن الله عَزَّوَجَلَّ شدَّ أَسْرَ الإنسان بهذه الأعصاب العجيبة، التي لو اجتمع الخَلْقُ كلُّهم على أن يضعوا مثلها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

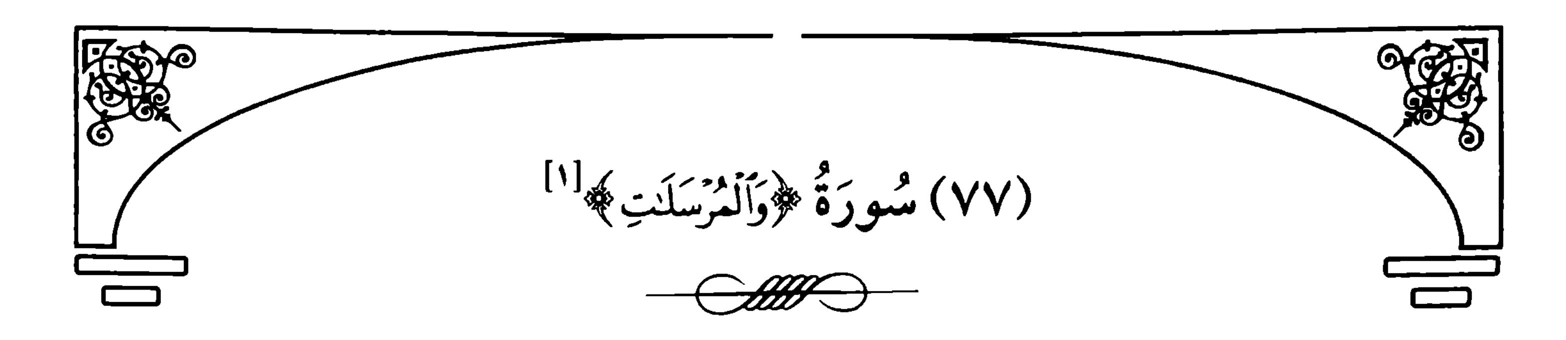
ومع ذلك تبقى هذه الأعصاب -مع كثرة الحركات- إلى أن يموت الإنسان، لكن خَلْق الإنسان الذي يصنعه إذا مضى عليه مدَّة من الزمن انحكَّ وتَلِفَ، وسبحان الله العظيم! كيف تبقى هذه المعامل العظيمة في هذا الجسم هذه المُدَدَ الطويلةَ؟ بل أحيانًا يبقى الإنسان إلى مائة سنة وهو يتمتَّع بقُوَاه، وهذا داخل في قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡ﴾.

ثم هذه العظام المتراكبة إذا وضعتها طولًا تتساقط إلا بشيء يشدُّها ويُمسكها، فهذا معنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡ﴾، أي: ربطنا الأَسْر، وهو الشدُّ بقوة، وهذا فيه بيان قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، ورحمته.

فإن قال قائل: وهل تشمل الآية ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡ﴾ أي: بالأهل؟

نقول: لا، ولكن هذا هو الأَزْر، وهو المعونة، وشدُّ الأسر المراد به: ما يتعلَّق ببدن الإنسان؛ لأن الآيات في هذه السورة الكريمة كلها تتحدَّث عن الإنسان مُبتدئه ومنتهاه.

وقوله: «مِنْ قَتَبٍ» هو القِنَّب، «وَغَبِيطٍ» الظاهر أن هذا نوع من الحبال.



(٧٧) سُورَةُ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾[١]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: (جِمَالَاتٌ) حِبَالٌ[٢].

﴿ٱرْكَعُوا۟﴾ صَلُّوا.

﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ لَا يُصَلُّونَ[٣].

---

[١] الواو في ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ حرف قَسَم، والمُرْسَلات: هي الملائكة التي تُرْسَل.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾، وفي قراءة: (كَأَنَّهُ جِمَالَاتٌ)(١)، وهاتان القراءتان سبعيَّتان، وجِمالات: جمع جمال، وجمال جمع جمل واحد الإبل، فهو جمع الجمع، والمراد: الجمالات المعروفة، والمعنى: أن شرر النار بكِبَر الجمال.

وفي قراءة: (جُمَالَاتٌ)(٢)، وهي ليست سبعيَّةً، والمعنى: حبال، والمراد: حبال السفن، تلك الحبال الغليظة، ويكون المعنى: كأنه حبال غليظة تنطلق، والشرر الآن يُرَى وكأنه حبال، لكنها حبال صغيرة، أمَّا شرر النار فكالحبال العظيمة التي تُرْبَط بها السفن، والعياذ بالله.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾، أي: صلُّوا؛ لأنه

---

(١) قرأ بألف بعد اللام نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة، وقرأ الباقون بغير ألف بعد اللام، يُنْظَر: التبصرة في القراءات السبع، (ص:٧١٨).

(٢) يُنْظَر: معجم القراءات (١٠/ ٢٤٩).

وَسُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ فَقَالَ: إِنَّهُ ذُو أَلْوَانٍ، مَرَّةً يَنْطِقُونَ، وَمَرَّةً يُخْتَمُ عَلَيْهِمْ[١].

٤٩٣٠ - حَدَّثَنَا مَحْمُودٌ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، وَإِنَّا لَنَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ، فَخَرَجَتْ حَيَّةٌ، فَابْتَدَرْنَاهَا، فَسَبَقَتْنَا، فَدَخَلَتْ جُحْرَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا»[٢].

= لا يُشْرَع الركوع وحده، بخلاف السجود، فهناك سجود مُنْفَرد مشروع، كسجود التلاوة، أمَّا الركوع فلا.

وعبَّر بالركوع عن الصلاة؛ لأن الركوع ركن فيها، فيُعَبَّر به عنها.

[١] سُئِلَ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن الجمع بين هذه الآيات، فقال: «إِنَّهُ -يعني: يوم القيامة- ذُو أَلْوَانٍ»، فهم في بعض الأحيان لا ينطقون، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾، وفي يوم يقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، فنطقوا، وقال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس:٦٥]، يعني: فتشهد بأعمالهم، وهنا لم ينطقوا، لكن نطقت الجوارح، وفي آية أُخرى قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢]، وذلك بعد أن تشهد عليهم جوارحهم، فهو كما قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّهُ ذُو أَلْوَانٍ»، أي: حالاتٍ، فحالةً يكون كذا، وحالةً يكون كذا.

[٢] ظاهر اللفظ: أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُنْزِلَت عليه سورة المرسلات جملةً واحدةً.

....

وفيه من الفوائد: حرص الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على تلقِّي القرآن من الرسول ﷺ بدون واسطة.

وقوله: «**وُقِيتُمْ شَرَّهَا**» هذا واضح لا إشكال فيه، لكن قوله: «**وُقِيَتْ شَرَّكُمْ**»، فكيف يكون قتلها شرًّا، مع أننا مأمورون به؟

نقول: هو شرٌّ بالنسبة لها، أمَّا بالنسبة لنا فإنه خير، فإن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أمر بقتل خمس من الدواب حتى في الحرم، وذكر منهنَّ: العقرب[١]، والحيَّةُ أشدُّ من العقرب، ولهذا قال العلماء: إن قتل الحيَّة في الحرم جائز بدلالة هذا الحديث، قالوا: لأنه إذا جاز قتل العقرب -وهي أقلُّ ضررًا من الحيَّة- فالحيَّة من باب أَوْلَى، وهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى.

ويُسْتَثْنَى من ذلك: التي في البيوت، فإن شابًّا من الأنصار كان حديث عهد بعرس، فسأل النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يدخل المدينة؛ لأنه حديث عهد بعرس، فلما دخل وأقبل على بيته وجد امرأته عند الباب واقفةً، فقال لها: ما شأنكِ؟ قالت: ادخل، فدخل، فرأى حيَّةً منطويَّةً على الفراش، فأخذ الرُّمح، فوخز الحيَّة، فماتت، ثم مات في الحال، قال الراوي: فلا يُدْرَى أيهما أسرع موتًا: هذا الرجل، أم هذه الحيَّة؟ وبعد ذلك نهى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن تُقْتَل، وقال: «**إِنَّ لِهَذِهِ الْبُيُوتِ عَوَامِرَ**»[٢]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب ما يقتل المحرم من الدواب، رقم (١٨٢٩)، (١٨٢٨)، ومسلم: كتاب الحج، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله، رقم (١١٩٨/ ٦٨) (١١٩٩/ ٧٢) عن عائشة وحفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب قتل الحيات وغيرها، رقم (٢٢٣٦/ ١٤٠).

....

= والناس لا يعلمون بهذا الحكم، وإلا فالواجب أن يمتثل الإنسان أمر الرسول ﷺ؛ لأنه رُبَّما تكون جنِّيَّةً، فيُقْتَل هو.

لكن بعض العلماء قال: إن هذا خاص بالمدينة، والصحيح: أنه عام؛ لأن الجن قد يسكنون في البيوت، وقد يتشكَّلون بأشكال غير أشكالهم، وفي هذا: دليل على أن الإنسان يجب أن يحذر من أسباب الهلاك.

ويُسْتَثنى من ذلك صنفان، وهما: الأبتر، وذو الطُّفيتين، فهذه تُقْتَل حتى في البيوت[1].

والأبتر يقولون: إنه قصير الذنب، ويُسَمَّى في اللغة العامية عندنا: الحَنَش، وأمَّا ذو الطُّفيتين فهما عبارة عن خطَّين أسودين على ظهر هذا النوع، فهذا يُقْتَل ولو في البيوت؛ لأنهما يخطفان البصر، ويتبعان ما في بطون الحوامل، فإن الإنسان أحيانًا إذا نظر إليهما عمي، والعياذ بالله، والمرأة الحامل إذا نظرت إليهما فرُبَّما تضع الولد؛ لشدَّة النفور منهما.

وأمَّا غيرهما فالرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أمر أن يُحَرِّج الإنسان عليها ثلاث مرَّات، يقول: أنت منِّي في حرج، أنت منِّي في حرج، أنت منِّي في حرج، أو يقول: أُحَرِّجك، يعني: اخرجي من بيتي مثلًا، وقال بعضهم: يحرج عليها ثلاثة أيَّام، وهذا أقرب

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم، رقم (٣٣٠٨-٣٣٠٩)، وفي باب قول الله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾، رقم (٣٢٩٧)، ومسلم: كتاب السلام، باب قتل الحيات، رقم (٢٢٣٢/ ١٢٧) و(٢٢٣٣/ ١٢٨) عن عائشة وابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

٤٩٣١ - حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: أَخْبَرَنَا يَحْيَى بْنُ آدَمَ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ مَنْصُورٍ بِهَذَا، وَعَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ مِثْلَهُ.

وَتَابَعَهُ أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ، عَنْ إِسْرَائِيلَ.

وَقَالَ حَفْصٌ وَأَبُو مُعَاوِيَةَ وَسُلَيْمَانُ بْنُ قَرْمٍ: عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الأَسْوَدِ.

قَالَ يَحْيَى بْنُ حَمَّادٍ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ مُغِيرَةَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ.

= وأحوط، فإن جاءت بعد الثلاث قتَلَها؛ لأنها إن جاءت بعد ذلك فهي إمَّا أن تكون غير جنِّيَّة، ولا تفهم الإنذار، وإمَّا أن تكون جنيَّةً، ولكنها اعتدت، فحلَّ قَتْلُها.

وفي هذا الحديث: أن الحيَّة دخلت جحرها، وتركوها، فيحتمل أنهم تركوها؛ لأنها تحتاج إلى معاناة وتعب، فيعجزون عنها، ويحتمل أنه إذا دخلت جحرها وأَمِنَت فلا ينبغي أن تُخوَّف، لكن قد يكون المعنى الأول أَوْلَى.

على أنه رُبَّما يُؤْخذ من قوله: «دَعُوهَا»[1] -إذا صحَّت هذه الجملة- أنه إذا دخلت الجحر فإنها تُتْرَك، لكن يُقال: ما لم تكن في ممرِّ الطريق، أو يُخْشَى من أذيَّتها.

إنما بعض الناس يشبُّ حولها نارًا، ويخنقها بالدخان، وتخرج، فهل نقول: إن هذا جائز، وما لم يتمَّ المشروع إلا به فهو مشروع؟

---

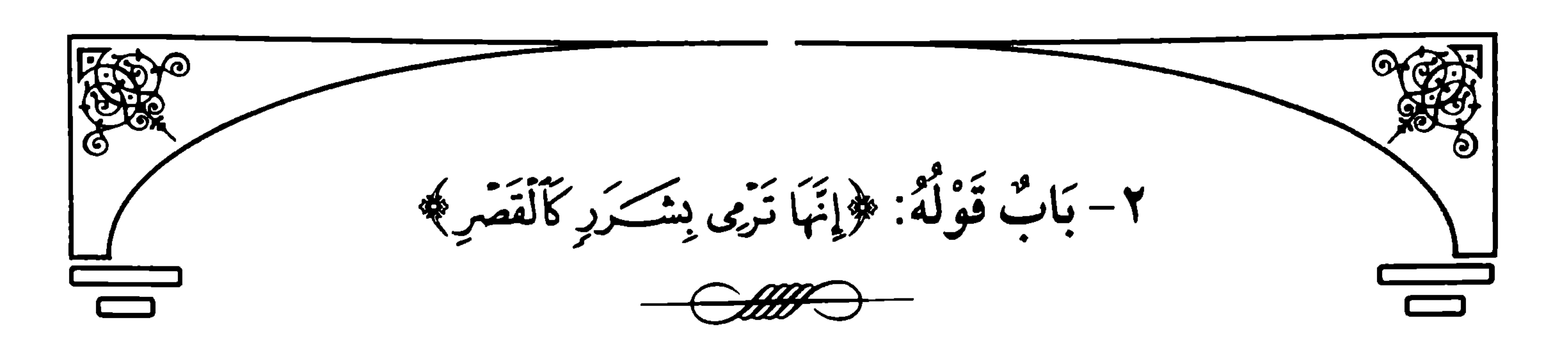
(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٨٥).

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الأَسْوَدِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ.

٤٩٣١م- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الأَسْوَدِ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: بَيْنَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَارٍ إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، فَتَلَقَّيْنَاهَا مِنْ فِيهِ، وَإِنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا، إِذْ خَرَجَتْ حَيَّةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلَيْكُمُ، اقْتُلُوهَا»، قَالَ: فَابْتَدَرْنَاهَا، فَسَبَقَتْنَا، قَالَ: فَقَالَ: «وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا»[١].

[١] في هذا ما يدلُّ على أن قتلها فيه خير، لكن كان شرًّا باعتبار نفسها.





٢- بَابُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾

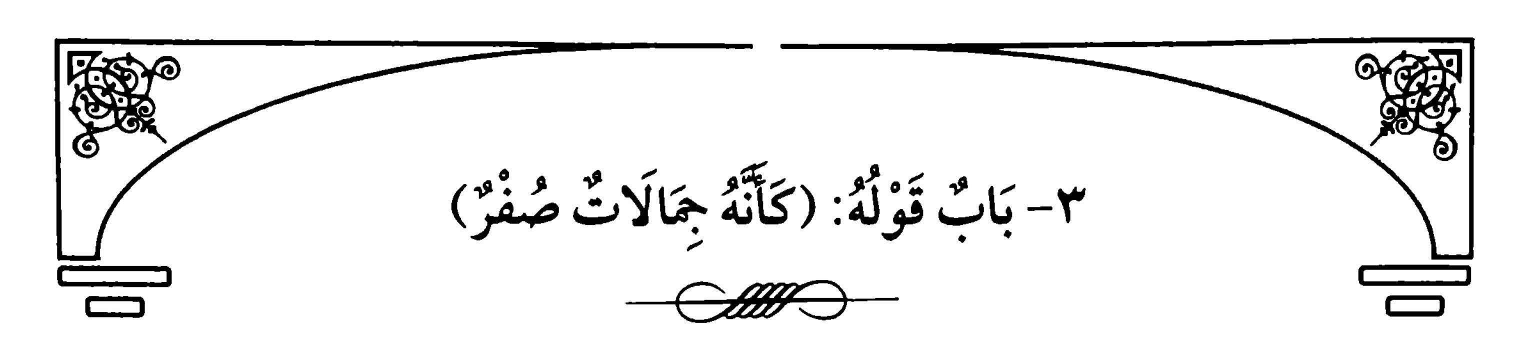
٤٩٣٢- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَابِسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالقَصْرِ﴾ قَالَ: كُنَّا نَرْفَعُ الخَشَبَ بِقَصَرٍ ثَلَاثَةَ أَذْرُعٍ أَوْ أَقَلَّ، فَنَرْفَعُهُ لِلشِّتَاءِ، فَنُسَمِّيهِ القَصَرَ[١].

---

[١] القصر: اسم للبناء.

وكان العرب فيما سبق يجمعون الخشب لأيام الشتاء؛ لأجل أن يستدفئوا بها؛ لأن الخشب أصبر، ويكون له جمر، بخلاف الحطب الخفيف، فلا يكون كذلك، والناس إلى اليوم وهم يجمعون الخشب الكبير لأيام الشتاء.





٣- بَابُ قَوْلُهُ: (كَأَنَّهُ جِمَالَاتٌ صُفْرٌ)

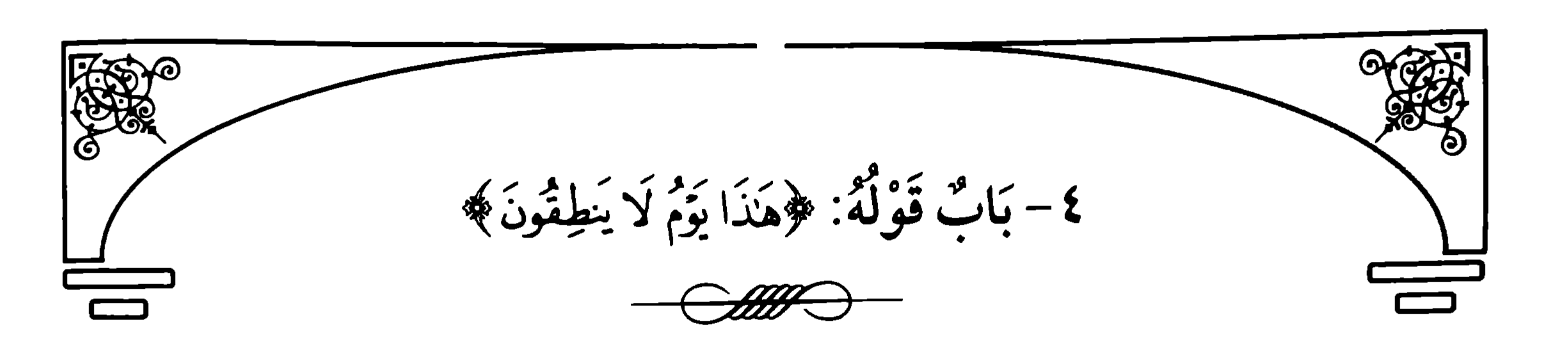


٤٩٣٣- حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ: حَدَّثَنَا يَحْيَى: أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَابِسٍ، سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصَرِ)، قَالَ: كُنَّا نَعْمِدُ إِلَى الْخَشَبَةِ ثَلَاثَةَ أَذْرُعٍ وَفَوْقَ ذَلِكَ، فَنَرْفَعُهُ لِلشِّتَاءِ، فَنُسَمِّيهِ الْقَصَرَ.

(كَأَنَّهُ جِمَالَاتٌ صُفْرٌ) حِبَالُ السُّفُنِ تُجْمَعُ حَتَّى تَكُونَ كَأَوْسَاطِ الرِّجَالِ[١].

---

[١] وقع في بعض النسخ: «كَأَنَّهُ جِمَالَاتٌ صَفَرٌ»، وهو خطأ.



٤- بَابُ قَوْلُهُ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾

٤٩٣٤- حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ: حَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ، عَنِ الأَسْوَدِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَارٍ إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾، فَإِنَّهُ لَيَتْلُوهَا، وَإِنِّي لَأَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ، وَإِنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا، إِذْ وَثَبَتْ عَلَيْنَا حَيَّةٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اقْتُلُوهَا»، فَابْتَدَرْنَاهَا، فَذَهَبَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا»، قَالَ عُمَرُ: حَفِظْتُهُ مِنْ أَبِي: فِي غَارٍ بِمِنًى[١].

---

[١] هذه الزيادة فيها فائدة، وهي: أن الحية تُقْتَل في الحِلِّ والحرم؛ لأن منى من الحرم، وكذلك مزدلفة، أمَّا عرفة فمن الحلِّ، وكذلك نَمِرة، ولكن هل هي من عرفة، أو لا؟ فيه خلاف، والجمهور على أنها ليست من عرفة.

فإن قال قائل: لكن هذا اللفظ من عُمَر بن حفص!

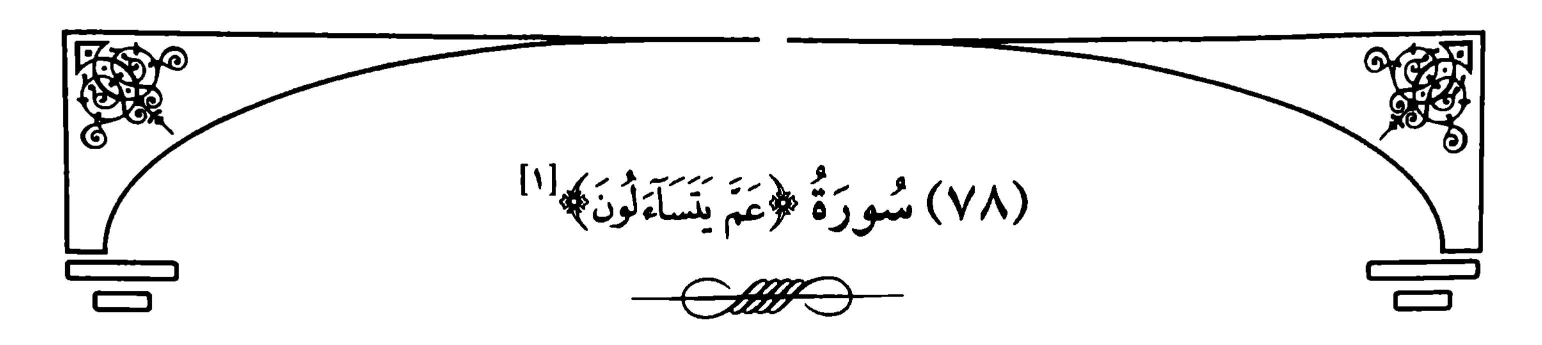
نقول: نعم، لكنه قال: «حَفِظْتُهُ مِنْ أَبِي»، وهو ثقة، ولهذا نقول: إن سورة المرسلات نزلت في منى.

لكن ما مناسبة هذا الحديث لهذه الآية: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾؛ لأنه يصلح شاهدًا لكل آيات هذه السورة؟

نقول: نعم، لو أنه أتى بأثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا السابق لكان هو المناسب له(١)، لكن المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ أراد أن يسوق الحديث بأسانيد أُخرى، فجاء بها.

---

(١) يُنظَر: (ص:٧٦٢).



(٧٨) سُورَةُ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾[١]

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ لَا يَخَافُونَهُ[٢].

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ لَا يُكَلِّمُونَهُ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ[٣].

---

[١] قوله: ﴿عَمَّ﴾ حُذِفَت ألفها على القاعدة المعروفة: إذا دخلت حروف الجرِّ على «ما» الاستفهاميَّة فإنه تُحْذَف ألفها.

[٢] يعني قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، قال: «لَا يَخَافُونَهُ»، فاستُعمل الرجاء في محل الخوف، وعلى هذا فيكون من باب الأضداد في اللغة، وفي اللغة كلمات تدلُّ على المعنى وضدِّه، وتُسَمَّى: الأضداد في اللغة، وقد ألَّف فيها علماء اللغة كُتُبًا، يذكرون الكلمة ومعناها بضدَّين.

ومن هذا: ﴿عَسْعَسَ﴾ بمعنى: أقبل وأدبر، وكذلك: ﴿وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ﴾ [النجم:٦١]، أي: غافلون لاهون، ولها معنى آخر، وهو الخشوع فيما أظنُّ(١).

على أنه يجوز أن يُراد بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: يفوزون به، فإن الإنسان وإن كان مُنَعَّمًا يُحاسَب حسابًا يسيرًا.

[٣] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، أي: لا يتمكَّنون من مخاطبته ومكالمته إلا أن يأذن لهم.

---

(١) يُنْظَر: التبيان في غريب القرآن، (ص:٣٠٥).

﴿صَوَابًا﴾ حَقًّا فِي الدُّنْيَا، وَعَمِلَ بِهِ[١].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَهَّاجًا﴾ مُضِيئًا[٢].

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿غَسَّاقًا﴾ غَسَقَتْ عَيْنُهُ، وَيَغْسِقُ الجُرْحُ: يَسِيلُ، كَأَنَّ الغَسَاقَ وَالغَسِيقَ وَاحِدٌ[٣].

﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ جَزَاءً كَافِيًا، أَعْطَانِي مَا أَحْسَبَنِي أَيْ: كَفَانِي[٤].

---

[١] وقع في نسخة: «وَعَمَلٌ بِهِ»، وهذا في قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾، أي: قال في الدنيا صوابًا، وعمل بهذا الصواب، فيكون مؤمنًا بقوله وفِعَاله.

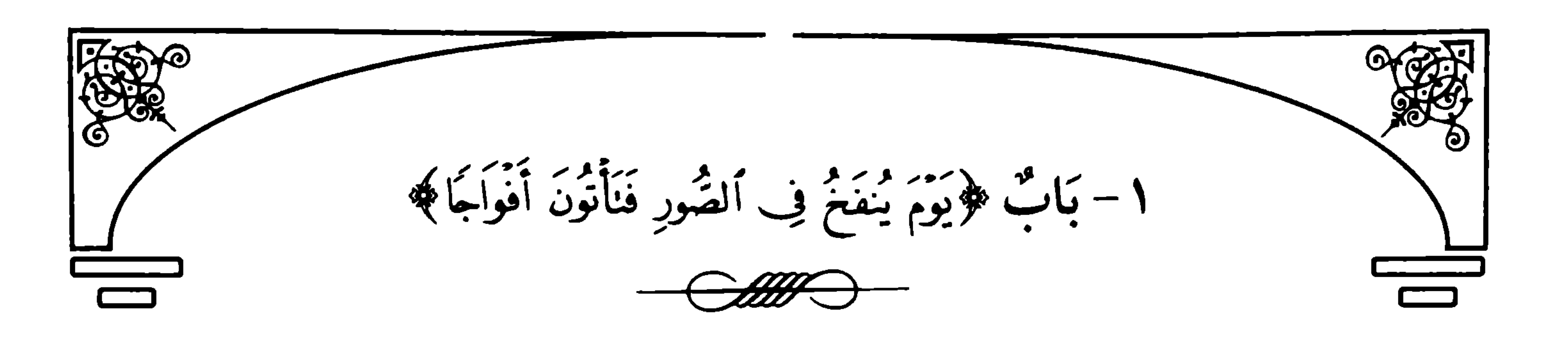
ويحتمل: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي: في ذلك اليوم، بأن شَفَع بما أذن فيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقط.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، أي: مُضيئًا، ويحتمل احتمالًا آخر، وهو: أنه شديد الحرارة، ومنه: وَهَج النار، أي: حرُّها.

[٣] يعني بذلك قول الله تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، أي: سائلًا، لكنَّه كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم:١٦-١٧].

[٤] يعني قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾، فقد يظنُّ الظانُّ أن قوله: ﴿حِسَابًا﴾ من المحاسبة، ولكنه من الكفاية، ومنه ما ذكره البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَحْسَبَنِي أَيْ: كَفَانِي»، ومنه أيضًا: «حسبي الله، ونعم الوكيل» أي: هو كافيَّ الذي يكفيني.





١- بَابٌ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾

زُمَرًا.

٤٩٣٥ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ: أَخْبَرَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**»، قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: «**ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[١].

---

[١] القائل: «أَبَيْتُ» هو أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يعني: أبيت أن أُعيِّن، كأنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ روى الحديث: «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**»، ولم يُبيِّن المراد، هل هو أربعون يومًا، أو شهرًا، أو سنةً؟ ونحن لا يعنينا الأمر، بل نقول كما قال النبي ﷺ: «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**»، والله أعلم: هل هي يوم، أو شهر، أو سنة؟

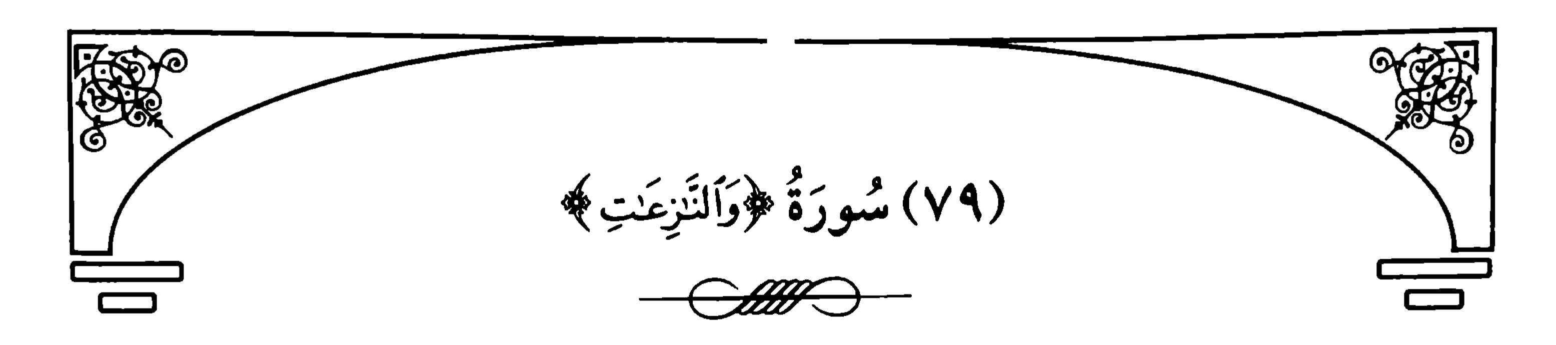
وقوله: «ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَيَنْبُتُونَ» قد يُوحي إلى ذلك ما ذكره الله تعالى في القرآن من تشبيه إحياء الموتى بنزول المطر على الأرض الهامدة، فتنبت، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق:٩-١١].

....

= وقوله: «كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ» البقل هي الأشياء الصغيرة الضعيفة التي تنبت من السيل.

وقوله: «عَجْبُ الذَّنَبِ» أسفل العُصْعُص، وهي آخر فقرة من الظهر، ذاك الشيء اللَّين.





(٧٩) سُورَةُ ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ عَصَاهُ وَيَدُهُ[١].

يُقَالُ: النَّاخِرَةُ وَالنَّخِرَةُ سَوَاءٌ، مِثْلُ: الطَّامِعِ وَالطَّمِعِ، وَالبَاخِلِ وَالبَخِيلِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: النَّخِرَةُ: البَالِيَةُ، وَالنَّاخِرَةُ: العَظْمُ المُجَوَّفُ الَّذِي تَمُرُّ فِيهِ الرِّيحُ، فَيَنْخَرُ[٢].

---

[١] يعني قول الله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ﴾ أي: أرى فرعون ﴿ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، أي: رؤية عين لا رؤية قلب، ولهذا نصبت مفعولين بالتعدية.

وذكر مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الآية الكبرى العصا واليد، ويُبيِّن ذلك سياق الآيات في مواضع أُخر، حيث إنه ألقى عصاه، ونزع يده، فقال له فرعون: إن هذا لساحر، وعلى هذا فسُمِّيت: آيةً، ولم تُثنَّ، باعتبار الجنس.

[٢] قال الله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ يعني: نُبْعَث؟ فـ: «إذا» مُتعلِّقة بمحذوف، ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

والنَّخِرة هي البالية، وهي بمعنى الناخرة(١).

وفي قول آخر: أن الفرق بينهما: أن النَّخِرة هي البالية، والناخرة: العظم المُجَوَّف الذي ليس فيه مخ، فتمرُّ الريح فيه، فينخر.

---

(١) قرأ شعبة وحمزة والكسائي بألف بعد النون، وقرأ الباقون بغير ألف، ينظر: التبصرة في القراءات السبع، (ص:٧١٩).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾ الَّتِي أَمْرُنَا الأَوَّلُ إِلَى الحَيَاةِ[١].

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ مَتَى مُنْتَهَاهَا؟ وَمُرْسَى السَّفِينَةِ: حَيْثُ تَنْتَهِي[٢].

٤٩٣٦- حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ المِقْدَامِ: حَدَّثَنَا الفُضَيْلُ بْنُ سُلَيْمَانَ: حَدَّثَنَا أَبُو حَازِمٍ: حَدَّثَنَا سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ بِإِصْبَعَيْهِ هَكَذَا بِالوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الإِبْهَامَ: «بُعِثْتُ وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»[٣].

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾، ووقع في نسخة: «إِلَى أَمْرِنَا الأَوَّلِ»، وهي أحسن.

[٢] قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ يعني: متى تكون؟ ومتى تقع؟ لكنهم يسألون ذلك استبعادًا واستنكارًا لها، وليس استفهامًا حقيقيًّا، ولهذا أُنكر عليهم، وقال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾، أي: ليس عندك علم منها، وإنما علمها عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وتحتمل الآية وجهًا آخر: فيمَ يسألونك؟ أنت من ذكراها، أي: أنت من علاماتها؛ لقوله ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»(١)، لكن لا أدري هل قال به أحد؟ فإذا كان أحد قال بهذا فله وجه.

[٣] قوله: «كَهَاتَيْنِ» أي: أنهما متقاربتان، ليس بينهما إلا فرق يسير، كما أن بين

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»، رقم (٦٥٠٣) (٦٥٠٤)، ومسلم: كتاب الفتن، باب قرب الساعة، رقم (٢٩٥٠/ ١٣٢) (٢٩٥١/ ١٣٤) عن سهل وأنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وأخرجه البخاري في الموضع السابق، رقم (٦٥٠٥) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وأخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧/ ٤٣) عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ تَطِمُّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

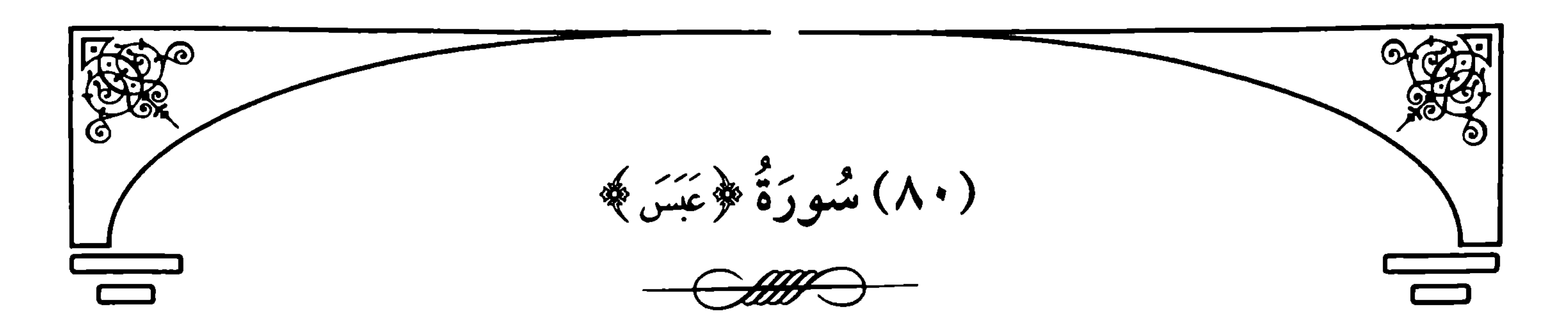
= الأوسط والسبابة في الطول شيئًا يسيرًا.

فإن قال قائل: هل للإنسان أن يدعو الله بتعجيل يوم القيامة؟

فالجواب: لا، لا يجوز؛ لأن يوم القيامة مُقَدَّر مُحَدَّد، ولكن إذا رأى الفتن فإنه يقول كما جاء في الحديث: «**وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ**»(١).



(١) أخرجه الترمذي: كتاب التفسير، باب سورة ﴿صٓ﴾، رقم (٣٢٣٣)، (٣٢٣٥)، وأحمد (١/ ٣٦٨)، (٥/ ٢٤٣).



(٨٠) سُورَةُ ﴿عَبَسَ﴾

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ كَلَحَ وَأَعْرَضَ[١].

---

[١] هذه الآية تعود إلى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا من الأسلوب البليغ، حيث قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، ولم يقل: عَبَسْتَ وتولَّيْت، فجعل المُحَدَّث عنه كأنه شخص غائب؛ لأن التحدُّث بالشيء الغائب أهون من المجابهة، ومع هذا قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾، فانتقل من الغَيْبَة إلى الخطاب.

وهذه الآيات فيها عتاب للنبي ﷺ، لكنه عتاب ليِّن؛ لأن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ فيه عتاب، لكنه عتاب ليِّن.

وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ ليُبيِّن أن هذا القرآن تذكرة لكلِّ أحد، ليس للأغنياء أو للوُجهاء أو للشُّرفاء، ولكن النبي ﷺ كما هو ظاهر من كلام أهل العلم إنَّما اتَّجه إلى هؤلاء؛ لأنه واثق من ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وطامع في أن يُسْلِم هؤلاء الشُّرفاء الوجهاء؛ لأن بإسلامهم يكون إسلام مَن تبعهم، وهذا فيه فائدة عظيمة للإسلام.

ولكن مع ذلك أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُبيِّن لرسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن مثل هذا الأسلوب لا ينبغي، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨]، فهذا

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ لَا يَمَسُّهَا إِلَّا المُطَهَّرُونَ، وَهُمُ المَلَائِكَةُ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ جَعَلَ المَلَائِكَةَ وَالصُّحُفَ مُطَهَّرَةً؛ لِأَنَّ الصُّحُفَ يَقَعُ عَلَيْهَا التَّطْهِيرُ، فَجُعِلَ التَّطْهِيرُ لِمَنْ حَمَلَهَا أَيْضًا[١].

= من جنسه، يعني: كُنْ مع هؤلاء الذين يدعون الله تعالى بالغداة والعشيِّ، ولو لم يكن لهم جاه وشرف في قومهم.

وعلى هذا فإذا جاءنا رجل مُقْبِل على الدِّين، حريص عليه، مُسابق إليه، فإننا نُقدِّمه على غيره، وكيف يكون هذا الرجل مُقبلًا على الحق، ويُريده، ويسعى بكل جهده له، ويأتي إنسان مُستكبر، فأتحدَّث إليه، وأترك هذا الرجل؟! لا شَكَّ أن هذا أمره عظيم.

ولكن لا حرج إذا رأينا المصلحة نقول: هل تأذن لنا أن نُكَلِّم فلانًا، ويكون الكلام معك فيما بعدُ؟ لأن الحقَّ له.

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾، قال: «﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ **لَا يَمَسُّهَا إِلَّا المُطَهَّرُونَ، وَهُمُ المَلَائِكَةُ**»، وهذا يدلُّ على أن القرآن بأيدي الملائكة تقرؤه، وهو تشريف لهذا القرآن؛ لأنه كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهم يُحِبُّون أن يقرؤوا كلام معبودهم جَلَّ وَعَلَا.

وقول المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: «جَعَلَ المَلَائِكَةَ وَالصُّحُفَ مُطَهَّرَةً؛ لِأَنَّ الصُّحُفَ يَقَعُ عَلَيْهَا التَّطْهِيرُ، فَجُعِلَ التَّطْهِيرُ لِـمَنْ حَمَلَهَا أَيْضًا» يعني: فتكون هذه الصحف مُطهَّرةً، ويكون الحامل لها مُطَهَّرًا أيضًا، وهذا دليل على أنَّ مَن لزم القرآن صار طاهرًا من الشرك والرذائل؛ لأنه يهدي إلى الحق، وإلى طريق مستقيم.

﴿سَفَرَةٍ﴾ المَلَائِكَةُ، وَاحِدُهُمْ: سَافِرٌ، سَفَرْتُ: أَصْلَحْتُ بَيْنَهُمْ، وَجُعِلَتِ المَلَائِكَةُ إِذَا نَزَلَتْ بِوَحْيِ اللهِ وَتَأْدِيَتِهِ كَالسَّفِيرِ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ القَوْمِ[١].

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿تَصَدَّىٰ﴾ تَغَافَلُ عَنْهُ[٢].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَمَّا يَقْضِ﴾ لَا يَقْضِي أَحَدٌ مَا أُمِرَ بِهِ[٣].

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ جمع سافر، والسفير هو الذي يكون واسطةً بين القوم، ومنه قول أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ تزوَّجها وهي حلال، قال: وكنت السفير بينهما(١)، أي: الواسطة بينهما.

[٢] على هذا تكون ﴿تَصَدَّىٰ﴾ فعلًا مضارعًا، حُذِفت منه تاء المضارعة، أي: تتصدَّى، ومثله: ﴿تَلَظَّىٰ﴾، أي: تتلظَّى.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾، واختلف فيها المُفسِّرون، فمنهم مَن قال كما قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ، أن المعنى: أن الإنسان لا يقضي ما أمره الله به، بل خالف وعصى.

وقيل: إن فاعل ﴿يَقْضِ﴾ هو الله عَزَّوَجَلَّ، والمعنى: لَمَّا يقضِ الله ما أمر به كونًا، وهو يوم القيامة، كأنه يقول: ثم إذا شاء أنشره، لكن لم يأتِ الوقت الذي يقضي الله تعالى به في هذا الأمر، وإلى هذا جنح ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي بمعناه: كتاب الحج، باب ما جاء في كراهية تزويج المحرم، رقم (٨٤١)، وأحمد (٦/ ٣٩٢). وانظر: البداية والنهاية (١١/ ٢٥٠)، ونصب الراية (٣/ ١٧٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٢٤).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿تَرۡهَقُهَا﴾ تَغْشَاهَا شِدَّةٌ[١].

﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾ مُشْرِقَةٌ.

﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَتَبَةٍ[٢]، ﴿أَسۡفَارٗا﴾ كُتُبًا.

﴿تَلَهَّىٰ﴾ تَشَاغَلَ.

يُقَالُ: وَاحِدُ الأَسْفَارِ سِفْرٌ.

٤٩٣٧- حَدَّثَنَا آدَمُ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ: حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، قَالَ: سَمِعْتُ زُرَارَةَ بْنَ أَوْفَى يُحَدِّثُ، عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ، عَنْ عَائِشَةَ،.........................

= وكلمة: ﴿لَمَّا﴾ تدلُّ على الانتفاء مع قرب الوقوع، مثل: قوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:٨]، يعني: ما ذاقوه، لكنهم وَشِيكون به.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾، أي: تغشاها وتُغَطِّيها قترة، وهي طبقات من ظلام الوجوه واكْفِهْرَارها، وهذا في يوم الحساب إذا قامت القيامة.

[٢] السفرة هم الملائكة، لكن سبق أن الصحيح أن هذا اللفظ مأخوذ من السفير؛ لأن الملائكة رسل فيما بين الله وبين خَلْقه، كما قال الله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١].

وهل الملائكة كلهم رسل؟

الجواب: لا، ولكن بعضهم رسل، وبعضهم ليسوا كذلك، فأمَّا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر١] فالمراد: من حيث الجنس، لا أن كلَّهم رسل.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ، مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ، وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ، فَلَهُ أَجْرَانِ»[١].

---

[١] أمَّا الأول -وهو الذي يقرأ القرآن، وهو حافظ له، ومتقن له- فلا شَكَّ أن مرتبته عالية مع السفرة الكرام البررة، وفي اللفظ الآخر: «**المَاهِرُ بِالقُرْآنِ**»(١) أي: الذي يُجيده ويُتْقِنه، وظاهره: وإن لم يعرف المعنى، ويحتمل أن يُقال: إن الماهر لا يُسَمَّى ماهرًا إلا إذا عرف المعنى، وكيف يكون ماهرًا بهذه الصنعة مثلًا، وهو لا يُجيدها؟! فيكون المعنى: ماهر في القرآن لفظًا ومعنى.

وأمَّا الثاني -وهو الذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه- فدون ذلك، لكن له أجره مرَّتين؛ لأن له أجر التلاوة، وأجر المشقَّة والعناء؛ لأنه يشقُّ عليه إخراج الكلمة والحروف والحركات، فمن أجل هذا كان له أجران.

وهذا ينبغي أن يكون في كل طاعة، فالإنسان الذي يدخل في الطاعة وهو قد أتقنها تمامًا، ويقوم بها براحة وطمأنينة، هذا أعلى مرتبةً من إنسان يُجاهد نفسه عليها، ويتكلَّف الجهاد عليها، لكن الثاني له أجره مرَّتين: أجر المجاهدة، وأجر العمل، فالأول أكمل حالًا، وأعلى مرتبةً، وهذا أكثر أجرًا، ولا تَقُل: إذا كان أكثر أجرًا فإنه أعلى مرتبةً؛ لأننا نقول: مائة درهم تُساوي عشرين دينارًا، فكثرة العدد لا تدلُّ على الفضل المُطْلَق.

وقوله: «**وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ**» أي: حافظ له بإقامة حروفه، هذا الظاهر، ولا يُشْتَرط حفظ حدوده.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الماهر بالقرآن، رقم (٧٩٨/ ٢٤٤).

....

= **فإن قال قائل**: إذا كان القارئ يُتْقِن الحروف، ولا يُتْقِن الحدود، فهل يكون مع السفرة الكرام البررة؟

قلنا: هذا قد وُجِدَ فيه مانع يمنع، وهو عدم عَمَله بما في القرآن، حتى الذي يقرؤه وهو عليه شاق، وهو لا يقوم بحدوده، فليس له الأجر كما ينبغي.

فإن قال قائل: على هذا يكون المراد بالماهر مَن أتقن الحروف والحدود!

قلنا: لا، وإنما نقول: السبب هنا موجود -وهو الحفظ- لكن وُجِدَ مانع، ووجود المعاصي التي تعوقه عن مرتبة هؤلاء لا يمنع دلالة اللفظ على ظاهره.

فإن قال قائل: وهل يُسْتَدل بهذا الحديث على وجوب التجويد؟

قلنا: لا؛ ولكنه أفضل، أمَّا الوجوب فلا، ثم مَن يقول: إن الحروف إنما تُقام بهذا التجويد الموجود؟! بل إذا نطق الإنسان بالحرف بإعرابه فقد أدَّى ما عليه، وهذا هو التجويد، والتجويد المعروف ما هو إلا تحسين لفظ فقط، وعسى أن نقول: إنه موافق أيضًا.

وقد ذكرنا في غير موضع أن الذين حَكَوا صفة قراءة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا تنطبق هذه الصفة التي ذكروها على قواعد التجويد المعروفة الآن، فإنهم ذكروا أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يمدُّ ﴿اللَّهِ﴾ و﴿الرَّحْمَنِ﴾ و﴿الرَّحِيمِ﴾[1]، ومعلوم أن المدَّ الطبيعي لا يُسَمَّى: مدًّا؛ إذ إنه يأتي بدون تقصُّد، وهذا

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب مد القراءة، رقم (٥٠٤٦).

= يدلُّ على أنه يمدُّها بدون وقف، والمدُّ الطبيعي لا يُمَدُّ إلا إذا كان عن وقف، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليس فيها وقف إلا على ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وأيضًا نقول: القرآن نزل باللسان العربي، فإذا قرأتموه بالتجويد فاقرؤوا الأحاديث بالتجويد أيضًا؛ لأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان ينطق باللغة العربية، وما علمتُ أحدًا يقول: إنك تقرأ الأحاديث بالتجويد، مع أنها كلَّها باللغة العربية.

فالصواب: أن القراءة بالتجويد غاية ما يُقال فيها: إنها مُستحبَّة إذا كان فيها تحسين الصوت بالقرآن؛ لأن أبا موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا سمع النبيُّ ﷺ قراءته، واستمع إليها، فقال له النبي ﷺ: «**لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»، قال: لو علمتُ لحبَّرته لك تحبيرًا[1]، فرُبَّما نأخذ التجويد من مثل هذا، وأنه من باب المُحَسِّنات اللفظية.

وإيجاب التجويد بحيث نقول: إن الناس كلَّهم آثمون؛ لأنهم لم يقرؤوا بالتجويد، ومعلوم أننا إذا أوجبنا التجويد أوجبنا تعلُّمه، فعلى هذا فيكون كلُّ الناس الذين لم يقرؤوا بالتجويد من علماء وطلبة علم وغيرهم يكونون كلُّهم آثمين؛ لأنهم تركوا واجبًا، وهذا لا يقول به أحد.

وأمَّا استدلال بعضهم بأن رجلًا قرأ على ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾، فقال: للفُقَرى، فقال ابن مسعود: مُدَّها[2] فهذا القارئ لم يقرأ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾، ولكن قال: «للفُقَرى»، والممدود عند العلماء

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٧/ ٢٧٣) برقم (٨٠٠٤).
(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٤٨).

= ضدُّ المقصور، ولهذا من تراجم ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الممدود والمقصور»، فمثلًا: «موسى» مقصور، و«سماء» ممدود، فقال: مُدَّها، يعني: اقرأها بالهمز، فليس فيه دليل.

وذكرنا هذا من أجل ألَّا يُلِحَّ علينا أحد بالقول بالوجوب؛ لأن كثيرًا من الناس -وخصوصًا الذين يعتنون بالتجويد- يقولون: إنه واجب عيني لا كفائي، وإنه يجب أن تقرأ القرآن بهذه القواعد التجويدية.

فإن قال قائل: لكن هؤلاء القُرَّاء تلقَّوا القراءة بالأسانيد!

قلنا: نعم، لكن دخول التحسين النطقي واللفظي لا يُسْتَبعد بعد ألف وأربعمائة سنة، فمثلًا: كل قارئ يقرأ بالتجويد، وتجد لأحدهم رنَّةً غير رنَّة الآخر، فمع طول الزمن يُمكن أن تكون قد دخل عليها التحسين من غُنَّة وما أشبه ذلك.

وعندي أنا أنه يكفي قراءة الإنسان بالقراءة التي لا يتكلَّفها، لكن مع إقامة الحركات، وإخراج الحروف واضحةً بيِّنةً، وهذا هو الواجب، ورُبَّما تكون أقرب إلى الخشوع، خصوصًا لِـمَن لم يتعلَّم القراءة بالتجويد.

والآن يقول بعض العلماء -ولا سِيَّما علماء التجويد- يقول: إذا قلت: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ بالظاء بطلت صلاتك، مع أن هناك أئمَّةً مساجد لا يعرفون أن يقولوا إلا هكذا، فهل نقول له: أَعِدْ صلاتك؟!

مع أنه حدَّثني رجل -ويظهر لي أنه طالب علم، أو عالِـم- وقال: إن الذي يُفَرِّق بين الضاد والظاء في اللغة العربية ضالٌّ، وإن اللغة العربية لا تُفَرِّق بينهما، وإن الصواب

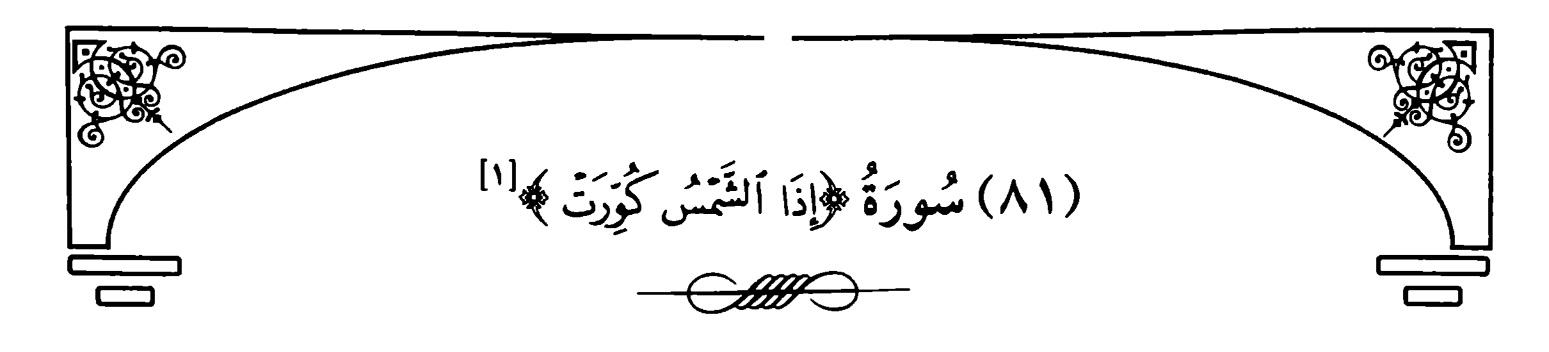
= أن تقـول: «ولا الظالين»، وأمَّا الذين يقـرؤون: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ حتـى تكون كالطاء فهؤلاء ليس عندهم علم.

وهذا العلم -علم التجويد- الظاهر أنه قواعـد من جنس النحو، وأَحْـوَجهم إلى ذلك أنهم رأوا أن الناس -الذين دخلـوا في الإسلام، ولغتُهم غيرُ عربية- صاروا لا يُجيدون القراءة كما ينبغي، فوضعوا هذه؛ لأجل ضبط الحروف.

وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ» ظاهر هذا الحديث: أنه لا بُدَّ أن يتعاهده، ومعلوم أن الإنسان الذي يقرأ القرآن، وهو عليه شاق، أنه يتعاهده في الغالب؛ من أجل أن يسهل عليه.

إنما ظاهر الحديث: أنه لا بُدَّ أن يكون مُتعاهدًا له، والظاهر لي -والله أعلم- أن هذا بيان للواقـع، وليس بشرط، فالذي يقرأ القـرآن، وهو عليه شاق، وإن لـم يكن يتعاهده، فإن له الأجر مرَّتين: مرَّةً للتعب، ومرَّةً للتلاوة.





(٨١) سُورَةُ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[١]

﴿ٱنكَدَرَتْ﴾ انْتَثَرَتْ[٢].

---

[١] إذا قال قائل: أليست الشمس مُكَوَّرةً الآن؟

قلنا: المراد بقوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يطويها يوم القيامة، ويُكَوِّرها ويلفُّها، ثم يُلقيها في النار هي والقمر؛ إغاظةً لعابديهما، فلو فُرِضَ أن الشمس الآن كتلة واحدة كالبيضة فالله عَزَّوَجَلَّ قادر على أن يلفَّها يوم القيامة ولو كانت هكذا.

فإن قال قائل: وكيف يطوي الله عَزَّوَجَلَّ الشمس يوم القيامة، ويُلقيها في النار، مع أن الشمس تدنو يوم القيامة قدر ميل؟

نقول: يوم القيامة خمسون ألف سنة، وليس ساعةً أو ساعتين، ففيه عدَّة ألوان ممَّا ذُكِرَ؛ لأنه يوم طويل، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لمَّا سُئِلَ عن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٥-٣٦]، قال: هو ألوان، أي: له أحوال مُتعدِّدة، وهكذا كلما عَرَضَ لك شيء في القرآن في يوم القيامة ظاهره التناقض فإنه يُحْمَل على تعدُّد الزمن، وها أنت تجد الأحوال تتغيَّر في ظرف سنة واحدة، فكيف بخمسين ألف سنةً؟!

[٢] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾، قال: «انْتَثَرَتْ»، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار:٢].

وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿سُجِّرَتْ﴾ ذَهَبَ مَاؤُهَا، فَلَا يَبْقَى قَطْرَةٌ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: المَسْجُورُ: المَمْلُوءُ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: (سُجِرَتْ)(١) أُفْضِيَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَصَارَتْ بَحْرًا وَاحِدًا[١].

وَالخُنَّسُ: تَخْنِسُ فِي مَجْرَاهَا، تَرْجِعُ.

وَتَكْنِسُ: تَسْتَتِرُ، كَمَا تَكْنِسُ الظِّبَاءُ[٢].

---

[١] ذكر هنا ثلاثة أقوال:

الأول: «ذَهَبَ مَاؤُهَا، فَلَا يَبْقَى قَطْرَةٌ».

والثاني: «المَسْجُورُ: المَمْلُوءُ»، فيكون المراد: وإذا البحار مُلِئَت.

والثالث: «أُفْضِيَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ».

وهناك قول رابع قد يكون هو الأَوْلَى، وهو أن المعنى: اشتعلت وأُوقدت نارًا، من: سجَّرت النار، أي: أوقدتها؛ لأن هذه البحار تكون يوم القيامة نارًا، وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور:٦]، فإنه سبق أن المعنى: المملوء، أو المحبوس ألَّا يفيض على اليابسة.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾، ونحن نُشاهد نجومًا تخرج من المشرق، ثم ترتفع، ثم ترجع، ولا تصل إلى الغروب، فهي خُنَّس كما

---

(١) قرأ بالتخفيف ابن كثير وأبو عمرو، وقرأ الباقون بالتشديد، يُنْظَر: التبصرة في القراءات السبع، (ص:٧٢١).

﴿تَنَفَّسَ﴾ ارْتَفَعَ النَّهارُ[١].

وَالظَّنِينُ: المُتَّهَمُ، وَالضَّنِينُ: يَضَنُّ بِهِ[٢].

وَقَالَ عُمَرُ: ﴿ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ يُزَوَّجُ نَظِيرَهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾[٣].

﴿عَسۡعَسَ﴾ أَدْبَرَ.

= قال الله عَزَّوَجَلَّ، وهي جوارٍ أيضًا يمشين، وكُنَّسٌ يستترن عن العيون، مع أنك تجدها الليلة بجانب هذه النجمة، وفي الليلة الثانية تتأخَّر عنها.

[١] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: ظهر وبان وارتفع.

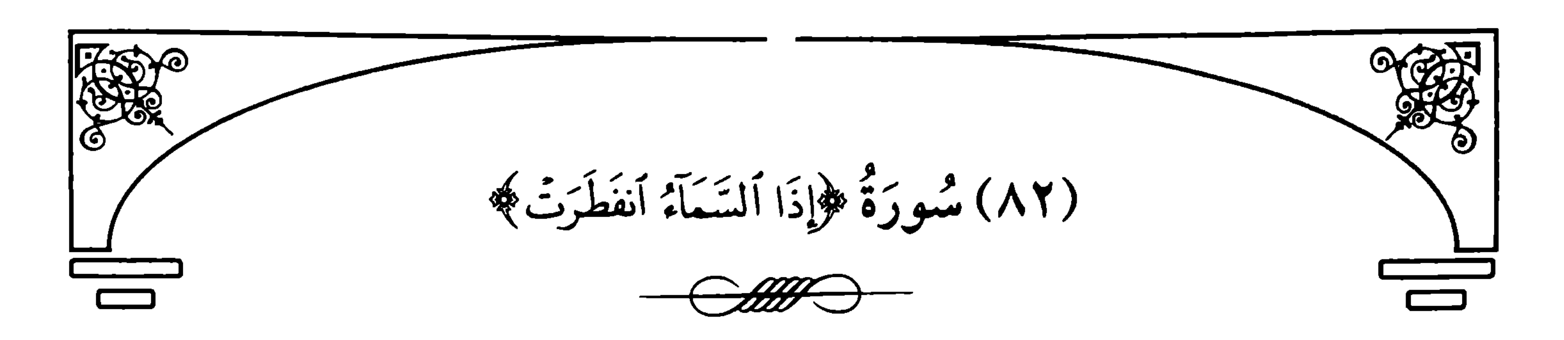
[٢] أمَّا الظَّنين بالظاء فهو من الاتِّهام، والمعنى: ما هو على الغيب بمُتَّهم ﷺ.

وأمَّا ﴿بِضَنِينٖ﴾ بالضاد(١) أي: ببخيل وكاتم، فالرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس بمُتَّهَم على الغيب، بل أدَّاه كما أُوحي إليه، وليس ببخيل به، بل هو ﷺ يُعلِّمه أمَّته ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

[٣] قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ أي: قُرِنَت بنظائرها، كما قال الله تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات:٢٢]، أي: نُظَراءهم وأشكالهم، فالمشركون صنف، والجاحدون صنف، والفُسَّاق صنف، وهكذا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩].

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء، وقرأ الباقون بالضاد، يُنْظَر: التبصرة في القراءات السبع، (ص:٧٢١).



(٨٢) سُورَةُ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ: ﴿فُجِّرَتْ﴾ فَاضَتْ.

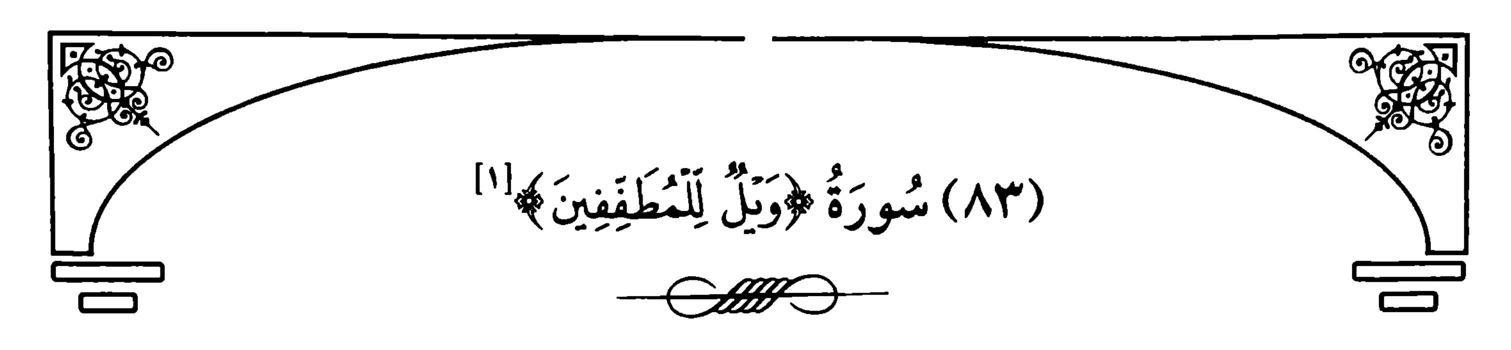
وَقَرَأَ الأَعْمَشُ وَعَاصِمٌ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ، وَقَرَأَهُ أَهْلُ الحِجَازِ بِالتَّشْدِيدِ، وَأَرَادَ مُعْتَدِلَ الخَلْقِ، وَمَنْ خَفَّفَ يَعْنِي: فِي أَيِّ صُورَةٍ شَاءَ، إِمَّا حَسَنٌ، وَإِمَّا قَبِيحٌ، أَوْ طَوِيلٌ، وَقَصِيرٌ[١].

[١] يُريد المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾، وفي قراءة: (فَعَدَّلَكَ)(١)، والمراد: أنه جعلك مُعْتَدِل الخَلْق، مُنتصب القامة، في أحسن ما يكون من المخلوقات، هذا هو معنى قوله: ﴿فَعَدَلَكَ﴾.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ فسَّره المؤلِّف بقوله: «**إِمَّا حَسَنٌ، وَإِمَّا قَبِيحٌ، أَوْ طَوِيلٌ، أَوْ قَصِيرٌ**».



(١) قرأ الكوفيون (عاصم وحمزة والكسائي) بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد، يُنْظَر: التبصرة في القراءات السبع، (ص:٧٢٢).



(٨٣) سُورَةُ ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾[1]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿بَلۡۜ رَانَ﴾ ثَبْتُ الخَطَايَا[2].

---

[١] قول الله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ فسَّر هذا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾، وقوله: ﴿كَالُوهُمۡ﴾ أي: كالوا لهم ﴿أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾ أي: وزنوا لهم، وهذا -والله أعلم- على سبيل المثال، وإلا فيشمل جميع الحقوق، فكلُّ مَن أراد من الناس حقَّه كاملًا، واستوفاه منهم كاملًا، ولم يُعْطهم حقَّهم كاملًا، فإنه داخل في هذا؛ لأن العلَّة واحدة، وهي أنه يُطالب بحقِّه كاملًا، ويمنع حقَّ غيره، وهذا هو المُطَفِّف.

ومن ذلك: لو أن رجلًا أراد من جاره أن يستوفي حقَّه منه، ولكنه يُفَرِّط في حق جاره، فهو داخل في هذا.

وقوله: ﴿وَيۡلٞ﴾ قيل: إنها كلمة وعيد، وقيل: إنها وادٍ في جهنم، والأصح أنها كلمة وعيد، ومن جملة ما يُتوَعَّد به: هذا الوادي الذي في نار جهنم.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، وهو ردٌّ لقوله: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّاۖ﴾ يعني: ليست أساطير الأولين، ﴿بَلۡۜ﴾ لإبطال ما قال ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، فليست أساطير الأولين، بل هي كلام الله، وشرعه، ووحيه، وخبره الصادق، وحُكْمُه العادل، لكن هذا -والعياذ بالله- لـمَّا ران على قلبه ما كان يكسبه من الخطايا صار قلبه لا يرى الحقَّ حقًّا، بل التبَس عليه هذا الشيء واستكبر، وزعم أنه أساطير الأولين.

﴿ثُوِّبَ﴾ جُوزِيَ[١].

الرَّحِيقُ: الخَمْرُ.

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ طِينُهُ[٢].

= وفي هذا: دليل على أنه إذا اشتبه عليك الحق أو حصل في قلبك شيء من إنكار فاعلم أن ذلك بسبب الذنوب، فعليك أن تُراجع نفسك، وأن تستغفر الله عَزَّوَجَلَّ، حتى يتبيَّن لك الحق.

ويُؤَيِّد هذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء:١٠٥-١٠٦]، فهذا يدلُّ على أن الاستغفار من أسباب توفيق الإنسان للصواب.

[١] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، و﴿هَلۡ﴾ هنا بمعنى: قد، كقوله عَزَّوَجَلَّ فيما سبق: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ [الإنسان:١]، والمعنى: أن الكفار جُوزُوا بما كانوا يفعلون.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ﴾، والرحيق هو الخمر الصافي، ثم بيَّن بما هو مختوم به، فقال: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾، والختام هو الذي يكون في أسفل الإناء في العادة، وهذا تكرهه النفوس عادةً، ولا تُحِبُّه، لكن في الجنة يكون ختامه مسكًا.

وهنا مسألة: بعض الناس يقول في نهاية الجلسة: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾، يريد أن ينتهي المجلس بقراءة سورة، أو حديث، أو نحو ذلك، فهل لاستدلاله بهذه الآية وجه؟

التَّسْنِيمُ يَعْلُو شَرَابَ أَهْلِ الجَنَّةِ[١].

وَقَالَ غَيْرُهُ: المُطَفِّفُ لَا يُوَفِّي غَيْرَهُ[٢].

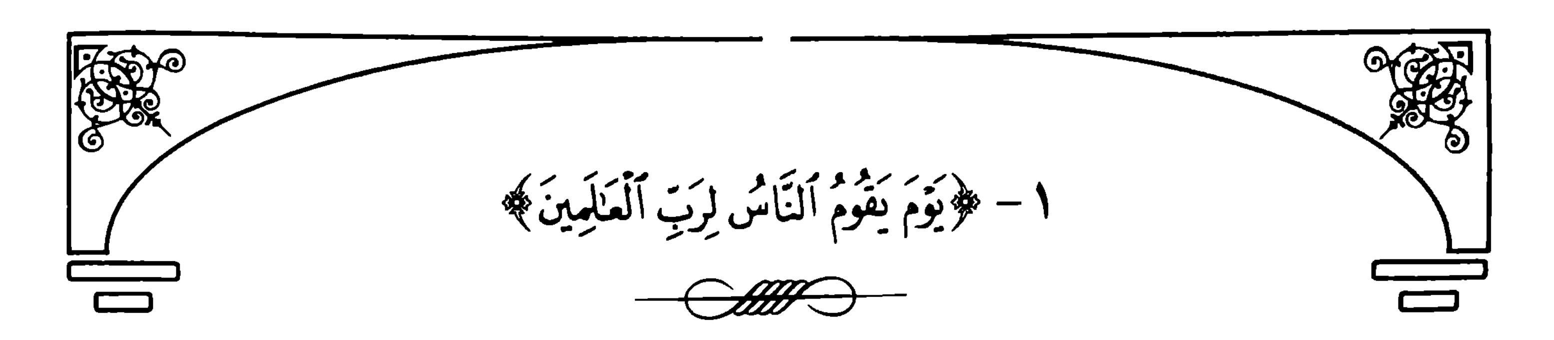
الجواب: الظاهر أن هذا من باب التشبيه، أي: يكون ختامه طيِّبًا، لكن اتِّخاذها سُنَّةً راتبةً، بحيث لا نقوم إلا بعد ختمه بقراءة القرآن، هذا لا أصل له، إنما أحيانًا إذا جلس قال لأحدهم: اقرأ، ثم تكلَّم على بعض معاني الآيات، فهذا يكون فيه فائدة.

[١] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي: خُلِطَ فيه هذا التسنيم، لكنه يعلو الشراب.

ولا شَكَّ أن هذا الشراب من أحسن ما يكون في الرائحة وفي الطَّعم؛ لأنه من تسنيم، والظاهر -والله أعلم- أنه مُشتقٌّ من السنام، وهو الرِّفعة؛ لأن السنام يكون في أعلى ظهر الدابة.

[٢] يُشير بهذا إلى ما سبق من أن المطفِّف هو الذي لا يُوفي غيره في المكيال والميزان والحقوق وغيرها، ويُريد أن يستوفي من الناس كاملًا.





١ - ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

٤٩٣٨ - حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ: حَدَّثَنَا مَعْنٌ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ»[١].

[١] وذلك لأنه في يوم القيامة تدنو الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل، ويلحقهم العرق، فمنهم مَن يكون عرقه إلى كعبيه، وإلى ركبتيه، وإلى حقويه، ومنهم مَن يُلْجِمُه، ومنهم مَن يصل أنصاف أُذنيه.

فإذا قال قائل: كيف يكون هذا الشيء، وهم في مقام واحد؟ فإن لنا في ذلك جوابين:

الجواب الأول: أن أحوال الآخرة لا تُقاس بأحوال الدنيا، ويدلُّ لهذا أن الشمس لو دَنَت الآن إلى الناس بهذا المقدار لاحترقوا، بخلاف أهل الآخرة، فإنها تدنو منهم قدر ميل، ومع ذلك لا يحترقون.

الجواب الثاني: أن نقول: إن هذا ممكن، كما أن بعضهم يمشي بنور يوم القيامة، وبعضهم يمشي في ظلمة، مع أنه في الدنيا إذا كان الذي إلى جنبك معه نور فسوف ترى، وتنتفع به.

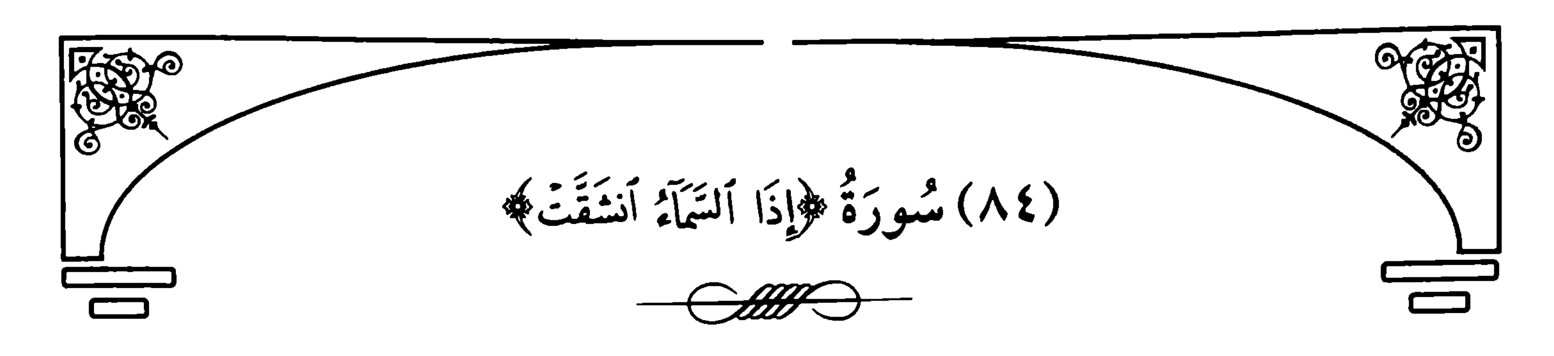
ثم إننا لو شئنا أن نضرب مَثَلًا بماء في دَرَج، ووقف رجل على الدرجة العُلْيَا، ورجل آخر على الدرجة السُّفْلَى، وبين كل واحدة والأخرى متران، وقدَّرنا أن الرجلين

....

= قامتهما سواء، فيكون هذا الذي في العُلْيا يصل الماء إلى كعبيه، والثاني يُغَطِّيه ويُلجمه، وهذا في الدنيا، فهو أمر ممكن، فرُبَّما في يوم القيامـة يكون بعضهم في مكان مرتفع، وبعضهم في مكان منخفض، بحسب أعمالهم.

ولكن الوجه الأول -وهو أن نقول: إن أحوال الآخرة لا تُقاس بأحوال الدنيا- هذا هو الذي يَسْلَم به الإنسان من كل إيراد.





(٨٤) سُورَةُ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ يَأْخُذُ كِتَابَهُ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ[١].

---

[١] قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ هذا في سورة الحاقة، وأمَّا التي في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ فهي: ﴿وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾، وكأنه -والله أعلم- يُعطَى بشماله، ثم تُخْلَع يده من وراء ظهره.

وقال بعض العلماء: إن من الناس مَن يأخذه بشماله، ويُعْطَى إياه من الجانب الشمالي، وبعضهم لا يُعطَى إياه إلا من وراء ظهره.

ولكن الوجه الأول أسدُّ، أي: أنه يُؤْتَى من وراء ظهره -لا مُستقبلًا- وتُخْلَع يده الشمال، ويجعله وراء ظهره.

والحكمة مناسبة جدًّا؛ لأن هذا الرجل لَمَّا جعل شَرْعَ الله وراء ظهره، وكتابه وراء ظهره، ولم يَعْبَأ به، ولم يرفع به رأسًا، صار جزاؤه أن جُعِلَ كتابه يوم القيامة من وراء ظهره.

وهل هذا يشمل عصاة المؤمنين؟

الجواب: لا، ولكن الظاهر أن العصاة يأخذونه بأيمانهم، لكن يُعَذَّبون؛ لأنه قال: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾، وهذا يدلُّ على أن الآخذ بالشمال هم الكفار.

﴿وَسَقَ﴾ جَمَعَ مِنْ دَابَّةٍ[١].

﴿ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ لَا يَرْجِعَ إِلَيْنَا[٢].

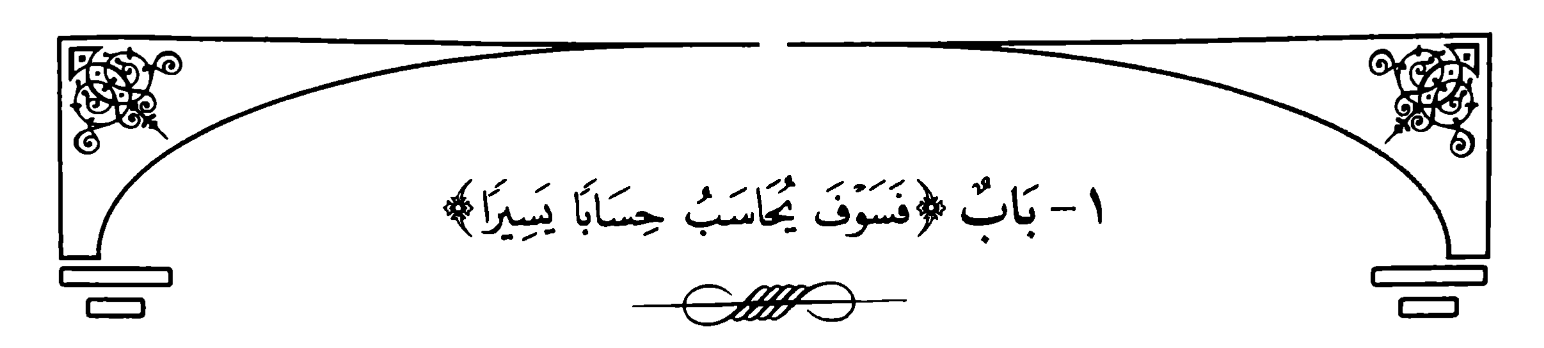
= وأمَّا قول مَن قال: إنه حين تتطاير الصحف يُخفي الكفار أيديهم الشمال مخافة أن يستلموا بها الكتاب، فيأتي من وراء ظهورهم، فهذا لا وجه له، إلا إذا ثبت بالسُّنَّة، وإلا فلا وجه له؛ لأن الناس في ذلك الوقت لا تكون عندهم هذه الأمور، ولا يذكرون هذا الشيء.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾، وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن معناه: ما جمع من دابة، وذلك لأن الدواب تنتشر في الليل، وتصول على الناس، وتُؤذيهم، ولا يعرف هذا إلا مَن عاش في الليل المُظْلِم، أمَّا الآن فإن ليلنا كالنهار، والحمد لله، ولهذا لا تكاد ترى الحشرات خارجةً في الليل كما هي فيما سبق، وأيضًا لو أنك جلست في فلاة من الأرض، وحولك قنديل، فسوف تعرف كيف يجمع الليل من هذه الحشرات التي لا تكاد تراها في حياتك؟

[٢] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: ألَّا يرجع إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿ظَنَّ﴾ هل المعنى: تيقَّن؟

الجواب: لا، لكن هذا معتقده، وهو مُعْتَقد باطل؛ لأن غاية ما عند هؤلاء المُنْكِرين أن يقولوا: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾، فأجاب الله: ﴿يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٨-٧٩].



١- بَابٌ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾

٤٩٣٩- حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ: حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ الأَسْوَدِ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي مُلَيْكَةَ، سَمِعْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ.

وَحَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَحَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، عَنْ يَحْيَى، عَنْ أَبِي يُونُسَ حَاتِمِ بْنِ أَبِي صَغِيرَةَ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنِ القَاسِمِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ إِلَّا هَلَكَ**»، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قَالَ: «**ذَاكِ العَرْضُ، يُعْرَضُونَ، وَمَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ هَلَكَ**»[١].

---

[١] في السند الثالث لهذا الحديث اختلاف عمَّا سبق؛ لأن فيه بين ابن أبي مليكة وعائشة فيه القاسم، فهل نقول: إن هذا من باب المزيد في مُتَّصل الأسانيد؛ لأن ابن أبي مليكة قد أدرك عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أو نقول: لعلَّ ابن أبي مليكة سمعه من عائشة، ومن القاسم أيضًا؟

الجواب: الثاني، أي: أنه سمعه من القاسم ومن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فإن قال قائل: فما الفائدة -إذن- من أنه يسوق إسناد القاسم مع نزول الإسناد؛ لأن الإسناد العالي هو ما قلَّ رجاله، كما قال البيقوني رَحِمَهُ اللَّهُ:

....

وَكُــلُّ مَــا قَلَّــتِ رِجَالُــهُ عَــلَا وَضِــدُّهُ ذَاكَ الَّــذِي قَــدْ نَــزَلَا[١]

نقول: الفائدة هي التقوية، وأن القاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حدَّثه بمثل ما سمعه منها، فيكون في ذلك زيادة تقوية للحديث.

وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ذَاكِ العَرْضُ**» بكسر الكاف، ويجوز: «ذَاكَ»، والعرض: أن تُعْرَض عليه الأعمال، ويُقَرِّر الله تعالى المؤمن بذنوبه، يقول: فعلت كذا، فعلت كذا، فعلت كذا، فإذا أقرَّ بها قال: «**سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ**»[٢]، وأمَّا مَن نُوقش الحساب فسيهلك بكلِّ حال مهما كان؛ لأنه لو ناقشك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في نعمة من نِعَمه لكانت جميع أعمالك لا تكفي بها، بل نقول: إن أعمالك التي تعملها شكرًا لله على نعمته هي من نِعَم الله، فتحتاج إلى شكر؛ لأن كون الإنسان يشكر الله لا شَكَّ أنه من النِّعَم، فإن الكفار حُرِمُوا هذه النعمة العظيمة، فإذا كان شكر النعمة نعمةً، فشكرت الله على هذه النعمة، احتاج الشكر الثاني إلى شكر، ولهذا يقول الشاعر[٣]:

إِذَا كَــانَ شُــكْرِي نِعْمَــةَ اللهِ نِعْمَــةً عَــلَيَّ لَــهُ فِي مِثْلِهَــا يَجِــبُ الشُّــكْرُ

فَكَيْــفَ بُلُــوغُ الشُّــكْرِ إِلَّا بِفَضْــلِهِ وَإِنْ طَالَــتِ الأَيَّــامُ، وَاتَّصَــلَ العُمْــرُ

---

(١) شرح المنظومة البيقونية لفضيلة شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (ص:٧٥).

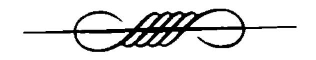
(٢) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨/ ٥٢).

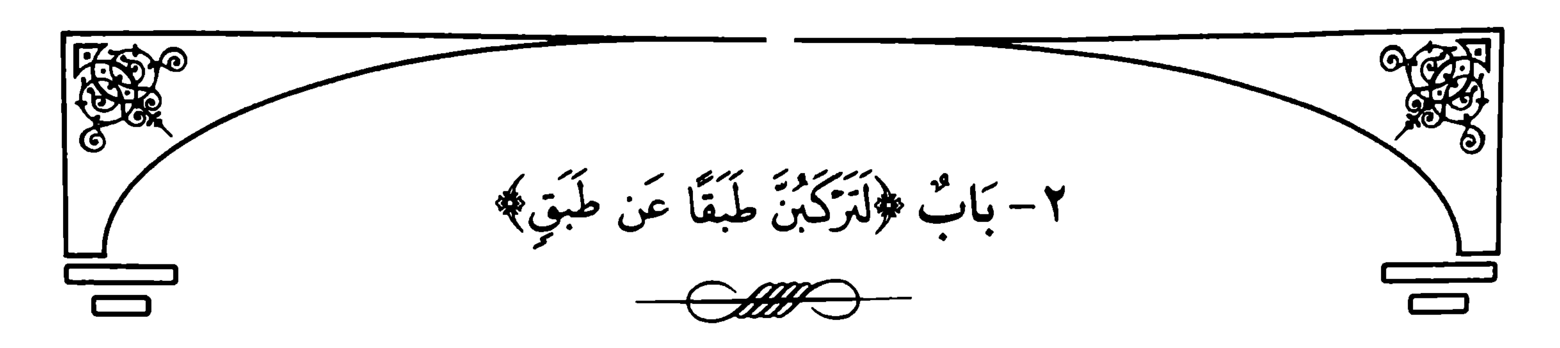
(٣) البيتان لمحمود بن حسن الوراق، يُنْظَر: زهر الآداب (١/ ١٣٤).

....

= وصدق! فإذا كان شكر النعمة نعمةً تحتاج إلى الشكر، والشكر عليها نعمة تحتاج إلى شكر، وهكذا، فمعنى هذا: أننا لا نستطيع أن نشكر نعمة الله.

وهذا معنى قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ هَلَكَ»، مع أننا ما قمنا ولا بشكر النِّعَم الحسِّيَّة فضلًا عن شكر الشكر.





٢- بَابُ ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾

٤٩٤٠- حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ النَّضْرِ: أَخْبَرَنَا هُشَيْمٌ: أَخْبَرَنَا أَبُو بِشْرٍ جَعْفَرُ بْنُ إِيَاسٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حَالًا بَعْدَ حَالٍ، قَالَ هَذَا نَبِيُّكُمْ ﷺ[١].

---

[١] هذا تفسير النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، أي: حالًا بعد حال، وهو في المرتبة الثانية من التفسير، والمرتبة الأولى: تفسير القرآن بالقرآن، كما سبق في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾، ثم تفسير النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم في المرتبة الثانية.

ويليه تفسير الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولا سِيَّما مَن عُرِفُوا بالاعتناء بالتفسير، كابن عباس، وابن مسعود، وعثمان، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم.

ويليه تفسير كبار التابعين الذين أَخَذوا عن الصحابة، وليس التابعين كلّهم، بل الكبار منهم الذين عُرِفُوا بالأخذ عن الصحابة، وإلا فإن التابعين كغيرهم، يُؤْخَذ من قولهم ويُرَدُّ، لكنهم -بلا شَكٍّ- أقرب إلى الصواب.

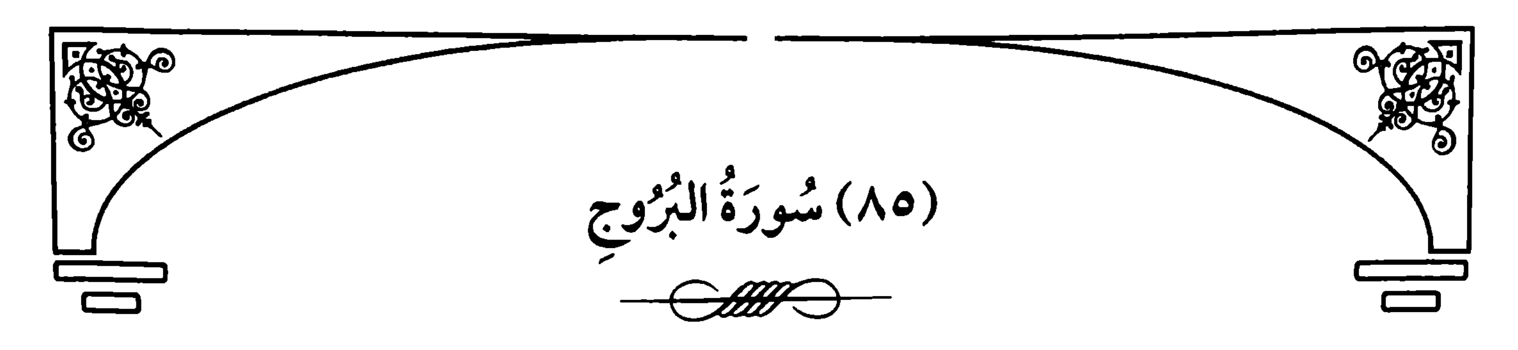
ويحتمل أن مراد ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بقوله: «**قَالَ هَذَا نَبِيُّكُمْ ﷺ**» أن نبيكم هو الذي يركب طبقًا عن طبق، وتكون «هَذَا» مُبْتدأً، لكن الظاهر أن المراد: قال نبيُّكم هذا التفسيرَ.

....

= لكن إذا كان الخطاب للنبي ﷺ فهذا بناء على قراءة فتح الباء (لَتَرْكَبَنَّ)[١]، وهذا يعود على الرسول ﷺ، يعني: هو الذي يركب.

---

(١) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بفتح الباء، وقرأ الباقون بضمها، ينظر: التبصرة في القراءات السبع (٧٢٣).



(٨٥) سُورَةُ البُرُوجِ

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾ شَقٌّ فِي الأَرْضِ[١].

﴿فَتَنُوا۟﴾ عَذَّبُوا.

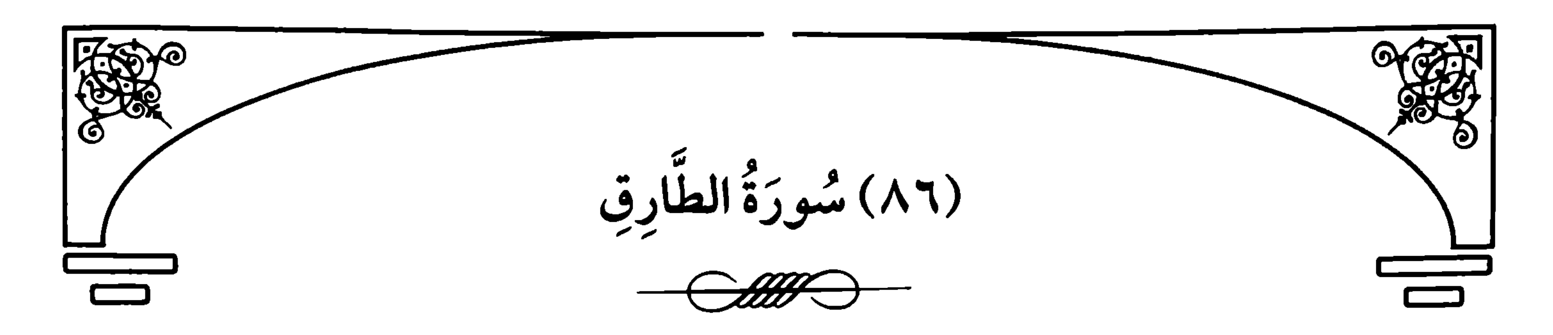
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ الحَبِيبُ، ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ الكَرِيمُ[٢].

---

[١] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾، و﴿قُتِلَ﴾ جواب القسم، والغالب أن جواب القسم مع «قد» تدخل عليه اللام، إلا إذا طالت الجملة، كما في هذه الآيات، وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾، إلى آخر الآيات، وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، وأمَّا إذا كان قريبًا، مثل: «والله لقد» فإن الغالب أنها تقترن بها اللام.

وقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ فسَّرها بعضهم بـ: «لُعِنَ»، وبعضهم بـ: «هلك»، وهذا الأقرب؛ لأن مقتضى القتل الهلاك.

[٢] «الودود» على وزن «فعُول»، والود: هو خالص المحبة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَدُود بمعنى اسم الفاعل، وبمعنى اسم المفعول، فهو وَادٌّ لِـمَن يستحقُّ الود، ووَدُود بمعنى مَوْدُود، وقد ذكرنا في موضع آخر أن أهل السُّنَّة والجماعة يُثْبِتُون أن الله يُحِبُّ، وأنه يُحَبُّ، وأن أكثر أهل التعطيل يُنْكِرون المحبة، ويُفَسِّرونها بالثواب، أو بإرادة الثواب، بناءً على رأيهم من جواز وصف الله تعالى بالإرادة، ولكن الصواب أن المحبة ثابتة لله عَزَّوَجَلَّ، وهي محبَّة لا تُشبه محبَّة المخلوق للمخلوق، بل هي أعلى وأتمُّ.



(٨٦) سُورَةُ الطَّارِقِ

هُوَ النَّجْمُ، وَمَا أَتَاكَ لَيْلًا فَهُوَ طَارِقٌ.

﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ المُضِيءُ[١].

---

[١] قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، والطارق هو الذي يأتيك ليلًا، كما نهى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يطرق الرجل أهله ليلًا(١)، وأمَّا قول النبي ﷺ: «أَمْهِلُوا حَتَّى تَدْخُلُوا لَيْلًا»(٢) فالنهي عن الطروق ليلًا إذا كانوا لا يعلمون، أمَّا إذا علموا فلا بأس به.

والمراد بالطارق في الآية فسَّره الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، أي: المضيء إضاءةً شديدةً، بحيث يثقب طبقات الجو حتى يصل ضوؤه إلى الأرض، كما يُوجَد في بعض النجوم المضيئة كثيرًا، يصل ضوؤها إلى الأرض، حتى إن الرجل يُشاهد ظلَّه من نور هذه النجوم.

وجواب القَسَم: قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ﴾، و﴿إِن﴾ هنا بمعنى: ما، و﴿لَّمَّا﴾ بمعنى: إلا، يعني: ما كلُّ نفس إلا عليها حافظ، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار:٩-١١].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العمرة، باب لا يطرق أهله إذا بلغ المدينة، رقم (١٨٠١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب كراهة الطروق، رقم (٧١٥/ ١٨٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب تزويج الثيبات، رقم (٥٠٧٩)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب كراهة الطروق، رقم (٧١٥/ ١٨١).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ سَحَابٌ، تَرْجِعُ بِالمَطَرِ[١].

وَ﴿ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ تَتَصَدَّعُ بِالنَّبَاتِ.

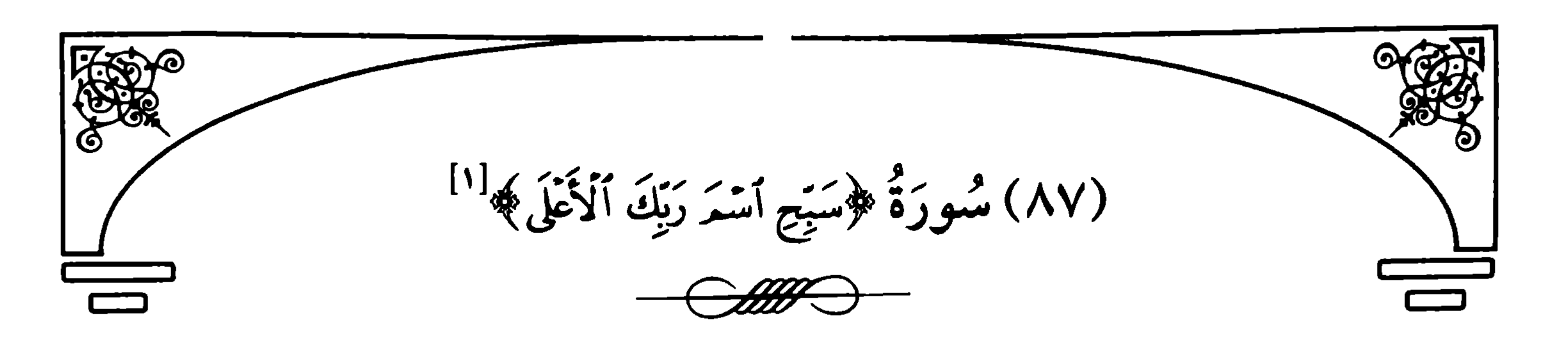
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ لَحَقٌّ.

﴿لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ إِلَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ.

---

[١] يعني قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾.





(٨٧) سُورَةُ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[١]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قَدَّرَ لِلْإِنْسَانِ الشَّقَاءَ وَالسَّعَادَةَ، وَهَدَى الأَنْعَامَ لِـمَرَاتِعِهَا[٢].

---

[١] كلمة ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ اسم تفضيل مُطْلَق، لم يقل: أعلى من كذا، وعلى هذا فيكون لله تعالى العلوُّ المُطْلَق من جميع الوجوه: علو الذات، وعلو الصفات.

ويجوز أن يُوصَف الإنسان بالأعلى، لكنه علو نسبي، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، لكن العلو المُطْلَق على كل شيء إنما هو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد ذكرنا في العقيدة أن أهل التعطيل كالأشاعرة والمعتزلة والجهميَّة يُنْكِرُون علو الذات، ويقولون: إن الله تعالى ليس عاليًا بذاته، وأنهم -أعني: المُنْكِرين للعلو الذاتي- انقسموا إلى قسمين، فقسم قال: إن الله بذاته في كل مكان، وقسم آخر قال: إن الله ليس في شيء، ليس فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا يسار، ولا مُتَّصلًا بالخَلْق، ولا بائنًا من الخَلْق.

وكلٌّ منهم قد تنقَّص الرب عَزَّوَجَلَّ، فأمَّا الأولون فلم يتحاشوا أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ في الأماكن القذرة، وأمَّا الآخرون فإنهم لم يتحاشوا أن يصفوا الله بأوصاف الجحد وعدم الوجود.

[٢] هذا قول، لكن الصحيح أن قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي: فهدى كلَّ مخلوق لِمَا

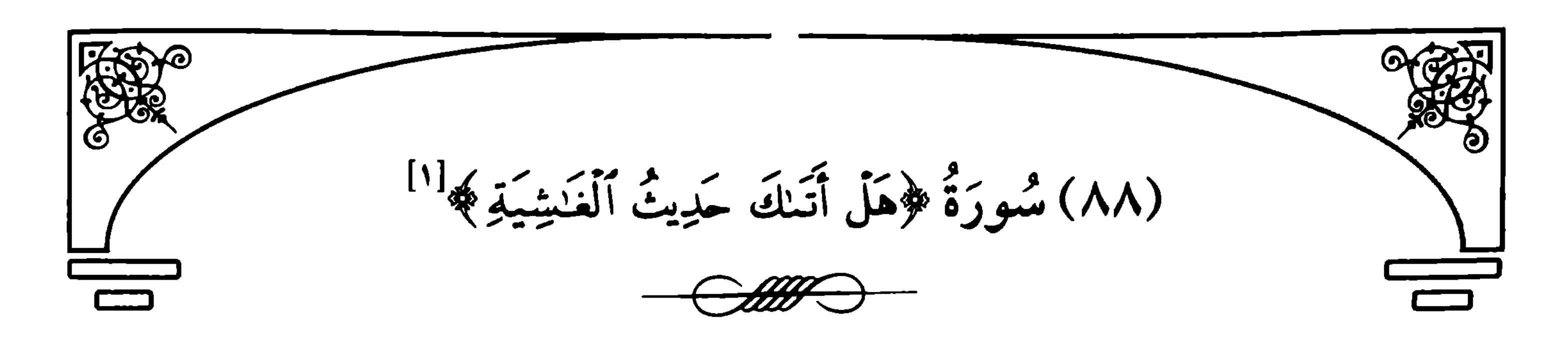
٤٩٤١- حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَجَعَلَا يُقْرِئَانِنَا الْقُرْآنَ، ثُمَّ جَاءَ عَمَّارٌ وَبِلَالٌ وَسَعْدٌ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ، ثُمَّ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِهِ، حَتَّى رَأَيْتُ الْوَلَائِدَ وَالصِّبْيَانَ يَقُولُونَ: هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ جَاءَ، فَمَا جَاءَ حَتَّى قَرَأْتُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فِي سُوَرٍ مِثْلِهَا[١].

= خُلِقَ له، فهدى الإنسان ببيان الحق وإيضاحه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت:١٧]، وهدى البهائم لِمَا خُلِقَت له، فتجد البهيمة تسعى لمعيشتها، وتهرب ممَّا يضرُّها، وكذلك الحشرات وغيرها.

[١] الشاهد من هذا: أنهم كانوا يحرصون على قراءة القرآن، وهل يُستفاد من هذا: أنه لا بأس أن نبدأ في القراءة من آخر القرآن، أو يُقال: إن سورة البقرة مدنيَّة، فليس في هذا دليل على أنك تبدأ من آخر القرآن؟

الجواب: الثاني هو المتعيِّن، لكن أهل العلم يقولون: لا بأس إذا كان لتعليم الصبيان أن يُبْدَأ بآخر القرآن؛ لأنه أيسر للحفظ والفهم.





(٨٨) سُورَةُ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾[١]

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ النَّصَارَى[٢].

---

[١] **هنا مسألة**: إذا قرأ الإمام هذه الآية فهل يُشْرَع للإنسان أن يقول: نعم؟

الجواب: لا؛ لأنه ليس المراد به الاستفهام، ولكن المراد به التحقيق، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، ويُمكن أن يُراد به الاستفهام على سبيل التشويق، لا على سبيل الاستعلام.

[٢] ظاهر أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن هذا في الدنيا، فإن النصارى هم الذين يعملون وينصبون ويتعبون، ولكن على غير هدى، والصواب: أن هذا يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم تأتي الغاشية ﴿خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥]، والقرآن واضح في أن هذا الوصف لهذه الوجوه إذا جاءت الغاشية، وليس في الدنيا، وهذا الخشوع خشوع ذلٍّ، وليس خشوع تعظيم لله عَزَّوَجَلَّ.

ومع هذا نقول: إن النصارى وجوههم خاشعة، عاملة ناصبة، إذا رأيتهم في صلَواتهم وإذا هم يبكون ويخشعون خشوعًا رُبَّما ترقُّ له، ولكنها يوم القيامة ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾؛ لأنهم كفار.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ بَلَغَ إِنَاهَا، وَحَانَ شُرْبُهَا.

﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ بَلَغَ إِنَاهُ[١].

فإن قال قائل: إذا كانت الآية يوم القيامة فهل في ذلك اليوم عمل؟

فالجواب: نعم، يُكَلَّفون بأعمال، ويتعبون بها، وليست أعمالًا تكليفيَّةً يُجازَون عليها؛ لأن الجزاء قد انتهى.

وهل يدخل في الآية بعض الفرق المبتدعة كالصوفية؟

نقول: هذا العمل والخشوع والنصب إنما هو في الآخرة، لا في الدنيا، والآية لا تنطبق إلا على مَن ينصبون في الآخرة، وهم الكفار، ولو قال: «وجوه خاشعة» لقلنا: إنه يحتمل أن يكون هذا في الدنيا، لكن الظرف ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مُقَيد، ولو كان المعنى: «وجوه يومئذ خاشعة في الدنيا» لم يستقم الكلام.

لكن هؤلاء إن كانوا قد وصلوا إلى حد الكفر فهم كغيرهم من الكفار؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر أنها خاشعة، وقابلها بـ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۝٨ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾، فكلُّ وجوه لا ترضى سعيها يوم القيامة فإنها خاشعة.

وهل يدخل في هذا الخوارج؟

الجواب: نعم، رُبَّما يدخلون في هذا؛ لأنهم يُجيدون العمل، لكن لا يصل الإيمان إلى قلوبهم.

[١] قول الله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ أي: بلغت إناها وخلوصها، وحان شربها، وهي مع ذلك شديدة الحرارة، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن:٤٤]، أي: شديد الحرارة، والعياذ بالله.

﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ شَتْمًا.

وَيُقَالُ: الضَّرِيعُ: نَبْتٌ يُقَالُ لَهُ: الشِّبْرِقُ، يُسَمِّيهِ أَهْلُ الحِجَازِ: الضَّرِيعَ إِذَا يَبِسَ، وَهُوَ سُمٌّ[١].

﴿بِمُسَيۡطِرٍ﴾ بِمُسَلَّطٍ، وَيُقْرَأُ بِالصَّادِ وَالسِّينِ[٢].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿إِيَابَهُمۡ﴾ مَرْجِعَهُمْ.

---

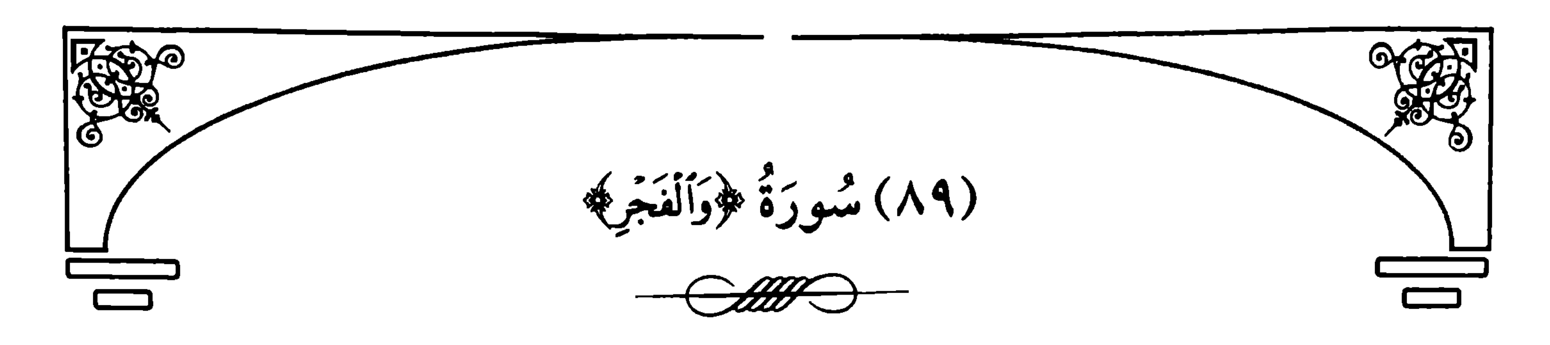
[١] الضريع نبات يُقال له: الشِّبْرِق، وهو نبات ذو شوك عظيم، ولكن لا فائدة منه، وترعاه الإبل، وتنتفع به، فهؤلاء يُعْطَون طعامًا ضريعًا يوم القيامـة، لا يُسْمن ولا يُغني من جوع، ليس فيه غذاء تنتفع به أجسادهم، ولا دفـع جوع، بل جوعهم دائم، والعياذ بالله.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾، والمعنى: ليس لك سلطة عليهم، إنما وظيفتك التذكير، وأمَّا الهداية فإلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وفي هذا: تسلية للنبي ﷺ، ووعيد لهؤلاء المُكَذِّبين له.

وفيه أيضًا: دليل على أن الرسول ﷺ لا يستطيع أن يهدي أحدًا، ولو كان يستطيع لهدى كلَّ مَن يدعوه؛ لأنه لا يدعو أحدًا إلا وهو يحبُّ له الهداية.





(٨٩) سُورَةُ ﴿وَالْفَجْرِ﴾

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: (الوَتْرُ) اللهُ[١].

﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ القَدِيمَةَ، وَالعِمَادُ: أَهْلُ عَمُودٍ لَا يُقِيمُونَ[٢].

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ الَّذِي عُذِّبُوا بِهِ[٣].

---

[١] وذلك لقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ»(١)، وأمَّا الشفع فهو المخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩]، فكلُّ المخلوقات لا تتمُّ إلا بازدواج شيء مع آخر، كالذكر والأنثى، وكذلك الماء يشتمل على مادتين، والهواء على مادتين.

[٢] مراده بقوله: «أَهْلُ عَمُودٍ لَا يُقِيمُونَ» أي: رُحَّل، والمراد: عماد الخيمات، لكن تنزيل الآية على هذا المعنى في النفس منه شيء، والذي يظهر لي أنهم ليسوا باديةً، بل هم أناس ساكنون، ولكن المراد بذات العماد أي: ذات العُمُد العظيمة المبنيَّة بأفخم البناء.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: لم يُصْنَع مثلها، والضمير يعود إلى إِرَم.

[٣] هذا في قول الله تعالى: ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾، لـمَّا أكثروا الفساد في الأرض صبَّ الله عليهم هذا السوط، فجعل هذا السوط

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحد، رقم (٦٤١٠)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى، رقم (٢٦٧٧/ ٥).

﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ السَّفُّ، وَ﴿جَمّٗا﴾ الكَثِيرُ[١].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ فَهُوَ شَفْعٌ، السَّمَاءُ شَفْعٌ، وَالوَتْرُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ كَلِمَةٌ تَقُولُهَا العَرَبُ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ العَذَابِ يَدْخُلُ فِيهِ السَّوْطُ.

﴿لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ إِلَيْهِ المَصِيرُ[٢].

﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ تُحَافِظُونَ، وَ(تَحُضُّونَ) تَأْمُرُونَ بِإِطْعَامِهِ(١)[٣].

= الذي يُضْرَب به المجرم جعله مصبوبًا عليهم صبًّا نكايةً فيهم، وتشديدًا عليهم، نسأل الله العافية.

[١] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾، والتراث: كل ما يُورَث عن الأولين، سواء وُرِثَ بالطريق الشرعي المعروف، أو بغير ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿لَّمّٗا﴾ السَّفُّ»، يعني: يأكله بفمه بسرعة، والجمُّ هو الكثير، وهذا هو طبيعة الإنسان أنه يحرص على المال، ويُحِبُّه حبًّا كثيرًا.

[٢] يعني قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾، وأصل المرصاد: مكان الرَّصد الذي يترصَّد فيه الإنسان لغيره، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ [التوبة:٥]، والمراد بالمرصاد: أن الله عَزَّوَجَلَّ سيكون مُحاسِبًا لهم؛ لأنهم يرجعون إليه.

[٣] لعلَّ المراد بـ: ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ أي: لا يحضُّ بعضكم بعضًا، وبـ: (تَحُضُّونَ)

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بألف بعد الحاء، وقرأ الباقون بغير ألف، غير أن ابن عامر قرأ بالياء بدل التاء، يُنْظَر: التبصرة في القراءات السبع، (ص:٧٢٥).

﴿الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ المُصَدِّقَةُ بِالثَّوَابِ.

وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ إِذَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَبْضَهَا اطْمَأَنَّتْ إِلَى اللهِ، وَاطْمَأَنَّ اللهُ إِلَيْهَا، وَرَضِيَتْ عَنِ اللهِ، وَرَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَأَمَرَ بِقَبْضِ رُوحِهَا، وَأَدْخَلَهَا اللهُ الجَنَّةَ، وَجَعَلَهُ مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ[١].

= أي: لا يحُضُّ الإنسان غيره، فالتحاضُّ يكون من جانبين، أنا أحضك، وأنت تحضُّني، أمَّا الحضُّ فيكون من جانب واحد، أي: حضَّ غيره، والغير لم يحضَّه.

وأمَّا قوله: «تحافِظُونَ» فهي بعيدة، والصواب: أنها كلها من الحض، وهو الحثُّ بقوة، ولكنها إن كانت من الجانبين فهي: تحاضون، وإن كانت من جانب واحد فيُقال: يحضون.

[١] كلام الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ هذا كلام جيِّد جدًّا، فالنفس المطمئنَّة مطمئنَّة في الدنيا، ومطمئنَّة عند الموت، ومطمئنَّة في الحساب؛ لأنها راضية عن نفسها، وعن ثواب الله لها، ومرضيَّة عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

فهي مطمئنَّة في الدنيا؛ لأنها قد اطمأنَّت بالإيمان، وانشرحت صدرًا بالإسلام، ورضيت بقضاء الله وقَدَره وشرعه، فهي مطمئنَّة، ليس عندها قلق ولا انزعاج.

وهي مطمئنة عند قبض الروح، يُقال لها: اخرجي أيَّتها النفس المطمئنَّة إلى رَوْح وريحانٍ وربٍّ غير غضبان، وحينئذ تخرج مُنقادةً سهلةً مستبشرةً.

وهي أيضًا مطمئنَّة في الحساب؛ لأنها قد عرفت نفسها، وعرفت أنها ناجية، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة:١٩]، فهي مطمئنَّة في كل المقامات.

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿جَابُوا﴾ نَقَبُوا، مِنْ: جِيبَ القَمِيصُ: قُطِعَ لَهُ جَيْبٌ، يَجُوبُ الفَلَاةَ: يَقْطَعُهَا[١].

والإنسان إمَّا له نفس تأمره بالخير، أو نفس تأمره بالسوء، وثَمَّ نفس لوَّامة هي وصف للنفسين جميعًا، وليست بنفس ثالثة، فاللوامة إن كانت في المطمئنة فهي تلومها على فعل الشرِّ، وإن كانت في الأخرى فهي تلومها على فعل الخير.

وقوله: «**وَاطْمَأَنَّ اللهُ إِلَيْهَا**» هذا لا يُطابق تفسيرها بالمطمئنَّة، لكن الظاهر أنه قالها ليس تفسيرًا كاملًا للفظ؛ لأن اللفظ يعني أنها مطمئنَّة هي، لكن كأنه لَمَّا كان الله عَزَّوَجَلَّ كلُّ مَن اطمئنَّ بذكره وعبادته فإن الله يرضى عنه ذكرها من باب المقارنة، ولعلَّه أخذها من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:٢٨]؛ لأن مَن رضي بالشيء اطمأنَّ إليه، وهذا من باب الخبر، وقد سبق أن ما يُخْبَر به عن الله إذا لم يشتمل على معنى فاسد لا يليق بالله فلا بأس به.

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾، أي: نَقَبُوه، وبيوتهم في الجبال معروفة، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩]، وهي إلى الآن موجودة، يذهب الناس يتفرَّجون عليها ترفُّهًا، وهذا لا يجوز، فإن الذهاب إلى ديار ثمود للترفُّه مُحَرَّم؛ لأن النبي ﷺ يقول: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ القَوْمِ المُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ**»، ولـمَّا مرَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بديارهم قنَّع رأسه، أي: غطَّاه وطأطأه، وأسرع في السَّير، صلوات الله وسلامه عليه(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر، رقم (٤٤١٩-٤٤٢٠)، ومسلم: كتاب الزهد، باب النهي عن الدخول على أهل الحجر، رقم (٢٩٨٠/ ٣٨-٣٩).

....

= أمَّا أن يذهب الناس وكأنهم في نزهة، بل في نزهة، يتمتَّعون ويترفَّهون بالنظر إلى هذه البلاد، فهذا يدلُّ على قسوة القلب، وعلى الجهل أيضًا، ولعلهم لم يطَّلعوا على ما قاله النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هؤلاء.

فإن قال قائل: لكن إذا زارها للاعتبار فهل له ذلك؟

قلنا: أرى أن يقتصر الإنسان على ما في القرآن؛ لأن الظاهر لي -والله أعلم- أن الذي يذهب إلى هناك لن يعتبر بعقوبة الله، بل يعتبر بمهارتهم وقوَّتهم في إنشاء هذه الدُّور في الحصى، وأنهم نقَّروها هذا التنقير، فلا شَكَّ أن السلامة منها أسلم، ولكن إن كان سيبكي من حين يدخل إلى أن يخرج فليذهب.

وقد يقول قائل: ما ذنبي إذا ذهبتُ إلى هذا المكان، وأنا مؤمن بالله، ومُتَّقٍ، وصادق، وأصوم، وأُصَلِّي، وأُزَكِّي؟!

نقول: لكن ما يحدث لك من قسوة القلب بالنظر إلى آثارهم وقوَّتهم قد يُؤَدِّي بك إلى أن تكفر ككفرهم، وأن تكون من أهل الدنيا، لا من أهل الآخرة، وهذا معنى قول النبي ﷺ: «**أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ**»(١).

فإن قال قائل: الثمار التي تنبت في تلك الأرض هل يجوز أكلها؟

فالجواب: لا أعرف في هذا أثرًا، لكن العلماء قالوا: إن الآبار غير بئر الناقة يُكْرَه أن يعجن الإنسان بها أو يطبخ بها، وذكروا أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أمر بإراقة الماء،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر، رقم (٤٤١٩-٤٤٢٠)، ومسلم: كتاب الزهد، باب النهي عن الدخول على أهل الحجر، رقم (٢٩٨٠/ ٣٨-٣٩).

﴿لَمًّا﴾ لَمَمْتُهُ أَجْمَعَ: أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهِ[١].

= وأن يُطْعَم البهائم العجين الذي عُجِنَ من ماء الآبار هناك(١)، فإذا أردنا أن نقيس قلنا: إذا كان هذا في الماء الذي تُعْجَن به الثمار الطيبة الحلال، فكيف بثمارها؟! ولهذا كانت الحكومةُ تمنع من النزول في تلك الأرض، ومن الزراعة فيها.

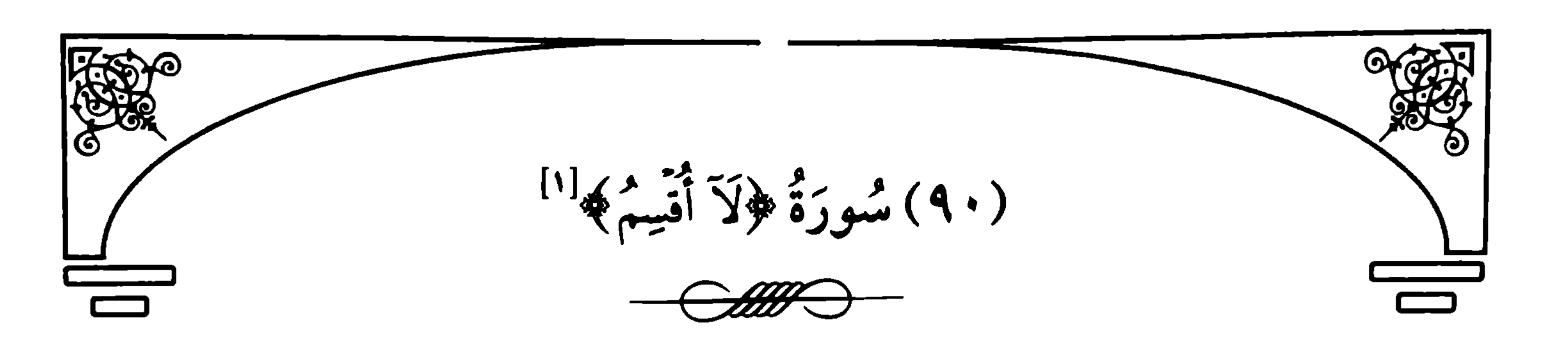
فإن قال قائل: وهل للإنسان أن يجعل غنمه ترعى الأعشاب التي تنبت في تلك الأرض؟

قلنا: الظاهر أنه يُفَرَّق بين الرعي وغيره، لكن كيف يرعاها وهو منهي عن الإقامة هناك؟! وإذا دخل وهو باكٍ فلن يرعاها.

[١] قول الله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: أكلًا جامعًا يأتي على كل المال، وتقدَّم أنه قال: «السَّفُّ»، فيُمكن أنه يُطْلَق على هذا وهذا؛ لأن الذي يأكل بالسَّفِّ سوف يقضي عليه في الغالب، إلا إذا كان كثيرًا.



(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، رقم (٣٣٧٨)، ومسلم: كتاب الزهد، باب النهي عن الدخول على أهل الحجر، رقم (٢٩٨١/ ٤٠).



(٩٠) سُورَةُ ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾[١]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ بِمَكَّةَ، لَيْسَ عَلَيْكَ مَا عَلَى النَّاسِ فِيهِ مِنَ الإِثْمِ[٢].

---

[١] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ سبق أن مثل هذه الصيغة -على القول الراجح- قسم مُثْبَت، وليس منفيًّا، وأن «لا» للتنبيه، وليست نافيةً، والمعنى: أن الله تعالى يُقْسِم بهذا البلد، وفي حال كون النبي ﷺ حلًّا فيه، وكون الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حالًّا فيه يزيده شرفًا إلى شرفه.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ يعني: كل المخلوقات، الوالد والمولود.

[٢] هذا يحتاج إلى دليل، وكأنه أخذه من قوله: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أي: أنك حلال ومباح لك أن تفعل ما شئت في هذا البلد، لكن هذا بعيد، ولهذا حُرِّم على النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يُقاتل في مكة إلا ساعةً من نهار فقط.

فإن قال قائل: ولماذا لا نحمل قول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الساعة التي أحلَّ الله عَزَّوَجَلَّ للنبي ﷺ أن يُقاتل في مكة؟

قلنا: أكثر المروي عن السلف حملوه على هذا، لكن هذا بعيد، وابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجَّه الأمر، وقال: إن هذا أتى بصيغة الحاضر، مع أنه لم يحصل إحلال مكة لتحقُّق الوقوع(١).

---

(١) فتح الباري (٨/ ٧٠٤).

﴿وَوَالِدٍ﴾ آدَمُ ﴿وَمَا وَلَدَ﴾[١].

﴿لُّبَدًا﴾ كَثِيرًا[٢].

وَ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ الخَيْرُ وَالشَّرُّ[٣].

﴿مَسْغَبَةٍ﴾ مَجَاعَةٍ.

﴿مَتْرَبَةٍ﴾ السَّاقِطُ فِي التُّرَابِ.

يُقَالُ: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ فَلَمْ يَقْتَحِمِ العَقَبَةَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ فَسَّرَ العَقَبَةَ، فَقَالَ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾[٤].

---

[١] الصواب أنه أعم من ذلك، وأن هذا يشمل آدم ﷺ وبنيه وغيرهم من أجناس الحيوان والحشرات والوحوش وما أشبه ذلك.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾، أي: كثيرًا كما قال المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكأنه مأخوذ من: تلبَّد بعضه على بعض.

[٣] هذا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، وهل المراد: هداية توفيق، أو هداية دلالة؟

الجواب: هداية دلالة، أي: بيَّنَّا له طريق الخير والشرِّ واضحًا، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ [النحل:٣٦].

[٤] قول الله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ هذا من اقتحام العقبة، أي: ارتكاب المشاقِّ التي تشقُّ على النفوس؛ لأن

﴿فِى كَبَدٍ﴾ شِدَّةٍ[١].

= المسغبة تكون في الغالب عامَّةً على المُعْطِي والمُعْطَى، فإذا تصدَّق الإنسان وأطعم في هذا اليوم يتيمًا ذا مقربة أو مسكينًا ذا متربة فإنه اقتحم العقبة، وتغلَّب على نفسه، وعلى هواه، وحصل له الأجر.

وقوله: ﴿مِسۡكِينًا﴾ أي: المحتاج الذي ليس عنده شيء، وهذا يشمل الفقير؛ لأن القاعدة أنه إذا قيل: «مسكين» وحده فإنه يشمل الفقير والمسكين، وإذا قيل: «فقير» وحده شمل الفقير والمسكين.

وقوله: ﴿ذَا مَتۡرَبَةٍ﴾ أصل المتربة: المكان الذي فيه التراب، وهل يُشْتَرط أن يكون ذا متربة؟

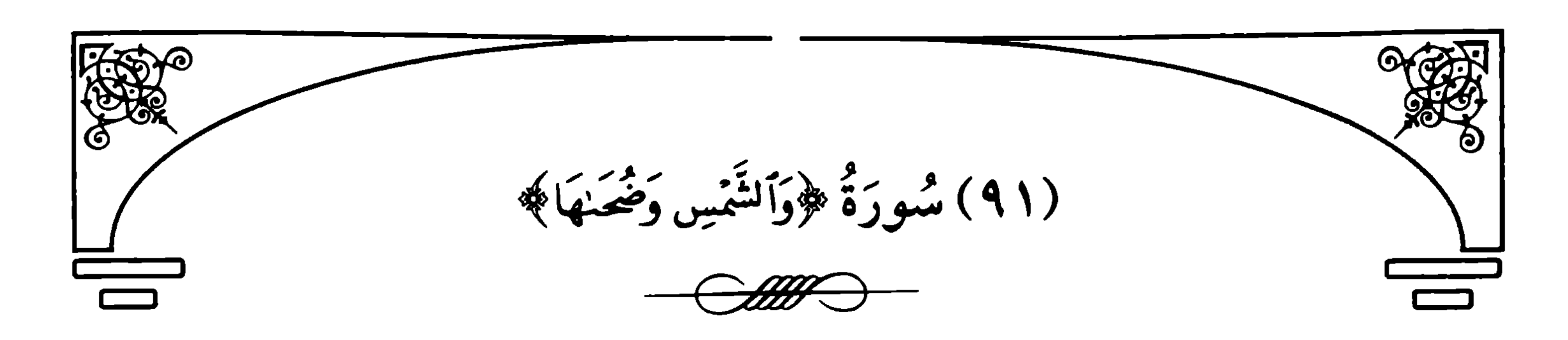
نقول: لا، ولكن المقصود أنه مسكين محتاج لا شيء عنده.

[١] قول الله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ اختلف فيه المُفَسِّرون، فمنهم مَن قال: ﴿فِى كَبَدٍ﴾ أي: في شدَّة، وإن الإنسان يُكابد الأمور ويُشاقُّها ويتعب.

وقيل: ﴿فِى كَبَدٍ﴾ أي: في ارتفاع، كما يُقال: في كبد السماء، أي: أَوْجِها، ويكون هذا كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ﴾ [التين:٤].

والمعنيان صالحان، فالإنسان في الحقيقة في أحسن تقويم، وفي أعلى ما يكون من الخِلْقَة، وهو مع ذلك في كبد، يُكابد الأمور، وتناله المشقَّات ما بين خير وشرٍّ، ومصائب ومعائب، ولكن منهم مَن يُوَفَّق للصبر، ومنهم مَن لا يصبر.





(٩١) سُورَةُ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ضُحَاهَا ضَوْؤُهَا.

﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ تَبِعَهَا.

وَ﴿طَحَىٰهَا﴾ دَحَاهَا.

وَ﴿دَسَّىٰهَا﴾ أَغْوَاهَا.

﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ عَرَّفَهَا الشَّقَاءَ وَالسَّعَادَةَ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ بِمَعَاصِيهَا.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ عُقْبَى أَحَدٍ[١].

---

[١] أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالشمس وضوئها؛ لِمَا فيها من الآيات الدالَّة على عظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولِـمَا فيها من الرحمة بالخَلْق بهذا الضوء.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾، فأقسم بالقمر حال كونه تاليًا لها، أي: وقت تُلُوِّه لها؛ لأن وقت تُلُوِّه لها هو وقت دخول الشهر، فأقسم بأول النهار ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، وهذا الزمن اليومي، وأقسم بالقمر إذا تلاها، وهذا الزمن الشهري.

واستُفيد من قوله: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أن القمر يتلو الشمس دائمًا، أي: يكون بعدها، وهو كذلك، لكن قد تقول: هذا ليس بصحيح؛ لأنه في آخر الشهر يبين القمر قبل

٤٩٤٢ - حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ زَمْعَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ، وَذَكَرَ النَّاقَةَ وَالَّذِي عَقَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ **انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ، مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ**».

وَذَكَرَ النِّسَاءَ، فَقَالَ: «**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ، فَيَجْلِدُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ العَبْدِ، فَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ**».

ثُمَّ وَعَظَهُمْ فِي ضَحِكِهِمْ مِنَ الضَّرْطَةِ، وَقَالَ: «**لِمَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ**» وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ زَمْعَةَ، قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ عَمِّ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ[١].

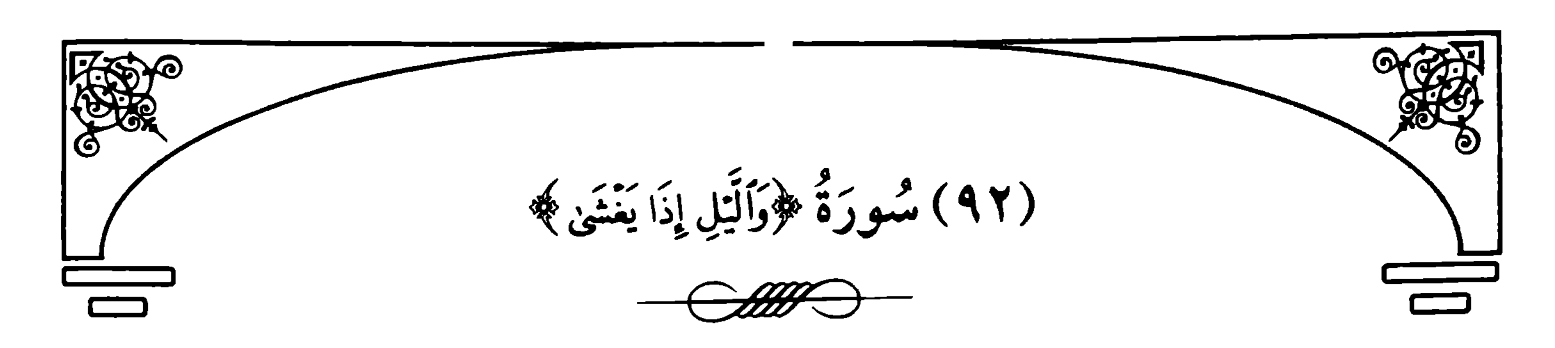
= الشمس؛ لأن القمر يبين قبل الفجر، فنقول: هو في بينونته قبل الفجر هو تالٍ للشمس في الواقع؛ لأنه يتأخر كلَّ يوم، فإذا جاء في آخر الشهر صار يطلع قبلها؛ لأنه مُتأخِّر؛ لأنها لحقته بكل الأفق، فيكون القمر دائمًا يتلوها.

ولهذا إذا رُئِيَ الهلال في المشرق فلابُدَّ أن يُرى في المغرب، وإذا رُئي في المغرب فقد يُرَى في المشرق وقد لا يُرى، هذا إذا كان خط الطول واحدًا، أمَّا إذا اختلف فقد لا يُرى.



---

(١) سيأتي التعليق عليه؛ كتاب النكاح، باب ما يكره من ضرب النساء، رقم (٥٢٠٤)، وكتاب الأدب، باب ٤٣، رقم (٦٠٤٢).



(٩٢) سُورَةُ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾

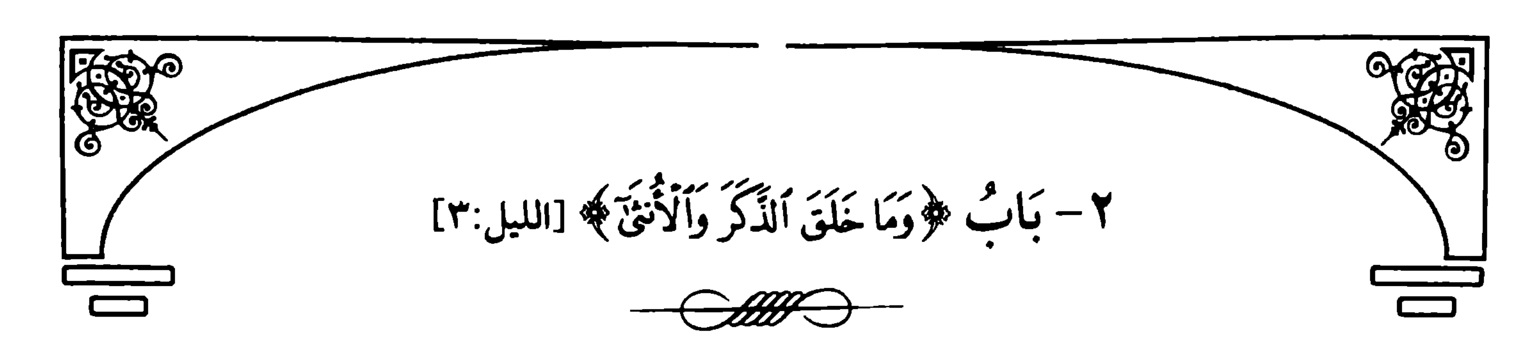
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الليل:٩]: «بِالخَلَفِ» وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل:١١]: «مَاتَ» وَ﴿تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤]: «تَوَهَّجُ» وَقَرَأَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: (تَتَلَظَّى).

١ - بَابُ ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل:٢]

٤٩٤٣ - حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ بْنُ عُقْبَةَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ عَبْدِ اللهِ الشَّأْمَ فَسَمِعَ بِنَا أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَأَتَانَا فَقَالَ: أَفِيكُمْ مَنْ يَقْرَأُ؟ فَقُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: فَأَيُّكُمْ أَقْرَأُ؟ فَأَشَارُوا إِلَيَّ، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَرَأْتُ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل:١-٢] وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى، قَالَ: أَنْتَ سَمِعْتَهَا مِنْ فِي صَاحِبِكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «وَأَنَا سَمِعْتُهَا مِنْ فِي النَّبِيِّ ﷺ» وَهَؤُلَاءِ يَأْبَوْنَ عَلَيْنَا[1].



(١) سبق التعليق عليه؛ كتاب أصحاب رسول الله ﷺ، باب مناقب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، رقم (٣٧٦١)، وسيأتي التعليق عليه أيضا؛ كتاب الاستئذان، باب من ألقي له وسادة، رقم (٦٢٧٨).



٢- بَابُ ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل:٣]

٤٩٤٤- حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: قَدِمَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللهِ عَلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ فَطَلَبَهُمْ فَوَجَدَهُمْ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَقْرَأُ عَلَى قِرَاءَةِ عَبْدِ اللهِ؟ قَالَ: كُلُّنَا، قَالَ: فَأَيُّكُمْ أَحْفَظُ؟ فَأَشَارُوا إِلَى عَلْقَمَةَ، قَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَهُ يَقْرَأُ: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل:١]؟ قَالَ عَلْقَمَةُ: وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى، قَالَ: «أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَكَذَا» وَهَؤُلَاءِ يُرِيدُونِي عَلَى أَنْ أَقْرَأَ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل:٣] وَاللهِ لَا أُتَابِعُهُمْ[1].



٣- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل:٥]

٤٩٤٥- حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَقِيعِ الغَرْقَدِ فِي جَنَازَةٍ، فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَمَقْعَدُهُ

---

(١) سبق التعليق عليه؛ كتاب أصحاب رسول الله ﷺ، باب مناقب عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رقم (٣٧٦١)، وسيأتي التعليق عليه أيضا؛ كتاب الاستئذان، باب من ألقي له وسادة، رقم (٦٢٧٨).

مِنَ النَّارِ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ فَقَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل:٥-٦] إِلَى قَوْلِهِ ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:١٠][١].

٤٩٤٥/ م- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَاحِدِ، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ سَعْدِ ابْنِ عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا قُعُودًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ الحَدِيثَ نَحْوَهُ[٢].

٤- بَابُ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٧]

٤٩٤٦- حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ خَالِدٍ، أَخبرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ فِي جَنَازَةٍ، فَأَخَذَ عُودًا يَنْكُتُ فِي الأَرْضِ، فَقَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، أَوْ مِنَ الجَنَّةِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ قَالَ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل:٥-٦]» الآيَةَ.

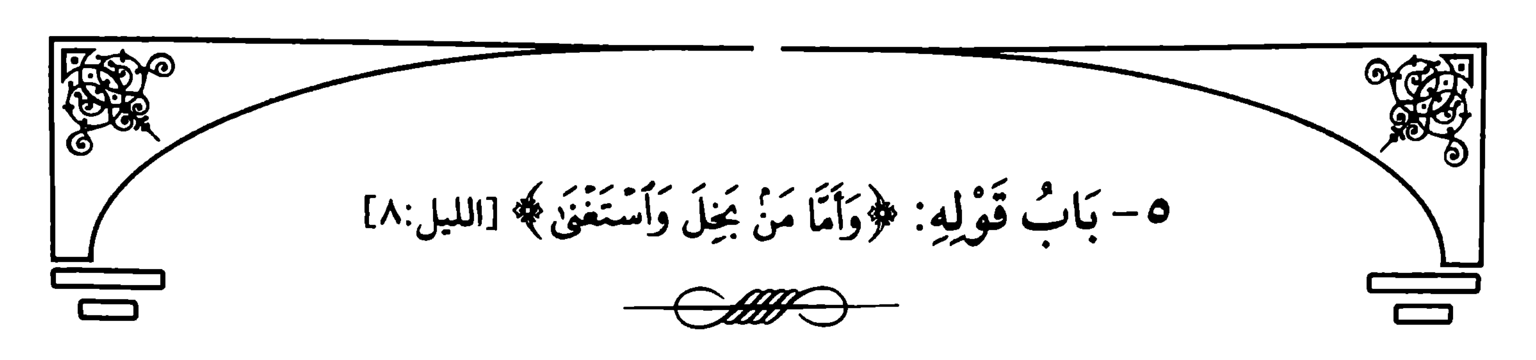
قَالَ شُعْبَةُ: وَحَدَّثَنِي بِهِ مَنْصُورٌ فَلَمْ أُنْكِرْهُ مِنْ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ[٣].



(١) سيأتي التعليق عليه؛ كتاب القدر، باب ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾، رقم (٦٦٠٥).

(٢) انظر التخريج السابق.

(٣) انظر التخريج السابق.



٥- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ [الليل:٨]

٤٩٤٧- حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ» فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ قَالَ: «لَا، اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧] إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [الليل:١٠][(١)].

٦- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الليل:٩]

٤٩٤٨- حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ سَعْدِ ابْنِ عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الغَرْقَدِ فَأَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ وَمَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً» قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ،

---

(١) سيأتي التعليق عليه؛ كتاب القدر، باب ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾، رقم (٦٦٠٥).

أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، قَالَ: «أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل:٥-٦] الآيَةَ(١).

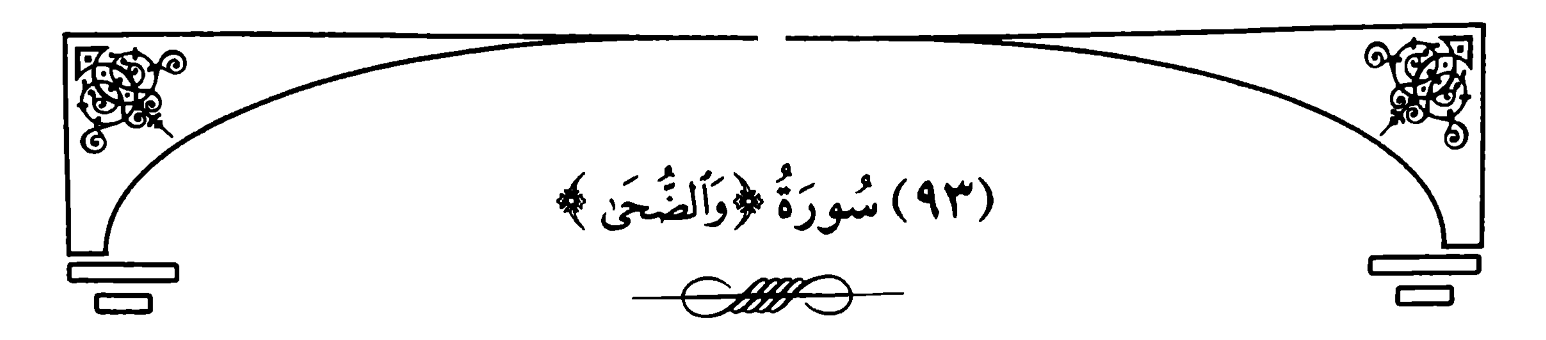
٧- بَابُ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:١٠]

٤٩٤٩- حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنِ الأَعْمَشِ، قَالَ: سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ عُبَيْدَةَ، يُحَدِّثُ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَنَازَةٍ، فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ، فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل:٥-٦] الآيَةَ(٢).



---

(١) سبق التعليق عليه؛ كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر، رقم (١٣٦٢).
(٢) سيأتي التعليق عليه؛ كتاب القدر، باب ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾، رقم (٦٦٠٥).



(٩٣) سُورَةُ ﴿وَالضُّحَىٰ﴾

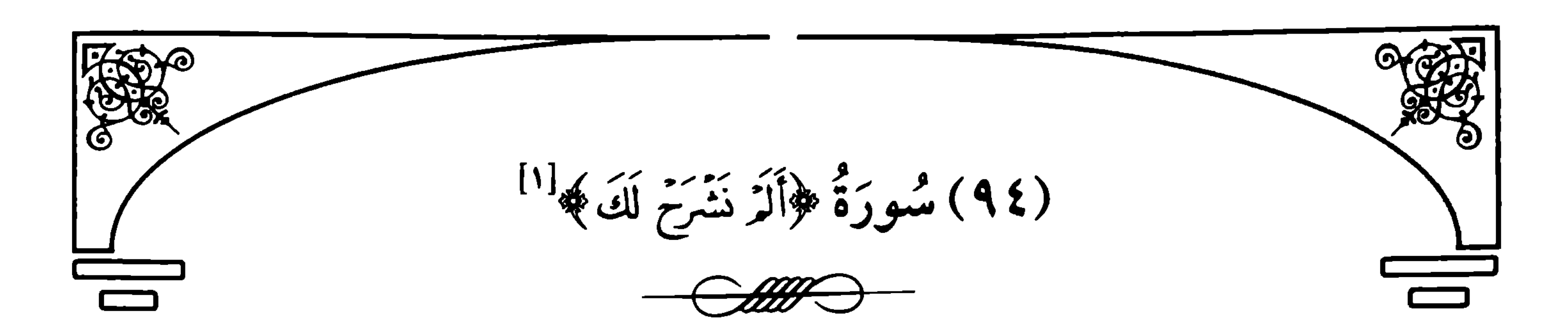
وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى:٢]: «اسْتَوَى» وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿سَجَىٰ﴾: «أَظْلَمَ وَسَكَنَ» ﴿عَآئِلًا﴾ [الضحى:٨]: «ذُو عِيَالٍ».

١ - بَابُ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:٣]

٤٩٥٠ - حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ، حَدَّثَنَا الأَسْوَدُ بْنُ قَيْسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدُبَ بْنَ سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ -أَوْ ثَلَاثًا-» فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ -أَوْ ثَلَاثَةٍ- فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:١-٣] قَوْلُهُ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:٣][1]: «تُقْرَأُ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ، بِمَعْنًى وَاحِدٍ، مَا تَرَكَكَ رَبُّكَ» وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مَا تَرَكَكَ وَمَا أَبْغَضَكَ».

٤٩٥١ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدُبًا البَجَلِيَّ، قَالَتِ امْرَأَةٌ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أُرَى صَاحِبَكَ إِلَّا أَبْطَأَكَ، فَنَزَلَتْ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:٣].

(١) سبق التعليق عليه؛ كتاب التهجد، باب ترك القيام للمريض، رقم (١١٢٤).



(٩٤) سُورَةُ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾[١]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وِزْرَكَ﴾ فِي الجَاهِلِيَّةِ[٢].

﴿أَنقَضَ﴾ أَثْقَلَ.

﴿مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: أَيْ: مَعَ ذَلِكَ العُسْرِ يُسْرًا آخَرَ، كَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾، وَلَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ[٣].

---

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والاستفهام هنا للتقرير.

[٢] قول الله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ الوزر بمعنى الإثم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤]، ولكن مجاهدًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: المراد: وزرك في الجاهلية، وحمله على ذلك أن قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ بمعنى: قد شرحنا لك، فهو دالٌّ على المضيِّ، ويحتمل أن يُقال: إنه يشمل وزره في الجاهلية وبعد الرسالة؛ لأن النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر.

[٣] تأمَّل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، فهذا يُفيد بأن العسر الثاني هو العسر الأول، وأن اليسر الثاني غير اليسر الأول، فيكون العسر محفوفًا بيُسْرَين: يُسْر قبله، ويُسْر بعده، ولهذا قال: «وَلَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ».

وقد ذكر بعض العلماء قواعد، لكنها أغلبية، قال: إذا أُعيد اللفظ مُحلًّى بـ: «أل» فالثاني هو الأول، وإذا أُعيد مُنكَّرًا فالثاني غير الأول، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَانْصَبْ﴾ فِي حَاجَتِكَ إِلَى رَبِّكَ[١].

= ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، فالثاني هنا هو الأول، وهذا هو الأصل، لكن قد يُخْرَج عن الأصل بقرينة.

ومن ذلك: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم:٥٤]، فهذا على خلاف القاعدة عندهم؛ لأنه لم يُعَرَّف بـ: «أل»، ومقتضاه أن يكون الضعف الثاني غير الأول؛ لأنه إذا عاد نكرةً فالثاني غير الأول، ولكن في هذه الآية الثاني هو الأول.

ومن ذلك أيضًا: قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠]، فمقتضى قاعدتهم: أن الإحسان الثاني هو الأول، وهو في الآية غير الأول، وهذا بخلاف القاعدة.

وأمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور:٣٥] فالثاني هنا هو الأول.

وقوله: «كَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾»، الحُسْنيان إمَّا الشهادة، وإمَّا الغنيمة والنصر.

[١] أي: لا تشتغل بالعبادة إلا بعد أن تفرغ من شؤون الدنيا فراغًا بحيث لا تنشغل في العبادة، وهذا في الأشياء الطارئة، كقوله ﷺ: «لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ»(١)، فهذه لا ينبغي للإنسان أن يشتغل بالطاعة إلا إذا فرغ منها، وأمَّا أن يشتغل الإنسان بأمور دنياه في كلِّ الأحوال، فإذا فرغ اشتغل بأمور دينه، فهذا لا يكون أبدًا.

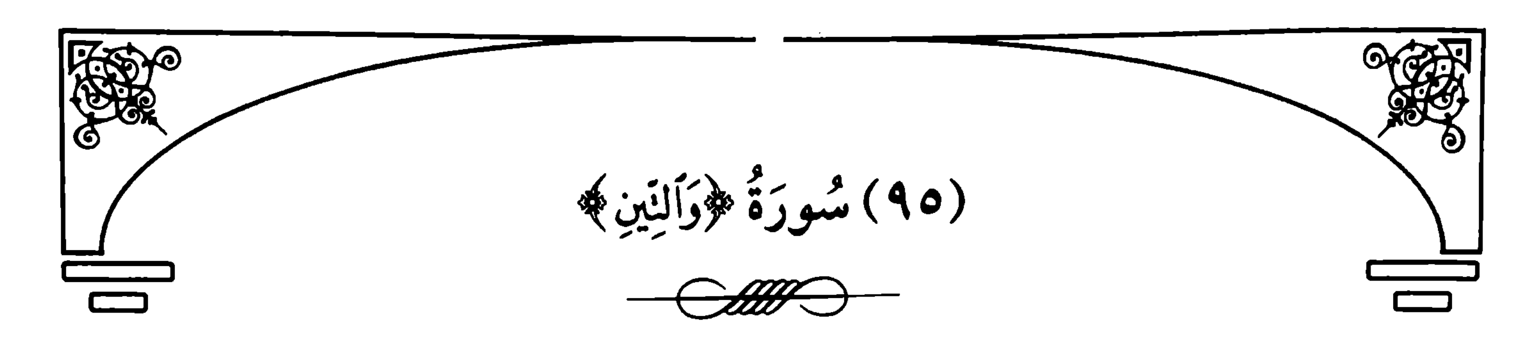
(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام، رقم (٥٦٠/ ٦٧).

وَيُذْكَرُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ[١].

= وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَانصَبْ﴾ هذا يدلُّ على أن العبادة تُتْعِب الإنسان، لكنها تُتْعِب بدون مشقَّة.

[١] يُريد بذلك أن يُبيِّن أن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ بمعنى: قد شرحنا، وذكر البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الأثر بصيغة التمريض، وكأنه ضعيف عنده.





(٩٥) سُورَةُ ﴿وَٱلتِّينِ﴾

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ التِّينُ وَالزَّيْتُونُ الَّذِي يَأْكُلُ النَّاسُ[١].

يُقَالُ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ فَمَا الَّذِي يُكَذِّبُكَ بِأَنَّ النَّاسَ يُدَانُونَ بِأَعْمَالِهِمْ؟ كَأَنَّهُ قَالَ: وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى تَكْذِيبِكَ بِالثَّوَابِ وَالعِقَابِ؟[٢].

---

[١] قال الله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ قال بعض العلماء: أشار الله في هذا القَسَم إلى الأماكن التي بُعِثَ منها الرسل الثلاثة: موسى وعيسى ومحمد عليهم الصَّلاة والسَّلام، فـ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ هذا بُعِثَ منه عيسى؛ لأنه في أرض فلسطين، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ بُعِثَ منه موسى، ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ بُعِثَ فيه محمد ﷺ.

[٢] هذا التفسير يقتضي أن تكون «ما» بمعنى: مَن، أي: فمَن يُكَذِّبك يا محمد بعدُ بالجزاء والحساب؟! ولكن الظاهر أن الخطاب للإنسان، وأن «ما» على ظاهرها، وليست بمعنى: مَن، أي: فما الذي يُكَذِّبك -أيُّها الإنسان- بعد ذلك بالدين، أي: بالجزاء، أي: فما الذي يجعلك تُكَذِّب به؟

وهنا فائدة: إذا قرأ الإنسان قول الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فهل يقول: بلى؟

الجواب: نعم، والذي ورد -وصحَّ به الحديث- في قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، لكن هذه مثلها، فكلُّ ما كان على هذا الباب فإن له

٤٩٥٢- حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَدِيٌّ، قَالَ: سَمِعْتُ البَرَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي سَفَرٍ، فَقَرَأَ فِي العِشَاءِ فِي إِحْدَى الرَّكْعَتَيْنِ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ[١].

﴿تَقْوِيمٍ﴾ الخَلْقِ.

= حكمه، ففي كل استفهام بهذه الكيفية -أي: استفهام تقرير- تقول: «سبحانك، فبلى»، وفي رواية عند أبي داود قال: «وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ»(١)، فإذا قالها فلا شيء عليه.

لكن المأموم إذا كان يشغله هذا القول عن متابعة الإمام أو الإنصات له فإنه لا يقوله.

ويقول هذا ولو كان في الصلاة، ولا يُعْتَبر كلامًا، بل هو كلام في جواب ما استفهم الله به، ولست تُخاطب الإنسان، ولهذا تقول: «سبحانك» تُخاطب الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يجهر بها الإمام ولا المأموم، فإن كان مُنفردًا فهي تَبَع للقراءة، إن جهر بالقراءة جهر بها، وإلا فإنه يُسِرُّ بها.

ومثل ذلك قول الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٤٠]، فتقول: بلى.

[١] هذا دليل على أنه في السفر كما يُراعَى قِصَر الصلاة من حيث العدد يُراعَى فيها قِصَرها من حيث الكيفية، فإن النبي ﷺ أرشد معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقرأ في العشاء

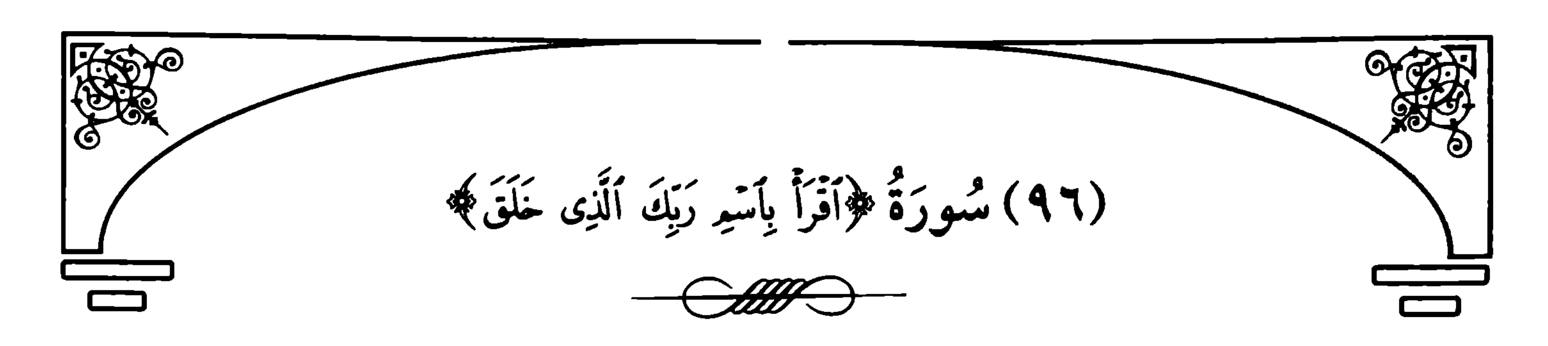
---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب مقدار الركوع والسجود، رقم (٨٨٧)، والترمذي: كتاب التفسير، باب سورة التين، رقم (٣٣٤٧)، وأحمد (٢/ ٢٤٩).

....

= بـ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ ونحو ذلك[1]، وهنا ذكر أنه كان يقرأ بـ:﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾، وهي من قِصَار المُفَصَّل.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من شكا إمامه إذا طول، رقم (٧٠٥)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، رقم (٤٦٥/ ١٧٨).



(٩٦) سُورَةُ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾

وَقَالَ قُتَيْبَةُ: حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، عَنْ يَحْيَى بْنِ عَتِيقٍ، عَنِ الحَسَنِ، قَالَ: اكْتُبْ فِي المُصْحَفِ فِي أَوَّلِ الإِمَامِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَاجْعَلْ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ خَطًّا[١].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿نَادِيَهُۥ﴾ عَشِيرَتَهُ.

﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ المَلَائِكَةَ.

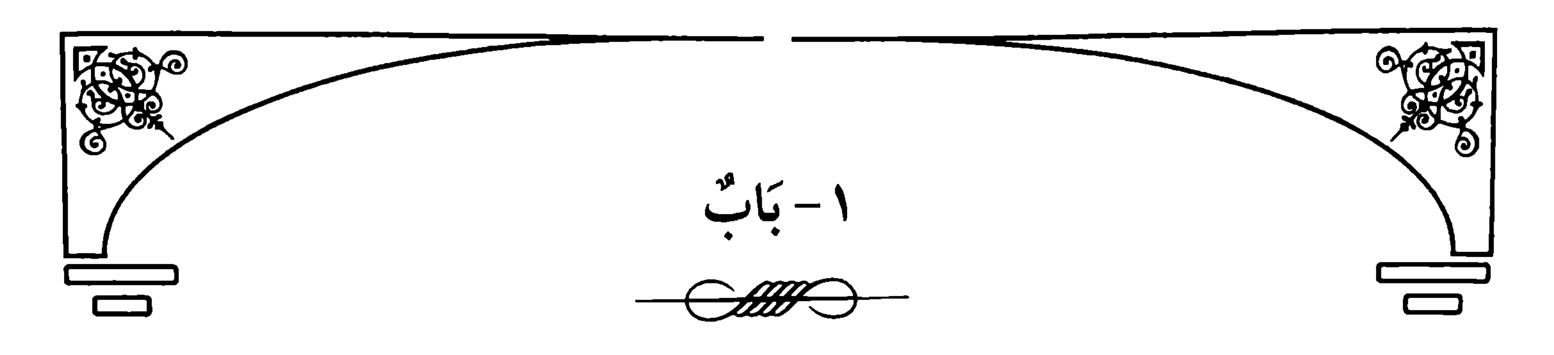
وَقَالَ مَعْمَرٌ: ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ المَرْجِعُ.

﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ قَالَ: لَنَأْخُذَنْ، وَلَنَسْفَعَنْ بِالنُّونِ، وَهِيَ الخَفِيفَةُ، سَفَعْتُ بِيَدِهِ: أَخَذْتُ.

---

[١] الصحيح: أن البسملة فاصلة بين كلِّ سورتين، وعلى هذا فيُوضَع الخط عند آخر السورة، ثم يُكْتَب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ثم تُكْتَب السورة.





١- بَابٌ

٤٩٥٣- حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، وَحَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ مَرْوَانَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ أَبِي رِزْمَةَ: أَخْبَرَنَا أَبُو صَالِحٍ سَلْمَوَيْهِ[١]، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ، عَنْ يُونُسَ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ شِهَابٍ، أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ أَخْبَرَهُ، أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلَاءُ، فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -قَالَ: وَالتَّحَنُّثُ: التَّعَبُّدُ[٢]- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ بِمِثْلِهَا[٣].

---

[١] قوله: «سَلْمَوَيْهِ» في نسخة: «سَلْمُويَةُ»، والقاعدة في مثل هذا: أن يُقال: «سَلْمُويه»، فتُبْنَى على الكسر، مثل: سيبويه، ونفطويه، وما أشبهها.

[٢] قوله: «وَالتَّحَنُّثُ: التَّعَبُّدُ» هذا إدراج، وهو هنا مُبَيَّن.

لكن بأيِّ شيء كان الرسول ﷺ يتعبَّد؟

الجواب: قيل: إنه يتعبَّد على ملة إبراهيم ﷺ، وقيل: إنه يتعبَّد بمقتضى فطرته التي هُدِيَ إليها، والله أعلم على أيِّ شيء كان يتعبَّد.

[٣] هذا الحديث مُرْسَل؛ لأن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا لم تُدرك هذا، فإمَّا أن يكون حدَّثها النبي ﷺ بذلك، أو حدَّثها أبوها، أو حدَّثها أحد ممَّن حدَّثه النبي ﷺ.

حَتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ[١] وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: «فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي،.....................

---

[١] هل يُؤْخَذ من قوله: «حَتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ» حكم قول الإنسان: لقيته صُدفةً، ونحو ذلك؟

الجواب: لا، ولكن يُؤْخَذ من غير هذا، ففي أحاديث كثيرة: «فصادفنا رسول الله»(١)، والذي جعل كلمة «صدفة» تلتبس على بعض الناس عدم الفهم، فحين يخرج الإنسان إلى السوق مثلًا، فيُصادفه رجل ما كان يحسب أنه يُصادفه، فيقول: لقيني صدفةً، أو أتى إليَّ صدفةً، أو ما أشبه ذلك، فهذا بالنسبة للعبد، أمَّا بالنسبة لله عَزَّوَجَلَّ وتقديره فليس فيه صدفة؛ لأن الله عالم.

وهل نقول: إن الأفضل أن يتحاشاها الإنسان بسبب ما توهمه بعض الناس؟

نقول: لا، ولكن ينبغي أن يُصَحَّح المفهوم، وأنا منذ عرفت نفسي ما سمعت أحدًا استنكرها، حتى علماؤنا يقولون: صادفني فلان، وصادفت فلانًا، ورأيته صدفةً، ولا يستنكرها أحد، لكن لـمَّا جاء مَن لم يفهم جيِّدًا جعل في ذلك إشكالًا.

أمَّا لو قال: «نزل المطر صُدفةً» فهذا رُبَّما يُخْشَى منه الوهم، بمعنى أنه إذا أضاف الصدفة إلى فعل الله فهذا رُبَّما يوهم، مع أنه يصلح أن يكون المعنى: أنني لم أكن أتوقَّعه.

---

(١) يُنْظَر: المستدرك للحاكم (٤/ ١٢٣)، وسنن أبي داود: كتاب الطهارة، باب في الاستنثار، رقم (١٤٢).

فغطَّني الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ[١]، فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ الآيَاتِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾»[٢].

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ[٣]، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي»، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، قَالَ لِخَدِيجَةَ: «أَيْ خَدِيجَةُ![٤] مَا لِي؟ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، فَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ،........................

---

[١] قوله: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» أي: لا أُحْسِن القراءة.

وإنما فعل به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا؛ ليستعدَّ لِمَا يُلْقَى إليه، كما كرَّر النبي ﷺ قوله للرجل الذي كان لا يُحْسِن الصلاة، قال: «ارْجِعْ، فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» ثلاث مرَّات(١).

[٢] ووقع في بعض النسخ هنا: «﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ الآيَاتِ»، وهذا يعني أنه نزلت بقية السورة أيضًا، مع أنه لم ينزل إلا إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.

[٣] قوله: «بَوَادِرُهُ» أي: فؤاده، كما هي في نسخة أُخرى.

[٤] قوله: «أَيْ خَدِيجَةُ!» أي: يا خديجة؛ لأن «أي» هنا حرف نداء.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧/ ٤٥).

قَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا أَبْشِرْ! فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ[١].

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ، حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ،..........

---

[١] قوله: «وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ» النوائب هي الأشياء التي تنوب الإنسان، ويحتاج إلى المعونة فيها، كحادثة تحدث في ماله، وما أشبه ذلك.

وقد ذكرت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هنا ست خصال، واستدلَّت باتِّصاف النبي ﷺ بها على أن الله لا يُخزيه؛ لأن هذه الصفات صفات ممَّن يكون ذا خُلُق فاضل عظيم، ومثله لا يُخْزَى، فهي استدلَّت بهداية الله تعالى رسوله ﷺ لهذه الصفات الحميدة أن الله تعالى لا يُخزيه.

ويُستفاد منه: العمل بقرائن الأحوال؛ لأنها استدلَّت على انتفاء الخزي عنه بهذه الصفات التي هي قرينة.

وقد وُصِفَ بهذه الأوصاف أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَصَفَه بها ابن الدَّغِنَة (١).

وهنا فائدة: ما حكم قول: تُعين على نوائب الدهر؟

الجواب: يصح على سبيل التوسع، كما يُقال: أصابه الدهر بفاقة أو بحادثة أو ما أشبه ذلك، وهذا على سبيل التوسُّع، لكن قول: «نوائب الحق» أصحُّ، والمراد: النائبة التي يكون من الحق أن يُعين فيها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، رقم (٣٩٠٥).

وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا[١]،........................

[١] **إذا قال قائل:** لماذا قال: «أَخِي أَبِيهَا»، مع أنه معلوم من كونه عمَّها؟

نقول: لئلا يُقال: إنه عمٌّ من أم، فإن العم قد يكون عمًّا من الأم، كأخي أبيك من أمِّه، فهو عمُّك، لكن من الأمِّ، وأخو أبيك من أبيه عمٌّ من الأب، وأخو أبيك من أمه وأبيه عمٌّ شقيق، ووقع في نسخة: «أَخُو أَبِيهَا»، وهذا على القطع، يعني: هو أخو، ولكن الصواب: «أَخِي أَبِيهَا».

وقد أسلم ورقة هذا، فقد آمن بما حصل من الوحي، وإن كان النبي ﷺ لم يُؤْمَر بالتبليغ، لكنه آمن بنبوته، وقال: «**هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى**»، وقال: «**وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ حَيًّا أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا**»، فكلُّ هذا يدلُّ على إيمانه بالرسول ﷺ، وقبوله لِمَا جاء به، وقد ذكر العلماء أنه أسلم.

فإن قال قائل: ولو قال هذه الكلمات شخص آخر فهل يُعْتَبر مسلمًا؟

فالجواب: لا؛ لأن هذا مات قبل أن يُؤْمَر الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالبلاغ.

لكن هنا مسألة: إذا نوى الرجل الإسلام، لكن مات قبل أن ينطق بالشهادتين، فهل يُحْكَم بإسلامه؟

نقول: لا؛ لأنه لابُدَّ أن ينطق بما يدلُّ على إسلامه، ولا تكفي النية حتى ينطق بما يدلُّ على إسلامه، ولكن يُقال: أمره إلى الله؛ لقول الرسول صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»(١)، وقال للناس: «**قُولُوا:**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، رقم (٢٠/ ٣٢).

وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العَرَبِيَّ، وَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ! اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ، قَالَ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي! مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى،.............

= **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا»**[1]، وأمَّا مُجرَّد الاعتقاد فلا يكفي.

فإن قال قائل: لكن ورقة ما قال الشهادة!

قلنا: لكنه قال مضمونها، وصدَّقه، وعزم على أن ينصره، وقال: «**هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى**»، أمَّا هذا فإنما هو مُتهيِّئ لأن يُسْلِم.

فإن قال قائل: يرد عليكم قصة الرجل الذي قتل مائة نفس، ثم أراد التوبة، فمات وهو في الطريق[2]!

قلنا: لا يرد؛ لأن هذا الرجل ليس بكافر، ولكنه مسلم عاصٍ، والتوبة لا يُشْتَرط فيها النطق، فهذا الرجل الذي هاجر من القرية بنية التوبة كان نادمًا، ولهذا كان يسأل الناس، وهذه هي التوبة.

وهنا فائدة: جرت العادة بإطلاق اسم العم على أبي الزوجة، فما حكم ذلك؟

الجواب: هذا خطأ، وليس بصواب.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٩٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، رقم (٣٤٧٠)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٦).

لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا[١]، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا -ذَكَرَ حَرْفًا[٢]- قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟»[٣] قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا أُوذِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ حَيًّا أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

٤٩٥٤- قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ شِهَابٍ: فَأَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ، قَالَ فِي حَدِيثِهِ:..........................

---

[١] قوله: «**لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا**» فيه إشكال من حيث الإعراب، وهو أن «جَذَعًا» نُصِبَت، والمتوقع أن تكون مرفوعةً؛ لأن «ليت» تنصب المبتدأ، وترفع الخبر، والياء اسمها، فكان ينبغي أن يُقال: «لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعٌ».

والجواب عن ذلك أن نقول: إن «جَذَعًا» خبر لـ: «كان» المحذوفة، والتقدير: يا ليتني فيها أكون جذعًا، أو يا ليتني فيها -أي: في تلك المدة- حال كوني جذعًا، وحينئذ يُقال: كيف جاءت الحال؟ أين عاملها؟

نقول: لأن «ليت» ضُمِّنت معنى: أتمنَّى، فهي مُضَمَّنة معنى الفعل.

[٢] قوله: «**لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا، ذَكَرَ حَرْفًا**» هذا الحرف هو قوله: «**إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ**»، يعني: لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ.

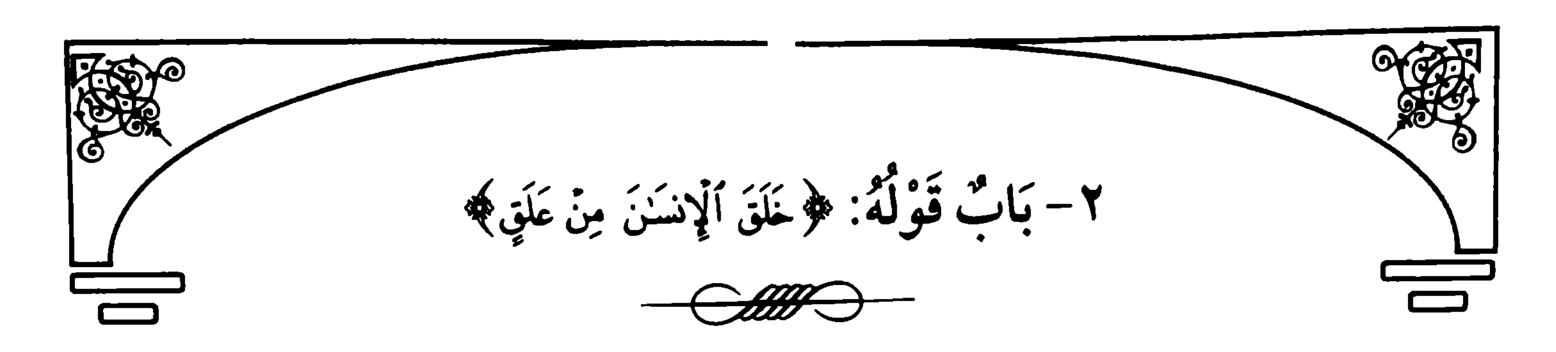
[٣] ثم إن الرسول ﷺ قال: «**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟**» وهذا استفهام استبعاد، يعني: هل يُمكن أن يُخرجني قومي، وهم الذين يُؤْوون مَن قدم إليهم، فكيف يُخرجونني؟!

«بَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَفَرِقْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي» فَدَثَّرُوهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: وَهِيَ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُونَ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ الوَحْيُ[١].

---

[١] هذا الحديث يُسَمَّى حديث بدء الوحي، وقد ذكره البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول كتابه الصحيح.

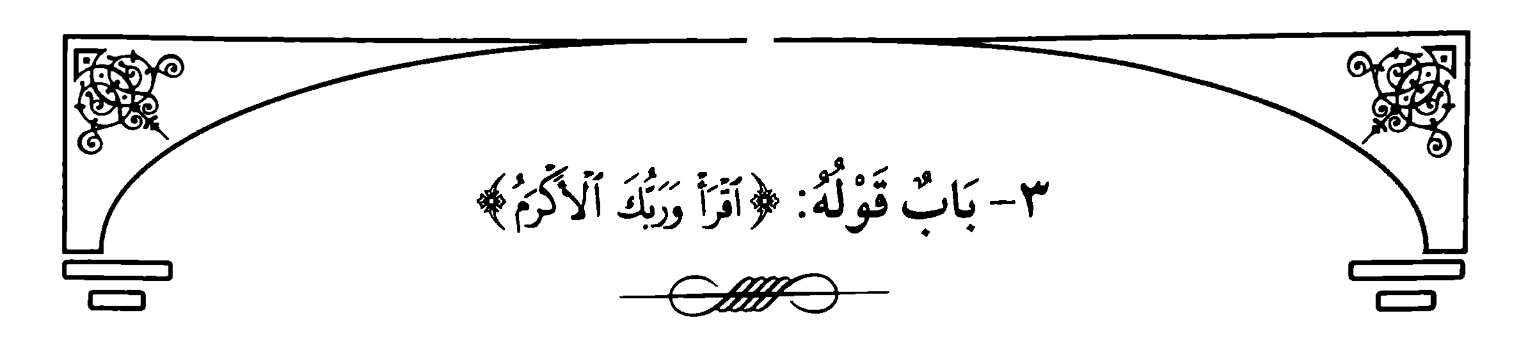




٢- بَابٌ قَوْلُهُ: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾

٤٩٥٥- حَدَّثَنَا ابْنُ بُكَيْرٍ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، فَجَاءَهُ المَلَكُ، فَقَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾.

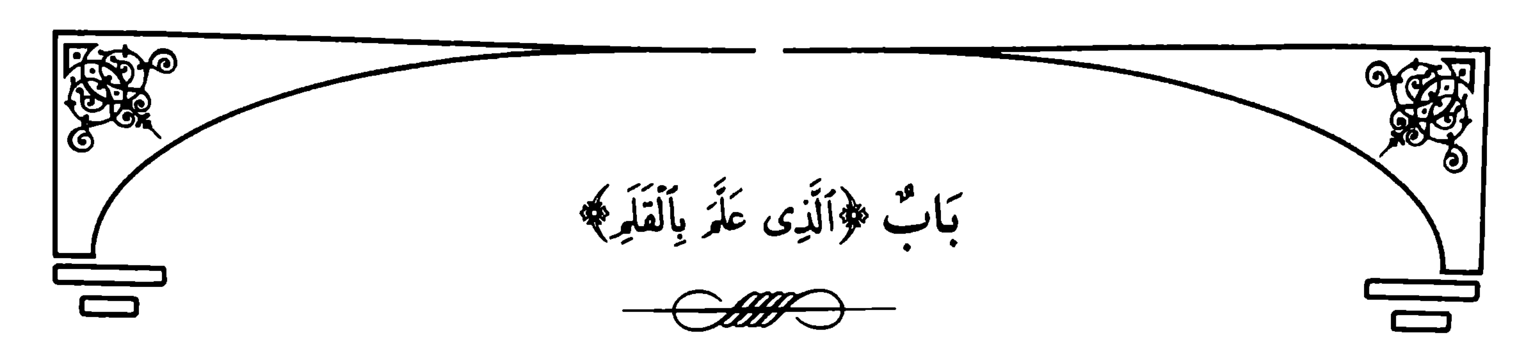




٣- بَابُ قَوْلُهُ: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾



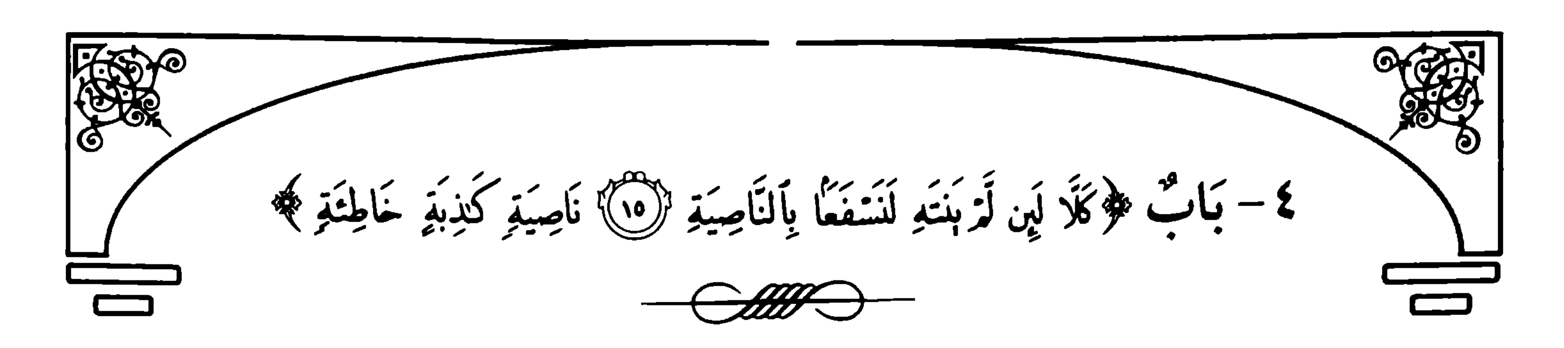
٤٩٥٦- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، (ح) وَقَالَ اللَّيْثُ: حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، قَالَ مُحَمَّدٌ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، جَاءَهُ المَلَكُ، فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾.



بَابٌ ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾

٤٩٥٧- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عُرْوَةَ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَرَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي»، فَذَكَرَ الحَدِيثَ.





٤- بَابٌ ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾

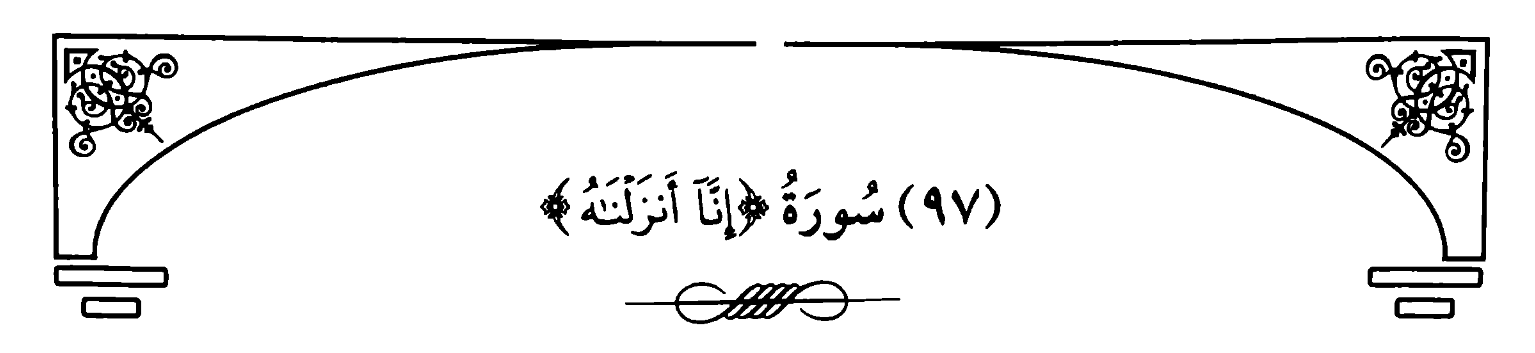
٤٩٥٨- حَدَّثَنَا يَحْيَى: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ عَبْدِ الكَرِيمِ الجَزَرِيِّ، عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الكَعْبَةِ لَأَطَأَنَّ عَلَى عُنُقِهِ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**لَوْ فَعَلَهُ لَأَخَذَتْهُ المَلَائِكَةُ**».

تَابَعَهُ عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ، عَنْ عَبْدِ الكَرِيمِ[١].

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ الصحيح أن هذا ليس فيه مجاز، لكن قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الأقدمين إذا قالوا: مجاز أو هذا من مجاز اللغة فمرادهم: هذا ممَّا تُجيزه اللغة، مأخوذ من الجواز، أي: جواز التعبير به، لا أن هذا اللفظ مجاز(١).



(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٨٩).



يُقَالُ: المَطْلَعُ هُوَ الطُّلُوعُ، وَالمَطْلِعُ: المَوْضِعُ الَّذِي يُطْلَعُ مِنْهُ[١].

﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ الهَاءُ كِنَايَةٌ عَنِ القُرْآنِ[٢].

---

[١] كلمة «مطلع» إذا أُريد بها الطلوع نفسه فهي بفتح اللام، وإذا أُريد بها مكان الطلوع فهي بكسر اللام، فإذا قيل: «مَطْلِع الشمس» فالمراد: المكان الذي تطلع منه، وعلى هذا نقول في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ المراد: طلوع الفجر.

[٢] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ أي: ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، فإن أول ما نزل على الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾، وهذا هو الذي نزل في ليلة القدر، ثم الباقي صار ينزل بحسب الحال، فقد ينزل في ربيع، أو في صفر، فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة:٣] هذا نزل في التاسع من ذي الحجة.

وكذلك نقول في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]، فالمراد به: ما نزل من القرآن إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾، فهذا هو الذي نزل في رمضان.

ويدلُّ على أن الله تعالى تكلَّم بالقرآن حين إنزاله: أن هناك آياتٍ تدلُّ على حكاية شيء مضى، مثل: قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِ﴾ [آل عمران:١٢١]، ومثل قوله: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة:١]، فكيف يقول:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ مَخْرَجَ الجَمِيعِ، وَالمُنْزِلُ هُوَ اللهُ، وَالعَرَبُ تُوَكِّدُ فِعْلَ الوَاحِدِ، فَتَجْعَلُهُ بِلَفْظِ الجَمِيعِ؛ لِيَكُونَ أَثْبَتَ وَأَوْكَدَ[١].

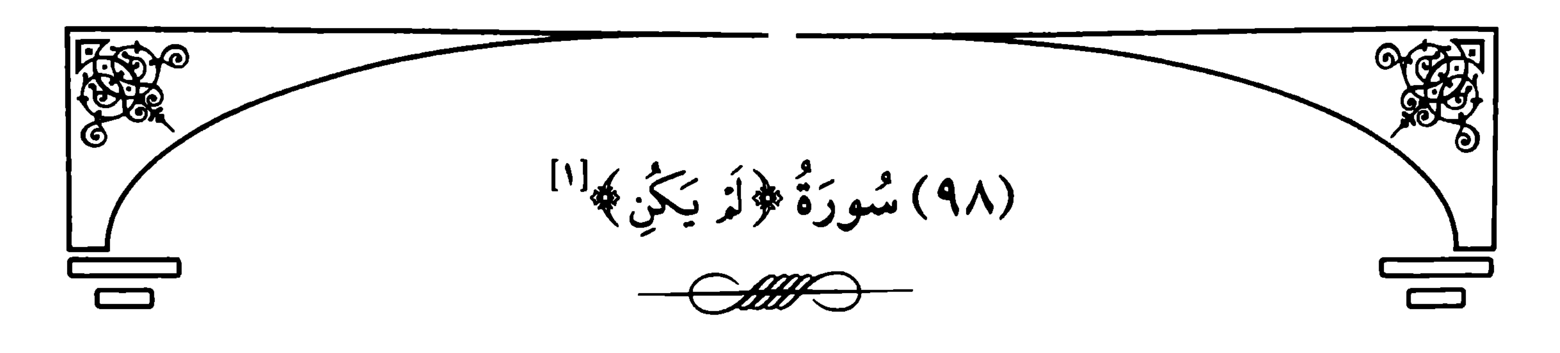
= ﴿قَدْ سَمِعَ﴾، وهو لم يحصل قول؟ ومثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال:٦٦]، ومثل قوله: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧]، والأمثلة في هذا كثيرة.

[١] قوله: «مَخْرَجَ الجَمِيعِ» أي: عُبِّر بضمير الجمع: ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾، والمنزل واحد، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن هذا من باب التعظيم؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُعَظِّم نفسه بصيغة الجمع، وهو واحد، ولهذا قال: «تُوَكِّدُ فِعْلَ الوَاحِدِ، فَتَجْعَلُهُ بِلَفْظِ الجَمِيعِ؛ لِيَكُونَ أَثْبَتَ وَأَوْكَدَ»، يعني: كأنه لعظمته صار إنزاله إيَّاه مُؤَكَّدًا، والعرب قد تُثَنِّي الفاعل، والمراد به: تثنية الفعل، مثل قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق:٢٤]، فإن كثيرًا من المُفَسِّرين يقول: معنى ﴿أَلْقِيَا﴾ أي: أَلْقِ أَلْقِ، فجاء بصيغة التثنية، والمراد تثنية الفعل؛ لأن أول الآية: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ [ق:٢٣]، وهو واحد، مع أن هذا فيه نظر، ولهذا يرى بعض العلماء أنها على بابها، وأن الخطاب للقرين الحاضر والعتيد.

فإن قال قائل: وهل هذا مثل كلمة «لبيك»؟

قلنا: لا؛ لأن «لبَّيك» صيغتها للتثنية، والمراد: الجمع، وهذه صيغتها للتثنية، والمراد: الواحد.





(٩٨) سُورَةُ ﴿لَمْ يَكُنِ﴾[١]

[١] قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، قوله: ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هل هو معطوف على ﴿أَهْلِ﴾، أو على ﴿ٱلَّذِينَ﴾؟

الجواب: معطوفة على ﴿أَهْلِ﴾، يعني: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين، ولو كانت معطوفةً على ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لقال: «والمشركون».

لكن يرد علينا هنا إشكال، وهو أن هذا يقتضي أن هناك من أهل الكتاب ومن المشركين مَن لم يكفر؟

والجواب أن نقول: إن «من» هنا بيانيَّة، أي: بيان للذين كفروا أنهم قسمان: قسم من أهل الكتاب، وقسم من المشركين.

وينبني على هذا الآيةُ التي في آخر السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، فهل في الذين أُوتوا الكتاب مَن هو مؤمن بعد نزول القرآن؟

الجواب: إن بقي على ما هو عليه فليس بمؤمن، وإن آمن صار من المؤمنين، فأهل الكتاب بعد نزول القرآن إذا لم يُصَدِّقوا به فهم كفار، أمَّا قبل فاليهود في زمن موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مسلمون، والنصارى في زمن عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مسلمون، وعلى هذا لا نقول: إن «من» في الآية للتبعيض.

﴿مُنفَكِّينَ﴾ زَائِلِينَ[١].

﴿قَيِّمَةٌ﴾ القَائِمَةُ[٢].

﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أَضَافَ الدِّينَ إِلَى المُؤَنَّثِ[٣].

٤٩٥٩- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ: حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، سَمِعْتُ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُبَيٍّ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾» قَالَ: وَسَمَّانِي؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَبَكَى.

٤٩٦٠- حَدَّثَنَا حَسَّانُ بْنُ حَسَّانَ: حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُبَيٍّ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ القُرْآنَ»، قَالَ أُبَيٌّ: آللهُ سَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: «اللهُ سَمَّاكَ لِي»، فَجَعَلَ أُبَيٌّ يَبْكِي، قَالَ قَتَادَةُ: فَأُنْبِئْتُ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾.

٤٩٦١- حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَاوُدَ أَبُو جَعْفَرٍ المُنَادِي: حَدَّثَنَا رَوْحٌ:.........

---

[١] ويجوز أن نقول: هي بمعنى تاركين، أي: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين تاركين لِمَا هم عليه حتى تأتيهم البينة.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾، وذكر البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أنها بمعنى قائمة، والصواب أنها بمعنى قَوِيمَة، فهي فَيْعِلَة، لا فَاعِلَة، يعني: أن هذه الكتب قويمة، لا تأمر إلا بالعدل، ولا تُخْبِر إلا بالصدق.

[٣] على هذا يكون التقدير: «وذلك دين المِلَّة القيِّمة»، أي: التي ليس فيها اعوجاج.

حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُقْرِئَكَ القُرْآنَ**»، قَالَ: آللهُ سَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: وَقَدْ ذُكِرْتُ عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ[١].

---

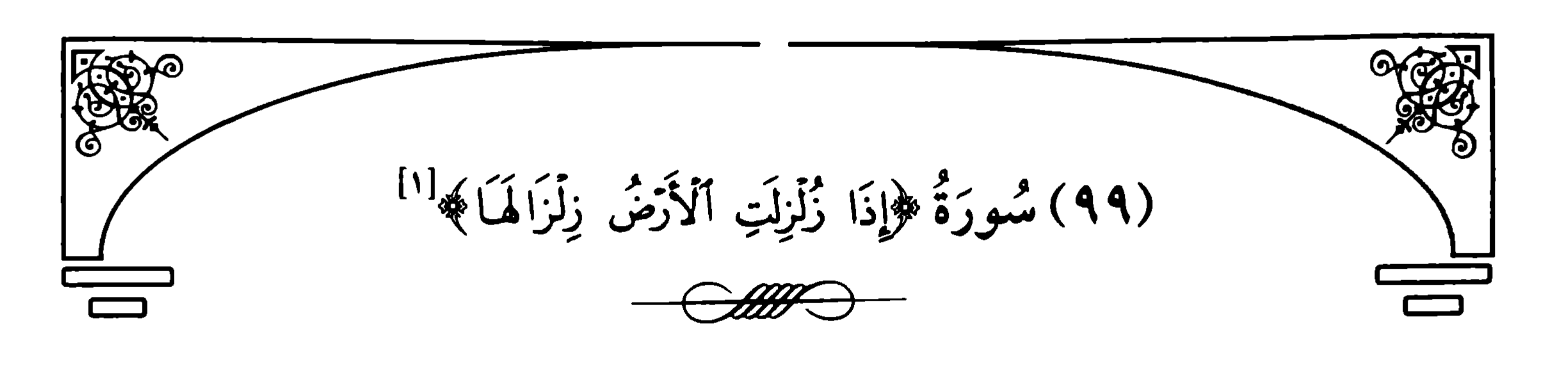
[١] هذا الحديث بطرقه كلِّها يدور على قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو من المُدلِّسين، لكنَّ تدليسه خفيف، ولهذا ما جاء من تدليسه في الصحيحين فهو محمول على السماع، ولا يُضعَّف، بخلاف ما جاء في غيرهما، فإن فيه نظرًا.

وفي هذا الحديث دليل على فوائد، منها:

١- أن الرواة ينقلون الحديث بالمعنى؛ لأن ألفاظه كلَّها فيها اختلاف، لكنها كلها تدور على أن الله رب العالمين عَزَّوَجَلَّ أمر النبي ﷺ أن يقرأ على أُبَيٍّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾، وسمَّاه له باسمه.

والحكمة من أن الله عَزَّوَجَلَّ أمر نبيه محمدًا ﷺ أن يقرأ على أُبَيٍّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ﴿لَمْ يَكُنِ﴾؛ لأن فيها التحدُّث عن أهل الكتاب، وأُبَيُّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان من أهل الكتاب، فكان من المناسب أن يُسْمِعَه ما حكم الله به على أهل الكتاب، وأنهم شرُّ البريَّة، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، يعني: حتى من الكلاب والحمير.

٢- من فوائد الحديث: أن الإنسان قد يبكي من الفرح؛ لأن أُبَيَّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لم يأتِه شيء يكرهه أو يُحزنه حتى نقول: إنه بكى من الحزن، ولكنه بكى من الفرح، وهذا يقع كثيرًا، فكثيرًا ما يتلاقى الأب وابنه بعد طول زمن، ثم إذا تعانقا بَكَيَا، لا حزنًا، ولكن فرحًا.



(٩٩) سُورَةُ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[١]

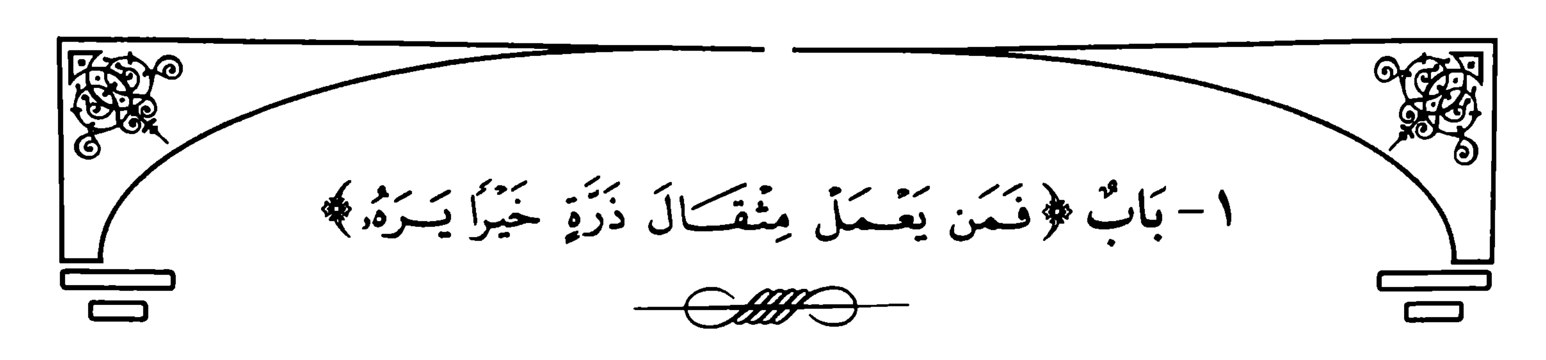
[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا﴾ هذا استفهام يُراد به التفخيم، يعني: أيُّ شيء لها؟ ما الذي حصل لها؟ وذلك لأنها ستختلف عليه، فإنها تُزَلْزَل، وتُخْرِج أثقالها، أي: ما في بطنها من الأموات، وحينئذ يقول الإنسان: ﴿مَا لَهَا﴾، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، أي: تُخبر عمَّا عُمِلَ عليها من خير أو شرٍّ.

وقوله: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ لا يلزم أن يكون هذا بلسان وشفتين، فقد يكون كلام بدون لسان ولا شفتين، وقد كان حَجَر في مكة يُسلِّم على النبي ﷺ[١]، وسُمِعَ تسبيح الحصى بين يديه[٢]، وكذلك الطعام[٣]، وهذا يدلُّ على أنه لا يلزم من الكلام أن يكون للمُتكلِّم لسان وشفتان.

وقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ الباء للسببيَّة، أي: بوحي الله لها، وهذا الوحي ليس وحي نبوة ولا رسالة، ولكنه إعلام؛ لأن الوحي يُطْلَق بمعنى: الإعلام، فـ: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: أعلمها أن تتكلَّم، فتكلَّمت.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، رقم (٢٢٧٧/ ٢).
(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢/ ٥٩).
(٣) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٧٩).



١- بَابٌ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾

يُقَالُ: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أَوْحَى إِلَيْهَا، وَوَحَى لَهَا، وَوَحَى إِلَيْهَا، وَاحِدٌ.

٤٩٦٢- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ السَّمَّانِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «**الخَيْلُ لِثَلَاثَةٍ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأَطَالَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا ذَلِكَ فِي المَرْجِ وَالرَّوْضَةِ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيَلَهَا، فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ، كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ، فَشَرِبَتْ مِنْهُ، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ بِهِ، كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، فَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ. وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ. وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِئَاءً وَنِوَاءً، فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ**».

فَسُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الحُمُرِ، قَالَ: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الآيَةَ الفَاذَّةَ الجَامِعَةَ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾**»[1].

---

[١] قسّم الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الخيل ثلاثة أقسام:

الأول: قسم أعدَّها للجهاد في سبيل الله.

....

= **الثاني**: قسم أعدَّها للاستغناء والتعفُّف عن عباد الله.

الثالث: قسم أعدَّها فخرًا وخيلاء ونواءً، أي: مضادَّة للمسلمين.

ففي القسم الأول كل شيء تنتفع به أو تدفع به ضررًا عن نفسها فهو له أجر، فإذا أكلت أو شربت أو استنَّت -أي: ركضت- شرفًا أو شَرَفين ففيها أجر، وكذلك إذا راثت أو بالت ففيها أجر؛ لأن فيه دفع ضرر عنها، فكلما انتفعت أو اندفع الضرر عنها فله أجر؛ لأن انتفاعها في سبيل الله، واندفاع الضرر عنها في سبيل الله أيضًا؛ لأنها إذا اندفع عنها الضرر بقيت، ولم تمُت، فيكون له أجر، سواء فيما يحصل لها من نفع، أو فيما يندفع عنها من ضرر.

أمَّا القسم الثاني فيقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَهُ سِتْرٌ**»، أي: لا تنفعه، ولا تضرُّه؛ لأنه إنما يقضي بها حاجة الدنيا.

وأمَّا القسم الثالث فذكر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنها عليه وزر.

وفي هذا دليل واضح على اختلاف العمل باختلاف النية، فهذه كلها خيل، لكن اختلفت باختلاف النية.

وهل مثل ذلك الحمير؟

نقول: أمَّا بالنسبة لِمَا يُعَدُّ في سبيل الله فإذا كان يُنْتَفع بها في سبيل الله فالحكم واحد، وحاليًا يُمكن أن يُنْتَفع بها في المواضع التي فيها جبال وأودية، كما يُوجَد في أفغانستان وشبهها.

....

= والشاهد من هذا الحديث: قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، و﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: ما يزن ذرَّةً، وهي صغار النمل، ولو قال قائل: المراد بالذرة هنا: الذرة الكونيَّة التي هي جزء لا يتجزَّأ، فما الجواب؟

نقول: الجواب: أن الله عَزَّوَجَلَّ يُخاطب الناس بما يعلمون، وهذه الذرة الكونيَّة التي هي جزء لا يتجزَّأ لم تُعْلَم إلا أخيرًا، والقرآن نزل للناس كلِّهم منذ نزل إلى قيام الساعة، ولو قلنا: المراد الذرة الموجودة هنا فمعنى هذا: أنه حُجِبَ السلف عن معناها؛ لأنهم لا يعرفون هذا الشيء، وهذا لا يُمكن.

لكن لو أنه عمل أدنى من مثقال ذرَّة فهل يكون كذلك؟

الجواب: نعم؛ لأن الشيء إذا قُصِدَ به المبالغة قلَّةً أو كثرةً فلا مفهوم له، فلو قال لك قائل: واللهِ لو تُكَلِّمني في فلان مائة مرَّة، فكلَّمتني مائةً وواحدة، فكذلك؛ لأن هذا للمبالغة.

وفي قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**هَذِهِ الآيَةَ الفَاذَّةَ الجَامِعَةَ**» فيه دليل على اعتبار مدلول العام، وأنه شامل لجميع أفراده، خلافًا لِـمَن قال من الأصوليين: إنه لا يعمُّ جميع الأفراد إلا بدليل، بل نقول: إن الأصل أن العام يعمُّ جميع أفراده، ومَن أخرج شيئًا من أفراد العموم عن الحكم فعليه الدليل.

لكن أين العموم في الآية؟

نقول: من وجهين:

....

= **الأول**: «مَنْ»، وهذا عموم باعتبار العامل؛ لأنه اسم شرط، واسم الشرط يُفيد العموم.

الثاني: ﴿خَيْرًا﴾ و﴿شَـرًّا﴾، وهذا باعتبار المعمول؛ لأنه نكرة في سياق الشرط.

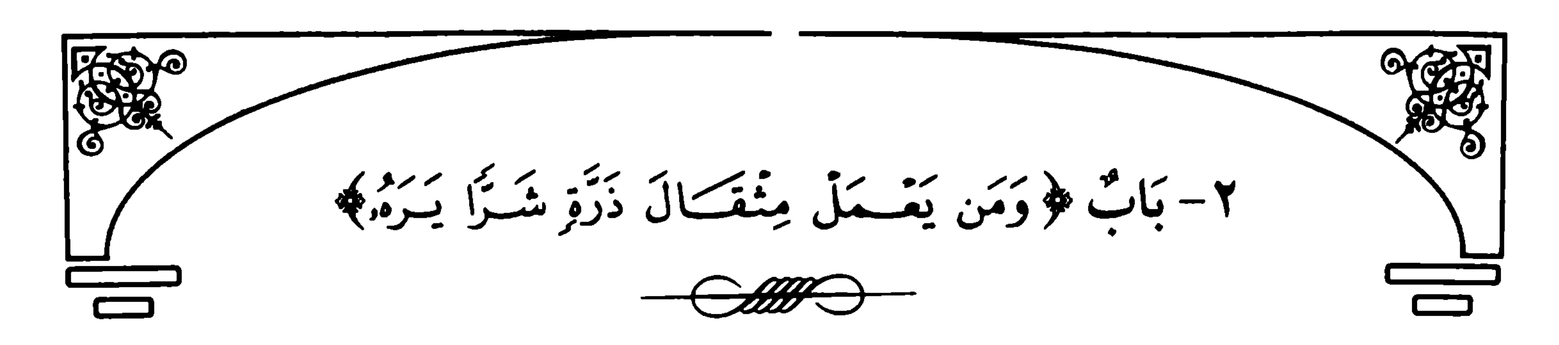
فإن قال قائل: قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الآيَةَ الفَاذَّةَ الجَامِعَةَ**» يُشْكِل عليه قوله تعالـى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٨]؟

فالجواب أن يُقال: إمَّا أن تكون هذه الآية قبل نزول آية النحل، وإمَّا أن يُقال: إن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا ذكر الأجر والستر والوزر في الخيل سُئِلَ عن الحمير: هل فيها أجر؟ هل فيها ستر؟ هل فيها وزر؟ فقال: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الآيَةَ الفَاذَّةَ الجَامِعَةَ**»، وأراد: لم يُنزَل في حكمها، وهل فيها أجر أو ليس فيها أجر؟ فلا تُلْحَق بالخيل، بل هي بحسب ما ينوي بها الإنسان، فإن عمل بها خيرًا فهي خير، وإن عمل بها شرًّا فهي شرٌّ، وحينئذ لا نحتاج إلى التاريخ.

فإن قال قائل: إن النبي ﷺ لَمَّا سُئِلَ عن الحُمُر سُئِلَ عن الصدقة فيها!

قلنا: هذا ليس بصحيح؛ لأن الصدقة ليس لها ذكـر في هذا الحديث إطلاقًا، وإنما لَمَّا قسَّم الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الخيل إلى هذه الأقسام الثلاثة قيل له: الحُمُر؟ يعني: هل تُقَسَّم هذا التقسيم، أو لا؟ فقال: إنه ما أُنزل عليَّ إلا هذه الآية.

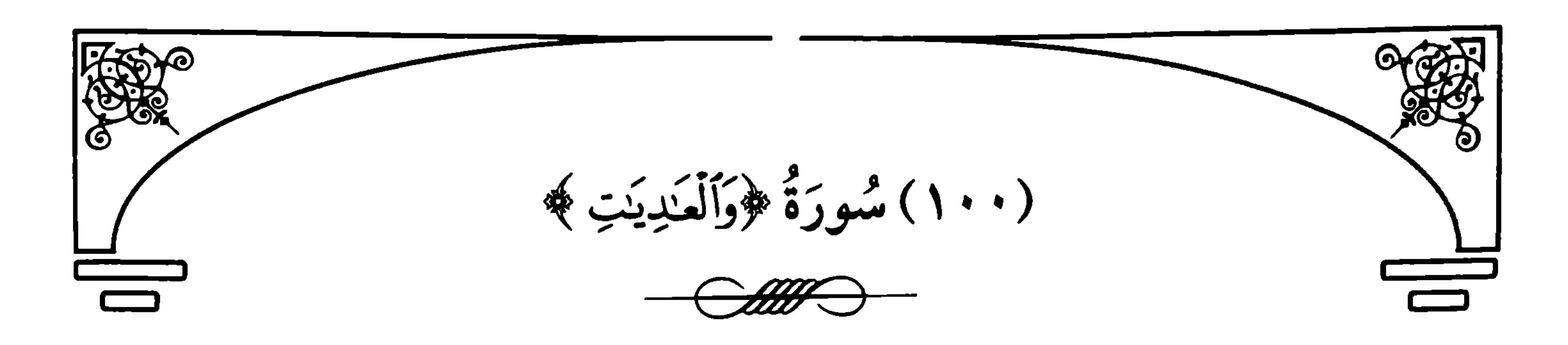




٢- بَابٌ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾

٤٩٦٣- حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سُلَيْمَانَ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي مَالِكٌ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ السَّمَّانِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الحُمُرِ، فَقَالَ: «**لَمْ يُنْزَلْ عَلَيَّ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الآيَةُ الجَامِعَةُ الفَاذَّةُ:** ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾».





(١٠٠) سُورَةُ ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ﴾

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الكَنُودُ: الكَفُورُ[١].

يُقَالُ: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ رَفَعْنَا بِهِ غُبَارًا[٢].

﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ مِنْ أَجْلِ حُبِّ الخَيْرِ.

﴿لَشَدِيدٌ﴾ لَبَخِيلٌ، وَيُقَالُ لِلْبَخِيلِ: شَدِيدٌ[٣].

---

[١] قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، أي: لكفور، وهذا كما قال تعالى في آية أُخرى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الزخرف:١٥].

[٢] يُقال: أثار الشيء يعني: أهاجه، والنقع هو الغبار، كما قال بشَّار بن بُرْد:

كَـأَنَّ مُثَـارَ النَّقْـعِ فَـوْقَ رُؤُوسِـنَا وَأَسْيَافِنَا لَيْـلٌ تَهَـاوَى كَوَاكِبُـهُ(١)

فقوله: «لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ» أي: تناثر، وكذلك لمع السيوف كالكواكب، لكن كيف تخيَّل هذا، مع أن الرجل يقولون: إنه لا يُبْصِر؟!

والشاهد منه: قوله: «كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ».

[٣] قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ فسَّره المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بخلاف الظاهر، فقال: إنه لبخيل من أجل حب الخير، أي: المال، أي: أنه بخيل؛ لأنه

---

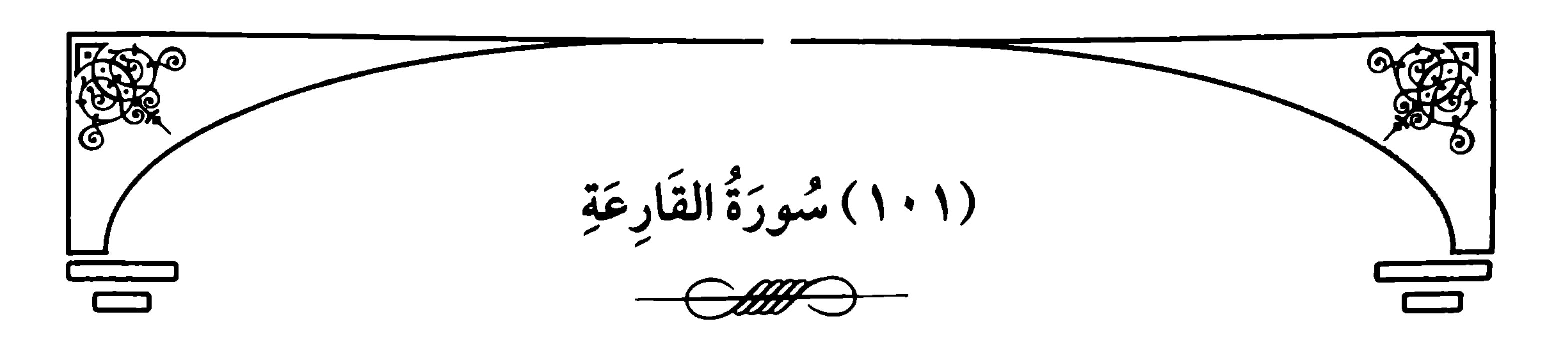
(١) الأغاني (٣/ ٢٣).

حُصِّلَ: مُيِّزَ[١].

= يحبُّ المال، فيجمعه، ولا يُنفقه، وعلى هذا فاللام للتعليل، ولكن ظاهر الآية: أن المعنى: وإنه لشديد في حبِّ المال وطلبه، فتكون اللام للتعدية.

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ قال: «مُيِّزَ»، ويحتمل أن المعنى: جُمِعَ، والذي في الصدور يعني: في القلوب، وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٩]، ففي يوم القيامة العمل على ما في القلوب، وفي الدنيا العمل على الظاهر.





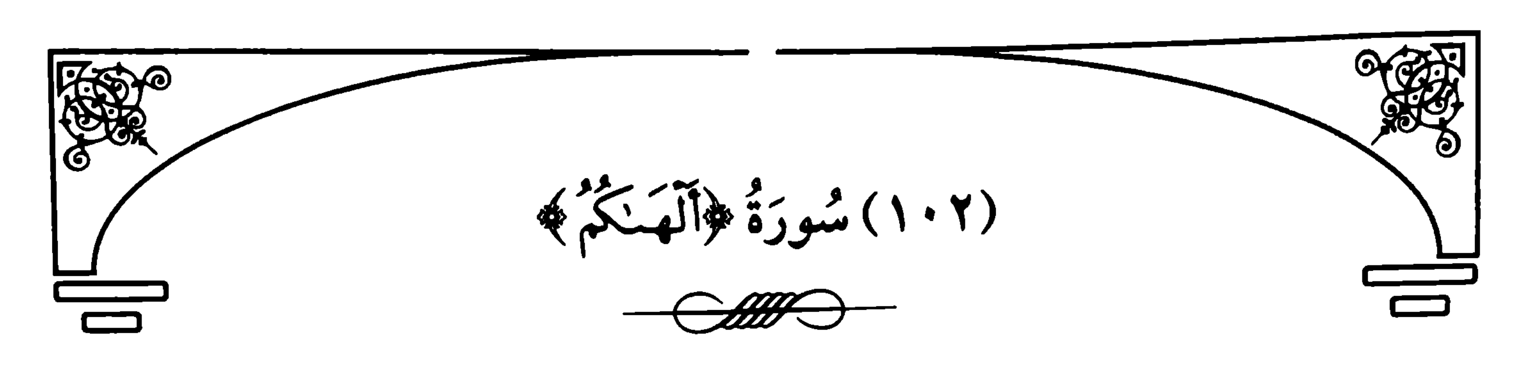
(١٠١) سُورَةُ القَارِعَةِ

﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ كَغَوْغَاءِ الجَرَادِ، يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، كَذَلِكَ النَّاسُ يَجُولُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ[١].

﴿كَٱلْعِهْنِ﴾ كَأَلْوَانِ العِهْنِ، وَقَرَأَ عَبْدُ اللهِ: كَالصُّوفِ.

[١] كأنه يُريد أن هذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر:٧].





(١٠٢) سُورَةُ ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾

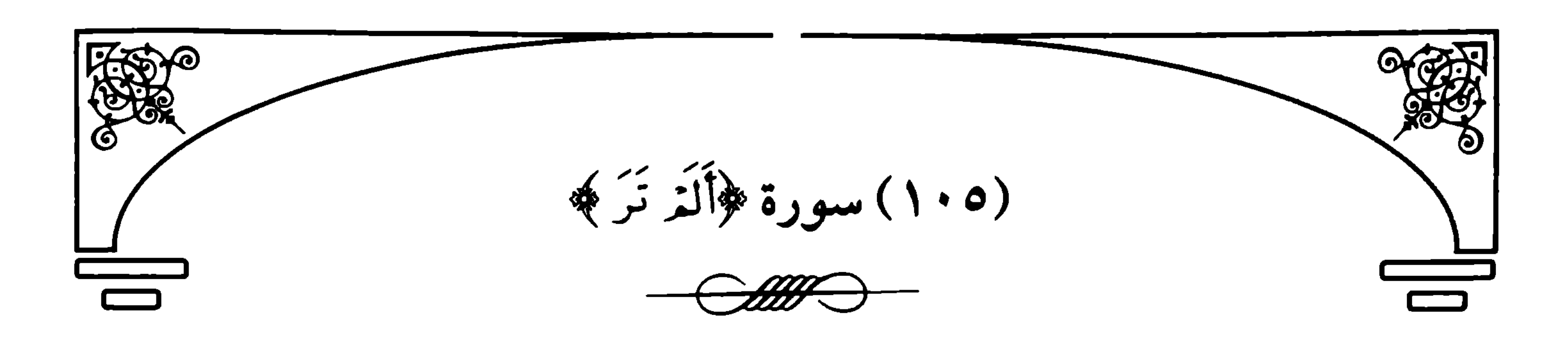
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿التَّكَاثُرُ﴾ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ.

(١٠٣) سُورَةُ ﴿وَالْعَصْرِ﴾

وَقَالَ يَحْيَى: العَصْرُ: الدَّهْرُ، أَقْسَمَ بِهِ.

(١٠٤) سُورَةُ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾

﴿الْحُطَمَةِ﴾ اسْمُ النَّارِ، مِثْلُ: ﴿سَقَرَ﴾ وَ﴿لَظَىٰ﴾



(١٠٥) سورة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾

أَلَمْ تَعْلَمْ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَبَابِيلَ﴾ مُتَتَابِعَةً مُجْتَمِعَةً[١].

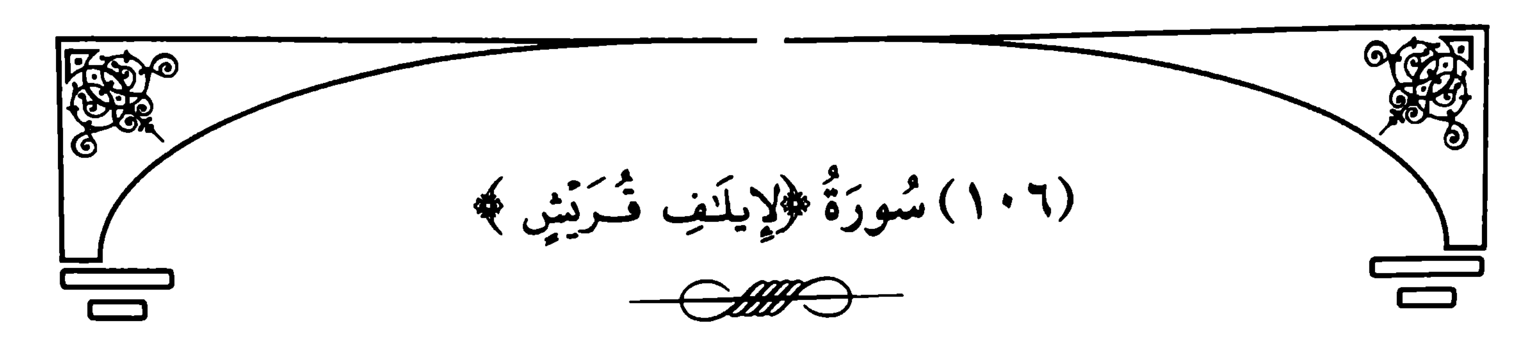
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ هِيَ سَنْكِ وَكِلْ[٢].

---

[١] هذه طيور خلقها الله عَزَّوَجَلَّ، وجعل في مناقيرها هذه الحجارة.

[٢] هذه اللغة ليست بعربية، ولكنها فارسية.



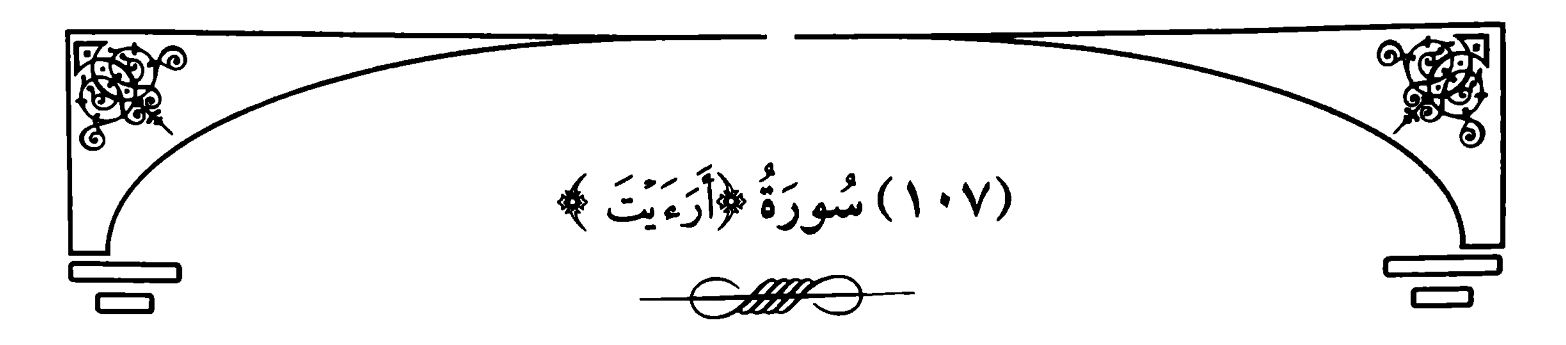


(١٠٦) سُورَةُ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ أَلِفُوا ذَلِكَ، فَلَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ.

﴿وَءَامَنَهُم﴾ مِنْ كُلِّ عَدُوِّهِمْ فِي حَرَمِهِمْ.

وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ لِنِعْمَتِي عَلَى قُرَيْشٍ.



(١٠٧) سُورَةُ ﴿أَرَءَيْتَ﴾

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يَدُعُّ﴾ يَدْفَعُ عَنْ حَقِّهِ، يُقَالُ: هُوَ مِنْ دَعَعْتُ، ﴿يُدَعُّونَ﴾ يُدْفَعُونَ[١].

﴿سَاهُونَ﴾ لَاهُونَ.

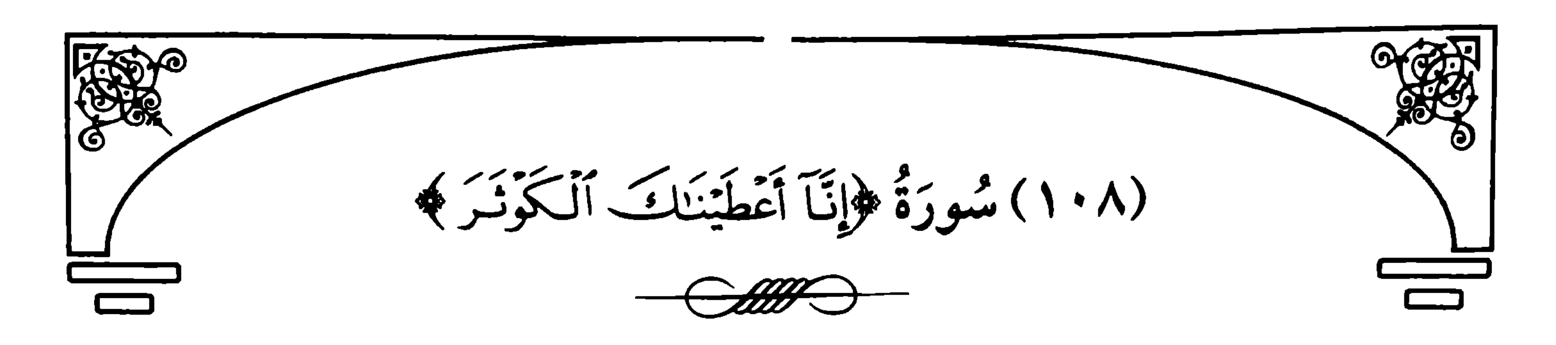
وَ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ المَعْرُوفَ كُلُّهُ، وَقَالَ بَعْضُ العَرَبِ: المَاعُونُ المَاءُ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: أَعْلَاهَا الزَّكَاةُ المَفْرُوضَةُ، وَأَدْنَاهَا عَارِيَّةُ المَتَاعِ[٢].

---

[١] قول الله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعه، وهو كناية عن عدم رحمته به، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أوصى باليتامى؛ لأنهم مُنْكَسِرَة قلوبهم، حيث إنهم صغار، وليس لهم أب، فإذا جاء رجل ودعَّه فمعنى هذا: أن الرحمة نُزِعَت من قلبه، ولهذا ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ يعني: ولا يُطْعِم أيضًا؛ لأن الذي لا يحضُّ غيره لا يفعله هو بنفسه.

[٢] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ أي: لا يبذلون المعروف، ولا يُعطون العارية، حتى الماعون الذي جرت العادة بأنه يُعْطَى لا يفعلون ذلك، فهم لا يُصَلُّون، بل هم عن صلاتهم ساهون، ويمنعون الماعون.





(١٠٨) سُورَةُ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿شَانِئَكَ﴾ عَدُوَّكَ[١].

٤٩٦٤- حَدَّثَنَا آدَمُ: حَدَّثَنَا شَيْبَانُ: حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَـمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ: «**أَتَيْتُ عَلَى نَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ مُجَوَّفًا، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ**».

٤٩٦٥- حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ الكَاهِلِيُّ: حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَ: سَأَلْتُهَا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، قَالَتْ: نَهَرٌ أُعْطِيَهُ نَبِيُّكُمْ ﷺ، شَاطِئَاهُ عَلَيْهِ دُرٌّ مُجَوَّفٌ، آنِيَتُهُ كَعَدَدِ النُّجُومِ.

رَوَاهُ زَكَرِيَّاءُ وَأَبُو الأَحْوَصِ وَمُطَرِّفٌ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ[٢].

---

[١] قال العلماء: إن قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ ليس عائدًا إلى شخص الرسول ﷺ، بل إلى شخصه ودينه، فكلُّ مَن أبغض دين الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه أبتر أقطع لا بركة فيه، كما أن مَن أبغض الرسول ﷺ فهو أقطع ليس فيه بركة.

[٢] ظاهر هذا الحديث: أن الكوثر هو الحوض؛ لقولها: «**آنِيَتُهُ كَعَدَدِ النُّجُومِ**»، والجمع بين ذلك وبين كونه نهرًا في الجنة: أن أصله نهر في الجنة، ثم من هذا النهر يصبُّ ميزابان على الحوض الذي في عرصات القيامة، كما ذكر في أحاديث أُخَر.

٤٩٦٦- حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ: حَدَّثَنَا أَبُو بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ فِي الكَوْثَرِ: هُوَ الخَيْرُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ، قَالَ أَبُو بِشْرٍ: قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: فَإِنَّ النَّاسَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَهَرٌ فِي الجَنَّةِ، فَقَالَ سَعِيدٌ: النَّهَرُ الَّذِي فِي الجَنَّةِ مِنَ الخَيْرِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ[١].

= وهذا الحوض يشرب منه الناس الذين آمنوا برسول الله ﷺ، جعلنا الله وإياكم ممَّن يشرب منه.

[١] تحصَّل أن في الكوثر ثلاثة أقوال:

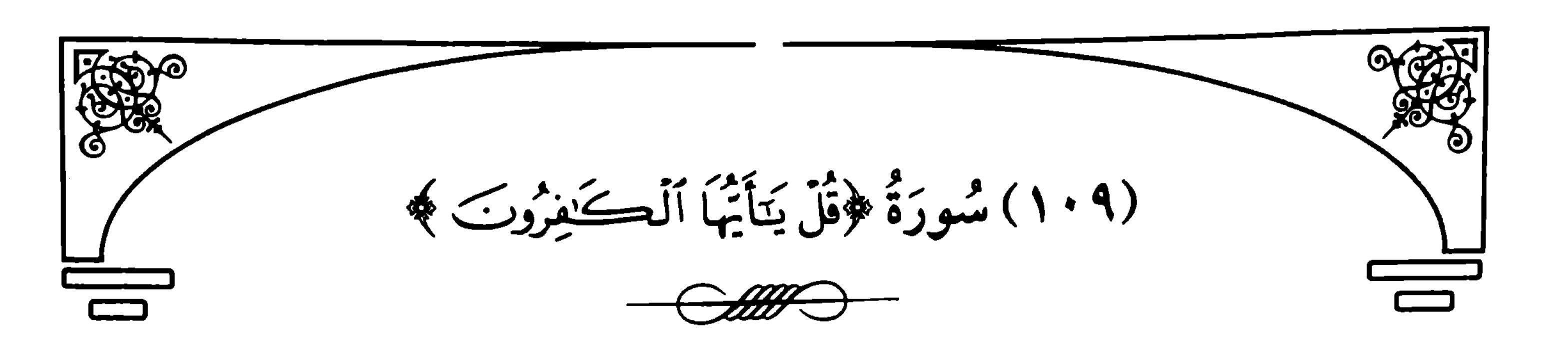
الأول: أنه الخير الكثير، ومنه: النهر الذي في الجنة.

الثاني: أنه النهر الذي في الجنة.

الثالث: أنه الحوض.

ولا منافاة بين هذه الأقوال الثلاثة، فالنهر الذي في الجنة منه ميزابان يصبَّان في الحوض، والحوض والنهر كلاهما من الخير الكثير.





يُقَالُ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الكُفْرُ، ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ الإِسْلَامُ، وَلَمْ يَقُلْ: دِينِـي؛ لِأَنَّ الآيَاتِ بِالنُّونِ، فَحُذِفَتِ اليَاءُ كَمَا قَالَ: ﴿يَهْدِينِ﴾ وَ﴿يَشْفِينِ﴾.

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الآنَ، وَلَا أُجِيبُكُمْ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِي، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾[1].

---

[١] قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ هل هذا التكرار للتوكيد، أو لكلِّ جملة معنى غير الأُخرى؟

الجواب: قال بعضهم: إنه للتوكيد، وفيه نظر؛ لوجهين:

الأول: أن الأصل في الكلام التأسيس، لا التوكيد.

الثاني: أن الواو تمنع ذلك.

وقيل: إن قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ يعني الآن، وإن قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ يعني في المستقبل، وهذا الاحتمال ليس ببعيد.

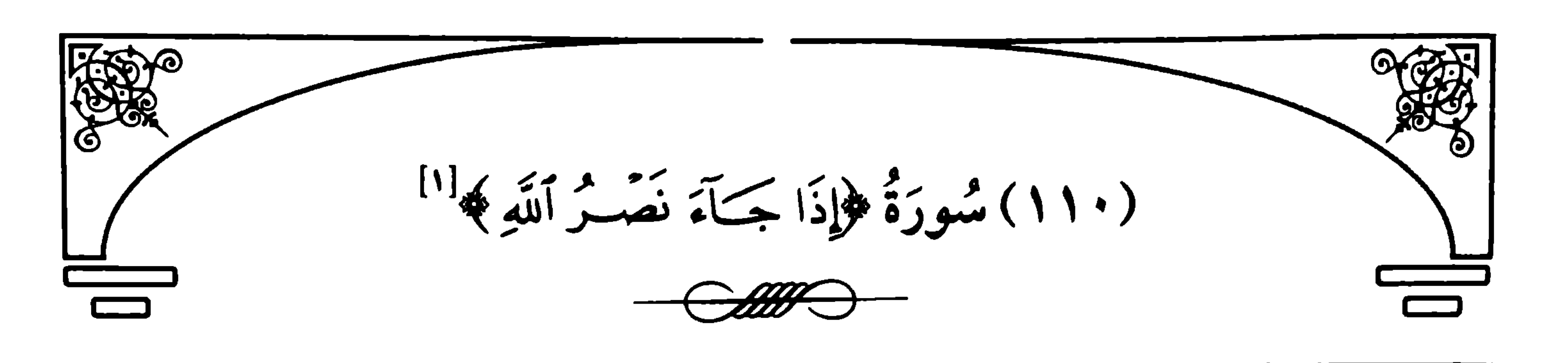
وقيل: إن معنى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: لا أعبد الذي تعبدونه من الأصنام،

....

= ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ وهو الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنكم تُشْرِكون به غـيره، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ يعنـي: ولا أنا عابد كعبادتكم، حتـى لو عبدتم الله لا أعبد كعبادتكم، ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي: كعبادتي، فيكون النفي الأول للمعبود، والثاني لكيفيَّة التعبُّد، والأصل فيما كُرِّر من القرآن أنه للتأسيس؛ لأن التوكيد خلاف الأصل.

وهذا القول أحسن من القول الذي قبله؛ لأن النفي يعمُّ الماضي والمستقبل.





(١١٠) سُورَةُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾[١]

[١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ المراد بالفتح هنا: فتح مكة، بخلاف الفتح في قوله عَزَّوَجَلَّ في سورة الحديد: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد:١٠]، فالمراد به: صلح الحديبية.

أمَّا كون فتح مكة فتحًا فظاهر؛ لأن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فتح به هذا البلد الأمين، وفتح به الدين الإسلامي للناس أجمعين، ولهذا صار الناس يدخلون في دين الله أفواجًا.

وأمَّا كون صلح الحديبية فتحًا فلوجهين:

الأول: أنه كان مُقَدِّمَةَ الفتح، فلولا صلح الحديبية ما كان الفتح؛ لأن سبب الفتح هو أن النبي ﷺ غزا أهل مكة حينما نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ في الحُدَيبية[١].

الوجه الثاني: أن صلح الحديبية كان سببًا لاختلاط الناس بعضهم ببعض، وأَمْن الناس بعضهم من بعض، حتى عُرِفَ الإسلام، فصار فتحًا.

وقد ذكر بعضهم أن هذه السورة هي آخر ما نزل، والله أعلم، وقال بعضهم: إن آيات الربا آخر ما نزل، والبحث في هذا ليس له كبير فائدة؛ لأنه لا يُوجَد هنا ناسخ ومنسوخ.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٨٩).

٤٩٦٧ - حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ الرَّبِيعِ: حَدَّثَنَا أَبُو الأَحْوَصِ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ صَلَاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: «**سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»[١].

٤٩٦٨ - حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ[٢].

---

[١] هذا الدعاء مطابق تمامًا للآية: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾، وفيه: امتثال النبي ﷺ لأمر الله.

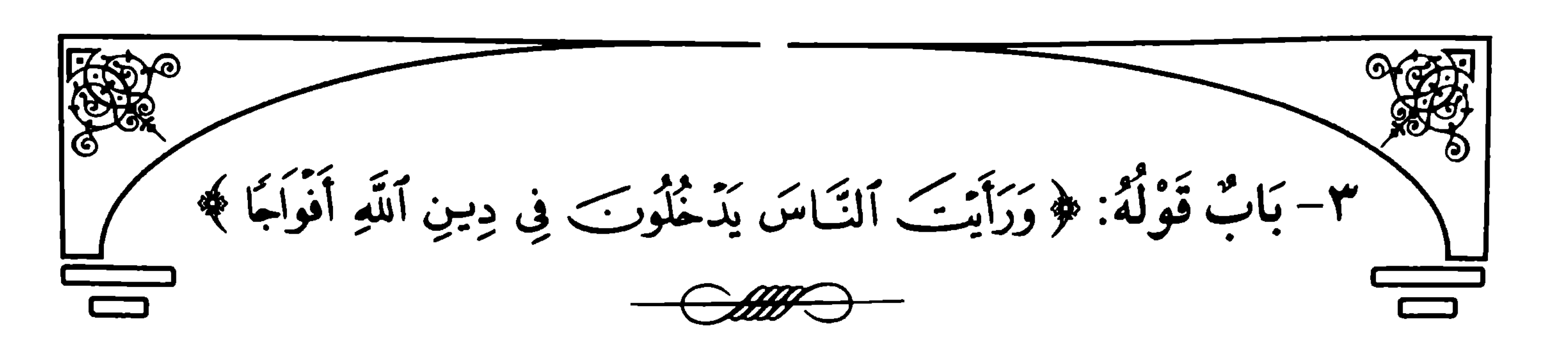
[٢] قولها: «**يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ**» أي: يعمل به؛ لأن التأويل ينقسم ثلاثة أقسام:

الأول: التفسير.

الثاني: الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فإن كان خبرًا فهو وقوع الْمُخْبَر به، وإن كان أمرًا أو نهيًا فهو امتثال ذلك.

الثالث: صرف اللفظ عن ظاهره، فإن كان بدليل لم يكن تحريفًا، ولكن يكون تفسيرًا.

فقولها: «**يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ**» أي: يعمل به؛ لأن تأويل الأمر فِعْلُه، وتأويل النهي اجتنابُه.

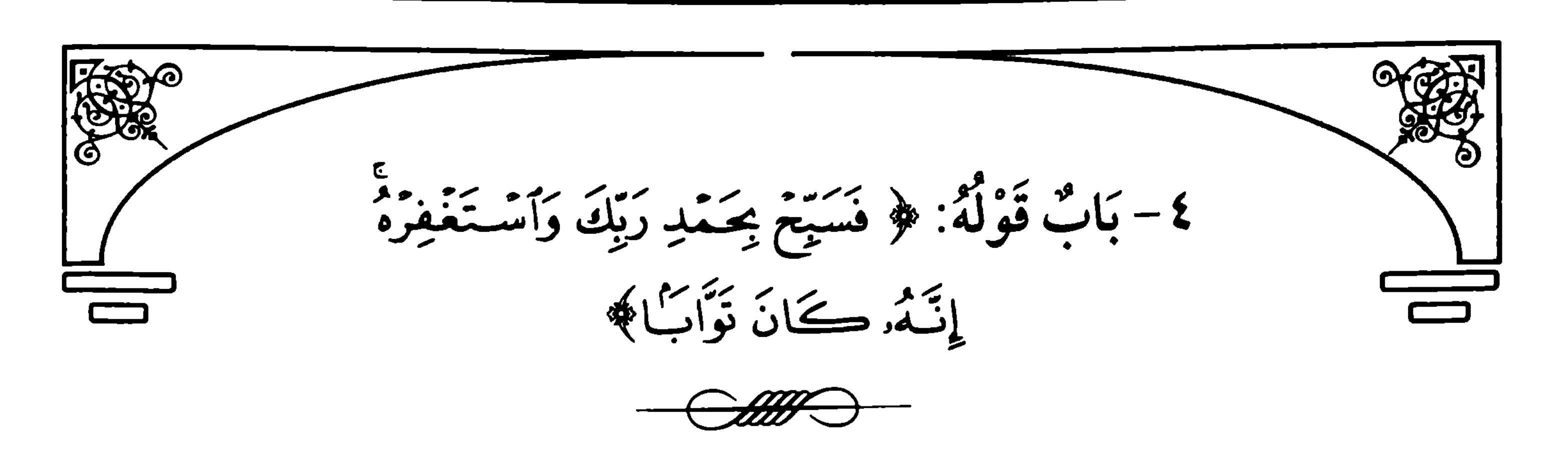


٣- بَابُ قَوْلُهُ: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾

٤٩٦٩- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَهُمْ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، قَالُوا: فَتْحُ المَدَائِنِ وَالقُصُورِ، قَالَ: مَا تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ قَالَ: أَجَلٌ أَوْ مَثَلٌ ضُرِبَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، نُعِيَتْ لَهُ نَفْسُهُ[١].

[١] قوله: «نُعِيَتْ لَهُ نَفْسُهُ» أي: أُخْبِر بموته، وقُرْب أجله.





٤- بَابُ قَوْلُهُ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾

تَوَّابٌ عَلَى العِبَادِ.

وَالتَّوَّابُ مِنَ النَّاسِ: التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ[1].

---

[١] صار «التواب» يُطْلَق على الله عَزَّوَجَلَّ، ويُطْلَق على الإنسان، فأمَّا إطلاقه على الله فمعناه: المُوَفِّق للتوبة، القابل لها.

فدليل الأول: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٨]، أي: وفَّقهم للتوبة حتى تابوا.

ودليل الثاني -وهو أن التواب القابل للتوبة- قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:٢٥]، وقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر:٣]، هذا إذا كان «التواب» اسمًا لله عَزَّوَجَلَّ.

أمَّا إذا كان وصفًا للمخلوق فمعناه كثير التوبة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، ولهذا يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تَوَّابٌ عَلَى العِبَادِ» بمعنى: قابل لتوبتهم، «وَالتَّوَّابُ مِنَ النَّاسِ: التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ».

والتوبة في اللغة: الرجوع، وفي الشرع: الرجوع من معصية الله إلى طاعته، وشروطها خمسة:

الأول: الإخلاص لله. **والثاني:** الندم.

٤٩٧٠ - حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ: لِـمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا، وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَـى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا، وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ، فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَعْلَمَهُ لَهُ، قَالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ وَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ[١].

والثالث: الإقلاع عن الذنب، ويتضمَّن رد الحقوق إلى أهلها إذا كان بين الإنسان وبين الناس.

والرابع: العزم على ألَّا يعود.

والخامس: أن تكون التوبة في وقت القبول.

وأمَّا الإنابة فهي أخصُّ من التوبة؛ لأن «أناب» بمعنى: رجع رجوعًا كاملًا مع الإقبال، وأمَّا التوبة فلا تتضمَّن معنى الإنابة، فالإنابة أخصُّ منها، مثل: الرأفة والرحمة، فالرأفة أخص.

[١] في هذا الحديث عدَّة فوائد، منها:

١ - أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وهو الخليفة الراشد المُلْهَم المُحدَّث، لو كان

....

= في هذه الأمة مُحَدَّثون لكان عمر، كما قال الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[1]- كان لا يستغني عن الناس، وإحضارهم، والمباحثة معهم.

٢- أن الصغير يكون كبيرًا بما معه من العلم، فابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بمنزلة الأولاد لهؤلاء الأشياخ الكبار، لكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان ذا علم عظيم، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُجِلُّه كثيرًا.

٣- طرح المسألة على الحاضرين لاختبارهم؛ لأن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طرحها.

٤- أن المجيب إذا أجاب بالخطإ في مثل هذا الموضع لا يُعَدُّ قائلًا برأيه، بل له أن يُجيب بما يرى في تلك الساعة، ويُصَحَّح، وهذه تقع كثيرًا لبعض الطلبة في الاختبار، يُسْأَل عن معنى الآية في التفسير، ولا يستحضر ما قال العلماء فيها، فيخشى أن يقول فيها شيئًا برأيه، ويتهيَّب من هذا، مع أن رأيه قد يكون صوابًا، فيُقال: إن هذا ليس رأيًا جازمًا ينتهي الإنسان منه، ولكنه رأي معروض على مَن هو أعلم، فإن صحَّ صُحِّح، وإن كان خطأً رُدَّ، فهؤلاء الجماعة الذين سألهم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخطؤوا في فهم الآية، فالآية ظاهرها كما قالوا، لكن يُراد بها مغزى، وهو إشعار النبي ﷺ بأن أجله قد اقترب، فإذا جاء النصر والفتح، ودخل الناس أفواجًا لا أفرادًا، فهذا دليل على أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد قَرُب أجله؛ لأن رسالته الآن قويت وانتشرت.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب مناقب عمر، رقم (٣٦٨٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر، رقم (٢٣٩٨/ ٢٣) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

....

٥- أن الإنسان لا بأس أن يُورد الاعتراض على الخليفة ومَن هو أكبر منه؛ لأن هؤلاء الأشياخ -أشياخ بدر، وقد غفر الله لهم- اعترضوا على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قالوا: كيف تأتي به، وأبناؤنا مثله، ولم تأتِ بهم؟

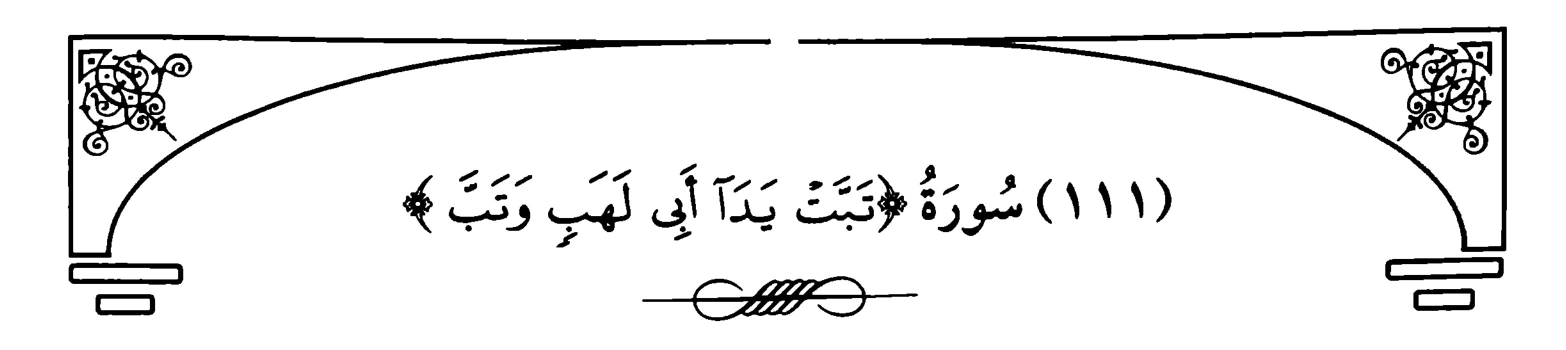
وقد يُقال: إن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين قالوا لعمر هذا ليس قصدهم الاعتراض، وإنما قصدهم الاستكشاف والاستبيان، ولماذا يفعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الشيء؟!

٦- أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قد عُلِمَ فضله بين الصحابة؛ لقوله: «**إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ**»، يعني: مَن قد عرفتم فضله، وفي نسخة: «إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ»

٧- سكوت الإنسان عمَّا لا يعلمه؛ لقوله: «**وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ**».

٨- تشجيع المصيب؛ لقوله: «**مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ**»، فإن هذا تشجيع لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن يقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له هذا القول.





(١١١) سُورَةُ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾

تَبَابٌ: خُسْرَانٌ[١].

تَتْبِيبٌ: تَدْمِيرٌ[٢].

٤٩٧١- حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ مُوسَى: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ: حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: (**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**)[٣] خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: «يَا صَبَاحَاهْ!» فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ،

---

[١] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر:٣٧]، أي: في خسران.

[٢] هذا في قول الله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:١٠١]، أي: تدمير.

وأشار المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا إلى أن قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ بمعنى: خسرت ودمرت وهَلَكَت.

[٣] قوله: «وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» إمَّا أن تكون قراءةً لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولكن إذا صحَّت فهي شاذَّة من حيث القراءات السبع، وإمَّا أن تكون من باب عطف التفسير، أي: أن معنى ﴿عَشِيرَتَكَ﴾ رهطك، لكن لا يستقيم أن تكون ﴿الْأَقْرَبِينَ﴾ بمعنى: المُخْلَصين، فالأقرب أن هذه قراءة نُسِخَت.

فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟»[١] قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ! مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟! ثُمَّ قَامَ، فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ وَقَدْ تَبَّ، هَكَذَا قَرَأَهَا الأَعْمَشُ يَوْمَئِذٍ[٢].

---

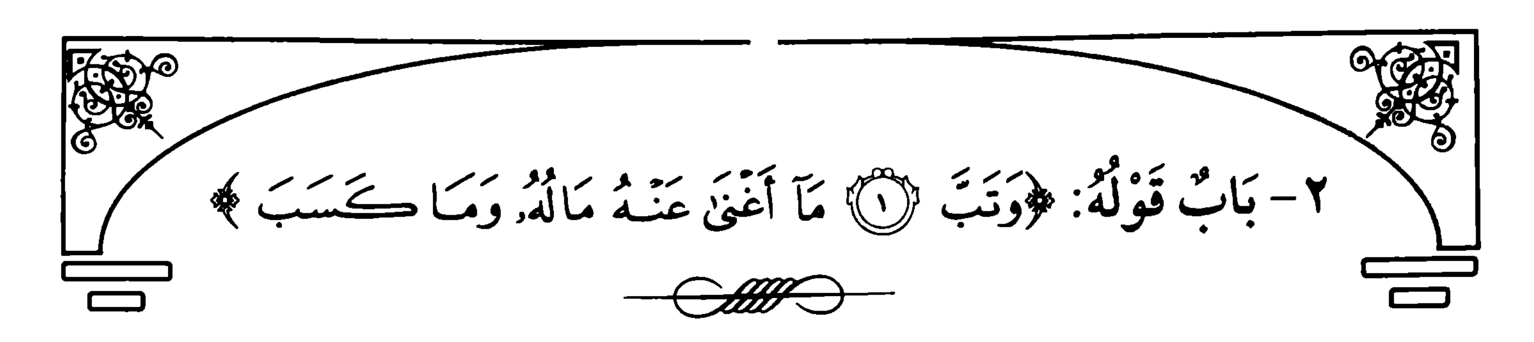
[١] قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» كان مقتضى السؤال أن يكون الجواب: «نعم، نُصَدِّقك»، لكنهم فيهم شيء من الجاهلية، قالوا: «**مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا**»، يعني: وأمَّا قولك هذا فلا ندري، هذا هو المتبادر، وهذا من عنادهم، والعياذ بالله.

فإن قال قائل: لكن في الرواية الآتية أنهم قالوا: «نعم»!

قلنا: الروايتان مختلفتان في السياق، فرُبَّما وقع هذا مرَّتين، ثم نزلت الآية بعد ذلك.

[٢] **في هذا:** دليل على أن الإنسان قد يكفر به مَن هو أقرب الناس إليه، فإن أبا لهب عمُّ النبي ﷺ، ومع ذلك وبَّخه هذا التوبيخ، واحتقر ما جمعهم له، فقال: ألهذا جمعتنا؟! مع أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال الحق: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»، يعني: إذا بقيتم على كفركم وشرككم فترقَّبوا العذاب الشديد.





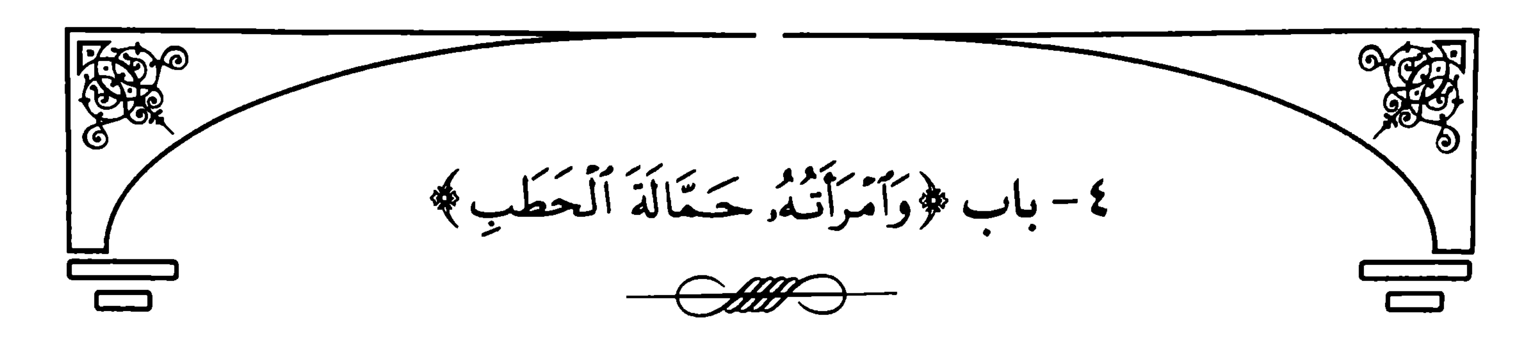
٢- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾

٤٩٧٢- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ: أَخْبَرَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ: حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى البَطْحَاءِ، فَصَعِدَ إِلَى الجَبَلِ، فَنَادَى: «يَا صَبَاحَاهْ!» فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثْتُكُمْ أَنَّ العَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ أَوْ مُمَسِّيكُمْ، أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟! تَبًّا لَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ إِلَى آخِرِهَا.

٣- بَابُ قَوْلِهِ: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾

٤٩٧٣- حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ: حَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ: حَدَّثَنِي عَمْرُو ابْنُ مُرَّةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ! أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟! فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ إِلَى آخِرِهَا.





٤- باب ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾

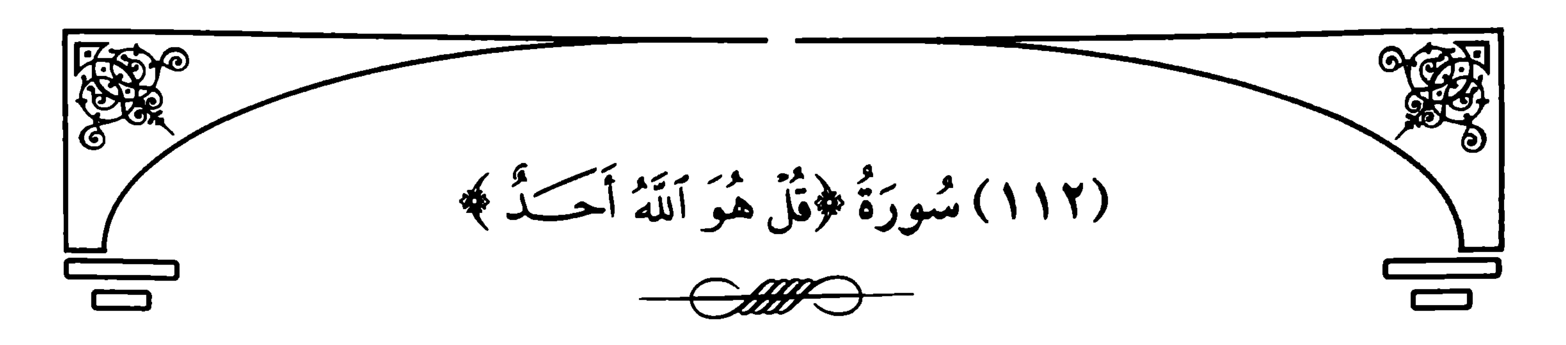
وَقَالَ مُجَاهِدٌ: حَمَّالَةُ الحَطَبِ: تَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ.

﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ يُقَالُ: مِنْ مَسَدٍ: لِيفِ المُقْلِ، وَهِيَ السِّلْسِلَةُ الَّتِي فِي النَّارِ[١].

---

[١] الأصح أن هذا في الدنيا، والمقصود بذلك: تهجين هذا الرجل، والحط من نُبْله وقدره: أن امرأته وظيفتها تحمل الحطب، وبدلًا من أن يكون في عُنُقها سلاسل الذهب والفضة، كان فيها حبل من ليف، ولا شَكَّ أن هذا فيه ازدراء واحتقار لهذا الرجل، فقد خسر الدنيا والآخرة، والعياذ بالله.





(١١٢) سُورَةُ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾

يُقَالُ: لَا يُنَوَّنُ ﴿أَحَدٌ﴾ أَيْ: وَاحِدٌ[١].

١- بابٌ

٤٩٧٤- حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ: حَدَّثَنَا شُعَيْبٌ: حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ، وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْئًا أَحَدٌ**»[٢].

---

[١] يعني: لا يُنَوَّن في حال الوصل، فيقال: «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدُ اللهُ الصَّمَدُ»، ولكن المشهور أنه يُنَوَّن، وهو المعروف في اللغة العربية.

ومعنى ﴿أَحَدٌ﴾ أي: واحد في ربوبيته، وأُلوهيته، وأسمائه وصفاته.

[٢] كلمة ﴿كُفُوًا﴾ فيها ثلاث قراءات كلها سبعيات:

الأولى: بالواو وضم الفاء ﴿كُفُوًا﴾.

والثانية والثالثة: بالهمز، وفي الفاء الضم والسكون: (**كُفُؤًا**) و(**كُفْأً**)(١).

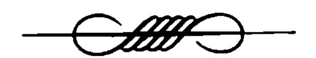
---

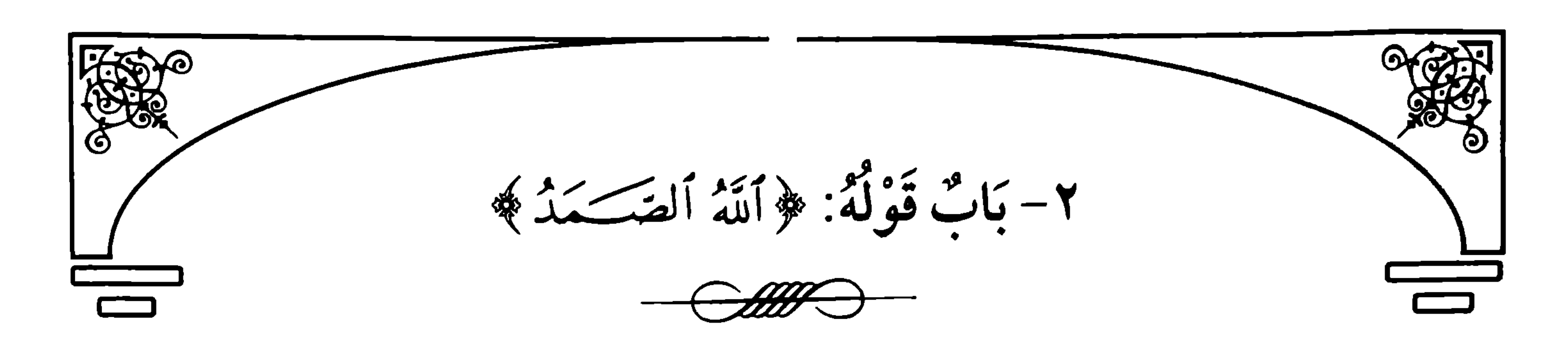
(١) قرأ حفص بالواو مع ضم الفاء، وقرأ حمزة بالهمز مع سكون الفاء، وقرأ الباقون بالهمز مع ضم الفاء، ينظر: التبصرة في القراءات السبع، (ص:٤٢٣).

....

= أمَّا السكون مع الواو «كُفْوًا» فلا يصحُّ أن يُقْرَأ بها.

والأفضل أن يقرأ الإنسان بهذا مرَّةً، وبهذا مرَّةً، إلا أمام العامَّة، فلا يقرأ إلا بما في المصحف؛ لئلا يفتتن الناس، إن غيَّر عمَّا في المصحف اشتبه عليهم.





٢- بَابُ قَوْلُهُ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾

وَالعَرَبُ تُسَمِّي أَشْرَافَهَا: الصَّمَدَ.

قَالَ أَبُو وَائِلٍ: هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي انْتَهَى سُودَدُهُ[١].

٤٩٧٥- حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي لَنْ أُعِيدَهُ كَمَا بَدَأْتُهُ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ أَلِدْ، وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُؤًا أَحَدٌ»**[٢].

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

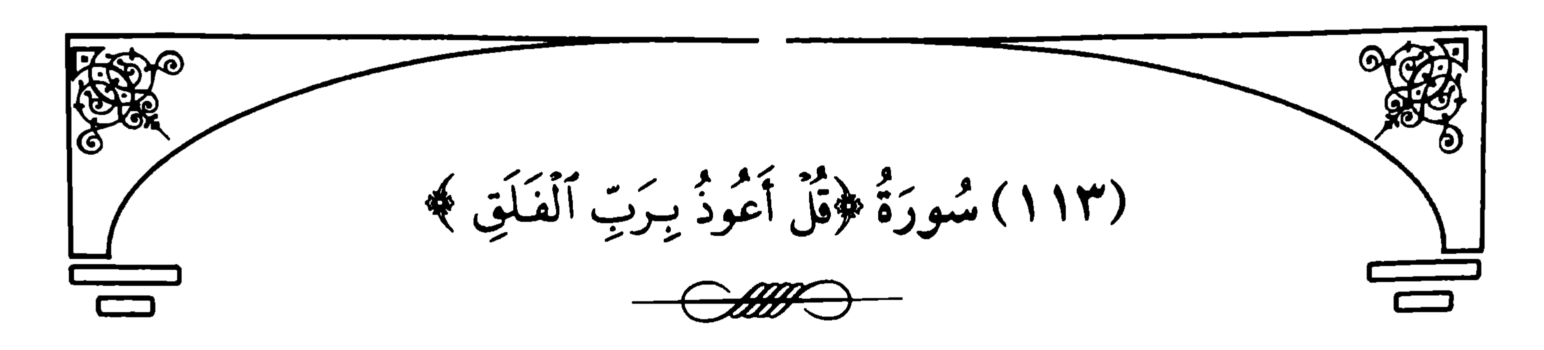
كُفُؤًا وَكَفِيئًا وَكِفَاءً وَاحِدٌ.

---

[١] قوله: «**انْتَهَى سُودَدُهُ**» في ظاهره إشكال؛ لأن ظاهره أن لسُؤْدَد الله مُنتهى، ولكن نقول: مراده: انتهى إلى الكمال، بحيث لا يكون شيء فوقه إطلاقًا، فسُؤْدَد الله وعلمه وسمعه وبصره وجميع صفاته كلها في غاية الكمال، وإذا قلنا في غاية الكمال فليس معناها: أن لها مُنتهى، لكن مهما قدَّرت من كمال فهي فوق ذلك.

[٢] السياق الأول أتمُّ وأحسن؛ لأن فيه التصريح بأنه مرفوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ.





(١١٣) سُورَةُ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الفَلَقُ الصُّبْحُ.

وَ﴿غَاسِقٍ﴾ اللَّيْلُ.

﴿إِذَا وَقَبَ﴾ غُرُوبُ الشَّمْسِ، يُقَالُ: أَبْيَنُ مِنْ فَرَقِ وَفَلَقِ الصُّبْحِ، ﴿وَقَبَ﴾ إِذَا دَخَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَأَظْلَمَ[١].

---

[١] المستعاذ به هنا هو الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

وقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يشمل نفس الإنسان، كما قال النبي ﷺ: «**نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا**»(١).

وقوله: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يعني: الليل، قال الله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء:٧٨]، ومَن فسَّره بالقمر فلأن القمر آية الليل.

وقوله: ﴿وَقَبَ﴾ أي: دخل.

وانظر المناسبة بين قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وقوله: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، فإن الفلق فيه إصباح، والإصباح نور يطرد الظُّلمة.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح، رقم (٢١١٨)، والترمذي: كتاب النكاح، باب ما جاء في خطبة النكاح، رقم (١١٠٥)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب كيفية الخطبة، رقم (١٤٠٥)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، رقم (١٨٩٢).

....

= وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ أي: الساحرات اللاتي ينفُثن ويَعْقُدن السحر بعُقَد معروفة عندهنَّ.

وقوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ الحاسد رجل شرِّير لا يحبُّ الخير لغيره، وإذا حسد -أي: بغى بحسده- صار شرُّه أكثر، ومنه: صاحب العين الذي يُؤذي بعينه.

وهذه العين التي تُصيب الإنسان هي عبارة عن انفعالات نفسيَّة خبيثة، تخرج من هذه النفس الخبيثة إلى الهدف الذي توجَّهت إليه، فتُصيبه، نسأل الله العافية.

والحسد لا يأتي إلا لقلَّة عقل الإنسان، وقلَّة دينه، أمَّا قلَّة دينه فلأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء:٥٤]، فالذي مَنَّ عليهم بهذا الفضل ينبغي لك أن تسأله أن يمُنَّ عليك، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢].

وأمَّا كونه نقصًا في العقل فلأن الحاسد في أذى، وفي هَمٍّ، وفي غَمٍّ، نارُ حسده قد أحرقت قلبه، وكلُّ نعمة يُنْعِم الله بها على غيره يتألَّـم لها تألُّـمًا شديدًا، ويتعذَّب بها، ولو أنه سَلَك مسلك العقلاء لكان همُّه أن ينظر ماذا صنع هو بنفسه؟ ويسأل الله من فضله، كما قال العامَّة: «امش بدربك، واترك غيرك»، فإذا نظر الإنسان ماذا عليه من العمل والنتيجة لم يهمَّه غيره، أمَّا أن يتتبَّع الناس: ماذا حصل لهذا الإنسان من مال؟ ماذا حصل له من أولاد؟ ماذا حصل له من زوجة؟ ماذا حصل له من سيَّارة؟ من بيت؟ من علم؟ من جاهٍ؟ وما أشبه ذلك، فثِقْ أنه سوف يندم ندمًا عظيمًا، وسوف يلحقه الهمُّ، وعلى الإنسان أن يشقَّ طريقه بنفسه، ويدع عنه عباد الله.

....

= **فإن قال قائل:** لكن يُوجَد مَن هو من أهـل الدين والصلاح، ولكنـه مُبْتَلى بأن يُصيب بعينه!

قلنا: لابُدَّ أن في قلبه بلاءً، فمثلًا: إذا ذُكِرَت له نعمة على شخص فزَّ قلبه، لكن بعض الناس قد يحصل منه هذا بغير اختياره، فهذا لا يُحاسَب عليه، ولا يُعاقَب؛ لأنه بغير اختياره، لكن يجب عليه أن يردَّ هذا الشيء بأن يستغسل، ويصبَّ الماء على الذي أُصيب.

والحسد كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تَحَاسَدُوا**»[1]، وقال: «**إِيَّاكُمْ وَالحَسَدَ؛ فَإِنَّ الحَسَدَ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ**»[2].

لكن قد يقول قائل: إن الإنسان يحبُّ أن يكون هو المُتقدِّم على غيره، فنقول: حبُّ التقدُّم ليس حسدًا، وكلُّ إنسان يحبُّ أن يتقدَّم على غيره، ولكن الحسد أن تتمنَّى زوال نعمة الله على غيرك، وإذا أنعم الله على غيرك نعمةً تحسَّرت منها، واهتممت، واغتممت، فهذا هو الحسد.

وهنا قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأن الحاسد قد لا يبغي على غيره، بمعنى: أنه يكون في قلبه كراهة لِمَا أنعم الله به على الغـير، لكن لا يسعى لإزالة هذه النِّعم، ولكن إذا حسد صار هذا أشدَّ وأعظم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى من التحاسد، رقم (٦٠٦٥) (٦٠٦٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم التحاسد والتباغض، رقم (٢٥٥٩/ ٢٣)، وفي باب تحريم الظن، رقم (٢٥٦٣/ ٢٨) عن أنس وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في الحسد، رقم (٤٩٠٣).

٤٩٧٦- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَاصِمٍ وَعَبْدَةَ، عَنْ زِرِّ ابْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ عَنِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ، فَقَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**قِيلَ لِي، فَقُلْتُ**»، فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ[١].

---

[١] يعني كأنه قيل: لماذا تُكرِّر الأمر من الله في قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾؟

فقيل: لأنه قيل له هكذا، فقال، وفائدة تكرار الأمر: شعور الإنسان بأن هذا بإرشاد من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الإنسان لو قال: «أعوذ بربِّ الفلق» كما يقول: «أعوذ بكلمات الله التامَّات من شرِّ ما خلق» لم يشعر أن الآمر له بذلك هو الله عَزَّوَجَلَّ، فأمَّا إذا قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فإنه يشعر حينئذ أن الآمر هو الله، كما لو قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أيضًا، فلا يقول: «هو الله أحد»، بل يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ ليشعر أن هذا القول بأمر من الله.

وهنا فائدة: نُقِلَ عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه أنكر أن المعوذتين من القرآن(١)، وقد تأوَّلوه بتأويلين:

أحدهما: أنه لم يُنْكِر أنهما من القرآن، وإنما أنكر كتابتهما؛ لأنه لم يُؤْذَن بكتابتهما.

والثاني: أنه أنكر أنهما من القرآن بناءً على أن ذلك لم يثبت عنده عن النبي ﷺ.

وهناك وجه ثالث، وهو أنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مُتأوِّل؛ لأنه يقول: «هاتان آيتان أُمِرَ النبي ﷺ بالتعوذ بهما»، فظنَّ أنهما ليس قرآنًا، وإنما نزلتا لسبب خاص انقضى في وقته، وهو سِحْرُ النبي ﷺ.

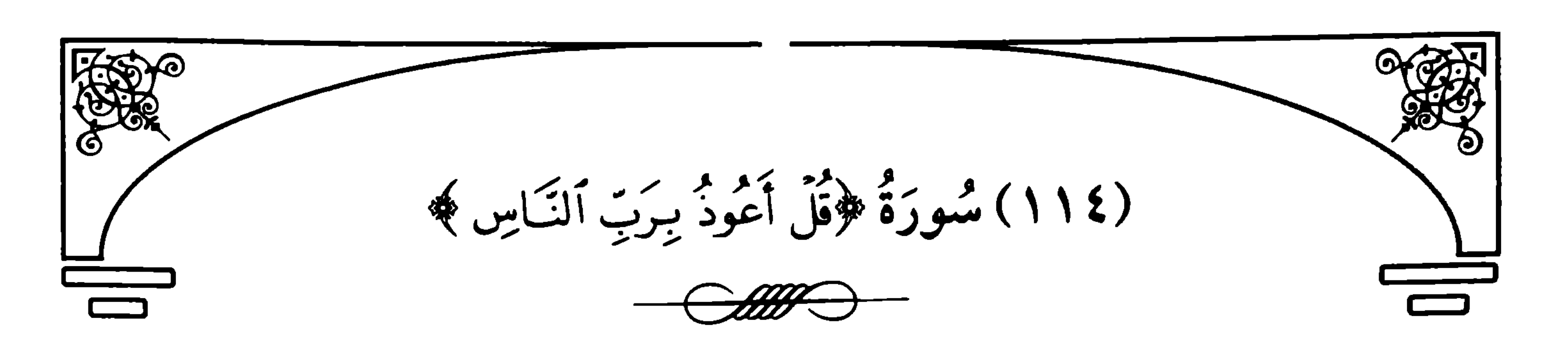
---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ١٢٩).

....

= وعلى كل حال: فالمسلمون الآن مُجْمِعُون على أنهما من كتاب الله، وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعْتَذر عن فعله، ولا يُحْتَجُّ به؛ لأن مقامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس مقام احتجاج، وإنما هو مقام يُعْتَذر عنه فيه ويُدافَع عنه؛ لأن المسلمين مُجْمِعُون على هذا، وإن كان هذا الإجماع ليس شاملًا لكل عصر؛ لأن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يُوافق الإجماع، ولكن قد استقرَّ الإجماع بعد ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.





(١١٤) سُورَةُ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ إِذَا وُلِدَ خَنَسَهُ الشَّيْطَانُ، فَإِذَا ذُكِرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ذَهَبَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ ثَبَتَ عَلَى قَلْبِهِ.

٤٩٧٧- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ أَبِي لُبَابَةَ، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، (ح) وَحَدَّثَنَا عَاصِمٌ، عَنْ زِرٍّ، قَالَ: سَأَلْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، قُلْتُ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ! إِنَّ أَخَاكَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ أُبَيٌّ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لِي: «قِيلَ لِي، فَقُلْتُ»، قَالَ: فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

تَمَّ الْمُجَلَّدُ الْعَاشِرُ بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ

وَيَلِيهِ بِمَشِيئَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمُجَلَّدُ الْحَادِي عَشَرَ

وَأَوَّلُهُ كِتَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ



فهرس موضوعات التعليق

